بونابرت فى مصر

ج. كرستوفر هيرولد

ترجمة : فؤاد أندراوس

مراجعة: د. محمد أحمد أنيس



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة ١٩٩٨

الأعمال الفكرية

الهيئة المصرية العامة للكتاب

اهداءات ٢٠٠٢

الأستاذ/ الحسيني آمين حنتيره

الإسكندرية

بونابرت فى مصر

بونابرت في مصر

تأليف : ج. كرستوفر هيرولد

ترجمة : فـؤاد أنـدراوس

مراجعة : د. محمد أحمد أنيس

مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

بونابرت فى مصر

ج. كرستوفر هيرولد

ترجمة : فـؤاد أنـدراوس

مراجعة:د.. محمد أحمد أنيس

الغلاف:

الإشراف الفنى:
للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سـمير سـرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

الى

كرستوفر ديفد هيرولد

مقدمة المؤلف

لم يكن هدفى حين شرعت فى تأليف هذا الكتاب الا أن أروى مغامرة من أشد مغامرات العصور الحديثة اثارة للمشاعر . متوخيا الصدق فى هذه الرواية ما استطعت اليه سبيلا · واذ تقدم العمل فى الكتاب لم تفتر الاثارة ولم تضعف ، ولكن صعوبة الوصول الى الحق واقامة الدليل عليه وضحت أكثر فأكثر · وقد يكون أنسب للمؤلف لو استطاع الوصول الى يقين مستند الى الحقائق فى أمر ما وقع من أحداث باستخدامه مختلف الطرق « العلمية » لتحليل حصيلة الشواهد المستقاة من الوثائق · وشهادة الوثائق مهما تبين زيفها يجب ألا تهمل بالطبع ، ولكن ينبغى النظر اليها بغاية الحذر أينما تعارضت مع الادراك الفطرى السليم · والمؤرخ كأى عضو متواضع من محلفى المحكمة مضطر ، بعد كل شىء ، الى الاستعانة بفطرته وبما خبر من شئون البشر لاستكمال النقص فيما يعرض له من أقوال متضاربة ، والا كان غبيا ·

وقد حاولت بما وسعني من تدقيق أن أعرض على القارىء الحق « الراجح » وهذا الحق لا يظهر نابليون بونابرت ولا الجنـود والمدنيين الفرنسيين الذين اشتركوا فى حملته المصرية فى صورة طيبة جدا ، ولكن يجب ألا يكون فى هذا ما يضلل القارىء فيحسب نابليون ورجاله أكثر من سائر البشر شرا أو أنانية أو ضراوة . فتاريخ الحملات الاستعمارية قاطبة منذ فتح المكسيك ، اذا درس دراسة صحيحة ، ليس فيه ما يشرف الطرف المتحضر من طرفى الصراع أكثر مما يشرف تاريخ الحملة المصرية الفرنسيين · وليذكر القارىء أن الجنود والمدنيين الفرنسيين الذين شاركوا فى الحملة المصرية كانوا خارجين لتوهم من ثورة هى أشد الثورات التى سجلها التاريخ وحشية · وليس فيما أتوه بمصر أو بسوريا ، حتى فى معمعان المعركة ، ما يعدل فى هوله وفظاعته حركة ندت خلال حكم الارهاب عن سيد من « آراس » يصحب سيدتين الى المسرح : وكانت الجيلوتين منصوبة في مواجهة المسرح ، ونهر صغير من الدماء ينساب فى مصرف لابد من

عبوره ، وانحنى السيد وغمس أصابعه فى المصرف ، ثم رفع يده والدم يقطر منها قائلا : « ما أجمل وما أبدع ! » .

أما بعد فان أكبر عمدة فى تاريخ حملة بونابرت على مصر كتاب وضعه منذ نصف قرن « المركيز دلاجونكيير » فى خمسة مجلدات تضم أكثر من ثلاثة آلاف صفحة كبيرة مطبوعة بحروف صغيرة . ومنذ ظهور هـذا الكتاب وكل المؤلفين فى هذا الموضوع ينقلون عنه فى غير تحرج ، ولكن احدا منهم لم يوفه حقه من الاعتراف بالفضل . لا بل ادعى أكثر الكتاب والمؤرخين ، شأنهم على الدوام ، أنهم فعلوا من جديد كل ما فعله لاجونكيير قبلهم ومن أجلهم . وعندى أن المؤرخين يؤلفون الكتب ليستعين بها غيرهم من المؤرخين والكتاب . وأنا على أى حال استعنت كثيرا بكتاب لاجونكيير ، وأعترف بدينى له مؤكدا وفى غير خجل . فلاجونكيير أكثر من قرأت من المؤرخين تدقيقا . وهو لم يصدر حكما على أحـد ، ولكن مجلداته الخمسـة تؤلف أكمل ملف تطمع فيه محـكمة من المؤرخين . وأعتقـد أن فى وسعى القول بكل اخـلاص أننى لم أناقض كتاب لاجونكيير فى أى نقطة فى روايتى . فلقد كان لاجونكيير ضابطا فى الجيش الفرنسى ، ألف كتابه تحت رعاية وزارة الحرب الفرنسية مستندا الى وثائق غير منشورة يفوق عددها ما أتيح لأى كاتب بعده . والى أؤكد هذه الحقائق لأن وطنية المركيز دلاجونكيير واحترامه لبونابرت لا يرقى اليهما الشك . ومع ذلك فليست بى رغبة فى التستر وراء كتابه ، وأنا أضطلع بكامل المسئولية عن النتائج التى خلصت اليها من الشواهد التى قدمها لى هو وغيره من مصـادر كتابى .

كذلك أود الاقرار بدينى للكتاب الممتاز الذى ألفه « أولفر ورنر » واسمه « معركة أبو قير » (*) ، وهو أحدث الكتب فى هذا الموضوع ، وأفضلها وأوجزها فى رأيى ..

نيويورك فى أول سبتمبر ١٩٦٢ ج. كرستوفر هيرولد

(*) The Battle of The Nile (Batsford, 1960).

الفصـــل الأول

طولون

١

فى الساعة السادسة من صباح ١٩ مايو ١٧٩٨ أصدرت بارجة أمير البحر الفرنسـية « لوريان » (أى الشرق) التى يقودها الكابتن كازابيانكا الأمـر بالاقلاع الى سفن الأسطول والقافلة التي تجمعت فى ميناء طولون • ومرت نحو مائة وثمانين سفينة خلال الساعات الثمانى التالية أمام لوريان التى كانت تشمخ فوقهن كالحصن بمدافعها ذات الصفوف الثلاثة ، المؤلف كل منها من أربعين مدفعا • ثم راحت سفن الأسـطول تمخر العباب فى شيء من المشـقة متجهة صوب كورسيكا بعد أن صادفتها ريح نشطة • ولا بد أنه كان مشهدا يبهر الأنفـاس ، فقد ضم هذا الأسطول القهار ثلاث عشرة بارجة تحمل فيما بينها ١٠٢٦ مدفعـا ، و ٤٢ فرقاطة ومركبا خفيفـا وزورق بريد وغيرها من صغار السفن ، و١٣٠ ناقلة من شتى الأنواع ، وعلى ظهر هذه السفن والناقلات نحو ١٧٫٠٠٠ جندى ، ومثلهم من الملاحين والجنود البحريين ، وأكثر من ألف قطعة من مدفعية الميدان ، و ١٠٠٫٠٠٠ قطعة من الذخيرة ، و ٥٦٧ عربة ، و ٧٠٠ حصان • وكان المقرر أن ينضم الى الأسطول قبل وصوله الى غايته — التى لا يعرفها غير حفنة من الرجال ثلاث قوافل أصغر منه ، من جنوه وأجاكسيو وشفيتا فكيا ، وبها يبلغ مجموع الرجال زهاء ٥٥٫٠٠٠ ومجموع السفن قرابة ٤٠٠ (*) • وهذا الأسطول يشغل فى عرض البحر مساحة تتراوح بين ميلين

(*) نضيف هنا توخيا للدقة أن بارجتين من بوارج الأسطول اقلعتا من طولون فى الليلة السابقة •

وأربعة أميال مربعة ، وحين ألقى مراسيه أمام البقعة التى انتهى اليها مطافه كان مشاهدوه من البر لا ينظرون « بحرا ، بل سماء ومراكب ، فوقع عليهم خوف عظيم ووهم جسيم ، شيء لا يقدر » (١) ٠

كذلك كتب نقولا الترك ، وهو شاعر عربي أرخ لما وقع بعد هذا من أحداث ٠

***

وعلى ظهر البارجة لوريان وقف الجنرال بونابرت ، عضو المجمع العلمى والقائد الأعلى للقوات البرية والبحرية التى تؤلف « الجناح الأيسر لجيش انجلترة » يرقب السفن وهي تنساب أمام بارجة القائد وتحييها فى أثناء عبورها. واذا كان انسان يعرف الغرض من تجريد هذه الحملة فهو هذا الانسان ٠ ولكن أحدا من الناس لا يستطيع الى اليوم أن يعرف على التحقيق الدوافع التى حفزته لتولى قيادتها ، ولعله هو نفسه لم يعرفها ٠

كان يومها رجلا قصير القامة شاحب اللون رقيق البدن تبدو قبعته وحذاؤه أوسع مما يناسبه ٠ وكانت النساء يكنينه « القط المحتذى » ٠ على أنه كان يحتوى بين جنبيه من الطاقة المكتنزة ما يوحى للناظر بفكرة النمر المتحفز للوثوب لا القط الغريب اللباس ، وكان فى النظرة الهادئة الباردة التى يطالع بها الناس من عينيه الرماديتين صفة تبعث التفانى فى قلوب البعض ، والرعب فى قلوب الجميع ، ولا تبعث الحب فى قلب أحد ٠ وكان قد بلغ فى عامه التاسع والعشرين آنذاك من علو المكانة ، وحقق من المجد والسؤدد فوق ما يطمع أكثر الناس طموحا فى بلوغه وتحقيقه فى عمره كله ان لم يكن فى أحلامه غلو وشطط ٠ ففى طولون هذه ، وقبل خمس سنوات فقط ، رسا بأفراد أسرته بعد أن طرد من وطنه كورسيكا طرد الخونة المارقين ٠ وهنا ، وبعد هذا الحادث بشهور قليلة فقط ، أصاب الكبتن بونابرت ضابط المدفعية فجأة قسطا متواضعا من الشهرة بعد أن كان نكرة ، وأكسبه الدور الذى لعبه فى انتزاع طولون من الانجليز والملكيين المدافعين عنها الترقية لرتبة قائد اللواء ٠ وهنا شهد « محسوب » أخى روبسبيير ، بشعور لا يخلو من التقزز ، مذبحة أقرب الى مذابح أكلة لحوم البشر ، فتك فيها « الوطنيون » الثوار بالسكان الملكيين ٠ منذ ذلك التاريخ ، وبعد عامين ظل فيهما مغمورا وكان عليه خلالهما أن يحيا حياة تمحو من الأذهان ذكرى صلاته الماضية باليعاقبة ، نال الحظوة عند حكومة الادارة التى أنقذ حياتها يوم أمر رجاله بأن يطلقوا مدافعهم على جمهور من المتظاهرين ، وتزوج خليلة سابقة لأحد أعضاء حكومة الادارة ، وعين قائدا للقوات الفرنسية فى ايطاليا ، فوجد جيشا واهن العزيمة ، جائعا ، مهلهلا قاده من نصر الى نصر ، وفتح أكثر ايطاليا ، وأبرم الصلح مع الامبراطور ، وقضى على جمهورية البندقية ، واستولى على الجزر الأيونية ، ثم قفل ظافرا الى فرنسا وقد ذاع صيته بين الناس

محاربا لا يقهر، وسياسيا أحكم من سنى عمره ، وبطلا من طراز الأبطال الأقدمين.
قال نقولا الترك يصفه بعد ذلك بقليل فى قصيدة يمدح بها بونابرت ودولته :

مقـــدامها ذو ســـطوة تهـــدى الملوك له الوقار
الشـــــــهم بونابرتة أســـد الوغى ذو الاقتـــدار
من فاق قـــدرا وارتقى أوج العـــلا وسما الفخار
مولى شديد البطش مـــن عاداه حـــل به الدمـــار
ملـــك تـــولى رتبـــة خضعت له القـــوم الكبار
قهـــــر الممـــالك جمـــــة وقضى المـــراد بما أشار (*)

وهى بلاغة شرقية ، ولكنها تعبر عن الفكرة الشائعة عن بونابرت آنئذ ، وهى فكرة شارك فيها الغرب الشرق بوجه عام ٠

وترك الأبطـال العاطلين يتســكعون بلا عمل خطر أى خطر ٠ فلما عـاد بونابرت من انتصـاراته الايطالية فى ديســمبر ١٧٩٧ ، كانت حكومة الادارة سبقت فعينته لقيادة « جيش انجلتره » الذى كـان يجمع على ســاحل القنـال الانجليزى تمهيدا لغزو الجزر البريطانية ٠ وهناك تضـارب فى الأدلـة على أنه فكــر ، أو لم يفكر جديا ، فى وقت من الأوقات ، فى امكـان القيـــام بغزوها بنجاح ، فاذا كان قد فكر ، فان هذا التفكير كان قصير الأجل (**) ٠ ذلك أنه بعد جولة تفتيشية سريعة بمناطق تنفيذ الغزو المزعوم قام بها فى فبراير ١٧٩٨ ، كتب لحكومـة الادارة تقريرا يقول فيه ان الموارد العســكرية والماليـة المتاحـة ناقصة نقصا شـــديدا ، وانه ربما كانت اللحظـة المواتية للغزو قد فاتت الى الأبد ، وان على فرنسا أن تختار بين ثلاث : فاما أن تعقد الصلح مع انجلتره ، واما أن تغزو هانوفـا بـدلا من الجزر البريطانيـة ، واما أن تســتولى على مصر

(*) القصيدة واردة فى كتاب « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية تأليف معلم نقولا التركى » ــ نشره بباريس المستشرق ديجرانج (١٨٣٩) ، وفى « ديوان المعلم نقولا الترك » ــ ضبط نصوصه ووضع مقدمته وفهارسه فؤاد افرام البستانى ببيروت (١٩٤٩) ٠ ونقولا الترك ، ابن يوسف ترك ، (١٧٦٣ ــ ١٨٢٨) لبنانى كاثوليكى ، ولد بدير القمر بسوريا ، وتنحدر أسرته من القسطنطينية ، وكان من أتباع الأمير بشير زعيم الدروز ، أوفده الى مصر ابان الحملة الفرنسية فلبث بدمياط ثلاث سنين يرقب الأحداث ويسجلها ، وعاد بعد خروج الفرنسيين الى دير القمر ٠ والنصوص الواردة فى هذا الكتاب منقولة عن « مذكرات نقولا الترك » التى نشرها وترجمها وعلق عليها جاستون فييت (القاهرة ــ مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية)٠ وللمذكرات قيمتها التاريخية لما فيها من دقة ملاحظة ، وان كانت « لغة العرب لم تعن تماما لحفيد اليونان » كما قال ناشر ديوانه ، وهذا واضح فى شعره ، ونثره المسجوع على السواء ٠ (المترجم)

(**) لا شك فى أن الفكرة راودته جديا بالطبع فى فترة متأخرة ، من ١٨٠٣ حتى أصابته كارثة « الطرف الأغر » ٠

فتقطع بذلك شريان الحياة بينها وبين الهند • واستقر الرأى على المشروع الأخير فى ظروف ولأسباب سنراها : ولم يكن المشروع جديدا قط ، ولا كان بونابرت أول من فكر فيه •

ولا بد أن خطر تدمير الحملة تدميرا تاما كان فى ذهن بونابرت وهو يرقب فى هدوء موكب السفن الطويل • فلو أن الانجليز اعترضوا سير الأسطول • ولو بقوات أقل منه ـ لكان فى ذلك القضاء المبرم على الحملة • ولكنه كان خطرا يرغب فى المغامرة به ، لأنه كان مقامرا وكان جنديا ، وقد حسب حسابه فى روية واتزان برغم أحلام المجد العريض التى ربما ملأت رأسه • كتب « فوفليه دبوريين » سكرتيره الخاص ورفيقه فى الفصل أيام الدراسة ، الذى كان حتى فى تلك اللحظة واقفا الى جواره ، يقول فى « مذكراته » التى جمعها فى شيخوخته كاتب مغمور ، ان بونابرت حين زحل الى مصر كانت تملأ جنبيه أطماع جديرة بالاسكندر الأكبر ، وقد نقل عنه قوله (٣) « ليست أوربا سوى تل صغير حقير • كل شىء هنا يبلى مع الزمن : لقد انقضى ما كسبت من مجد ، وأوربا الصغيرة هذه لا تتيح مجالا كافيا للأمجاد • فلابد اذن من الذهاب الى الشرق ؛ لأن كل مجد عظيم لم يظفر به أصحابه الا فى الشرق » (٤) • وربما كان بونابرت صاحب هذه العبارات حقا ، ومن المؤكد أنه كان فى جميع أطوار حياته يعود الى هذا الموضوع الذى لم يفتأ يطوف بخياله ، ألا وهو فتح الهند • وقد صرح فى جزيرة سانت هيلانه بأنه فى ايطاليا استشف لأول مرة ذلك المجد الذى يمكن أن يظفر به • « كنت أشعر يومها أن الأرض تجرى من تحتى كأننى أحمل الى السماء حملا » (٥) • وفى مصر « شعرت أننى أستطيع الاستسلام للأحلام الزاهية » (٦) •

وقد اعترف لمدام دريموزا اعترافا أكثر تحديدا فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر اذ قال : « فى مصر وجدت نفسى وقد تحررت من قيود حضارة مزعجة • كانت الأحلام تملأ رأسى •• ورأيتنى أؤسس دينا ، وأزحف على آسيا وأنا أمتطى فيلا وعلى رأسى عمامة وفى يدى القرآن الجديد الذى كنت سأؤلفه ليلائم حاجاتى • وكنت سأجمع فى مشروعاتى بين خبرات العالمين ، وأسخر لمنفعتى مسرح التاريخ كله ، وأهاجم قوة انجلتره فى الهند ، فأجدد بهذا الفتح الاتصال بأوروبا القديمة • لقد كانت الفترة التى قضيتها فى مصر أجمل فترات حياتى لأنها كانت أحفلها بالأحلام » (٧) • ولابد لنا من أن نأخذ هذه التصريحات فى شىء كثير من الحذر • ذلك أنه بفرض أن هذه الأحلام قد راودت بونابرت (ولعلها راودته فعلا) ، فانه لم يكن واثقا قط بأنها ستحقق • واذا كان قد اضطلع بفتح مصر ، فان دوافعه كانت أضيق من هذه الأحلام مدى وأضبط منها تقديرا ، ان بقاءه عاطلا بغير نشاط كان الشىء الوحيد الذى سيؤذيه لا محالة، ولو كان فتح جرينلند السبيل الوحيد لتوقى هذا العطل لقبل قيادة جيش جرينلند • ومصر أتاحت له ولا ريب فرصا أكثر اثارة والهاما •

وأيا كانت أفكار بونابرت صباح ذلك اليوم فى طولون ، فما من شك فى أن الكثرة الغالبة من رجاله البالغ عددهم ٣٤٠٠٠ رجل ، والذين أقلتهم سفنه ، لم يشاطروه اياها • لقد كان البحر ثائرا ، وأصاب دواره كل رجل فيهم تقريبا ، لا سيما من ركب منهم المراكب الصغيرة • ولم يكونوا يعرفون الى أين هم ذاهبون ، ولا كم من الزمن سيمكثون فى البحر •

ففى العاشر من شهر مايو ، عقب وصول القائد الأعلى الى طولون ، استعرض جنوده وخطب فيهم قائــلا : « أيها الضــباط والجنود ، لقد حضرت منذ عامين لأتولى قيادتكم • وكنتم يومها على ساحل ليجوريا تعانون الفاقة والعوز فى كل شىء ، حتى لقد بعتم ساعاتكم لتشتروا ما تحتاجون اليه • وقد وعدتكم أن أقضى على هذا الحرمان ، وقدتكم الى ايطاليا ، حيث أعطيتم كل شىء بسخاء • فهل بررت بوعدى لكم ؟ » •

وتذكر النشرة الرسمية « مونتور » (٢١ مايو) أن الجنود أجابوا بصيحة واحدة « نعم ! » •

وواصل بونابرت خطابه قائلا « حسنا ، دعونى أخبركم أنكم لم تفعلوا بعد للوطن ، ولا فعل الوطن لكم ، ما فيه الكفاية • وانى الآن قائدكم الى بلد تفوقون فيه بأعمالكم المقبلة ما قمتم به الى الآن من أعمال تدهش المعجبين بكم ، وستؤدون للجمهورية خدمات يحق لها أن تنتظرها من جيش لا يقهر • وانى أعد كل جندى أن يحصل عند عودته لفرنسا على ما يكفيه لشراء ستة أفدنة من الأرض » (٨) •

ومضى الخطاب على هذا النحو دقيقة أو دقيقتين • تلته هتافات « تحيا الجمهورية الخالدة » وأناشيد وطنية (*) •

وفى الخطابات التى كتبها ضباط جيش بونابرت وجنوده من مصر شواهد كثيرة على أن كثيرا منهم كانوا يتقبلون فى سذاجة شعارات العهد الوطنية • فقد ترك أغلبهم أسرهم وبيوتهم قبل سنوات وانخرطوا فى الجيش متطوعين للدفاع عن الجمهورية ضد « الطغاة » ، وكان بعضهم من الشبان الذين جندوا فى حركة التجنيد العامة • كان يؤمنون بأنهم نائلون المجد أيا كانت وجهتهم ، لأنهم سيبسطون ظلال الحرية على بلاد أخرى • ولكنهم ـ باستثناء عدد قليل منهم ـ كانوا أيضا من قدامى المحاربين فى الحملة الايطالية (١٧٩٦ ـ ٩٧) ، وكان

(*) نشرت « المونتور » فى اليوم التالى تصحيحا للخبر ، فنفت أن بونابرت ألقى هــذا الخطاب ، ونشرت خطابا يختلف نصه عن هذا اختلافا تاما • على أن مصادر مستقلة شتى تؤكد أن بونابرت ألقاه فعلا ، وأصبح الوعد بالأفدنة الستة نكتة دائمة يتندر بها الجنود الذين انقشــع الوهم عنهم فى مصر •

يشوب وطنيتهم ذكرى الغنائم والطعام الكثير والخمر والنساء ، وتوقع الظفر بهذا كله في وفرة تشرح الصدور • وكانت آمالهم معقودة على هذا أكثر مما انعقدت على رواتبهم التي أزمن تأخر صرفها منذ غادر بونابرت ايطاليا • لا ريب اذن في أن وعد بونابرت لرجاله بالغنيمة والمكافآت المادية أثار حماستهم أكثر من أي شيء آخر في خطابه • ولكن أنى تكون الغنيمة ؟ علم ذلك عند نفر قليل ، وهم صامتون • وقد أدى الجهل المتفشي بالجغرافيا وبالسياسة في ذلك العهد الى تكهنات عجيبة ؛ على أن الكثرة توقعت أن ترسو الحملة في نابلي أو صقلية ؛ أما الذين استطاعوا ، بالحكم من الشواهد ، الحدس بأن شرق البحر المتوسط هو مقصد الحملة فكانوا قلة • على أن أهم ما شغلهم الآن وخلال معظم الرحلة الى مالطة ومنها الى الاسكندرية ، هو دوار البحر وسرعان ما ندموا على تركهم البر وركوبهم حين ألفوا أنفسهم محشورين في السفن حشرا بغير مئونة كافية ، يقيئون و لايستطيعون تغيير ثيابهم ، وما كان لحلم من الأحلام التي عللوا بها نفوسهم ليكفهم عن هذا الندم • قد تكون الحملة الفرنسية على مصر أزهى الفترات في حياة نابليون وأحفلها بالأحلام ، ولكنها ولا ريب لم تكن أزهى فترات حياتهم • وبدأ التذمر يسرى في صفوفهم بمجرد ابحار الأسطول من طولون •

ومع ذلك فالذين ظلوا منهم على قيد الحياة بعد الحملة وعادوا الى أرض الوطن — وهؤلاء لم يبلغوا نصف عددهم الأصلي بعد سنوات ثلاث — كانت لهم ذكريات رافقتهم مدى الحياة • كان في وسعهم أن يرووا للناس قصصا عن ألوان من الحرمان لا تخطر بالبال ، وعن الرجال يدوس بعضهم بعضا في وحشية قاتلة ليظفروا بقطرات قليلة من الماء ، وعن المعارك التي خاضوها في بقاع نائية ضد المماليك والبدو والترك والانجليز والفلاحين المسلحين ، وعن الغنائم والأسلاب الخيالية ، وعن المذابح وهتك الأعراض ، وعن البلاد العجيبة والمناظر الغريبة التي شهدوها — كالأهرام ، وطيبة وجنادل النيل والأماكن المقدسة في فلسطين — وعن بهاء الشرق وشقائه ، وعن عواطف الصحراء وسرابها ، وعن الطاعون الذي فتك بأكثر من ألف منهم ، وعن الرمد الذي ذهب ببصر ألف آخر ، وعن البسالة والجلد ، والجشع والأنانية ، والوهن واليأس • وقليل منهم من عادوا بما يكفيهم لشراء ستة أفدنة من الأرض • حقا انه لينذر أن يؤدي قوم أعمالا بطولية كهذه لمثل هذه الدوافع التافهة ، أو لمثل هذه النتائج العقيمة •

٢

من الكتب التي اشتد اقبال أعضاء « مكتبة جمعية نيويورك » على استعارتها عام ١٧٨٩ كتاب البارون « دتوت » المسمى « مذكرات عن الترك والتتار » والمترجم عن الفرنسية ، وهذا دليل على أن الاهتمام بأحوال الدولة العثمانية

المفككة الأصول قد انتشر واستقر فى جميع أرجاء العالم أواخر القرن الثامن عشر . أما هذا البارون - وهو ضابط فرنسى من أصل مجرى - فكان قد عمل فترة طويلة مستشارا عسكريا للجيش التركى . ولم يتحد أحد صدق أقواله بوصفه مرجعا فى شئون الشرق تحديا جديا غير البارون « مونكهاوزن » الذى انتهز فرصة سرد مغامراته للتشكيك فى أقوال دتوت ، مؤكدا أن أمه عاهرة سكيرة من سافوا ، أما أبوه فهو الشيطان نفسه . وأيا كان الأمر ، فان وزارة الخارجية الفرنسية أوفدت دتوت عام ١٧٧٧ فى مهمة سرية لشرقى البحر المتوسط يتحدث عنها فى كتابه المذكور حديثا غير صريح .

أما من الناحية الرسمية فقد كلف أن يفتش على المؤسسات القنصلية والتجارية الفرنسية فى شرقى البحر المتوسط . وأما مهمته غير الرسمية فأخطر من هذا ، وهى أن يستطلع امكان الاستيلاء على مصر واحالتها مستعمرة فرنسية . لذلك أبحر الى الاسكندرية فى صحبة العالم الطبيعى « سونينى » على ظهر الفرقاطة « أطلانط » وواصل رحلته الى رشيد فى فلوكة بعث بها اليه شيخ البلد ابراهيم بك ، وانطلقت به صعدا فى النيل الى القاهرة بكل مظاهر الأبهة الشرقية ، وهنالك كانت الفوضى الضاربة أطنابها تنتظره - وهى تجربة مألوفة لكل انسان تقريبا يصل الى القاهرة فى تلك الفترة - وهنا يقتضينا المقام قليلا من الايضاح .

ذلك أن التحالف التقليدى بين فرنسا والباب العالى يرجع الى عام ١٥٣٦ ، حين اتحد فرنسوا الأول وسليمان القانونى ضد بيت هابسبورج - وهى فترة وصلت فيها تركيا ، وأوشكت فرنسا أن تصل فيها ، الى ذروة القوة . وسليم الأول ، أبو سليمان ، هو الذى انتزع مصر وسوريا من سلاطين المماليك فى عام ١٥١٧ واتخذ لنفسه ولذريته من بعده لقب خليفة المسلمين مستندا الى حجج ومبررات واهية . أما الشروط التى استولى بها سليم على مصر من المماليك فهى - كما قال البارون دتوت فى كتابه - فى صالحهم أكثر مما هى فى صالحه . فقد قرر أن يحكم كل اقليم من أقاليم مصر الأربعة والعشرين أحد بكوات المماليك أو أمرائهم ، ويشكل هؤلاء البكوات الأربعة والعشرون ديوانا يرأسه الوالى التركى أو الباشا (الملقب بصاحب الخيول الثلاثة) . وكان هدف الحكومة التركية من وراء هذا التنظيم مقتصرا بالطبع على جمع الجزية ، وكان الملاك يجمعونها من الفلاحين ، ثم يسلمون جزءا منها للجباة الأقباط ، الذين يسلمون جزءا منها للكشاف ، الذين يسلمون جزءا منها للبكوات ، الذين يسلمون قليلا منها للباشا ، الذى يرسل بالبحر ما بقى منها للباب العالى .

فلما انتصف القرن الثامن عشر كانت السلطة المركزية فى الدولة العثمانية قد بلغت من الضعف والوهن مبلغا أصبحت معه حكومة مصر - اذا استثنينا

جمعها للميرى ــ أضحوكة كبرى ، ومهزلة ــ دامية فى بعض الأحايين ــ يقوم بأدوارها بكوات المماليك والولاة الترك فى احتفالات بهية تتخللها عقوبات تبتر فيها الأعضاء وتشوه الأجساد علانية ، بينما يقف بقية الشعب يرقبون فى سخرية يشوبها عدم المبالاة ٠

وكلمة « مملوك » بالعربية معناها رجل مشترى ، ولم يكن المماليك عبيدا بالمعنى المألوف للكلمة ، (بعكس ما أكده بعضهم غير مرة) وقد وفدوا على مصر أول مرة حوالى عام ١٢٣٠ ، حين اشترى السلطان الأيوبى الحاكم يومئذ نحو ١٢٫٠٠٠ شاب من جبال القوقاز ــ أكثرهم من أصل جورجى أو جركسى ــ ليؤلف منهم صفوة الفرق فى جيشه ٠ وما مضت عشرون سنة حتى استولى المماليك على البلاد ، فقتلوا السلطان أشرف موسى فى عام ١٢٥٢ ، وأقاموا دولتهم التى ظلت تحكم البلاد حتى فتحها العثمانيون فى عام ١٥١٧ ، على أن الفتح العثمانى لم يكسر شوكتهم قط ٠ فبينما كانت سلطة الولاة تتضاءل شيئا فشيئا حتى لتنعدم أحيانا ، أصبح البكوات ، كل بما اقتنى من مماليك ، سادة البلاد الفعليين وملاك أراضى مصر المأهولة ٠ (أما الصحراء فسادتها غير منازعين هم شيوخ البدو) ٠

ويمكن أن نعلل نجاح المماليك فى التسلط على مصر مدى خمسة قرون ونصف بخضوع ٠ السكان الوطنيين واستسلامهم من جهة (*) ، وببعد الشقة بين مصر والآستانة ، ولكن كان فى عادات المماليك أنفسهم وتقاليدهم خصائص أعانتهم على الاحتفاظ بقوتهم طويلا على هذا النحو العجيب ٠ كانوا لا يتزوجون الا نساء من جنسهم ــ جورجيات أو أرمنيات أو جركسيات ــ مع أن حريمهم حفل بالسرارى المصريات والنوبيات والحبشيات ، وكانوا لا يعقبون من زوجاتهم الا نادرا ٠ وعلة هذه الظاهرة من جهة ارتفاع نسبة الوفيات من الأطفال فى مصر ، ولكن أهم من ذلك ــ من جهة أخرى ــ ما جرت عليه نساء المماليك من اجهاض أنفسهن للاحتفاظ ما استطعن بحسنهن وسلطانهن على أزواجهن ٠ لذلك كان المماليك يعوضون النقص فى صفوفهم ــ التى تفاوت عددها بين عشرة آلاف واثنى عشر ألفا ــ بشراء غلمان تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشرة ، لا سيما من القوقاز ، يدربونهم على فنون القتال ٠ وكان المملوك الشاب يتحرر تلقائيا بمجرد تسلمه قيادة الجند ويصبح من حقه أن يرسل لحيته ، وأن يكون له على الأقل تابعان مسلحان يسمى الواحد منهم « سراجا » ،

(*) من الواضح أن المؤلف لم يدرس تاريخ ثورات المصريين فى العصر المملوكى والعصر العثمانى ٠ وقد أرخ لهذه الثورات بولياك ٠

Poliak, A. N. «Les Révolutes populaires en Egypte à l'époque des Mameloukes», Revues des Etudes Islamiques, 1934, p. 3.

(المترجم)

هؤلاء المماليك المشترون هم الذين كانوا يؤلفون الطبقة الأرستقراطية الحقة ، ويحتقرون النفر القليل من أبناء المماليك الذين وصلوا الى مراكزهم بحكم مولدهم. وهكذا ظل هؤلاء المقاتلون الجراكسة المتعجرفون طبقة منعزلة عن السكان الغافلين يحكمونهم حكما مطلقا ، ويجـددون صفوفهم فى الوقت نفســه بدم جديد على الدوام • وقد احتفظوا ــ الى حد كبير ــ بطابع القوقازيين الجبليين منذ وفدوا على مصر الى أن قضى عليهم فى ١٨١١ ، برغم النفر القليل من الروس واليـونان والألمان والزنوج الذى احتوته صفوفهم •

وعاش البكوات وجنودهم (وكلهم نحو ١٠٫٠٠٠ رجل) ، الجاهلون بكل شيء الا الفروسية والتقتيل وابتزاز المال ، عيشة الترف والفخفخة على حساب باقى السكان ، وهيأوا لأنفسهم فرصة المران على القتال بما مارسوه فى أوقات متفرقة من فن الحرب الرفيع ــ الحــرب مع بعضهم البعض عادة ، ومع الترك أحيانا • ولم يبد أنهم أفادوا بهذه الحياة التي يحيونها انسانا الا أنفسهم • فقد كان البكوات فى صراعهم المزمن على السيادة لا يفتأون يؤلفون الأحزاب المتخاصمة، ويطيحون بعضهم ببعض فى تتابع رتيب من الفتن • فاذا تهيأ الجو لانقلاب جديد عقب سلسلة من الدسائس والمؤامرات والخيانات الخفيــة ، تقــاطر البـكوات بكشافهم وأتباعهم من الأقاليم على القــاهرة وانتزعوها بالبنــادق والطبنجات والسيوف والرماح والبلط • ويشهد الفلاحون ــ وهم يتطلعون من حقولهم حيث يكدون ويكدحون ــ مواكب الفرسان يخطف بريقها الأبصار ويتلألأ فيها السلاح وتتألق العمائم المزركشة والعباءات الحريرية الفضفاضة • ويحمل هؤلاء على أعداء لا يقلون عنهم فى مظهرهم بهاء وتألقا ، فيناوشونهم حينا ، ثم يدخلون العاصمة دخول الظافرين ، والا مرقوا كالسهام صوب الصعيد حيث يلزمون الهدوء ، حتى تواتيهم الفرصة لاستئناف القتال مرة أخرى • وما من شك فى أن بسالة المماليك كانت مدهشة يضرب بها المثل ، ولكن يعدل هذه البسالة براعتهم فى التقهقر بسرعة مذهلة اذا رأوا ضرورة لاستخدام هذه البراعة •

ورغبة فى تشريف هذه الفوضى المنظمة وتكريمها بخلع اســم الحكومة عليها ، رتب للباشوات الأتراك دور تقليدى فيها • فاذا ولى الباب العالى واليا جديدا على مصر ودخل القاهرة ، ذهب البكوات المماليك للقائه على الميناء النهرى وحيوه باحتفال مهيب ، ثم قادوه من فوره للقلعة حيث يظل سـجينا سجنـا كريما الى نهاية ولايته • فاذا اندلعت نار الحرب الأهلية بين المماليك احتـل الحزب المستولى على القاهرة القلعة وأكره الباشا على اصدار فرمانات لصالح الحزب ، وهو اجراء ثبت غير مرة أنه شكلى لا قيمة له ، كسلطة الباشا سواء بسواء • وقد وصل البارون دتوت الى القاهرة فى لحظة نشبت فيها ثورة من هذه الثورات • وكان اثنان من البكوات يتقاسمان السلطة فى تلك الفترة ــ

ابراهيم الذى كان يحمل لقب شيخ البلد ، ومراد أمير الحج (*) ــ وعاد هذان الرجلان الشهيران مرة أخرى الى تقلد السلطة حين غزا الفرنسيون مصر بعد ذلك بعشرين سنة · وبدا عقب وصول دتوت أن دولتهما قد دالت ، ذلك أن ابراهيم بك ــ جريا على العادة ــ انطلق الى القلعــة حالما دنا الثوار ، وأكره الباشا ــ وكان صديقا قديما لدتوت ــ على اصدار فرمان « حكم فيه على العصاة بالنفى » ، ولكنهم لم يبالوا بهذه الشكليات الفارغة ، وأطلقوا النار على أعدائهم. وبعد أن اشتبكوا معهم أياما فى مناوشات كان فيها من الضجيج أكثر مما فيها من سفك الدماء ، أجبروهم على الهروب الى الصعيد (٩) ·

فلما هدأت الضجة ، بدأ دتوت تفتيشه على المؤسسات الفرنسية · ثم عهد الى فرنسى يدعى « لالون » بمهمة التجسس على السويس وساحل الدلتا · وقام لالون بمهمته خير قيام ، وعلى أساس مشروعه كتب دتوت تقريره لوزير البحرية الفرنسية · فأبلغ الوزير أن حصون مصر الحربية ضعيفة لا يحسب لها حساب ، وأن فى الاستطاعة اتخاذ كريت قاعدة للعمليات الحربية والاستيلاء منها بسهولة على ثغور الاسكندرية ورشيد ودمياط ، وانزال الحملة فى خليج أبى قير · وأكد دتوت أن الاستيلاء على مصر لن يكون الا « احتلالا سلميا لبلد أعزل » (١٠) وأنه يرى اذاعة منشور يطمئن الأهالى الى أن الفرنسيين قدموا بوصفهم أصدقاء ، وحلفاء للسلطان ، ومحررين لهم من ربقة المماليك · وحسب التقرير حسابا لكل التفاصيل ، وأشار الى جميع المزايا الاقتصادية والسياسية المترتبة على هذه العملية ، وهون من جميع العقبات التى تعترضها ·

وظلت مذكرة دتوت عشرين عاما يتراكم عليها الغبار فى وزارة الخارجية الفرنسية ، هى وعدد متزايد من الاقتراحات المماثلة لها · أما الأسباب التى دعت الحكومة الفرنسية الى التردد طوال هذه الأعوام العشرين فى تنفيذها برغم هذا الاهتمام المفاجىء بمصر ، والظروف التى انتهت بهذا التنفيذ ، فأسباب معقدة ومثيرة فى نفس الوقت ·

كان للاستيلاء على مصر مزايا واضحة · فمصر تهيمن على الطرق البرية الى بلاد العرب والهند ، وقد لقى مشروع شق قناة من الســويس الى البحر المتوسط ، الذى أوصى به من قبل مهندس تركى فى عام ١٥٨٦ ، من اهتمام لويس الرابع عشر ما حمله على أن يقترحه على الباب العالى فى ثلاث مناسبات ــ دون الوصول الى نتيجة فى واحدة منها · وكان أمر الثروة الكامنة فى مصر، لا سيما فى الدلتا ، معروفا للجميع ، سواء من الروايات اليونانية والرومانية

(*) كانت تقوم قافلتان كبيرتان للحجاج كل سنة ، احداهما من دمشق والأخرى من القاهرة . وتنضمان قبل بلوغهما مكة تحت امرة والى دمشق · (غفل المؤلف عن قافلة الحج اليمنية وقافلة الحج العراقية ــ المترجم) ·

القديمة ، أو من روايات الرحالة المحدثين • كذلك كان من الأمور المعروفة ذلك الاهمال الصارخ الذى انحدر اليه اقتصاد مصر فى عهد المماليك • فلما أتى القرن الثامن عشر كانت التجارة الفرنسية مع مصر تبلغ ½ ٥ مليون من الجنيهات فى السنة من الواردات والصادرات ، وهو رقم لا أهمية له ، ومع ذلك فقد كان لفرنسا فى مصر مصلحة أعظم مما كان لأية دولة أوربية أخرى • كذلك كانت فرنسا أفضل تمثيلا فى مصر من غيرها • فلها قنصل عام يسكن القاهرة ، وقنصليتان فى ثغرى الاسكندرية ورشيد • وقد أنشئت بالقاهرة سنة ١٦٩٨ قنصلية انجليزية ، ولكن التجار الانجليز كانوا أقل عددا من الفرنسيين ، ولم يكن فى منافستهم خطر يذكر حتى آخر القرن الثامن عشر •

لاغرابة اذن أن يرحب التجار الفرنسيون الخمسون أو الستون القاطنون مصر ، والمتحدثون بلسان قناصلهم ، بتأييد فرنسى مسلح لهم ، بل باستيلاء فرنسا على مصر دون تردد ، تأمينا لحياتهم ومكاسبهم • فلقد كانوا أكثر تعرضا للأخطار والمضايقات من اخوانهم فى غير مصر من بلاد شرقى البحر المتوسط • كان من الحماقة أن يجازف أحدهم بالخروج دون حراسة مسلحة فى أى مكان خارج القاهرة أو الاسكندرية أو رشيد أو دمياط • والواقع أن علمهم بمصر لم يكد يجاوز هذه المدن الأربع ونهر النيل كما تبينت فيما بعد قوات بونابرت — لشدة أسفها وخيبة أملها — بعد أن اعتمدت الى حد كبير على المعلومات المستقاة من التجار • وكانوا — حتى فى هذه المدن — يلزمون « فنادقهم » ، وهى أبنية مسورة تضم داخلها المخازن والمساكن والحصن • وكان لهم فى القاهرة حى مسور خاص بهم يقوم على حراسة بواباته جنود من الانكشارية • ولم يكن لمصر آنئذ ذلك الطابع الدولى الذى ساد غيرها من بلاد شرقى البحر المتوسط • واجتمع التعصب الدينى ، والفوضى السياسية ، وغرابة بلد هو شريط من الأرض الخضراء يمتد وسط الصحراء الافريقية من البحر المتوسط القديم الى السودان الغامض ، وآثار حضارة قديمة خلع عليها الناس ، حتى الأوربيون ، جوا من الخرافة — نقول ان هذا كله اجتمع ليلقى فى قلب الأجنبى الغريب شعور الخطر والعزلة الدائمين •

وكثيرا ما كان البكوات المماليك ، الذين لم يعبأوا بما بين فرنسا والسلطان مولاهم الرسمى من تحالف ، يضايقون التجار الفرنسيين ، فكان هؤلاء يستغيثون مرارا وتكرارا بحكومتهم • ولم يكن فى استطاعة الحكومة الفرنسية أن تقدم لهم معونة تذكر • فهى اذا حاولت الاتفاق مع البكوات احتج الباب العالى بأنها تجاهلت سيادته ، واذا عرضت شكاواها على الباب العالى أغفل البكوات أى تدابير يتخذها الباب العالى لاسترضاء فرنسا •

ولم يقتصر الأمر على الخطر الذى يهدد حياة الفرنسيين فى مصر ، بل

ان علة وجودهم فيها كان يهددها بشكل متزايد ذلك العدوان المستتر الخبيث من جانب البريطانيين ، الذين لم يتورعوا عن تخطى الباب العالى والاتصال رأسا بالبكوات • وقد روعت باريس والآستانة ، والجالية الفرنسية فى القاهرة ، حين علموا بعقد معاهدة تجارية بين البكوات و « وارن هيستنجز » حاكم الهند البريطانية ، وحين ظهر فى مصر عدد من العملاء ورسامى الخرائط البريطانيين • صحيح أن البكوات حاولوا التقرب من فرنسا وعرضوا عليها امتيازات مماثلة ، ولكن الحكومة الفرنسية كانت مغلولة اليد بسبب الحلف التركى • وكان « فرجين » وزير الخارجية الفرنسية ، وصديق تركيا ، منذ عهد سفارته بالآستانة ، يقاوم بصفة خاصة جميع المشروعات التى قد تزيد الباب العالى ضعفا على ضعف •

واذا كانت شكاوى التجار الفرنسيين من البكوات والمماليك والبريطانيين مبررا كافيا فى نظرهم لتجريد حملة عسكرية على مصر ، فان مجرد رعاية مصالح هؤلاء التجار لم يكن كافيا فى نظر الحكومة الفرنسية لاعتبار هذا المشروع جديا وممكنا من الناحية العملية • ومع ذلك فان الدوق « شوازيل » ــ الوزير السابق لفرجين ــ جعل من الاستيلاء على مصر أحد المشروعات المحببة الى نفسه فى فترة ترجع الى عام ١٧٦٩ • وهدف شوازيل كما شرحه بعد ذلك «تاليران» للمجمع العلمى القومى فى يوليو ١٧٩٧ « أن يستعيض عن المستعمرات (الفرنسية) فى أمريكا ــ اذا فقدتها فرنسا ــ بمستعمرات تغل نفس المحاصيل وتتيح تجارة أوسع » (١١) • واذا كان فرجين قد رفض مشروع شوازيل وأهمل مذكرة دتوت ، فانه لم يفعل هذا بدافع الوفاء للباب العالى فحسب ، بل لأن الثورة الأمريكية جعلت ضياع جزر الهند الغربية الفرنسية أقل احتمالا مما كان فى أثناء وزارة شوازيل • ولكن هذا الاحتمال أصبح حقيقة مؤكدة تقريبا حين احتلت بريطانيا جزر المارتنيك فى أثناء حروب الثورة الفرنسية

وأهم من ذلك فى تخفيف المعارضة للمشروع الرأى القائل بأنه اذا لم تستول فرنسا على مصر فسيفعل غيرها ان عاجلا أو آجلا • ومن البديهيات فى دنيا الأخلاق والسياسة أن أى عمل خسيس ، اذا أتاه انسان ما ، يكون فى نظره أقل خسة مما لو أتاه انسان غيره أقل اخلاصا فى نياته الدافعة له الى هذا العمل الخسيس • مثال ذلك أن كاترين الثانية قيصرة روسيا ، وفردريك الثانى ملك بروسيا ــ وكلاهما شخصية تستحق اللوم والتقريع على خستها ــ كانا يقطعان أوصال بولنده ، فبادرت ماريا تريزا امبراطورة النمسا ــ وهى تبكى سخطا عليهما وحسرة على الفضيلة ــ وحصلت على شريحة كبيرة لنفسها فى هذا التقسيم ، مخافة أن يأخذ الأشرار كل الغنيمة ، ولا ينال الأخيار منها شيئا • وكان يبدو أن الدولة العثمانية ، أو « رجل أوربا المريض » ، ينتظرها مصير كهذا • فمعقول أنه كلما كبرت الشريحة التى تستطيع فرنسا

اقتطاعها لنفسها من أملاك الدولة قل نصيب أعداء تركيا ، وزاد نصيب أفضل صديقة لها · فاستيلاء فرنسا على أملاك السلطان يكاد فى نظرها أن يكون عملا من أعمال الوفاء لأن هـــذه الأملاك قد تقع فى أيدى الروس الهمج ، أو النمساويين المتوحشين ، أو البريطانيين الخونة الغادرين · أما ما حدث فعلا فهو أن الرجل المريض قاوم الموت بعناد شديد ، وظل على قيد الحياة قرنا ونصفا آخر دون أن تقتله عمليات البتر الكثيرة · وكان تنبؤ فرجين بسير المرض من هذه الناحية أدق من تنبؤ شوازيل · ومع ذلك لم يكن ريب فى أن الدولة العثمانية تتصدع نتيجة لضغط روسيا والنمسا على شمالها من جهة ، واستقلال ولاياتها البعيدة عنها ـ وهى الجزائر وتونس وطرابلس ومصر ـ استقلالا فعليا من جهـــة أخرى · وأعرب الباب العالى نفســـه غير مرة عن مخاوفه من نوايا البريطانيين نحو مصر ، وأسف لعجزه أمام البكوات المماليك ، فأوحى هذا لكثير من الفرنسيين بامكان الظفر بمصر بحجة اسداء يد للباب العالى فى الظاهر ·

وظل ســـيل من المذكرات عن المســـألة الشرقيـــة يغمر وزارة الخارجية الفرنسية طوال عشرين عاما (١٧٧٠ ــ ١٧٩٠) · وبعض هذه المذكرات طلبته الحكومة ، ولكن أكثرها أقحم عليها ، وعدد غير قليل منها كتبه أفراد متهوسون ، أما عن مصر فان جميع المذكرات تقريبا أيدت الاستيلاء عليها وخلعت عليها صورة براقة · فمناخها صحى ، وقدرتها الانتاجية الكامنة لا حد لها ، وأهلها طيعون ، وفى الامكان زراعة محاصيل جديدة فيها كالنيلة وقصب السكر ، ويمكن شق قناة من السويس الى البحر المتوسط ، ويستطيع آلاف الفرنسيين ذوى الجرأة والاقدام أن يستوطنوها ليزرعوا الأرض ويتجروا فى بضـــائعها · أما من الناحية العسكرية فليس فى العملية أى مشقة ، وأما الشائعات عن الطاعون والرمد المتوطنين فى البلاد فمبالغ فيها ان لم تكن كاذبة ، وهكذا ·

وبعض هذه المذكرات كتبها رجال خبروا أحوال مصر خبرة لا بأس بها وان قل منهم من توخى غاية الصراحة والاخلاص ، ولكن أكثرها كتبه موظفون متحمسون لم يروا مصر اطلاقا ، وانما اعتمـــدوا على روايات غيرهم ، وكانوا يؤملون كسب رضاء رؤسائهم باقتراح سياسات جريئة جديدة ·

كان شبح النمسا وقد تسلطت على جميع البلاد من نهر الألب الى النيل يقض مضاجع الساسة حوالى ١٧٨٣ ، تماما كما كان الخوف من ألمانيا وقد بسطت سلطانها حتى بغـــداد يروع حكومات الدول الغربيـــة قبيل ١٩١٤ · وتضافرت قوى هواة السياسة ومحترفيها فى البحث عن وسائل تجنب الانسان هذه الكارثة · ومن الهواة ذوى الخيال الخصب رجل يدعى البارون «دفالدنر» اقترح حملة تشترك فيها جيوش فرنسا وهولنده والبندقية لفتح مصر واليمن ومسقط وباقى جزيرة العرب ، ولشـــق قنـــاة السويس ، ولتقسيم الدولة

العثمانية . أما الكونت دشوازيل ـ جوفييه ، ولم يكن هاويا ، فكان أقل أصالة، ولكن يجب أن نقر له بموهبته فى الصياغة . فقد كتب يقول : « ان مصر تقع على عتبة دارنا ، ولم تعد ملكا للأتراك ، فالباشا صفر ، ومصر ليست ملكا لأحـد » (١٢) . وسنرى أن هـذه التأكيدات وردت مرارا وتكرارا ، وبنصها تقريبا ، فى الرسائل المتبادلة بين بونابرت وتاليران ، وبينهما وبين حكومة الادارة .

على أن فرجين ثبت على سياسـة الوفاء للسلطان برغم ضغوط الحـزب المتشيع لفتح مصر . بل انه دعا الدول الأوربية أن تنضم الى فرنسا فى ضمان سلامة الدولة العثمانية . ولكن الامبراطور جوزيف الثانى نفسه عرض مصر على فرنسا ثمنا لاشتراكها فى الجريمة ان وافقت على تقسيم تركيا . فاذا كان الرجل الذى أريد حماية مصر من قبضته قد عرضها على حماتها العتيدين ، فكيف يستطيع هؤلاء الحماة مقاومة الاغراء طويلا ؟

وكانت فرنسا فى سنوات الثورة الأولى مشغولة بامور خطيرة تتصـل بحياتها وموتها شغلا منعها من أن تهتم بالمسألة الشرقية ، أو بمصالح التجارة الفرنسية فى شرقى البحر المتوسط ، الا اهتماما عارضا . على أنه ما وافى عام ١٧٩٥ حتى كانت الجمهورية قد عقدت الصلح مع أسبانيا وهولنده وبروسيا . وفى عام ١٧٩٦ سحبت بريطانيا أسطولها من البحر المتوسط ، وفى عام ١٧٩٧ كان بونابرت يفاوض النمسا فى عقد الصلح . ولم يبق من أعداء فرنسا فى الميدان سوى انجلترة والبرتغال . وتشاء الظروف أن يتجه الصراع المتصل مع انجلترة ، والمبررات الكثيرة التى قدمها المؤيدون لفكرة الحملة على مصر طوال السـنوات العشرين الماضية ، وجهة واحـدة . واندمجت النزعتان الوطنيـة و « التجارية » فأسفر اندماجهما عن وليد هو الامبريالية .

وفى المرحلة الأخيرة من الحملة الايطالية ، بدأ الجنرال بونابرت ـ الذى خول سلطة لا حد لها تقريبا فى المفاوضة لعقد الصلح ـ يحتضن مشروعات تخرج كثيرا عن نطاق مهمته . واتسع أفقه حين قارب الحـدود النمساوية . فرأى ايطاليا ـ التى فرغ لتوه من فتحها ، والتى كان يحتقر شعبها ـ قليلة القيمة لفرنسا ، وبدأت تتسلط على عقله تلك الحماقة الفكتورية العظمى ، ونعنى بها سحر الشرق الذى أصبح فيما بعد هاجسا لدزرايلى ونابليون الثالث ووليم الثانى . فكتب لحكومة الادارة فى ١٦ أغسطس ١٧٩٧ يقول : « ان جزائر كورفو وزنطة وكفالونيا أكثر قيمة لنا من ايطاليا كلها . وأعتقد أننا لو خيرنا لكان خيرا لنا أن نملك هذه الجزائر التى هى مصدر ثروة ورواج لتجارتنا. ان الدولة العثمانية تتصدع ، وامتلاك هذه الجزائر سيمكننا من مسـاندة الدولة العثمانية الى الحد الممكن ، والا ظفرنا بنصيبنا منها » (١٣) .

والسخرية المستترة وراء هذه السطور جديرة بالاعجاب فى تكاملها . لقد فرغ الجيش الفرنسى لتوه ، بتضحيات من الجهود والدماء لا تكاد تصدق، وباسم الحرية والعدالة ، من تحرير شطر كبير من ايطاليا من نير من سماهم واضعو الشعارات في باريس بحكامها الطغاة : هذه الأراضى هى التى يريد محررها المنتصر أن يردها لحكامها الطغاة السابقين نظير عدد قليل من الجزر الصغيرة التى ينفع امتلاكها حفنة من التجار . وان المرء ليتساءل ماذا كان جنود بونابرت ، فضلا عن الايطاليين المحررين ، يرون فى بطلهم لو أتيح لهم العلم بأفكاره الباطنة . وأضاف بونابرت لرسالته « ليس بعيدا ذلك اليوم الذى نقدر فيه ضرورة الاستيلاء على مصر للقضاء على انجلترة قضاء مبرما . ان الدولة العثمانية الشاسعة التى تعالج سكرات الموت تحملنا على أن نفكر ، ما دام فى الوقت متسع ، فى التدابير الواجب علينا اتخاذها لصيانة تجارتنا مع شرقى البحر المتوسط » (١٤) .

وليس هناك ما يبرر الاعتقاد بأن بونابرت درس الملفات الموجودة فى وزارة الخارجية الفرنسية . ولكن من المؤكد أن هذه الأفكار لم تتولد فى عقله تلقائيا . ففى ٩ أبريل ، أى قبل أن يكتب هذا الخطاب بأربعة أشهر ، التقى لقاء طويلا برجل يدعى « ريمون فرنيناك » ، وهو دبلوماسى عائد الى باريس من الآستانة حيث مثل الجمهورية الفرنسية بوصفه وزيرا مفوضا . وكان فرنيناك قد أخفق فى تحسين العلاقات ، التى غلب عليها التوتر ، بين فرنسا والباب العالى الذى كان بطبيعة الحال ينفر من الثورة ، وخابت جهود فرنيناك على الأخص فى حمل الأتراك على اتخاذ تدابير نشيطة ضد البكوات المماليك . ومع ذلك فقد وفق فرنيناك فى ايفاد مبعوث لاستقصاء الأحوال فى مصر . وأرسل المبعوث ـ وهو « دابوا ـ تانفيل » ـ وكان رجلا خبيرا بشئون شرقى البحر المتوسط ، تقريرا الى فرنيناك من أزمير فى سبتمبر ١٧٩٦ انتهى فيه الى نتائج هى فى الواقع نفس النتائج التى أعرب عنها بونابرت بعد ذلك بعام . فالدولة العثمانية فى حالة انحلال وفوضى (وهى عبارة فيها غلو شديد) ويستطيع من يكلف نفسه مشقة الاستيلاء على مصر أن يستولى عليها . وكان أحد التجار الفرنسيين ، واسمه « شارل ماجاللون » ، وهو قنصل عام بمصر ، قد أرسل مذكرة مماثلة الى فرنيناك قبل ذلك ، فى يونيو ١٧٩٥ . فلا يعقل اذن أن نعزو ترديد بونابرت لهذه الأفكار عقب لقائه بفرنيناك الى الصدفة . ومع ذلك يصعب أن نتبين لم اعتنق الجنرال بونابرت آراء حفنة من التجار وموظفى القنصليات وتحمس لها ، مع أنه كان واضحا أنهم لا يضمرون الا خدمة مصالحهم الخاصة .

ونحن لا نستطيع أبدا أن نجزم بدوافع أى انسان ، ولكن لنا أن نحزرها . أما بونابرت فأوضح دوافعه الدافع العاطفى . فالحملة الايطالية انتهت ، والصلح يجرى ابرامه ، والسلطة القنصلية التى خولها له أعضاء الادارة ستنتهى

بعد قليل ، فيعود قائدا فردا بين قواد كثيرين بعد أن كرم ورفع الى مرتبة البطل . ونحن نراه - حتى وهو يجرى مفاوضات الصلح ويرسم خريطة شمالى ايطاليا من جديد - يسخط على العقبات التى تضعها فى طريقه « حضارة مزعجة » وهى عقبات لا يحتمل أن يلقاها فى الشرق . وكان قد فرغ لتوه من تمزيق جمهورية البندقية القديمة، وهى دولة محايدة، وراح يعرضها على النمسا مقابل بلجيكا وشاطىء الراين الأيسر . وكان من نتائج تصفية دولة البندقية اتصاله اتصالا مباشرا بالشئون الشرقية . ولو أن رجلا أوتى خيالا أقل خصوبة من خيال بونابرت لتعذر عليه أن يقاوم اغراء الفرص الجديدة الغريبة وهو يقف فى هذه المدينة البرية البحرية ، مدينة البندقية التى « ملكت يوما زمام الشرق البهى » (١٥) ، سيدا على سيدة الأدرياتيك ، حيث اختلطت بلاد البلقان واليونان وبيزنطة وشرقى البحر المتوسط ودول شمال افريقيا بالعالم الغربى الذى لا فتنة فيه ، تحت ضباب يتألق فى سماء بلاد غريبة . هنا يبدأ الشرق، الجائزة الوحيدة الخليقة بفاتح بعيد الأحلام .

ولكن ما من حالم أكثر واقعية من الجنرال بونابرت ، فهو كما قال مرة « يقيس أحلامه بمقياس العقل » (١٦) . أضف الى ذلك أنه كان سياسيا بقدر ما كان فاتحا . فهو يعلم بالضبط مزاج حكومة الادارة : فهى تريد المال أولا وقبل كل شىء . ولم تكن الملايين التى جمعها تبرعات حرب من الدول الايطالية سوى قطرة تاهت فى بحر الادارة الذى لا قرار له ، فاذا أريد للحرب مع انجلترة أن تنتهى بالنصر ، أو بالتعادل على الأقل ، فانه يبدو أن محاولة شن هجوم مباشر على الجزر البريطانية محاولة غير عملية ، لأنها أشد الوسائل خطرا ونفقة ، وأقلها وعدا بالمال . أما الوسيلة الأخرى - وهى الاستيلاء على مصر وتهديد الهند - فهى وان لم تكره انجلترة على الركوع ذليلة على ركبتيها ، الا أنها أرخص كثيرا ، والأخطار الحربية التى تكتنفها قليلة ، وهى على أسوأ تقدير تضع فرنسا فى موقف يتيح لها مساومة أفضل اذا أتت مفاوضات الصلح . وهى على أية حال تتيح فرصة لجمع مزيد من التبرعات .

وقد سمح نابليون لخياله أن يجمح ، وهو يستعيد ذكريات الماضى ويملى قصة الحملة المصرية ازجاء للوقت فى جزيرة سانت هيلانه ، فقال : « ما الذى يمكن عمله فى هذا البلد الجميل (مصر) خلال خمسين عاما من الرخاء والحكم الصالح ؟ ان الخيال ليرتع فى هذا المنظر الساحر . فان ألف بوابة من بوابات الرى ستضبط فيضان النيل وتوزع مياهه على كل بقعة فى البلاد . وستشق القنوات لتحمل البلايين الثمانية أو العشرة من ياردات الماء المكعبة التى تضيع كل سنة فى البحر الى أوطأ بقاع الصحراء .. على طول الطريق الى الواحات بل وأبعد منها غربا .. وسيتضاعف السكان أربع مرات بفضل المهاجرين الكثيرين من أعماق افريقيا وبلاد العرب وسوريا واليونان وفرنسا وايطاليا

وبولنده والمانيا • وتعود التجارة مع الهند الى طريقها القديم •• فتتحقق سيادة فرنسا على الهند بسيادتها على مصر » (١٧) •

ومن المعقول أن تطالب مستعمرة لها هذه القوة بالاستقلال ان عاجلا أو آجلا • ولكن هذا الاحتمال لم يروع نابليون • فهو حين خلق امبراطوريته الوهمية ، منحها بسخاء استقلالا وهميا ، بل وأكثر من استقلال ، وأكد أنه من الطبيعي أن يحكم العالم من الاسكندرية لا من روما أو الآستانة أو باريس أو لندن أو أمستردام • وأما عن امكان القيام بهذا المشروع عمليا فان نابليون لم يكن أقل تفاؤلا فى أزاحة جميع الاعتراضات التافهة • فالمساحة بين القاهرة والسند ليست أكبر منها بين بايون وموسكو • وفي استطاعة ٦٠٫٠٠٠ رجل يمتطون ٥٠٫٠٠٠ جمل و ١٠٫٠٠٠ جواد أن يصلوا الى الفرات بعد أربعين يوما والى السند بعد أربعة أشهر ، وهناك ينضمون الى قوات السيخ والمهراتا وغيرهما من الشعوب الهندية التواقة الى خلع نير الحكم البريطاني • وبعد أن برهن هذا الحالم على سهولة تنفيذ المشروع أرخى العنان لخياله وانطلق الى المجد الموهوم عدوا « بعد خمسين عاما تكون الحضارة قد وصل نورها الى قلب افريقيا عن طريق سنار والحبشة ودارفور وفزان ، وتكون عدة شعوب عظيمة قد مكنت من المشاركة فى بركات الفنون والعلوم (الغربية) وفى دين الاله الحق — لأنه من يد مصر يجب أن تتلقى شعوب أواسط افريقيا النور والسعادة » (١٨) (*) •

وليس فى وسع المرء الا أن يعجب لهذا الخليط من الأحلام الفاوستية العريضة والهراء الخالص • ومع ذلك فهذا هو الطعام الذى كانت تقتات عليه أحلام الساسة وبناة الدول البعيدي النظر خلال القرن التاسع عشر كله ، ونظرة واحدة الى افريقيا اليوم تدلنا على أنه ليس من الأمور العملية ، فى الأجل البعيد ، أن يكون المرء محسنا ومستغلا فى الوقت نفسه •

وقد شخص نابليون فى سانت هيلانه أيضا ، وهو فى حال أكثر اتزانا، تلك الدوافع التى حملت حكومته على المغامرة بالحملة المصرية تشخيصا أكثر

(*) لم تكن هذه مجرد أحلام طافت بخيال رجل منفى نال منه السأم • ففى سنة ١٨٠٨ كتب نابليون الى كولانكور سفيره فى روسيا يقول : « ابلغ رومانزوف (وزير الخارجية الروسية) والقيصر [اسكندر الأول] أننى أبحث جديا تجريد حملة على الهند وتقسيم الدولة العثمانية ، وتنفيذا لهذا المشروع سأسير جيشا من ٢٥٫٠٠٠ روسى ، و ٨٫٠٠٠ الى ١٠٫٠٠٠ نمساوى ، و ٣٥٫٠٠٠ الى ٤٠٫٠٠٠ فرنسى الى آسيا ومنها الى الهند • وليس هناك شيء أيسر من هذه العملية » •

(lecestre, ed. Letteres in édites de Napoléon Ied 1, 144).

انظر

وفى السنة نفسها كتب فى خطاب الى وزير بحريته ذكريه عن حملة على مصر وضع خطتها وقرر أن تبحر من طولون كما أبحرت حملة ١٧٩٨ •

واقعية . يقول : « كان ضعف حكومة الادارة يتحكم فيها ، فهى لكى تعيش تحتاج الى حالة حرب دائمة، تماما كما يحتاج غيرها من الحكومات للسلام » (١٩) وكان في وسعه أن يضيف الى هذا أنه لم يكن بينه وبين سياسات الادارة وسياسته فى هذه الناحية خلاف قط مهما كانت نواحى الخلاف الأخرى بينهما .

فى ١٦ يوليو ١٧٩٧ ، بينما كان بونابرت لايزال فى ايطاليا يحلم بالشرق، تقلد وزارة الخارجية في باريس وزير جديد يدين بمنصبه الى حد كبير لخليلته السابقة مدام « دستال » والى صديقها « بارا » ، أعظم أعضاء الادارة الخمسة نفوذا . هذا الرجل هو « شارل ــ موريس دتاليران » ، أسقف أوتن الذى لم ينصب ، والذى كان قد عاد أخيرا من فيلادلفيا حيث ظل ينتظر نهاية « حكم الارهاب » فى فرنسا . وقبل تعيينه بأسبوعين فقط قرأ هذا الأسقف السابق، المتعطش للمنصب السياسى ، على المجمع العلمى الفرنسى بحثا فى « المزايا التى تتحقق من الحصول على مستعمرات جديدة فى الظروف الراهنة » . فى هذا البحث ذكر سامعيه بمشروعات شوازيل الخاصة بمصر ، والواقع أنه كان منذ عهد طويل وثيق الصلة بشوازيل واسع الخبرة بشئون الشرق الأوسط . فلما وصل « مجاللون » القنصل العام بالقاهرة الى باريس عقب تعيين تاليران بقليل ، وجد فيه آذانا صاغية تعطف على مقترحاته . وبعد نحو شهر تلقى تاليران من الجنرال بونابرت خطابا يكاد يتفق نصا والخطاب الذى وجهه لحكومة الادارة : فتركيا آخذة فى الانحلال ، والتجارة الفرنسية فى حاجة لمزيد من المستعمرات ، ويجب أن تخوض فرنسا الحرب مع انجلترا فى الشرق ، وأن تستولى على مصر .

وقد اختلف المؤرخون على أيهما البادىء بالتفكير فى المغامرة المصرية ، أهو تاليران أم بونابرت ؟ أما وقد انتهت الحملة بكارثة ، فقد نسب تاليران فى سنواته الأخيرة كل الفضل فيها لبونابرت . ولكن الواقع أن جهود تاليران أكثر من جهود بونابرت هى المسئولة عن تصديق الادارة على المشروع . على أن أول من فكر حقا فى المشروع هو الدوق دشوازيل المتوفى ، والمتحدثون بلسان المصالح التجارية الفرنسية وراء البحار . ولم يغفل بونابرت نفسه عن الأرباح التى تجتنى من المستعمرات . فقد كان لزوجته أملاك فى المارتنيك ، أو كذلك كانت تزعم .

وأيا كانت مواطن الضعف فى تاليران ، فهو لم يكن بالرجل الحالم . زد على ذلك أنه كان من المتمسكين بصداقة انجلترة ، وكان يكره الحرب . والواقع أنه كان يحتقر أى لون من ألوان النشاط العنيف ، فالأذكياء من الناس يستطيعون أن يسوسوا الأحداث على هواهم دون أقل عنف ظاهر ، وكان أذكى من أكثر معاصريه . واذا كانت مشروعات بونابرت العريضة قد لقيت هوى

صادقا في نفس تاليران فما ذلك لعرضها • لا بل من المشكوك فيه أنه آمن حقيقة بنفع المستعمرات ، ولكنه كان صادق الولع بالدبلوماسية ، وهي فن الصيد الهادىء في المياه العكرة ، والدولة العثمانية مجال مثالي للصيد • أضف الى ذلك أنه لم يثق قط ببونابرت • فاعطاؤه عملا يؤديه على بعد آلاف الأميال يعفى فرنسا من أحد مثيرى المتاعب في الوطن ، ليسمح له اذن بأداء هذا العمل الشاق ، فان نجح فبها ونعمت ، وان أخفق فمرحبا بالخلاص منه • أما بونابرت فقد وجد — لأسباب تختلف عن هذه — أن من مصلحته أن يبتعد عن الوطن • فهو يقدر مزايا الغياب النشيط على الوجود العاطل ، تماما كما قدره يوليوس قيصر حين رحل الى غالة • وكان كقيصر يستطيع أن يعود في اللحظة المناسبة — وقد عاد فعلا •

والرسائل التى تبادلها بونابرت وتاليران بعد ذلك تعطينا فكرة التوافق التام بين نظرتيهما • فقد اقترح الجنرال على الوزير في ١٣ سبتمبر أنه يحسن الاستيلاء على مالطة ، ففرسان مالطة مناوئون للجمهورية وان كان أكثرهم فرنسيين ، ورئيس الطريقة الأكبر ألماني ، والاستيلاء على مالطة يمنع الامبراطور فرنسوا الثاني من ارساء قدمه على الجزيرة واستخدامها قاعدة له ، وستكون الجزيرة ذات قيمة عظيمة للعمليات التالية في شرقي البحر المتوسط • ويمكن فتح مصر بقوة قوامها ٢٥٫٠٠٠ جندى وعدد من السفن الحربية يتفاوت بين ثمان وعشر ، ولكن ما الأثر الذى ستحدثه الحملة في الباب العالى ؟ وجاء رد تاليران بعد أسبوعين يقول : ان الادارة توافق بونابرت تماما على آرائه عن مالطة • وأما مصر فأفكار الجنرال عنها طريفة مفيدة ، وسيكتب له تاليران مفصلا في موضوعها • على أية حال يجب أن يكون مفهوما أن فرنسا لن تستطيع الاضطلاع بفتح مصر الا لمصلحة السلطان العثماني حماية له من نوايا الروس والانجليز • (ولا حاجة بنا للقول بأن السلطان سليم الثالث لم يحط علما بهذه النوايا الطيبة نحوه) •

كان بونابرت في ذلك الحين مقيما في باسريانو يفاوض النمسا في شروط الصلح الذى عرف فيما بعد بمعاهدة كامبو فورميو ، ويكثر من الحديث في موضوع مصر • وقد احتفظ الجنرال ديزيه ، فاتح الصعيد العتيد ، بمذكرة قيد فيها أحاديثه مع بونابرت • وجاء في المذكرة : « أفكار عن مصر ، مواردها ، مشروع خاص بها ، تقدم الصلح مع النمسا وانجلترة • الابحار من البندقية بقوة من ١٠٫٠٠٠ جندى (فرنسى) و ٨٫٠٠٠ بولندى الى مصر • الاستيلاء عليها • فوائده • التفاصيل • بخمس فرق وألفي جواد » (٢٠) ولكن الذى

حدث أن المشروع قدر له أن يعطل طويلا ، ولم تكن البندقية الميناء الذى شهد ابحار الحملة (*) .

ولا ريب فى أن الحملة الفرنسية - برغم فشل جميع أهدافها - كان لها نتائج بعيدة شديدة التباين . أما كون حصيلة الموازنة بين هذه النتائج ايجابية أو سلبية فمسألة يختلف فيها الرأى ، ولكن هذه النتائج على أية حال بعدت كل البعد عن النتائج التى توقعها الدوق دشوازيل . كما بعدت نتائج جميع التجارب الاستعمارية عما توقعه مخطوطها . وأما الحقائق الانسانية التى انطوت عليها الحملة - وهى المبحث الأساسى لهذا الكتاب - فهى حقائق ، وليس هناك تناقض أغرب من تناقضها مع أحلام من كانوا العلة فيها من الساسة الخلاقين .

٣

اذا كان تاليران قد أحاط الادارة علما بأفكاره عن مصر فى خريف ١٧٩٧ ، فليس هناك شاهد على أنه تلقى منها جوابا مرضيا . . ذلك أن انتصارات الأسلحة الفرنسية فى ايطاليا وألمانيا ، وحالة التمرد فى الأسطول الانجليزى ، ونذر السخط العام فى بريطانيا ، فضلا عن ايرلندة . كل هذا شجع حكومة الادارة على أن تغلو فى الأمل بأن ترى مقاومة انجلترة تنهار بعد قليل . وكان الفرنسيون قد قطعوا فجأة مفاوضات الصلح التمهيدية مع انجلترا ، وهى التى جرت فى « ليل » فى الصيف ، لأن بريطانيا رفضت أن ترد مستعمرة رأس الرجاء الصالح لحلفائهم الهولنديين . اذن لابد من تسديد ضربة مباشرة الى الجزيرة البريطانية تؤيدها ثورة فى ايرلندة . ونظم جيش لغزو انجلترة ، وعين الجنرال بونابرت قائدا له ، اذ بدا أنه نسى مصر . وكان كبار الموظفين فى باريس يجتمعون فى الوقت نفسه مع قوة مختلطة من المحرضين ومثيرى الفتن السويسريين والايطاليين والايرلنديين . فليس أنسب من اثارة الفتن فى سويسرة والولايات البابوية ، والتدخل بالقوة باسم الحرية ، ومصادرة خزائن برن وروما المشهورة بكنوزها الخيالية ، والواقع أنه برغم الجهد الكبير الذى اقتضاه اصطناع الحجج اللازمة ، فان هذا بالضبط ما حدث فى الشهور الأولى من عام ١٧٩٨ . أما الثورة الايرلندية فكانت أقل نجاحا كما سنرى ، ولكن تكاليفها تحملها الايرلنديون وحدهم تقريبا .

وعاد بونابرت الى باريس فى ديسمبر ١٧٩٧ ، وبدا عليه أنه يتحرق

(*) على أن بونابرت انتفع فعلا بعدد من بوارج البندقية التى استولى عليها .
أما البولنديون الذين أشار اليهم فمحاربون قدامى فى قوات كوشيوسكو الذى نفى من بلاده . وكان فى الجيش الفرنسى فى مصر نفر غير قليل من المتطوعين البولنديين ، ومنهم الجنرال زايونشك ضابط الفرسان ، وسولكوفسكى ياور بونابرت .

حماسة لتنفيذ مشروع الغزو ، ولكنه اتخذ فى الوقت نفسه مظهر رجل السلام الذى لا يطمع فى شىء أكثر من اعتزال الحياة العامة والتفرغ للدرس · وكان قد انتخب قبيل ذلك عضوا فى الشعبة الرياضية من المجمع العلمى القومى ، وأعلن أنه ليس هناك انتصارات حقة غير انتصارات العلم على الجهل · ومع ذلك فان الانتصـــار الذى كان واضحا أنه يتخذ له العـــدة هو الانتصار على انجلترة · وقد وصفه « ولف تون » الذى لقيه فى هذه الفترة بأنه رجـــل مجامل ، بارد ، غامض ·

وقبل أن ينتهى فبراير ۱۷۹۸ كان مشروع الغزو قد تخلى عنه فجأة ، أو قل عدل وأجل · ذلك أن الأسطول الفرنسى لم يكن كفئا له · ولم تكن أسبانيا وهولندة راغبتين فى التعاون فيه · وفى ۹ فبراير سلم مجاللون الى تاليران مذكرة مطولة عن مصر ، وفى ١٤ منه قدم تاليران خطته لفتح مصر الى الادارة ، وفى ۲۳ منه كتب بونابرت تقريره المفعم بالتشاؤم الى الادارة يحبذ فيه التخلى عن مشروع الغزو ويقترح فيما يقترح من حلول بديلة تجريد حملة على مصر · وبعد أسبوع وافقت الادارة على المشروع · (وقد لام رجال الادارة بعد ذلك بعضهم بعضا على هذا القرار الذى زعم اثنان منهم على الأقل أنهما عارضاه) · وفى ٥ مارس حرر بونابرت مذكرة للادارة أجمل فيها خططه · وفى ١٢ أبريل أصدرت الادارة سلسلة من القرارات ، فصـــدرت التعليمات لبونابرت أن يستولى على مالطة ومصر ، ويطرد الانجـــليز من مؤسساتهم فى الشرق ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ويشق برزخ السويس ، ويحسن الأحوال المعيشية للوطنيين فى مصر ، ويحتفظ بالعلاقات الطيبة مع الباب العالى · وقدر بوجه عام أن ستة أشهر تكفى لتحقيـــق الأهداف العاجلة وللتمهيد لتحقيـــق الأهداف البعيدة ، وعندها يعود الجنرال بونابرت تاركا خلفه قوات كافية ، فاذا لم توافق انجلترا على الصلح بشروط مرضية تقلد قيادة القوات المخصصة لغزو بريطانيا العظمى · وفى هذا الوقت تثور ايرلنده بزعامة حزب الايرلنديين المتحدين · ثم توطد العلاقات فى الوقت نفسه ، أثنـــاء حملة بونابرت على مصر ، مع تبو صاحب سلطان ميسور الذى كان يحارب الانجليز آنئذ فى الهند ، ويذهب تاليران الى الآستانة فى سفارة شخصية ، لأنه ان كان هناك انسان يستطيع اقناع الباب العالى بأن فرنســـا تحتل مصر خدمة لمصالح تركيا فهو تاليران · ولكن الذى حدث أنه قرر فى النهاية ألا يذهب ـ وكان فى قراره حكيما ـ اذا ذكرنا ما حدث بعد قليل للقائم بالأعمال الفرنسى فى الآستانة ·

وليس هناك شك فى أن بونابرت أكد لمن أقنعهم بمرافقته فى هذه المغامرة أنهم عائدون الى أرض الوطن قبل نهاية ۱۷۹۸ · أما أنه اعتقد أنه هو نفســـه ســـيعود قبل ذلك التاريخ فأمر غير محقق · وقد رد على بوريين حين ســـأله كم من الزمن يتوقع أن يغيب ، فقال (فى رواية بوريين) « بضـــعة شهور ،

أو ست سنوات • ان الأمر كله يتوقف على سير الأحداث • سأستعمر مصر ، وأستورد الفنانين والعمال من جميع الأنواع ، والنساء ، والممثلين • الخ اننا لم نجاوز بعد التاسعة والعشرين ، وسنبلغ عندها الخامسة والثلاثين ، وهذه أيضا سن صغيرة • ان ست سنوات تكفيني للذهاب الى الهند لو سارت الأمور سيرا طيبا » (٢١) وفى ظننا أن الشيء الوحيد الذى كان بونابرت يعتمد عليه اعتمادا أكيدا هو قدرته على استغلال سير الأحداث أيا كان •

كان أمام بونابرت منذ وافقت حكومة الادارة على المشروع المصرى حتى اليوم الذى عبر فيه الأسطول الفرنسى طولون نحو عشرة أسابيع يجمع فيها جنوده ويجهزهم ويحشد الناقلات ويعد البوارج للرحلة ويجند البحارة اللازمين لرفع صفوف الملاحين التى نضبت الى قوتها الكاملة ويختار لجنة من الخبراء المدنيين ليرافقوا حملته ــ مهندسين وعلماء واخصائيين فى الطيران وفنانين وأثريين واقتصاديين وكيميائيين وجراحين وكتابا وموسيقيين ومترجمين وطابعين • لا عجب اذن أن يكون بعض هذا العمل قد أنجز بطريقة عاجلة ناقصة ، بل العجب أن يكون قد أنجز اطلاقا • على أن السرعة كانت لازمة لمنع العدو من العلم بهدف هذه الاستعدادات الكبيرة ، وللسيطرة على مصر قبل أن يوافى فيضان النيل السنوى •

كان فى طبع نابليون أن ينسب لنفسه فضل جميع الأعمال التى يؤديها له غيره ، وفى طبع المعجبين به أن يصدقوا كلامه • ويؤكد لنا المؤرخون أن بونابرت أنفق وقته من بداية مارس حتى رحيله عن باريس فى ليلة ٣ مايو فى نشاط محموم أظهر فيه عبقريته التنظيمية الخارقة • وما من ريب فى أنه كان مشغولا ، ولكن ليس هناك شيء خارق فى أن يجلس قائد الى مكتبه ويأمر وحدات جيشه أن تتحرك من مكان الى آخر ، ولو عجز عن هذا لأثبت أنه رجل غير كفء ، وهو لم يكن كذلك بلا شك • أما الفضل فى سير العمليات المعقدة فى يسر فيرجع الى أولئك الذين جعلوا من جيش الثورة الفرنسية أداة منظمة تنظيما جديرا بالاعجاب ، ذكية ، سريعة الاستجابة ، والفضل فيه راجع على الأخص الى مدير المهمات ناجاك ، موظف البحرية المدنى الذى أشرف على الاستعدادات فى طولون • وزاد من قيمة الخدمات التى أداها ناجاك أنه كان حديث عهد يتولى منصب شغله قبله موظف هرم أرعن خلف له تركة حافلة بالعجز الضخم ، وعمال أرصفة تأخرت رواتبهم شهورا عديدة ، وترك له فوضى شاملة •

واذا كان فى طبع بونابرت أن ينسب لنفسه كل الفضل ، فانه كان أيضا يلقى اللوم على غيره فى جميع أخطائه • فلم يفتأ طوال حياته متشبثا بفكرة خاطئة عن ضباط البحرية الفرنسية مؤداها أنهم ليسوا الا فئة عنيدة ، شديدة

الاحجام ، مدققة فى التوافه ، لا تفتأ تثير الاعتراضات الفنية ، وتزعم أن كل ما يطلبه مستحيل ، وتجلب الهزيمة بحرصها المفرط • ولو أنه استمع لهؤلاء الضباط لأعفى من الهزيمة فى ووترلو • ومهما يكن من أمر ، فلا ريب فى أن البحرية الفرنسية فى عام ١٧٩٨ كانت فى حال سيئة اذا قيست بالبحرية البريطانية • حقا كانت بعض سفنها ممتازة ، ولكن كثيرا من السفن كان يفتقر الى الترميم ، وكانت صفوف الملاحين قد هبطت دون قوتها هبوطا خطيرا ، وسلاح الضباط تضب (أشد من نضوبه فى الجيش) بسبب الهجرة أثناء حكم الارهاب — ولم يكن من اليسير فى أيام السفن الشراعية أن يدرب ضباط جدد بين عشية وضحاها • وفقدت البحرية الفرنسية فى خمس سنوات ، بين ١٧٩٣ و ١٧٩٧ ، خمسا وثلاثين بارجة واحدى وستين فرقاطة • وكان من الحماقة ارسال قافلة بطيئة مؤلفة من ٤٠٠ سفينة عبر البحر المتوسط ، الذى عاد اليه الأميرال نلسن لتوه بأسطول كبير ، وسنرى أن الذى أنقذ القافلة من الدمار بطؤها ونفاد صبر نلسن • ومع ذلك أمكن ، بفضل نشاط ناجاك وهمته الى حد كبير ، اصلاح البوارج اصلاحا كافيا ، ورفع عدد الملاحين رفعا معقولا الى ما يقرب من قوة الميدان ، وجمع الناقلات — ومعظمها من السفن التجارية الفرنسية والايطالية • ووكل أمر القوة البحرية كلها الى الأميرال الثانى بروى الذى كتب عليه أن يلقى الهزيمة والموت جزاء أمانته وبطولته • وقسم الأسطول أقساما ثلاثة ، أولها تحت امرة بروى نفسه على السفينة لوريان ، وثانيها تحت امرة مساعد الأميرال بلانكيه دشيلا على البارجة لفرانكلن ، وثالثها تحت امرة مساعد الأميرال فيللنيف على البارجة جيوم تل • وقاد القافلة مساعد الأميرال دكريه على الفرقاطة لاديان • أما مساعده الأميرال جانتوم فكان رئيسا لأركان حرب بروى • فى يد هؤلاء الرجال ، وضباطهم ، وملاحيهم السيئى التدريب ، المفتقرين الى النظام ، كان مصير الحملة كلها ، وكان أملهم الوحيد أن يكون الحظ حليفا لهم •

كان جمع القوات البرية مهمة يسيرة بالقياس الى الاستعدادات البحرية • فما ان استقر الرأى فى أوائل مارس على تجريد الحملة حتى صدرت الأوامر الى الوحدات التى اختارها بونابرت لتسير الى موانىء الابحار — وهى طولون ، ومرسيليا ، وجنوه ، وأجاكسيو ، وشفيتافكيا (وقد انضمت قافلة مارسيليا الى الأسطول فى ١١ مايو ، أما القوافل الثلاث الأخرى فقد تقرر أن تبحر فرادى وأن تنضم الى القافلة الرئيسية فى عرض البحر) • وكانت الوحدات مشتتة على مسافات بعيدة فى الوقت الذى اختارها فيه بونابرت • فبعضها كان فى سويسرة بعد أن فرغت لتوها من فتحها ، وبعضها الآخر متروك فى شمالى ايطاليا ، وغيرها فى روما حيث خلعت البابا بيوس السادس بوصفه حاكما زمنيا وأقامت جمهورية تحت الحماية الفرنسية ، ووحدات أخرى فى كورسيكا ،

وعدة فرق في شمالي فرنسا بوصفها جزءا من « جيش انجلترا » • هذا التشتيت الواسع لمختلف الوحدات المدعوة يحجب عنا حقيقة ، هي أنها كلها تقريبا كانت جزءا من « جيش ايطاليا » خلال حملة بونابرت ١٧٩٦ - ٩٧ ، أما الوحدات القليلة التي لم تخدم تحت امرته من قبل فقد تقرر تركها حامية في مالطة • وكان طبيعيا أن يفضل بونابرت الرجال الذين أبلوا بلاء حسنا تحت قيادته في أركول ، ولودى ، وكاستليوني ، وريفولي ، والذين يستطيع أن يركن الى ولائهم في حملته الخطرة الجديدة • فكلهم من قدامى المحاربين المحنكين ، وكثير منهم تطوعوا للدفاع عن أرض الوطن في عام ١٧٩٢ وقاتلوا في جيش السامبر - والموز ، وفي جيش الراين ، قبل نقلهم الى ايطاليا • على أن روحهم المعنوية لم تكن عالية بدرجة متماثلة وهم يسيرون الى مختلف الموانىء التي أبحروا منها • لقد كانت أول حملة بحرية خرجوا فيها ، ومع أنهم لم يكن لديهم أقل فكرة عن وجهتهم ، فانهم كانوا على بينة من متاعب الرحلة البحرية ومخاطرها ، وارتفعت نسبة الهاربين من الجيش في بعض الفرق أثناء السير الى الموانىء ارتفاعا غير عادى ، ولعلها كانت ترتفع أكثر لو علم الجنود بما يخبئه لهم الغيب ، أو عرفوا كم من الزمن سيتغربون عن بيوتهم ويحرمون من أسباب الحضارة ومن أسرهم وزوجاتهم وخليلاتهم • أضف الى ذلك أن رواتب الجند في كثير من الوحدات ، لا سيما ما كان منها في ايطاليا ، كان قد طال تأخير صرفها ، ولم يصلح مزاج الجنود المواطنين الذين تأخرت رواتبهم منظر مندوبي الجيش وهم يعيشون في ترف على بيع أملاك الحكومة بيعا غير مشروع من جهة ، وعلى الغنائم والرشاوى من جهة أخرى • ولقد ضرب بونابرت على وتر يستجيب له الجند حين أشار في خطابه الى أن الجمهورية لم تعاملهم معاملة انصاف ، وكان وعده لهم بالمكافأة والمجد معا ضرورة سيكولوجية لازمة •

أما المدنيون المرافقون للحملة فكانوا أكثر تفاؤلا من الجنود • وكانت الحملة تضم بالاضافة الى اللجنة العلمية الفنية كما سميت (وهي في الواقع لم تكن الا لجنة خبراء وفنيين) على الأقل خمسمائة مدني ، بينهم ستة وعشرون من مندوبي الجيش و ٤٤٥ من الموظفين الاداريين (*) •

كان بونابرت قد عرض وظيفة المراقب المالي العام لقوات الحملة ، أو كبير موظفيها الماليين ، على « هالر » السويسري الذي شغل مثل هذا المنصب خلال

(*) كانت جميع مصالح الجيش (كالمالية والتموين والمستشفيات •• الخ) الى سنة ١٨٠٧ ، حين أعاد نابليون تنظيم ادارة الجيش ، في يد سلاح من المندوبين المدنيين الذين ينفذون العمليات بالاستعانة بمتعهدين أهليين • وكانت التعيينات في سلاح المندوبين هذا سياسية خالصة في كثير من الأحيان ؛ مثال ذلك أن شقيقي بونابرت جوزف ولوسيان كانا يشغلان منصبين رابحين في هذا السلاح أثناء حملته على ايطاليا ، وكذلك كان عمه فيش ، الكردينال العتيد ، وكانت رذائل هؤلاء الموظفين هدفا لغضب بونابرت حين يجاوزون فيها الحدود •

الحملة الايطالية ، على أن هالير كان فى تلك اللحظة ينعم فى روما بفرص ماكان يحلم بها ، ويسلب خزانة الرجل الذى أطلق عليه الجند اسم « المواطن البابا » • (وهالير هو الذى رد على بيوس السادس ـ الشيخ الذى نيف على الثمانين ـ حين رجاه أن يتركه ليقضى بقية حياته فى روما بقوله : ان الموت اذا حضر فميسور أمره فى أى مكان ، ثم أمر بنقله الى المنفى) • فلما اعتذر هالير اللبق عن قبول المنصب فى أدب ، ولى بدله المواطن بوسييلج ، وكان قد فرغ لتوه من القيام بمهمة دقيقة أوفد فيها الى فرسان مالطة بنجاح كبير كما سنرى •

وكانت الفرقة المدنية تضم أفرادا أقل شأنا تفتقر اختصاصاتهم فى غالب الأحيان الى التحديد • فكان هناك الطهاة والخدم ، وعلى الأخص نفر من صغار التجار والمتعهدين الذين اذا شموا رائحة الربح لزموا أى جيش أيا كانت وجهته ـ وهم فئة ما زالت توجد فى وقت الحرب على حواشى مراكز التدريب العسكرى، كذلك كان هناك نساء وأطفال كما ذكر نقولا الترك • ولعل بعض الأطفال الذين أشار اليهم كانوا صبيانا للبحارة وللضباط • وقد كان من حظ صبى الضابط « كازابيانكا » ، الذى كان فى التاسعة أو العاشرة من عمره ، أن يشتهر اسمه بفضل ميتة لا داعى لها ، وقصيدة شعر رديئة خاطئة الوقائع (*) ولعل الفرقة كانت تضم الى هؤلاء بعض الصبيان الطبالين • وأبناء صاحبات المطاعم (الكانتينات) والغسالات وما أشبههن • هؤلاء وأمهاتهم كابدوا المشاق كغيرهم، وبعضهم مات بلا شك ، وان أصر المؤرخون على اغفال شأنهم •

واذا استثنينا الموظفات المصرح لهن رسميا بمرافقة الحملة ، فان النساء كان محظورا عليهن بالأوامر المشددة أن يبحرن مع أزواجهن أو عشاقهن • (ولم يكن من غير المألوف أن تتبع النساء رجالهن فى الحملات) • على أن الأوامر لم تكن مجدية تماما • من ذلك أن الجنرال فردييه استطاع أن يصطحب زوجته معه ، وهى امرأة ايطالية لطيفة شديدة الحيوية (٢٢) ، وأفلحت نساء أخريات تنكرن فى زى جند فى فرق أزواجهن فى التسلل الى الناقلات • وبلغ عدد النساء المرافقات للحملة جميعا نحو ٣٠٠ امرأة • وكان فى نية بونابرت أن يأتى بالمدنيين ، بما فيهم النساء ، الى مصر بعد أن يستقر له فتحها ، ولكنه بعد أن أفسدت البحرية البريطانية عليه خطته أصبح يدين بالشكر لمن أفلح منهن فى اصطحاب الحملة متسللات فأشعن المرح فى حياتها فى القاهرة • وكان شاكرا على الأخص لتلك التابعة الجميلة ، الشقراء ، الشابة ، مدام فوريه ، زوجة الملازم فوريه ، الذى سرعان ما ندم على أخذها معه •

(*) الاشارة الى قصيدة لمسز هيمنز عن موت الصبى ، وهو ابن الكابتن كازابيانكا (انظر الفصل ٤ : ٢) •

٤

كان بيت الجنرال بونابرت في شارع شانترين (الذى سمى بعد عودته من ايطاليا بشارع النصر) أشبه الأشياء بمخدع مومس ، فلم يرق زوجته جوزفين التي كانت تود أن تبعده عن فرنسا لتستطيع شراء قصر لامالميزون (ولم يكن في طاقتها دفع ثمنه) والتمتع بصحبة عشيقها مسيو شارل ، الذى كانت تخدع في صحبته زوجها المنتصر متنقلة معه في جميع أرجاء ايطاليا · في هذا الجو الغرامى كان الجنرال بونابرت ، عضو المجمع العلمي ، يعد حملته ، ويحاول التودد لزوجته ، برغم وجود كلبها الصغير (*) ، المكشر أبدا عن أنيابه ، على كره منه · ولم يكن قد أدرك بعد المدى الكامل لخيانتها (وقد كشف له عنه بعد ذلك في مصر) · ولكن سيل الفواتير المطالبة بأثمان ثيابها وحليها الباهظة ، هذا السيل الذى لم ينقطع كان كافيا لترويعه ، ولم تكن دونه ازعاجا له تلك الحرب المنظمة التى شنتها أسرته على زوجته · اذن فالقيام بحملة ظافرة ثانية ، بما يلازمها من مغانم ، ولو لمجرد هذه الدواعى العائلية ، بدا أمرا محتوما · وفرغ الجنرال بكليته ، على قدر ما سمحت شواغله العائلية ، لتنظيم الحملة · وعدد خطاباته الرسمية التى كتبها فى الفترة بين مارس ومايو ١٧٩٨ ليس كبيرا (**) ، ولكنه أنفق كثيرا من نشاطه فى المؤتمرات ، ولم تحفظ لنا جميع خطاباته · وكان اصدار الأوامر بتحركات الجنود أمرا يسيرا بالقياس الى مهمة أكثر دقة ، هى المفاوضات اللازمة لتعيين ضباط أركانه وأعضاء اللجنة العلمية التى كان يعلق عليها أهمية مماثلة · أضف الى ذلك أنه صمم على أن يتعلم فى أسابيع كل ما ينبغى أن يعرفه الفاتح عن مصر وسوريا وتركيا والاسلام · وقد نجح بطريقته التى تشوبها الفجاجة نجاحا ملحوظا فى هذه الجهود كلها ·

كان بونابرت فى اختياره للقواد الذين يعملون تحت امرته مقيدا باعتبارات امكان الحصول عليهم ، ورغبتهم فى العمل تحت قيادة رجل صغير السن بعيد المطامح مثله · وقد صحبه الى مصر (***) سبعة وعشرون من الضباط القواد الواحد والثلاثين الذين اختارهم · ومن هؤلاء اغتيل اثنان ، وجرح فى المعارك ثلاثة جراحا قاتلة (ولعل أحدهم انتحر) ، وجرح تسعة ولكنهم عاشوا ، ومات

(*) يعترض المؤرخ المدقق على هذا طبعا بأن « فورتونيه » وهو الكلب الذى كان بونابرت يشكو منه فى رسائله قتله كلب طاهى بونابرت خنقا فى أواخر ١٧٩٦ · ولكنا نفترض أن كلبا آخر خلف فوتونيه ·

(**) يبلغ عددها ١٨٠ من ٥ مارس الى ١٩ مايو فى « رسائل نابليون الأول » وهى بالطبع ناقصة ·

(***) ظل الجنرال فوبوا بمالطة قائدا للحامية الفرنسية ، ومكث معه الجنرالان شانى وديئيزل · أما الجنرال باراجيه ديلييه فقد أعيد الى فرنسا من مالطة ·

اثنان من المرضى فى مصر · وهذه نسبة عالية جدا للحوادث بين القواد . ولكن نابليون كان دائما ينظر الى القواد على أنهم قابلون للاستهلاك ، ويريدهم أن يضربوا المثــل فى البســالة · وكان نحــو ثلثيهم قد حاربوا تحت قيادته فى ايطاليا · ولكنهم لم يكونوا بحال أبرز قواده · ومن الحقائق الجديرة بالملاحظة أن سبعة وعشرين من الواحد والثلاثين حاربوا فى جيش الملكية القــديم كما حارب بونابرت ــ ستة عشر منهم ضباطا وأحد عشر جنودا · وقد أصبح ستة من هؤلاء القواد مارشات للامبراطورية فيما بعد ، وأصبح أحدهم ملكا (وهو مورا ، وأبوه فندقى) · وكان خمسة وعشرون منهم أكبر من قائدهم الأعلى وأربعة أصغر منه سنا · وأكبرهم يبلغ السابعة والخمسين وأصغرهم الخامسة والعشرين ، ومتوسط أعمارهم ثمانية وثلاثون عاما ــ فالقيادة فى مجموعها قيادة شابة (*) ·

وكان جنود المشاة مقسمين خمس فرق ، يقودها اللواءات ديزيه ، وكليبر ، وباراجيه ديلييه (الذى حل محله مينو بعد قليل) ، ورينييه ، وبون · وألمعهم ديزيه وكليبر · فأما من حيث كفايتهما فى القيــادة فهما على الأقل قريعان لبونابرت ، وأما من حيث صفاتهما الانسانية فهما أسمى منه قطعا · ولابد لنا من أن نذكر المزيد عن هذين الرجلين ، وعن مينو الذى اعتنق الاسلام ليتزوج ابنة صاحب حمام · وفى أثناء الاستعدادات للحملة أشرف كليبر على مناطق الابحار فى طولون ومرسيليا وجنوه وأجاكسيو · ووكل الى ديزيه أمر التسليح فى شفيتا فيكيا · وكان ديزيه يبلغ يومها التاسعة والعشرين ، وكليبر الخامسة والأربعين · وقد كتب لهما أن يموتا فى يوم واحد ، بل فى ساعة واحدة ، وبينهما مسافة ١٫٥٠٠ ميل ، أحدهما فى ساحة القتال ، والثانى بيد فاعل ·

وعين بونابرت لقيادة مدفعيته قائدا كفئا هو « دومارتن » · أما قيادة سلاح المهندسين والاشراف على اللجنة العلمية فقد وكلا الى الجنرال كفاريللى دفالجا، وكان قد فقد احدى ساقيه فى ألمانيا وكتب عليه أن يفقد ذراعا ، وبعدها حياته ، فى سوريا · وكان كفاريللى أوثق ضباط الحملة العسكريين صلة ببونابرت دون ريب · أما سلاح الفرسان فقد عقدت قيادته لصنديد من المولدين هو الجنرال « ألكسندر ديما » ، وهو أبو ديما القصاص ، وكان كأنه جيش من ألف رجل ، ولكنه لم يكن قائدا كفئا ·

ومن بين ضباط أركان حرب بونابرت ضابط يدعى « دوروك » وقد أصبح فيما بعد « الدوق فريول » ، وهو الرجل الوحيد الذى اعترف بونابرت

(*) هذه البيانات تصدق بالطبع على تشكيل القيادة فى بداية الحملة · ولكن عدة ضباط رقوا الى رتبة القيادة أثناء الحملة · ورتبة « اللواء » تستعمل فى فصول هذا الكتاب ترجمة للرتبة الفرنسية Général de division

بأنه عاشره صديقا ، والبولندى « سولكوفسكى » ، وهو ضابط لامع كان له قيمة مزدوجة للحملة ، فهو فارس من فرسان مالطة ، وخبير بشئون شرقى البحر المتوسط ، ومجيد للكلام بالعربية ، و « جونو » الذى أصبح فيما بعد الدوق « أبرانتس » ، وكان وثيق الصلة بأسرة بونابرت ، وكروازييه الذى أذله بونابرت بعد ذلك فكان لاذلاله نتائج مؤسفة ، ولويس بونابرت شقيق نابليون ، وقد أصبح فيما بعد ملكا على هولندة ، وهو رجل مصاب بالزهرى وبالشذوذ الجنسي ، يزعم أنه أديب ، و « أوجين بوهارنيه » ابن زوجة نابليون ، الذى أصبح فيما بعد حاكما على ايطاليا ولكنه كان يومها فتى فى السابعة عشرة شديد البراءة • ومن هؤلاء مات الأربعة الأولون ميتة قاسية — فقتل دوروك فى ألمانيا ، ومزق سولكوفسكى اربا فى مصر ، وأصيب جونو بالجنون وانتحر فى دلماشيا ، وقتل كروازييه فى سوريا •

ودعا بونابرت الجنرال ألكسندر برتييه ، الذى يركن اليه على الدوام ، ليتقلد رياسة أركان حربه • وكان قد عمل رئيسا لأركان حـربه فى الحملة الايطالية ، وظل فى منصبه هذا حتى عام ١٨١٤ • وقد قيل ان برتييه ولد ليكون رئيس أركان حرب — فهو رجل مدقق لا يصيبه الكلل ، ولا مطمع له الا أن يكون رئيسا لأركان حرب نابليون • وكان يعمل فى انسجام تام مع قائده الأعلى بعكس غيره من قواد نابليون الذين كانوا يشعرون دائما أن سيدهم يستهين بهم • وكافأه نابليون بامارة نيو شاتل ، وبلقب دوق وجرام ، وزوجه أميرة بافارية • وقد كتب عليه هو أيضا أن يلقى خاتمة قاسية لحياته • ذلك أنه حين عجز عن الانضمام الى نابليون خلال المائة يوم ، وقع ميتا على الرصيف من شرفته فى بافاريا ، بعد أن أطل على عرض لجيوش الحلفاء فى طريقها لقتال فرنســا •

***

ومع أن اختيار العلماء والفنيين وكل الى الجنرال كفاريللى والكيميائى الكبير برتولليه ، فكان المواطن بونابرت عضو المجمع العلمى (الشعبة الرياضية). شارك فيه فيه بنصيب نشيط جدا • ولم يكن دائما موفقا تماما • مثال ذلك أن المواطن « لانجليه » أمين المكتبة الأهلية ، وأستاذ العربية والتركية والفارسية والصينية والمنشوية ، أعرب عن رفضه الدعوة لمرافقة حملة حربية مجهولة المقصد فى عنف يكاد يكون هستيريا ، وأصر على أن مكانه فى شارع ريشليو لا فى خيمة فى العراء • فحل محله آخر الأمر المستشرق « فنتور » ، وهـذا أيضا لم يعد •

وكان المواطن « مونج » ، وهو من أعظم الشخصيات تعددا فى الكفايات فى تاريخ العلم ، أقل كرها من لانجليه لهذه المهمة ، ولكنه كان يرهب زوجته •

كان جاسبار مونج يناهز الثانية والخمسين فى عام ١٧٩٨ · وقد تعهد هذا الابن الأكبر لأحد الصناع المهرة ، فى حياته الباكرة ، موهبته الخارقة فى الرياضيات ، وقبل فى السادسة عشرة بمدرسة المهندسين الحربيين على الرغم من ضعة مولده · وقد درس بعد ذلك فى هذه المدرسة فى فترات من ١٧٦٦ الى ١٨٠٩ ، وهناك أنشأ فرعا جديدا فى الرياضيات ، هو الهندسة الوصفية · وبعد أن عين عضوا فى أكاديمية العلوم فى عام ١٧٨٠ انتقل الى باريس وأصبح مساعدا للافوازييه أبى الكيمياء ، الذى شهد لمونج باكتشاف تركيب الماء من الايدروجين والأكسجين · وانتهى سجل مونج فى خدمة العلم البحت فى ١٧٨٧ ، حين أوفدته وزارة الحرب ليفتش على مصانع حديد فندل فى لكروزو ، وفى نحو هذا الوقت عينته وزارة البحرية ممتحنا للطلاب فى المعاهد البحرية ، وهى مهمة اقتضته الاضطلاع برحلات كثيرة · ومن ذلك التاريخ ، وعلى الرغم من الجهود المتفرقة التى بذلها للعودة الى البحوث العلمية الخالصة ، اقتنصته عجلة الادارة والسياسة والتكنولوجيا التطبيقية · ولما كان مونج جمهوريا متحمسا فانه وضع مواهبه تحت تصرف حكومة الثورة ، فعمل وزيرا للبحرية فى ١٧٩٢ ــ ٩٣ ، وهى مهمة ميئوس منها تقريبا · وكلفته لجنة الأمن العام بالاشتراك فى تأليف كتاب سمى « نصائح لعمال الحديد عن صناعة الصلب فى أفران التمليط » لتوزيعه على جميع العمال الذين يريدون انشاء مصانع للصلب · وعمل فى لجنة للموازين والمقاييس أدخلت النظام المترى ، وفى لجنة للاستاتيكا الجوية ، واشترك فى تطيير بالون فى الجو · ووضع مع برتولليه طريقة لاستخراج ملح البارود من التربة العادية فمنع بذلك وقوع أزمة فى مصانع الذخيرة ، وأشرف على مصنع للذخيرة فى « جرينيل » (وقد انفجر المصنع ذات مساء فقتل ألف شخص) · وعمل فى لجنة للأشغال العامة ، وألف كتابا عن فن صناعة المدافع ، وحاضر فى الوسائل الحديثة لصنع الذخائر ، وكان عضوا نشيطا فى نادى اليعاقبة ، وأهم مؤسسى مدرسة الفنون الهندسية · وقام بكل ما يمكن أن يقوم به رجل محب لوطنه ليساعد هذا الوطن فى وقت الخطر ، ولكنه لم يحرك اصبعا ليساعد شريكه لافوازييه فى النجاة من المقصلة ·

وفى مايو ١٧٩٦ اتخذت حياة مونج اتجاها جديدا أكثر بعدا عن العلم · فقد عين هو وبرتولليه وأربعة خبراء آخرون أعضاء فى « لجنة حكومية لفحص التحف الفنية والآثار العلمية فى البلاد المفتوحة » ، وأوفد الى ايطاليا · وهناك توثقت الصداقة بينه وبين بونابرت ، وكانت اللجنة ــ فى أعقاب جيشه ــ تفحص المجموعات الفنية ، والمتاحف ، والمكتبات ، وتحدد ما يسلم منها للجمهورية الفرنسية بمقتضى شروط ومعاهدات الصلح · وجولة عابرة فى متحف اللوفر تدلنا على كفاية اللجنة التى كان مونج أكبر أعضائها · وحسب المرء أن يقرأ قائمة بالآثار الفنية التى حصلت عليها فرنسا ، وعلى رأسها صورة

الجيوكوندا (موناليزا) ، ليترنح خياله . وقد عرض الدوق بارما مليونا من الجنيهات الفرنسية ليحتفظ بصورة للرسام كوريدجيو - ولكن دون جدوى . وخير ما يقال دفاعا عن مونج فى هذه العملية أنه لم ينتفع منها بفلس واحد لنفسه .

وقد أصبحت صلة مونج ببونابرت حميمة وثيقة الى حد عجيب حين التقيا بميلانو فى صيف ١٧٩٧ . ولعل ما طبع عليه العالم من خلق مستقيم ونظرة عملية هو الذى اجتذب اليه القائد ، وكان بينهما قرابة ذهنية امتدت حتى الى مشاعرهما الغامضة بالتدين الربوبى . على أن هذه الفترة كانت أيضا فترة يجتاز فيها بونابرت ، البطل الظافر فى ميادين القتال ، أزمة عاطفية أذلت نفسه . ويخيل لنا أن بونابرت فتح مغاليق قلبه أكثر مما ألف لمونج ، الذى بلغ من الكبر مبلغ أبيه ، والذى كان مسلكه الجاد الرجولى نقيضا - ونقيضا يبعث فى النفس الراحة والعزاء - لخفة جوزفين وطيشها النسائى . على أى حال لم يكن شخص ألصق ببونابرت طوال الحملة المصرية من مونج .

وكان مونج فى طليعة من ذكر لهم بونابرت امكان تجريد حملة على مصر . وقد بدأ منذ سبتمبر ١٧٩٧ فى جمع الخرائط والمذكرات عن مصر لينتفع بها بونابرت .

وحدث فى ٢٨ ديسمبر أن تكاثرت عصبة من جنود البابا على الجنرال دوفو - نتيجة لبعض حوادث الشغب فى روما - وقتلته . وكان شابا من ضباط السفير الفرنسى (وهو جوزف أخو بونابرت) . وأمرت حكومة الادارة ، التى أثارت الجريمة سخطها ورحبت باتخاذها ذريعة ، الجنرال برتييه بالزحف على روما وعينت المواطن مونج رئيسا للجنة تحقق فى مقتل دوفو . أما مهمة مونج غير الرسمية فكانت الاشراف على تصفية قوة البابا الزمنية واقامة الجمهورية الرومانية ، على أن هذا كان حقيقة واقعة فعلا حين وصل مونج الى روما فى ٢٢ فبراير . (ومن التفاصيل الطريفة التى سجلها التاريخ أن الفرنسيين أمروا فى اليوم الذى خلعوا فيه البابا بانشاد لحن الشكر Te Deum فى كنيسة القديس بطرس احتفالا بهذه المناسبة) . وريع الناس - حتى المواطن مونج - لأعمال السلب والنهب التى ارتكبت تحت رعاية « هالير » ، مدير المهمات ، الرحيمة . فقد ابتز هالير من جمهورية روما ، بمقتضى ما سمى تلطيفا بمعاهدة التعاون المتبادل ، ٤٠٠٠٠٠٠ قرش نقدا ، فضلا عن الكنوز الكنسية ، والسيطرة على أحواض السفن والمناجم . الخ . وقد ذكر مونج لزوجته أن نقل التحف المشحونة الى فرنسا تطلب ٣٠٠ صندوق كبير ، ويخيل لنا أن واضع أصول الهندسة الوصفية كان يتقدم بخطى حثيثة ليصبح خبيرا مثمنا للتحف الفنية .

وفى ٥ مارس – وهو اليوم الذى أجمل فيه بونابرت للادارة خطط حملته – كتب أيضا الى مونج يطلب اليه أن يجمع حروفا عربية للطباعة ، وطابعين ، ومترجمين ، وغيرهم من الخبراء ، ودعاه للانضمام الى الحملة · وحصل مونج على الحروف من مكتب الطباعة الملحق بالدعاية الرومانية . كذلك وجد صفافين للحروف ، ووجدت أدوات المسح وعدة شبان خبيرين باستعمالها ، واختار أربعة مترجمين من بين طلاب الطب المشارقة فى روما · على أن مونج اعتذر أول الأمر من الانضمام الى الحملة ، فزعم أن واجباته تقتضيه الوجود فى باريس ، وأنه الى ذلك متقدم فى السن ·

ولما أحس بونابرت بالسبب الحقيقى فى رفض مونج اتجه الى جهة الاختصاص الصحيحة : فزار مدام مونج فى باريس · وحسبت الخادم التى فتحت الباب أن القائد الشاب النحيل تلميذ من تلاميذ الأستاذ مونج · وقاومت مدام مونج حينا ، ولكنها بعد عدة زيارات رضيت لبونابرت كارهة بأن يصطحب زوجها فى الحملة · وراحت فى خطاباتها لمونج توبخ زوجها الأحمق الهرم · فهل تراه فقد رشده حتى يريد أن يهيم فى الأرض وهو فى الثانية والخمسين ؟ على أن هذا الزوج الأحمق الهرم كان خلال ذلك يجنى ثمرات رضى بونابرت عنه · فقد انتخب عضوا فى المجلسين – مجلس الشيوخ ومجلس الخمسمائة ·

وما أن تلقى بونابرت الاذن من المواطنة مونج حتى تقدم الى حكومة الادارة يرجوها أن تعفى زوجها من مهمته فى ايطاليا وتعينه فى قوة الحملة · ومن هذا التاريخ أخذ مونج يعاون ديزيه فى الاشراف على الاستعدادات فى شفيتا فيكيا · وعهد اليه بونابرت بمهام خاصة وعامة : فهو يرجو المواطن مونج أن يشرف على شحن ٨٠٠ زجاجة نبيذ من مخزن أنبذة جوزف بونابرت مع القافلة ، كذلك ٤٫٠٠٠ زجاجة من نابلى ، وعربة فاخرة ذات عنانين يركبها القائد العام فى المدينة · كان مونج يشرف على كل شىء – على المطبعة العربية ، والأنبذة ، والعربة ، بل لقد بدأ يتلقى دروسا فى ركوب الخيل استعدادا للحياة العسكرية · واذ فرغ من هذا كله ، لم يبق أمامه هو وديزيه الا انتظار وصول سفينة البريد الفرنسية حاملة الأمر بأن تنضم قافلة شفيتا فيكيا – المؤلفة من نحو ثمانين سفينة – الى الأسطول الرئيسى ·

***

يستفاد من المصادر الرسمية أن لجنة العلوم والفنون كانت مؤلفة من ١٦٧ شخصا ، ترك اثنان منهم فى مالطة · وكانت نسبة كبيرة من هؤلاء كما ذكرنا موظفين فنيين أكثر منهم علماء أو فنانين · وأكبر قوة فى اللجنة هى قوة المهندسين المدنيين (تسعة عشر) والمساحين ورسامى الخرائط (ستة عشر) ·

وكان بونابرت يطمع في أن يصطحب معه جماعة من كبار الموسيقيين والشعراء ـ ويصعب القول لم · فميوله الأدبية والموسيقية محدودة ، أما جنوده فقانعون بفرق الجيش الموسيقية وقد حاول أن يجند من الموسيقيين « مهول » ، ولكنه أصر على أن الكونسرفتوار والأوبرا في حاجة أمس لخدماته ، فأخذ بونابرت بدله رجلا يدعى « جيوم ـ أندريه فلوتو » ، لم يشتهر الا ببحثه العلمي الذي قام به بعد ذلك في الموسيقى العربية · كذلك حاول بونابرت أن يجند « نيوموسين لرسيبيه » وهو أديب ذو نفوذ وان كان من أدباء المرتبة الثانية ، ولكنه رفض أيضا · فحل محله « أنطوان ـ فانسان أرنو » الذي لم يجاوز في رحلته قط مالطة ، وفرانسوا ـ « أوجست برسيفال ـ جرانميزون » وهو شاعر دون أوساط الشعراء ، ولكنه رجل لم يستحق في أغلب الظن كل السخرية التي انهالت عليه من المؤرخين ·

وكان هناك رجال أكثر كفاية من هؤلاء بين الفلكيين والنباتيين والجراحين والكيميائيين والأثريين والمعماريين · أما كبير المترجمين ، واسمه « جان ـ ميشيل دفنتور » فمستشرق لامع ، وكان من أكبر رجال الحملة سنا وهو اذ ذاك في السادسة والخمسين · ومن خير من وقع عليهم الاختيار المصوران « دنون » و « دوتيرتر » ، والمعماري « بلزاك » (ولا قرابة بينه وبين أونوريه) ، ولهم جميعا فضل تأسيس علم الآثار المصرية · على أن ألمع علماء الحملة كانوا من الرياضيين والكيميائيين وعلماء المعادن والحيوان · وقد ورد ذكر جسبار مونج من قبل ، ونضيف اليه من رجال الشعبة الرياضية « جان ـ باتست سيه » الذي أصبح من الأقطاب الدوليين في المدرسة الحرة للاقتصاد ، ثم « جان ـ باتست جوزف فوربيه » الذي يرجع الفضل فيما يتمتع به من شهرة أبقى الى « سلسلة معادلات فوربيه » التي لولاها لاستحالت الاحصاءات التطبيقية العويصة في عصرنا هذا ·

وأما « كلود ـ لوى برتولليه » ، وهو أهم من اضطلع بمهمة اختيار العلماء ، فكان طبيبا قبل أن ينقطع للكيمياء · وقد دافع عن نظرية «اللاهوب» بعناد شديد رغم كشوف لافوازييه ، ولكنه اعترف في عام ١٧٨٥ بخطئه عن طيب خاطر (وتلك فضيلة نادرة بين العلماء) · ومؤلفاته في الكيمياء التطبيقية كثيرة ـ لا سيما في تحضير الألوان والأصباغ ـ ومقاله في « الأستاتيكا الكيميائية » أول عرض منظم لمشكلات الفيزياء الكيميائية · وعالم آخر عظيم الكفاية ـ بل ربما كان أعظم كفاية من برتولليه ـ هو «اتيين جوفروا سانتيلير» ، الذي درس وهو في الحادية والعشرين أول منهج لعلم الحيوان في باريس · ولعله أيضا كان أول أستاذ للحيوان ـ والأستاذ الوحيد ـ الذي تنكر في زي ضباط السجن ، وهو عمل خطير قام به في محاولة عقيمة لانقاذ حياة أساتذته المسجونين قبيل مذابح سبتمبر ١٧٩٢ · وقد أفضت نظريات جوفروا ، التي

كانت من بعض نواحيها بشيرا بنظرية دارون ، فى ١٨٣٠ الى معركة مريرة مثيرة ــ ما زالت مشهورة فى تاريخ العلوم البيولوجية ــ اشتبك فيها مع صديق العمر « كوفييه » ، مؤسس علم الحفريات .

أما « نيكولا ــ جاك كونتيه » الذى كان يناهز الثالثة والأربعين حين أبحر الى مصر ، فصاحب الفضل فى عملين جليلين بينهما شيء من المفارقة . فهو أول من فكر فى استخدام البالونات لأغراض حربية ، وقد استخدمها بنجاح فى معركة « فلورى » ، ونظم أول أورطة تنقل بالجو ، بل انه وضع خطة بعد ذلك لغزو الجزر البريطانية بجيش ينقل بالجو . وهو كذلك مخترع أول قلم من الجرافيت ، واستخرج براءة باختراعه كانت مورد رزق لأبنائه وأحفاده . وقد أوتى من البراعة المكتبية ما يشبه السحر : فكان فى استطاعته أن يصنع من أبسط المواد كل ما تدعو اليه الضرورة من أدوات ، ومن أدوات لصنع الأدوات اذا اقتضى الأمر ذلك ــ وموهبة كهذه كانت نعمة كبرى فى مصر . وقد رأس شعبة الميكانيكا والأستاتيكا الجوية فى اللجنة العلمية ، يساعده فيها أحد عشر خبيرا .

واذا كانت سلسلة فورييه سميت كذلك نسبة لفورييه ، وقلم كونتيه الرصاصى نسبة لكونتيه ، فان سلسلة جبال الدولوميت فى الألب الايطالية اشتقت اسمها من خام الدولوميت ، الذى سمى نسبة لعضو آخر فى لجنة بونابرت العلمية هو عالم المعادن « ديودا ــ جى ــ سيلفان ــ تانكريد جراتيه ددولوميو » . وهو مشهور بحياته الحافلة بالمغامرات ، فضلا عما أسهم به من اضافات فى فرع تخصصه . فلعله الوحيد بين من نعرف من علماء المعادن الذى حلق شعر يافوخه ونصب فارسا من فرسان مالطة وهو بعد صبى فى المهد ، وما من شك ــ اذا ثبت كذب هذه الرواية ــ فى أنه عالم المعادن الوحيد الذى حكم عليه بالسجن المؤبد وهو فى الثامنة عشرة لقتله رجلا فى مبارزة . حدث هذا فى عام ١٧٦٨ . وأنقذه الرئيس الأعلى للفرسان ، وبعد ذلك خدم فترة فى الجيش الفرنسى ، ثم استقال ليواصل دراساته العلمية .

وليس من اليسير علينا أن نتبين هل كان الكبتن « اتيين ــ لوى مالو » ، الضابط بفرقة المهندسين، عضوا بالشعبة الرياضية من اللجنة العلمية أم ملحقا بأركان حرب الجنرال كفاريللى رأسا . وأيا كان وضعه ، فهو من ألمع العلماء الذين رافقوا الحملة . كان معينا بمدينة جيسن الألمانية ــ وهى مدينة جامعية هادئة ، وعلى وشك الزواج من الآنسة كوخ ، ابنة مدير الجامعة ، حين استدعاه كفاريللى الى باريس وألحقه بقوة الحملة ، وكان مالو يومها لا يزيد على الثالثة والعشرين . وقد احتفظ فى مصر وسوريا بيوميات سجل فيها وجوه نشاطه التى جعلته يتصل بالقوات المقاتلة وبزملائه العلماء . وكان من الأعمال التى

قام بها الاشراف على مستشفى الطاعون فى يافا ، حيث أصيب بالمرض وعالج نفسه حتى شفى • وأهم ميادين تخصصه دراسة خواص الضوء الطبيعية • ولما عاد الى فرنسا فى ١٨٠١ تزوج من الآنسة كوخ ، واكتشف مبدأ استقطاب الضوء . وأجازته الجمعية الملكية بلندن فى ١٨١١ مدالية « رمفورد » — وهذا شرف يندر أن يناله عالم من أمة معادية ابان حرب شاملة • وبعد سنة مات بالسل •

أما الأطباء الملحقون بالحملة ، والذين لم يكونوا مدنيين ولا عسكريين ، فقد كتب لهم أن يلعبوا دورا لا ينسى وان كان مغموطا • وكبير الجراحين الدكتور « لاريه » ، مبتكر مستشفيات الميدان السريعة الحركة ، هو الرجل الذى وصفه نابليون فى وصيته بأنه أكثر من عرف من الرجال فضيلة • وزميله الدكتور « ديجنيت » ، كبير أطباء الجيش ، أقل منه شهرة — ربما لأن استقلاله فى الرأى ونزاهته سببا الصدام بينه وبين « بطل الحملة » — كما كان كليبر يصف بونابرت تهكما — ولعل الدكتور ديجينيت هو بطل الحملة الحقيقى . على الأقل بين صفوف غير المحاربين •

ولم يسبق من قبل أن وجد هذا العدد الكبير من المدنيين المبرزين بل ذوى العبقرية التى لاتنكر وسط هيئة عسكرية • وقبول هؤلاء الرجال الاشتراك فى هذه المغامرة فى ذاته اشادة بقدرة بونابرت على الاقناع • بل ان تفكيره فى أن يطلب اليهم هذا الاشتراك اطلاقا دليل على اتساع بصره ، وهو يشير كذلك الى مدى طموحه • ألم يصطحب الاسكندر الأكبر الفلاسفة والعلماء حين ذهب لفتح مصر وفارس والهند ؟ لقد قرأ بونابرت وهو بعد طالب فى بريين سير بلوتارخ • وكان مثال الاسكندر يداعب خياله طوال مكثه بالبلد الذى تطل عليه فيه أربعون قرنا من التاريخ • ولكن الأحلام الطموحة ، والاحساس العملى بالأمور . كانا عنده يسيران جنبا الى جنب كما كان شأنه فى كل الأمور • لقد كان لمهمه طبيعة استعمارية بقدر طبيعتها الحربية • وكان الرجال الذين اختارهم . حتى من برز منهم فى العلوم البحتة — باستثناء نفر قليل — يتميزون بالتفكير العملى ، وبموهبة فى التطبيقات الصناعية والمهام الادارية ، وبتعدد فى الكفايات ومرونة أرخميدية هى أنسب ما تكون لتذليل العقبات الكثيرة التى كانت أمامهم • هؤلاء ، دون غيرهم ، هم أصحاب الفضل فيما حققته الحملة من أعمال نافعة باقية على الزمن •

٥

وصل الجنرال بونابرت وزوجته الى طولون حوالى الساعة الثامنة من صباح ٩ مايو • وكان كل شىء معدا لابحار الأسطول • صحيح أنه قبل ذلك هبت

ريح قصيرة الأمد خـلال الأزمة الدبلوماسية التى أثارها الجنرال برنادوت ، السفير الفرنسى فى فينا ، والتى كادت تؤدى الى نشـوب القتال مع النمسا والتخلى عن المشروع المصرى (*) ٠ ولكن الأمر سوى تسوية سلمية ، وأصبح فى الامكان اصدار الأوامر النهائية للحملة بالابحار ٠ وأقام بونابرت وزوجته فى مبنى الادارة البحرية ٠ وهنـاك خلع الجنرال سـترته الرسمية المدنية (الفراك) بذيولها المربعة وارتدى سترة القائد ٠ ولم يكن قد تخلى بعـد عن ضفيرته القصيرة وخصلاته الجانبية الطويلة ـ على الرغم من الحاح زوجته ـ ليستبدل بها قصة « تيطس » القصيرة العصرية ٠ فبدا وكأن له وجه نسر وتسريحة كلب اسبانى ٠ وبعد أن غير مظهره من عضو المجمع العلمى الى القائد الأعلى ، وقف فى جنوده خطيبا ، ووعد كلا منهم بأفدنته الخمسة ، وفتش على الأسطول الذى حيته كل بارجة من بوارجه بطلقتين من مدافعها ٠ وفى المساء أضيئت الأنوار فى مدينة طولون تكريما له ٠

ووصل الى طولون حوالى هذا التاريخ ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ فرنك ذهبى صرفت من خزانة برن ـ باعتبارها جزءا من العتاد المقرر شحنه لمصر ٠

وبدا أن كل العتاد والمؤن الأخرى على أهبة الاستعداد ، على الورق على الأقل ، وكذلك الجنود ، على أن شيئين على جانب من الأهمية أغفلا ، ربما سهوا ، ولكن الأرجح أن سبب اغفالهما اخفاء وجهة الحملة ٠ فلم يزود الجنود ولا ضباطهم بل ولا قوادهم بأقل تدريب أو تعليمات على الرغم من جهلهم بعملية النزول من السفن ، وبالحركات الحربية المتصلة به ، وبحـرب الصحراء ٠ وأعجب من هذا ألا تتخذ العدة لتزويد الجنود بالزمزميات أو العلب لحمل الماء أثناء سيرهم فى الصحراء ٠ قال أحد المشتركين فى الحملة : « كان يكفى أن يزود كل جندى بزمزمية صغيرة يحمل فيها ماءه ، والملوم فى هذا الاهمال هو القائد الأعلى ، الذى كان يعلم تمام العلم الى أى بلد هو ماض بنا ٠ وكان هذا الارتجال واضحا فى كل شىء » (٢٣) ٠

ومهما يكن السبب فى هذا الاهمال الذى لا يغتفر ، فقد أمكن تكتم وجهة الجيش بنجاح ملحوظ ، على الرغم من اطلاع نفر غير قليل على السر (بلغوا أربعين فى رواية كليبر)، ومن هؤلاء الوزير المفوض البروسى فى باريس ، الذى أفضى اليه تاليران به فى غير تحفظ (**) ولابد أن نفرا أكثر قد حزروا

(*) أبى برنادوت أن ينزل العلم الجمهورى المثلث الألوان من فوق السفارة ، استجابة لشغب أحدثه بعض الغوغاء (وكان فى هذا محقا) ثم غادر فينا مهددا بالويل والثبور (وكان تصرفه هذا مفتقرا للدبلوماسية) ٠

(**) يقول المارشال مارمون ان « شيرير » وزير الحربية لم يحط علما بالغرض من الاستعدادات الجارية فى طولون ، ولكن هذا بعيد الاحتمال ٠

وجهة الحملة : فهذا الالحاح الفجائى من الجهات الرسمية فى طلب المذكرات عن شرقى البحر المتوسط ، وعناوين الكتب المختارة لمكتبة نابليون المتنقلة ، واستئجار كليبر لموظفين مصريين وسوريين ، والبحث عن المستشرقين وحروف الطباعة العربية ــ كل هذا يشير بوضوح الى مصر أو سوريا . وآية ذلك أننا نجد الملازم ترمان يعرب فى رسالة كتبها لوالديه فى ٢٣ أبريل عن يقينه بأن وجهته هى مصر . ومنذ شهر مايو سرى نبأ المشروع الى الحكومة العثمانية . ومن عجب أن يكون موقف الحكومة البريطانية من هدف الاستعدادات الحربية فى طولون موقف الجهل الذى تمناه لها الفرنسيون ، وهى التى لم يعوزها نقلة الأخبار فى فرنسا وغيرها من بلاد القارة .

وكان « جيش انجلترة » السابق ، المركز على طول الساحل الشمالى لفرنسا ، قد نقلت قيادته سرا الى الجنرال « كلمين » ، ولكن ذرا للرماد فى عيون الجماهير ، وفى عيون الانجليز على الأخص ، أطلق على القوات المتجمعة فى جنوبى فرنسا اسم « الجناح الأيسر لجيش انجلتره » ، واحتفظ بونابرت رسميا بقيادة جيش انجلتره الى يوم رحيله عن فرنسا . وفى ٣١ مارس أصدرت حكومة الادارة أمرا وهميا لبونابرت ، قصد به أن يتسرب للصحف الفرنسية ليسير بموجبه الى برست ويتولى قيادة قوات الغزو . وكادت هذه المناورة تفسد بسبب مقال نشرته صحيفة « الببلسست » فى عدد ١١ جرمنال (٣١ مارس) ، وتكهن فيه كاتبه بأن مصر قد تكون هدف الجيش . ولكن سرعان ما صححت غلطة محررى الصحيفة فأدخلوا تصويبا فى طبعة تالية : وذكروا للقراء أن هدف الجيش هو الأرجح انجلترة أو ايرلندة .

على أن الحكومة البريطانية لم تترك شيئا للصدفة رغم عجزها عن اماطة اللثام عن وجهة بونابرت . كان هناك ولا ريب احتمال ضئيل أن يتسلل أسطول طولون من جبل طارق وينضم الى أسطول برست فى هجوم عام على الجزر البريطانية . وكان من رأى التيمز فى عددها الصادر فى ٢٧ أبريل ، برغم ضآلة هذا الاحتمال ، أن الأنباء الواردة عن استعدادات طولون الحربية تشير الى غزو محتمل للبرتغال أو ايرلندة . وقد يكون هذا التكهن مجرد مثال على قدرة التيمز التقليدية على التنبؤ ، ولكن المدهش أن نجد « بت » نفسه يكتب للورد « مورننجتن » فى ٣١ مايو ــ بعد ابحار أسطول طولون بإثنى عشر يوما ــ أن الفرنسيين سيحاولون على الأرجح تنفيذ مشروع ضخم هو غزو ايرلندة من طولون (٢٤) .

وقد سيطرت هستيريا الغزو على انجلترة منذ اليوم الذى عاد فيه بونابرت من ايطاليا . وطلبت الحكومة الى الشعب دفع التبرعات الاختيارية فى يناير للوفاء بنفقات الحرب الاضافية . فلما سارت التبرعات سيرا بطيئا تبرع جورج

الثالث نفسه ـ برغم سلامة عقله آنئذ ـ بثلث ايراده الخاص ، والوزراء « بخمس كامل » من ايرادهم . وأمر « بت » ـ رغبة فى ارشاد زملائه ـ بأن يجمع ويطبع « تقرير عن الترتيبات التى تمت للدفاع الداخلى عن هذه الممالك ، حين قصدت أسبانيا غزو انجلترة وفتحها بأسطولها الأرمادا ، وتطبيق الاجراءات الحكيمة التى لجأ اليها أسلافنا على الأزمة الراهنة التى يتعرض لها السلام العام » (٢٥) . واشتملت الاجراءات التى أوصى بها السكان فى حالة الغزو على تشييد حصون خشبية فى كل ميدان من ميادين لندن ، واقامة متاريس فى كل شارع ، وخزن القنابل اليدوية فى كل بيت على ناصية ، ووضع أجراس التنبيه وسط كل شارع ، وعلى أن يطرد من البلاد جميع الأجانب المؤذين ، « وألا يسمح بالبقاء لأى خدم أجانب ، ذكورا أو اناثا » ، (وهو اجراء لو اتخذ فى أيامنا هذه لأصاب لندن بالشلل فى لحظة) ، واجراء آخر يتميز بالوطنية الحادة ، وهو « أن يودع المسجونون سجونا من السفن ، فى بقاع تسهل السيطرة عليها ، بحيث يمكن ابادتهم فورا فى الحالات الضرورية دفاعا عن البلاد » (٢٦) . وكانت التلغرافات التى تستخدم السيمافورات قد أقيمت على طول الساحل ، وأنشئت محطات للتلغراف فى مقر البحرية وعلى قمة برج من أبراج كنيسة وستمنستر . وزيادة فى الحرص ، الذى دفع اليه ما رأته الحكومة من أن انجلترة حافلة بعدد كبير من أصحاب المبادىء الهدامة ـ أجانب ووطنيين ـ والراديكاليين والمتعاطفين مع الفرنسيين ، بعثت الحكومة « قانون الأجانب » من مرقده ، وأوقفت العمل بقانون « هابيس كوربس » ، بل لقد اقترح بعضهم أن يلزم البريطانيون بحلف يمين الولاء للملك « للكشف عن المصلحين » الذين يسعون الى الثورة (٢٧) . وانتشر المتطوعون فى وحدات المليشيا فى طول البلاد وعرضها رغم المخاطر التى ينطوى عليها تسليح هؤلاء المدنيين الذين لا يركن اليهم اطلاقا . وآية ذلك أن المتطوعين فى مدينة باث اجتمعوا يوم ٣ مايو وقرروا أن يتألف زيهم العسكرى من « سترة قرمزية ؛ بياقة وقلابات سوداء ، وصدرة بيضاء ، وسراويل زرقاء بحاشية حمراء » (٢٨) . واضح اذن أن انجلترة كانت على استعداد لاستقبال الأسطول الفرنسى . أما مبلغ الصدق والاخلاص فى توقع الحكومة هجوما فرنسيا فلا يعرف على وجه اليقين ، ولكن المؤكد أن الدعوة الواسعة لهذا الخطر أتاحت لوليم « بت » وزملائه أن يجمعوا التبرعات الكبيرة ويرهبوا المعارضة الليبرالية .

على أن الاحتياطات التى اتخذتها البحرية الانجليزية كانت عملية أكثر من الاستعدادات الحربية التى اتخذتها للدفاع عن أرض الوطن ، وذلك على الرغم من أنها أقل زهوا واعلانا عن نفسها . ففى ٢ مايو ١٧٩٨ أبلغ وزير البحرية البريطانية ، الايرل سبنسر ، الأميرال جرفس الذى منح قبيل ذلك لقب « ايرل سانت فنسنت » قراره أن يرسل أسطولا الى البحر المتوسط . وكان سانت

فنسنت وقتها يضرب حصارا على قادس التى حبس فى مياهها شطر من الأسطول الفرنسى ، وأخبره أنه سيرسل اليه مددا من ثمانى بوارج يتيح له مواصلة الحصار • كتب يقول : « اذا أبلغت أن مصير أوربا فى هذه اللحظة رهين بظهور أسطول بريطاني في البحر المتوسط لم يدهشك ميلنا لبذل كل طاقة والمغامرة بكل شىء فى هذا السبيل » • فاذا قرر سانت فنسنت ألا يقود بنفسه أسطول البحر المتوسط فان البحرية توصى بأن توكل هذه المهمة الى الأميرال السر « هوراشيو نلسن » ، الذى تزكيه معرفته بهذا القسم من العالم ، كما يزكيه نشاطه واستعداده ، تزكية قوية للقيام بهذه المهمة (٢٩) •

وكان اللورد سانت فنسنت متفقا فى هذا مع اللورد سبنسر قلبا وقالبا ، بحيث أنه استبق تعليمات رئيسه بضرب من توارد الخواطر • ففى ٢ مايو ، وهو اليوم الذى كتب فيه سبنسر رسالته ، أبحـر الأميرال نلسن من أمام قادس بثلاث بوارج وفرقاطتين وسفينة صغيرة (سلوب) يحمل أوامر بالاتجاه الى طولون وجمع المعلومات عن الاستعدادات الحربية الفرنسية •

أما هوراشيو نلسن ، الذى كان يناهز الأربعين ، فقد خدم البحرية منذ الثانية عشرة من عمره ، وعمل فى جزر الهند الغربية وفى الشرق الأقصى ، وفى البحار القطبية ، وفى البحر المتوسط ، وقاد سفننا منذ كان في العشرين ، وفقد عينه اليمنى في القتال • وكان قد تماثل لتوه من فقد ذراعه اليمنى ، وهو حادث وقع له قبل ذلك بعام أثناء هجوم عنيد فاشل شنه على جزر كناريا • وبعد أن قضى فترة نقاهة طويلة فى انجلترا ، تاق للعودة الى الخدمة العاملة • ولعله فى طموحه وتعطشه للمجد كان أشد غلوا واندفاعا من بونابرت ، وان اختلف عنه فى طريقته اختـلافا تاما • وحمله كرهه للشعب الفرنسى عامة وللثورة الفرنسية خاصة ، هذا الكره الذى كاد يبلغ عنده مبلغ المرض ، على أن يعد نفسه مبعوث العناية الالهية لعقابهما • قال أحد ضباطه عنه : « كان يمقت جميع الفرنسيين مقتا يحملنى على الاعتقاد بأنه كان يراهم كلهم فى كل وقت تقريبا فاسدين جسدا ونفسا » (٣٠) وفى وسعنا أن نضيف ــ دون النيل من مجده ــ أنه كان يزعم أن له صلة حميمة جدا بالاله العلى القدير ، الذى كان ينسب اليه والى مرءوسيه شاكرا ، الفضل فى ما أصاب من نجاح • وقد فاق تواضعه هنا تواضع بونابرت ، الذى كان ينسب كل الفضل لنفسه •

وبعد أن غادر نلسن سبتهيد على الباخرة الانجليزية فانجارد فى ١٠ أبريل، وصل تجاه قادس فى نهاية الشهر ، ومن هناك أرسله سانت فنسنت على عجل الى البحر المتوسط • وكان أسـطوله الصغير فى خليج ليون حين قبض فى ١٧ مايو على سفينة حربية فرنسية ، وعلم نلسن من استجواب بحارتها أن ثلاث عشرة بارجة فرنسية على استعداد للاقلاع من طولون • وقد سبب الجو العاصف،

الذى لقى منه الجنود الفرنسيون فى القوافل عنتا شديدا فى ١٩ ، ٢٠ مايو ، للأميرال نلسن عنتا أشد • وبدلا من أن يتمكن نلسن من مراقبة الأسطول الفرنسى نجا بجلده من كارثة كادت تحطم سفينته فانجارد بعد أن نزعت قلوعها • وكانت هذه بداية سلسلة من المعاكسات التى منى بها نلسن فى الأسابيع العشرة التالية • كتب نلسن يقول انه على الرغم من هذا استطاعت سفنه الحربية بفضل العلى القدير ، وهمة الكابتن سوماريز والكابتن بول ، أن تصل سالمة أمام جزيرة سان بيترو احدى جزر ساردينيا ، وأصلح ما أصابها من عطب فى أربعة أيام • وما وافى ٢٧ مايو حتى عاود موقفه تجاه طولون بعد تسلل طريدته بثمانية أيام • ولم تلحق به الأمداد الا فى ٧ يونيو ــ وكانت احدى عشرة بارجة أرسلها له اللورد سانت فنسنت ــ ولولاها لما استطاع نلسن أن يفعل شيئا ليعطل أسطول بروى ببوارجه الثلاثة عشر • على أن نلسن لسوء حظه فقد فرقاطتيه وسفينته الصغيرة فى العاصفة • وكان قائدها الكابتن هوب قد أخذها الى جبل طارق ظنا منه أن نلسن سيضطر لاصلاح سفينته حاملة العلم هناك ، بدلا من أن يلحق بنلسن تجاه طولون • ومهزلة الأخطاء التى تلت هذا الحادث ترجع الى حد كبير لغياب الفرقاطتين ، فقد تعذر بدونهما على الأسطول الانجليزى أن يستطلع الطريق الذى اتخذه الفرنسيون (*) •

وبهذه البوارج الثلاث عشرة ، وقوة كل منها أربعة وسبعون مدفعا عدا واحدة قوتها خمسون ، تعادل الأسطول البريطانى تقريبا مع الأسطول الفرنسى فى القوة الضاربة ، ولكنه كان يبزه فى غير ذلك من وجوه • وكانت التعليمات الصادرة للأميرال نلسن واضحة لا لبس فيها : فهى تقضى بأن يعثر على الأسطول الفرنسى ، وأن يمنعه بأى ثمة من القيام بأى حركة صوب الغرب ، ويطارده ، ويدمره • على أن الصعوبة كانت فى العثور على هذا الأسطول •

(*) كانت السفينة الخفيفة « لاموتين » التى يقودها الكابتن هاردى ، والتى لحقت بنلسن فى ٥ مايو بتعليمات من اللورد سانت فنسنت ، بديلا غير كفء للفرقاطتين العتيدتين •

الفصل الثاني

إلى الاسكندرية

١

لعل اللورد سبنسر كان على صواب حين كتب الى اللورد سانت فنسنت أن مصير أوربا يتوقف على وجود الأسطول الانجليزى فى البحر المتوسط ، ولكن ليس بالمعنى الذى قصده تماما · ذلك أنه لولا تعطل الأسطول الفرنسى خلال المرحلة الأولى من عبوره البحر لبطء ناقلاته وصعوبة الاتصال بقوافله الثلاثة الأخرى ، ولو وصل الى مالطة وغادرها قبل أن يغادرها فعلا بيومين ، لأباده الأميرال نلسن ـ بوارج وناقلات وجندا ـ أمام الاسكندرية حوالى ٢٨ يونيو ، بل لو أبطأ أكثر من هذا فاستغرق يوما أو يومين أكثر مما استغرق فى الوصول الى مالطة ، لوقع ما وقع على الأرجح تجاه مالطة حوالى ٢٠ يونيو · ولو حدث هذا الالتحام فى ٢٢ يونيو ، حين كان الأسطولان على أميال قليلة أحدهما من الآخر ، نهارا لا ليلا ، لدمر نلسن الأسطول الفرنسى بدلا من أن يلحق به وهو لا يدرى · ولو كان نلسن رجلا أكسل مما كان فطارده فى شيء من الهوادة لوقع نفس الشيء · كذلك لو أن فرسان مالطة جروا على تقليدهم المجيد بدلا من الاستسلام للفرنسيين كما تستسلم عذراء فى تمنع غير كثير ، لاستطاعوا أن يدافعوا عن حصنهم المنيع حقا الى أن يروا محاصريهم وقد دحرهم الأسطول الانجليزى · أما أن شيئا من هذا لم يقع ، وأن بونابرت استطاع أن يفتح مالطة دون أن يضرب ضربة واحدة تقريبا وأن ينزل قواته قرب الاسكندرية دون تدخل ، فلم يكن مرده الى تخطيط أو تدبير ، بل الى تفاعل الأخطاء فى التقدير من الجانبين تفاعلا غير متوقع ، والى نتائج السلوك الانسانى وآثاره المصادفة · ومعنى هذا بعبارة أخرى أن بونابرت كان محظوظا · وهو أول من

اعترف بهذه الحقيقة • أو لعل « أبناء الشيطان محظوظون كالشيطان » (١) على حد قول نلسن وهو ينظر الى تقلبات الحرب نظرته اللاهوتية • وبالطبع كان نلسن يسمى الحظ ــ حين يكون فى جانبه ــ « العناية الالهية » •

ولو كانت العناية الالهية قد تغلبت على الحظ الشيطانى وعثر نلسن على الفرنسيين قبل نزولهم بمصر أو أثناءه ، لما أصبح الجنرال بونابرت قط قنصلا أو امبراطورا . ولأصبح التاريخ بلا ريب مختلفا تمام الاختلاف عما كانه فعلا مدى ربع قرن على الأقل • أجل ، ولما كان هنــاك قوس نصر فى باريس ، ولا ميدان ترافلجار فى لندن ، ولا حريق فى موسكو ولا واشنطن • ومع ذلك فالقول بأن هذه الأشياء توقفت على وجود الأسطول البريطانى فى البحر المتوسط بين ١٩ مايو و٣٠ يونيو ١٧٩٨ أقل صدقا من القول بأنها توقفت على الحظ • والزعم بأن مصير أوربا تأثر بالنتيجة يبدو على الدوام ضربا من المبالغة • ولعل بضعة ملايين من الأرواح كانت أعفيت من أن تزهق دون داع قبل أوانها • هذا كل ما فى الأمر • والحق أن مصير هذه الملايين قررته لعبة « الاستغماية » التى كان يلعبها الأميرال نلسن والجنرال بونابرت وهما لا يدريان عبر مساحات شاسعة من مياه البحر المتوسط غير المكترث لشىء •

٢

ورد على لسان بونابرت وهو يروى قصة الحملتين المصرية والسورية التى أملاها فى سانت هيلانه هذه العبارة المأثورة عن استيلاء الفرنسيين على مالطة : « استوثق نابليون من أنه يستطيع المغامرة ، ثم غامر » (٢) • والواقع أنه استوثق من نجاح المغامرة أكثر مما اعترف به •

أسست « طريقة فرسان القديس يوحنا الاسبتارية الأورشليميين » وهم المعروفون باسم فرسان مالطة ، فى الأراضى المقدسة منذ تسعة قرون تقريبا ، فى أثناء الحرب الصليبية الأولى • وبعد أن كانوا أول أمرهم جمــاعة مفككة غرضها حماية الحجاج والعناية بالمرضى ، شــكل منهم البابا بسكال الثــانى فى عام ١١١٣ طريقة دينية اتخذت طابعا حربيا متزايدا ، وكونت سلاحا من صفوة المحاربين الصليبيين فى كفاحهم الخاسر ضد المسلمين • وفى عام ١١٨٧ سقطت أورشليم فى يد السلطان صلاح الدين ، ولكن فرسان الاسبتارية ظلوا يقاومون فى حصونهم قرنا آخر • وفى عام ١٢٧١ سقط « حصن الأكراد » Krak des Chevaliers الذى ما زالت قوته الضـــخمة تدهش زوار الأردن الى يومنا هذا ، أما آخر حصونهم عكا ، التى قدر لها أن تقف عقبة كؤودا فى طريق مطامع نابليون ، فقد قاومت حتى عــام ١٢٩١ • وأخيرا استقر المقام بالفرسان فى جزيرة رودس ، فأحالوها حصنا منيعا واصلوا منه قتال المسلمين

بأعمال القرصنة فى البحر • وكان التجار المسلمون يرهبون منظر الصليب المثمن على قلوع سفن الفرسان كما يرهب تجار غربى الهنـد منظر الجمجمة والعظمتين المتقاطعتين • و « أهمل الفرسان الحياة فى خدمة المسيح ، ولكنهم تهيأوا للموت فى هذه الخدمة » على حد قول جبون • والواقع أن الثروة الطائلة التى جمعوها من هذه القرصنة الدينية ، والفديات التى كانوا يأخذونها لاطلاق سراح أسراهم ، وتسخيرهم الأسرى عبيدا على مراكبهم ، كل هذا كان أشبه بأساليب قرصان البربر منه بالأساليب التى أوصت بها الموعظة على الجبل •

وفى أواخر عام ١٥٢٢ أنزل السلطان سليمان القانونى جيشا فى الجزيرة وحاصر مدينة رودس • وقاوم المدافعون عن الجزيرة عدة شهور تحت قيادة رئيسهم الأكبر « فلييه دليل ــ آدم » الباسلة ، ولكنهم أكرهوا فى النهاية على التسليم • فساروا الى مراكبهم وسط عاصفة ثلجية عنيفة تحت أنظار القوات التركية ، محتفظين بأسلحتهم ، وخلفهم رتل طويل من العربات المحملة بكنوزهم وسجلاتهم ، طريدين منفيين مرة أخرى • وسرعان ما ندم سليمان على سماحته هذه • ذلك أن الامبراطور شارل الخامس منح الفرسان ــ بوصفه ملكا على صقلية ــ جزيرة مالطة ملكا خالصا لهم فى عام ١٥٣٠ • ويبدو أن شارل لم يدرك الأهمية الاستراتيجية لهذه الجزيرة الصغيرة التى استطاعت سفن الفرسان أن تسيطر منها على كل تجارة شرقى البحر المتوسط أو على الأقل تهددها • فلما أدرك سليمان هذا هاجم مالطة فى عام ١٥٦٥ بكل ما يملك ، وبعد أن فقد ٣٠٫٠٠٠ من الأتراك حياتهم خلال خمسة أشهر قرر سليمان أن يرفع الحصار عن الجزيرة • وبعد ٢٣٣ عاما استولى الجنرال بونابرت على مالطة فى يوم واحد ، ولم يقتل من رجاله فى هذه العملية سوى ثلاثة •

وتفسير نابليون لنجاحه موجز العبارة صادق فى جوهره • فقد كتب يقول ان طريقة فرسان القديس يوحنا الأورشليميين ، « استنفدت غرضها ، وقد سقطت لأنها كان يجب أن تسقط » (٣) •

لقد ظل فرسان مالطة أكثر من قرن من الزمان بعد انتصارهم على سليمان القانونى يرهبون سفن المسلمين • فأغرقوا من السفن التركية والبربرية ، وأسروا من العبيد ، وأصابوا من الغنائم والأسلاب ، أكثر مما فعل أى شعب مسيحى آخر فى البحر المتوسط • على أن الشئون الأوربية اتجهت فى أوائل القرن الثامن عشر ــ لسوء حظ فرسان الطريقة ــ اتجاها بدت معه الحرب الدائمة على المسلمين شذوذا تاريخيا لا يتفق مع العصر • فقد أصبحت الدولة العثمانية دولة محترمة ، وباتت القرصنة الصليبية عملا حقيرا • صحيح أن رد الصاع صاعين لقراصنة البربر (*) كان لا يزال عملا مجزيا ، وأن الفرسان

(*) تعبير خاطىء من وجهة نظر المؤرخين الغربيين • فالقرصنة من جانب المسلمين فى شمال افريقية كانت أسلوبا من اساليب الدفاع ضد محاولات الغزو الأوربى لشمال افريقية ــ (المترجم)

استمروا فى القيام بمهمة البوليس فى البحر المتوسط ضدهم ، ولكنهم اتجهوا أيضا الى التجارة تعويضا عما أصابهم من عجز فى الموارد ٠

وكانت طريقة الفرسان فى أوائل عهد الثورة الفرنسية قد سارت فى الانحلال شوطا بعيدا وان ظلت مالطة نفسها ، المحكومة بنظام أبوى رفيق ، واحة من الرخاء فى جنوبى البحر المتوسط ٠ وانكمش عدد الفرسان القائمين بالخدمة العاملة أو المقيمين بمالطة انكماشا شديدا ٠ وكان أكثر من نصفهم دائما فرنسيين ، فدب بينهم عنصر جديد من عناصر الشقاق بسبب تضارب موقفهم من الثورة ٠ وعانى الفرسان الموجودون من آثار البطالة المزمنة ، ولم يكن أمامهم ما يشغلون به وقتهم سوى التفرغ لخليلاتهم ودس الدسائس والمؤامرات بعضهم لبعض ٠

اذن لم تعد هذه الطريقة الدينية تحقق الهدف الذى قامت لأجله كما قال نابليون ، ولكن الجزيرة لم تفقد شيئا من قيمتها الاستراتيجية ٠ ووضعت فرنسا وانجلترا والنمسا وروسيا عيونها عليها ٠ وفى يناير ١٧٩٧ وضع القيصر بول الأول الطريقة تحت حمايته الشخصية ، وكان رجلا غريب الأطوار يعد نفسه البطل المدافع عن العالم المسيحى ٠ وأفزعت هذه الخطوة حكومات أوربا ٠ وبدا أنه من تضحية تغلو فى سبيل الحيلولة دون كسب روسيا لهذه القاعدة فى البحر المتوسط ــ ولو بلغت بذل الجهد للاستيلاء على الجزيرة ٠ وكان فى خطر النفوذ الروسى ، وفى انتخاب ألمانى هو البارون فون هومبش رئيسا جديدا للطريقة فى يوليو ١٧٩٧ ، ما أقنع بونابرت بأن العمل السريع ضرورة لا محيص عنها لهزيمة روسيا والنمسا ٠ ووافقت الادارة على آراء بونابرت وأطلقت يده فى الأمر ٠

ورغبة فى التثبت من أنه يستطيع القيام بهذه المغامرة ، أنفذ مبعوثين الى مالطة فى أواخر ديسمبر ١٧٩٧ ٠ ونزل أولهما ، وهو مالطى ، الى البر سرا تحت جنح الظلام : وكانت مهمته هى التجسس الخالص ٠ أما الثانى ، الموفد فى عمل رسمى ، فهو المواطن بوسييلج نفسه الذى أصبح بعد أربعة شهور المراقب العام لحملة بونابرت (*) وكان له بمالطة صلة طيبة ، لأن أحد أبناء عمومته كان الحارس على ثغر فاليتا ٠ وفى الشهور الأربعة التى مكثها بالجزيرة جس نبض الفرسان الفرنسيين ، فوجد بينهم حفنة من أصدقاء الجمهورية الفرنسية ، نخص بالذكر منهم « بوريدون درانسيجا » وزير مالية الطريقة ،

(*) الذى حدث فعلا أن بونابرت ــ بعد أن تقلد قيادة جيش انجلترا ــ أمر أخاه جوزف ، السفير الفرنسى فى روما ، بأن يصدر لبوسييلج تعليمات بالغاء مهمته فى مالطة ؛ ولكن رسالة جوزف لبوسييلج ، التى كتبها فى ١٦ ديسمبر ، لم تصله ، وكان قد انطلق فى طريقه لمالطة ــ وهذا خطأ تبين أنه من حظ بونابرت ٠

و « فيه » مدير حصونها • وكتب بوسييلج فى تقريره أن باقي الفرسان ، بما فيهم رئيس الطريقة الأكبر ، سـيقاومون كل محـاولة للغزو ما لم يكفل لهم التعويض المناسب • فالحاجة اذن للدبلوماسية لا لقوة السلاح • كذلك فاتح بوسييلج ، بشيء من التوفيق ، عدة موظفين فى خدمة الطريقة ، واثنين على الأقل من المواطنين الفرنسيين من غير الموظفين فى مالطة • وفى ٥ مارس ، أركب الأميرال بروى ، القادم بأسـطوله من كورفو ، بوسييلج والجاسوس المالطى مركبه ومضى بهما الى طولون •

***

لاحت فى الأفق من بعيد أمام مالطة فى ٦ يونيو سفن القافلة الفرنسية القادمة من شفيتافيكيا ، وفى ٩ منه لحق بها الأسطول الرئيسى • وكان منظر السفن الأربعمائة رهيبا ، كتب شاهد عيان فى وصفه يقول : « لم تر مالطة قط مثل هذا الأسطول الهائل فى مياهها • فقد غطت البحر على مدى أميال سفن من جميع الأحجام تشبه قلوعها الغابة الضخمة » (٤) •

أما خطة بونابرت فهى غاية فى البساطة • سيطلب الاذن من الرئيس الأكبر بأن يتزود الأسطول الفرنسى بالماء ، وسينزل جنوده ــ سواء أذن لهم أو لم يؤذن ــ شمالى فاليتا وجنوبيها وعلى جزيرة جوزو المجاورة ، ويحاصر فاليتا ، وينتظر الفرسان • وسيطمئن الفرنسيون سكان الجزيرة الى أنهم أتوا مسالمين ، وأنهم سيحترمون ملكياتهم ودينهم • وليس فى الأوامر التى أصدرها بونابرت وبرتييه بين ٦ و ٩ يونيو ما يشير الى توقع الاشتباك فى قتال •

وفى ساعة متأخرة من مساء ٩ يونيو سلم ردفون هومبش الى بونابرت : وخلاصته أنه لا يسمح بالدخول لأكثر من أربع سفن فى وقت واحد • وتظاهر بونابرت بالسخط على بخل فرسان الاسبتارية الشديد ، وأبلغ فون هومبش « أن الجنرال بونابرت سيأخذ عنوة ما كان ينبغى أن يعطاه طواعية » (٥) ، وما وافت الساعة العاشرة مساء حتى أصدر أوامره النهائية بالنزول الى بر الجزيرة • وفى أقل من أربع وعشرين ساعة سقطت فى يد الفرنسيين كل مالطة وجوزو عدا فاليتا وغيرها من « المدن » المحصنة على جانبى الميناء الكبير •

ولقى الفرنسيون بعض المقاومة ، لا سيما فى جوزو ، الأمر الذى أدهش بونابرت • فقـد أطلقت بعض المدافع ، بل ان الجنـود المالطيين النظـاميين والمتطوعين ، فى بعض المواقع ، أفرغوا بنادقهم فى الفرنسيين قبل أن يلقوها تخففا منها أثناء تقهقرهم • وقد اغتاظ الجنرال من هذا الذى سماه بوريين « سوء فهم » ولام عليه بوسييلج : وبعد أن أنفق بضـع ساعات على أرض الجزيرة عاد الى بارجته « لوريان » ومضى الى فراشه •

أما في جوزو فقد تسلق الفرنسيون وسائل الدفاع المحلية وهم ينشدون المارسيليز كما جاء في مذكرات الكابتن فرترى ، وكان وقتها ملازما في نصف اللواء التاسع • وترك نفر قليل من الفرسان أنفسهم يؤسرون ، أما المدافعون المالطيون فقد أسعدهم — كما أسعد الفرسان — أن يستسلموا بعد مقاومة ضعيفة ويقبلوا أيدى المنتصرين عليهم • ويقول فرترى ان الفرنسيين والمالطيين بدأوا يتآخون لتوهم ، أما صول التعيين فرانسوا ، وهو أيضا من رجال نصف اللواء التاسع ، فيقول ان « جزيرة جوزو نهبت عن آخرها بعد أن أخلى السكان بيوتهم » (٦) • ولعل العبارتين صادقتان ، فكان فرترى يتآخى بينما فرانسوا ينهب •

وفى فاليتا عم الاضطراب والفزع فى هذه الأثناء بين صفوف الفرسان والمالطيين على السواء • فالنساء ينحن ويولولن فى بيوتهن ، والقديسون يحملون فى مواكب تخترق الشوارع ، والرئيس الأكبر فون هومبش يتفق اليوم مع مجلس الفرسان فى مناقشة العمل الذى ينبغى أن يقوموا به • ولم يساعد عمل من هذه الأعمال كلها مساعدة مادية فى الدفاع عن فاليتا ، وهى مدينة سميت باسم الرئيس الأكبر جان دلافاليت ، الذى قاومت تحت قيادته جيش سليمان القانونى خمسة أشهر •

وكان لدى فون هومبش من الانذارات بقرب الهجوم على الجزيرة مايكفى، قبل قدوم الفرنسيين بفترة طويلة • ولكنه اذ كان رجلا ضعيفا كثير التردد — على الرغم من ألقاب الشرف الستة عشر التى يحملها ، وسترته المدرعة الأنيقة التى أمر بأن يصور وهو يرتديها — لم يصنع شيئا استعدادا لهذا الهجوم • لقد كان فى فاليتا من المؤن ما يمكنها من مقاومة الحصار أربعة أشهر ، ولكن أسباب الدفاع كانت ضعيفة • فالمدافع ، وعددها ألف تقريبا ، لم تستعمل منــذ قرن من الزمان الا للتحية ، وذخيرة البــارود تلفت ، والمليشيا المالطية (المؤلفة من نحو ١٠٫٠٠٠ رجل) لا تبدى روحا عسكرية عالية • فقد قالوا انهم لا يخافون الترك ، أما الفرنسيون فقيل لهم انهم شياطين ، ومن ذا الذى لا يخاف الشياطين ؟ وهو منطق يدل على أن الدعاية كثــيرا ما ترتد فتصيب أصحابها • وكان هناك حامية وطنية من نحو ١٫٥٠٠ رجل لا تكاد تكفى لتشغيل ١٠٠٠ مدفع • أما الفرسان فكان عددهم فى مالطة ٣٣٢ فارسا بالضبط ، ومن هؤلاء خمسون عاجزون عن القتال لشيخوختهم أو مرضهم • أما الباقون وعددهم ٢٧٢ فلم يبدوا — الا نفر قليل منهم — أثرا ولو ضئيلا من روح « فلييه دليل — آدم » أو روح « جان دلافاليت » العالية • وفى ١٠ يونيو هرب منهم كثيرون تاركين جند المليشيا الذين كان مفروضا أنهم يقودونهم ، وقيل ان اثنين منهم أطلق جندهما عليهما النار لهروبهما •

وكان مائتان من الفرسان فرنسيين · وقد أصبح الاعتماد على ولائهم أمرا مشكوكا فيه فى صبيحة ١٠ يونيو حين أبلغ بوريدون درانسجا المجلس أنه لن يقاتل بنى وطنه ، وقدم استقالته من وزارة مالية الفرسان · وفتت رسالته فى عضد الرئيس الأكبر ، الذى كان كل ما عمله فى هذا اليوم الفاصل هو القبض على وزير المالية · وانهالت على حجرة المجلس روايات متضاربة عن حوادث العنف التى قام بها الغوغاء · وعن فرسان فتك بهم المالطيون ، وعن كميات من الأسلحة المخفاة يوزعها على الأهالى عملاء فرنسيون متنكرون فى زى اليونانيين · وعمت الفوضى المدينة على صغرها · وفى المساء سمح لوفد من كبار الأشراف والمواطنين المالطيين بالدخول الى قاعة المجلس ، فالتمس من فون هومبش أن يضع حدا لمقاومة لا غناء فيها ·

وما من شك فى أن طابورا خامسا من الفرسان والموظفين الناقمين كان موجودا داخل أسوار فاليتا · على أنهم كانوا نفرا قليلا ، ولو اتخذ اجراء نشيط لشل حركتهم · بيد أن قوة الطوابير الخامسة ليست فى عددها بقدر ما هى فى الخوف والفزع الغامض اللذين تبثهما · ولا شىء يخدم أهداف الخونة كالصيحات التى تردد كلمة «الخيانة» ! ومن جهة أخرى لا شىء أوفق للزاهدين فى القتال من أن يزعموا أنهم ضحية الخيانة · ومن المسلم به أن الفرسان ما كانوا ليستطيعوا المقاومة طويلا ، ولكنهم كانوا يستطيعون بسهولة أن يقاوموا أسبوعين · وكان فى هذه المقاومة ، على أسوأ الفروض ، انقاذ لشرفهم ، وعلى أحسنها تمكين الأسطول البريطانى من رفع الحصار عن مالطة وتدمير القوات الفرنسية ·

كان فون هومبش يجهل أنه فى ٩ يونيو ، وهو اليوم الذى التقت فيه القافلتان الفرنسيتان أمام فاليتا ، بدأ الأميرال نلسن ببوارجه الأربع عشرة مطاردته للأسطول الفرنسى ، وأنه بعد أسبوعين سيكون على مقربة من مالطة ، لا بل ان الجنرال بونابرت كان يجهل هذه الحقيقة ، وقصارى ما علمه أن نلسن فى مكان ما بالبحر المتوسط ومعه ثلاث بوارج ، ولكنه لم يعرف بعد شيئا عن الأمداد التى عزز بها الأسطول البريطانى · ولو عرف لما أنفق أسبوعا فى مالطة · وكان من نتيجة جهل هومبش بهذه الحقيقة وضعف عزيمته ، مضافا اليهما الفوضى التى أحدثتها حفنة من الرجال الساخطين ، أن استقر الرأى فى الساعات الباكرة من صباح ١١ يونيو على طلب الهدنة · وهكذا توقف مجرى التاريخ الحديث ، مدى أربع وعشرين ساعة ، على ٣٠٠ رجل من الرهبان المحاربين ، ومن المخلفات النادرة لعصر الحروب الصليبية · ولو ظلت قلوبهم عتيقة كنظمهم لقاتلوا كما قاتل أسلافهم من قبل دون نظر الى العواقب · ولكن قلوبهم كانت عصرية · فبدت المقاومة فى نظرهم حركة عقيمة ، والتسليم يتيح الأمل فى التعويض المادى · أما المماليك ، الذين حاربهم الفرسان قبل

خمسة قرون ، والذين قاتلهم بونابرت بعد خمسة أسابيع ، فلم تبد عليهم أمارات العصرية التى أبداها الفرسان .

وأثار سقوط مالطة عاصفة من التراشق بالتهم . فاتهم هومبش نفسه بأنه ارتشى سلفا ، وبأنه انما كان يتظاهر بالمقاومة ، وهى اشاعة دعمتها ثقة بونابرت بأنه يستطيع الاستيلاء على مالطة دون ضربة واحدة . على أنه ليس هناك دليل يؤيد هـذا الرأى . ويكاد يكون من المؤكد أن هومبش لم يرش سلفا ، ولكنه كان شديد الرغبة فى أن تقصر الرشوة من مقاومته ، وقد علم بونابرت هذا سلفا . وهكذا استوثق من أنه يستطيع المغامرة بفتح الجزيرة .

***

ارتقى رسول موفد من قبل رئيس الفرسان الأكبر درجات السلم الاثنتين والثلاثين الى ظهر البارجة لوريان فى صبيحة ١١ يونيو وسلم خطابين ـ أحدهما لبونابرت بطلب الهـدنة ، والآخر للجيولوجى دولوميو يرجـوه أن يستخدم وساطته لصـالح الطريقة التى كان ينتمى اليهـا فى يوم من الأيام . وكلف بونابرت دولوميو (وهو كاره لهذا الدور المزدوج الذى فرض عليه فرضا) ، وبوسييلج ، وياوره جونو ، بأن ينزلوا الى البر ويجتمعوا بهومبش . وعانق هومبش المارق دولوميو الذى كان وحده الآن معقد أمله ، ووقعت هدنة لأربع وعشرين ساعة الى أن تتم مفاوضات التسليم . وفى منتصف الليل وصل رسل الرئيس الأكبر الى السفينة لوريان ، وكان منهم بوريدون درانسيجا الذى أطلق سراحه . وأوقظ بونابرت من نومه ؟ وبعد نصف ساعة كانت المعـاهدة قد حررت ووقعت . وبمقتضاها سلمت مالطة للجمهورية الفرنسية ، وتعهـدت فرنسا باستخدام نفوذها فى الحصول على امارة ألمانية لهومبش ، وبأن تدفع له فى الوقت نفسه معاشا سنويا قدره ٣٠٠٠٠٠ فرنك ، أما الفرسان الآخرون فيتسـلم كل منهم معاشـا يتفـاوت بين ٧٠٠ و ١٠٠٠ فرنك حسب تفـاوت أعمارهم .

ونزل بونابرت الى بر فاليتا فى ١٢ يونيو ، واستقبله وفد من مؤيديه بين الفرسان . وقال له الجنرال كفاريللى الذى كان يرافقه : « اننا محظوظون لأننا على الأقل وجدنا من يفتح لنا الأبواب » (٧) .

واستقبل الفرسان الاسبتارية الفرنسيين بحفاوة كادت تتجاوز الحدود بعد أن تنفسوا الصعداء لأنه لم يعد يطلب اليهم أن يسلكوا مسلك الأبطال . قال الملازم ديفيرنوا من ضباط فرقة الفرسان الفرنسية : لقد أغرقونا بسيل دافق من الرعاية والمجاملة . ولا يدهشك صبرهم على العزوبة التى تفرضها عليهم أحكام طريقتهم ، لأن لمعظمهم خليلات يستهوين الألباب بحسنهن وظرفهن

ولا يبدى الفرسان أى غيرة عليهن » • (٨) ولم تشتهر مالطة بجمال نسـائها فحسب ، بل ان فى وسع عاصمتها أن تفخر بنسبة من المتسكعين فى الشوارع تفوق نسبتهم فى أى مدينة أوربية • وراح الفرنسيون ـ وهم ممتنون لهروبهم هنيهة من سفنهم المكتظة ـ يفيدون من آخر فرصـة أتيحت لهم خـلال ثلاث سنوات لمغازلة نساء مسيحيات يستطيعون فهم لغتهن عموما • أما الذين لم يشتغلوا بمطاردة النسـاء فكانوا يضربون فى الشـوارع التى كانت غاية فى النظافة والترتيب ، ويفكرون فى الحسان الدعجاوات المتواريات خلف شرفاتهن المشبكة أو المرتديات أثوابهن الفضفاضة ، أو ينعمون بأكل البرتقال اللذيذ يقطعونه من الحدائق والبساتين ، وهو أول طعام طازج أكلوه منذ ثلاثة أسابيع، على أن الذين نزلوا الى البر لم يكونوا سوى نسبة صغيرة من الجنود ، وقد صدرت الأوامر لمعظمهم بالعودة الى سفنهم فى ١٤ يونيو •

وبينما أقبل جنود الجنرال بونابرت وبحارته على مختلف الأعمال الصغيرة والرياضات ، توفر هو على القيام بالأعمال الكثيرة التى واجهته فى سرعة وقوة كأنه الاعصار المندفع • ففى الأيام الستة التى قضاها بمالطة أملى ما لا يقل عن ١٦٨ تقريرا ورسالة عاجلة وأمرا • وفى يوم واحد ـ هو ١٣ يونيو ـ صفى دولة عريقة فى القدم ، وأرسى الأساس لحكومة جديدة ، وصادر من كنوز الفرسان ما بلغت قيمته زهاء ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك ، فضلا عن ٣٥٫٠٠٠ بندقية ، وبارجتين ، وفرقاطة ، وأربع سفن خفيفة ، ونص على نظام ادارة الجزيرة فى أمر مشتمل على ست عشرة فقرة موجزة (*) • وحلت قوات مالطة المسلحة بأمر آخر من أربع فقرات ، وألغيت شارات الفروسية وحللها وألقاب الشرف ، ومنح جميع رعايا الدول الأعداء مهلة يومين لمغادرة الجزيرة ، وأبلغ الفرسان (الا نفرا منهم) بأن يبرحوا مالطة خلال ثلاثة أيام • وندب المواطنان مونج وبرتولليه ، بأمر آخر ، للتفتيش على دار سك النقود ، وعلى كنوز كنيسة القديس يوحنا ، و « على سـائر الأماكن التى قد يعثر فيها على أشياء ذات قيمـة » (٩) • ومن بين الأشياء ذات القيمـة التى عثر عليهـا ذهب قيمتـه ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك ، وآنية فضية تقرب قيمتها من مليون فرنك ، وكنوز كنيسة القديس يوحنا المرصعة بالجواهر التى تقدر كذلك بنحو مليون فرنك• وتعطف بونابرت فأذن للفرسان بأن يأخذوا معهم شظية من «الصليب الحقيقى» لا تقدر بمال ، ويدا من أيدى يوحنـا المعمدان الكثيرة ـ وهى ورءوسه الكثيرة مبعثرة فى جميع أرجاء الشرق الأوسط ، بعـد نزعها من صندوقها المرصـع بالجواهر ، ونقلت جميع قضبان الذهب والفضة والتحف الثمينة بعد جردها

(*) نص على ان يحكم مالطة ، بعد ان جعلت جزءا من الجمهورية الفرنسية ، مجلس حكومى من تسعة ، ثمانية منهم من أهالى مالطة • وعين عضو من اعضاء اللجنة العلمية يدعى « رينو دسان ـ جان دانجلى » (الذى أصبح وزيرا من وزراء نابليون) مندوبا للجمهورية الفرنسية •

الى مأمور الصرف الفرنسى ، وأخذ منها جزء كبير الى مصر • وتتويجا لأعمال ذلك اليوم ـ وقد حدث هذا كله في ١٣ يونيو ـ ألقى الجنرال بدعوة مقتضبة للرئيس الأكبر الى العشاء ، ودعاه هو والفرسان الى محل اقامته ، وأبلغهم فى صراحة جافية أن على جميع الفرسان دون الستين أن يبرحوا الجزيرة خلال ثلاثة أيام ، دون أن يحمل أحدهم أكثر من ٢٤٠ فرنكا لنفقات السفر ، واستثنى من قرار الطرد ثلاثة وأربعين فارسا كلهم من الفرنسيين دون الثلاثين ، وكان بونابرت قد أقنعهم بالتطوع فى الجيش الفرنسى بمصر ، وسبعة عشر موظفا آخرين فى الطريقة (لم يكونوا كلهم فرسانا رسميين) ساعدوا الفرنسيين بطرق شتى فى الشهور الماضية • وعلى رأس قائمة السبعة عشر ، التى يمكن اعتبارها سجلا للطابور الخامس ، فارسان ـ بوريدون درانسيجا ، وفيه • كذلك وضع اسم درانسيجا على رأس قائمة المندوبين الحكوميين •

ونذكر هنا أنه حين غادر فلييه دليل ـ آدم وفرسانه رودس فى عام ١٥٢٣ أخذوا معهم أسلحتهم وكنوزهم وسجلاتهم وخرجوا من قلعتهم فى احتفال عسكرى وسط اجلال الفاتحين الترك الصامت • أما حين غادر فرديناند فرايهر فون هومبش مالطة فى ١٧ يونيو ١٧٩٨ فانه لم يأخذ معه سوى وعد كاذب بمعاش ، واتخذ طريقه الى السفينة التى ستقله الى تريستا وسط صيحات الاستهزاء من الجند الفرنسيين وعوام المالطيين • ثم استقال بعد عام والعار يجلله ، تحت ضغط القيصر بول الأول الذى كان قد صمم على الظفر برياسة الطريقة • وفى ١٢ أكتوبر ١٧٩٩ وصلت يد القديس يوحنا المعمدان اليابسة الى سانت بطرسبورج ، وانحنى الرئيس الأكبر الجديد أرضا أمامها ، وهو يرتدى أثواب تتويجه القيصرية • أما فون هومبش فلم يظفر قط بالامارة التى وعد بها ، وكان عليه أن ينتظر ست سنوات الى أن يتسلم أول دفعة من معاشه • وقد مات فى منفاه بعد ذلك بقليل فى ١٨٠٥ •

٣

اهتم الجنرال بونابرت بين ١٤ و ١٨ يونيو بأشياء متفرقة قبل أن يبرح مالطة لفتح مصر • مثال ذلك أنه ألغى الرق ، وزار سجن الثغر ، وحرر من وجد من الأرقاء الأتراك (وعددهم ٦٠٠) والمغاربة (وعددهم ١٤٠٠) وأمر بأن يشتغل الأتراك (بناء على طلبهم) بحارة فى أسطوله الى أن يطلق سراحهم فى مصر ، ثم طلب الى القناصل الفرنسيين فى تونس وطرابلس والجزائر أن يحيطوا الولاة علما بعمله هذا ويدعوهم بدورهم الى تحرير عبيدهم المالطيين • وأمر جميع الرجال المالطيين أن يلبسوا الشارة الفرنسية المثلثة الألوان ، ووعد بالمواطنة الفرنسية وحق ارتداء « الزى القومى الفرنسى » جميع من يبدون غيرة

وطنية كافية (تتخذ صورة التبرعات الاختيارية على الأخص) ، وأمر بأن يرتدى كل الجنود الفرنسيين الذين تركوا حامية في مالطة سترات من القطن ، وشكل كتائب أهلية من الحرس الوطنى على غرار الكتائب الفرنسية ، وأنشأ مستشفى عسكريا ، وأعاد تنظيم مستشفى الجزيرة وخدماتها البريدية ، وخفض عدد الأديرة والقساوسة الذين يرسمون ، وقصر اختصاص أسقف مالطة على الشئون الكنسية البحتة وحرم عليه الالتجاء الى البابا ، ونقل أموال المؤسسات الدينية الخيرية الى المستشفيات ، وفرض عقوبة الاعدام على جميع سكان مالطة والجزر الأيونية من الروم الأرثوذكس الذين يتعاملون مع روسيا ، وأمر بترحيل القنصلين الروسى والانجليزى الى روما ، وبأن يرسل ستين غلاما بين التاسعة والرابعة عشر يختارون من أغنى الأسر المالطية الى باريس ليعلموا هناك كالفرنسيين على حساب الجمهورية ، ووضع نظاما جديدا للتعليمين الابتدائى والثانوى ، وحدد رواتب المدرسين ووضع برنامج الدراسة (وقد اهتم خاصة بالعلوم الفرنسية وبمبادىء الأخلاق والدستور الفرنسى) (١٠) ، وطلب الى حكومة الادارة أن ترسل خريجي مدرسة الصناعات الهندسية الى مالطة ليعلموا الرياضيات والميكانيكا والطبيعة ، وحدد الضرائب المالية الجديدة ورواتب الموظفين الاداريين وحسابات مصروفاتهم ، وضم أكثر من ٣٠٠ رجل من لواء مالطة السابق الى قوة الحملة ــ وكان هذا كسبا مفيدا لأن اللغة المالطية قريبة من العربية ، ومنح اعانات لاعالة نساء الجنود المالطيين الذين أبحروا مع أسطوله وأطفالهم ، وامر بأن يلحق جميع أبنائهن الذكور الذين تزيد أعمارهم على العاشرة بالأسطول صبيان بحارة ، وبترك حامية فرنسية من ٣٠٠٠ رجل فى مالطة تحت قيادة الجنرال فوبوا ، وطلب الى جميع نساء الجنود المنتظرات فى ثغر طولون اللحاق بأزواجهن أن يبحرن فى قافلة ثانية ويؤخذن الى مالطة انتظارا لتعليمات أخرى ، وأوفد ياوره لافاليت الى ألبانيا على ظهر الفرقاطة « لارتميز » يحمل رسالة الى « صديقه المبجل » على باشا والى يانينا ، لمح فيها لذلك الحاكم واللص الرهيب الى أن مبعوثه سيعرض عليه اقتراحات هامة ، وأرسل الفرقاطة « لاسنسيبل » الى طولون تحمل رسائل الى حكومة الادارة ، ومع الرسائل أرسل الجنرال باراجيه ديلييه ــ الذى اعتلت صحته ، اذ أسقمه الحنين لزوجته أو مرض شر من الحنين ــ وبعض الهدايا الشخصية لرجال الادارة ، وبينها تمثال سفينة من الفضة الخالصة يرجع الى عهد اقامة الفرسان فى رودس (وكتب يقول : « انه تحفة قيمة بسبب قدمه ») وغطاء حريرى للمذبح متسوج فى الصين تظهر فيه « الصنعة المتينة » (١١) كذلك أخبر المواطن تاليران أن الفرقاطة لاسنسيبل ستنقله من طولون الى الأستانة (*) . وقد وجد

(*) لم تصل الفرقاطة « سنسيبل » الى طولون قط ، ولم يصل الجنرال باراجيه ديلييه الى زوجته الا بعد حين . ذلك أن هذه الفرقاطة استولت عليها الفرقاطة الانجليزية « سى ــ هورس » =

الجنرال على الرغم من هذا النشاط كله متسعا من الوقت للتجول فى الحدائق الأنيقة التى كان يملكها الرئيس الأكبر العاثر الحظ والاستمتاع بثمار البرتقال اللذيذة التى قطفها هو وبطانته من الشجر ٠

***

وبعد أن أنجز الأسطول الفرنسى مهمته أبحر من مالطة فى ١٨ و ١٩ يونيو ٠ وكان الجنود قد أمروا بالتأهب ، أو أعيدوا الى السفن منذ ١٧ يونيو ، على أن ضابطا واحدا على الأقل ، هو الملازم تورمان الضابط بفرقة المهندسين لم يلحق بسفينته ٠ وكانت البارجة « لوتونان » التى كان مقررا أن يستقلها تغادر الميناء حين وصل الى الشاطئ ، فاضطر الى استئجار زورق ذى مجاديف لحق بالسفينة بعد ساعات فى عرض البحر ، بعد أن طاردها مطاردة لابد أنها كانت مضنية كثيرة النفقة ٠

أما الأميرال نلسن ، فهو وان لم يقل عن الملازم تورمان تصميما ، فانه كان أقل منه حظا فى اللحاق بالأسطول الفرنسى ٠ فقد وصل الى خليج نابلى فى ١٧ يونيو وأرسل السفينة الخفيفة « موتين » لتأتيه بالأخبار من القنصل البريطانى السر وليم هاملتن ٠ وكان من رأى هاملتن أنه قد يعثر على الفرنسيين تجاه مالطة ٠ ولكن السؤال هو : هل غادروا مالطة فعلا ، والى أين ـ أ الى صقلية أم مصر ؟ وكان من رأى نلسن أن وجهتهم مصر ٠ وكتب الى وزير البحرية يقول « فى اعتقادى أنهم ذاهبون لانفاذ مشروع الاستيلاء على الاسكندرية وانزال جنود فى الهند ـ وهى خطة اتفقوا عليها مع تبو صاحب ، وليست عسيرة كما تبدو لأول وهلة ٠٠ فلتكن وجهتهم أقصى الأرض ، ففى وسع سيدى اللورد أن يطمئن الى أننى لن أضيع لحظة فى اكراههم على القتال ، وأننى سأحاول تدمير ناقلاتهم » (١٢) ٠ ولم يضيع نلسن لحظة واحـدة ، ففى ٢٠ يونيو تجاوز مضيق مسينا على نحو ١٦٠ ميلا من موقع الأسطول الفرنسى فى ذلك اليوم ٠ وفى اليوم ذاته تلقى بونابرت نبأ من احدى فرقاطاته الجوابة مؤداه أن أسطولا انجليزيا مؤلفا من أربع عشرة بارجة شوهد وهو يبحر شرقا ـ وقرر الفرنسيون أن يعدلوا اتجاههم صوب كريت ليروغوا من مطارديهم ٠ فأما المطاردون ، الذين

= فى ٢٧ يونيو ٠ واطلق سراح البحارة والركاب فى كاليارى ، بصقلية المحايدة ، باستثناء الجنرال وياوريه الذين احتفظ بهم البريطانيون أسرى حرب ٠ أما الرسائل والغنائم فقد ألقيت فى البحر قبل أن تسلم الفرقاطة ، ولكن أحد الركاب الذين أطلق سراحهم ، وهو الكاتب أ٠ ف٠ أرنو الذى ترك لجنة بونابرت العلمية بمالطة ، نقل مضمون الرسائل الى رجال الادارة ٠ (وكانت أهم الرسائل ، وهى التى أعلنت نبأ الاستيلاء على مالطة ، قد ارسلت قبل ذلك فى ٤ يونيو فى سفينة مالطية ، ووصلت الى رجال الادارة فى ٤ يوليو) ٠ أما حظ « لوسامبل » الرسول الذى لا يقهر ، والذى حمل تهانىء رجال الادارة الى بونابرت فى مصر ، فكان أحفل بالمغامرات ٠

كانوا سائرين بسرعة تقرب من ضعف سرعة الطريدة ، فقد جازوا بالفرنسيين على أميال في ليلة غشيها الضباب (٢٢ ــ ٢٣ يونيو) • وظل نلسن طوال الأسبوع التالى يجرى وراء طريدة تقفوه على مهل دون علم منها بوجوده •

كان نلسن قد استطلع آراء كبار ضباطه فى ٢٢ يونيو عن وجّهة الفرنسيين الحقيقية ، فأجمعوا على أن الأسطول الانجليزى يجب أن يحشد سفنه ويتخذ سمته الى الاسكندرية بأسرع ما يستطيع ليمنع نزول الفرنسيين هناك • على أن نلسن كان يعمل فى الظلام ، لأنه لا يملك غير سفينة خفيفة واحدة تستكشف له منطقة شرق البحر المتوسط بأسرها • وقد كتب السير جميس سوماريز قائد السفينة الانجليزية « أوريون » يقول « اننا نسير اعتمادا على التخمين لا على أى معلومات أكيدة ، ولابد أن تنقضى أيام قبل أن نستريح من قلقنا القاسى ، فاذا تبينا بعد رحلتنا هذه أننا نقتفى أثر طريدة غير التى ننشدها ، كانت حيرتنا فى الحق عظيمة. » (١٣) •

وفى ٢٠ يونيو ، وهو اليوم الذى لاحت فيه كريت لأنظار الفرنسيين كان نلسن قد قطع نصف الطريق بين كريت والاسكندرية • وأرسل السفينة « موتين » أمامه يقودها الكابتن هاردى ، فلم يستطع هاردى أن يعثر فى الاسكندرية الا على بعض السفن الحربية التركية التالفة • وبعد ثلاثة أيام ألقى نلسن نفسه ، ومعه أسطوله كله ، مراسيه أمام الاسكندرية ، واشتمل بنظره الميناء الخالى وهو كاسف البال • وكانت حيرته قد اشتدت الآن حقا : فلا بد أن الفرنسيين أبحروا غربا • وأمر أسطوله أن يقلع الى كريت وأعصابه تكاد تنهار وما ان غادر الانجليز الاسكندرية حتى دخلت الميناء فى عضر ذلك اليوم نفسه الفرقاطة الفرنسية « جونو » التى أرسلها بونابرت أمامه •

ولم يعثر نلسن على الفرنسيين فى أى بقعة بقرب كريت ــ ذلك أنهم جازوا بالجزيرة قبل ذلك بنحو أسبوعين • وفى ١٩ يوليو وصل الى سيراكيوز ولكنه لم يجد الفرنسيين فى صقلية • واشتد كربه حتى لم يكد يقوى على تناول طعام • وكتب يقول انه : « قطع رحلة تقرب من ستمائة فرسخ بسرعة لا تصدق ومع ذلك فهو ما زال على جهله السابق (١٤) • وليس أدعى لضيق رجل يتسلط عليه احساس الواجب والطموح من أن يبدو هزأة فى سعيه وراء أحد هدفيه هذين • وكان كل عصب من أعصاب نلسن مشدودا فى تصميمه القوى على ألا يعود بخفى حنين • وكتب للسير وليم هاملتن ايما هاملتن (ولم تكن قد أصبحت خليلته بعد) يقول : « ثقا أننى سأعود اما مكللا بالغار ، واما مجللا بالسرو (وهو رمز الموت) » (١٥) •

وبعد أن أنفق نلسن سيراكيوز ثلاثة أيام يزود سفنه بالماء والطعام أقلع الى بلاد اليونان ، فلما تلقى معلومات أكيدة بأن الفرنسيين أبحروا الى مصر

يمم بسفنه شطر الجنوب · وقضى أسبوعا لا يكاد يذوق نوما ولا طعاما · وفى أول أغسطس بلغ بحثه المحموم ختامه عند خليج أبو قير على أميـال شرقى الاسكندرية · ذلك أن مشهدا لاح هناك لعينه الوحيدة ، فطرب له أشـد الطرب ـ وهو مشهد الأسطول الفرنسى بأكمله راسيا فى الخليج · وأمـر الأميرال نلسن باعداد مائدة الطعام ، وبالهجوم على الأسطول الفرنسى ·

ولكن بونابرت كان وقتها فى القاهرة ·

٤

استغرقت رحلة بونابرت من طولون الى الاسكندرية ستة أسـابيع · ولم يفطن الى قرب أسطـول نلسن ولا الى قـوته الا فى الأسـبوع الأخير من الرحلة ، وكانت تشغله فى ذلك الحين استعدادات النزول ، فلم يسمح لهذا الخطر بأن يكدر هدوءه · بل لعله ما كان ليهتز حتى لو وصلته الأخبـار التى أرسـلت اليه من شتى الموانىء عن الأسـطول الانجليزى (الذى غالت بعض الرسائل فى تقدير قوته) قبل نزوله الى آلبر · وكان فى رأى الأميرال بروى أنه لا أمل للأسطول الفرنسى المثقل بالجنود والمـؤن فى النصر اذا التحم ولو بعدد من بوارج العدو لا يزيد على عشر · أمـا بونابرت ـ وهذا الخطر ماثـل فى ذهنه أبدا ـ فلم يبد طوال الرحلة كلها أقل بادرة قلق (بعكس مطارده تماما) سوى انتظار النتيجة · وهكذا انقلب الوضع الطبيعى ، فكان الانجليزى على أحر من الجمر واللاتينى هادئا رابط الجاش ·

وأنفق بونابرت وقته فى فراشه خلال أكثر الرحلة البحرية · واذ توقع أن يصيبه دوار البحر طوال الرحلة (وهو فرض تبينت صحته أساسا) فقد أمر بتثبيت عجلات فى قوائم فراشه ليتحاشى اضطراب السفينة · ومن فراشه أملى معظم أوامره ورسائله ، وقرأ التقارير والاستفسارات التى بعث بها اليه قواده البريون والبحريون ، والتى كثيرا ما كان يهمل الرد عليها · وقل أن فاته شىء مما يحدث على سفنه الأربعمائة ، فلما نهض ليذهب الى ظهر السفينة أمطر بروى والكابتن كازابيانكا وضباطهما بوابل من الأسئلة عن الشـئون البحرية ، ولابد أن فضوله ضايقهم بقدر ما راعتهم فطنته وحدة ذهنه ·

وأنفق كثيرا من وقته وهو راقد فى الاستماع الى بورين يقرأ له من مكتبته المتجولة ـ كتبا أكثرها عن مصر والأراضى المقدسة ، لا سيما الكتاب المقدس والقرآن ، اللذين صنفهما تحت باب « الكتب السياسية » · وقد ألف أن يتناول طعامه فى حجرته الرسمية ـ باستثناء الأيام القلائل الأولى التى حفلت فيها مائدته بالآكلين ـ لا يشاركه الطعام سوى بروى وبرتييه وضيف

أو ضيفين . فلما وصل الى مالطة دعا مونج الى سفينته لوريان . واضطر مونج – بعد أن قطع الرحلة من شفيتا فيكيا الى مالطة على الفرقاطة « كوراجيز » فى حجرة رسمية مبطنة بالدمقس الأحمر – أن يودع هذا الترف ليشارك بروى حجرته الرسمية على البارجة لوريان .

وكان من عادة بونابرت بعد العشاء أن يدعو ضباط أركان حربه ومن تيسر من العلماء ليعقدوا « مجامع علمية » . كما سماها وهى فى الأكثر مناقشات فى موضوعات يقترحها ، ويعين لها المتكلمين أيضا . أما اهتماماته فجامعة : فيها السياسة والاقتصاد والحكم والدين والخطط الحربية والكيمياء والفيزياء – ولم يكد يترك موضوعا لا يطرقه : فهل الأرض هى الكوكب الوحيد المسكون ؟ وكم عمرها ؟ وهل دعوى تفسير الأحلام صحيحة ؟ (وقد اقترح هذا السؤال – بعد أن قرأ حلم يوسف فى التوراة) . ودارت مناظرة بعثتها قراءة من كتاب روسو « حديث عن الأصل فى عدم المساواة » حول الطبيعة الاجتماعية للملكية . وأعرب الجنرال كفاريللى عن بعض الأفكار الشيوعية الجريئة أمام مناظره « رينو دسان جان دانجلى » . قال : « أنا أزعم أن القوانين التى تقدس الملكية تقدس الاغتصاب والسرقة » (١٥) . وسأله مناظره أيريد الغاء هذه القوانين ؟ وكان من رأى كفاريللى أنها لا تلغى ، بل ان فى الامكان الوصول فى أمرها الى حل وسط ، فتحداه رينو للفور أن يبين السبيل الى هذا الحل . وفى الاجتماع التالى أخرج كفاريللى مخطوطا جديدا من جيبه وقرأه على الحاضرين . واقترح فيه تقسيم المجتمع الى مـلاك فى الحاضر ومـلاك فى المستقبل . فأما هؤلاء فسيكـونون مسـتأجرين لأمـلاك أولئك فترة تمتد عشرين عاما يشـتغلون فيها لفائدة الملاك ، ثم يصبحون هم بدورهم ملاكا ويتخذون لهم مسأجرين ، وهلم جرا . وهو حل يبدو بارعا ، ولا ريب فى أن أرنو الذى رواه لنا فى مذكراته قد غلا فى تبسيطه . ولكن هذا المخطوط ، الذى سبق ماركس فى اعتباره العمل المصدر الوحيد للملكية ، لم ينشر قط لسوء الحظ ، ولعله فقد فى عكا بموت صاحبه .

على أن « المجامع » – التى كانت تعقد أحيانا وبونابرت يتمشى على ظهر السفينة وأحيانا فى قاعة المجلس – لم ترق كلها الى مثل هذه المستويات . ومع أن كل فرد كان حرا فى الاعراب عما يعن له من آراء ، فان نظام « المجامع » فى ذاته كان مقيدا . وقد رأى فيها معظم الضباط شيئا مملا جدا ، وكان جونو يستغرق فى النوم أثناء المناقشات بسرعة تثير العطف ، فما لبث أن أعفى من حضورها . وكان عداء قواد بونابرت للعلماء مبعث تسلية له ، ودعته خصومتهم للفكر أحيانا الى معابثتهم بطريقة تذكرنا بالثكنات أكثر من المجامع العلمية . أما هو فكان يملك موهبة مواصلة الكلام فى أى موضوع كلاما أشبه بالمناجاة ، وجلها بديهيات واضحة ، تتخللها لمحات خاطفة من اللقانة والحدس . وكان الدين من الموضوعات المحببة اليه . وتدينه الغامض ، الذى ربما كان امتدادا

لتعلقه بمعتقدات طفولته ، هو الذى جعله يجفل من مادية برتولليه الباردة ، وجذبه الى مونج الأكثر اتساعا وتفتحا · ثم لا ننسى أن للدين منفعة سياسية واضحة جلية ! وكان كلما دنا من الساحل الافريقى استغرق فى دراسة الاسلام وفكر فى الطريقة التى قد يفيد بها منه عمليا · يقول بوريين « عندما جزنا بجزيرة كريت حلق بخياله فى العلا ··· فأفاض فى الحديث عن انحلال الدولة العثمانية ··· وتمثلت لذهنه الأساطير الدينية القديمة وأضفت على عباراته الشعر ، بل الالهام · وحمله مشهد مملكة مينوس على التفكير فى أى القوانين أصلح لحكم الناس ، كما أن مهد زيوس (وهو جبل أيدا) كشف له عن حاجة الناس الى الدين » (١٧) وهكذا استمر هذا الضرب من الهذيان حتى غابت كريت عن ناظره ، وظهر خلفه شبح مداعبته لموضوع الاسلام ، ثم اتفاقه مع البابا بيوس السابع بعد ذلك بثلاثة أعوام ·

***

كتب مونج ـ ذلك الرجل الذى لا تفتر وطنيته ـ الى زوجته فى ٣ يونيو من حجرته المكسوة بالدمقس الأحمر فى السفينة كوراجيز يقول : « ان البحارة كلهم فى غاية الابتهاج · لقد كنا الآن ننشد الأناشيد الثورية جماعة » (١٨) · ولعل ابتهاج البحارة يمكن تعليله بأنهم لم يغادروا شفيتا فيكيا الا منذ أسبوع ، وأن البحر كان وقتها هادئا ، كذلك لعلمهم على الأقل الى أين هم ذاهبون ، بعكس البحارة والجنود فى القوافل الأخرى · ذلك أن الجنرال ديزيه كان قد فض أختام أوامره وهو على أربعين فرسخا من الساحل وأبلغ الجنود فحواها دون ابطاء · ولكن أهم من ذلك كله أن المواطن مونج ربما حسب حماسته الوطنيـة حماسة غيره ، كمـا يحسب المدنيـون كثيرا حين تستخفهم الروح العسكرية · فلقد كان الجنود والبحارة بوجه عام ، بما فيهم صغار الضباط والمدنيون ، غاية فى التعاسة والشقاء ·

ولا جدوى من الافاضة فى الآلام التى عاناها من أصيبوا بدوار البحر ، فقد كان الجو عاصفا فى أكثر الرحلة ، والشواهد على هذا كثيرة · كتب الكابتن جوييه من ضباط نصف اللواء الخامس والعشرين الى أمه من القاهرة يقول : « كنت أتقيأ دما كل يوم » (١٩) والاكثار من هذه الاستشهادات يثير الملل والتقزز · ولما كان الرجال مكدسين فى مراكبهم تكديسا ، فقد نالهم جميعا ـ حتى الأشداء منهم ـ قسط من آلام الآخرين · وواضح أنه لم يكن هناك متسع لغسل الثياب الداخلية أو تغييرها · أما الطعام فكان الضباط محظوظين فيه ، حتى باعتراف ضابط دائم التذمر كالملازم فرترى ، بالقياس الى « الجنود المساكين الذين كانوا خلال رحلة الشهرين يعيشون على اللحم المملح ، فى حين يتناول الضباط الطعام الطازج » (٢٠) · وقبل أن تبلغ القافلة الرئيسية مالطة

كانت المواد الغذائية قد أخذت تتلف ، والماء يتعطن • وبدأت الأحوال تسوء بعض الشيء حتى بالنسبة للضباط والمدنيين ، فلم يكد يبقى حيوان حى يزود مائدتهم باللحم الطازج • كتب المصـــور دينون يقول : « ولم يعد هناك وقـــود لتسخين الماء الفاتر ، أما الحيوانات النافعة فكانت تختفى ، فى حين تكاثرت الحيوانات التى تأكلنا مائة ضعف » (٢١) •

ولكن دينون أتيح له على الأقل قلم وورق وعين دائمة الفضول والتطلع • فراح يرسم الصورة تلو الصورة ، فى مثابرة وهدوء كانا له فيما بعد خير معوان فى ظروف أقل مواتاة من هـــذه الظروف • رســم سواحل كورسيكا وساردينيا ، وجبل اتنا فى ثورانه ، ومدافع مالطة تطلق نيرانها (دون جدوى) على الأسطول الفرنسى ، والفخار القديم الذى عثر عليه فى جوزو ، وجبـــل أيدا زيوس — وباختصار رسم كل ما رآه • أما غيره ممن أعوزتهم مواهبه ، فقد التمسوا تخفيف سأمهم بوسائل شتى • فكان المحظوظون منهم يتزاورون من مركب الى مركب اذا سمح الجو ، أو يتبادلون الملاحظات والتعليقات فى شئون المجتمع • وكان هناك كثير من الغناء — ولعله لم يقتصر على الأناشيد الثورية • ثم مسرحيات الهواة ، وحفلات الفرق الموسيقية ، فكانت الفرقة تعزف على البارجة لوريان لحن بونابرت المفضل « زحف التتار » للموسيقار كرويتسر مرارا تقرب من عزفها لحن مونج المفضل « المارسلييز » • وكان هناك بالطبع نفر لا مناص من وجودهم ، هم الهواة من العازفين على الكمان والمغنين ورواة القصص• وكانت مناورات الأسطول مشهدا يستهوى الناظرين • أما التمرينات اليومية الاجبارية التى يقوم بها البحارة والجند استعدادا لهجوم من العدو فلم تكن مبهجة كمناورات الأسطول ، ولكنها على الأقل أعانت على قتل الوقت • ولكن أكثر ما خفف من رتابة الحياة على السفن هى الصيحات التى تتردد معلنة سقوط رجل فى البحر ، وما كان يتلوها من مناورات • وكان الجنرال بونابرت يبدى اهتماما مشربا باللذة بعمليات الانقاذ ، ولو كلفه ذلك تعطيل القافلة ساعات ، ويقدم الجوائز المالية للمنقذين • (هذا مع التسليم بما كان فى عدد النوتية من عجز ، وبأن الحاجة للبحارة كانت ماسة) • كذلك قدمت الجوائز المالية لصبيان البحارة للاشتراك فى مباريات يومية فى سرعة التسلق الى مكان الرقيب على الصارى — وهى تسلية أخرى • ولكن أحب أســباب اللهو كان القمار • وانغمس الكثيرون ، حتى القائد الأعلى ، فى ألعاب الورق • ويروى أنه كان يجد لذة فى الغش فيها ، ولكنه كان دائما يرد مكاسبه لضحاياه • ويقول دينون ان أشد الجنود شراهة كانوا « يبيعون ما يملكون ، أو يجرون عليه قرعــة ليبيعوه » وذلك استكمالا لجراياتهم • » وكان غيرهم ممن هم أقل صبرا يقامرون ويخسرون فى ربع ساعة أكثر مما يستطيعون دفعه فى عمر كامل • فاذا فرغت النقود جاء الدور على الساعات • وقد شهدت ست ساعات الى ثمان يلعب بها

فى رمية زهر واحدة » (٢٢) . وليس فى هذا مثار للدهشة . لأن الدنيا لم تتغير .

واذا كان قد تيسر التزود بالماء فى مالطة ، فان الجزيرة خيبت آمال الفرنسيين من حيث المؤن الغذائية . ففى ٩ يونيو قبل نزول الحملة الى البر لفت الجنرال باراجيه ديلييه نظر بونابرت الى أن جانبا من مئونة البسكويت فى قافلته قد فسد لرداءة صنعه ، وأن جانبا من الزيت تسرب من البراميل ، وكذلك جانب من النبيذ ، وأن جانبا من لحم البقر المملح قد تلف ، وأن المؤن بوجه عام قد أضر بها الريح وماء البحر . وبعد النزول الى البر أبلغ مأمور صرف الجيش « بونابرت بأنه سيكون من الصعب الاستغناء عن المؤن المخزونة الآن على ظهر السفن بالنظر الى قلة الموارد فى هذا البلد (مالطة) » (٢٣) .

لا ريب اذن فى أن الرحلة من مالطة الى الاسكندرية كانت محنة قاسية امتحن بها معظم رجال الحملة على الرغم من الحفلات الموسيقية والأناشيد الوطنية ، وذلك لنفاد الأطعمة أو فسادها من جهة ، ولارتفاع درجة الحرارة من جهة أخرى . وسرت بين الضباط والجند على السواء روح الأنانية التى بلغت حدا منكرا بعد النزول الى بر مصر . وأما العلاقة بين رجال الجيش والبحرية فقد توترت توترا مطردا ، فلما أنزل الجنود فى النهاية وهم يقاسون الأمرين من هياج البحر ودواره ، ومن الضنك والفقر ، تنفس الضباط البحريون الصعداء لخلاصهم من هؤلاء الدخلاء .

وفى ٢٨ يونيو أذيع على الجند المنشور الموجه الى الجيش ، والذى حرره بونابرت قبل ذلك بستة أيام ، وهذا نصه :

أيها الجنود !

انكم موشكون على فتح له آثار بعيدة المدى فى حضارة العالم وتجارته ، وستطعنون انجلترا طعنة تؤذيها لا محالة فى أضعف مواطنها ، انتظارا لليوم الذى تسددون فيه اليها الطعنة القاتلة .

سيقتضينا الأمر بعض الزحف المضنى ، وسنخوض بعض المعارك ، وسننتصر فى جميع مغامراتنا ، لأن الحظ معنا .

ولن تنقضى على نزولنا البر أيام حتى نقضى على بكوات المماليك الذين لا يرعون غير التجارة الانجليزية ، والذين يظلمون تجارنا بمعاكساتهم ، والذين يستبدون بأهل وادى النيل الأشقياء .

ان القوم الذين سنعيش معهم مسلمون . وعقيدتهم الأساسية هى :
« لا اله الا الله محمد رسول الله » .

فلا تعارضوهم . واسلكوا معهم كما سلكتم فى الماضى مع اليهود والايطاليين . واحترموا شيوخهم وأئمتهم ، كما احترمتم شيوخ اليهود وأساقفة المسيحيين .

وأظهروا من التسامح نحو الشعائر التى يقضى بها القرآن ونحو المساجد ؟ مثلما أظهرتم نحو الأديرة ومجامع اليهود ، ونحو ديانة موسى وديانة المسيح .

لقد جرت الفرق الحربية الرومانية على أن تحمى جميع الأديان . وستجدون هنا عادات تختلف تمام الاختلاف عن العادات الأوروبية ، فلابد أن تروضوا أنفسكم عليها .

ان أهل البلاد التى سندخلها يعاملون نساءهم معاملة مختلفة : ولكن الرجل الذى يهتك عرض امرأة يعتبر فى جميع البلاد وحشا .

أما السلب والنهب فلا يثرى منه الا الأقلون . وهو يجللنا بالعار ، ويقضى على مواردنا ، ويثير علينا عداء الشعب الذى ننشد صداقته .

ان أول مدينة سنشهدها بناها الاسكندر . وسنجد فى كل خطوة آثار أعمال جديرة بأن ينسج الفرنسيون على منوالها (٢٤) .

والمنشور جدير بالاعجاب ولا ريب ، لا سيما فى دعوته غير المؤمنين الى التسامح مع المؤمنين . ولكن من الصعب أن نتبين كيف كان يمكن لهذا المنشور أن يفسر للجندى العادى السر فى ارساله الى مصر . كذلك لا نحسب رجالا يتضورون جوعا ويعانون دوار البحر تواقين الى تقليد أعمال الأبطال الأقدمين - والحق أن الجنود كانوا قليلى التحمس للحملة وهم ينزلون الى بر مصر .

***

لم يبعث ظهور الأسطول الفرنسى فى ذاته عجبا شديدا ، وان أذهل أهل الاسكندرية بضخامته حين لاح لهم فى الأفق . ذلك أن أنباء استيلائه على مالطة سبقته ، وكان السكان كما قال بروى فى تقريره لوزير البحرية : « فى حالة اضطراب وتوقع للشر » (٢٥) . وخف الجميع الى السلاح ، ورممت الحصون البالية . ولما لم يكن هناك جنود تقريبا ، فقد كون جيش من المتطوعين ، وجمع كاشف البحيرة (وهو من المماليك) بعض القبائل البدوية ليساعدوا فى أعمال الدفاع : ولكن هذه التدابير كلها كان فيها من الحماسة المحمومة أكثر مما فيها من الفائدة الحقيقية . وبينما كانت هذه الاستعدادات قائمة ، دخل الكابتن هاردى ثغر الاسكندرية بسفينته « موتين » فى ٢٧ يونيو . وقد ظن خطأ أول الأمر أنه فرنسى ، ولكن حتى بعد أن صحح هذا الخطأ رفض محمد كريم

حاكم المدينة الذى أتى ليتبين نيات الرجل الانجليزى أن يقبل مساعدة الانجليز ضد الفرنسيين • واذ كان عديم الثقة فى جميع الأوربيين على السواء ، فانه فى حرصبه وحذره تظاهر بالجهل وقال لهم فى رواية نقولا الترك : « ان الفرنساوية غير ممكن أنهم يحضروا لبلادنا ولا لهم فى أرضنا شغل ، ولا بيننا وبينهم عداوة ، وهذا كلام غير ممكن أن نصدقه • وأما أنتم فما لكم اقامة فى أرضنا ، ولا معنا اجازة أن نقبلكم جملة كافية ، فانظروا الذى تحتاجوه من الماء والذخيرة خذوه واذهبوا عنا بالسلامة ، وان كان الفرنساوية كما تزعمون قاصدين أخذ بلادنا فنحن منا لهم نصطفل » • وأجاب الكابتن هاردى : « أنتم ما صدقتم كلامنا • سوف تعاينوا ما يحل بكم وتندموا على عدم قبولكم ايانا » (٢٦) • وقد تبين — فى حالة محمد كريم بالذات — أن نبوءة الانجليز صدقت يقينا • ويمكن أن نقول بمثل هذا اليقين ان الذى منع الانجليز من الرسو خارج الميناء لم يكن هذا التحدى العاجز الذى لقوه من محمد كريم • ولكن هناك سؤالا محيرا يثيره هذا الحديث ، اللهم الا اذا كان نقولا الترك قد اختلقه اختلاقا • فاذا كان الانجليز قد ظنوا أن وصول الأسطول الفرنسى للاسكندرية محتمل **بعد** وصولهم هم (وهذا الاحتمال يفهم من الحديث المتبادل بين هاردى ومحمد كريم) فلم لم ينتظر نلسن أمام الاسكندرية يومين على الأقل ؟ وما الذى جعله يتخلى فجأة عن ايمانه الذى أعرب عنه فى الرسالة تلو الرسالة ، بأن مصر والهند هما هدفا الفرنسيين ؟ لابد لنا من أن نفترض أن الدافع له كان سيكولوجيا أكثر منه استراتيجيا لأننا لا نجد تعليلا أفضل • فهو فى غمرة المطاردة لم يستطع أن يحمل نفسه على التلكؤ يومين كاملين ، والمغامرة بترك الطريدة تهرب فى اتجاه آخر •

على أية حال حين غادر الانجليز الاسكندرية فى ٢٩ يونيو كان العلم المثلث الألوان لا يزال يخفق فوق بيت القنصل الفرنسى مجاللون ، وهو ابن أخى شارل مجاللون ، ولعل شارل هذا قام بجهد يفوق جهد أى انسان آخر لحث السلطات الفرنسية على تجريد الحملة ، وكان فى ذلك الوقت على ظهر السفينة لوريان •

***

بعد أن أرخى الليل سدوله فى ٢٧ يونيو صدرت الأوامر للفرقاطة جونو أن تلحق بمؤخرة لوريان • ويقول دينون الذى كان على ظهر الفرقاطة : « من العسير أن أعطى القارىء فكرة دقيقة عن شعورنا ونحن ندنو من قدس أقداس السلطة ، وهو يملى الأوامر وسط ٣٠٠ سفينة فى جوف الليل البهيم الذى لا ينيره غير ضوء ضئيل من القمر يتيح لنا رؤية المشهد • كان منا نحو ٥٠٠ على سطح السفينة ، وكنت تستطيع أن تسمع الذبابة اذا طنت فى هذا

السكون » (٢٧) • ولما أمر قائد الفرقاطة بالصعود الى مركب أمير الأسطول تلقى أوامره ، وهى تقضى بأن يبحر الى الاسكندرية ، ويستطلع أسباب دفاعها ، ويعثر على القنصل الفرنسى ، ويعود به • وانطلقت الجونو فى مهمتها لتوها ، ولاح لها بر مصر فى فجر ٢٩ يونيو • ولم يكن المشهد مما يشرح صدر الجنود • وقال ظريف منهم لجاره وهو يشير الى الساحل الأجرد الموحش : « انظر ! ها هى ذى الأفدنة الستة التى وعدت بها » (٢٨) • وفى الساعة الواحدة بعد الظهر وصلت الفرقاطة الى الاسكندرية وألقت مراسيها على أميال من الشاطىء • وأرسل ملازم فى رفاص ليأتى بالقنصل ، وفيما كان دينون ينتظر عودته رسم منظر القلعة البعيد ومساجد المدينة ومنائرها • وكان وهو يرسمها يسرح فى أحلام بأمجاد الاسكندرية الغابرة — وهى أحلام سرعان ما بددها الواقع الأليم ، واقع مدينة قذرة تعسة انكمش سكانها الى نحو ٦٠٠٠ نفس •

ولما عاد المبعوث والقنصل حوالى منتصف الليل أقلعت الفرقاطة جونو • واذ دنت من جانب لوريان فى الساعة السابعة من مساء اليوم التالى ، كان هدوء البحر قد انقلب الى ريح شمالية قوية سرعان ما اشتد عنفها • واهتز الأسطول الفرنسى — بوارجه وناقلاته — فوق الأمواج وعمه الاضطراب • وصعد مجاللون ودينون الى سفينة أمير البحر ليقدما تقريرهما الى بونابرت • وكان أهم خبر ساقاه اليه هو أن الأسطول الانجليزى غادر الاسكندرية لتوه ، وربما كان يجول على مقربة من الفرنسيين • ويؤكد لنا دينون أن وجه بونابرت ظل محتفظا بهدوئه • وفى اليوم التالى ، وهو أول يوليو ، لاح عمود السوارى لأنظار الأسطول الفرنسى ، وكان يومها أبرز معالم الاسكندرية • ولم يكن لبونابرت مناص من أن يختار فورا بين أمرين بسبب قرب الأسطول الانجليزى منه : فاما أن ينزل الجيش برا فى اليوم نفسه ، واما أن يحتمى بأحد مينائى المدينة أو بكليهما • وكان واضحا من تقرير مجاللون (ابن الأخ) أن النزول ببر الاسكندرية نفسها محال دون خوض معركة • وقد يستطيع الأسطول أن يشق له طريقا فى أحد الميناءين ، ولكن دون ذلك خطر كبير ، لأن الطريق الى الميناءين ضيقة خداعة لا سيما اذا كان الجو عاصفا ، وكان يخشى أن تجنح البوارج • أما السبيل الآخر — وهو النزول فى شرقى الاسكندرية أو غربيها — فمحفوف بمصاعب مماثلة • أما أمثل موقع للرسو فهو خليج أبو قير الواقع على خمسة عشر ميلا الى الشرق ، ولكن الرسو فيه مضيعة لوقت ثمين بسبب بعده ، وهو بالضبط البقعة التى يتوقع فيها العدو نزول الحملة • وأفضل منه من وجهة نظر رجل اليابس الجاهل بالبحر ساحل العجمى (*) ، وهى قرية صيد على

(*) فى الأصل Marabut (مرابط) ، وهى جزيرة تقع الى الشمال الشرقى من العجمى (واسمها القديم Chersonesus minorzz) وكان المكانان يؤلفان ما أطلق عليه الجغرافيون القدامى اسم Didymi أى الجزيرتين التوأمتين (المترجم) •

نحو ثمانية أميال الى الغرب ، ولكنه ليس أفضل من وجهة نظر البحار . وقد أثار الأميرال بروى اعتراضات قوية على هذا الرأى ، اذ لم يكن فى الامكان البدء بالعملية قبل عصر ذلك اليوم ، وكانت ستستغرق الليل كله ، والبحر هائج ، والمياه الساحلية ليس لها خرائط مرسومة ، فخير اذن ألا يتم انزال الجيش فى اليوم نفسه ، وأن تنتظر الحملة الى صباح الغد ما دام غير محتمل أن يعود نلسن الا بعد حين .

والواقع أن بروى كان على حق (لأن نلسن لم يعد الا بعد شهر) ، ولكن رأى رجل اليابس تغلب على رأيه . يقول بورين ان بونابرت « استمع الى هذه الحجج وقد عيل صبره وضاق خلقه . **ورد عليها فى اقتضاب قائلا** : أيها الأميرال ، ليس لدينا وقت نضيعه . ان الحظ يمنحنى ثلاثة أيام لا أكثر ، فاذا لم أستغلها فقل علينا السلام » . وهكذا حسم الأمر بهذه المقامرة .

واستعمل بونابرت فى التقرير الذى كتبه لحكومة الادارة لتعليل الكارثة التى أصابت الأسطول الفرنسى بعد شهر فى خليج أبو قير لفظى « الحظ » و « القضاء » باسراف مدهش . كتب يقول : « حين وصلت أمام الاسكندرية وعلمت أن الانجليز مروا بها بقوات أكبر من قواتنا قبل أيام ، قررت أن أنزل جنودى برغم العاصفة العاتية المحتدمة . وأذكر أن سفينة حربية لاحت على الأفق فى اللحظة التى بدأت فيها مناورات النزول الى البر ، وقد تبين أنها الفرقاطة « جوستيس » قادمة من مالطة . وصحت حين رأيتها : هل تخلى عنى الحظ ؟ ان كل ما أحتاج اليه هو خمسة أيام » (٣٠) . ولا ريب أن بونابرت كان لديه كل المبررات للخوف من أن تكون هذه السفينة التى لاحت على الأفق طليعة الأسطول الانجليزى . فاذا كان قد أدخل الحظ فى حسابه فقد أصاب ، اذ أنى له أن يعرف أن نلسن سيمهله أربعة أسابيع بدلا من خمسة أيام ؟ فقرار انزال الجنود وقتها ، برغم جميع الأخطار ، هو القرار المعقول الوحيد مع ما تبين بعد ذلك من عدم ضرورته .

وبينما كان الأسطول الفرنسى لا يزال أمام الاسكندرية يلقى الرعب فى قلوب من كانوا يشهدونه على البر ، أرسل قائد سفينة راسية فى الميناء ، وكان تركيا ، ضابطا الى البارجة لوريان يحمل خروفين هدية ، واستفسارا عما يصنع الفرنسيون هناك . وسلم الضابط التركى نسخة من المنشور العربى المطبوع والموجه الى أهل مصر (*) . فهز رأسه قائلا انه لا يقرأ العربية (ولعله لم يكن يقرأ التركية أيضا) ، فترجم له فنتور المنشور . وكان الزائر عند سماعه كل فقرة تنال من قدر الأمراء المماليك يطفر سرورا ، فطلب مزيدا من نسخ المنشور

(*) انظر الفصل الثالث (٢) .

لتوزيعها ، وابتلع قدرا وافرا من القهوة والحلوى ، ثم قفل راجعا بخطاب من بونابرت الى قائده يقول فيه : « سأكون فى الاسكندرية غدا ، فلا تخش بأسا ، لأنك من رجال السلطان صديقنا العظيم · فاسلك كصديق · ولكنى سأعاملك معاملة العدو لو بدرت منك بادرة عداء للجيش الفرنسي ، وستكون أنت الملوم ، لأن هذا أبعد الأشياء عن نواياى » (٣١) · ولسنا على ثقة من أن الضابط التركى راعه اخلاص بونابرت ، ولكنه كتم السر ولم يفعل شيئا ·

وبدأت عمليات انزال الجنود تجاه ساحل العجمى حوالى الظهر · وكانت ثلاث فرق من الخمس التى يتألف منها الجيش ، وهى التى يقودها ديزيه ومينو ورينييه ، تحملها ناقلات ، فألقت مراسيها على ثلاثة أميال من البر ، أما الفرقتان اللتان يقودهما كليبر وبون فكانتا تستقلان بوارج تؤلف قوسا على ضعف هذه المسافة من الساحل · وكانت المداخل الى الساحل محفوفة بالصخور والشعاب، والبحر يزداد هياجا على هياج ، فلم تستطع أول دفعة من الجنود الوصول الى البر قبل الساعة الثامنة · وكانت العملية عذابا امتد طوال الليل · واقتضى الأمر انزال كثير من الجنود فى رفاصات وزوارق بالحبال · وامتلأ البحر بالزوارق المقلوبة ، وكانت صرخات الرجال تعلو على ضجيج الأمواج ، ولم يكن يلم بالسباحة منهم الا أقل القليل · وكان الجميع ـ جندا وبحارة وضباطا بحريين ـ قد أنهكهم دوار البحر · واستغرقت بعض القوارب ثمانى ساعات فى قطع ثلاثة أميال بالمجاديف · وانها لمعجزة حقا ألا يجاوز عدد الغرقى تسعة عشر رجلا ، وهذا على أية حال هو الرقم الذى ذكره بونابرت ، ولعله كان دون الواقع ·

واستقل القائد الأعلى سفينة مالطية حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، والتف حولها أسطول من صغار السفن ، وكان مفروضا أن تلقى مراسيها على نصف ميل من الشاطىء فى الظلام · وفى نحو الساعة الواحدة صباحا قفز بونابرت فى رفاص وهو تواق للوصول الى البر ، وبروى يمسك بيده ليمنعه من الترنح · ووصل فى صحبة قواده برتييه وكفاريللى ودومارتن الى البر قرب ساحل العجمى · وكان كليبر ومينو وبون قد أفلحوا أثناء ذلك فى انزال نحو ٥٠٠٠ رجل · أما ديزيه فكان لا يزال يترنح بفرقته على الأمواج ، الأمر الذى غاظ بونابرت ، وأما رينييه فأنزل بضع مئات من رجاله · وبعد أن أمر بونابرت باقامة حراسة على رأس الساحل نام ساعة بينما واصل الجنود المبللون شق طريقهم الى البر ·

وفى الساعة الثالثة صباحا ، فى ضوء القمر الساطع ، مر بونابرت ليستعرض من وصل من جنوده · ثم أصدر أوامره لفرق كليبر ومينو وبون بأن تبدأ زحفها على الاسكندرية ، على أن تترك فرقتا رينييه وديزيه خلفها لتحميا ظهورها ·

ولم تكن قد وصلت بعد جرايات الطعام ولا الأمتعة الشخصية ، بل ولا مدفع أو جواد واحد · ولم يكن هناك ماء للشرب ، ولم يتيسر منه شيء طوال الطريق الى الاسكندرية ، وقل من الرجال من كان عنده ما يتبلغ به فى الساعات الأربع والعشرين التالية لنزول الجيش · وهكذا بدأ الجنود زحفهم فى الفجر على بطون خاوية بعد رحلة خمسة أسابيع أو ستة مضنية ، لا يحملون غير سلاحهم وما عليهم من ثياب ، وقد غشيت نفوسهم وأنهكهم كفاح الليلة الماضية ، يخترقون صحراء ليستولوا عنوة على مدينة محصنة · يقول الملازم تورمان فى خطاب لأسرته : « فى وسعى أن أؤكد لكم ـ بينى وبينكم ـ أن العطش هو الذى حفز جنودنا الى الاستيلاء على الاسكندرية · فلم يكن أمامنا ـ وقد وصل الجيش الى هذه النقطة ـ الا أن نختار بين العثور على الماء أو الهلاك » (٣٢) · ومع ذلك فقد كان فى الجيش نفر يؤثرون هذا على أهوال رحلة البحر · يقول الملازم فرترى : « كانت كل أمانى مركزة فى اللحظة التى استرد فيها شهية الطعام التى خلفتها ورائى فى جوزو » (٣٣) ·

ولم يكن هناك بالطبع طريق معبد ، وهذا الطريق موجود اليوم ـ وهو الطريق من الاسكندرية الى العلمين عبر الصحراء الليبية · ولم يمض الا القليل على سير الجند حتى طلعت الشمس فألهبتهم بأشعتها · وكانت الآبار أو الصهاريج التى وجدوها فى الطريق قد جفت أو ردمها البدو · وسرعان ما اشتد وقع الحر والظمأ على الجنود ، ومع ذلك واصلوا سيرهم ـ لأنه لم يكن بد من السير · وكان على رأسهم بوتابرت نفسه راجلا ، والى جواره يسير كفاريللى تغوص ساقه الخشبية فى الرمال ، وديما قائد الفرسان ، بدون فرس ، ودومارتن قائد المدفعية ، بلا مدفع ·

وكانت تتراءى على صفحة السماء فى الفجر ظلال نحيلة على التلال ، هى ظلال نفر من البدو يمتطون جيادهم ويحملون المزاريق · وسرعان ما تجمع منهم نحو أربعمائة ، فلما رأوا أنه لم يكن للفرنسيين خيالة تشجعوا ، وأخذوا يعبرون بخيلهم وسط الثغرات التى بين الطوابير الفرنسية وهم يصرخون صرخات يجمد لها الدم فى العروق · غير أنهم هربوا لأقل بادرة من المقاومة الجدية ، ولكنهم لم يعودوا بأيديهم خاوية فقد أسروا نفرا من المتخلفين ـ وفيهم عدد من النساء ـ جعلهم الاعياء والضنك لا يكترثون للخطر · وعندما رد هؤلاء الأسرى بعد أيام رووا قصة عجيبة ما لبثت أن تناقلها الجنود فحذرتهم من التخلف فى كل زحف تال · فأما الأسرى من الذكور فقد أعجب آسروهم ، الأشداء برغم نحافتهم ، اعجابا شديدا ببشرتهم البيضاء الناعمة فاغتصبوهم مرارا وتكرارا ، وأما النساء فقد اكتفوا بضربهن · وليس فى الاستطاعة تعليل ميول قوم يغتذون بلبن الابل على مدار السنة ·

وماوافت الساعة الثامنة صباحا حتى وصلت الطوابير الفرنسية الى حصون الاسكندرية الخارجية . وكانت الريح قد سكنت . وسقط بعض الرجال ، ومنهم الملازم فرترى ، على الأرض وقد صرعهم الحر ، حين صدر الأمر للطوابير بالتوقف . وكان هناك لحسن حظ فرترى بئر قريبة من البقعة التى سقط فيها ، ولكن هذا الحظ لم يوات جميع الرجال (*) .

واستعرض الجنرال بونابرت حصون المدينة من قاعدة عمود بومبى (السوارى) الذى أصبح بعد ذلك مقر قيادته لعدة أيام ، وأمر جنوده بالهجوم دون أن ينالوا قسطا من الراحة . ثم جلس وراح يعبث بسوطه فى تل من الشقف . لقد نال منه الظمأ كثيرا ، ولكن أحدا لم يستطع أن يجد له ماء . على أن ضابطا أفلح فى أن يحمل برتقالات طوال الطريق من مالطة الى عمود بومبى قدمها اليه فأكلها الجنرال بشراهة .

وكان السيد محمد كريم قد أرسل فى العشية السابقة هذه الرسالة الى مراد بك بالقاهرة : « سيدى ، ان العمارة التى حضرت مراكب عديدة ما لها أول يعرف ، ولا آخر يوصف . لله ورسوله.. داركونا بالرجال » (٣٤) . ولم يكن هناك ما يستطيع عمله حتى لو أتيح له العلم بظروف الجيش الفرنسى التعيسة وما يكتنفه من الخطر . ذلك أن المدافعين عن الاسكندرية ، فيما روى نقولا الترك ، لم يكن لديهم غير برميل واحد من البارود لمدفعيتهم . أما الخيالة ، اذا استثنينا البدو عديمى النفع ، فلم يكن منهم أكثر من عشرين مملوكا . وأوفد السيد محمد كريم لا أقل من ثلاثة عشر رسولا الى القاهرة خلال الليل وهو خائف من الفرنسيين بقدر خوفهم مما ينتظرهم من أخطار ومشاق . وكانت ليلة ليلاء « كاد الطفل الرضيع يشيب منها » (٣٥) ، كما يحلو لنقولا الترك أن يقول . ويؤكد عبد الرحمن الجبرتى ، المؤرخ المعاصر لنقولا الترك ، أنه « لم يشعر أهل الثغر وقت الصباح الا وهم كالجراد المنتشر حول البلد » ، وهى مبالغة تصور لنا حالة المدافعين النفسية .

وكان العطش قد نال من الفرنسيين أكثر مما نال الخوف من أهل الاسكندرية فما حلت الساعة الحادية عشرة صباحا حتى سقطت المدينة فى قبضتهم .

(*) من العجيب أن نجد فرترى ، وهو من رجال نصف اللواء التاسع ، التابع للفرقة الجنرال رينييه ، يشترك فى الزحف على الاسكندرية ، ولكن هذا ما حدث فعلا كما ذكر فى يومياته ، وليس هناك ما يدعونا للتشكك فى صدقها ، وهذه احدى مسائل التاريخ الصغيرة المحيرة .

الفصل الثالث

الى الأهرام

١

بينما كان الفرنسيون في الاسكندرية يتأهبون للزحف جنوبا وصل رسل محمد كريم الثلاثة عشر الى مراد بك يحملون النبأ المشئوم • يقول نقولا الترك « فانقلبت مدينة مصر قلبة واحدة ٠٠ فيا له من يوم كان مهولا ، وساعة كانت عظيمة ٠٠٠ » (١) ودعا بكير باشا الديوان فورا ، فحضر جميع أئمة الدين بينهم الشيخ محمد عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر • ولم يتخلف من البكوات غير صالح بك الذى كان قد ذهب الى مكة ليؤدى فريضة الحج •

وافتتح المناقشة مراد بك ، وكان شركسيا طويلا ملتحيا ، يستطيع بضربة واحدة من سيفه أن يفصل رأس ثور عن جسده ، فهاجم الباشا قائلا : « ان الافرنج ما حضروا الى هذه البلاد الا باذن من الدولة العلية • ولا بد أنت أيها الوزير عندك الخبر والعلم بذلك • ولكن القدرة تساعدنا عليكم وعليهم » (٢) ونفى الباشا التهمة عن نفسه ساخطا « لا يصح منك هذا الكلام أيها الأمير • ان الدولة العلية لا يمكن أن تسمح بمثل هذا الأمر على بلاد الاسلام • فدعوكم من هذا الحديث والكلام ، وشدوا همتكم ، وصمموا بيتكم ، وانهضوا نهضة الأبطال ، واستعدوا للحرب والقتال ، وقدموا ذواتكم للمغازاة ، وفوضوا الأمر لله » (٣) •

فلما انتهى الديوان الى هذا القرار ، أشار بعض البكوات والعلماء بأنه يحسن قبل بدء المعركة أن يباد جميع النصارى من سكان القاهرة ــ ويذكرنا هذا الاجراء المقصود به تامين البلاد باقتراح قدم قبل ذلك بثلاثة أشهر لغرض

الدفاع عن لندن (*) . وناقش المجتمعون فوائد هذا الاقتراح حينا ، فاعترض عليه الباشا وابراهيم بك شيخ البلد . ثم استقر الرأى على أن فى سجنهم الكفاية . أما عن التدابير الايجابية ، فقد قرر الديوان أن يسير مراد بك شمالا على رأس قوة مسلحة كبيرة ليلاقى الفرنسيين ، فى حين يعسكر الباشا وابراهيم بك ببقية الجيش فى ميناء بولاق النهرى .

وتقلد الأهالى المسلمون السلاح بينما كان الأئمة والعلماء يحضون المؤمنين على قتل الغزاة . ولابد أنهم تقلدوه فى كثير من الخشية كما فعل المالطيون من قبل ، لأن ابراهيم بك أخبرهم بأن الفرنسيين شياطين لهم قوة بدنية رهيبة . قال : « ان الكفار القادمين لقتالكم لهم أظافر طولها قدم ، وأفواه ضخمة ، وعيون ضارية . انهم متوحشون تسكن الشيطان أجسادهم ، وهم يمضون الى المعركة تربطهم السلاسل بعضهم ببعض » (٤) على أية حال هذه هى العبارات التى تنسبها لابراهيم صيدلى ايطالى لقيه الملازم فرترى بعد ذلك فى القاهرة ، ولكن لا ننسى أن الصيادلة الايطاليين يميلون الى التهويل والمبالغة .

وبعد يومين من وصول نبأ نزول الفرنسيين غادر مراد بك القاهرة على رأس جيش مخلط ، فيه نحو ثلاثة آلاف أو أربعة من فرسان المماليك ، وأتباعهم المسلحون ، والمتطوعون القاهريون ، والبدو الذين دعاهم لمعاونته فى دفع العدو المشترك ــ وعدة الجيش كله تبلغ نحو ٢٠٫٠٠٠ رجل . وأمر فى الوقت نفسه أسطولا من المراكب والغلايين المسلحة بالمدافع بالتقدم شمالا ومساعدة الجيش اذا دعت الضرورة .

وران على القاهرة فزع صامت بعد رحيل مراد . فأقفرت شوارعها الا من اللصوص . ورغبة فى تهدئة الخواطر وتجنب أعمال النهب والسلب أو حالة الذعر اذا شن العدو هجوما مفاجئا على المدينة ، أمر البوليس بفتح المقاهى طول الليل وتعليق القناديل على البيوت والدكاكين . ويقول المؤرخ الجبرتى انه مع ذلك كان الأغنياء ينقلون أمتعتهم الى المخابىء فى الريف ويستعدون للهروب من المدينة . وبينما كانت الأنباء تتواتر بتقدم الفرنسيين « كانت العلماء تجتمع بالأزهر كل يوم ويقرأون البخارى وغيره من الدعوات ، وكذلك مشايخ الفقراء (من أرباب الطرق) .. ويعملون لهم مجالس بالأزهر وكذلك أطفال المكاتب ، ويذكرون الاســم اللطيف وغيره من الأسماء » (٥) . وفى الثالث من صــفر (الثلاثاء الموافق ١٧ يوليو) « نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس وكرروا المناداة بذلك كل يوم فاغلق الناس الدكاكين والأسواق وخرج الجميع لبر بولاق ... وخرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبــول والزمور والأعلام

(*) انظر صفحة ٤٤ .

والطاسات وهم يضجون ويصيحون ويذكرون بأذكار مختلفة · وصعد السيد عمر أفندى نقيب الأشراف الى القلعة فأنزل منها بيرقا كبيرا سمته العامة البيرق النبوى فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصى يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح » (٦) · ولو كانت المعارك تكسب بالضجيج ، أو كان فى الامكان نقل الحيرة والاضطراب الى صفوف الأعداء ، لكان للمصريين تفوق حاسم على الفرنسيين ·

ولم يبق بالقاهرة سوى الشيوخ والنساء والأطفال · واحتشد ببولاق جميع الذكور من المسلمين القادرين على حمل السلاح (ولابد أنهم كانوا يناهزون مائة ألف) ، وزادت هناك أسعار الطعام بأسرع من زيادة عدد المحاربين · وعمت الفوضى وانتشر النهب والسلب فى الريف المحيط بالقاهرة · ولم تكن حيرة القادة بأقل من حيرة جماهير الشعب ، وتضاربت المعلومات عن الطريق الذى اتخذه الفرنسيون ، يقول الجبرتى : « وليس لأحد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوسا أو طليعة تناوشهم القتال قبل دخولهم » (٧) ·

فلما ظهر الفرنسيون آخر الأمر فى ١٢ يوليو ، لم تتح لواحد من رجال ابراهيم فرصة لاطلاق رصاصة أو لرفع نبوته ·

٢

كانت الساعة قد بلغت الثامنة أو نحوها فى صبيحة ٢ يوليو حين توقفت الطوابير الفرنسية عن الزحف على رمية مدفع لا أكثر من الأسوار الخارجية لمدينة الاسكندرية · وبذل الفرنسيون بعض المحاولات للاتصال بالمدافعين عن المدينة ، الذين شوهدوا متكاثرين على قمة الأسوار · يقول الملازم ديفرنوا : « وفجأة انطلقت من أفواههم صرخات مخيفة ــ من أفواه الرجال والنساء والأطفال ــ وفى الوقت نفسه انطلقت نيران المدفعية صوبنا فعرفنا نيات العرب · وأصدر بونابرت الأمر بأن ينفخ فى الأبواق لدعوة الجيش للهجوم ، فتضاعفت قوة الصراخ » (٨) ·

كانت فرقة الجنرال مينو قد اتخذت مكانها الى الشرق تجاه القلعة المثلثة كما يسمونها ، أما فرقة كليبر فالى الشمال أمام بوابة بومبى . وأما فرقة الجنرال بون ففى الغرب أمام باب رشيد · ومع أن الاسوار كانت ضعيفة فى كثير من أجزائها ، فقد كان من العسير احداث ثغرة فيها بدون استعمال المدافع · وبينما كان الفرنسيون يحاولون ارتقاءها قذفهم المدافعون عنها بوابل من الأحجار والرصاص · وأصيب الجنرال كليبر الذى كان يصدر التعليمات لرجاله من أسفل السور بجرح شديد من رصاصة فوق الحاجب ؛ أما الجنرال مينو فقد

أصابته الأحجار المتساقطة بسبعة جروح . ويندر أن يصاب قائدان هذه الاصابات فى الدقائق الخمسة الأولى فى أية حملة حربية . على أن هذه المرحلة انتهت سريعا : فقد استطاع الفرنسيون ، الذين اشتد ظمؤهم وعنادهم ، أن يحدثوا ثغرات فى الحصون ويرتقوها فى مواطن عدة ، بينما تقهقر المدافعون سريعا الى داخل المدينة .

وكانت الاسكندرية منذ شيد الفاتحون العرب أسوارها الخارجية قد انكمشت حتى أصبحت لا تشغل أكثر من لسان الأرض الضيق الذى يفصل الميناء الغربى أو « الجديد » عن الميناء الشرقى أو « القديم » . وعلى رأس شبه الجزيرة فى موقع الفنار القديم المشهور ، كانت تقوم القلعة الداخلية . أما ما حدث عقب اقتحام الفرنسيين للأسوار الخارجية فليس واضحا تماما . ولا شك فى أن قلعة الفنار التى كان يتولى القيادة فيها السيد محمد كريم قاومت الى ساعة متأخرة من الليل ، وما من شك أيضا فى أن قتالا نشب فى شوارع المدينة .

ويؤخذ من تقرير بونابرت الى الادارة أن « كل بيت كان قلعة » (٩) أما بوريين فيقول انه لم يكن هناك الا حوادث قنص أو تصيد متفرقة ــ ولكن بوريين كان مع بونابرت عند عمود السوارى فقط لا فى شوارع المدينة . ويقول بوريين هذا ، ويقول تورمان ، ان الفرنسيين لم يثأروا من المدافعين على الاطلاق ، وأنهم احتلوا المدينة دون اخلال بالنظام . ولكن الأدجوتانت جنرال بوايبه ، أحد هيئة أركان الحرب العامة ، يروى رواية مخالفة . فقد كتب لوالديه يقول : « حين دحر المدافعون على جميع الجوانب احتموا بالهم ورسولهم ، فملأوا الجوامع . وذبح الرجال والنساء ، الكبار والصغار ، وحتى الأطفال ، عن بكرة أبيهم . وبعد نحو أربع ساعات هدأت سورة جنودنا فى النهاية » (١٠) . وخطاب بوايبه هذا من الخطابات التى وقعت فى يد البريطانيين فنشروها للدعاية ، ولعلهم عبثوا بنصه . على أن شهادته يؤيدها الجندى مييه الذى كان يشترك فعلا فى القتال فى فرقة كليبر . يقول فى مذكراته : « ظننا أن المدينة استسلمت ، وشد ما أدهشنا أن ينهال علينا رصاص البنادق ونحن نمر أمام المساجد . . . فأمرنا قائد اتفق وجوده هناك أن نقتحم باب المسجد ولا نبقى على أحد فيه . وهكذا هلك الرجال والنساء والأطفال . . بحد السناكى . ولكن لما كانت العواطف الانسانية أقوى من الانتقام ، فقد توقفت المذبحة حين تعالت أصواتهم طلبا للرحمة ، فاستحيينا ثلثهم » (١١) .

والمدنيون غير مفروض فيهم أن يطلقوا النار على الجنود ، وعمل الفرنسيين قد يبرر ، حتى اذا أخذنا بقواعد الحرب المتعارف عليها بين الأمم التى تسمى متحضرة . وقد تلقى المسلمون ، الجاهلون بقواعد حرب المتحضرين ، درسا

نافعا ، كذلك تعلموا أن المرء يجب ألا يخلط أبدا بين الناس ، فيحسب محرريه أعداء » (*) !!

في هذه الأثناء كان قائد السفينة التركية قد عرض خدماته للتوسط في تسليم المدينة . وكلفه بونابرت أن يخبر الشيوخ والعلماء والأعيان أن المزيد من المقاومة سيضطره الى أن يقتلهم جميعا بحد السيف ، وهو اجراء صارم يود أن يتجنبه ان استطاع . وما لبث أن حضر قبيل الظهر وفد الى مقر القيادة عند عمود بومبى لتسليم المدينة وحلف يمين الطاعة . ولابد أن المشهد كان طريفا . كتب أحد شهود العيان في عبارات يشوبها التفكك « ان القواد . والجنود ، والترك ، والعرب ، والابل — كل هذه المتناقضات ألفت صورة مرتجلة للتقلبات المزمعة أن تغير من طبيعة هذا البلد » (١٢) وفي هذه اللحظة وقع حادث أتاح لبونابرت الفرصة لاعطاء الجمهور فكرة عن صرامته وعدله . يقول هذا الشاهد نفسه : « ان جنديا فرنسيا أحضر أمامه لأنه انتزع خنجرا من عربى مسالم . وفي لحظة تأيدت التهمة ، فضرب الجندى بالرصاص على الفور » (١٣) وبين هذا الحادث ، كما بين ما وقع بالمصريين من مكروه في المسجد ، أن الجنرال بونابرت ، عضو المجمع اللغوى والقائد العام للحملة ، لا يطيق العبث . على أنه من المؤكد أن هذا العربى المسالم كان ، في ظروف مخالفة ، يمكن أن يضرب بالنار ليتعلم ألا يحمل خنجرا .

أما وقد أحدث بونابرت هذا الأثر في نفوس المصريين ، فقد أخذ يتجول في المدينة يحرسه أصدقاؤه الجدد وفريق من المرشدين . وبينما كان يمر في زقاق لا يتسع لمرور أكثر من رجلين معا ، أطلق أحد القناصة النار من نافذة فكشط حذاءه الأيسر . ورد بعض الجند باطلاق النار وتسلق غيرهم الى داخل البيت عن طريق السطح فوجدوا القناصة ، وكانا رجلا وامرأة ، فقتلوهما فورا (**) .. ولم يقع بعد ذلك حوادث أخرى ، وما لبث القائد أن وصل الى بيت القنصل الفرنسى المواجه للميناء الشرقى ، حيث اتخذ مسكنه ..

ومن أول أعماله أنه أمر بأن يعلق في جميع أرجاء المدينة ، ويقرأ على الملأ ، مئات النسخ من منشوره الموجه لأهل مصر ، والمطبوع بالعربية والتركية والفرنسية . وهو منشور عجيب ، حتى في صورته الفرنسية المخففة التى يأخذ عنها الناقلون عادة . والنص التالى هو النص العربى الذى يظهر بصورة

(*) واضح في هذه الجملة اسلوب المؤلف الساخر في عرض وجهة نظر الفرنسيين الذين زعموا أن الجيش الفرنسى جاء ليحرر المصريين من نير المماليك . (المترجم)

(**) ذلك هو الحادث في رواية بوريين [المذكرات ١ ، ٢٦١] أما بونابرت فيقول انه لم يكن في البيت سوى رجل واحد محاط بست بنادق [الحملة المصرية والسورية ، في رسائل نابليون الاول ٢٩ ، ص ٤٣٤] .

أوضح كيف تعمد بونابرت أن يضرب على وتر المشاعر الدينية للمسلمين . وكيف جمع جمعا غريبا بين هذا وبين الشعارات التحررية المألوفة فى الثورة الفرنسية . ولعل هذا المزيج العجيب هو الذى كان يدور فى ذهنه حين تحدث فى سنواته الأخيرة عن « القرآن الجديد » الذى كان فى نيته أن يضعه ليحقق به أهدافه ، ويحمله بيمينه وهو يغزو بلاد الشرق .

مرسوم (*)

[(بسم الله الرحمن الرحيم) لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك فى ملكه] . [من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية] السر عسكر الكبير [أمير الجيوش الفرنساوية] بونابرته [يعرف أهالى مصر جميعهم] أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدى فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازه والجراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر على كل شىء فانه قد حكم على انقضاء دولتهم . يا أيها المصريون قد قيل لكم اننى ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم [فذلك كذب صريح] فلا تصدقوه وقولوا [للمفترين] اننى ما قدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين **وأننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم**.(**) وقولوا ايضا لهم ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شىء أحسن فيها من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فان كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها وسابقا كان فى الأراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجرابجية [وأعيان البلد] قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضا **مسلمون**

(*) الفقرات المحصورة بين الأقواس المربعة لا يحتويها النص الفرنسى الرسمى ، والعبارات التى تحتها خط تختلف اختلافا ظاهرا فى النص الفرنسى .

(**) فى النص الفرنسى الرسمى « واننى أحترم الله ورسوله والقرآن أكثر من المماليك » .

مخلصون (*) واثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين [لحضرة] السلطان العثمانى وأعداء أعدائه [أدام الله ملكه] ومع ذلك ان المماليك امتنعوا عن طاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلا الا لطمع أنفسهم طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم طوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فاذا عرفونا بالأكثر تسارعوا الينا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا الى الخلاص ولا يبقى منهم أثر (*) المادة الأولى جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التى يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار اليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذى هو أبيض وكحلى وأحمر (*) المادة الثـانية كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار (*) المادة الثالثة كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى أيضا تنصب صنجاق السلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه (*) المادة الرابعة المشايخ [فى كل بلد] يختمون حالا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شىء منها (*) المادة الخامسة الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم وعلى كل أحد من أهالى البلد أن يبقى فى مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال أدام الله اجلال السلطان العثمانى أدام الله اجلال العسكر الفرنساوى لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية تحريرا بمعسكر اسكندرية فى ١٣ شهر سيدور سنة ١٢١٣ من اقامة الجمهور الفرنساوى يعنى فى آخر شهر محرم سنة هجرية ا هـ بحروفه (١٤) ٠

كتب المندوب البحرى جوبير الى وزير البحرية يقول : « لعلكم أيها الباريسيون تضحكون حين تقرأون هذا المنشور الاسلامى الذى وضعه قائدنا الأعلى ٠ ولكنه لم يعبأ بكل سخريتنا من المنشور ، ولا شك فى أنه محدث أثرا كبيرا جدا » (١٥) ٠ وقد اعترف نابليون نفسه وهو يعقب عليه فى منفاه بسانت هيلانه أن المنشور قطعة من الدجل « ولكنه دجل من أعلى طراز » (١٦) ٠ وقال لشخص آخر من أخصائه فى سانت هيلانه « على الانسان أن يصطنع الدجل فى هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد الى النجاح » (١٧) ٠ وبعد اصـدار المنشور

(★) فى النص الفرنسى الرسمى « أصدقاء مخلصون للمسلمين » ٠

بيومين كتب الجنرال ديزيه من قرية على حافة الصحراء الليبية يطلب مزيدا من النسخ قائلا « انه يحدث تأثيرا كبيرا » (١٨) .

واتفق الفرنسيون عشية ٢ ـ ٣ يوليو فى مفاوضات مع السيد محمد كريم • وفى الصباح استسلم ، وأعلن خضوعه للفاتح ، وأقسم يمين الولاء له ، ورأى بونابرت من حسن السياسة أن يكون كريما • فغفر لمحمد كريم مقاومته للهجوم ، وثبته حاكما على الاسكندرية ، ووكل اليه حفظ النظام وتموين الفرنسيين • ولعله فى هذه اللحظة تحول بونابرت من القائد الى الحاكم ـ وهذا انقلاب يتطلب ضربا رفيعا جدا من الدجل •

***

لم يأت يوم ٣ يوليو حتى كان جميع الجنود والخيل والمدنيين قد أنزلوا الى البر • ودخلت الناقلات وبعض الفرقاطات وصغار السفن الميناء القديم • ودهش الجنود والمدنيون على السواء لمظهر الاسكندرية الذى خيب آمالهم • ذلك أن الفخامة القديمة أصبحت أثرا بعد عين • فالمدينة ـ باستثناء مسلتين وعمود بومبى ، وهو أثر لا يروع الناظر فيه سوى ارتفاعه البالغ خمسة وسبعين قدما ـ كانت خلوا من كل شىء ، حتى الأطلال ، اللهم الا الحديث منها • وقد كشفت الحفائر التى أجريت منذ الحملة الفرنسية عن قليل من الآثار القديمة ، ولكن اسكندرية البطالمة والقياصرة فى أكثرها لم تهو الى الأرض ولم يردمها التراب ، بل تحطمت وهضمت على طول الزمن ودوران الحياة الذى لا ينى • أما أرصفة الميناء فكانت خليطا من الصخور وكتل الجرانيت الأصوانى المصقولة والقطع المتناثرة من الأعمدة الهلنستية • وهذه الصخور والأحجار بما يغشاها أحيانا من رسوم هيروغليفية دقيقة أو نقوش يونانية كانت تخلط كيفما اتفق بالطوب الأخضر وألواح الخشب والطين لصنع البيوت والحصون : وهو مشهد يحزن قلب الأثرى والمعمارى ، ولكنه للمؤرخ درس عملى مؤثر • فأطلال المدن لم يحتفظ بها سليمة الا حيث تغلب الموت ـ كما حدث فى تدمر والبتراء وبومبى •

أما الاسكندرية فلم يغلبها الموت وان مرت بأوقات عصيبة • كانت شوارعها قذرة غير مرصوفة ، مقفرة من الشجر الا النخل القليل ، ولكن فيها مساجد وأسواق وناسا • وكان الطاعون الدملى ، وهو وباء يجتاح البلاد فى ذلك العهد كل عام ، قد ختم غارته لتوه ، والأغنياء لا يزالون مختبئين فى دورهم بدافع الخوف من الفرنسيين أكثر من الطاعون ، ولكن سرعان ما عادت الحياة سيرها المألوف • كتب المواطن جوبير لأخيه يقول : « انك ترى فى الأسواق الخراف والحمام والتبغ ، ثم عددا كبيرا من الحلاقين يضعون رءوس زبائنهم بين ركبهم كأنهم يستعدون لقطعها لا لحلقها ، ولكنهم غاية فى الخفة

والمهارة » (١٩) وكانت النساء قليلات فى الشوارع الا نساء الطبقات الدنيا اللائى أثار مظهرهن تقزز الفرنسيين . وكن يرتدين جلبابا واحدا ، أزرق فى العادة ، قذرا دائما ، ويسرن حافيات الأقدام عاريات السيقان ، ويلطخن حواجبهن بالكحل وأظافرهن بالحنـاء ، ويكشفن فى مـرح عن أى عضو من أعضائهن الا وجوههن . أما الأطفال فعراة .

ولكن مظهـر الذكور وقع من نفوس الفرنسيين موقعا أفضـل . كتب بونابرت الى حكومة الإدارة يقول : « هذه الأمة تختلف كل الاختلاف عن الفكرة التى أخذناها عنها من رحالتنا . انها أمة هادئة ، باسلة ، معتزة بنفسها » (٢٠) وكتب أخوه لوى فى خطاب لجوزف بونابرت يؤمن على هذا الرأى فقال : « ان فى الشعب رباطة جأش مدهشة . فلا شىء يهزهم ، وليس الموت عندهم أكثر من رحلة عبر المحيط عند الرجل الانجليزى ... أما طلعتهم فمهيبة . وسحننا نحن ، حتى أقواها وأبرزها مـلامح ، تبـدو كوجـوه الأطفـال اذا قيست بسحنهم » (٢١) . ونستطيع أيضا أن نسوق الى القارىء رأى الجندى مييه جنبا الى جنب مع رأى الامبراطور وملك هولندة العتيدين . يقول مييه : « قد يبدو زى الأهالى لأول وهلة عديم الشكل . ولكنى بعد أن تأملته جيدا أدركت أنه أكثر مهابة من زينـا . فهم يحلقون رءوسهم ويلبسون طاقية حمراء صغيرة يسمونها بالعربية طربوشا ، ويطوون حولها عمامة خمس طيات أو ستا . ويرتدون عدة قفاطين فضفاضة من الحرير أو القماش بعضها فوق بعض ، وكلها طويل يصل الى الكعب كأثواب الكهان . أما سيقانهم ، وأرجلهم فى الغالب ، فعارية ، وهم يطلقون لحـاهم فتطـول وتضفى أحيـانا على شيوخهم مهـابة وجلالا » (٢٢) .

وكان هؤلاء الرجـال ذوو المظهر المهيب الجليل ينفقون سحابة يومهم جالسين على عتبـات دورهم أو فى المقاهى يدخنـون ، ويحتسـون القهوة ، ويترفعون عن العمل .

ولكن اذا كان مزاج الشعب معتدلا ، فان الجو لم يكن كذلك . فبعد أن قضى لوى بونابرت خمسة أيام فى الاسكندرية كتب الى جوزيف يقول : « ان الجو يهد قواى ، وسيغيرنا جميعا ، فاذا عدنا استطعتم تبين أثره فينا من بعيد » (٢٣) . وكانت ريح الخماسين قد بدأت . يقول تورمان : « ذات صباح لطيف كدر الجو ضباب ضارب الى الحمرة مؤلف من ذرات دقيقة من التراب المتقد ، وكان من العسير علينا أن نتبين قرص الشمس . وجفف هذا الهواء الذى لا يطاق ألسنتنا وألهب جفوننا وسبب لنا ظمأ لا يطفأ . وكفت أجسامنا عن العرق وشعرنا بضيق فى الصدر واعياء وثقل فى الأطراف ، ولم يكد الواحد منا يقوى على الكلام » (٢٤) . على أن هذا كله كان غاية فى اللطف اذا قيس بما كان الجنود الذين بدأوا زحفهم فى الصحراء يقاسونه فى تلك اللحظة .

كان بونابرت مصمما على ألا يضيع من الوقت الا أقله فى الاسكندرية ، لذلك لم يتح لجنوده فرصة لمشاهدة معالم المدينة • وكان الأسبوع الذى أنفقه فيها حافلا بالنشاط المحموم يبذله كل انسان • وفى وسط هذه الفوضى البادية، التى اختلط فيها الجنود والياوران وأعيان المصريين والمندوبون الفرنسيون والضباط البحريون ووفود البدو المتوحشين ، نزل السادة أعضاء اللجنة العلمية الى البر فوجدوا أنفسهم مهملين ، بل ان المهندس جولوا يشكو فى مذكراته من أن أحدا لم يعن بانزال أمتعتهم الخاصة ، وان قبطان سفينته يطارده فى الواقع فوق سطح السفينة • وحرم آخرون من الأعضاء الذين كانوا على سفن أخرى من الطعام ، واضطروا الى النوم على السطح • فلما نزلوا الى البر لم يجدوا فراشا ولا طعاما • ولما علم دولوميو بما هم فيه من حال سيئة شكا الى بونابرت، فتقررت لهم جرايات ومساكن كالجنود • أما حال الفنانين والأدباء فكانت أسوأ حتى من حال المهندسين • كان الجنرال كفاريللى ، المنوط باللجنة كلها ، لا يتحدث الا للمهندسين العسكريين ويبدى احتقاره لمن عداهم • فاذا جاوزت شكواهم الحدود كلفوا بالأعمال الكتابية أو بحمل الرسائل •

واذا كان مفهوما أن يشعر العلماء بالاهانة ونكث العهد ــ وحق لهم هذا لأنهم أغروا بشتى الوعود لينضموا الى الحملة • ولأنهم كانوا ينتظرون أن تستخدم معارفهم وتستغل مواهبهم ــ فانه يصعب على المرء أن يشاركهم سخطهم على التسوية فى المعاملة بينهم وبين عامة الجند • ذلك أنه لم يكن بد من تفضيل الأهم على المهم ، وكان الأهم هو تموين الجيش والخيل ، والاستعدادات للزحف على القاهرة ، وانشاء ادارة مدنية ، والحصول على عملة محلية ، وتسعير السلع والعمل ، وتشييد حصون منيعة جديدة ، وتوزيع القوات البحرية ، وتنظيم المستشفيات ، لأن مائتين من الفرنسيين على الأقل كانوا قد جرحوا فى القتال (*) ، كل هذا وجه اليه بونابرت اهتمامه جهد استطاعته ، ولم يكن هذا الجهد كافيا فى جميع الظروف والحالات ، فلم يتح له وقت يبذله فى سبيل راحة علمائه • وكان ايثارهم على غيرهم خليقا بأن يزيد معنوية الجنود هبوطا على هبوط • ولما رأى الجنود أن جميع المحاربين ــ حتى قوادهم ــ يشاركونهم متاعبهم ، واذ كانوا بطبيعتهم شكائين متذمرين لأنهم فرنسيون ، فقد نفسوا عن غضبهم بصبه على رءوس المدنيين ــ المدنيين فى حكومة باريس ، فبدأوا يتهمونهم بأنهم ما دبروا الحملة على مصر الا تخلصا من بونابرت وجيشه ، والمدنيين من رجال الحملة ، لا سيما مجاللون وغيره من الخبراء فى الشئون المصرية ، فرأوا فى وصفهم البراق لمصر ومواردها دعاية سمجة على حسابهم •

(*) ذكر بونابرت فى تقريره للادارة أن عدد الاصابات بلغ ٣٠ ــ ٨٠ قتيلا و ٨٠ ــ ١٠٠ جريح فرنسى ، وذكر فى « الحملتين المصرية والسورية » أن عددها ٣٠٠ فرنسى و ٧٠٠ ــ ٨٠٠ مصرى بين قتيل وجريح • وكتب الكبتن جيو فى خطاب لأمه يقول ان الفرنسيين فقدوا نحو ٣٠٠ رجل •

فى هذه الظروف كان من الحكمة ألا يميز المدنيون على الجنود • وبمضى الوقت تعلم المدنيون أن يعتبروا أنفسهم جزءا من الجيش وأن يشاركوا فى متاعبه ، فكان لذلك أثره فى تقدير الجنود لخدماتهم •

على أن واحـــدا على الأقل من هـؤلاء المدنيين لم يضـيع وقته هباء فى الاسكندرية ، ولم يشك من المشاق رغم سنيه الاحدى والخمسين • ذلك هو فيفان دينون ، الذى ما فتئت عيناه وحواسه مرهفة ، وقلمه متحفزا • وأدهشه من الاسكندرية للوهلة الأولى ما خيم عليها من سكون وحزن : يقول « لم يذكرنى بضجيج البلاد الأوربية ونشاطها غير ضجيج العصافير ونشاطها » (٢٥) • واضطر كما اضطر أكثر رفاقه الى ترك أمتعته على السفينة ، وكانت نتيجة المحاولة الفاشلة التى بذلها لجلب قمصانه الاحتياطية من السفينة جونون أنه ألفى نفسه عند الغروب فى بقعة مهجورة من الميناء • وقضى الفنان ليلة ليلاء وهو يحاول العودة متأبطا كراسته تتعقبه قطعان الكلاب الضارية المكشرة عن أنيابها « سادس الضربات التى ابتليت بها مصر وأفظعها » (٢٦) فاضطر فى النهاية لخوض المياه وتسلق الأسوار والجسور • وكان الليل قد انتصف حين انتهى به المطاف الى نقطة حراسة فرنسية•وفى الغد أخذ يجوب المدينة دون أن تفت فى عضده أهوال البارحة ، وبدأ جولته من عمود بومبى • وعاد ليشهد فى اللحظة المناسبة السيد محمد كريم يقدم خضوعه لبونابرت • يقول عنه : « تبينت فى التعبير الذى ارتسم على وجه ذلك الرجل خداعا ونفاقا هزته ثقة القائد الأعلى وسماحته ولكنها لم تقهره • ولم يكن قد عرف بعد مدى مواردنا ، ولا تأكد من أن ما وقع لم يكن نتيجـة تهويش فقط ، ولكنـه حين رأى أن ٣٠٠٠ جندى ومدفعيتهم قد أنزلوا الى البر لم يأل جهدا فى الالتصاق ببونابرت ولم يبرح مقر القيادة • وكان بونابرت قد ذهب الى فراشه ومحمد كريم لا يزال فى الحجرة المجاورة » (٢٧) • ولكن الذى تبين فيما بعد أنه كان مخادعا حتى فى ولائه هذا •

وبعد أن درس دينون سحنة محمد كريم ، ورسم الأجزاء المتنافرة التى تؤلف عمود بومبى ، عبر « مدينة العرب » وكانت وقتها أرضا فضاء تنتشر فيها القمامة ويتخللها بعض الحدائق ، وأعجب بصهريج المياه ، وجال بين خرائب كنيسة القديسة كاترين العالمة ـ « التى تزوجت الطفل يسـوع بعد ٤٠٠ سنة من موته » (٢٨) ـ ومسلة كليوبطرة ، ومر بالحمامات العامة ، وكان دخولها ممنوعا على الجمهور حتى يغسل فيها الجنود الفرنسيون ثيابهم ، وأحزنه تهدم الجامع الرئيسى ، ورسم كل شىء رآه ، ثم انتهى به المطاف الى الحى المجاور لباب رشيد • وهناك رأى شابة فرنسية ، شقراء الشعر وردية البشرة ، جالسة على حجر ما زالت تلصق به الدماء المتخلفة من قتال البارحة ، وحيدة بين جثث لم تدفن بعد • وسألها دينون هل ضلت طريقها ، فقالت لا ، انما هى

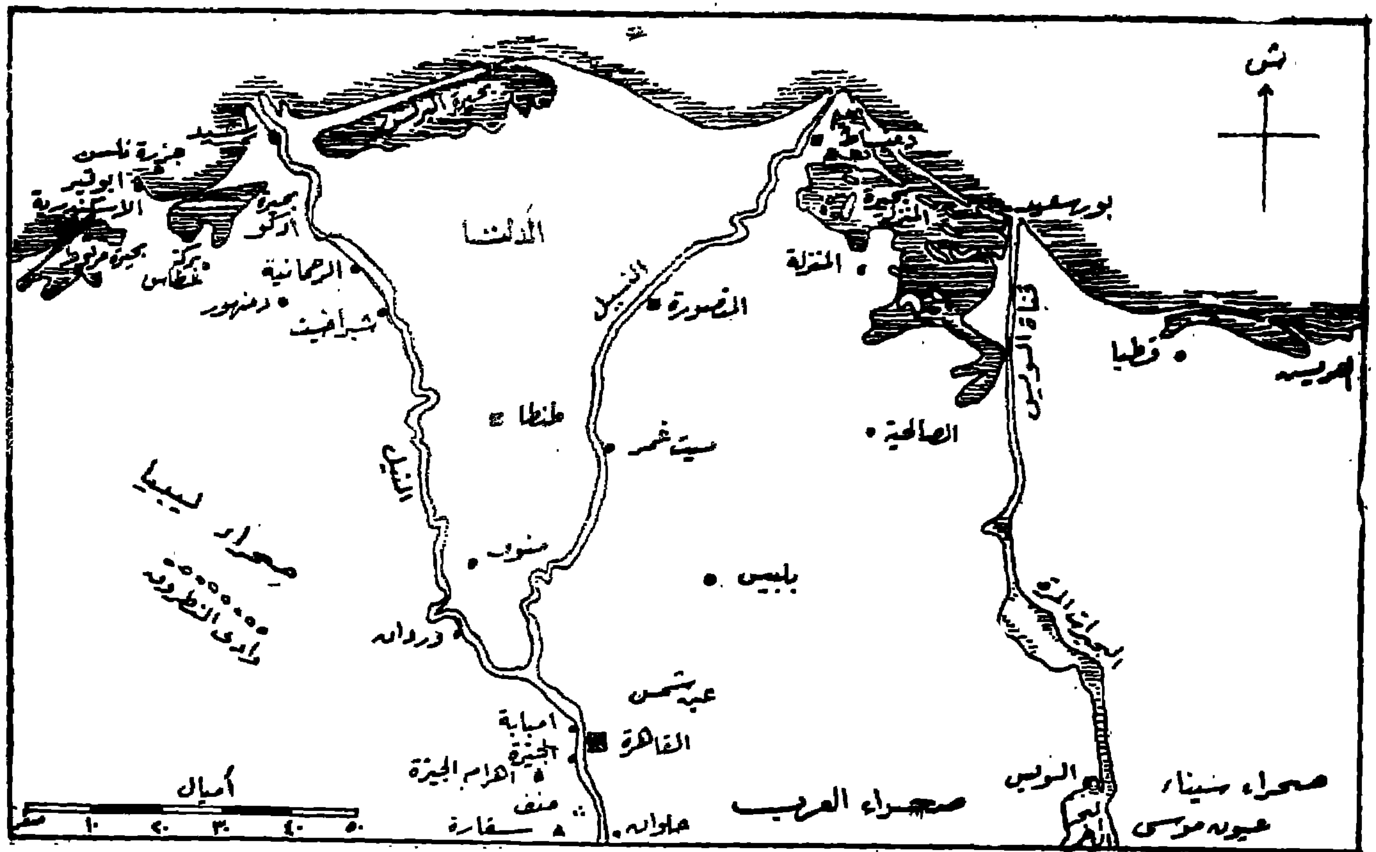
فى انتظار زوجها الذى عليه أن يبرح الاسكندرية ذلك المساء مع فرقة ديزيه الزاحفة الى القاهرة • وأضافت ــ دون اكتراث ــ أنها هى وزوجها سيبيتان فى الصحراء تلك الليلة •

٣

قال بونابرت مرة ان كلمة « مستحيل » لا وجود لها فى قاموسه • وهو بالطبع لم يقصد بهذا أنه يستطيع أن يفعل ما يشاء ، بل انه اذا استقر رأيه على أن شيئا من الأشياء ضرورى ، فان فى استطاعة الآخرين تنفيذه أيضا • كان الجنود لايزالون ينزلون الى البر حين أصدر الجنرال بونابرت فى يوليو أمره الى فرقة الجنرال ديزيه ببدء الزحف على دمنهور • وبدأ رجال ديزيه زحفهم عند هبوط الظلام ، وكانوا معسكرين فى الخلاء خارج الاسكندرية ، ثم تبعتهم فرقة رينييه فى ٥ يوليو • وتقرر أن تتلو الفرقتين الفرق الثلاث الباقية فى اليومين التاليين ــ اثنتان بطريق دمنهور ، والثالثة بطريق رشيد ، وأن يلتقى الجيش كله فى الرحمانية على الفرع الأيسر لدلتا النيل • والمسافات بين هذه البلاد لا تبدو ذات بال على الخريطة ، فهى خمسة وأربعون ميلا من الاسكندرية الى دمنهور ، وخمسة عشر من دمنهور الى الرحمانية ، وجملة الرحلة ثلاثة أيام • ولكن الظروف المحيطة بالزحف يصفها أكثر الناس بأنها مستحيلة •

كان بونابرت مصمما على الوفاء بوعده يوم زعم أن الفرنسيين لم يأتوا الا أصدقاء ومحررين ، وكان هذا ضرورة حربية وسياسية لا مناص منها لحملة صغيرة العدد فى خضم من شعب معاد ، متعصب ، عديم الثقة ، سهل الانفعال • ونوى أن يدفع نقدا ثمن جميع المؤن المشتراة والأشغال التى تؤدى للحملة ، ولما كان رصيده من النقود ضعيفا ، ولم يكن بالاسكندرية دار لسك النقود ، لم يكن بد من القروض ، ومن مبادلة بعض السبائك الذهبية والفضية التى استولت عليها الحملة فى مالطة ــ بأسعار غير مجزية ــ بعملة محلية • ونشأ عن هذا كله بطء شديد فى عملية تموين الجيش •

أما وسائل النقل فلم تكن ميسورة • كان كثير من الخيل فى حالة سيئة ، وكان عددها ــ على أية حال ــ لا يكفى • واضطر معظم الفرسان الى السير على الأقدام وقد أثقلتهم العدة والسيوف التى يحملونها • وكانت عربات التموين والمدفعية التى تجرها الخيل غاية فى الفوضى : فتركت فرقة ديزيه بغير مدفعية • وعلاجا للموقف اعتمد بونابرت ، الى حد ما ، على معاهدة عقدها فى ٥ يوليو مع نفر من شيوخ القبائل العرب • فأغرى ، بمعاونة السيد محمد كريم ، ثلاثة عشر شيخا من كبار شيوخ البدو على التوجه الى مقر قيادته • وهناك أجلسوا فى دائرة توسطها بونابرت ، وبعد تبادل التحيات الطويلة كالعادة ، بدأت



الوجه البحري

المساومة ، وكانت أطول حتى من التحيات • وتم الاتفاق أخيرا على أن يمد البدو الفرنسيين بثلاثمائة جواد وخمسمائة جمل يدفع ثمنها نقدا ، وأن يؤجروا لهم ١٠٠٠ جمل وجمال ، ويردوا الأسرى الذين أسروهم أثناء زحف الفرنسيين على الاسكندرية • ولسوء الحظ لم يتم تنفيذ شيء من هذا كله الا رد الأسرى •

فقبل أن تسلم الخيل والجمال وصلت رسالة الى البدو من علماء القاهرة ومشايخها تدعوهم الى الجهاد ضد الغزاة • وهكذا لم يبطل الاتفاق التجارى فحسب ، بل ان البدو بدأوا من فورهم يلاحقون الجنود الفرنسيين بهجماتهم أثناء زحفهم • وقد روى الأسرى الذين أطلق سراحهم التفاصيل الرهيبة للمعاملة التى لقوها من آسريهم ، وكانت فى ذلك الوقت لا تزال تثير دهشتهم • (ولكنهم بعد قليل تقبلوا اللواط بالاكراه على أنه من الأخطار التى يتعرض لها المحاربون فى بلاد الشرق) • وقد آثر أحد رماة القنابل أن يتركهم يقتلونه على الرضوخ لهذه المعاملة • ولم يوافق بونابرت على هذا الاسراف فى الفضيلة وسأل أحد الأسرى العائدين ، وكيف عاملوك أنت ؟ وانخرط الرجل فى البكاء بدلا من أن يجيب • فقال بونابرت : « علام تبكى ؟ أهذا كل ما تثير حوله هذه الضجة أيها الغبى ؟ لقد دفعت ثمن اهمالك • وكان يجب أن تلزم وحدتك • والآن كف عن البكاء وأجب عن أسئلتى » (٢٩) ولكن الرجل لم يستطع أن يزيد ، لأنه كان لا يزال يعانى من الصدمة •

***

ليس هناك اجماع على أن الفرنسيين كانوا على حق فى وصف سهول البحيرة بأنها صحراء • فهى بلا ريب ليست جزءا من الصحراء الليبية ، وهى ـ فى وقتنا الحاضر على الأقل ـ منطقة مزروعة وان لم يكن زرعها غضا وفيرا • على أنها لابد كانت فى عام ١٧٩٨ شبيهة بالأرض التى يراها القادم من القاهرة بالطريق الصحراوى وهو يدنو من الاسكندرية • فكل ما يراه المسافر نهارا بعض الابل وصغارها ترعى أوراقا قليلة من الحشائش الجافة الصلبة ، وفى الليل تنبعث مئات الأضواء من حيث لا تدرى ـ وهى نيران موقدة فى خيام البدو • كذلك كان شأن الاقليم الذى اضطر الجيش الفرنسى الى عبوره ليصل الى دمنهور • وكان طريقهم يتبع المجرى الجاف للقناة الممتدة من الاسكندرية الى النيل •

وقبل أن يبرح رجال الجنرال ديزيه أرباض الاسكندرية فى عشية ٣ يوليو قيل لهم انهم سيبيتون ليلتهم فى البيضة • وتبين أن هذه المدينة عبارة عن مبان مهجورة قليلة ، وبئرين خرص البدو على ردمهما بالصخور والتراب • وكتب ديزيه الى بونابرت قبل أن يبدأ الزحف يقول : « سأفعل ما فى وسعى

لأصل الى البيضة فى نظام ، ولكن لابد أن أذكر لك أننى لن أجد فيها من الماء الا أقل القليل ، وذلك بناء على ما وصلنى من أنباء · وأرجوك ألا تبطىء كثيرا فى الحصول على الأشياء التى تحتاج اليها فرقتى ·· وأنا أنتظر منذ الصباح وصول مدفعيتى عبثا ، مع أننى تلقيت وعدا أكيدا بأنها قادمة . ولما كنت لا أستطيع الانتظار أطول من هذا ، فاننى راحل بدونها ·· وليس عندنا أعلاف كافية للخيل ، والقرطم الذى عندنا لا يكفى غير يومين ، وليس من عليق غيره لأننا لم نستطع الحصول على شىء منه » (٣٠) · لا مناص من القول اذن بأن بونابرت أرسل قواته يعبرون الصحراء غير مترفق ، شأنه فى ذلك شأن ابراهيم مع هاجر وبنيها · فقد أغفل كل مطالب ديزيه ، باستثناء وعده بأن يرسل له المدفعية ·

كان البسكويت الجاف هو الجراية الوحيدة التى وزعت على الجنود · وحصل بعضهم على الزمزميات أو الأباريق ليحملوا فيها الماء ، فى حين لم يتسع وقت معظمهم لهذا · ووصلت فرقة ديزيه الى البيضة عند الفجر بعد مسيرة ليلة كاملة · ولم يكن مظهـر المكان الذى سيستريح فيه الجنود مما يرفع معنوياتهم · وعلم ديزيه أن هناك قرية تقع على خمسة أميال فيها قدر من الماء أكثر قليلا · فأرسل اليها الخيل لأن الجنود كان قد بلغ منهم الاعياء مبلغا لا يسمح لهم بالسير خطوة أخرى · وأخيرا ظهرت الآبار من الردم · فظهر قليل من الماء الذى تعاف النفس لونه · وماء بئرين لا يصل الا الى نصفهما ، لا يكفى ٤٦٠٠ رجل · وسرعان ما نضبت البئران قبل أن يأخذ الكل نصيبهم من الماء · وكتب ديزيه الى بونابرت فى عبارة مخففة مأثورة عنه يقول : « اننا فى حال سيئة جدا » وأضاف انه ما زال ينتظر مدفعيته ، وأن علائق الخيل نضبت « ونحن نحاول أن ندبر أمورنا قدر الاستطاعة » (٣١) · وكل ما أرسله اليه بونابرت ردا على هذا بضع نسخ من منشوره · وأصدر ديزيه الأمر الى جنوده بمواصلة الزحف فى المساء ، وغدت رسائله لبونابرت أكثر الحاحا وأشد يأسا · فكتب فى عشية ٤ يوليو أنه لم يبق لجنوده سوى جراية يوم واحد « يقتضى الحال أن ترسل لى على وجه السرعة جراية أربعة أيام أو على الأقل يومين من البسكويت واللحم المجفف والخمور المقطرة ان أمكن · فالقرى هنا هى الفقر المجسم ، ومع ذلك أستطيع أن أستخلص منهـا بعض العلف الردىء لجيادنا البائسة » (٣٢) · ولكن لا جواب ولا جرايات ولا مدفعية وصلت · فكتب ديزيه فى ٥ يوليو يستغيث « اننى فى أشد الحاجة للمؤن · ويحزننى أن أضطر الى الكتابة اليك بهذه النغمة المفعمة بالقلق ، وأرجو اذا خرجنا من هذا الموقف الشنيع أن أستطيع الحصول على حاجاتى بنفسى دون أن أزعجك مرة أخرى · ولكن ما لم يعبر الجيش كله الصحراء بسرعة البرق فانه هالك · وليس لدينا من الماء ما يكفى لاطفاء ظمأ ألف رجل · وأكثره فى آبار اذا نزحت لم تمتلىء

ثانيــة • أما القرى فأكواخ من الطين أقفرت من كل شيء • فأتوسـل اليك يا ســيدى الجنرال ألا تتركنا فى هــذا الموقف ، لأن الجنود بدأوا يفقدون شجاعتهم ويتذمرون • فاجعلنا نتقدم أو نتقهقر بأسرع ما نستطيع » (٣٣) •

وفى هذه الأثناء كانت فرقة الجنرال رينييه تسير فى نفس الطريق ، ولم يكن حظها من المؤن خيرا من حظ فرقة ديزيه • **يقول فرترى :** « كانت تنقصنا الأشياء الضرورية جدا • مثال ذلك أنه لم يصرف لنا حتى العلب » وكان اكثر سيرهم نهارا • وما مضت ساعات حتى بدأ الكثير من الجنود الذين كانوا بالجهد يقوون على حمل أنفسهم يرمون ستراتهم وقمصانهم ، بل وجراياتهم العديمة النفع (فمن ذا الذى يستطيع أن يأكل البسكويت الجاف وهو يموت عطشا ؟) على أمل تعويض هذه الأشــياء في المدينة التالية • وشــوى تراب الخماسين الملتهب حلوقهم ، وكوت الرمال المتقدة أقدامهم • ثم بدأت ظاهرة لا عهد لهم بها من قبل ، فقد لاحت عن بعد فى الضباب مساحات زرقاء واسعة من الماء • ومع أنهم تبينوا أنها لم تكن الا سرابا خداعا ، فقد حملهم جنون الألم على أن يتركوا أنفسهم تخدع به المرة بعد المرة • وقد كتب جسبار مونج بعد ذلك بحثا علميا بالقاهرة يشرح فيه هذه الظاهرة • ولم يكن فى هذا عزاء لأولئك الذين جن جنونهم فقتلوا أنفسهم رميا بالرصاص.(وقد أجمعت الروايات على أن عددهم بلغ المئات) •

وبدأ البدو يلاحقون الجنود بهجماتهم بمجرد أن غادروا الاسكندرية ، وظلوا يفعلون هذا طوال الطريق الى القاهرة ، ومنعا لتخلف المتخلفين صــدرت الأوامر للوحدات بأن تسير فى مربعات بدلا من الطوابير ، وهو اجراء قلل من سرعة الزحف • ومع ذلك تخلف كثيرون لأنهم ماتوا من ضربة الشمس أو أرادوا الموت • أما الذين ظلوا على قيد الحياة من المتخلفين فقد قتلهم البدو أو أسروهم• ترى ما الذى حدث لزوجة الجنــدى الشقراء الوردية اللون ؟ علم هــذا عند الله وحــده •

ولما وصلت فرقة رينييه الى آبار البيضة التى كان الجنود يتحرقون لبلوغها وجدوها جافة تقريبا : ذلك أن رجال ديزيه أتوا على مائها كله • كتب الملازم فرترى يقول : « كان من المناظر المؤسفة أن يرى المرء رجالا مستلقين على بطونهم حول تلك الحفرة الكريهة الرائحة ، وهم يموتون ظمأ ، يلهثون ولا يستطيعون اطفــاء ظمئهم • وقد رأيت بعينى رجــالا محتضرين يتوســلون الى رفاقهم أن يرحموهم ، بينما يقتتل هؤلاء الرفاق على شربة ماء قذر • وقد رأيت بعضهم يموتون فى عذابهم » (٣٥) ويقول الجاويش فرانســوا ان الآبار نضبت فى خمس دقائق • واختنق بعض الجنود أو ماتوا تحت الأقدام • » وقد مات عند هذه الآبار أكثر من ثلاثين جنــديا ، وانتحر عدة رجال بعــد أن عجزوا عن الحصول على الماء » (٣٦) •

ولما استأنفت فرقة الملازم فرترى الزحف ليلا اهتدى الى حيلة هى مضغ رصاصة يثير بها لعابه • يقول الملازم ديفرنوا : « خلفنا وراءنا شريطا من الجثث » (٣٧) • وقد أجمل نابليون بعد عشرين عاما فى « الحملتين المصرية والسورية » موقف جنوده في هذه العبارة « ان المسافة من الاسكندرية الى دمنهور خمسة وأربعون ميلا ، وهذا السهل يرويه عادة فيضان النيل ، ولكن حدث أنه لم يرو فى سنة ١٧٩٧ • وكنا فى الفصل الذى ينخفض فيه مستوى الماء فى النيل الى أدناه • وجفت الآبار . ولم يمكن العثور على الماء على طول الطريق من الاسكندرية الى البيضة • ولم يكن الجيش معدا للزحف فى منطقة كهذه • وقد عانى الأمرين من حرارة الشمس وقلة الظل والماء ، فكره هذه السهول المهجورة المترامية ، وكره البدو على الأخص » (٣٨) •

والتاريخ اذا كتب بقلم نابليون ـ شأنه شأن كثيرين جدا من المؤرخين ـ أصبح فن تقرير الوقائع تقريرا صحيحا ، مع اخفاء الحقيقة وراءها •

أما الحقيقة فتنطوى عليها مذكرات ديفرانوا ، يقول : « يتهم الجنود القواد بأنهم السبب فى الأهوال التى قاسوها منذ نزلوا من مراكبهم • انهم يصرخون ، ويتساءلون أى ذنب جنوا حتى يساقوا على هذا النحو ليلقوا حتفهم فى الصحراء » (٣٩) • ومع ذلك فهذا أيضا ليس الحقيقة كلها ، لأن القواد لم يكونوا أقل يأسا من الجنود • فان رينييه مثلا ناشد بونابرت كما ناشده ديزيه أن يسعفه ، « ليس عندنا نقالات ولا أدوية • وقد تلقى الجنرال ديزيه أنباء تفيد أن مراد بك يزحف علينا ، ولعله فى هذه اللحظة على مسيرة يومين فقط • وقد طلب الى أن أبلغكم هذا ، وهو يرجو أن تصدروا الأمر للفرق التى ستعززه بأن تبدأ سيرها دون ابطاء • ونحن فى حاجة ماسة الى أن ترسلوا لنا الأطباء ومعهم الأدوية والجمال ، وكذا النبيذ والمشروبات والخل » (٤٠) • ولم يظفر هذا الخطاب أيضا برد •

ولم يصادف رجال رينييه بئرا لم ينزحها جنود ديزيه قبلهم الا فى الساعة الثامنة من صباح ٦ يوليو • يقول فرترى فى نوبة من الابتهاج : « كانت البئر مملوءة بماء عذب سلسبيل يكفى جيشا من ٤٠٫٠٠٠ رجل • فيا لها من مفاجأة لذيذة ! ويا لها من فرحة غامرة ! » وعينت فرقة من رماة القنابل لتقف حول بئر الكريون منعا لتكرار ما حدث من عراك حول آبار البيضة • ويضيف فرترى « فى أقل من نصف ساعة كانت الفرقة كلها قد روت ظمأها » • وثمل الجنود بالماء ، فرقصوا وغنوا وضحكوا فى نوبة هستيرية مفاجئة • وشرب فرترى عشرين كوبا دون توقف ، والتهم الجنود جراياتهم من البسكويت بعد أن تيسر لهم اذابتها فى الماء • « لقد التهمنا طعامنا بشهية ضارية • ولم أستمتع فى حياتى بطعام أشهى من هذا ••• ان وقفتنا بهذه البئر منقوشة على ذاكرة كل جندى فى فرقتى كأسعد لحظات حياته » (٤١) •

اذا كان بونابرت قد بدا في الأيام الخمسة التي مكثها بالاسكندرية غير مهتم بتوسلات ديزيه ورينييه فليس ذلك تجاهلا منه أو تباطؤا ، انما لاعتقاده أن اعتبارا واحدا يجب أن يقدم على جميع الاعتبارات ـ وذلك هو السرعة • فالتقاء جيشه بجيش المماليك وقهره ودخوله القاهرة في ظرف ثلاثة أسابيع أو أربعة من وصوله بر مصر ـ هذا في رأيه ضرورة لا مندوحة عنها • وقد كتب نابليون في سانت هيلانه يوازن بين تصرفه في سنة ١٧٩٨ وتصرف لويس التاسع ملك فرنسا يوم نزل الملك التقي بأرض مصر يقود جيش الحملة الصليبية التاسعة ، قال : « لقد أنفق [لويس التاسع] ثمانية أشهر في الصلاة ، وكان أجدى أن ينفقها في الزحف والقتال واحتلال البلاد » (٤٢) • ولا ريب في أن نابليون أصاب في قوله هذا ، فهو لم يضع وقتا في الصلاة • ذلك أن فيضان النيل كان سيجعل المنطقة مستحيلة العبور اذا انتصف أغسطس • ومن البديهيات أن الزمن يعمل دائما ضد أي حملة مغيرة لصالح المدافعين • فاذا لم يسحق المماليك من البداية استطاعوا أن يبروا قوة الفرنسيين شيئا فشيئا ، ثم يتم المهمة هبوط معنوية الجيش وتفشي المرض فيه •

على أن هذه الحجج وان كانت قوية لا مغمز فيها الا أنها لا تبرر عدم منح بونابرت جنوده راحة أسبوع بالاسكندرية ، فيكسب بذلك وقتا ينظم فيه مؤنهم ووسائل نقلهم ومدفعيتهم • وبما أن حملته على الشام وهجومه على عكا في الربيع التالي كانا بالمثل يشوبهما سوء الاستعداد والتعجل ، فقد يكون جواب السؤال هو قلة صبر بونابرت • على أنه كان في هذه الصفة يختلف عن نلسن ، فقلة صبر بونابرت أشبه بمهماز عات يحث رجلا افترض التضحيات كأنها أمر مفروغ منه وتوقع من رجاله فعل المستحيل • وقد كلل اصراره هذا على السرعة بالنجاح ، الا في حالتين مشهورتين ـ الأولى اخفاقه في الاستيلاء على عكا ، وقد كلفه سمعة القائد الذي لا يقهر ، والثانية قراره في عام ١٨١٢ بأن يزحف على موسكو بدلا من أن يقضي الشتاء في سمولنسك ، وقد كلفه كل شيء •

كان ارسال أربع فرق ـ أي نحو ١٨٫٠٠٠ رجل ـ بغير مؤن كافية عبر الصحراء مخاطرة متعمدة وان كانت صغيرة نسبيا • لقد وصلت الفرق الأربعة كلها بين ٦ و ٩ يوليو • وبدت خسائرها على الورق ضئيلة : بضع مئات ماتوا أو انتحروا أو قتلهم البدو ، أما الباقون فقد « زحزحوا حدود الطاقة البشرية » ـ وهي عبارة كان يطيب لبونابرت ترديدها • لقد كان اليأس والعذاب ثمنا تافها لقاء أسبوع يكسب •

كان بونابرت قد اهتم في الاسكندرية ببعض الأمور بما عهد فيه من نشاط • وكان همه الأول أن يرقي أولئك الذين أبلوا بلاء حسنا في الاستيلاء

على المدينة ـ سواء ياوره سولكوفسكى الذى قذف به مرتين من فوق السور قبل أن يرتقيه فى المرة الثالثة أو « ذلك الجاويش الذى كنت أرقبه ، والذى جرح • وانى ألفت نظرك [أى نظر الجنرال مينو] اليه لأنك ••• ربما لم تلحظه » (٤٣) • واذ كان دائم التنبه لما للسماحة والكرم من قيمة سيكولوجية ، فقد بادر باطلاق سراح ملاحيه الترك ، وهم العبيد السابقون لفرسان مالطة ، وأعطى كلا منهم جواز مرور وحزمة من المنشورات يوزعها فى طريقه الى وطنه • وبهذه الروح السمحة نفسها أمر بونابرت باطلاق سراح نائب القنصل البريطانى، بشرط ألا يتصل بأى من الرعايا البريطانيين •

ونظرا لقلة ما كان يملك من عملة ، فقد فرض قرضا بضمان اضافى من حصيلة الجمارك المنتظر جمعها فى الميناء • ثم حصل على نقود من التجار المحليين نظير سبائك من الذهب والفضة ، على أنه لجأ الى هذا الاجراء مرة ثانية بعد وصوله الى القاهرة ، اذ شحن منها مقادير من الأرز والحبوب الى تجار الاسكندرية طالبا اليهم أن يردوا السبائك ويقبلوا هذه السلع بديلا عنها •

وجرد أهل الاسكندرية من السلاح وصدرت الأوامر بأن يضعوا الشارة المثلثة الألوان دليلا على ولائهم للجمهورية • ولابد أن منظرها بدا غريبا فوق عماماتهم • واختص كبار المشايخ وبضعة من صفوة الأعيان بلبس الوشاح الأزرق والأحمر والأبيض ، شأن العمد الفرنسيين ، وبتلقى التحية العسكرية • ولكن هذا التمييز لم يمس قلوبهم مسا عميقا كما ينبغى ، لأن سيكولوجية شيوخ المسلمين تختلف تمام الاختلاف عن سيكولوجية الساسة الفرنسيين •

واقتضى الأمر ترك حامية بالاسكندرية وتحصينها بوسائل دفاع قوية • وأصدر بونابرت سلسلة من الأوامر تحقيقا لهذا الغرض ، وأشرف على تصميم القلاع التى يحصنها المهندسون • وترك خلف الجيش حامية قوامها نحو ٢٠٠٠ رجل يضاف اليها نفر من غير المحاربين ومن ملاحى سفن الأسطول •

وكان لابد من اجراء عدة تغييرات فى القيادة العليا بسبب جرح القائدين كليبر ومينو • فوضعت فرقة مينو تحت قيادة الجنرال فيال ، وبدأت السير الى دمنهور فى ٦ يوليو (تتبعها فرقة الجنرال بون فى ٧ يوليو) • أما مينو نفسه فقد تقرر أن يتقلد وظيفة الحاكم العسكرى لرشيد بمجرد الاستيلاء عليها • أما كليبر ـ وجرحه أخطر ـ فقد عين حاكما عسكريا لمنطقة الاسكندرية ، وهو تعيين ما لبث أن اعتبره ـ بحق ـ ضربا من النفى • ووضعت فرقته تحت قيادة الجنرال ديجا وأمرت بالزحف على رشيد محاذية الساحل بطريق أبى قير ، وبالسير من رشيد على الضفة اليسرى لفرع رشيد للانضمام الى الفرق الأربعة الأخرى فى الرحمانية ، وتقرر أن يسير طابور احتياطى من لواء الفرسان ، والمدفعية وعربات الكبارى ، وغيرها من العتاد ، تحت قيادة الجنرال أندريوسى،

في نفس الطريق الذى سارت فيه فرقة ديجا • يضاف الى هذا أن أسطولا صغيرا من السفن الخفيفة يقوده الكابتن بيريه (وقد رقى الى مساعد أميرال فيما بعد) أرسل الى رشيد حيث كان عليه أن يضع نفسه تحت تصرف ديجا وأن يحرسه فى رحلته صوب الجنوب •

وبينما كان بونابرت يشغل نفسه بهذه التدابير وبتنظيم خدمات التموين والنقل ، وقعت معظم التفاصيل على عاتق برتييه رئيس أركان حربه • وكان التصرف في الأسطول أهم المشكلات تطلبا للفصل من بونابرت • وقد أثارت الرسائل المتبادلة فى هذا الموضوع بين القائد الأعلى والأميرال بروى ، سواء أثنـــاء اقامة بونابرت بالاسكندرية أو بعد مغادرته اياها ، جدلا ضخما بين الكتاب ، وسننظر فيه في مكان آخر من هذا الكتاب حين نعرض للكارثة التى حاقت بالأسطول الفرنسى في أول أغسطس • أما الآن فحسبنا أن نذكر أن الأسطول كله ألقى مراسيه فى خليج أبى قير (*) فى مساء ٧ يوليو •

وبدأت فرقة ديجا زحفها شرقا فى ٦ يوليو واستولت على حصن أبو قير دون مقاومة فى صباح الغد • وكانت طبوغرافية الطريق الممتد من أبو قير الى رشيد تختلف فى عام ١٧٩٨ اختلافا طفيفا عنها اليوم ، وان ظل المظهر العام للمنطقة دون تغيير ــ فهى عبارة عن شاطىء هلالى بديع يحف شريطا من الأرض الجرداء يفصل البحر عن بحيرة ادكو ، وهى مساحة من الماء الكدر • وكانت تقطع الطريق فى أيام بونابرت قناة ضيقة تصل البحر بالبحيرة • وكان يمكن أن تستغرق فرقة ديجا وقتا طويلا فى عبور هذه القناة بالقوارب الأربعة أو الخمسة الصغيرة التى لا يتسع الواحد منها الا لنحو خمسة عشر رجلا ، لولا أن الأسطول ظهر فى الوقت المناسب فأفرد عدة سفن خفيفة لمساعدته • ولكن العملية ، حتى مع هذه المساعدة ، استغرقت طوال اليوم من الفجر الى منتصف الليل ، وأعينت الخيل والجمال بما حملت على السباحة عبر القناة دون أن يصيب أحدها أذى •

وسارت الأمور مع جنود ديجا ، على الجملة ، خيرا مما سارت مع الفرق الأربعة الأخرى • وقد أدهشهم فى أبو قير أن يخرج لهم ماء شرب صاف وهم يحفرون على ياردات من ساحل البحر • وكانت الأميال القليلة الأخيرة الباقية على رشيد أرضا خشنة لم يكن بد من أن ينتشر فوقها مزيد من جثث الجنود الذين ماتوا عطشا أو رموا أنفسهم بالرصاص • ولكن منظر رشيد كان مفاجأة

(*) « أبو قير » تحريف لكلمتى « أبا كير » اى الأب كير ، وهو قديس مسيحى ولد بالاسكندرية فى النصف الأخير من القرن الثالث الميلادى ، وكان له رفيق فى الجهاد يدعى يوحنا ، واستشهد كلاهما فى عصر دقلديانوس (عصر الشهداء) ، ونقلت جثتاهما الى أبى قير (قرب كانوب) بعد دفنهما تحت كنيسة القديس مرقس بالاسكندرية • (المترجم) •

سارة حين بلغها أول المشاة حوالى ظهر ٨ يوليو • وكان الخيالة قد دخلوها فى الصباح دون أن يلقوا مقاومة • وقد كتب الكولونيل لوجييه ، وهو من ضباط أركان حرب ديجا فى يوميته يقول : « كان جميع السكان على عتبات بيوتهم وجميع الحوانيت مفتوحة • وكان هذا أول منظر سار رأيناه منذ نزلنا أرض مصر » (٤٤) • ويذكر الجندى مييه الذى لم يقل سرورا عن الكولونيل فى مذكراته أن السكان رحبوا بالفرنسيين وقدموا لهم الخبز والماء والفاكهة ـ بالثمن بالطبع ـ ولكن الأسعار كانت معقولة والطعام موفورا • أما المدينة نفسها فقد بدت أوربية فى الواقع بالقياس الى الاسكندرية • فالبيوت الواسعة الحسنة البناء (التى يسكنها التجار الأوربيون) تمتد على رأس الساحل ، وأرباض المدينة تؤلف نطاقا من الحدائق والبساتين والحقول الخصبة • وبدت رشيد للجنود غاية ما يشتهون مكانا للاستراحة وقتا ما ، ولكنهم ما ان ذاقوا مباهجها أربعا وعشرين ساعة حتى تسلم ديجا رسالة من بونابرت الذى حسب أن الفرقة وصلت فعلا الى الرحمانية ـ الواقعة على خمسة وعشرين ميلا الى الجنوب فى خط مستقيم ـ وهكذا استأنفت الفرقة زحفها فى الساعة الثانية من صباح ١٠ يوليو تاركة وراءها حامية فقط •

ولو أن رجال الفرق الأربعة الأخرى شهدوا زحف جنود ديجا لبدا لهم ضربا من النزهة • كتب الكولونيل لوجييه فى يوميته يقول : « اننا نسير بحذاء النيل مخترقين منطقة طيبة الزرع تقطعها الأنهار [وهو يعنى القنوات طبعا] والسكان يصطفون على جانبى الطريق ليرونا فى سيرنا ويحيونا • ومظاهر الرخاء تبدو على كل شىء • فالفلاحون يرتدون ثيابا حسنة ، وعليهم سيماء الرزانة والمهابة ••• أما النساء فيطلقن زغاريد كهديل الحمائم تماما ليعبرن عن سرورهن » (٤٥) • على أن فى الناس من يشكو ويتبرم ولو فى جنة حافلة بالنساء المزغردات • وكان الجندى مييه واحدا من هؤلاء • فهو يقول ان الجنود أعطوا قبل رحيلهم عن رشيد جراية ستة أيام قوامها نحو رطل من البسكويت للرجل منهم • « واذا استثنيت مياه النيل ، والشمام ، وبعض البسكويت المالح الحافل بالديدان ، الذى وزع بعد ذلك ، « كان هـذا كل ما تسلمناه فى الأسبوعين اللذين قضيناهما فى الطريق الى القاهرة » (٤٦) • وبالطبع كان يضاف الى هذا الكثير مما اشتروه أو استولوا عليه بالقوة •

ووصلت طلائع فرقة ديجا الى الرحمانية فى ١١ يوليو فى نحو الوقت الذى وصل فيه آخر رجال الفرق الأربعة الأخرى ، الذين لم يتبطروا مثلهم حين طالعهم منظر النيل وحقول الشمام •

***

وغادر الجنرال بونابرت الاسكندرية مع أركان حربه ورجال القيادة ،

وفيهم مونج وبرتولليه ، آخر الكل في الساعة الخامسة من مساء ٧ يوليو • وبعد أن ركب طوال الليل لحق بفرقتي بون وفيال ، ودخل دمنهور في الساعة الثامنة من صباح الغد ، وهناك وجد فرقتي ديزيه ورينييه اللتين عانتا الأمرين أربعة أيام لتقطعا نفس المسافة • ووصلت فرقتا فيال وبون خلال يومي ٨ و ٩ يوليو • ولم يستغرق زحفهما الذي كان أفضل تنظيما أكثر من ست وثلاثين ساعة ، ولكن المشاق التي لقوها لم تكن أقل كثيرا مما لقيته طليعة الجيش •

وبناء على تأكيدات شارل مجاللون وغيره من الخبراء ، أنبئ الجنود أنهم متى وصلوا الى دمنهور انتهت كل آلامهم • لذلك توقعوا أن تكون دمنهور هذه أشبه بميلان أو على الأقل فيرونا • وكانت مدينة متوسطة المساحة ، ومقرا لأحد أمراء المماليك ، ومركزا من مراكز تجارة القطن • ولاحت من بعيد بلدا يبشر بالأمل ، تحيط به الخضرة وتعلو قبابه ومآذنه فوق أشجار النخيل • ولكن الجنود تبينوا بعد أن دققوا النظر أن دمنهور ، باستثناء جوامعها ، لم تكن الا مجموعة من الأكواخ الحقيرة المبنيـة بالطين والتبن ، وهو مظهر لا تزال تحتفظ به كثير من القرى المصرية • ومع ذلك كانت خيرا من الصحراء • يقول فرتري : « ان الأهالي قدموا لنا بدل الخبز فطيرا رقيقا من القمح في حجم قطعة الفرنكات الستة ، مخبوزا على الرماد الساخن • وكان هناك الكثير من اللحم والدجاج والبقول الجافة خصوصا الفـول والعدس •• وازدحمت السـوق بالجنود » (٤٧) • وكان التعامل المالي من نوع عجيب ، لأن التجار كانوا أكثر ثقة بأزرار الملابس العسكرية بوصفها العملة القانونية منهم بالنقود الأوربية • وهذا التفضيل أدهش الفرنسيين بعد ذلك في كثير من المدن المصرية • ففي دمنهور رفض تاجر خيل عرض عليه ضابط فرنسي خمسة وعشرين قرشـا أسبانيا من الذهب ثمنـا لجواد وطلب بدلا من هـذا زرين من أزرار ردائه العسكري • وارتضى الضابط الصفقة • يقول فرتري معلقا في لهجة جادة : « وهكذا كان هناك خادعون ومخدوعون من الجانبين في السوق » (٤٨) • وقد روى معظم المؤرخين هذه الظاهرة ــ الفذة في الأسواق المصرية ــ دون أن يحاولوا تعليلها ، لأن في أغلب المؤرخين سذاجة وبراءة • ولكن التعليل واضح • فما من مصري في قواه العقلية يخلط بين الأزرار النحاسية والعملة الذهبية • ولكن عدة مصادر (منها يومية الكولونيل لوجييه مثلا) تدلنا على أن المصريين كانوا في ذلك الحين ما زالوا يعتمدون على المماليك في تمزيق الفرنسيين • فاذا تم هـذا فان المماليك سيتهمون أي مالك لعملة أجنبيـة بالتعـامل مع الكفار ويصادرونها ــ وهو أيسر ما يناله من عقاب ــ في حين يستطيع مالك الأزرار العسكرية أن يزعم دائما أنه حصل عليها بطريقة شريفة ، هي قتل فرنسي أو سرقته • أما اذا كسب الفرنسيون المعركة فستكون الأزرار في الغالب أكبر

قيمة من السعر الجارى للبضائع المباعة ، ولعل الرجل الذى باع الحصان بزرين قد سرقه • وقد يبدو هذا التعليل بعيدا أو مفتعلا . ولكن للذين لم يعرفوا مصر • وفكرة أخرى أدهش من هذه كثيرا ، وهى أن الفرنسيين ــ فى أغلب الظن ــ كسبوا معركة امبابة وستراتهم تعوزها نصف أزرارها (*) •

ولما وصل بونابرت الى دمنهور لقيه ديزيه فقاده ، كما ذكر هو فى سانت هيلانه ، الى « شونة لا أبواب لها ولا نوافذ » (٤٩) (فكيف دخلها اذن ؟) • وهناك كان العمدة وأئمة الدين وكبار المشايخ وغيرهم من الموظفين ينتظرون القائد الأعلى ، فأكرموا وفادته بوليمة قوامها ابريق من اللبن وكعك القمح • وبادر بونابرت بعد ذلك بارسال عدة وحدات لجلب الطعام من الريف ، فى حين طلب كبير طهاته ترجمانا ليساعده فى التوصية على « شواية من البلدية » (٥٠) •

وقصة اليومين اللذين مكثهما بونابرت فى دمنهور ــ على قصرهما ــ مثار خلاف نشأ عن حادثين لا يمكن فى أغلب الظن التثبت من الحقيقة فى أمرهما • فديفرنوا يروى فى مذكراته نبأ مجلس حربى عقده بونابرت عقب وصوله • ولعل هذا المجلس عقد فعلا ، ولكن لا يعقل أن ديفرنوا حضره ، وهو فضلا عن هذا يعطينا تاريخا واضح الخطأ لانعقاد المجلس (**) • ويقول ديفرنوا ان المجلس ما كاد يبدأ اجتماعه حتى نفس القواد عن مشاعرهم المكظومة وانهالوا باللوم على بونابرت : فالجرايات لم توزع وقت نزول الجنود الى البر (وهذا صحيح) ، وهذا الاهمال نفسه كلف فرقة ديزيه أكثر من ١٥٠٠ من الضحايا (وهى مبالغة كبيرة ، ولكنها صادقة من وجهة النظر الخلقية) • بل ان الجنرال ميرور ، وهو من قواد المدفعية ، بلغ به الأمر (فى رواية ديفرنوا أيضا) أن يحكم على الحملة كلها فى خطبة طويلة بأنها مغامرة يائسة مستهترة • وبعد أن استمع بونابرت فى صمت ، أجل الاجتماع وغادر الجلسة دون أن ينبس بكلمة • ثم يقول ديفرنوا ان ميرور ابتأس لما يعلم من حساسية بونابرت ، « فامتطى جواده فى الغد قبل أن يبزغ الفجر وسار فى الصحراء ثم أطلق الرصاص على رأسه » (٥١) • ولا جدال فى أن ميرور وجد ميتا فى الصحراء ، ولكن الرواية الرسمية تقول ان البدو قتلوه وسرقوه • أما ديفرنوا ــ الذى يزعم أنه عثر على الجثة ــ فينفى هذا ويجزم بأنه وجد القائد وهو لا يزال ممسكا بمسدسه •

(*) سعر الجنرال بونابرت فى نشرته اليومية الصادرة فى ٩ يوليو المأكولات بأثمان تتراوح بين ٣٥ بارة للأوزة وبارة واحدة لرطل العدس • ولكن النسبة بين البارة وسعر الأزرار النحاسية لم تعرف على التحقيق •

(**) يحدد موقع دمنهور على النيل ، وهذا خطأ ، ويحدد التاريخ بيوم ١١ يوليو ، ولم يكن الجيش باقيا فى دمنهور وقتها ••

وفى رواية أخرى ـ تبدو معقولة أكثر من هذه ـ أن ميرور غضب لكرامته لأن قائدا آخر من قواد الفرسان يدعى لكلير رقى فوقه ، فانطلق راكبا الى الصحراء يسعى الى الموت بيد الأعراب ٠

وأيا كانت ظروف موت ميرور ، فان قصة ديفرنوا ، وان قام بعضها على السماع ، تؤكد موقفا يسلم به نابليون نفسه فى مذكراته ٠ يقول نابليون : « ان القواد والضباط جهروا بتذمرهم جهرا أشد حتى من الجنود ٠ وزاد فى مشقة هذا الضرب من الحرب عليهم عظم الفرق بينه وبين أسباب الراحة التى نعموا بها فى القصور والمقاهى الايطالية » (٥٢) وينقل لاس كاز عن حديث مع نابليون سجله فى سانت هيلانه هذه العبارات : « قال الامبراطور انه ليس فى الدنيا جيش أقل استعدادا للقيام بحملة على مصر من الجيش الذى قاده هناك ٠٠ وهو جيش ايطاليا ٠ ومن العسير أن يصف المرء ما كان عليه هذا الجيش من تقزز وسخط واكتئاب وقنوط فى الأسابيع الأولى التى مكثها بمصر ٠ ويذكر الامبراطور أنه شهد فارسين من خيالته يتركان الصفوف ويعدوان بأسرع ما يستطيعان ثم يغرقان نفسيهما فى النيل ٠ وقد رأى برتران [وكان ضابطا فى سلاح المهندسين فى سنة ١٧٩٨ ، وكبير أمناء نابليون فى سانت هيلانه] عدة قواد بارزين ـ ومنهم « لان » و « مورا » ـ يلقون بقبعاتهم على الرمال فى نوبة من الغيظ ويطأونها بأقدامهم أمام أعين جنودهم ٠٠ وذات يوم سار بونابرت ـ وكان هو نفسه غاضبا ضيق الصدر ـ صوب جماعة من القواد ، وخاطب أطولهم قائلا فى نبرات عنيفة : « لقد كنت تحرض غيرك ٠ فحذار ، والا عاملتك بما يفرضه على واجبى ٠ ولن تنقذك قامتك الفارعة من اعدامك رميا بالرصاص بعد ساعتين » (٥٣) ٠ ولعل هذا القائد كان ألكسندر ديما ، وكان من أصرح الناقدين لتصرفات بونابرت ٠ على أنه ليس من الانصاف أن نحكم بأن حرمان القواد من القصور والمقاهى كان الدافع الوحيد لهم على التمرد ٠ فلقد سرى اليهم ما سرى الى جنودهم من حنين الى الوطن ، ويأس ، و « غل » (على حد قول نابليون) ٠ لقد تفشى ضرب من وباء الجنون بين صفوف الجيش الفرنسى فى الأسابيع الثلاثة الأولى من زحفه على القاهرة ، ولم تكن المشاق البدنية سببه الوحيد ، كان احساسا بالانفصال وانعدام السيطرة على النفس ، ونفورا وتقززا من البلاد وأهلها ، وهو الى حد ما ظاهرة عامة فى جيوش المواطنين المرسلة الى بلاد نائية غريبة الثقافة ٠ يضاف الى هذا أن القواد كانوا ألصق بجنودهم مما كان بونابرت ، ولم تكن أعصابهم من الفولاذ كأعصابه ٠ فوقوفهم عاجزين وهم يشهدون رجالهم يفقدون رشدهم من اليأس كان فوق ما يطيقون ٠

وكان سبيل بونابرت الصحيح الى رفع معنوية الجنود هو المعركة الظافرة دون غيرها ٠ وحمل الجنـــود على ما كان يحملهم عليه يقتضى خلقــا غير لين

ولا مترفق . على أنه لو كان أكثر رحمة بهم ـ ولو مثقال ذرة ـ لهلك الجيش . وهذا حق لم ير أشد النقاد من قواده صرامة مناصا من الاعتراف به بعد ذلك .

أما الحادث الثاني الغريب الذى وقع أثناء مكث بونابرت بدمنهور فقد رواه بورين فى مذكراته . وليس لدينا دليل يؤيد صدقه أو يدحضه ، ولكن هذه الذكرى ـ دون كثير من ذكريات سكرتير بونابرت ـ فيها رنين الصدق . يقول :

« أقبلت جماعة صغيرة من الأعراب على ظهور الخيل لاهانة مقر القيادة بتحديهم هذا . وغاظت وقاحتهم بونابرت ، وكان واقفا بالنافذة ... فلما استدار رأى شابا من ياورانه يسمى كروازييه كان يقوم بنوبته فى ذلك اليوم . فقال له : « خذ بعض الحرس يا كروازييه وتخلص من هؤلاء الغوغاء » . وما لبث أن ظهر فى الميدان كروازييه وخمسة عشر رجلا من الحرس [يمتطون جيادهم] . وتلت ذلك مناوشة ، وأخذنا نرقب القتال من النوافذ . وأظهرت الأوامر [التى أصدرها كروازييه] والطريقة التى هجم بها رجالنا ترددا لا يمكن أن يطيقه القائد الأعلى . فصاح بهم من النافذة كأنهم يستطيعون سماعه : « الى الأمام أيها ال .... ! اهجموا ! » وكان فرساننا يتقهقرون فى كل مرة يعاود فيها الأعراب الهجوم . وانسحب الأعراب دون أن يصيبهم أذى ... ودون أن يخسروا رجلا واحدا ... وتسلط على القائد غضب لم يستطع كبحه ، فصبه فى وحشية على رأس كروازييه حين عاد . وكان فى ألفاظه من العنف ما حمل كروازييه على مغادرة الحجرة والدموع فى عينيه . وكلفنى بونابرت أن ألحق به وأهدىء من روعه ولكنى لم أفلح . فقد قال لى : « لن أعيش بعد هذا وسأقتل نفسى فى أول فرصة . اننى لا أستطيع الحياة والعار يجللنى » . وكان بونابرت قد أفلتت منه كلمة « جبان » ، ولكن كروازييه لم يستطع أن يجد الموت الذى سعى اليه الا فى حصار عكا » (٥٤) .

وقد صدق نابليون حين قال بعد ذلك وهو يستعيد ذكرياته ان غضباته لم تكن قط مما لا يستطيع كبحه ، بل كانت دائما مقصودة متعمدة ..ولعل قلقه على كروازييه الباكى كان أصدق من سخطه الذى قصد به التأثير فى الحاضرين . ومن الخير ، تفسيرا لرأى لفولتير ، أن يدفع بين الحين والحين ضابط على الانتحار لبث الشجاعة فى قلوب الآخرين .

***

ما ان وصل الجيش الى دمنهور حتى أصدر بونابرت اليه الأمر فى ٩ يوليو بمواصلة الزحف الى الرحمانية . وتقرر أن تزحف فرقة ديزيه ، التى ما زالت فرقة الطليعة ، أميالا الى الجنوب حتى منية سلامه لتقطع الطريق على مراد بك .

وعند الرحمانية ، تلك البلدة الصغيرة ، شهد الجنود النيل أول مرة (باستثناء فرقة ديجا) • ولم يكن النهر في ذلك الوقت من السنة مما يروع الناظرين ، لأن مستوى الماء فيه بلغ أدناه . ومع ذلك ملأ مشهده الرجال بفرحة لا تقل عن فرحة آلاف اكسينوفون العشرة حين وصلوا الى البحر • **يقول الكولونيل سافارى في يوميته** : « ان الجنود يرمون أنفسهم فى النهر كالحيوانات ليشربوا » (٥٥) ويقول ديفرنوا : « حين رأى الجنود النيل خرجوا من طوابيرهم ليرتموا في مياهه • وكان بعضهم ينزل الماء بثيابه ، بل بسلاحه ، وبعضهم خلعوا ملابسهم وجروا الى الماء وغطسوا فيه ومكثوا عدة ساعات • وقد لقى كثيرون حتفهم لاسرافهم الشديد في شرب الماء » (٥٦) • وكانت هناك حقول واسعة من الشمام (وهو الزرع الوحيد الذى كان ينمو فى ذلك الفصل) فأكل منه الجنود حتى اكتظوا ، وظلوا يأكلون الشمام ، ولا شيء تقريبا غير الشمام ، طوال الطريق الى البقعة التى وقعت فيها معركة امبابة ، وكانت هى أيضا حقل شمام (*) •

فلما أطفأ الجند ظمأهم كان الخبز غاية ما يشتهون ، ولا عجب فهم فرنسيون • (ويؤكد فرترى أنه لم يذق طعم الخبز منذ ١٩ مايو ، يوم غادر طولون ، الى ٢٢ يوليو ، وهو اليوم التالى لمعركة امبابة) • وقاسوا فى هذا ما قاساه تانتالوس (**) من عذاب ، لأنه رغم وفرة القمح فى الاقليم لم يكن هناك طواحين ولا أفران • وحل الملازم ديفرنوا المشكلة بطحنه القمح بالأحجار وخبزه رغيفا رديئا ، على أن رفاقه الضباط سرقوه من تحته وهو نائم مع أنه كان متفحما وأكلوه ، وفى الصباح عابوا عليه رداءته •

يقول فرترى ان الفرق الخمسة كلها اجتمعت عند الرحمانية فى ١١ يوليو • وأعلن أن الجنرال بونابرت سيستعرضها بعد الظهر • « وقضينا الصباح كله فى اصلاح هندامنا وعتادنا • وظل الجنود ينظفون وينفضون ويصقلون حتى الظهر » (٥٧) • وفى الساعة الثالثة أعلن دق الطبول قدوم القائد الأعلى • ووقفت الفرق الخمسة مصطفة فى طوابيرها • وتوقف بونابرت بموكبه أمام كل منها ، ودعا ضباطها اليه ووجه اليهم الخطاب قائلاً ان الجيش قد يلتقى

(*) لم يكن هذا الطعام مما يناسب صحة الجنود • وقد وردت الفقرة التالية فى النشرة اليومية التى أصدرها بونابرت فى ١٢ يوليو « على الضباط القواد أن ينبهوا جنودهم الى الاقلال ما أمكن من أكل الشمام الا اذا كان مطبوخا ، فهو اذا طبخ أصبح مأمون العاقبة مغذيا » • (رسائل نابليون الأول ٤ ــ ٢٣٦) • وقد كتب الكولونيل سافارى من القاهرة بعد قليل يقول : « ان الجيش كله مصاب بالاسهال » •

(**) ابن زيوس ، الذى عوقب لافشائه أسرار الآلهة بالوقوف فى الماء الى ذقنه وهو جائع ظمآن ومن فوقه شجرة محملة بالفاكهة (المترجم) •

بالمماليك غدا وجها لوجه ، وهو لا يخامره شك فى أن الجيش الذى انتصر فى حملات الراين والسامبر والموز سينتصر انتصارا مجيدا على هؤلاء الهمج . وتقل الضباط عباراته الى وحداتهم ، ويقول فرترى ان أثرها كان عظيما . « وبدا أن بونابرت أقنعنا على الأقل بأهمية خططه وعظمها . وأعلن قائد كل كتيبة على رجاله أن المعركة على الأبواب ، فتلقى الجيش كله النبأ بحماسة ، ولما صرف الجنـود وانفضت طوابيرهم أخـذوا يفحصون سلاحهم بغاية العناية والدقة ، ويشحذون سناكيهم ، ويختبرون أزنادهم ، ويتغنون كأنهم يتهيأون لحضـور مأدبة » (٥٨) .

وكان بونابرت قد تلقى نبـأ ـ عن طـريق الجواسيس المأجورين فى الغالب ـ مفاده أن مراد بك ، على رأس ثلاثة آلاف فارس أو أربعـة ، وعدة آلاف من المشاة ، وأسطول من الزوارق الحربية ـ يدنو من بلدة شبراخيت على نحو ثمانية أميال جنوبى الرحمانية . وكانت فرقة ديزيه قد التقت فى مناوشة وقعت فى ١٠ يوليو بكتيبة من المماليك قوامها ٣٠٠ فارس يقودها محمد بك الألفى ، وصدت المدفعية الفرنسية هجوم المماليك ، المفتقر الى النظام ، بسهولة ودون خسائر . فلما اطمأن بونابرت الى خطط المماليك من تقرير ديزيه قرر أن يلقى مراد بك فى شبراخيت . ولم تقتض تهيئة الجيش للقتال الوشيك سوى سلسلة من أوامر تسعة أصدرها الجنرال برتييه الى قواد الفرق الخمس والى الكابتن بيريه والجنرال ديما والجنرال أندريوسى . وأمرت جميع القوات ، بما فيها أسطول بيريه ، بالسير بطريق منية سلامه الى شبراخيت لتتوقف قبل فجر ١٣ يوليو . وصدرت التعليمات للجنرال أندريوسى بأن يستقل « شبك لوسرف » سفينة قائد الأسطول بيريه ، وأن يوجه عمليات بيريه المعززة للجيش . ولما كان هناك نقص فى خيول الفرسان فقد أمر غير المحاربين جميعا بمواصلة الرحلة فى السفن والناقلات ، ومنهم بوريين ومونج وبرتولليه ، فاستقلوا السفينة لوسرف.وكانت مدام فوريه زوجة فوريه الملازم بلواء المطاردين الثانى والعشرين على واحد من المراكب النيلية التى استولى عليها فى رشيد لاستعمالها فى النقل . والذى حدث بعد هذا هو أنه على عاتق هذا الأسطول وقع عبء القتال .

واذا استثنينا وقفة قصيرة بمنية سلامة ، فان الجيش سار أكثر ليـلة ١٢ ـ ١٣ يوليو ، ولاحت له شبراخيت قبل بزوغ الفجر . ونبه على الجنود بالتزام النظام الصارم أثناء المعركة . وقيل لهم انه لا سبيل لهزيمة المماليك الا مواجهتهم بجبهة منظمة ثابتة . وما ان وقف الجيش أمام شبراخيت حتى أمر بونابرت كل فرقة أن تشكل مربعا عمق كل ضلع من أضلاعه ستة طوابير ، ووضع فى قلب المربع الفرسان القليلين الموجودين وعربات الأمتعة ، أما المدفعية

فوضعت فى زوايا المربعات · ولم يبق بعد اتمام هذه الترتيبات الا مهلة ضئيلة لنوم الجنود ·

ويذكر لنا فرترى أنه « عنـد شروق الشمس انطلقت فجـأة موسيقى حربية ، فقد أمر القائد الأعلى بعزف المارسلييز لأنه كان عليما بتأثيره فى الجنـود · فهذا النشيد الرائع يثير شجاعة الجنـد ويلهب وطنيتهم ويجعلهم يدركون أن وقت التذمر قد انتهى وأن واجبهم الآن هو الانتصار » (٥٩) · ومع صوت المارسلييز لاح لهم فجأة منظر فرسان المماليك وقد اصطفوا للمعركة· ويصف ديفرنوا فى مذكراته هذه اللحظة التى بهرت أنفاس الفرنسيين فيقول : « كانت الصحراء تمتد الى الخلف ومن فوقها السماء الزرقاء ، وأمامنا الخيول العربية الجميلة المطهمة تنفخ وتصهل وتطفر فى رشاقة وخفة تحت راكبيهـا من المقاتلين المدججين بسلاح يخطف بريقه الأبصار ، مرصع بالذهب والجواهر الكريمة · أما ملابسهم فزاهيـة الألوان ، وأما عمائمهم فيعلوها ريش مالك الحزين ، وبعضهم يلبسون الخوذات المذهبة · وأما سلاحهم فالسيوف والرماح والصوالج والحراب والبنادق والبلط والخناجر ، ويحمل كل منهم ثلاثة أزواج من الطبنجات ··· وأحدث المشهد تأثيرا قويا فى جنودنا لجدته وغناه · ومن تلك اللحظة صمموا على الظفر بهذه المغانم من أعدائهم » (٦٠) ·

وكان هـذا الخط المتألق ببريقه يمتـــد على شكل المنجل من النيـل فى شبراخيت الى جنوب المربعات الفرنسية وغربها · وانعكست شمس الصباح على أسلحتهم وعلى الأهلة والكرات النحاسية المعلقة على قمة خيامهم وأعلامهم · والى الخلف منهم وقف من المشـاة فى غير تشـكيلات واضحة عـدد ربما بلغ ١٠ر٠٠٠ ـــ وهم خدمهم وبعض الفلاحين المهيئين للقتال والذين لم يسلح أكثرهم الا بالنبابيت · ولم يكن هذا الخط ملتزما مكانه وان لم يتقدم الى الأمام· فالفرسان منطلقون الى الخلف والأمام على طول الخط فيشعرون الناظر بالكثير من النشاط والاستعداد · وما من مشهد يجمع الرشاقة الى القوة كمشهد جواد عربى يمتطى صـهوته راكب على الطريقة العربيـة · فالمشى الهين أو الجرى لا يوافق مزاجه : انما هو يؤثر الخبب ، والخبب صعدا · فيمرق ثم يقف كأن رصاصة صدته صدا · ولابد أن الجيش الفرنسى المنهوك ، الذى قضى أياما يتعثر وسط الصحراء وعلى الأرض الجافة المشققة على ضفاف النيل وقد بلغ الاعياء منه كل مبلغ ، قد أدهشه منظر هذه العافية الراقصة ، وهذه القوة الرشيقة ، وهذا الجمال المقترن بالصلابة ، ومع ذلك فان الجمال والرشاقة والجرأة لم يكن لها كلها أقل أمل فى التفوق على نظام هؤلاء المشاة المتعبين وتدريبهم ·

كان جيش المماليك ، ولو بتعزيزاته من المشاة ، أقل كثيرا في عدده من الجيش الفرنسي • ولكن كل مملوك كان « جبخانة » تمتطي جوادا • فهذا الفارس الذي يركب على الطريقة القوزاقية يطلق أولا قربينته ثم يدسها تحت فخذه ، وبعدها يطلق طبنجاته ويقذف بها من فوق كتفه ليتلقطها خدمه بعد حين ، ثم يقذف الجريد الفتاك ، وهو سهام طولها أربعة أقدام مصنوعة من جريد النخل بعد شقه وثقفه ، وأخيرا يهاجم العدو بسيفه الأحدب ، وقد يحمل سيفين في آن واحد ويضرب بهما ولجام الجواد بين نواجذه • وقد علمته سنوات طويلة من المرانة أن يفصل الرأس عن الجسد بضربة عكسية لا ثاني لها • هذا المملوك الذي انتزع من أبويه طفلا ، والذي مارس فنـون الحرب وهو بعد غلام في الثانية عشرة ، والذي كان عادة بلا خلف ، لم يكن يعرف الخوف ولا الحب • وهو لا يؤسر أبدا في الأغلب الأعم ، فهو اما منتصر في المعركة ، واما مقتول ، واما هارب بسرعة البرق التي هاجم بها عدوه • وقد حمله هذا على أن يأخذ معه أينما سار ثروة لا يستهان بها من الجواهر والثياب والنقود. فهو يرتدي فوق قميص من الموسلين عدة صدرات وقفاطين حريرية زاهية ، ويضعها كلها في سراويل حريرية ضخمة يتسع السروال منها لرجل كبير الحجم • وكان المماليك على العموم ضخاما طوالا — فهم مختارون وهم صبيان بمعرفة خبراء — وكانت ملامحهم وسيمة • وإذا استثنينا نفرا قليلا من الزنوج بينهم ، فانهم كانوا على حد قول دينون : « رجالا مليحي الوجوه ، لبشرتهم لون الزنبق والورد » (٦١) •

حين أنبىء مراد بك ، قبل التحامه لأول مرة بالفرنسيين بعدة أيام ، أن جيش بونابرت لا يكاد يملك خيالة ، ضحك عاليا ، وقال مفاخرا انه سيشرحهم كما يشرح الشمام • فلما رأى الفرنسيين وهم يصطفون في مربعاتهم أخذته الحيرة ؛ وهي نفس الحيرة التي يحسها كلب الصيد حين يصادف قنفذا لأول مرة في حياته • وظل فرسان المماليك نحو ثلاث ساعات لا يفعلون شيئا الا أن يحوموا حول الفرنسيين بفصائل صغيرة يبحثون عن مغمز في طوابيرهم • ثم التقى الأسطولان وجها لوجه على النيل بين الساعة الثامنة والتاسعة ، وبدأ اطلاق المدافع • وبعد قليل بدأ فرسان المماليك هجومهم آخر الأمر •

فأما على اليابس فان القتال لم يبلغ قط مبلغ المعركة الحقيقية • فما ان أصبح المماليك على مرمى مربع من مربعات الجيش الفرنسي حتى أوقفهم ستار ناري من قنابل المدافع والقنابل اليدوية والرش ورصاص الأسلحة الصغيرة • وقد حاولوا اختراق المربع تلو المربع من كل جانب يستطيعون الدنو منه ، وفي كل مرة يجدون هذا القنفذ نفسه • وبعد نحو ساعة انسحبوا الى موقعهم الأصلي • وأمر بونابرت فرقه أن تبدأ هجومها وأن تخفف الضغط على الأسطول الفرنسي الذي كان حظه من التوفيق دون حظ الجيش البري •

واذا استثنينا الناقلات التى التزمت المؤخرة ووقفت الى الشمال ، فان أسطول بيريه كان يتألف من ثلاثة قوارب للمدافع ، وسفينة خفيفة ، والشبك لوسيرف • أما أسطول المماليك الذى كان مزودا بملاحين يونان فمؤلف من سبعة قوارب حربية ، وكانت نيرانه قوية محكمة • وبعد قليل اضطر بيريه الى اصدار الأمر باخلاء السفينة وقاربين من قواربه وتركها للعدو ، وجرح هو نفسه جرحا طفيفا • ولم يبق غير لوسيرف والقارب الثالث ، بعد أن أثقلهما المدنيون والرجال الذين التقطوا من القوارب المهجورة ، فظلا يقاومان النيران التى تنصب عليهما من سفن العدو السبعة ومن بطارية وضعها المماليك على ضفة النيل فى شبراخيت ومن أخلاط من المماليك والفلاحين والبدو الذين راحوا يطلقون النار من الضفتين من شتى الأسلحة التى أتيحت لهم ومن بينها مدافع صغيرة حملت على ظهور الابل • يقول بوريين انه حوالى الساعة الحادية عشرة صباحا أخبره بيريه أنه ما لم تبادر القوات البرية بنجدته فورا فان الموقف يصبح ميئوسا منه • « وكان الترك قد صعدوا الى عدة سفن من سفننا وأخذوا يذبحون ملاحيها تحت بصرنا بوحشـية فظيعة وشهر الآخرون رءوسهم وهم يقبضون عليها من شعورها » وكانت لحظة حرجة للمواطن برتولليه الكيميائى الشهير • ذلك أنه آثر الموت السريع غرقا على الموت ذبحا ، فملأ جيوبه بالأثقال واستعد للقفز من السفينة اذا لزم ، ولكنه اذ رأى غيره من المدنيين ينضمون الى الجنود فى القتال حذا حذوهم وشارك فى ضرب النار • أما مونج فكانت الخدمة التى أداها هى المعاونة فى تعبئة المدافع من جديد ، وكان يوما من الأيام مشرفا على مسابك المدافع فى جميع أنحاء فرنسا • وأخيرا أصابت السفينة لوسيرف سفينة قائد أسـطول المماليك بضربة مباشرة ، وكانت تحمل بعض الذخيرة • يقول نقولا الترك : « فسقطت احدى القنابل على المركب الذى كانت به الجبخانة فطار البارود واحترق المركب والذى يقربه من المراكب وكانت الناس تتطاير بالجو كالطيور » • ويقول مصدر عربى آخر ان هذا المنظر جعل الفرنسيين يغرقون فى ضحكات هستيرية ، وأحدث ذعرا فى صفوف المماليك على اليابس والماء • وكانت خيالة المماليك على وشك مهاجمة الفرنسيين القادمين مرة ثانية حين وقع الانفجـار ، وبدلا من أن يهاجموهم أخذوا هم وأتبـاعهم يلوذون بالفرار • واحتل الفرنسيون شبراخيت دون مزيد من المقاومة • فأما الجنود البرية فلم تصب بخسائر ، وأما بيريه الذى رقى مساعدا للأميرال فقال لبروى فى تقريره : « لقد جرح من رجالى عشرون وقتل نفر وفقدت سيفى وقطعة صغيرة من ذراعى اليسرى » • واذا عرفنا أن أكثر من ١٥٠٠ صندوق من الذخيرة قد أطلقه الأسطولان تبين لنا أن هذه الخسائر لم تكن فادحة •

أثبت بونابرت لجيشه أنه لا شىء يدعوهم للخوف من المماليك ، ولكنه ترك المماليك يفلتون • وقد قال لبوريين حين رآه بعد عشرة أيام فى الجيزة ان

فشله في قطع خط الرجعة على المماليك مرجعه كله اضطراره لنجدة الأسطول ـ « لنجدتك أنت ، ومونج ، وبرتولليه ، والباقين » • ولم يسع بوريين الا أن يجيب بأن هذا بالطبع أقل ما يمكن أن يفعله قائد للمدنيين ، بعد أن أخذ جيادهم وجعل منهم أهدافا للعدو على السفن •

يقول نقولا الترك ان الفرق الفرنسية كانوا قادمين كالبحر الزاخر والسيل القـــاطر :

ولكن هذه الفكرة لم يشاركه فيها الفرنسيون وهم يستأنفون زحفهم عشية ١٣ يوليو ، بعد أن استراحوا من المعركة نحو ثلاث ساعات ليطاردوا المماليك • ذلك أن النصر لم يشرح صدورهم الا برهة ، وسرعان ما عاودهم هبوط الروح المعنوية • ورغبة في اختصار الطريق ترك الجيش ضفاف النيل ، وكانت الشقوق العميقة تتخلل الأرض التي جفت تماما • وأسف الجنود على رمال الصحراء الناعمة وهم يعرجون بكعوبهم الملوية • يقول فرترى : « في اليوم التالي لمعركة شبراخيت أصبحت أقدامنا الموجعة مشققة كالأرض التي تدوسها » • وفي فجر ١٤ يوليو لحق بونابرت بفرقتي الطليعة ـ فرقتي ديزيه ورينييه ـ وهما واقفتان لتوزيع الجرايات على الجنود • وسخط بونابرت لهذا العطل ورفض قبول تعليلات ديزيه في حدة وضيق وأمر باستئناف الزحف فورا • ويؤيد معظم شهود العيان وصف الجاويش فرنسوا لزحف الجيش في الأيام الأربعة التالية • يقول : « كان الرجال يموتون اختناقا من الحر ، والمرء يحس كأنه يمر أمام أتون متقد • وقد انتحر عدة جنود » • أما العذاب الذي لقيه رجال المدفعية وجيادهم فأشد وأنكى ، ففي كل بضع مئات من الياردات قنوات ري جافة تعترض طريق عربات المدافع • فتحطمت العجلات والدناجل بانتظام يبعث على اليأس ، وكان من الضروري اصلاحها فورا • واقتضى الأمر تسوية ضفاف القنوات الكبيرة وتمهيدها للمرور عليها •

وبدا أن النظام أخذ يتحطم تماما بعد أن أمكن استعادته فترة وجيزة خلال يوم المعركة • يقول اللواء بليار في يوميته : « ان الجيش على الجملة متذمر • والضباط يسمحون لجنودهم في غير اكتراث بالانتشار من طوابيرهم في مختلف القرى الواقعة على الطريق ، وأخذ ما يستطيعون العثور عليه منها » (٦٩) • ويقول الجاويش فرانسوا ان قرية رفضت امداد الفرنسيين بالبضائع التي طلبوها فضرب أهلها بحد السيف وأحرقت بالنار ، وذبح وأحرق ٩٠٠ رجل وامرأة وطفل ليكونوا عبرة لشعب همجي نصف متوحش (٧٠) • وقد يكون فرانسوا مغاليا في تقدير عدد الضحايا ، ولكن هذا المشهد كان يقع مرارا وتكرارا ويصف الكولونيل لوجيه مشهدا منها في يوميته فيقول : « في ٢٦ مسيدور (١٤ يوليو) وصلنا الى قرية نكلة ، وكانت فرقتا بون وفيال

تعملان فيها النهب والسلب ، وأحدثت صيحات الرجال وولولة النساء ضجيجا رهيبا • وتسلقت النساء أسطح منازلهن ، وكلما رأين فرنسيا على صهوة جواد نادينه وأظهرن له فجيعتهن بالتلويح خلفا وأماما بطرح يمسكنها بكلتا اليدين ثم يختمن شكواهن « بالتعديد » الباكي • كل هذا يحدث فعلا تحت بصر القائد الأعلى الذى أصدر الأوامر للجنرال ديجا بالبقاء فى القرية ليعيد اليها النظام ويحصل على زاد لجنوده • وكان على الجنرال ديجوا أن يذلل عقبات لا تخطر بالبال • وبدلا من أن يعاونه ضباط اللواء زادوه عنتا على عنت بلومه على نقص مئونتهم من مختلف الأشياء وباظهار عصيانهم على مرأى من الجنود ••• وما ان اتخذت الخطوات لوقف أعمال الاخلال بالنظام حتى تغير حال الأهالى من الخوف واليأس الى الثقـة ، بل الفرح ، وتسلم الجنـود بعض الخبز المحلى والأرز واللحم » (٧١) •

وأخيرا منح الجنود راحة يومية فى وردان حيث تجمع الجيش كله فى ١٨ يوليو • واستؤنف الزحف فى ٢٠ منه بما يكتنفه من المشاق ذاتها • وكان معظم الضباط قد استسلموا لما يقوم به جنودهم من أعمال النهب والسلب لأن نظام التموين انهار فعلا • وكان الضباط ، العاجزون عن النهب ، يرقبون رجالهم فى شىء من الحسد وهم يشوون ما سرقوا من حمام ودجاج وخراف • واستخدموا القضبان التى يعبثون بها بنادقهم أسياخا للشى • فاذا أشبع الجنود نهمهم هيأوا لأنفسهم قدر استطاعتهم فرشـا على القش أو أكوام الأغصـان « ناسين قيظ النهار فى رطوبة الليل • واختلط كل شىء ــ الخيل ، والحمير ، والجمال ، والجنود ، والضباط » (٧٢) •

تلك حال جيش الشرق الفرنسى ــ ذلك «البحر الزاخر والسيل القاطر» ــ حين وصل فى عشية ٢٠ يوليو الى أم دينـار ، وهى قرية تقع على مقربة من تفرع دلتا النيل على نحو ثمانية عشر ميلا شمالى القاهرة ، هنالك تلقى بونابرت نبأ تنظيم المماليك قواتهم وتوزيعها للدفاع عن العاصمة • كان مراد بك ينتظر الفرنسيين على ضفة النيل اليسرى أمام بولاق فى قرية امبابة التى حصنها • أما ابراهيم بك فمعسـكر فى بولاق ببقية المماليك وجيش المتطـوعين ليقطع الطريق على الفرنسيين اذا بلغوا الضفة اليمنى • أما على النيـل نفسـه فكان أسطول المماليك ينتظر الفرنسيين • وأبهج النبأ بونابرت : فلو أن مراد بك قرر أن ينتظره على الضفة اليمنى لأتاحت له متاعب الفرنسيين فى عبور النيل تفوقا أكيدا ، أما الآن فانه وقف بالضـبط حيث يريده بونابرت أن يقف • وفى الساعة الثانية من صباح ٢١ يوليو صدر الأمر للجيش بالزحف على امبابـة والالتحام مع المماليك فى معركة حاسمة ، وبلغ الجيش وجهته فى الساعة الثانية بعد الظهر فى أشد أوقات النهار قيظا • وعلى نحو ميل من الفرنسيين وقفت طوابير المماليك المصطفة للمعركة ، ولاحت من خلفها الأهرام العظيمة وبانت

كتلها الضخمة الغامضة على بعد عشرة أميال · والى اليسار استطاع الفرنسيون أن يشهدوا على الأفق خطا متألقا من قباب القاهرة ومنائرها · وأتيحت لهم راحة ساعة واحدة قبل أن يصدر بونابرت أمره بالهجوم · وقد أفادوا من هذه الفترة فى اطفاء ظمئهم بأكل الشمام الذى وجدوه بوفرة ·

وأمر بونابرت الفرق بأن تشكل مربعات كما حدث فى شبراخيت ، وبين المربعات الأمتعة والفرسان ، وفى أركانها المدفعية · ثم خطب فى جنوده ، فى روايته للمعركة ، وأمرهم بالهجوم وهو يشير الى الأهرام قائلا « أيها الجنود : ان أربعين قرنا تنظر اليكم من قمة هذه الأهرام · » (٧٣) والحقيقة أنه لم يتح له لا الوقت ولا الصوت اللازمان للخطاب فى رجاله الذين انتشروا على عدة أميال ، والذين كان معظمهم الى ذلك الحين ما يزالون حائرين فى أمر هذه الأهرام · وأغلب الظن أنه أبدى هذه الملاحظة للضباط الذين اتفق وجودهم وقتها حوله · ولكن من المؤكد أن كيانه كله دبت فيه الحيوية الشديدة فى تلك اللحظة ، وهو يشعر أنه يصنع التاريخ على مشهد من أقدم الآثار المعروفة للانسان ·

***

يرى البعض فى معركة امبابة (أو الأهرام) مع أنها وقعت على مسافة كبيرة من الأهرام ، احدى انتصارات نابليون الكبرى ، فى حين يراها غيرهم حدثا صغيرا تختلط فيه المناوشة بالمجزرة ، قرر نتيجته سلفا تفوق الفرنسيين فى الخطط والعدد · ونستطيع أن نقدر عدد جنود الفرنسيين المحاربين الذين اشتبكوا فى المعركة تقديرا لا يبعد عن الحقيقة بنحو ٢٥٫٠٠٠ رجل ، أما قوة المماليك فأصعب تقديرا ، وقد قدرها أحد المؤرخين على أساس عمليات عقلية عويصة بنحو ٦٠٠٠ فارس من المماليك ، يعززهم ١٠٫٠٠٠ — ١٢٫٠٠٠ من الجنود المشاة (*) · وهذا التقدير اما يغالى كثيرا فى عدد الفرسان واما يقلل كثيرا من عدد الجنود المشاة ، فما دام كل مملوك من الفرسان كان له على الأقل خادمان من المشاة ، وما دامت الرواية أجمعت على أن المماليك كانت تعززهم جنود ترك نظاميون (معظمهم ألبانيون) خاضعون اسميا للوالى التركى ، فلابد أن عدد المشاة كان أكثر كثيرا من ضعف عدد الفرسان · ومن جهة أخرى يبدو أن نابليون يغالى فى تقديره قوة العدو · فهو يقول انه كان هناك ١٢٫٠٠٠ من فرسان المماليك ، لكل منهم ثلاثة خدم مسلحين أو أربعة و ٨٠٠٠ من فرسان البدو ، و ٢٠٫٠٠٠ من الانكشارية — وجملة هذا ٧٨٫٠٠٠ رجل ، فضلا عن جيش ابراهيم المرابط على ضفة النيل اليمنى · ولم يكن فى مصر كلها ١٢٫٠٠٠

(*) فريدرش كرشايزن فى كتابه « سيرة نابليون » ·

مملوك ٠ وأيا كان العدد الصحيح ، فان البدو والمشاة من غير الجنود الألبانيين كانوا عديمي النفع اطلاقا ، ويمكن اسقاطهم من حسابنا ، لاريب اذا أن الفرنسيين كانوا يمتازون بالتفوق العددي الحاسم ، واحراز تفوق كهذا في اللحظة التي يكون له فيها قيمة كبيرة هو في الواقع سر القيادة القادرة ٠

أما تفوق الخطط والحركات الفرنسية فواضح ، ولكنه كان يعتمد اعتمادا تاما على التزام الطوابير النظام في تنفيذ تعليمات الضباط ٠ وكان أقل ضعف أو ذعر خليقا بأن يجر كارثة على فرقة بأكملها أو أكثر ٠ وكان لزاما أن يحتفظ بتماسك الطوابير ووحدتها مهمـــا كان الثمن ، والا اخترقت خيالة المماليك المربعات فمزقتها الى أشرطة ٠ فاذا أضفت الى هذا اعتبارا آخر هو أن المماليك كانوا مرتاحين ، وأنهم يحاربون في محيطهم في حين كان الفرنسيون مرهقين ، جياعا ضعاف المعنوية ، أضـــنتهم الدوسنطاريا ، وأنهم يقاتلـون في أراض غريبة ، لم يكن مناص من الاعتراف بأن نتيجة المعركة لم تكن مقررة سلفا على الاطلاق ٠

كان علم مراد بك بالخطط والحركات الحربية بدائيا ٠ ولكنه اوتي فطرة القائد الموهوب وعينه اللماحة ، فما ان لحظ الهدف من مناورة بونابرت وهو اختراق قلب خط المماليك وقطع خط الرجعة عليه ٠ حتى أمر جميع فرسانه بمهاجمة فرقتي الجنيحة الفرنسيين ، أي فرقتي ديزيه ورينيه ٠ ونفذ الهجوم في سرعة واصرار لايخطران بالبال ٠ ولم يكد يتم لطوابير ديزيه وقت لتشكيل مربعها ٠ وانتظروا حتى أصبح المماليك قاب قوسين منهم فأطلقوا عليهم نيرانهم ففعلت بهم كما فعلت بنيران رينييه ٠ يقول الملازم فرتراي « أصدر الجنرال رينييه أمره بتشكيل الطوابير ، وفي لحظة شكلنا مربعنا ، وجعلنا عمقه عشرة صفوف ليستـوعب الصدمة ٠ وتمت الحركة بغاية الدقة والهدوء ٠٠ وأطلق الجنود نيرانهم في ثبات كبير فلم تضع طلقة واحدة سدى لأنهم انتظروا حتى اللحظة التي أوشك فيها الفرسان على اختراق مربعنا ٠ وسرعان ما تكاثرت الجثث المحيطة بمربعنا ، وأخذنا ثياب الموتى والمجروحين من المماليك تحترق كالمشاقة ٠٠ واخترقت حشوات بنادقنا المشتعلة ورصاصنا ملابسهم العسكرية الفاخرة التي طرزت بالذهب والفضة وكانت تتماوج كالحرير » (٧٤) ٠

وفي هذه الأثناء كانت فرقة ديجوا قد فصـــلت خيالة المماليك عن تحصيناتهم بامبابة وراحت تقذف مؤخرتهم بمدافع الهاويتزر ، في حين استعد فيال وبون لاقتحام التحصينات والاستيلاء عليها عنوة ٠ وظل فرسان المماليك يهجمون كل جانب من جوانب مربعات الفرنسيين زهاء الساعة ببسالة انتحارية وان صدوا في كل هجمة بخسائر فادحة ٠ وبلغ من عنف الهجوم أن جيادهم المثخنة بجروحها كانت تحمل بقوة الدفع وحدها داخل صفوف الفرنسيين حيث

يجهزون عليها هي وراكبيها بسناكيهم وكعوب بنادقهم • وقد أتى أفراد من المماليك من أعمال القوة والبسالة ما لا يكاد يصدق ، بشهادة شهود محايدين (*) من ذلك أن حسين الكاشف ، وهو مارق من اليونان انحاز بعد ذلك الى صفوف الفرنسيين ، اندفع على جواده بين صفوف الأعداء وراح يمزق بسيفه فوهات البنادق الفرنسية كأنها الهشيم ، ونقل من ساحة القتال وقد خرقت الجروح جسده ولكنه بدا مستعصيا على الموت • كل هذا كان جديرا بالاعجاب ، ولكن لم يكن له نتيجة عملية • فلما رأى مراد أن الفرنسيين لا يتزحزحون أخذ فريقا من فرسانه وتقهقر الى الجيزة ومنها هرب الى مصر الوسطى • أما من بقى من فرسانه فقد انسحبوا ــ بعد أن قطع عليهم ديجوا خط الرجعة الى تحصينات امبابة يطاردهم بون وفيال وديجوا •

في هذه المرحلة من المعركة وقع نزال عجيب بين الملازم ديفرنوا ومملوك جليل المظهر أبيض اللحية ، أثار غضب الملازم وهو يثب بجواده في وقاحة أمام فرقة بون • واندفع ديفرنوا من مربعه وهو يمتطي جواده ، وبدأت المبارزة على مرأى من الفرقة كلها • وأجلى ديفرنوا غريمه عن جواده بأول طلقة من مسدسه، فتقدم صوب جواد ديفرنوا زاحفا على يديه وركبتيه ، ولحيته الطويلة تكنس الأرض ، وأعمل سيفه كالمنجل في قوائم الجواد ليحطمها • واستمرت هذه الحركة المدهشة برهة حتى حطم ديفرنوا رأس المملوك بسيفه • بينما خرج الجنود من طوابيرهم للاجهاز على الشيخ • وقد ظفر ديفرنوا بغنيمة وافرة ــ عمامة صفراء مصنوعة من الكشمير ••• وأكثر من خمسمائة قطعة نقود ذهبية مخيطة في طربوش عمامته ••• وسيف رائع رصع غمده وطرف مقبضه بالذهب ، ومقبضه مصنوع من قرن الخرتيت ، وسلاحه من الصلب الدمشقي الأسود : (٧٥) •

كان جنود ديزيه ورينييه عاكفين على تجريد جثث الأعداء المهزومين وسلب ما تحمل من غنيمة بينما كانت فرقتا بون وفيال تقتحمان المتاريس • يقول الجندي مييه « كانت مجزرة بشعة • وكان منظر جثث الرجال والخيل رهيبا لكثرة ما أريق من دماء في المذبحة » (٧٦) • وقد أبيد المشاة وجنود المدفعية الالبانيون عن آخرهم ، أما من بقى من المماليك الذين طوردوا الى ضفة النيل فقد حاولوا النجاة سباحة • وفي هذه الفوضى الأخيرة التي أحدثها ذعر

(★) يشيد المعلم نقولا الترك بشجاعة أيوب بك الدفتردار • (وقد هجم في ذلك الوقت البطل المغوار والأسد الهدار أيوب بك الدفتردار وهجم بحصانه وسط الغبار وصاح في الأعداء ويلكم يا لئام ساقكم الغرور لفتح هذه الثغور ، اليوم تملأ منكم القبور ••• الخ ص ٢٧) ولكنه أسقط قتيلا وداسته الخيل ••• ولم تظهر له علائم ولا آثار بعد أن قتل جمعا غفيرا وثبت قدام تملك الجماهير (•ص ٢٨ ذكر تملق جمهور الفرنساوية) ــ المترجم •

الهاربين ديس أيا بك الصغير تحت حوافر جواده ، أما ابراهيم بك الصغير (*) فقد أغرقه ـ وهو يسبح ـ ملاح يونانى صاح به وهو يحطم رأسه بمدرة « يا ظالمين أنتم سبب هذه الداهية » • (٧٧) وغرق مئات من المماليك فى النيل أو قتلوا بمدافعهم التى صوبها الفرنسيون اليهم (**) •

فى هذه الأثناء كان ابراهيم بك وجيشه يشهدون الكارثة من بولاق على الضفة اليمنى • يقول الجبرتى ، وهو شاهد عيان ، فلما عيان » وسمع عسكر البر الشرقى القتال ضج العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس بالصياح ورفع الأصوات بقولهم يارب ويالطيف ويارجال الله ونحو ذلك وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم • فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم ان الرسول والصحابة والمجاهدين انما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الأصوات والصراخ والنباح فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه ، ومن يقرأ ومن يسمع • وركب طائفة كبيرة من الأمراء والأجناد من العرضى الشرقى ومنهم ابراهيم بيك الوالى وشرعوا فى التعدية الى البر الغربى فى المراكب فتزاحموا على المعادى لكون التعدية من محل واحد والمراكب قليلة جدا فلم يصلوا الى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة على المحاربين •هذا والريح النكباء اشتد هبوبها وأمواج البحر فى قوة اضطرابها والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح فى وجوه المصريين فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه من شدة الغبار وكون الريح من ناحية العدو وذلك من أعظم أسباب الهزيمة كما هو منصوص عليه » (٧٨) •

كذلك يذكر نقولا الترك هذه العاصفة الرملية القاضية ، ولكن الجبرتى هو الشاهد الوحيد الذى زعم أن ابراهيم بك حاول عبور النيل ونجدة مراد• والذى أجمع عليه الكل هو أن ابراهيم ومماليكه تقهقروا الى القاهرة ، وأخذوا أسرهم وما خف من متاعهم وهربوا صوب الجنوب الشرقى الى سيناء • وصحبهم الوالى التركى طواعية أو كرها •

يقول نقولا الترك « .وكان أن قامت الحرب مدة ساعتين فقط ، ويالها من ساعة لا يقدر الوصف أن يوصف عظم الخمول الذى وقع على أهل البلد تماما

(*) صهر ابراهيم بك الكبير • المترجم •

(**) يذكر تقرير رسمى فرنسى أن الفى مملوك قتلوا فى المعركة أو غرقوا ، والرقم مغالى فيه • فقد كتب الجنرال داما الى كليبر يقول ان المماليك « خسروا بدون مبالغة سبعمائة رجل أو ثمانمائة » Côrrespondances de l'armée française (رسائل الجيش الفرنسى ص ٩٥) • وقدر الأميرال بيريه هذه الخسائر بالف ومائتين (نفس المرجع ص ٦٤) • أما خسائر الفرنسيين فقد قدرها برتييه فى تقريره الرسمى بتسعة وعشرين قتيلا و ١٢٠ جريحا ويقول كبير جراحى الجيش لارى ان عدد المجروحين جراحا خطيرة بلغ ٢٦٠ •

ولا سيما حين سمعوا تلك النار الدائمة التي هى رعد متصل غير منفصل ... ثم أهل البلد رجعت من بولاق الى المدينة فى بكاء ونحيب يلطمون وجوههم ويقولون يا ويلنا قد وقعنا فى أسر الافرنج . »

والحق ان الذعر في القاهرة كان لا يوصف ، فكل الذين قدموا منها الى بولاق كانوا يتدفقون عليها راجعين ، وكل من كان فى القاهرة حاول الهروب منها . وكان البدو والفلاحون الذين جلبوا من الريف والصحراء للدفاع عن المدينة يهاجمون اللاجئين خارج أبواب المدينة وينهبونهم ويغتصبونهم ، بل لقد جردوا بعضهم من ثيابهم . ولما خيم الليل بدأت أعمال السلب والنهب وأحرق قصرا مراد وابراهيم .

يقول الجبرتي : وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة جرى فيها ما لم يتفق مثله في مصر ولا سمعنا بما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين ، فما راء كمن سمعا (٨٠) .

ليس من المؤكد أن الجنود الفرنسيين المعسكرين بامبابة عشية ٢١ يوليو كانوا على علم بأنهم خاضوا معركة من أشهر معارك التاريخ ، وأن أربعين قرنا كانت تطل عليهم خلالها . ولكنهم كانوا على علم تام بأنهم غنموا غنائم خيالية .

كتب نابليون في تاريخ الحملة يقول : « لقد وجدوا بين متاع البكوات والكشاف مقادير وافرة من الحلوى وكميات كبيرة من السجاجيد والصينى والأوانى الفضية .

وباتت منائر القاهرة طوال الليل ينعكس ظلها بفضل اللهب الذى تصاعد من ٣٠٠ سفينة مملوكية . [أشعل المماليك فيها النيران قبل فرارهم] بل ان وهج النيران انعكس على جوانب الأهرام البعيدة ، وعكف الجنود فى الأيام التالية للمعركة على تصيد الجثث من النيل ، وقد وجدوا مع كثير منها ٢٠٠ ــ ٣٠٠ قطعة نقود ذهبية » . وكانت الأجسام العارية تقذف فى الماء ثانية بعد تجريدها مما تحمل ، فتنقل نبأ هزيمة المماليك في طريقها الى البحر المتوسط .

أما بونابرت فقد اتخذ مقر قيادته تلك الليلة فى قصر مراد بك الريفى في الجيزة . يقول : « لم يبق فيه خادم واحد ، ولم يكن شىء فى داخله يشبه من قريب أو بعيد القصور الأوربية . ولكن الضباط سرهم أن يجدوا بيتا حسن الأثاث ، ومتكآت منجدة بالحرير الليونى والشراريب الذهبية مما ذكرهم بالترف والفن الأوربيين . أما الحديقة فحفلت بالأشجار الجميلة ولكنها خلت من المماشى . وقد أبهجهم أن يجدوا تكعيبة كبيرة تغطيها الكروم وتثقلها عناقيد

العنب الفاخرة • وانتشر خبرها فى أرجاء المعسكر ، فانتقل اليها كله عدوا ، وسرعان ما تم قطف محصولها » (٨١) •

وفى غداة المعركة أرسل الشيوخ والعلماء المجتمعون فى الأزهر وفدا الى بونابرت يفاوضه فى شروط التسليم • وبعد المفاوضات عين بونابرت لجنة من خمسة برئاسة الجنرال ديبوى الذى أقامه حاكما على القاهرة ، والذى يصفه نقولا الترك بأنه البطـل العظيم ، المعد فى الحـرب بألف صنديد (٨٢) • للاستيلاء على المدينة • ويقول مالو أحد أعضاء اللجنة انه لما هبط الليل دخل الضباط الخمسة القاهرة تحرسهم سريتان من المشاة على عزف الموسيقى ، وكان سكانها يبلغون ٣٠٠٠٠٠ • « ولم نلق انسانا واحدا فى طريقنا ، ولم يدلنا على وجود الأهالى غير صرخات النساء المتصاعدة من جميع المنازل » (٨٣) وكان قصر مراد يحترق ، وقضى الضباط ليلتهم فى بيت أحد الكشاف • وفى الغد استولوا على بيت محمد بك الألفى فى بركة الأزبكية ليكون مقرا لقيادة بونابرت • وفى ٢٤ يوليو دخل القائد الأعلى مدينة القاهرة على رأس قليل من الجنود ونزل بقصر محمد الألفى • وفى اليوم ذاته كتب تقريره الى الادارة وضمنه أعماله منذ غادر الاسكندرية • **وقد لخص انطباعه العام عن مصر فى هذه العبارة :** « من الصعب أن يجد الانسان بلدا أكثر غنى ، وشعبا أشد بؤسا وجهلا وضراوة » (٨٤) •

وكان خليقا به أن يحس نشوة الانتصار فقد دانت له مصر — لولا شىء من التطهير • ولكنه بدلا من هذا أصبح رزينا بل مكتئبا • ففى ٢٥ يوليو ، أى بعد انتصاره فى معركة امبابة بأربعة أيام ، كتب الى أخيه جوزف يقول : « انتى أعانى كثيرا من خيبة الأمل فى بيتى ، فقد تكشف لى المستور تماما ••• ولم يبق لى فى الدنيا بأسرها سواك ••• ومن المحزن أن يركز المرء كل مشاعره فى شخص واحد ، وفى قلب واحد ••• وأنت تفهم ما أعنى » (٨٥) • ولو كان الخطاب وصل الى يد جوزف لفهم ما يعنيه تمام الفهم : فالذى تكشف له تماما هو خيانات زوجته ، ربما بأنباء باح له بها فى غير تحرز ياوره جونو • على أن الخطاب لم يصل قط الى يد جوزف لأن البريطانيين استولوا عليه فى الطريق •

ويضيف الخطاب « لا يفتك أن تجد لى بيتا فى الريف قبل عودتى • فلقد سئمت بنى الانسان • وما أحوجنى الى الوحدة والعزلة ، ان العظمة تبعث فى الملل ، ولقد جف معين عواطفى • ما أتفه المجد اذا كان المرء فى التاسعة والعشرين : لقد استنفدت كل شىء ، ولم يبق الا أن أصبح أنانيا مغرقا فى الأنانية » (٨٦) •

وقبل ذلك بثلاثة أسابيع فقط ، كتب لوى بونابرت من الاسكندرية الى جوزف هذا فى خطاب استولى عليه أيضا الأسطول الانجليزى يقول : « كنت

الى الآن أعتقد أن الحظ قد يفارق أخى ، أما اليوم فانى أومن أن التوفيق سيحالفه على الدوام » (٨٧) ٠

وفى الاسكندرية فى نحو الساعة العاشرة من ليلة ١٠ أغسطس ، كان فى استطاعة لوى بونابرت أن يرى بريقا ، ويسمع هزيما ، ينبعثان من انفجار يرى ويسمع فى نصف قطر يبلغ خمسة وعشرين ميلا على الأقل من أبو قير : ذلك أن الأميرال نلسن كان يثبت أن حظ نابليون بونابرت ليس بالحظ المعصوم من العثرات ٠

الفصـل الرابع

خليج «أبو قير»

١

اذا ركب المسافر في أيامنا هذه من الاسكندرية على طريق الكورنيش مشرقا وقطع عدة أميال يمر فيها بفنادق فخمة تطرق اليها البلى ، ومقاه ساحلية من أحدث طراز ، وبقصر المنتزه الذى يشبه كابوسا من الزخارف المسرفة ، تنفس الصعداء حين يبلغ الحد الذى تنتهى عنده حضارة الغرب ، حيث يخترق الطريق خلال المستنقعات والقرى المقفرة الى أن يصل الى أبى قير ، وهى قرية صغيرة على نحو خمسة عشر ميلا من قلب الاسكندرية • وعلى قمة رأس صغير يمتد من أبى قير داخل مياه البحر المتوسط توجد قلعة قديمة تشرف على الخليج البديع كله ـ وهو منحنى منتظم شاسع يبلغ طوله ثلاثين ميلا ، وينتهى عند مصب فرع رشيد •

هذه البقعة لم يطرأ عليها تغيير يذكر منذ انتصر نلسن فى معركة أبى او النيل ، وهى معركة خاضها الفريقان تجاه ساحل أبى قير ، لا فى أى بقعة قريبة من النيل •

وفى وسعك أن تصف القلعة اليـوم بنفس العبارات التى وصفها بها الكولونيل لوجييه فى ١٧٩٨ حين كتب يقول : « أبهجنا منظر بناء لاح من بعيد ضخم رائع •• فاذا دنا منه الانسان ، لا سيما اذا فحصه من الداخل ، تبين له أنه ليس الا زريبة ••• فقد وجدنا ثمانية عشر مدفعا من عيارات مختلفة دون عربات تنصب عليها • وكان القومندان فلاحا رفض أن يعطينا عليقا للخيل الا بعد دفع ثمنه » • ولا يزال أمر هذه القلعة ، المتهدمة شأنها يومئذ ، موكولا الى أسرة من الفلاحين تؤلف فراخها واطفالها وماعزها وكلابها حامية القلعة •

ويرى الناظر اليوم عددا من المدافع التى علاها الصدأ ملقاة فى خندق الماء وقد اختلطت بها شتى الأقذار ٠

لم تشهد أبو قير حدثا ذا بال منذ خراب كانوب القديمة ، وموقعها قريب منها ، الى اليومين الأولين من شهر أغسطس ١٧٩٨ ، حين كسب نلسن فى هذه البقعة شهرته ولقبه ٠ وفى السنة التالية لهذا التاريخ طارد الجنرال بونابرت جيش تركيا الى البحر فى نفس المكان الذى دمر فيه نلسن أسطوله ، وفى ١٨٠١ نزل الجنرال السير رالف أبر كرومبى على رأس ١٧٫٠٠٠ جندى انجليزى ليطرد الفرنسيين ، وفى ١٨٠٧ زحفت حملة انجليزية أخرى بقيادة الجنرال فريزر الى رشيد مارة بالخليج ثم عادت أبو قير بعد هذه السنوات العشر ، الحافلة بضجيج الحرب وأبواقها ، الى سباتها الموحش الذى قطع عليها فجأة ، ومرة أخرى لم يعد للزمن عندها معنى ٠

***

ألقى بونابرت فى تقريره للادارة تبعة تدمير الأسطول الفرنسى على عاتق غيره ، شأنه عقب كل كارثة تصيبه ــ وألقاها هذه المرة على رجل لا قبل له بالرد عليه لأنه سقط قتيلا فى مكانه من المعركة ٠ ولم يكتف ، فى تاريخ الحملة المصرية الذى أملاه بسانت هيلانه ، بالقاء التبعة على الأميرال بروى ، بل على الأميرال فيللنيف أيضا ، وهو الآخر ما كان يستطيع الجواب وقتئذ لأنه انتحر عقب هزيمته فى معركة طرف الغار ٠ وكان نابليون قد أمر باتلاف ملف الحملة المصرية ، فضلا عن تنصله من التبعة والقائها على غيره ، ولم يبق من الوثائق التى كان يحتويها سوى صورها التى لنا أن نتشكك فى مطابقتها لأصولها (*) ٠ على أننا اذا حللنا جميع الأدلة التى فى متناولنا لم يسعنا الا الانتهاء الى هذه النتيجة ٠ وهى أن الاتهامات التى وجهها بونابرت لبروى اختلاقات متعمدة ٠

ويمكن أن نلخص رواية بونابرت للأحداث التى أفضت الى كارثة أبو قير فى أربع نقط :

١ ــ قبل أن يغادر بونابرت الاسكندرية أمر بروى فى ٦ يوليو بأن يرسو بالأسطول فى مكان أمين ، وفى الميناء القديم ان أمكن ، فاذا تعذر وجود ممر يسمح بدخول جميع السفن أفرغ بروى ما بقى من المدفعية والعتاد فى أبى قير ومضى من فوره الى كورفو ، حيث الجزر الايونية التى استولى عليها الفرنسيون ٠

(*) فى دار الوثائق القومية بعابدين مجموعة ضخمة من صور الوثائق الأصلية للحملة المصرية ٠ (المترجم) ٠

والواقع أن أمرا كهذا لم يصدر ، على الأقل تحريرا • وهناك أمر تحريرى بتاريخ ٣ يوليو يطلب الى بروى أن يأخذ أسطوله الى الميناء القديم ان أمكن • فاذا لم تستطع البوارج الدخول ، بحث بروى امكان دفاع الأسطول عن نفسه ضد قوة تفوقه في خليج أبى قير • فاذا رأى أن ذلك أيضا غير مستطاع ، مضى الأسطول الى كورفو (باستثناء السفن الخفيفة التى يمكنها أن ترسو فى الميناء) • وليس فى الأمر أية اشارة الى رغبة بونابرت فى أن يغادر الأسطول الساحل ، الا اذا عجز عن الرسو فى أمان بأبى قير •

ورد بروى على هذا الأمر بأنه يستطيع من واقع سبره لغور الماء أن يحكم بأن محاولة دخول الميناء محفوفة بالخطر ، ولكنه يعتقد أنه يستطيع اذا ذهب الى أبى قير أن يرسو فى مكان حصين • وفى اليوم التالى ، أى ٧ يوليو ، رسا الأسطول فى أبى قير ، طبقا لتعليمات بونابرت الصادرة فى ٣ يوليو • على أن بروى أمر الكابتن باريه ، قائد الفرقاطة ألسست ، بأن يواصل سبر أعماق الميناء القديم • وقد اختتم باريه تقريره الذى كتبه فى ١٣ يوليو – وهو تقرير فنى جدا – بهذه العبارة « الرأى الذى انتهيت اليه هو أن البوارج تستطيع دخول الميناء اذا اتخذت الاحتياطات الضرورية » (٢) ولم يرض بروى عن هذه النتيجة رضاء تاما • فليس من الهين على قائد أسطول أن يغامر بتحطيم بارجة تجنح به أضف الى ذلك أن موقف الأسطول لو استطاع جزء منه أن يدخل الميناء واضطر الباقى الى البقاء خارجها سيكون أسوأ – اذا هاجمه أسطول بريطانى – مما لو رسا الأسطول كله فى أبى قير وأمر بروى بمزيد من الاختبارات لأعماق البحـر •

٢ – يزعم بونابرت أن أول نبأ وصله من بروى منذ رحيله عن الاسكندرية أتاه فى أواخر يوليو وهو بالقاهرة • وهذا جائز ، لأن عدة رسل فرنسيين وقعوا فى أيدى الأعراب كانوا يكمنون لهم فى الطريق • ولكن بونابرت يستغفل قراءه حين يزعم أنه دهش لما سمع بأن بروى ما زال راسيا فى أبى قير لأنه كان يعتقد اعتقادا راسخا بأنه اما فى ميناء الاسكندرية القديم واما فى كورفو : ذلك أنه ، حتى مع التسليم بأنه لم يتلق أنباء مباشرة من بروى ، فانه كان متصلا بالاسكندرية ، ولابد أن نبأ خطيرا كنبأ رحيل الأسطول أو دخوله الميناء القديم كان واصله (*) • وخطاب بونابرت الذى وجهه من القاهرة الى بروى فى ٢٧ يوليو يكذب زعمه الأخير تكذيبا باتا • فهو لا يثير اعتراضا على بقاء بروى فى أبى قير ، بل لا يذكر كورفو ، ويطمئن بروى الى أنه سيتلقى

(*) من المسلم به أن بونابرت كتب الى كليبر فى ٢٧ يوليو يقول انه لم يتلق منه رسالة واحدة منذ رحيله عن الاسكندرية • وقد يكون صحيحا أن رسائل كليبر لم تكن وصلته بعد ولكن ما من شيء فى أنه كان محيطا – من مصادر أخرى – بالأحداث التى وقعت بالاسكندرية ويبدو عجيبا أن مكان الأسطول هو وحده موضع الخطأ فى أنبائه •

المؤن قريبا من القاهرة • صحيح أن الخطاب يتضمن هذه العبارة « تلقيت نبأ من الاسكندرية يسدنى بأنك وجدت فى النهاية ممرا كافيا لدخول الأسطول [للميناء القديمة] وأنك أنت وأسطولك الآن فى الميناء » (٣) • وعيب هذه العبارة أنه لا يعقل أن بونابرت تلقى نبأ كهذا ، على الأقل من مصدر ثقة : فاما أن تكون العبارة من قبيل الأمانى الطيبة ، واما تزييفا للنص الأصلى (*) والواقع أن بونابرت يضيف بعد ذلك بجملتين : « حالما يصلنى خطاب تنبئنى فيه بما فعلت وبمكانك ، سأوافيك بتعليماتى عما بقى من عمل » • فكيف يمكن التوفيق بين هذا وبين العبارة السابقة ، لا توفيق الا بافتراضنا أن بونابرت لم يكن يدرى ما يقول •

٣ ــ يزعم بونابرت ــ فى تقريره للادارة ــ أكثر من هذا ، أن بروى أخبره فى خطاب كتب فى ٢٠ يوليو وتلقاه بونابرت فى ٣٠ يوليو أنه يعزز أسباب دفاعه فى أبى قير وأنه مستعد للقاء العدو اذا هاجمه • ولكن خطاب بروى المؤرخ ٢٠ يوليو لم يرد فيه شىء من هذا : انما هو يبلغ بونابرت بسوء صحة الأميرال ، ويشكو من نقص المؤن • ويتناول أمورا عادية • أما الخطاب الذى ذكر فيه بروى فعلا نيته الوقوف بأبى قير للدفاع عن الأسطول اذا هوجم ، فتاريخه ١٣ يوليو ، ولابد أنه وصل الى يد بونابرت فى فترة لا تتجاوز عشرة أيام ، فكان والحالة هذه لديه متسع من الوقت ليصدر أمره الى الأسطول أن يقصد كورفو قبل أول أغسطس ان رأى ذلك •

٤ ــ ويمضى بونابرت فيقول انه حين علم (بقرار بروى الغريب) دهش ، فأوفد من فوره ياوره جوليان الى بروى وأمره بالقاء فى أبى قير الى أن يرى الأسطول يبرحها ، وتشاء المصادفات ــ لخدمة بونابرت فى تعزيز دعواه ــ أن يكمن بعض الأعراب لجوليان فى طريقه الى أبى قير ويقتلوه : ولا حاجة للقول بأن الخطاب المزعوم لم يعثر له على أثر ، وأنه حتى لو كان كتب لوصل بعد فوات الأوان(*)

(*) ربما أخذ هذه الفكرة من خطاب تلقاه فى ٢٧ يوليو من أخيه لوى الذى كان بالاسكندرية ، ولكنه لم يأخذها قطعا من بروى نفسه • ولا ريب فى أن نص الخطاب عبث به ناشروه ، لأنه يتضمن اشارة الى القبض على السيد محمد كريم ، ولا يمكن أن يكون بونابرت قد أحيط به بعد •

(*) هناك نسخة محفوظة من الأوامر التى حملها جوليان ، والتى وجهت الى كليبر ومينو وقد نقلت رسائل نابليون الأولى (المجلد ٤ ص ٢٧٥ ــ ٧٦ رقم ٢٨٧٨) خطابا وجهه الى بروى ، وتاريخه ١٢ ترميدور (٣٠ يوليو) وردت فيه هذه العبارة « على أية حال يجب أن تبادر بدخول ميناء الإسكندرية ، أو تشحن بسرعة ما أنا باعث به اليك من أرز وقمح وتقلع الى ميناء كورفو ، لأنه من الضرورى ، ما دمنا لم نصل بعد هنا [فى مصر] الى قرار [حربى] حاسم ، أن تكون فى بقعة تستطيع منها أن تهدد الباب العالى » • ويذكر ناشرو الرسائل خطأ أن مصدر هذه الوثيقة هو محفوظات البحرية الفرنسية ، ولكنها لم توجد قط فى هذه المحفوظات • فقد أتلف أصلها بأمر نابليون • وقيل ان هناك نسخة بمحفوظات وزارة الحربية ،=

والنتيجة التي لا مناص من أن نخلص اليها هي أن بونابرت كان يتعجل ذهاب الأسطول الى ميناء الاسكندرية القديم للاحتماء به . أما زعمه أنه أمر بروى بالابحار الى كورفون ان لم يستطع الاحتماء بميناء الاسكندرية فلا سند له غير كلامه هو ، وهو زعم منقوض بشهادة الشهود وقرائن الحال .

ومن الشهود الذين يكذبون زعم بونابرت مساعد الأميرال « فانس » الذى كان قائدا لميناء طولون أثناء استعدادات الحملة . فقد أبدى دهشته لوزير الحربية ــ فى معرض التعقيب على كارثة أبى قير ــ لأن بروى مكث فى المياه المصرية بعد انزال الجيش الى البر . يقول : « كنت أظن ــ بناء على أحاديثنا مع الأميرال بروى ــ أنه لن يبقى أكثر من أربع وعشرين ساعة بعد أن يتم نزال الجيش . » .

والحق انه من المعقول أن تكون رغبة الأميرال بروى الطبيعية أن يأخذ الأسطول الى مياه آمنة بمجرد أن تنتهى مهمته ، فاذا كان قد فعل غير هذا فانما اطاعة لأوامر بونابرت . يؤيد هذا ما كتبه المندوب البحرى جوبير الى وزير البحرية فى ٩ يوليو يقول : « كان المفروض عموما ... أن نبحر الى كورفو متى تم انزال الجيش ، وهناك تعززنا بوارجنا القادمة من مالطة ، وطولون ، وأنكونا ، لنكون على استعداد لأى طارىء . ولكن القائد قرر غير هذا . والحظ الذى كلل جميع عملياته بالنجاح سيكون حليفه فى هذه العملية أيضا . وعلى ذكر الحظ ، أقول لك اننا جميعا هنا تدفعنا ريح الايمان بالقضاء والقدر . وهو ايمان بدأ يؤثر قليلا حتى فى معتقداتى أنا » (٥) .

وقد فسر مؤرخ ثقة ، هو فريداش كرشايزن ، عدة عبارات واردة فى رسائل بروى الى بونابرت بأنها توحى بعدم رغبة بروى فى الابتعاد عن بونابرت . كتب بروى فى ٦ يوليو يقول « صدقنى يا سيدى القائد أن غاية مناى أن أعزز عملياتك وأجد الفرص لأثبت صادق محبتى واعترافى بصنيعك . « ٠٠ يوليو » ان أصدق رغباتى أن أكون نافعا لك بكل وسيلة ممكنة . وكل وظيفة تضعنى فيها ترضينى ، كما قلت لك من قبل ، ما دامت تتطلب نشاطا » . ولعل هذه التأكيدات اذا انتزعت من سياقها تنم عن زهد بروى فى الاقلاع الى كورفو . ولكنها فى سياقها انما هى فى الواقع تؤكد مخاوفه من حبس أسطوله

=ولكن الناشرين لم يردوها ، ولم تر منذ ذلك التاريخ (انظر لاجونكيير ، الحملة المصرية ، المجلد الثانى ، ٣١٥ رقم ٢) فاذا كان بونابرت كتب هذه العبارة حقا . فلعله كتبها بسبب ما تلقى من أنباء عن موقف الباب العدائى لا بدافع قلقه على سلامة الأسطول الفرنسى . والواقع أن الفقرة السابقة لهذه العبارة نصها كالآتى : « ان حركات [الأسطول] الانجليزى تدل على أنه اقل [منا] عددا وأنه قانع بحصار مالطة ... » ومن العسير التوفيق بين هذا وبين دعوى نابليون بأنه أمر بروى بالاقلاع الى كورفو خشية تدمير الأسطول الفرنسى .

فى ميناء الاسكندرية · وذهابه الى كورفو لا محل له لسبب بسيط ، هو أن بونابرت ـ على خلاف ما زعمه فيما بعد ـ نهاه عن اتخاذ هذا الطريق بالذات ، الا اذا استحال على بروى أن يدخل ميناء الاسكندرية أو يدافع عن نفسه فى أبى قير ·

واذا التمسنا البينة الظرفية لاثبات هذا الرأى ، فحسبنا أن نذكر أن الأمر الذى أصدره بونابرت لبروى بتفريغ جميع المؤن التى تحملها السفن تقريبا ليستعملها الجيش البرى جعل من المحال على الأسطول أن يقوم برحلة بعيدة كالرحلة الى كورفو ـ يقطع فيها نحو ٨٠٠ ميل اذا سار فى خط مستقيم· وطلبات بروى المتكررة اليائسة للمؤن تمكينا له من اطعام الأسطول فى أبى قير لا أكثر ، والأساليب الملتوية التى اضطر أن يلجأ اليها ليمون سفنه بالزاد والماء ــ هذه كلها ثابتة مدونة ، وهى ذات صلة مباشرة بسبب من أهم أسباب هزيمته : هو أن ثلث ملاحيه تقريبا كانوا على البر يبحثون عن المؤن ·

وليس من العسير أن يتبين المرء لم حاول بونابرت أن يلقى على بروى تبعة الكارثة التى حلت بالأسطول فى أبى قير ، وكذلك من السهل تبين السبب فى بقاء بروى بأبى قير · لقد كان الطريق الذى يجدر به أن يختاره منطقيا هو المضى الى أية قاعدة فرنسية فى البحر المتوسط ، ولكنه لا يستطيع ذلك الا بأوامر صريحة محددة ــ وهذه الأوامر لم يتلقها قط كما أوضحنا · فاذا كان قد عارض فى عناد ضغط بونابرت عليه ليحمله على دخول ميناء الاسكندرية القديم فله كل العذر · ذلك أن المدخل الى الميناء محفوف بالخطر ، والقادة البحريون يشق عليهم أن يخسروا سفينة أكثر مما يشق على القادة البريين أن يخسروا فرقة كاملة : ولا عجب ، فبناء بارجة يستغرق من الوقت والنفقة أكثر مما يستغرقه تجنيد آلاف قليلة من الذكور · ولكن حتى لو فرض أن فى استطاعة الأسطول أن يدخل الميناء آمنا ، فما الذى يفعله لو أن الانجليز حبسوا منفذ الميناء بثلاث بوارج أو أربع ؟ وأية تسهيلات تتوافر فى الميناء لصيانة السفن اذا حوصرت طويلا ؟ وما جدوى أسطول محاصر لبونابرت ؟ أما فى أبى قير فللأسطول ، كما قال بروى ، مجال للدفاع عن نفسه ضد نلسن · وقد سخر بونابرت من هذه الفكرة وهو يستعيد ذكرى الأحداث ، ولكن حجة أفضل منه ، هو نلسن نفسه ، خالفه فى سخريته · قال : « لو أننى أخذت أسطولا بنفس القوة من سبتهد ، لآثرت التفكير فى الهروب عن مهاجمة الفرنسيين فى موقعهم ، ولكننى كنت أعرف قواد سفنى » (٧) · والواقع أن موقف بروى فى أبى قير كان يبدو مستعصيا على الهجوم فى نظر أى عدو الا نلسن وضباطه · وما كان لانسان غير نلسن أن يحلم بالهجوم فى الظروف التى التقى فيهـا بالأسطول الفرنسى ·

ولكن الدوافع التي حملت بونابرت على الرغبة في ابقاء الاسطول في الاسكندرية أصعب فهما • وقد اقترح بعضهم دافعين كلاهما غير مقنع :

١ – ان بونابرت كان يتوقع وصول قافلة ثانية من طولون تجلب التعزيزات والمؤن ، وقد تمس الحاجة لأسطول بروى ليعينها على القوات الانجليزية • صحيح أن قافلة ثانية كان ينتظر وصولها ، ولكن أية معونة كان في استطاعة بروى أن يقدمها لو كانت سفنه راسية في ميناء الاسكندرية ؟ انها تكون أنفع اذا كانت قاعدتها في أبي قير •

٢ – ان بونابرت كان مضطرا أن يبقي خط الانسحاب مفتوحا أمام جيشه الى أن يستولي على القاهرة ، ومن ثم فوجود الأسطول ضروري له • ويلاحظ أن هذه الحجة اما تنقض تماما زعم بونابرت بأنه أمر بروى بالابحار الى كورفو ، واما تؤيد الرأي بأنه في حالة الجلاء عن مصر – وهو أمر غير محتمل – يكون في الامكان استدعاء الأسطول الفرنسي في الوقت المناسب من كورفو • وأية قوات حربية في مصر ، أو حتى في سوريا ، تتفوق على بونابرت تفوقا يعجزه عن الاحتفاظ بالاسكندرية وأبي قير شهرا على الأقل – وهي فترة تكفي لاستدعاء الأسطول من الجزر الايونية ؟ ليست قوات المماليك بالتأكيد • صحيح كان في الامكان تسيير جيش تركي يفوق الجيش الفرنسي عددا عليه من سوريا ، ولكن الفرنسيين كانوا ولا ريب يستطيعون مقاومته زمنا كافيا ، أضف الى ذلك أن بونابرت كان ما يزال يؤمن ايمانا راسخا بأن تركيا ستظل على الحياد • ثم كيف يمكن أن يعينه الأسطول على اجلاء جيشه اذا كان هذا الأسطول محصورا في الاسكندرية ؟ وأي شيء يحمله على الايمان بأن نلسن ستبلغ به الغباوة حد اغفال حصاره ؟ فعلى أي وجه قلبت المشكلة اتضح لك أن بروى كان على حق في القول بأنه يكون في أبي قير ، حيث تطلق يده في العمل ، أنفع منه في الاسكندرية حيث يحبس في الميناء • ويبقى بعد ذلك سؤال هو : لم علق بونابرت هذه الأهمية الكبيرة على دخول الأسطول ميناء الاسكندرية القديم وهو على ما تعلم من ذكاء ، لا يقل عن ذكاء الكاتب على أي حال ؟ ولم لم يرد السماح للأسطول بمغادرتها ؟

ويعرض الكابتن دلاجونكيير ، أكثر مؤرخي الحملة المصرية دقة وأمانة ، رأيا غريبا بعض الشيء • ذلك أنه كان مفهوما – قبل رحيل بونابرت عن باريس – أنه سيعود من مصر في الخريف ويتولى قيادة قوات الغزو التي ستنزل في الجزر البريطانية ، أما العمليات في الشرق فيواصلها قائد أقل شأنا ، لعله كليبر • وقد أشار بونابرت نفسه في خطابه الذي كتبه لجوزف أخيه في ٢٥ يوليو الى أنه عائد الى فرنسا بعد شهرين ، وأنه سيطلق زوجته جوزفين ، وأنه يريده أن يجد له بيتا ريفيا يعتكف فيه ، ومن رأي لاجونكيير أن بونابرت أراد أن

يحتفظ بأسطول بروى لرحلة العودة هذه . ولكن هذا الرأى يعود بنا الى أسئلة عديدة : فلم أراد بونابرت العودة فى سبتمبر - أليغزو انجلترة أم ليعتزل الحياة العسكرية ويصبح مزارعا ؟ وما خطب مشروعاته الهندية ؟ وأهم من ذلك كله ، لم يحتاج الى ثلاث عشرة بارجة ليعود الى فرنسا ؟ فهو حين عاد فعلا بعد سنة كفته لذلك فرقاطتان .

وكل ما يمكن قوله تعقيبا على رأى لاجونكيير هو (١) أن نيات بونابرت الحقيقية ستظل فى أغلب الظن سرا غامضا الى الأبد ، ولعلها كانت سرا غامضا على بونابرت نفسه (٢) وأن هذا الرأى لا يمس عدم رغبة بونابرت فى رحيل الأسطول . وفى وسعنا بالطبع أن نخمن تخمينات بعيدة عجيبة - كالظن مثلا بأن بونابرت فكر فى امكان الاحتفاظ بالأسطول ليستخدمه فى حملة بحرية على الهند . ولكن ليس لدينا شواهد على الاطلاق تؤيد هذا الظن الذى لا تزكيه غير طرافته (*) ولعلى بونابرت ككثير من القواد كان يكره أن يفرط فى جزء من القوات التى يقودها ، أو لعله لم يهتم كثيرا بهذه المشكلة لأنه انصرف بكليته الى فتح مصر فترك حلها لبروى وستر تردده خلف عدة تعليمات ملتبسة وهو يعلل النفس بالفرج . وكان الجميع كما قال جوبير « يدفعهم ريح الايمان بالقدر » ولعل الجواب الصحيح مشتمل فى هذه العبارة . وفى رواية بوريين ، وهى تبدو هنا مقنعة أن بونابرت طلب اليه عقب هزيمة أبى قير أن يكتب مسودة التقرير الرسمى عن المعركة . فلما قرأ التقرير لم يرض عنه .. وزعم بوريين أنه قال : « هذا كلام شديد اللبس شديد اللين . ويجب أن يكون أكثر تقطعا ، ولابد أن تذكر فيه تفاصيل كثيرة - كالذين أبلوا فى المعركة بلاءا حسنا . ثم انك لم تقل كلمة عن دور الحظ فيها . واذا أخذنا بكلامك أعفينا بروى من اللوم . انك غير خبير بالرجال . فدع الأمر لى ، وسأملى التقرير . وتنتهى الفقرة الأخيرة من تقرير بونابرت عن المعركة بهذه الكلمات ، لم تتخل كربة الحظ عن أسطولنا وتتركه لمصيره الا بعد أن رأت أن جميع العطايا [التى حبت بها بروى] كانت عبثا » .

لقد هاجم نلسن بروى فى أبى قير مستهترا ، فأصبح بين عشية وضحاها بطل أوربا . أما بونابرت فقد ألقى اللوم على عاتق بروى -.بعد أن ترك له تعليمات غامضة أو غير عملية - وظل بطلا . وأما الأميرال بروى فقد اتبع أوامره ، واتبع ما تمليه الفطرة السليمة والرأى السديد ، ومات بطلا .

(*) ومع ذلك كان من اول أعمال نلسن التى قام بها عقب تحطيمه الأسطول الفرنسى فى أبى قير انه أحاط الحاكم البريطانى فى برمباى علما بانه لم يعد هناك خوف من اتصال قوات بونابرت بقوات تبو صاحب . ويبدو من هذا أن الفرنسيين ، على الأقل فى خيال نلسن ، كانوا قد وضعوا خطة لحملة حربية على الهند ينقلها الأسطول .

٢

لا لوم على الأميرال بروى ولا تثريب لبقائه فى أبى قير ، لأنه لم يكن يملك غير البقاء · على أنه كان يستطيع أن يجعل موقفه فيها أكثر قوة ومنعة · فمقاومة قوات مساوية لقواته أو أكبر منها كانت تتطلب منه تقريب خط قتاله ـ لا سيما الطليعة والمؤخرة ـ من الشاطىء قدر الاستطاعة ، دون أن يترك بين مقدمة سفينة ومؤخرة أختها مسافر تذكر ، رابطا بينها بالحبال · ولو اتبع هذا النظام لامتنع على أية سفينة من سفن العدو أن تتسلل الى جانب الفرنسيين القريب من الشاطىء (وهو ما حدث فعلا) ولكون جبهة منيعة قوامها نحو ٥٠٠ مدفع ·

كان الأسطول الفرنسى يرسو على أكثر من ميل ونصف من البر ـ وهذا يزيد على الأقل نصف ميل على المسافة التى كان يجب تركها لتجنب الميـاه الضحلة · وكانت البوارج الثلاث عشرة تؤلف خطا طوله زهاء الميل ، تتخلله ثغرات تقرب الثغرة منها من خمسين ياردة · ورغبة فى تعزيز المؤخرة التى رأى بروى احتمال الهجوم عليها أكثر من غيرها ، وضع فرقاطتين وزورقين حربيين بين البوارج والبر · أما الطليعة فكان يأمل أن يحميها ببطارية من مدافع المورتار وضعها على جزيرة أبى قير الصغيرة ، المواجهة لقلعة أبو قير ، وبفرقاطة وزورق حربى ، وكانت المستنقعات المحيطة بالجزيرة تبدو عائقا كافيا يمنع أى عدو يريد الالتفاف حول رأس خطه ليصل الى جانبه الساحلى · ولكن الذى حدث هو أن مدى البطارية كان أقل قليلا من أن يسمح لمدافع المورتار بأن تحدث أثرها ، وأن المستنقعات لم تكن عائقا أمام القباطنة البريطانيين ·

وكان أمام بروى ثلاثة أسابيع يصلح فيها من موقفه قبل هجوم نلسن عليه · ومن العسير أن نفسر تقصيره فى الافادة منها · ولعل وجود شطر كبير من ملاحى الأسـطول على البر باستمرار ليتمونوا جعله يحجم عن الحركات والمناورات المعقدة التى كان يقتضيها الموقف أو لعله كان يتوقع أن يتلقى فى أية لحظة أمر بونابرت بالاقلاع الى كورفو (وهو الأمر الذى ادعى بونابرت أنه أرسله اليه ، ولكنه فى الواقع لم يفعل قط) · ويكاد يكون من المؤكد أنه لم يكن قد استقر بعد على أحد الأمرين : القتال من موقف ثابت وسفنه راسية ، أو القتال وهو ناشر قلوعه · أو لعله ـ وهو الرجل الحريص ـ لم يتصور أن الانجليز سيقدمون على هذه المغامرة · وأيا كان السبب ، فلا يعقل أن يكون الاهمال · لأن الأمانة كانت أبرز فضائل بروى ·

وفى الساعة الثانية بعد ظهر أول أغسطس ، تلقت جماعات العمال التى كانت تحفر الآبار قرب شاطىء أبى قير اشارات من البارجة لوريان تنبهها الى العودة فورا الى مراكبها · ولعل العمال لم يفقهوا سر هذا الأمر لأن خط البوارج

كان يحجب الأفق عن أبصارهم • على أية حال لم يستجب للدعوة الا عدد قليل منهم ومن فصائل الجنود التى كانت تحميهم من البدو الذين لايفتأون يلاحقونهم، حتى بعد أن وضح لهم بجلاء سبب هذه الدعــوة ــ وهو أسطول انجليزى ، مؤلف من اثنتى عشرة بارجة على الأقل ، يدنو بسرعة كبيرة جدا تحدوه ريح شمالية قوية • وكان هناك ــ فضلا عن جماعات العمال التى تحفر على البر ــ عدة مئات من البحارة غائبين فى الاسكندرية ورشيد ليجلبوا شحنات من الأرز والقمح كان الأسطول فى مسيس الحاجة اليها • والحاصل أن الأسطول الفرنسى لم يكن فى هذه اللحظة الحرجة يفتقر الى كثير من سفنه الخفيفة ورفاصاته فحسب بل الى نحو ٢٥ ــ ٣٠ فى المائة من ملاحيه • أما من بقى من الرجال فى مراكزهم فكان أغلبهم ينقصهم الخبرة والنظام • فقد جندوا حيثما وجدوا ، وكيفما اتفق ، فى أسابيع قليلة من بين بحارة سفن الصيد والسفن التجارية الساحلية وما اليها ، الأمر الذى أيأس ضباطهم ، وكانوا يدركون ما يأبى بونابرت أن يسلم بة : وهو أن « غذاء المدافع » الغفل قد يؤدى الغرض منه فى جيش بروى ، ولكنه لا يصلح اطلاقا على السفن ، وقد لا نجاوز الحقيقة اذا قلنا ان نصف الملاحين الفرنسيين كانوا دون الثامنة عشرة ــ وبعضهم دونها كثيرا • فلما جد الجد وحمى وطيس المعركة مات هؤلاء الأطفال موت الأبطال : ولكن هذا الموت كان كل ما يعرفونه تقريبا •

وما ان وافت الساعة الرابعة حتى لاح الأسطول البريطانى للنظر واضحا جليا ، وهو يندفع بجميع أشرعته ، فى غير نظام بعينه ، فبدا أشبه بسباق بين السفن الشراعية الضخمة وكانت عدته أربع عشرة بارجة : اثنتان منها (وهما ألكســندر وسويفتشور) تقفوان أثر البوارج الأخرى ، قادمتين من الاسكندرية حيث كانتا تقومان بعمليات للاستطلاع • فى هذه اللحظة فقط أيقن بروى من تصميم نلسن على خوض المعركة فى ذلك المساء نفسه • فأعطى الاشارة باخلاء ظهور السفن استعدادا للقتال ، ورمى الحبــال لاحكام رباط السفن ، ولكن الأمر الثانى لم ينفذ على الوجه الأكمل (*) •

انقلبت كآبة هوراشيو نلسن تهللا وابتهاجا حين أرسل « صموئيل هود » قبطــان السفينة « زيلوس » اشــارة عصر ذلك اليوم تفيد أنه لمح الأسطول الفرنسى ، وأمر نلسن بتقديم الغداء له ولضباطه على البارجة فانجارد • وقال بين الأنخاب ان الغد سيشهده فى مجلس اللوردات ، أو فى كنيسة وستمنستر • ولم يدر بخاطر أحد الموجودين على ظهر السفينة ــ بغض النظر عن نتيجة المعركة

(*) كان الأسطولان متكافئين تقريبا كما لا كيفا • فكان لنلسن أربع عشرة بارجة تحمل ١٫٠١٢ مدفعا ونحو ٨٫٠٠٠ رجل ، وكان لبروى ثلاث عشرة بارجة وأربع فرقاطات تحمل ١٫١٨٢ مدفعا (ينقص بعضها الرجال) ونحو ٨٫٠٠٠ رجل •

بالنسبة للأميرال نلسن ــ أن أحدا منهم لن يكون فى أحد هذين الموضعين ، فهذه فكرة أخبث من أن تطرأ لعقل بريطانى · كان الشعور العام الذى سرى فى الأسطول هو شعور فريق كرة واثق من النصر ، وكان كل فرد فيه ــ من الضباط الى صغار البحارة ــ يعرف بالضبط ما هو مطلوب منه . وقد ظلوا أكثر من شهرين يترقبون الفرصة للقيام به ·

كانت أوامر نلسن لضباطه ذات طابع عام جدا ، يتيح لكل منهم الحرية الكاملة فى تنفيذها ومع أن السفينة زيلوس أبلغت أن عدد البوارج الفرنسية ست عشرة (ولا شك أنها حسبت ثلاث فرقاطات بوارج) ، ومع أن نلسن لم يكن يملك فى تلك اللحظة سوى اثنتى عشرة بارجة ، فقد قرر أن يهجم فورا ، فيركز الهجوم على طليعة الأسطول الفرنسى وقلبه ، فاذا أحرز نصرا جزئيا استطاع أن يهجم على المؤخرة ان أتيحت له الفرصة · وكان قد ناقش جميع الاحتمالات التى تخطر بالبال مع ضباطه فى الأسابيع السابقة ، وكان كل منهم يعرف كيف يتعاون مع اخوانه اذا تطور الموقف ·

وبعد تناول الغداء ، وبينما كانت سفنه يسابق بعضها بعضا على تصدر الهجوم ، اعتكف نلسن فى حجرته ليهدىء التهاب ضرسه المؤلم · وقد قال ذاكرا هذا الحادث فى فيذا بعد ثلاث سنوات « حين رأيتها (أى السفن الفرنسية) لم أستطع منع نفسى من أن أطل برأسى بين الحين والحين من النافذة · (مع أننى كنت أعانى من وجع لعين فى ضرسى) وسمعت مرة وأنا أرقب موقع الأعداء بحارين ملازمين لمدفع على مقربة منى يتكلمان ، فقال أحدهما للآخر ، انظر اليهم لعنهم الله · ها هم هنا يا جاك ، فاذا لم نهزمهم هزمونا » · فعرفت معدن الرجال الذين أقودهم ، ومن ثم مضيت فى الهجوم ببعض السفن فقط ، وأنا واثق كل الثقة بأن السفن الأخرى ستتبعنى فى الهجوم ، مع أن الظلام كان قد أوشك أن يخيم ، فاذا لم تهجم كان لها كل العذر ، غير أنها جميعا وجدت لها فى ظرف ساعتين مكانا تحتله فى المعركة » (١٠) ·

***

دهش بروى قليلا حين أدرك أن نلسن ينوى الهجوم على أسطوله ذلك المساء · كانت كل الأصول المعمول بها تقتضيه أولا أن يستطلع موقع الفرنسيين ثم يصف سفنه فى خط قتال ، وكان هذا خليقا بأن يقلل الأخطار التى يتعرض لها ، ولكنه كان أيضا سيتيح لبروى وقتا للاستعداد · وفى الساعة الخامسة كان بروى ما زال مترددا فى القتال من مراسيه أو لقاء البريطانيين وأشرعته منشورة · والواقع أنه أمر أول الأمر باعداد حيشان القلوع الكبيرة · ولعله كان فى تردده متأثرا باعتلال صحته : فقد ظل أسبوعا يعانى مغصا واسهالا ،

وربما كان مصابا بالدوزنتاريا • ولا نعرف الى الآن على التحقيق أى الأميرالين عوقه المرض أكثر من غريمه ، الذى يشكو وجع الضرس اللعين ، أم الذى يشكو الاسهال • على أية حال لم يقرر برووى القتال من مراسيه الا بعد أن عقد اجتماعا سريعا مع رئيس أركان حربه جانتوم وأميرى البحر بلانكيه وشايلا وفللنيف • وتغلبت حجة جانتوم على رأى بلانكيه الملح بالقتال والسفن ناشرة قلوعها • وحججه تبدو مقنعة : فان ثلاثا من البوارج الفرنسية لم تكد تصلح للملاحة (فقد حكم بعدم صلاحيتها قبل ذلك بثلاثة أعوام) ، وكان الملاحون ناقصى العدد لا يتوفر لهم من الخبرة ما يتيح لهم القيام على المدافع والقلاع فى آن واحد ، أما القتال من المراسى فيسمح لرجال المدفعية أن يركزوا جهودهم على خدمة البطاريات الموجهة للبحر ، أضف الى ذلك أن الأسطول لم يكن فى وسعه ، وهو لا يملك أكثر من زاد يوم واحد ، أن يغامر بعزله عن قاعدته • ولما استقر القوم على هذا الرأى دون حماسة كبيرة ، عاد بلانكيه وفللنيف الى سفينتيهما فرانكلن وجييوم تل • ولم يكتب لأحدهما أن يرى برووى مرة أخرى •

كانت الباخرة زيلوس بقيادة الكابتن هود ، والباخرة جليات بقيادة الكابتن فولى ، فى طليعة السفن المتسابقة حين أصبح الأسطول الانجليزى على مرمى الطليعة الفرنسية • حوالى الساعة ١٥ر٦ مساء • وفى اللحظة الأخيرة سبقت جليات زيلوس ، وكان فى ملاحى زيلوس من الروح الرياضية ما جعلهم يحيون مرورها بهتافات ثلاثة مدوية • وقد أصبح الهتاف ، مظهرا يتخلل المرحلة الأولى فى المعركة فالقى الرعب فى قلوب الفرنسيين الذين كانت محاولاتهم الضعيفة الواهية للرد على هتاف الانجليز تثير بين هؤلاء ضحكات علت حتى سمعها أعداؤهم •

وربما كان انتصار جليات على زيلوس فى سباقهما هذا عاملا حاسما فى تقرير نتيجة المعركة • والواقع أنها كانت فكرة الكابتن فولى أن يمر بسفينته عبر السفينة الفرنسية « جورييه » التى كانت على رأس الخط الفرنسى ، بين الساحل والفرنسيين ، وقد جرؤ على هذا معتمدا على خريطة فرنسية حديثة لخليج أبى قير كانت فى الحقيقة غير دقيقة ، ولو أنه اهتدى بها وحدها دون غريزته لجنحت سفينته •

وبينما كانت جليات تدور حول جوريه ، فتحت البطارية الفرنسية المقامة على جزيرة أبى قير نيرانها ــ دون أن تحدث أثرا ــ فبدأت المعركة ، وكانت الشمس على وشك المغيب : ووقفت على الشاطىء جماعة من البدو ترقب المنظر والرماح فى أيدى رجالها •

وكان فى نية الكابتن فولى أن يلقى مراسيه أمام جورييه ، ولكنه أخطأها ووقف تجاه السفينة الثانية فى خط الفرنسيين وهى « كونكران » ، وتبعه

هود ـ الذى أدهشه أن يرى جليات تعبر المياه الضحلة دون أن تجنح ـ واتخذ موقفه تجاه جوربيه • وتبعهما ثلاث سفن انجليزية أخرى ـ هى « أوريون » و « أوديشس » و « ثيسيوس » ـ ورست أمام السفن الفرنسية فى مؤخرة الخط • أما السفن الباقية ، ابتداء من سفينة نلسن « فانجارد » ، فقد فتحت نيرانها على الطليعة الفرنسية فى البحر •

وبلغ التهور بالفرقاطة الفرنسية « سيريوز » أن تطلق نيرانها على جليات ، ولعلها حسبت نفسها داود أمام العملاق جالوت • وصاح فولى برجاله « أغرقوا هذا الحيوان • ماذا يفعل هنا » (١١) فما لبثت الفرقاطة أن أغرقت بمدافع أوريون وباصابة فى دفتها من جليات ، فكانت أول ضحية فى الأسطول الفرنسى• وظلت رافعة علمها بعد أن استقرت فى المياه الضحلة وسلمت فى الساعة الثالثة صباحا •

وفى خلال الساعة التالية لبدء المعركة كانت من السفن فى السفن الثمانى فى خط القتال الفرنسى تصلى نارا حامية تأتيها على الأقل من سفينتين انجليزيتين وهذا على الرغم من أن السفينة كلودن بقيادة الكابتن تروبردج جنحت فى المياه الضحلة ، والسفينتين « الكسندر وسويفنشور » لم تدخلا المعركة بعد (وأصبحت كلودن نذيرا يحذر غيرها من السفن الى الخطر وهى تدخل المعركة) ، وقد يسر هذه العملية الجبارة رسو السفن الإنجليزية على زوايا من أهدافها مكنتها من اطلاق نيرانها على سفينتين فى آن واحد ، بينما عجزت بعض السفن الفرنسية عن توجيه كلتا بطاريتيها الجانبيتين الى الانجليز يضاف الى ذلك أن الفرنسيين كوموا مقادير من الذخيرة على الجانب الساحلى من سفنهم لأنهم لم يتوقعوا هجوما من ذلك الجانب ، فعرقلوا بذلك عمل بطارياتهم الساحلية : وبينما كان الأسطول الانجليزى يدمر الطليعة الفرنسية ويضرب القلب ، ظلت سفن المؤخرة الفرنسية عاطلة لا تشارك فى المعركة • ذلك أن الأميرال فللنيف الذى كان يقودها لم يتلق أية اشارة بأن ينشر قلوعه ويخف لنجدة السفن الأخرى ، واذ كانت الريح تهب قوية ضده فمن المشكوك فيه أنه كان يستطيع هذه النجدة حتى لو تلقى الأمر بها •

وكان الظلام قد خيم واشتدت الفوضى • كان الدخان يحجب القمر تماما برغم سطوعه : ولم تكد الاشارات الضوئية ترى وسط الوميض المتصل المنبعث من أكثر من ألف مدفع • وكان الفرنسيون والانجليز يطلقون النيران أحيانا على سفنهم ، وخاض عدد من السفن معارك المدفعية مع خصومها على رمية مسدس منها ، وكانت صيحات الجرحى تسمع من سفينة الى سفينة عالية فوق الضجيج، ومختلطة بهتافات المنتصرين حين يصيبون المرمى •

وحدث أثناء الليل ابان المعركة أن ولدت شابة ولدعا على السفينة جليات.

فقد كان هناك نساء على السفن ، أو على السفينة جليات على الأقل ، وان بدا هذا مدهشا • وعلى ذكرى جليات نقول انها كانت تحمل أيضا نحو خمسين جنديا نمساويا (أطلق سراحهم من سفينة سجن فرنسية قرب جنوه) يقومون على البطاريات • ولا يذكر جون نيكول ، وهو صانع براميل كان على جليات وخلف لنا ذكريات عن المعركة ، مولد الصبي فحسب ، بل تفاصيل حية أخرى• فهو يذكر « زوجة المدفعي التي كانت تقدم لي ولزوجها كأسا من النبيذ بين الحين والحين فتخفف بذلك من تعبنا كثيرا » • وذلك الصبي الميت جالسا على صندوق ذخيرة وقد قتله الانفجار ، لا يثب على قدميه اطاعة لأمر المدفعي ليأتيه بمزيد من الخراطيش ، فيدفعه هذا دفعة أوقعته كالحجر على ظهر المركب • وذلك الصبي الذي كان يمسك بيديه الكبريت ليشعل المدفع • وبينما هو يشعله أطاحت قنبلة بذراعه ، فنظر اليها ، ورأى ما أصابها ، ثم أمسك الكبريت بيسراه وأشعل المدفع قبل أن يمضي الى العنبر ليضمد جراحه (١٣) •

وفي الساعة السابعة . عقب غروب الشمس مباشرة ، جرح الأميرال بروى على ظهر السفينة لوريان في رأسه واحدى يديه ، وأبى أن تضمد جراحه واكتفى بمسح الدم بمنديله بين الحين والحين ،. وأبلت لوريان بلاء حسنا ، فما ان وافت الساعة ١٥ر٧ مساء حتى كانت قد عطلت نهائيا السفينة بللروفون التي جرؤت على مهاجمة العملاقة (*) وحدها ، والتي سرعان ما اضطرت الى قطع حبالها والانسحاب من المعركة بخسائر فادحة في الأرواح • وفي الساعة السابعة والنصف مساء مزق مدفع فخذ بروى اليسرى وكاد يشطرها شطرين ، وأبى أن يحمله أحد الى المستشفى ، وطلب أن يترك حيث كان ليموت في مكان الربان • يقول الملازم البحرى لاشنيد : « انه مات بنفس السكينة التي أبداها في المعركة » (١٤) •

وبعد نصف ساعة من موت بروى حلت السفينتان سويفتشور من الخارج ، وألكسندر من الداخل ، محل بللروفون في مهاجمة لوريان • واشتد قصف المدافع ، وفي الساعة الثامنة والنصف مساء أصيب الكابتن كازابيانكا قائد لوريان بجرح في رأسه ، فنزل من سطح السفينة ليضمده ثم عاد الى مكانه ، ومع أن الانجليز كانوا في ذلك الوقت متفوقين بشكل واضح فان نتيجة المعركة لم تكن قد تقررت على الاطلاق • كانت سفينتان من السفن البريطانية الأربع عشرة ـ وهما كلودين وسلليروفون ـ قد تعطلتا • أما الأسطول الفرنسي• فاذا استثنينا الفرقاطات الثلاث الباقية ، وجدنا أن السفن الثلاث عشرة اما مواصلة اطلاق النار ، واما غير مشتبكة في القتال • صحيح أن الكونكران

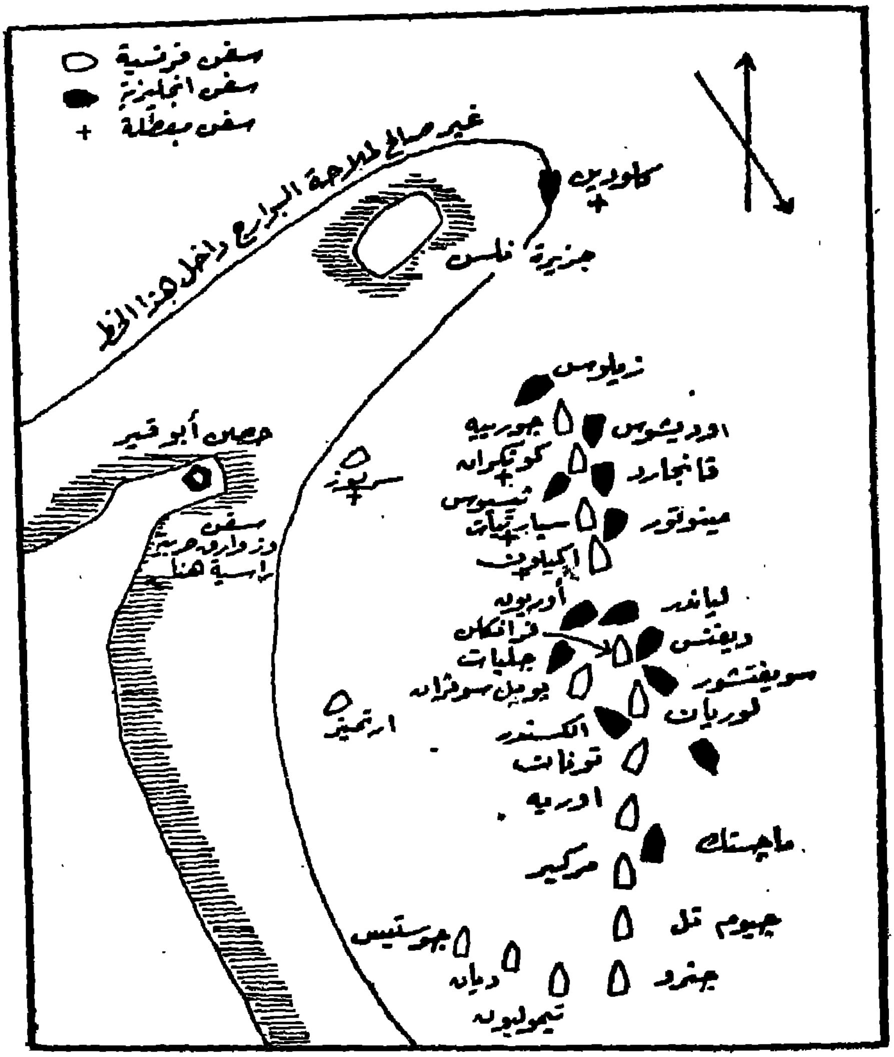
(*) يقول الجبرتي في وصفها ، والقايق الكبير المسمى بنصف الدنيا ، وكان به أموالهم وذخائرهم ، وكان مصفحا بالنحاس الأحمر • جـ ٣ ص ١٥ •

كانت على وشك الاستسلام للأوديشس : اذ مات ١٣٠ من بين ملاحيها الأربعمائة، وجرح ٨٠ أو ٩٠ جراحا خطيرة ولكن الجورييه كانت برغم انتزاع قلوعها تماما لا تزال ترد النيران متجاهلة الكابتن هود قائد زيلوس الذى دعاها عشرين مرة للتسليم · يقول هود : « وأخيرا ، وبعد أن أعيانى اطلاق النار وتقتيل الناس على هذه الصورة ، أرسلت زورقى على سطحها ، وسمح للملازم [الذى حل محل ربانها الجريح] أن يرفع ضوءا ويخفضه علامة على التسليم » (١٥) وحتى بعد أن سلمت الكونكران والجورييه ظل الفريقان متكافئين فى العدد ــ احدى عشرة بارجة وثلاث فرقاطات للفرنسيين ، واثنتا عشرة بارجة للبريطانيين · وكان بروى قد قتل ، ولكن نلسن أيضا كان يعانى من جرح فى رأسه ، وكان من الناحية العملية معطلا · ولو استطاع فللنيف أن يدخل المعركة ، لكان من الجائز حتى فى تلك المرحلة أن يتعادل الفريقان فى نتيجة المعركة ، ان لم يتفوق الفرنسيون ·

وفى الساعة التاسعة والنصف مساء شبت النيران على ظهر البارجة لوريان ، وقد أخمدت بسهولة كما خيل للقوم وقتها · ولكن ما ان مضت ربع ساعة حتى اندلعت النيران ثانية ، وما هى الا دقائق حتى اجتاحت سطح البارجة كله · يقول الملازم البحرى لاشتيد : « ودعونا رجال البطارية ذات المدافع زنة ٢٤ رطلا للصعود ، ولكن كل شىء تضافر فى تلك اللحظة على زيادة الفوضى فقد تبين أن المضخة مكسورة : وكانت البلط مختفية تحت تلال من الأنقاض ، أما الجرادل التى وضعناها على مقدمة السفينة فكانت مبعثرة فى المكان كله ، واضطررنا الى جلب عدد آخر منها من العنابر ، وأحاطت بنا خمس سفن تقذفنا بنيرانها بقوة مضاعفة (*) وبعد جهود جبارة عقيمة تركنا سطح المركب الذى كانت تغطيه الجثث المشتعلة وتطاير القلع الكبير وصارى المؤخر وشراعه صوب الميناء ··· وكانت السفينة تشتعل مقدمتها ومؤخرتها ، وأخذ اللهب يصل الى بطارية المدافع ذات ال ٢٤ رطلا ، ومع ذلك بدا رجال بطارية المدافع ال ٣٦ رطلا وكأنهم لا يحسون الخطر ، **واستمروا يطلقون النار بقوة** (١٦) ·

كان التلميذ البحرى « تيوفيلس لى » العامل على السفينة سويفتشور ، فى العاشرة من عمره وقتها · فلا عجب أن ظلت ذكرى هذه الليلة حية فى خياله · كتب بعدها بسنوات كثيرة يقول « كان وميض المدافع الكثيرة الذى لا ينقطع ، والمنبعث فى نفس اللحظة تقريبا ، واضحا فى بعض الأحيان وضوحا لم يمكن كل فريق من أن يتبين أعلام المحاربين فحسب ، بل ماأحدثته المعركة فيهم من آثار فتاكة (١٧) ·

(*) ربما كانت هذه السفن الخمس هى سايفتشور والكسندر وديفنس وجوليات وليادندر · وقد ركز الانجليز جهودهم على لوريان بمجرد أن شبت النار فيها ·



معركة أبو قير

ومع أن تيوفيلس لى قد احتفظ بصورة لا تمحى لمنظر المعركة العام ، فان ذاكرته اختلطت عليها التفاصيل بطبيعة الحال • من ذلك أنه يقول ان الأميرال بروى كان لايزال حيا • « كان بروى الباسل ، بعد أن فقد كلتا ساقيه، جالسا — وقد ركبت ضاغطة الشرايين على احدى فخذيه — فى كرسى بمسندين مواجها أعداءه • يصدر تعليماته لاخماد النار ، واذا قنبلة مدفع أطلقتها سويفتشور تنهى حياته الباسلة بشطر جسده شطرين تقريبا (١٨) • ولا يمكن أن يكون لى قد شهد هذا المنظر حتى لو وقع ، ولعل الأمر اختلط عليه فحسب أن بروى هو الذى مات بدلا من الكابتن تيفنار ربان السفينة « أكيلون » ، الذى أطاحت قذيفة بساقه فمات لفوره تقريبا ، أو الكابتن « دوبتى — توار » ربان السفينة تونان • أما أكيلون التى كانت تحمل ٨٧ من القتلى و ٢١٥ من الجرحى ، فقد استسلمت للبارجة « مينوتور » فى الساعة ٩ر٤٥ مساء ، وقطعت السفينة تونان ، التى ماتزال تطلق نيرانها حبالها حوالى ذلك الوقت تجنبا لوصول النار اليها من بقايا السفينة لوريان المشتعلة والتى كانت تتقدمها مباشرة ، أما الكابتن دوبتى — توار فكان ما يزال يسيطر على السفينة وان تطايرت أطرافه فلم يكد يبقى منه غير مؤخرته •

كذلك استطاع الكابتن مللر ربان السفينة تيسيوس أن يرقب النيران المشتعلة فى لوريان عن كثب ، وهو لا يشارك اعجاب التلميذ البحرى لى ببسالة الفرنسيين • فقد كتب يقول انه مع أن السفينة المحترقة لوريان كان منظرها غاية فى الروعة والرهبة ، وهو منظر كان خليقا فى الماضى بأن يستدر دمع الظافر ، فان الشفقة خنقها تذكر الوقائع الرهيبة الكثيرة التى قارفها وتقارفها أمتهم عديمة المبادىء المتعطشة للدماء (١٩) • وهكذا تغلبت المبادىء البريطانية فى الكابتن مللر على الروح الرياضية البريطانية •

ووسط هذا الجحيم اجتمع الأميرال جانتوم مع ضباط البارجة لوريان ليقرروا ماهم صانعون • واستقر رأيهم على أن النار لم يعد فى الاستطاعة كبحها ، وكل ما يمكن عمله هو محاولة اغراق مخزن البارود بالماء ، ولكن تبين أن هذا مستحيل ، فقد كانت النيران أقوى وأسرع من الماء •

وما ان وافت الساعة العاشرة حتى صدر الأمر باخلاء السفينة ، ومن تلك اللحظة بات كل من عليها يحاول النجاة بجلده •

واستطاع نحو مائة رجل أن يحشروا أنفسهم فى الزورق وينطلقوا به • وترك الجرحى طعمة للنيران • وحاول مائتان آخرون النجاة سباحة ، أو بالتشبث بالأنقاض القائمة حول السفينة اذا لم يستطيعوا السباحة • والتقطت السفن الفرنسية بعضا ، والانجليزية بعضا آخر ، وسبح الملازم الأول برتللو بعيدا عن السفينة ولكنه راجع نفسه فعاد الى السفينة المشتعلة ، ثم أمسك فبعته

فى يده وعاد يسبح من جديد · فلما ظهر على سطح السفينة سويفتشور وهو عار تماما ولكنه يستر نفسه ، دهش الكابتن « هالوويل » وسأله « بحق الشيطان من تكون ؟ » وذكر برتللو اسمه ، وتبين أنه عاد ليأتى بقبعته حتى يثبت أنه ضابط : وما من شىء يعدل حضور الذهن فى الظروف الشاذة والتقطت السفينة ألكسندر ٢٨ رجلا كلهم عراة وصرفت لهم ٢٨ قميصا ، و ٢٨ زوجا من السراويل » ·

ترى أين كان فى هذه الدقائق الحاسمة ذلك الصبى الواقف على سطح السفينة المشتعل ، البالغ من العمر تسعة أعوام أو عشرة ، وأين كان أبوه الكابتن كازابيانكا ! أما مسز « هيمانز » فلا تجيب عن هذا السؤال فى قصيدتها المشوشة ، وليس هناك ما يبرر الظن بأنها كانت تعرف الجواب · ويقول تيوفليس لى ، وهو فى نفس عمر التلميذ البحرى كازابيانكا تقريبا ، ان الغلام كان فى المستشفى تحت سطح السفينة ، لأن احدى ساقيه طاحت · ويقول غيره ان الصبى وأباه حاولا النجاة سباحة وأنهما غرقا · أو لعلهما كانا ما يزالان على السفينة لوريان حين انفجرت ، فهل كانا معا ؟ أم يبحث الواحد عن الآخر ؟ من يدرى ؟ أما بونابرت - وهو بطبعه مولع بالخيال المسرحى - فيؤكد فى تقريره أن الصبى كازبيانكا أبى أن يترك السفينة وظل الى جوار أبيه حتى النهاية · ولكن الشىء الوحيد الذى لاشك فيه هو أن أحدا لم ير بعد ذلك لأى منهما أثرا ·

أما الانفجار فقد وقع حوالى الساعة العاشرة والربع مساء ، ولا تتفق روايتان على وقت وقوعه بالضبط · وشعر الناس بهزة فى نطاق نصف قطر يبلغ ٢٥ ميلا ، وأضاء وميضه الاسكندرية ورشيد · وتطايرت فى الجو أجزاء برمتها من السفينة - صواريها وعوارضها وحبالها - مختلطة بالأجساد ، ثم تساقطت والنار تشتعل فيها · وتلا الانفجار سكون فجائى : وكفت المدافع كلها ، البريطانية والفرنسية ، عن اطلاق نيرانها عشر دقائق على الأقل · وحاول ملاحو السفينة تيسيوس الهتاف ، ولكن حلوقهم غصت به · واذ غاص هيكل لوريان الى قاع البحر جذب معه الرجال الذين كانوا لا يزالون فى الماء ، وطفا نحو ستين منهم ووجدوا أشياء عائمة يتعلقون بها ، واستمروا متشبثين بها حتى مطلع الفجر طوال ساعات خمس ، وقتل عدد منهم بقذائف المدافع التى أطلقتها سفن المؤخرة الفرنسية ·

وغرق مع لوريان تماثيل القديسين الذهبية والفضية وصناديق الآثار المقدسة المرصعة بالجواهر ، والتى سبق أن صادرها الفرنسيون من كنيسة القديس يوحنا الأورشليمى بمالطة ·

ولم تكن علة السكون الرهيب الذى تلا الانفجار الدهشة فحسب ، بل أهم منها خوف السفن الانجليزية والفرنسية من أن تحرقها الأنقاض المشتعلة ،

يضـــاف الى هـــذا أن الرجال ظلوا يقاتلون أربع ساعات ، ففى فترة السكون استلقوا حيثما كانوا واستسلموا للنوم •

وكانت مدافع السفينة فرانكلن هى التى أيقظتهم ، فهى أول الســـفن التى استأنفت اطلاق النيران ، وكان الأميرال بلانكيه دوشايلا ــ الذى كانت هى سفينته الرئيسية ــ قد جرح فى رأسه فى الساعة الثامنة ، وفى الساعة التاسعة والنصف أصيب ربانها أيضا بجراح خطيرة • يقول بلانكيه فى تقريره انها حين استأنفت اطلاق نيرانها كانت قد فقــدت صاريين من صـــواريها ، وأسقطت جميع المدافع على سطحها الكبير ، « فقد قتل أو جرح ثلثا بحارتها ، وبلغ الاعياء بالباقين غايته • وأحاطت بها سفن الأعداء التى كانت بعضها قاب قوسين منها ، فحصدوا الرجال بمدافعهم المنطلقة من كل صوب (٢٠) •

وواصلت فرانكلن نضالها ساعة على هذه الحال ، وفى الساعة الحادية عشرة والنصف مساء استسلمت ، أما السفينة « سبارتيات » فانها لم تستسلم للفانجارد الا فى الساعة الحادية عشرة ، مع أن هيكلها خرقته القذائف ، وقتل أو جرح نصف رجالها ، وكان معظم الباقين يشغلون المضخات • وأما السفينة « يوبل سوفران » التى نزعت قلوعها تماما حوالى الساعة التاسعة ، فقد حلت حبالها من مرساها حوالى الساعة العاشرة والربع مساء ، وكفت عن اطلاق النار فى الساعة الحـــادية عشرة مساء ، واعتلى ظهـــرها ضباط من الســـفينة « أوريون » فى الساعة الرابعة والنصف صباحا •

أما السفينة تونان فقد حلت حبالها قبل أن تنفجر لوريان بقليل لتتقى اشتعال النار فيها • وكان الكابتن دوبتى ــ توار ما يزال فى مكانه ــ فيما تقول بعض الروايات ــ وقد طاحت ذراعـــاه واحـــدى ساقيه ، وان بدا هـــذا يعيد الاحتمال • وكان هذا الرجل الذى أغرته بحياة البحر قراءته لقصة روبنسن كروزو فى طفولته ، قد حارب (كما حارب بروى) تحت قيـــادة « دوجراس » فى الثـــورة الأمريكية ، وهاجر الى الولايات المتحدة أثنـــاء حكم الارهـــاب فى فرنسا ، وعاود لتوه عمله فى البحرية فى عهد حكومة الادارة • وتؤيد ملامح وجهه الحساسة ، الأرستقراطية الذكية ، رأى معاصريه فى أنه من أكفأ ضباط البحرية الفرنسية وأكثرهم وعدا • وفيما كانت مدافع سفينته لاتزال تطلق نيرانها فى احدى ساعات الليل واذ رأى أنه ينزف دما كثيرا برغم الضاغطتين المركبتين على فخذيه ، قال الملازم « لعلى أفقد رأسى أيضا مع دمى فأسىء التصرف وأنا فى القيادة لقد آن الأوان للتخلى عنها (٢١) • وما أن قال هذا حتى ألهب دماغه بطلقة مسدسه•وظلت تونان تطلق مدافعها حتى الساعة الثالثة والنصف صباحا • ولم تسلم الا فى ساعة متأخرة من ٢ أغسطس بعد أن قتل من رجالها ١٢٠ وجرح ١٥٠ • وكانت وقت موت دوبتى ــ توار قد امتلأت بأشلاء القتلى والجرحى •

وكان المواطن بوسييلج ، المراقب العام لمالية جيش الشرق ، ساهرا طوال تلك الليلة مع معظم الفرنسيين الآخرين فى رشيد على نحو ٢٥ ميلا ، يرقب المعركة من أحد الأبراج ، وبالطبع لم يستطع أن يعرف من هذا البعد أى المراكب فرنسى وأيها بريطانى • وراعه انفجار لوريان الرهيب ، وهو يؤيد فى خطاب لزوجته واقعة الدقائق العشر التالية التى سادها السكون (وهى تكاد تكون الشيء الوحيد فى المعركة الذى أجمع عليه كل الشهود) ، ويقول : ان الذى حدث بعد هذه الوقفة ذات الدلالة « أن اطلاق القذائف استؤنف واستمر دون انقطاع الى الساعة الثالثة صباحا ، حين توقف توقفا تاما تقريبا حتى الخامسة ، ثم استمر بنفس الشدة السابقة » (٢٢) •

ويقول بوسبيلج انه فى نحو الساعة الثامنة صباحا ، وقع انفجار آخر شبيه بانفجار لوريان ولا بد أنه كان صادرا عن الفرقاطة أرتميز التى جنحت الى الشاطيء وأمر ربانها باحراقها • على أن تأكيد بوسيبلج بأن اطلاق النار فى صبيحة ٢ أغسطس كان بنفس الشدة السابقة خلال الليل لايمكن تصديقه وان لم ينقطع اطلاقها بالطبع ، ولعله كان قد غلبه النعاس فاختلط عليه الأمر • والواقع أنه حين أشرقت شمس ذلك اليوم كانت ست بوارج فرنسية قد سلمت ، أما السابعة ــ لوريان ــ فأصبحت فى خبر كان ، وأما تونان وأورو ومركير فكانت لا تزال ترفع أعلامها ولكنها كفت عن اطلاق النار وأكرهت على أن تجنح أو ألزمت الشاطيء ، وكذلك كانت حال تيموليون ، وهي آخر سفينة فى خط القتال الفرنسى وقد أحرقها ملاحوها فى ٣ أغسطس (*) ولم يبق من السفن الفرنسية ما نجا من التدمير وظل قادرا على اطلاق النار سوى سفينة فللنيف جيوم تل ، والبارجة جنرو ، والفرقاطتين ديان وجوستيس • أما الانجليز فمع أنهم لم يفقدوا سفينة واحدة ، الا أنهم دقوا دقا عنيفا ، لا سيما السفينتين بللورفون وماجستك اللتين منيتا بأفدح الخسائر ، ولا يمكن أن يكون القتال الذى دار بين هذه الفلول قريبا فى شدته من معركة الليل •

يقول نابليون ،وفى قوله شيء من عدم الانصاف ،انه فى الساعة الثانية : من بعد ظهر ٢ أغسطس فقط « بدا أن الأميرال فللنيف قد لاحظ أن هناك معركة تدور فى الساعة الثانية عشرة الأخيرة » (٢٣) • وقد قطع فللنيف حباله حوالى ذلك الوقت بعد أن أخذ فريقا من بحارة السفن المتروكة ، وأقلع من مكان المعركة تتبعه جنرو والفرقاطتان الباقيتان على قيد الحياة • وبذل الانجليز محاولة غير جدية لمطاردته ، ولكنهم سرعان ما أقلعوا عنها ، لأنهم كانوا

(*) ذكر المؤلف ٣ يوليو ومن الواضح أن صحتها ٣ أغسطس وقد أعطينا أنفسنا الحرية فى تصحيح ذلك فى النص المترجم (المترجم) •

قد أصابهم من الضرب والدق أكثر كثيرا مما أصاب هذه السفن الأربع التى لم تشارك فى المعركة الا بنصيب ضئيل ٠

وفى رأى نابليون أن « الفضل فى انتصار نلسن راجع الى خرق ربانى السفينتين جورييه وكونكران واهمالهما ، والحادث الذى وقع للسفينة لوريان ، وسوء تصرف الأميرال فللنيف ٠٠٠ وكان فى استطاعة فللنيف أن يحول المعركة الى نصر للفرنسيين حتى فى فجر اليوم التالى » (٢٤) ٠ ومن الصعب الحكم على الكابتن ترولليه (الكبير) والكابتن والباراد بالخرق والاهمال أو بعدمهما ، وما من شك فى أن حريق لوريان كان الحادث الحاسم النهائى فى المعركة ، ومن العسير تفسير عدم مبادرة الأميرال فللينيف بالعمل ولكن العجيب أن ينتظر بونابرت عشرين عاما قبل أن يلوم الأميرال على خسارة المعركة ٠ فليس فى تقريره الذى كتبه للادارة فى ١٣ أغسطس ١٧٩٨ كلمة لوم واحدة موجهة ضد فللنيف ، بل انه طلب فى كتاب مؤرخ ١٧ أغسطس الى الجنرال شابو ، قائد القوات الفرنسية فى كورفو ، أن يبلغ تهانيه لفللنيف على احتفاظه بحيـاته وبسفينتين ممتازتين ٠ فلو كان فللنيف بهذا العجز الذى صوره نابليون فى تأريخه للحملة المصرية فلم أمره فى سـنة ١٨٠٥ على الأسـطول الذى دمره نلسن فى طرف الغار ؟ ٠

عقب بونابرت على موت بروى حين أبلغ نبأ الكارثة الى حلت بالأسطول الفرنسى فى أبى قير بقوله « لقد أحسن صنعا اذ مات » (٢٥) ٠ ولما أملى تقريره للادارة ، وهـو التقرير الذى سود فيه ذكـرى بروى ، أتبعه بخطاب عزاء لأرملته « زوجة صديقى » (٢٦) ٠ ولم يكن من شيمة نابليون أن يحترم انسانا غيره ، غالبا كان أو مغلوبا ٠ فالدوق ولنجتون – فى رأيه – قد ارتكب فى ووترلو كل حماقة تخطر بالبال ، ولم يكسب المعركة الا لأن الجنرال جروشى كان أكثر حمقا وتخبطا ، أما معركة أبى قير فان « سلوك نلسن فيها ٠٠ لا يمكن اعتباره مثلا أعلى ، ولكنه هو والبحارة الانجليز أظهروا قصارى ما يمكن من المهارة والجهد ، فى حين أبدى نصف الأسطول الفرنسى ما يعدل هذه المهارة والجهد عجزا وجبنا » (٢٧) ٠

على أن هـؤلاء الضباط والبحارة الجبناء قتـل منهم فى المعركة أميرال وثلاثة ربابنة و ١٧٠٠ بحار ، وجرح أميرال آخر وستة ربابنة و ١٥٠٠ بحار ٠ ولم ينقد ضابط بحرى انجليزى بروى وضباطه بهذه الطرق التى نقدهم بها بونابرت ٠ ولكن السفن الانجليزية والضباط والملاحين الانجليز كانوا خيرا من سفن الفرنسيين وضباطهم وملاحيهم ، فلم يكن بهم حاجة الى الغض من ذكاء العدو أو شجاعته ليثبتوا هذه الحقيقة لأنفسهم ٠

٣

جرح الأميرال نلسن فى أوائل المعركة قبل أن تشتعل النيران فى البارجة لوريان • ذلك أن شظية من قذيفة أطلقها « سبارتيارت » عرت جمجمته فوق عينه العمياء بأكثر من بوصة ، وسقط جفنه على عينه المبصرة ، وظل برهة فاقد البصر تماما • ولا ريب فى أنه كان أيضا يعانى من ارتجاج شديد ، وقد كتب بعد المعركة بأسبوعين الى اللورد سانت فنسنت يقول « ان فى رأسى من الاضطراب والتشويش ما يجعلنى فى الواقع لا أعرف ماذا أصنع » (٢٨) •

وظن نلسن أول الأمر أنه جرح جرحا مميتا فقال « لقد قتلت ! سلموا لى على زوجتى » (٢٩) • ولما قادوه الى حجرة الجراحة فى عنبر السفينة ــ وكانت غاصة بالجرحى ــ ، أصر على أن ينتظر دوره • وما أن رد اليه بصره حتى أمر سكرتيره بأن يكتب الرسالة التى سيمليها عليه • واذا كان سكرتيره ، مستر كامبل ، مهزوزا لا يقوى على أن يصدع بالأمر ، وكذلك كان قسيس السفينة . فقد كتب الأميرال بنفسه السطور الأولى من النشرة التى تعلن انتصاره • « لقد بارك العلى القدير جيــوش جلالة الملك فى المعركــة الأخيرة » (٣٠) • ويصعب علينا أن نتبين بأى لقانة استطاع نلسن أن يعرف فى تلك المرحلة من المعركة أنه عقد له فيها النصر ، وأصعب من ذلك أن نتبين العلاقة بين العلى القدير وتمزيق ٤٫٠٠٠ جثة آدمية ، فيها الرجال والغلمان ، بقنابل المدافع والقذائف المزدوجة والنيران •

ولما فرزت الحطام والجثث فى الغد تبين أن النصر وان كان تاما تقريبا الا أنه كان غالى الثمن • وقد ألقى الكابتن باريه ، الذى صعد الى ظهر فانجارد فى ٣ أغسطس ليرقب عودة الأسرى الفرنسيين ، نظرة فاحصة على المراكب البريطانية • فوجد ثلاثة منها قد انتزعت بعض قلوعها ، واثنتين تعطلتا مؤقتا • أما الخسائر فى أرواح البريطانيين فهى وان كانت دون خسائر الفرنسيين الا أنها بلغت ٢١٨ قتيلا و ٦٧٧ جريحا ، نصفهم تقريبا على البوارج فانجارد •• وبللروفون • وقد صعد جون نكول وهو أحد رجال السفينة سويفتشور وبحار قديم عرك الحرب ولم تكن أهوالها بالأمر الجديد عليه ، بعد المعركــة ليلقى نظرة • • فوجد المشهد رهيبا ••• فقد كان الخليج كله مغطى بجثث ميتة ، ممزقة ، مجرحة ، محرقة لا تكسوها قطعة من ثياب فيما عدا السراويل (٣١) •

وفى الساعة الثانية من بعد ظهر ٢ أغسطس قدم الشكر لله على هذا كله على ظهر البارجة فانجارد وغيرهــا من السفن الانجليزية • وفى العصر دفن الانجليز موتاهم فى جزيرة أبى قير التى جلا الفرنسيون عنها ، وهى تعرف

اليوم بجزيرة نلسن • ومن المدفونين احدى المرأتين اللتين كانتا على البارجة جليات ، والتى قضت نحبها متأثرة بجراحها •

وأسر الانجليز نحو ٣٫٢٠٠ أسير أكثرهم مجروحون • يقول جون نيكول هناك شيء واحد لاحظته فى هؤلاء الفرنسيين يختلف عن أى شيء لاحظته من قبل • ففى الحرب الأمريكية حين كنا نأسر سفينة فرنسية ••• كان الأسرى مرحين كأنهم هم الآسرون ، لا يقولون الا « هذا حظ الحرب أنت تأخذنى اليوم أسيرا وأنا آخذك غدا » أما الأسرى الذين كانوا على سفننا فقد شكرونا على لطفنا ، ولكنهم كانوا مكتئبين محزونين كأن كلا منهم فقد سفينة يملكها (٣٢) •

وكان اطعام الأسرى والعناية بالجرحى فوق طاقة الأميرال نلسن ، فلم تمض أيام حتى أعيدوا جميعا الى الشاطىء فيما خلا ٢٠٠ ضابط واخصائى • وقد خلق هؤلاء الرجال المشاغبون ، غير المدربين ، للجنرال كليبر فى الاسكندرية فيما بعد مشكلة عويصة الى أن نظمهم بونابرت فى « فيلق بحرى » • وتبين بعد ذلك أن الفيلق لم يكن له نفع كبير ، لأن حكومة الادارة لم ترسل لبونابرت أى سفن تحل محل السفن التى خسرها (*) •

وفى الأيام التالية للمعركة ساور قواد الحملة الفرنسيين قلق غير قليل كما تدل على ذلك رسائل كليبر ومينو الى بونابرت والى أحدهما الآخر — اذ خشوا أن يتبعها الانجليز باقتحام مينائى الاسكندرية ورشيد • ولو استطاع نلسن دخول الاسكندرية ، والاستيلاء على الناقلات الفرنسية فى الميناء ، وربما القضاء على الحامية الفرنسية بمساعدة الأعراب ، لكان انتصاره ساحقا حقا • ولكن يبدو أن كليبر ومينو لم يكن لديهما فكرة عن مدى ضعف البريطانيين ، وأن نلسن لم يكن لديه فكرة عن مدى ضعف وسائل الدفاع الفرنسية (**) وكان هم الأميرال الانجليزى الأول أن يرمم سفنه (مستخدما فى ذلك بعض حطام السفن الفرنسية الميؤوس منها) ، ويقرر أى السفن الفرنسية يسضب غنيمة حرب وأيها يدمر • وفى ٦ أغسطس أرسل السفينة الانجليزية « لياندر » حاملة رسالة الانتصار الى وطنه ، وأرسل نسخة من الرسالة الى نابلى تحملها السفينة موتين • وبما أن لياندر وقعت أمام كريت فى قبضة الجنرو ، وهى احدى السفينتين اللتين أفلحتا فى الهروب من خليج أبى قير ، فان أوربا سمعت بانتصار نلسن أول ما سمعت عن طريق نابلى •

(*) أطلق الانجليز جميع الأسرى بعد أن قطعوا العهد على أنفسهم بعدم محاربة الانجليز ولما أمسكوا ثلاثة منهم على ظهر سفينة فرنسية ، أمر الكومودور هود برميهم بالرصاص آسفا • ويلاحظ أن وعد الشرف لم يحرم على البحارة الذين أطلق سراحهم قتال أعداء غير الانجليز •

(**) أفسد الشيخ المسيرى محاولة نلسن اثارة أهالى الاسكندرية على الفرنسيين ، فقد انهى خطة خطاب نلسن وخطابه لأعيان الاسكندرية الى الجنرال كليبر •

وفى ١٧ أغسطس أرســل نلسن الربان الأول السر جيمس سومارين الى جبل طارق بسبع من سفنه وبالسفن الفرنسية الست التى غنمها (*) . أما هو نفسه فقد مضى فى ١٩ أغسطس بفانجارد وكولودين والكســندر الى نابلى تنفيذا لأوامر اللورد سانت فنسنت ، ثم ترك لحصار الساحل المصرى السفن زيلوس وسويفنشور وجليات ، وثلاث فرقاطات انضمت اليه متأخرة بعض الشيء ، لأنها وصلت بعد المعركة بعدة أيام . واستطاع هذا الأسطول الصغير ، الذى ظل يجوب البحر بين دمياط والاسكندرية تحت قيادة الكومودور هود ، أن يقطع كل اتصال بين جيش بونابرت والعالم الخارجى بصورة فعالة .

***

ظل شاطىء أبى قير كله عدة ليال عقب المعركة مضاء بالنيران التى أشعلها البدو احتفالا بنصر لم يبذلوا فيه أى جهد ، على أن هذه النيران لم تكن شيئا مذكورا اذا قيست بالفرحة التى تفجرت حين عرف الخبر فى نابلى ولندن . وكان نلسن ما يزال فى البحر حين كتبت اليه ليدى هاملتن من نابلى تقول ، لو كنت ملكة انجلترا لرفعتك الى رتبة الدوق نلسن ، صاحب القدرة والشرف الرفيع ، ومركيز النيل ، وايرل الاسكندرية ، وفايكونت الأهرام ، وبارون التمســاح وأمير النصــر ، حتى تراك الأجيال القــادمة فى جميع الصــور والأشكال (٣٣) : على أنه لم يرق فعلا الا الى رتبة البارونية ، فأصبح اللورد نلسن ، لورد النيل وبرنم تورب ، وكوفىء بمعاش لمدى الحياة قدره ٢٠٠٠جنيه فى السنة . وأغدق عليه الملوك الأجانب ألقاب الشرف ، وأرسل اليه السلطان سليم الثالث « ريشة الانتصار » ، وهى شيء رهيب مرصع بالماس يدور مركزه بعدة ساعة ، وكان نلسن يضعها فى قبعته ـ وهو شيء يأبى المرء أن يصدقه .

ولما وصل نلسن الى نابلى فى ٢٢ سبتمبر « جن السكان فرحا » على حد قوله . وكانت انفعالات الملكة مارى كارولين صارخة : « فقد غشى عليها ، وبكت ، وقبلت زوجها ، وأخذ أطفالها يسيرون فى أنحاء القاعة هائجين ، ثم عاودت البكاء ، وقبلت وعانقت كل شخص على مقربة منها وهى تقول أيهــا الشجاع نلسن ! بارك الله فيك وحمى منقذنا الباسل «!» أما ليدى هاملتن ، فقد سقطت مغشيا عليها كأنها فارقت الحياة ، ولم تتماثل تماما من رضوضها الشديدة . أما الملك فرديناند نفسه ـ وهو رجل له وجه (وعقلية) ريفى أبله ثرى ، يحترمه نلسن رغم ذلك كما كان يحترم جميع الملوك ـ فقد أخذ

(*) وهى بويل سوفران ، وكونكران ، وسبارتيات ، واكيلون ، وفرانكلن ، وتونان . ويلاحظ ان السفينتين الأوليين اللتين رأى نلسن أنهما جديرتان بالترميم كانت وزارة البحرية الفرنسية قد حكمت بعدم صلاحيتهما للعمل قبل ذلك بعامين .

يده وهو يدعوه · منقذه وحافظه (٣٤) · ومهما تكن متانة خلق البطل ، فان مجدا كهذا يحظى به فجأة ــ وعن جدارة بالطبع ــ يدير رأسه بسهولة . ومع ذلك فان الأميرال نلسن يكفر عن غروره بعبارة تعرب فى كلمتين بسيطتين عن الجانب النبيل الشعرى من تصيد المجد · فقد كتب لفانى نلسن يقول ان من واجبها أن تذهب الى البلاط اذا رقاه الملك جورج الى اللوردية دون أن تعبأ بالنفقات ، لأن « المال نفاية » (٣٥) ·

وقد يبدو المال فى عين البطل الظافر نفاية لا وزن لها بالقياس الى الثناء والتملق ــ ولكنه فى الغالب أقل افسادا لنفسه · وذلك أن نلسن ، الذى ثمل بهذا الدور الجديد الذى لعبه ، سرعان ما أصبح شؤما على الملك الذى وصفه « بالمنقذ والحافظ ·ولا ريب فى أنه كان مؤمنا بأنه يخدم انجلترة ، والانسانية . والاله القدير ، بتحريضه بلاط نابلى على تجريد جيش ضد الجيش الفرنسى الموجود فى الولايات البابوية ، ولكن الواقع أنه لم يكسب من وراء ذلك الا تلويث صفحة مجده لأنه جعل نفسه آلة فى يد « الشلة » التى ترأسها الملكة وليدى هاملتن ، أضف الى ذلك أنه أثبت أنه سياسى ردىء . وحكم أردأ على الشئون الحربية فما ان وافى ٢٢ نوفمبر حتى كان جيش نابلى الذى يقوده المشير ماك (الذى استعير على النمسا) قد استولى على روما ، وبعد أسبوعين استرد الفرنسيون بقيادة الجنرال شامبيونيه روما وتقدموا فى زحفهم جنوبا صوب نابلى · وفى ٢٣ ديسمبر التجأت الأسرة المالكة ، وآل هاملتن ، والسير جون آكتن ، وكل بطانتهم ، الى سفن نلسن التى أقلتهم بأقصى سرعة الى بلرمو ولم يحتفظ بهدوئه من هؤلاء اللاجئين سوى الملك فرديناند ، فقد خطر له أن صقلية ستتيح له فرصا ذهبية للصيد والقنص · وفتنته الفكرة حتى لقد طلب الى نلسن أن يرسل ناقلة لتعود الى الشاطىء فتأتيه بمزيد من الكلاب وبنادق الصيد · فى هذا اليوم دخل الفرنسيون نابلى ، وفى عشية عيد الميلاد أعلنت الجمهورية فى المملكة ، ولم يبق لملك الصقليتين غير جزيرة صقلية ·

٤

أبلغ بونابرت نبأ كارثة أبى قير فى ١٣ أغسطس قرب الصالحية ، وهى بلدة تقع على طرف صحراء سيناء،ذهب اليها مطاردا ابراهيم بك وكان ابراهيم وأتباعه قد هربوا الى سوريا ، فاتخذ بونابرت طريقه قافلا الى القاهرة بعد أن ترك لقواده مهمة احتلال الأقاليم الشمالية الشرقية ·

وتختلف الروايات التى تصف انفعال بونابرت بهذا النبأ لأول وهلة ولا يهمنا أيها أصح لأنه لم يكن بالرجل الذى يفصح عن مشاعره الحقيقية فى مثل هذه المناسبات ان كان له مشاعر ، وكان يكتفى بالتمثيل محتفظا

بأفكاره لنفسه . روى فى تاريخه للحملة أنه قال لضباطه « حسنا » أيها السادة ، اننا الآن مكرهون على أن نأتى بجلائل الأعمال : وسنأتى بها . يجب أن ننشىء امبراطورية عظيمة ، وسننشئها . ان البحر الذى لم نعد سادة عليه يفصلنا عن أرض الوطن ، ولكن ليس هناك بحر يفصلنا عن أفريقيا أو آسيا ، وعددنا كبير ، ولدينا من الرجال ما يكفى نواة لجيوشنا . ونحن لا نعانى نقصا فى الذخيرة ، واذا اقتضى الأمر صنع لنا شامبى وكونتيه المزيد منها » (٣٦) . ثم ذكر أن هذا الخطاب كهرب رجاله ، فكفوا عن التذمر والشكوى .

ولا ريب فى أن هذا فى جوهره ما قاله لهم ، وكان هو الشىء الصواب الذى يجب قوله ، وان لم يكن صدقا أن الرجال كفوا عن التذمر والشكوى . ولكن يخيل لنا أنه فى قرارة نفسه لم ير فى تدمير أسطوله أول الأمر تحولا خطيرا فى الأحداث .

ولم يكن موقفه ميئوسا منه بالقدر الذى حسب أعداؤه ورآه المؤرخون من بعده . كتب نلسن للسر وليم هاملتن يقول عن قوات بونابرت : « ان هذا الجيش فى مأزق حرج ، ولن ينجو منه ، ولكنه كان مخطئا ، أولا لأن بونابرت لم يفقد ناقلاته التى لا تزال فى الاسكندرية ، وكل ما خسره هو احدى عشرة بارجة ، كانت ثلاث منها على وشك الاحالة الى الاستيداع . ولم تمض شهور قليلة حتى راح أسطول الأطلنطى الفرنسى يمخر عباب البحر المتوسط . فاذا أضيف اليه الأسطول الأسبانى هناك ، كان قوة عددية تفوق الأسطول البريطانى ، أما أن الأسطولين كانا يأبيان الاتفاق على التعاون فشىء ما كان فى استطاعة نلسن ولا بونابرت التنبؤ به . واذا كان انتصار نلسن قد أصبح حاسما فى ابطال أثر الفتح الفرنسى لمصر ، فالفضل فى هذه النتيجة ليس للانتصار نفسه ، بل لتطورات بعيدة الاتصال به فى مدريد وايرلندة والآستانة . ومهما قالت كتب التاريخ المدرسية فى هذا ، فان انتصار البريطانيين فى أبى قير لم يقض على الحملة الفرنسية بالفشل . أما بونابرت شخصيا فلم يخطر بباله قط أنه قضى عليها بالفشل ، وكان فى هذا على حق .

واذا كان بونابرت حين سمع بالهزيمة لأول وهلة قد أكد لرجاله ما نجم عنها من عزل جيشه ، فانه فعل هذا لأنه يناسب هدفه ، وهو هزهم هزة تحملهم على قبول احتمال البقاء طويلا فى مصر ، وقبوله بصبر وتجلد . ولم يتوقع أن تتحقق نبوءته حرفيا ، لأنه لم يكن لديه مبرر للاعتقاد بأن حكومة الادارة ستتركه لمصيره تركا تاما . وبدا له مركزه الحربى آمنا لفترة ما ، اللهم الا اذا اتحدت عليه تركيا وانجلترة ، ولكنه كان لا يزال يعتمد على ذهاب تاليران الى الآستانة ليمنع هذا التحالف ، وليسوغ مركزه بمصر فى عينى الباب العالى .

وأما النيل من سمعة المناعة التى اشتهرت عن بونا برت ، فحتى هذا لم يظفر به نلسن بانتصاره : فمعركة أبى قير كانت على أى حال هزيمة لبروى لا لبونابرت . وقد أفلح بونابرت ، فى تقريره للادارة ، فى أن يصور الكارثة البحرية على أنها مجرد سوء حظ ، هو أشبه بهامش طويل لانتصاراته فى مالطة والاسكندرية وشبراخيت والأهرام (ونقول على سبيل الملاحظة العابرة أنه لو أن نلسن وبونابرت سميا انتصاراتهما بقدرة أقل من قدرتهما المسرحية ، لما أثارا اهتمام الرأى العام بها الى هذا الحد ، فلفظتا « أبو قير » و « امبابة » ينقصهما السحر الذى ينطوى عليه لفظا « النيل » و « الأهرام ») . وبشاء الحظ أن يصل نبأ هزيمة بروى الى باريس فى نفس الوقت الذى يصل فيه نبأ الاستيلاء على القاهرة ، وهو اسم سحرى آخر . ولم تجد حكومة الادارة مناصا من الاحتفال رسميا بانتصار آخر من انتصارات بونابرت الذى لا يهزم ، تخفيفا من وقع كارثة أبى قير .

***

كثيرا ما يقع فى دنيا السياسة أن حدثا من الأحداث ، اذا أخطأ فى تقويمه عدد كاف من المسئولين ، يحدث بالضبط تلك الآثار التى ينسبها اليه هذا التقويم الخطأ ، وانتصار نلسن فى معركة أبى قير مثل واضح على هذه الحالة ، فاذا نحن صرفنا النظر عن أنه كلف فرنسا احدى عشرة بارجة ، وأنه أحيا اعتزاز كل انجليزى ببحريته ، لم نجد داعيا لتأثير هذا الحادث فى مجرى التاريخ ، وهو لم يؤثر فيه فى الأجل البعيد ، ولكنه كان ذا نتائج ضخمة فى الأجل القصير ، وكلها راجعة الى وباء دولى ، هو وباء التفكير الخطأ .

وعقد المعركة البحرية ، على تشابكها ، بسيطة جدا اذا قيست ، بعقد الدبلوماسية وسياسة القوة . ويذكر القارىء أنه حين خرج بونابرت فى حملته على مصر كانت فرنسا قد أبرمت لتوها الصلح مع النمسا . ولم يبق فى حرب معها سوى انجلترة والبرتغال ، أما الروسيا فهى وان زادت خصومتها لفرنسا منذ خلف القيصر بول أمه كاترين على العرش ، الا أنها لم تكن أعلنت الحرب على فرنسا بعد . ومع ذلك كان من اليسير أن يتنبأ المرء — وهو يرى القوات الفرنسية مبعثرة من الفندية (حيث كانت لا تزال تخوض حربا أهلية مع أنصار الملكية) الى كورفو ومصر — بأن الدول المعادية للجمهورية الفرنسية ستؤلف فيما بينها حلفا بمجرد أن تصاب فرنسا بنكسة ذات بال . وقد سعت الحكومة الفرنسية ، فى وعيها بهذا الاحتمال ، الى دعم مركزها الاستراتيجي باختلال سويسرة والولايات البابوية وبالضغط على اسبانيا لتصبح حليفا أكثر نشاطا فى الحرب . أضف الى ذلك أنه كان معروفا أن رجال الادارة سيبذلون قصارى جهدهم بضمان حياد تركيا بايفاد تاليران سفيرا لدى الباب العالى ،

وأن ثورة تقوم فى ايرلندة فى شهر سبتمبر تعززها القوات الفرنسية ستشغل انجلترة من الداخل • ويكون بونابرت أثناء ذلك قد عاد وتولى غزو ايرلندة ، وغزو انجلترة ان أمكن • بينما يتصل خلفه فى مصر بتيبو صاحب ليتفقا على عمل مشترك يقومان به فى الهند •

وكانت هـذه العمليات المترامية تتطلب ضبطا فى التوقيت وسرعة فى المواصلات لم يتيسر الا بعد قرن من الزمان •

وقد بدأت الأحوال تجرى على غير ما تشتهى الحكومة الفرنسية فى ايرلندة وتركيا فى وقت واحـد • فثار « الايرلنديون المتحـدون » فى بدء المقاطعات الجنوبية فى شهر مايو ــ عقب مغادرة الأسطول الفرنسى لطولون بأيام قليلة ــ بدلا من أن ينتظروا الى سبتمبر • وكانت الثورة سيئة التنظيم ، فلم يحل مطلع شهر يوليو حتى سيطرت القوات الانجليزية على الموقف سيطرة عامة • على أن ممثلى الاتحاد الايرلندى كانوا أثناء ذلك يحاصرون تاليران ورجال الادارة فى باريس بطلبات المعونة • وكان « وولف تون » ، أحد مؤسسى الاتخاد ، قد عين قائدا ومساعدا بالجيش الفرنسى فى شهر مارس ، فعرض الآن أن يذهب الى ايرلندة للقتال حتى ولو لم يرسل اليها سوى كتيبة حرس يقودها أمباشى • ومع أن الحكومة الفرنسية استجابت الى طلبه بسخاء أكثر قليلا من هذا ، فان المعـونة التى قدمتها قصرت كثـيرا عن الحاجة ففى ٦ أغسطس غادرت ثلاث فرقاطات تحمل ١٫٠٢٠ جنديا لاروشيل تحت قيادة الجنرال همبرت ، فوصلت خليج كبيلالا فى ٢٢ أغسطس • وقد أثارت هذه الفرقة الصغيرة التى يقودها همبرت ــ على ضآلتها التى يرثى لها ــ الفـزع فى انجلترا من جـديد زهاء أسبوعين ، وفى ٨ سبتمبر أكرهت على التسليم للجنرال جون مور فى بالينامك • وكان بين الأسرى ماثيو ، أخو وولف تون ، وقد شنق فى دبلن بتهمة الخيانة العظمى بعد ذلك بثلاثة أسابيع •

أما وولف تون نفسه فبارح برست مع حملة يقودها الجنرال هاردى قبل أن يشنق أخوه بأيام قليلة • ولم يصل الأسطول (المكون من البارجة هوش وثمانى فرقاطات) الى ساحل أيرلندة الا فى ١٠ أكتوبر) لأن عاصفة أقصته بعيـدا عنه • والتقى به الأميرال وارن بقوات أكبـر ، فأكرهت هوش وست فرقاطات على التسليم بعد أن أبلت بلاء حسنا • وأسر وولف تون ــ وكان يقود احدى بطاريات البارجة هوش ــ وأخذ الى دبلن ليقدم للمحاكمة العسكرية • وقد حكم عليه هو أيضا بالاعدام شنقا • ورفض الجنرال كورنواليس الالتماس الذى قدمه بأن يعدم رميا بالرصاص • ولكن حدث فى عشية الاعدام المقرر أن ذبح وولف تون نفسه بمبراة ، فمات فى ١١ نوفمبر • وهكذا انتهت الثورة الايرلندية المبيتة ، وقبل أن يموت تون بأسبوعين كفت الحكومة الفرنسية عن

بذل المزيد من المعونة · وهكذا انتهى أيضا « جيش انجلترة ، الذى قصر استخدامه بعد ذلك على قتال الملكيين فى الفنديه · وكان من أثر تجدد الحرب فى ايطاليا ، ونبأ اعلان تركيا الحرب على فرنسا ، والتقرب بين أعضاء التحالف الثانى · أن تحولت أنظار الادارة الى القارة الأوربية . وكانت الشرارة التى أشعلت نار هذه التطورات كلها هى انتصار نلسن فى « أبو قير » · ولما كانت الحكومة الفرنسية قد تخلت عن غزو الجزر البريطانية ، فقد صدر الأمر للأسطول الأطلنطى الفرنسى فى مارس ١٧٩٩ بمغادرة برست ودخول البحر المتوسط · ولو انضم اليه أسطول البحر المتوسط الأسبانى لاستطاع أن يشتت أسطول نلسن ، ويسترد مالطة وكورفو ، ويولى بونابرت ميزة التفوق الكبير · ولكن الاسبان رفضوا التعاون مع الفرنسيين فى أى مشروع سوى غزو ايرلندة ، وفرنسا تأبى مزيدا من التدخل فى ايرلندة · وكان موت وولف تون عديم الجدوى كأى شىء متصل بالحملة المصرية .

***

سأل بونابرت فى ختام تقريره الذى كتبه للادارة فى ١٩ أغسطس · هل تاليران فى الآستانة ؟ « وهو سؤال ردده غير مرة من قبل ، فالوصول الى تفاهم مع الباب العالى بشأن مصر ضرورة عاجلة ، ولا قبل لأحد بالمفاوضة فى هذا التفاهم الا اذا كان دبلوماسيا من الطراز الأول ·

ولكن تاليران لم يكن تواقا قط الى الذهاب للآستانة ، وكان شعاره « أولا ، اياك والحماسة » · ولم تجد الرسائل التى بعثها روفان ــ القائم بالأعمال الفرنسى ــ اليه بالشفرة فى التخفيف من زهده فى هذه المهمة ·

لم يكتب تاليران الى روفان لينهى اليه نبأ الحملة على مصر الا فى ١١ مايو ، قبيل اقلاع الأسطول الفرنسى مباشرة · وطلب اليه أن يقنع الباب العالى بأن الحكومة الفرنسية لا تنوى القيام بأى عمل عدائى ضده ، وأن يعلن قرب وصول مفاوض فرنسى تخول له كامل السلطات · ولم يصل الخطاب الى روفان الا فى ٢٨ يونيو ، عشية نزول الفرنسيين الاسكندرية · على أن موقف الحكومة العثمانية كان خيرا من موقف روفان ، فبينما ظل هذا يجهل المشروع تماما ، كانت الحكومة العثمانية على علم بالاستعدادات الفرنسية منذ شهر مايو بفضل سفيرها فى باريس · (وواضح أن جواسيس المخابرات العثمانية ، وهم فريق من اليونان الدهاة ، كانوا أكفأ من زملائهم الانجليز) · وأنفق روفان ثلاث ساعات مزعجة بعض الشىء حين راح الريس افندى (وزير الخارجية العثمانى) يشويه على السفود فى ١٩ يونيو فى أمر الحملة الفرنسية على مصر ، ولم يكن روفان قد سمع بها ولو سماعا · وحاول روفان أن يطمئنه الى أن

الفرنسيين لا يمكن أن تكون لديهم أى نوايا معادية قبل الباب العالى • وكان هذا بالضبط رد تاليران فى باريس على السفير العثمانى السيد على حين سأله في شهر ابريل عن الهدف من استعدادات طولون الحربية • وهو رد تعوزه الصراحة المطمئنة على حد قول الريس افندى لروفان فى مقابلة تالية •

وكان موقف الريس افندى (*) على الجملة وديا مشربا بروح التفاهم • فالقضاء على فرسان مالطة نبأ يرحب به العثمانيون • والعثمانيون لا يحبون المماليك • ولكنه مع ذلك قلق جدا • فالتخلى عن بلد اسلامى تسيطر عليه دولة غير مسلمة دون مقاومة يتعارض تماما مع السياسة العثمانية الأساسية ، وعمل كهذا خليق بأن ينال من شرف الحكومة العثمانية فى أعين رعاياها المسلمين ويسبب مزيدا من التمزق فى جسم الدولة • كذلك قد يورط تركيا فى حرب مع انجلترا وروسيا . ولا ريب أنه من غير المعقول أن يتوقع المرء أن تخوض دولة الحرب دفاعا عن حقها فى التخلى عن بعض أقاليمها لغاز ، وأقرب الى العقل أن تحارب الدولة هذا الغازى ، حتى ولو كان خير أصدقائها وأقدمهم •

وكان هناك أشياء أخرى تضايق العثمانيين ، وقد بينوها فى وضوح متزايد لروفان فى الأسابيع التى تلت نزول بونابرت بمصر • فلم لم ترسل فرنسا سفيرا مفوضا لها الى الآستانة ليفسر لها نواياها ان كانت هذه النوايا ودية ؟ ولم تدخل الجنرال بونابرت فى السنة الماضية في الشئون الداخلية للدولة العثمانية وراح يجرى مفاوضات غامضة مع على باشا والى يانينا ؟ ولم أرسل بونابرت الرسائل الى اليونان يعلن « تحرير » مالطة تمهيدا لتحرير اليونان ؟ لقد كان عسيرا ألا تعتبر هذه الأفعال دليلا على نية تقطيع أوصال الدولة العثمانية • وأشد ما أزعج الأمير قسطنطين ابسيلانتى ، وكان وقتها ترجمان الباب العالى (**) ، اهتمام بونابرت باليونان • فقال لموظف فى السفارة الفرنسية فى ٢٥ يونيو : « اننى بوصفى ترجمانا للديوان لا أستطيع اقرار المواطن بونابرت على أطماعه فى الأملاك العثمانية ، ولكننى بوصفى يونانيا ألعن هذا التفاخر الباطل الذى يكلف اليونانيين عشرة آلاف منهم سيذبحهم الأتراك » (٣٨) • ولا تخلو هذه الملاحظة من طرافة ، نظرا للدور الذى لعبته بعد ذلك أسرة ابسيلانتى فى الحصول على استقلال اليونان •

ولم يكن لدى روفان ما يرد به على هذا كله ، اللهم الا الدفاع عن نفسه بالجهل ، والأسف على آراء المواطن بونابرت المستقلة ، التى لا يمكن أن توافق عليها حكومته •

(*) الريس أفندى لقب يطلق على وزير الخارجية فى الدولة العثمانية (المترجم) •

(**) هذه أعلى وظيفة فى وزارة الخارجية العثمانية بعد الريس أفندى ، وقد جرى التقليد على أن يتولاها يونانى •

وتفاقمت مخاوف الأتراك حين وصلتهم الأنباء الأولى بأفعال بونابرت فى مصر • وعقد الصدر الأعظم والمفتى مجالس خاصة ، وكانت وجوه المجتمعين وهم يغادرون الاجتماع تنبىء بالفزع • وارتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعا مزعجا ، وأظهر السكان عداء متزايدا للأجانب لا سيما الفرنسيين ، وبدا عليهم الاستعداد للبدء بمذبحة تشفى غليلهم فى أية لحظة • وانتشر الذعر فى أرجاء تركيا كلها • وقد أعرب المواطن شودرلو ، القنصل العام الفرنسى فى حلب (وهو أخو مؤلف كتاب (Les liaisons dangereuses عن حالة الضيق والغيظ التى سادت جميع اخوانه المواطنين فى شرق البحر المتوسط وهو يشكو لتاليران من اغفال بونابرت تبليغ نواياه للقناصل الفرنسيين — وهو اغفال لا يمكن تفسيره ، فكيف يستطيعون تهدئة الترك ان كانوا هم أنفسهم قد أخفى عنهم الأمر ؟

وكان مما يكدر الحكومة التركية أن ترى قوة صديقة تحتل ولاية من أهم ولايات الدولة دون انذار أو ايضاح ، اللهم الا الاحتجاج غير المقبول بأن هذا العمل أقدمت عليه فرنسا بقصد طيب ، وأنه ينبغى ألا يسبب لها أى ازعاج • وكان مما يغيظها جـــدا أن تعرف أن الجنرال بونابرت يزعم فى كل خطبـه ومنشوراته أنه قدم مصر بموافقة السلطان ، ثم يضرب فى الوقت نفسه الحصار على جميع السفن التركية فى ميناء الاسكندرية • ولم يكن من شأن التقرير الذى بعث به السفير العثمانى فى باريس عن مقابلته لتاليران فى ٢١ يوليو أن يعين على تهدئة خواطر الأتراك • فقد أكد تاليران للسيد على أن الحكومة الفرنسية لا تقصد فتح مصر فتحا دائما ، واقترح تجريد حملة بحرية فرنسية تركية مشتركة لفتح القرم التى استولت عليها الروسيا قبيل ذلك • ومهما كان رأى الأتراك فى هذه الاهانة الجديدة حين وصلهم نبؤها ، فانه لم يكن بهم حاجة للرد عليها ، لأن الأسطول الذى كان سيعين الأتراك على استرداد القرم كان قد دمر فى هذه الأثناء •

وفى مساء ٦ أغسطس — قبل أن يصل نبأ معركة أبى قير الى الآستانة — استدعى الريس افندى روفان الى مكتبه وقال له ان مسلك الجنرال بونابرت قد أثار السخط العام الى حد يضطر الباب العالى لاتخاذ التدابير لحماية المواطنين الفرنسيين فى تركيا • ومن ثم فان على روفان ألا يبرح حدود السفارة الفرنسية فى بيرا • وعليه أن ينزل شعارات الجمهورية الفرنسية ويضعها داخل بنـاء السفارة • ويجب على جميع الفرنسيين تجنب الظهور فى الأماكن العامة • وعلى ترجمان روفان الأول ألا يذهب لسراى السلطان ، فاذا أراد ابلاغ أية رسالة ذهب الى بيت الريس افندى تحت جنح الظلام • وأضاف الريس افندى أن هذا كله صادر عن روح ودية لتجنب حوادث من نوع الحادث الذى اضطر بونابرت لمواجهته فى فينا • وختم روفان تقريره قائلا : « وحين استأذنت للانصراف

لم يقدم لى الشربات ولا العطر ولا المنديل التقليدى ، فأيد اغفال هذه المجاملات رأيى فى أننى لم أستدع ليجتمع بى الوزير بل ليوبخنى » (٣٩) ·

يقول مثل تركى ساقه روفان : « ان الصياد العثمانى اذا أراد أن يطارد أرنبا ركب عربة يجرها ثور » (٤٠) · والمعنى المراد هو أن الأتراك يكرهون الاندفاع والتهور · فمع أن الباب العالى فرض القيود الصادرة على المواطنين الفرنسيين فى أرجاء الدولة ، فانه كان لا يزال ينتظر وصول السفير الفرنسى الذى طالما بشر بمقدمه · وكان يحاول فى الوقت نفسه تهدئة الأهالى باصدار سلسلة من الفرمانات الغريبة التى يؤكد فيها « أن الفرنسيين ما زالوا حلفاء جلالته ، وأنه يجب أن يعاملوا بهذه الصفة ، وان كان رجل يدعى بونابرت قد غزا جزءا من مصر · والواقع أن هذا القائد المتمرد قد خان الثقة التى وضعتها فيه الجمهورية الفرنسية ، فقد غزا من تلقاء نفسه أرضا عثمانية بالسفن والجند الذين وكل اليه قيادتهم لمهمة مختلفة تمام الاختلاف · ومن ثم يجب ألا تؤثر الأعمال العدائية التى نجمت عن خروج الجنرال بونابرت على أوامر حكومته بحال فى نيات الباب العالى الطيبة نحو الأمة الفرنسية » (٤١) · وبينما كان الباب العالى يصدر هذه الفرمانات ــ التى قصد بها ولا زيب حماية المقيمين الفرنسيين ، وربما أيضا فتح الباب للحكومة الفرنسية لاستنكار فعلة بونابرت، ودعوة الحملة الفرنسية للرجوع ، فتنقذ بذلك المظاهر ــ اختلق بونابرت نفسه كذبة فاق بها حتى الباب العالى فى فن الأكاذيب البيضاء : فقد أخبر شيوخ القاهرة فى سرور أن أسطول نلسن أكره على مغادرة أبى قير فرارا من مطاردة أسطول فرنسى جديد ، وذلك للتخفيف قدر الامكان من وقع نبأ تدمير أسطوله عليهم ·

وقد أوضح تاليران ، بعد انتصار نلسن بيومين ، فى خطاب سرى ظريف جدا لروفان ، النوايا الحقيقية للحكومة الفرنسية · قال : « ان جميع تجارة البحر المتوسط يجب ··· أن تنتقل الى أيدى الفرنسيين · تلك هى الرغبة الخفية لحكومة الادارة ، ثم انهـا ستكون النتيجة المحتومة لمركزنا فى ذلك البحر ··· ومصر التى كانت فرنسا تتمنى على الدوام الاستيلاء عليها هى بالضرورة من نصيب الجمهورية · ومن حسن الحظ أن أتاح لنا موقف الأمراء المماليك ، الذى غلبت عليه الوقاحة والوحشية باستمرار ، وعجز الباب العالى عن الانتصاف لنا منهم ، أن ندخل جيشنا فى مصر وأن نثبت أقدامنا فيها دون أن نعرض أنفسنا لتهمتى الاغتصـاب والجشـع ··· ان الادارة مصممة على الاحتفاظ بمركزها فى مصر بكل الوسائل الممكنة » (٤٣) ·

ولما كان الأتراك لا يعرفون سر الشفرة الفرنسية ، فالراجح أنه لم يتح لهم قط فرصة الاستمتاع بالاطلاع على هذا الاعتراف الصفيق بالنفاق الغربى ·

ولكنهم كانوا يعرفون ما يكفى لتجنيبهم الانخداع بأكاذيب الفرنسيين الساذجة. وقد تجنبوا الفرقة مع فرنسا وقاوموا حجج السفيرين البريطانى والروسى الى أن وقعت معركة أبى قير فلما عرفت القصة الكاملة لهزيمة الفرنسيين فى الآستانة فى أواخر أغسطس ، شدد الروس والانجليز الضغط على الأتراك ولم يتركوا لهم مجالا للاختيار . ولكن الأتراك ، حتى وهم يعلنون الحرب ، احتفظوا بكياستهم .

ففى الساعة الثانية من مساء ٢ سبتمبر تلقى روفان دعوة مهذبة من الأمير ابسيلانتى ليقابل الريس افندى فى سراغليو . فذهب فى صحبة ترجمانه دانتان وكيفر واستقبله الريس افندى وغيره من الوزراء استقبالا رسميا . وقدمت القهوة لأن التقليد جرى على ألا يجرى شىء هام قبل تقديم القهوة . وما ان وضع روفان فنجانه حتى ألقى الريس افندى كلمة قصيرة قال فيها ان الباب العالى يؤلمه أن يرى دولة صديقة تستولى دون انذار على أثمن ولاية ، « والتى يجب أن تعتبر صرة الاسلام » لقربها من مكة والمدينة . وقد ظل الباب العالى طويلا لا يستطيع تصديق أى أنباء عن هذا الاستيلاء : ولكن لسوء الحظ « وبعد أن تحقق الديوان الشاهانى العظيم من صدق هذه الواقعة قرر — عملا بالقاعدة المتبعة فى حالة انفصام العلاقات الدبلوماسية ، وبناء على أمر مكتوب بيد السلطان نفسه — أن تؤخذ فورا الى قلعة الأبراج السبعة ، وأن يقبض على جميع القناصل والتجار الفرنسيين المقيمين فى أملاك جلالته المحروسة وأن تصادر تجارتهم ، وأن تحبس أنت وموظفو مفوضيتك ... حتى ترد مصر بعون الله الى سلطة ملكنا ومولانا الذى لا يقهر » (٤٣) .

واذ شرب الجميع قهوتهم زافقت سرية من الانكشارية روفان ودانتان وكيفر الى قلعة الأبراج السبعة ، فمروا بحشد من المتفرجين الفضوليين الذين اصطفوا فى الشوارع والحوانيت والنوافذ دون أن يسمحوا لأنفسهم بصيحة واحدة أو اشارة تهديد » (٤٤) . ووجد روفان فى سجنه متسعا من الوقت لرواية هذه الأحداث لتاليران فى التقرير الذى نقلنا عنه .. وفى ٩ سبتمبر سلم الريس أفندى اعلان الحرب الرسمى الى السفير الأسبانى الذى أبلغه لوزارة الخارجية الفرنسية .

وقد اختص المواطن روفان بامتياز لم يحظ به غيره ، هو أنه الممثل الفرنسى الوحيد الذى سجن فى قلعة الأبراج السبعة . وكانت هذه معاملة تقليدية جرى الباب العالى على أن يخص بها سفراء الأمم التى يعلن عليها الحرب ، عملا بنظرية تزعم أن السفراء ليسوا ممثلين لدولهم بل رهائن حرب . وقد يظن أن سجنهم كان مريحا ان لم يكن فخما : ولكن نظرة عابرة لقلعة الأبراج السبعة كفيلة بازالة هذا الوهم . فهى عدد كئيب من الغرف المظلمة تؤلف جزءا من السور الكبير المحيط باسطانبول — خالية من النوافذ ، باردة ، يرتد

تاريخها للعصور الوسطى · وقد يحق للجنرال بونابرت أن يغضب على المواطن تاليران لعدم ذهابه الى الآستانة ، ولكن المواطن تاليران كان محقا كل الحق فى أن يهنىء نفسه على عدم تحمسه للفكرة ·

وفى هذا اليوم ذاته ـ ٢ سبتمبر ـ بينما كان روفان يشرب القهوة مع الريس افندى ، عين تاليران المواطن ديكورش آخر الأمر سفيرا لدى الآستانة · وقبل أن يتاح للسفير المعين مبارحة فرنسا ، وصل اعلان تركيا الحرب الى باريس · ولكن بونابرت ظل الى شهر ديسمبر يأبى أن يصدق ، أو يتظاهر بأنه لا يصدق · أن السلطان قد أعلن الحرب ، وأن تاليران ليس فى الآستانة ، وظل اربعة أشهر لا ينى عن التصريح بأنه خير صديق للسلطان سليم ، فكان تصرفه هذا أنجح مثال سجله التاريخ من أمثلة سياسة النعامة ·

***

فى ٢٥ يوليو ١٧٩٩ ، أى بعد انتصار نلسن بعام تقريبا ، دمرت قوات بونابرت جيشا تركيا كبيرا نزل قبيل ذلك فى ساحل أبى قير · وغرق آلاف الترك ـ ويزعم بونابرت أنهم ١٠٫٠٠٠ ـ وهم يحاولون السباحة الى ناقلاتهم فى أمواج الشاطىء المتلألئة ، التى تنكسر على هذا الساحل الرائع الغارق فى أشعة الشمس · وسنروى قصة الظروف التى أفضت الى ذهاب هذه الجماعة السابحة التعسة فى موضعها المناسب من هذا الكتاب · وكان هذا الحادث نتيجة مباشرة للصواريخ الليلية التى أطلقت فى ١ ـ ٢ أغسطس ١٧٩٨ أفضت اليها سلسلة من الأحداث المحتومة فيما يبدو ، كذلك كان هو السبب المباشر فى سلسلة أخرى من الأحداث التى أفضت الى رجوع بونابرت الى فرنسا ، والى انقلاب ١٨ بروميير ، والى القنصلية ، والى الامبراطورية ، والى تلك الصخرة الضئيلة التى تتوسط الأطلنطى الجنوبى ·

وكل حدث ينطوى على نتائج محتملة لا آخر لها ، ولكن النتائج الفعلية لا تقررها ضرورة محتومة تلازم الحدث نفسه ، بل تقررها فى الكثير الغالب مجموعة من الظروف البعيدة الصلة بالحدث ، التافهة فى العادة · وعلى ذلك ففى وسعك أن تقول ان انتصار نلسن لم يتسبب على الاطلاق فى النتائج التى توقعها منها ، وان كان بالضرورة قد جاء بنتائج هامة · فقد كان نجاحا عسكريا بلغ غاية ما يستطيع أى انسان أن يحققه فى معركة واحدة · وأنى لنلسن أن يتنبأ بأنه حين مهد الطريق لحلف ضخم ضد فرنسا كان يتيح لبونابرت الفرصة لقهر هذا الحلف والظفر بأوربا كلها ؟ ان الشىء الوحيد الذى يمكن التنبؤ به هو أنه بعد أن ينقضى على الحادث ـ أيا كان ـ مائة عام أو مائتان ، تكون التموجات التى تمخضت عنها نتائجه ، بل أخف هذه التموجات ، قد تلاشت تماما كما تلاشى قذف المدافع ونزع المحتضرين من صفحة الماء فى خليج أبى قير · فهنالك لم يبق اليوم غير صليب مرفوع على جزيرة جرداء صغيرة يدل على البقعة التى دفن فيها المنتصرون موتاهم ·

الفصـــل الخامس

سياسة تعايش سلمي

١

كتب بونابرت الى حـكومة الادارة يوم وصـــل مدينة القاهرة الأسطورية يقول : « ان القاهرة التى يسكنها أكثر من ٣٠٠ر٠٠٠ نفس تضم أقبح ما تضم مدينة من غوغاء » (١) على أنهم ان لم يكونوا أقبح ، فهم على الأقل أكثر الناس تعـدد ألوان ، اذ هم يتفاوتون من النوبيين الســود الى الجراكسة الناصعى البياض • وكان المصرى العادي ــ أيا كان لونه ــ يعلو مقدار قامة على الفرنسى العادى ، ويرتدى ثيابا أزهى من ثيابه . وله سحنة تنذر بقطع الرقاب سواء عبست أو ابتسمت ، مع أنها قد تخفى نفسا غاية فى الرقة واللطف •

على أن أبرز ملامح القاهرة يومئذ كان انعدام وسائل الراحة التى كان يفترض وجودها أقل الفرنسيين تنعما • يقول رئيس الصيارفة بيروس : « ان المدينة غير جديرة بسمعتها العظيمة ، فهى قذرة ، رديئة المبانى ، تملؤها الكلاب البشعة » (٢) • أما الميجر ديترا فيصف هذه القذارة فى عبارات بليغة مسهبة ، ويقول متسائلا : « ماذا تجد عند دخولك القاهرة ؟ شوارع ضيقة قذرة غير مرصوفة ، وبيوتا مظلمة متداعية ، وأبنية عامة تبدو كأنها السجون ، وحوانيت أشبه بمرابط الخيل ، وجوا عبقا بعطر التراب والقمامة ، وعميانا ، وعورا ، ورجالا ملتحين ، وأشخاصا يرتدون أسمالا ، محشورين فى الشوارع أو قاعدين يدخنون قصـــباتهم كالقردة أمام مدخل كهفهم ، ونســاء قليلات • منكرات الصورة ، مقززات ، يخفين وجوههن العجفاء وراء خرق نتنة ويبدين صدورهن المتهدلة من أرديتهن الممزقة ، وأطفالا صفر الوجوه رقاق الأجساد ينتشر الصديد

على جلدهم وينهشهم الذباب ، ورائحة كريهة منبعثة من الأوساخ داخل البيوت، ومن التراب فى الهواء ، ومن قلى الطعام بزيت ردىء فى الأسـواق العديمة التهوية • فاذا فرغت من التفرج على معالم المدينة عدت الى منزلك فوجدته خلوا من كل أسباب الراحة ، ووجدت الذباب والبعوض وضروبا لا تحصى من الحشرات فى انتظارك لتتسلط عليك أثناء الليل • فتنفق ساعات الراحة وأنت تسبح فى عرقك وقد نال منك الاعياء ، تهرش وتنتشر البثور فى جلدك • وتنهض فى الصباح وقد أخذ منك السقم كل مأخذ ، وغشى بصرك ، وجاشت نفسك ، وفسد طعم فمك ، وغطت جسدك الدمامل أو القروح على الأصح • ويبدأ يوم جديد هو صورة من الأمس » (٣) •

ولو زار انسان أحياء القاهرة الفقيرة ، حتى فى أيامنا هذه ، لاقتنع بأن وصف الميجر ديتروا لها فى صيف ١٧٩٨ ليس فيه مبالغة ، وان نم عن تعام مقصود عن معالم المدينة الأكثر جمالا • ولم تكن الشوارع قذرة غير مرصوفة فحسب ، بل كان المرور فيها عسيرا نهارا ، والظلام يغشاها ليلا • وما كان أى شخص ذو مكانة ليركب فى شوارعها دون جمـاعة من العدائين المسلحين بالشوم يخلون أمامه الطريق بضرب المارة كيفما اتفق ، أما فى الليل فيخفره حملة المشاعل • أما المرافق الصحية وقواعد حفظ الصحة فمجهولة • وكانت قطعان الكلاب الشرسة ، المسعورة فى كثير من الأحيان ، تجوب الشوارع دون أن يمنعها أحد ، فلما سمم الفرنسيون آلافا منها ذات ليلة كان حدثا عده الجبرتى جديرا بأن يضمن فى تاريخه ، وكذلك عد المرسوم الفرنسى بتحريم دفن الموتى فى الشوارع والميادين العامة ولو كانوا من الأولياء • وكان العمى المتسبب عن الرمد الحبيبى ، وهو مرض ما زال منتشرا بمصر ، أكثر انتشارا فى تلك الأيام • أما نسبة الوفيات فى الأطفال فمذهلة •

وكانت البيوت ـ حتى بيوت الأغنياء ـ تعوزها أسباب الراحة الأساسية على الرغم من كثرة البذخ • ومن البيوت النادرة القصر الذى نزله بونابرت ، وكان ملكا لمحمد بك الألفى ، فرغ لتوه من بنائه حين أكرهه قدوم الفرنسيين على الهروب الى الصعيد : فقد كان فى كل طابق منه حمام ، ولنوافذه ألواح زجاجية ، فضلا عن السلالم المصنوعة من الرخام والمرمر والجوانيت المصقول المجلوب من أسوان ، والأرضية المصنوعة من الفسيفساء ، والنافورة الفخمة المقامة فى قاعة الاستقبال •

أما أسباب التسلية واللهو فلم يجد الفرنسيون منها شيئا يرقى فوق لعب الحواة والرقص • ومن رأى دينون أن الحواة محتالون مهرة ، ولكنه يسلم بأن الراقصات لطيفات رشيقات ، أما رقصهن « فيبدأ شهوانيا ثم ما يلبث أن يصبح داعرا لا يحمل للناظر سوى تعبير مبتذل عن نشوة الحس ، كذلك يقول :

« وكانوا يشربون مسكرا قويا فى أكواب طويلة كأنه عصير الليمون » (٤) ، ولعل كثرة الجنود الفرنسيين كانوا أقل من دينون تزمتا فى تقديرهم لهذا الفن المشبع ، والذى وصلت به مصر الى مرتبة الكمال . أما اهتمامات الذهن الراقية فقد جازت ظروفا عصيبة بعد عهد الخلفاء ، وذلك باستثناء دراسة التوحيد والشريعة الاسلامية . ولم يكن يحسن القراءة والكتابة سوى الأقباط وحفنة من المشايخ (*) . ولم يكن فى الدولة العثمانية بأسرها حتى وصول الفرنسيين سوى مطبعتين ، ليس فى مصر واحدة منهما . ولم تعرف البلاد طواحين الهواء ولا عربات الجر ذات العجل الى أن أدخلها الفرنسيون . أما الجامع الأزهر ، الذى كان فيما مضى مركزا عظيما للثقافة الاسلامية ، فهو وان احتفظ بسمعته بين أهل التقوى والصلاح ، الا أنه حفل بالمتعصبين من الشحاذين والدراويش ، وكانت مدرسته معقلا للمحافظين عطل طلب العلم أكثر مما شجعه (**) . وهكذا استحالت مصر ، التى كانت أغنى بلاد الدنيا ومهد الحضارة الانسانية ، صورة مجسمة للجهل والفقر والخرافة والمرض والاستهانة بكرامة الانسان .

كل هذا صمم الجنرال بونابرت على تغييره .

كان يعد نفسه لمقـام طويل . فعقب وصوله الى القـاهرة كتب قائمة بالأشياء التى رأى شحنها بالبحر من فرنسا ، ومن بينها « فرقة من الممثلين ، وفرقة من راقصات الباليه ، وثلاثة أو أربعة على الأقل من ممثلى مسرح العرائس لعامة الشعب ، ونحو مائة امرأة فرنسية ، وزوجات جميع من يخدمون فى مصر ، وعشرون جراحا ، وثلاثون صيدليا ، وعشرة أطباء ، وعمال للمسابك ، وصناع ومقطرون للخمور ، ونحو خمسين بستانيا وعائلاتهم ، وبذور لمختلف أنواع الخضر .. و ٣٠٠٫٠٠٠ ذراع من القمـــاش الأزرق والأحمـــر ، وصــابون وزيت » (٥) . وطلب أن تحمل كل قافلة ٢٠٠٫٠٠٠ باينت من المشروبات الكحولية ، ومليون باينت من النبيذ . ولم يصل من هذا كله شيء . ذلك أن الادارة ألغت القافلة الثانية التى كان ينتظرها بونابرت من لحظة لأخرى فى شهر أغسطس لأنها رأت أن السفن وحمولتها ألزم لايطاليا منها لمصر . فبعد أن تلقت الادارة نبأ معركة أبى قير كفت عن بذل أى جهد جاد أو متصل لمعاونة بونابرت ، أو حتى للاتصال به .

(*) المؤلف مخطىء فى هذا الرأى . والواقع أنه لم يكن يتقن القراءة والكتابة بين الاقباط الا نسبة ضئيلة من مجموع الأقباط . أما وصفه الذين يعرفون القراءة والكتابة من المسلمين بأنهم حفنة من المشايخ فدليل على جهل المؤلف بحركة التعليم فى الأزهر والمدارس التابعة له فى القاهرة والأقاليم . (المترجم) .

(**) هنا أيضا لا يمكن أن يتفق دارس لتاريخ الحياة الفكرية فى مصر ابان العصر العثمانى مع رأى المؤلف عن دور الأزهر فالواقع أن الأزهر كان مركز الاشعاع الفكرى الوحيد فى مصر فى العصر العثمانى . (المترجم) .

ولم يكن من بين المدن المصرية ما سيطر عليه بونابرت ـ وقت ان كان يرسم الخطط في أواخر يوليو لاحتلال البلاد احتلالا دائما ـ سوى ثلاث مدن ، هي الاسكندرية ورشيد والقاهرة . ولكن حتى لو كان تنبأ يومها بأن أسطوله سيدمر ، وأن تركيا ستعلن الحرب على فرنسا ، وأن حكومته ستتركه وشأنه في ورطته ، لتصرف بالضبط كما تصرف . ذلك أن طبيعة مزاجه ـ بل قل عظمته ـ جعلت محالا عليه أن يسلم بأن موقفا من المواقف ـ أيا كان ـ ميئوس منه . وبدأ الادعاء بأنه يسيطر على مصر . ولكى يجعل دعواه حقيقة أمر ديزيه أن يطارد قوات مراد بك ويقضي عليها ، وخرج هو مطاردا ابراهيم بك ، وجرد عددا من قواده لاحتلال الدلتا ودمياط والأقاليم الشمالية الشرقية .

وسنتناول في فصل تال حملة ديزيه التي تعد من أغرب الحملات في العصور الحديثة . فقد قطع ٥٥٠ ميلا صوب الجنوب سيرا الى الشلال الأول يتعقب آثار مراد الذى يروغ منه ، فيهزمه أحيانا ، ولكنه لا يقضى عليه القضاء المبرم ، ولم تحقق له الحملة السيطرة الفعالة الدائمة . أما ابراهيم بك فقد هزمه بونابرت في الصالحية ولكنه لم يستطع منعه من الهروب برجاله وعبيده وأزواجه عبر صحراء سيناء الى سوريا ، حيث ظل خطرا يتهدده على الدوام . وأما الدلتا ـ وهي أغنى أقاليم مصر وأكثرها سكانا ـ فقد احتلها بونابرت اسما دون مقاومة . ولكن الاستيلاء على عدد قليل من المدن الكبيرة وترك حاميات بها لا يعنى السيطرة على البلاد أو على سكانها . فقد تظاهر أهل المدن بصداقة الفرنسيين ، ولكن أكثر فلاحى الدلتا ، الذين كانت قراهم قلاعا منيعة ، كانوا لا يرحبون على الاطلاق بالفرنسيين ، بل ان المدن لم تكن دائما مكانا مأمونا لهم .

والى القارىء ، على سبيل المثال ، التقرير الذى قدمه الجندى « مورشون » أحد جنود فرقة الفرسان ، والوحيد الذى بقى على قيد الحياة من حامية المنصورة ، الى الكولونيل لوجييه :

« ترك الجنرال فيال أثناء مروره بالمنصورة فصيلة من ١٢٠ رجلا . وفي اليوم التالى لرحيل الجنرال فيال بأورطته ، اغتال الأهالى ثلاثة من جنـ الحامية ، رجموا واحدا منهم وهو يقف في نوبة حراسته ، والثانى وهو يأ. بالجساء للديدبان ، والثالث وهو عائد من مكان حراسته .

ومن ذلك الوقت تحصنا في البيت الذى اخترناه ثكنة لنا .. (وبعد يومين) في حوالى الساعة الثامنة صباحا ، (أحاط بالثكنة عدد كبير من المسلمين يحملون مختلف الأسلحة . وحاول أحدهم أن يشعل النار في البيت .. ولكن أحد جنود الفرسان قتله . فحاولوا بعد ذلك هدم البيت . وبالاختصار أستمر القتال .. الى الرابعة مساء . وعندها خرجنا من ذلك البيت الذى فقدنا فيه

ثمانية رجال • وبينما نحن سائرون فى شوارع المدينة لنغادرها كانت الطلقات تأتينا باستمرار من نوافذ المنازل فنرد عليها على قدر ما نستطيع • فلما وصلنا الى الخلاء طاردنا هؤلاء الأفراد أنفسهم وظلوا يطلقون علينا النار • وجرى بعضهم الى القرى القريبة فى طلب التعزيزات •• وفى أثناء تقهقرنا اخترقت رصاصة فخذى اليسرى •• وفى الفجر كان منا على قيد الحياة خمسة وعشرون أو ثلاثون ، وما يزال العدو يطاردنا ••• واذ فرغ رصاصنا فقد دافعنا عن أنفسنا بالسلاح الأبيض • وفضل الجرحى ، وعددهم عشرة ، أن يغرقوا أنفسهم عن أن يقعوا فى قبضة العدو • فلما لم يبق منا غير خمسة عشر ، ألقى حشد من الفلاحين الهائجين أنفسهم علينا ، وجردونا من ثيابنا وقتلونا كلنا بالشوم ، وألقيت بنفسى فى النيل عريانا لأنتحر غرقا ، ولما كنت أعرف السباحة ، فقد تغلبت غريزة حب الحياة على رغبة الانتحار ، ووصلت الى الضفة المقابلة •• ورحت أسير دون هدف • فرأيت سبعة فرسان من المسلمين يدنون منى فألقيت بنفسى فى النيل ثانية ، واذ لاحظت أن اثنين منهم يشيران الى بالمجىء عدت الى الشاطىء ، فأطلق أحدهما النار على رأسى ، ولكن الرصاصة لم تنطلق ، وقال الآخر شيئا معناه الابقاء على حياتى ، ثم سلمنى الى فلاحين مسلحين •• فأوثقا يدى وقادانى الى قرية وأنا أمشى على طريق كله شوك آلمنى جدا لأننى كنت حافيا مجروحا • وفى القرية فك الأهالى وثاقى واعتنوا بى وأطعمونى وترفقوا بى كثيرا • وظلت على هذه الحال الى اليوم حين أقبل القرويون ليخبرونى أن صندلا محملا بالجنود الفرنسيين يمر بقريتهم ••• ولا يفوتنى أن أذكر أن الشخص الذى عنى بى أكثر من الجميع ، هو طفل يبلغ من العمر ثمانية أعوام كان يأتينى خفية بالبيض المسلوق والخبز » (٦) •

وفى منتصف سبتمبر ١٧٩٨ عبر الجنرال مينو والجنرال مارمون النيل يصحبهما عدد من المدنيين أعضاء اللجنة العلمية ، وحرس من ٢٠٠ رجل ، لاستطلاع اقليم الدلتا الواقع الى الشرق من رشيد • وكان الاستقبال الودى الذى لقيه مينو من الأهالى قد جعله يتهاون بعض الشىء • فلما ركب متقدما الحرس فى خمسة عشر رجلا فقط ــ سبعة منهم مدنيون ــ هاجمه فجأة جماعة من الفلاحين المسلحين • ودافع الجيولوجى دولوميو والموسيقار فللوتو والرسام دينون عن أنفسهم بسيوفهم ومسدساتهم وهم يتقهقرون مع زملائهم الباقين ، ولكن الرسام جولى لم يستطع • كتب مينو لبونابرت يقول : « ان المواطن جولى فقد صوابه تماما ، فألقى بنفسه من على ظهر جواده وراح يصرخ فى رعب وفزع ••• ورجوناه فى الحاح أن يمتطى جواده ثانية أو يركب خلف أحدنا ، ولكنه فقد رشده فأبى أن يستمع الى شىء •• فاضطررنا أخيرا لتركه خلفنا ، فساقوه وقتلوه » (٧) •

وكان اقليم الاسكندرية ، بعد احتلال دام شهرين من الزمان ، غير مأمون

شأنه فى ذلك شأن اقليم الدلتا ، وقد تبين هذا لركاب سفينة البريد « أنيمون » فور نزولهم بر الاسكندرية • وكانت أنيمون هذه قد أقلعت من طولون فى ١٧ يونيو تحمل ساعى البريد لوسامبل ، الذى عهدت اليه حكومة الادارة برسائل يحملها لبونابرت • وفى شفيتافيكيا أخذت ركابا آخرين منهم الجنرال كامان • وفى ٢ سبتمبر لاح لها بر الاسكندرية وقرر ربانها أن يرسو بها قرب العجمى تجنبا لاستيلاء الأسطول الانجليزى عليها • ولكن ما أن وصل الركاب الى البر حتى هاجمتهم جماعة من البدو • وقتل الذين قاوموا وجردوا من ثيابهم — ومن بينهم كامان • وخلع أحد الضباط ثيابه وراح يجرى ظانا أن ثيابه هى كل ما يبتغيه الأعراب ، ونسى فى اضطرابه أنه يحمل سراويله فى يديه ، فقتل هو أيضا • وجرى راكب آخر هو المواطن ديفوج الى أمواج الشاطىء وهو عار تماما طلبا للنجاة وان جهل السباحة • وكان كلما طفا ليستنشق الهواء أطلق عليه البدو النار وهم فى الماء الى خصورهم • ولحق به مساعد كامان ، واسمه بيللا ، فدخل الموج المتلاطم الى جواره • يقول ديفوج : « ولبثنا على هذه الحال يتشبث الواحد منا بصاحبه مدى ربع ساعة رأينا فيها عددا من زملائنا يقتلون » • ولطمت موجة عالية ديفوج فهوى ، ولما طفا ثانية بعد نضال ، كان مطاردوه ورفيقه بيللا قد اختفوا • يقول : « وما لبثت أن شعرت بجثة تطفو بجوارى ••• ورفعت الرأس فاذا هو رأس بيللا • وكان يطفو بجانبه طفل غريق مسكين يبلغ الثانية عشرة من عمره » (٨) •

واستحيى البدو نحو عشرين فردا من هذه الجماعة طلبا للفدية ، وكان منهم لوسامبل ، وافتداهم الجنرال كليبر • وفى ٨ سبتمبر سلم لوسامبل الباسل ما بقى لديه من الرسائل الى بونابرت فى القاهرة ، وكانت تحمل تهانى الادارة على استيلائه على مالطة ، ولا شىء غير هذا •

وفى يوم وصول لوسامبل الى القاهرة كتب بونابرت الى الادارة يقول : « كل شىء هنا يجرى على ما يرام • والبلاد كلها تحت سيطرتنا ، والشعب أخذ يألفنا » (٩) •

ولابد للمرء — ان أراد أن يكون فاتحا — أن يكون لديه معين هائل من التفاؤل ، وأن يحجب الحقائق عن عينيه بغمامات كبيرة جدا •

٢

ليس لدينا دليل على أن بونابرت كان يستمتع بأعمال الثأر والانتقام أو يمقتها • فلا هو بالقاسى ولا الرحيم ، ولا هو بالوحشى ولا الرقيق الطبع • ولكن العدوان فى رأيه يجب أن يعاقب ، لئلا يكون اهمال عقابه تشجيعا له : ومن ثم كانت جماعات وقرى برمتها تنهب وتحرق بأمره ، وتقطعان الغنم

والماشية ـ وهي مورد الرزق الوحيد لقبائل البدو ـ تنتزع منها ، والرءوس تطيح بالعشرات · كتب لينو في ٣١ يوليو يقول : « في كل يوم آمر بقتل خمسة أو ستة في شوارع القاهرة » (١٠) وكان بالمثل يتخذ الاجراءات الصارمة ضد قاطعي الطريق من الفرنسيين · وكان هذا التلميذ المؤمن بمكيافللي يرى أن الشدة اذا التزمها المرء تولد الاحترام لا الكراهية ، وتحقن الدماء في النهاية أكثر من اللين الأخرق · وكان أهم هدف له أن يكسب ثقة الشعب ـ الثقة في شدته وفي نواياه الطيبة على السواء ـ وتعاون الطبقة الحاكمة · التي لا تنشد أكثر من النظام والاستقرار · ولم يفق مستعمر أوربي بونابرت في محاولاته لكسب الأهالي لصفه (لا لوضعهم في موضعهم الصحيح منه) · فاذا كانت جهوده قد فشلت فشلا ذريعا ، فليس العيب في سياسته التي كانت تستحق النجاح ، بل العيب عيب الطرق والأساليب المرتجلة ، المتضاربة ، البادية التقلب ، التي أكرهته الظروف على اتباعها في دقائق التنفيذ وتفاصيله · وهو أولا وقبل كل شيء عيب استحالة المهمة التي كان عليه أداؤها ·

كان الأسلام بالطبع هو الحائل الأكبر دون هذا الجو المنشود من الثقة المتبادلة · ففي وسع بونابرت أن يعلن في اليوم ثلاث مرات أنه ليس مسيحيا ، وأن جنوده ليسوا مسيحيين ، وأن الفرنسيين سجنوا البابا وأغلقوا الكنائس ، وأنهم يحترمون الاسلام ـ وكل هذا حق في كثير أو قليل · ولكن الفرق بين المسيحيين ، والربوبيين ، وعباد الهة العقل أو الكائن الأعظم والخيريين الطبيعيين، والملحدين ، واليهود · هذا الفرق كان في نظر المسلمين طفيفا لا يعتد به ، فكلهم غير مسلمين ، اذن فكلهم كفار · أما المماليك والعثمانيون فمسلمون : صحيح أنهم قد يعتصرون أرزاقهم ويستنزفون أملاكهم ، ولكنهم اخوة لهم · وما ان أذل الفرنسيون المماليك البغيضين ، حتى أصبح هؤلاء المماليك البغيضون موضع الشفقة والرثاء · ولما تدخل شيوخ القاهرة فأطلق بونابرت سراح أسرى المماليك « دخل الكثير منهم الى الجامع الأزهر وهم في أسوأ حال وعليهم الثياب الزرق المقطعة. فمكثوا به يأكلون من صدقات الفقراء المجاورين به ويتكففون المارين وفي ذلك عبرة للمعتبرين » (١١) · تلك عبارة الشيخ الجبرتي ، وهو مسلم مستنير حملها الكثير مما يعده الاسلام خلقا جديرا بالاعجاب العظيم : وهو أن يطعم المظلومون ظالميهم المقهورين ، بدافع الشعور بالأخوة أكثر من الرحمـــة ·

ولكن مع أن شعب مصر ، كباره وصغاره ، كان محقا في التشكك في اخلاص بونابرت حين أعلن على الملأ أنه مسلم فعلا ، فان خوفه من أن يقضي على دينه لم يكن له أساس · فالذي كان بونابرت يريد القضاء عليه هو جمود النـــاس وتشبثهم بالتقاليد العتيقة واستسلامهم لقضـــاء لم يكتب عليهم ، وكراهتهم الخروج من العصور الوسطى وعدم رغبتهم في مساعدته على النهوض

بهم • (وكون هذا التغيير المنشود سينفع المستعمرين الفرنسيين لا يدل على أن المصريين لن ينتفعوا به ، ربما أكثر من الفرنسيين) • وقد اقتضى العالم الاسلامى قرن ونصف من الزمان ليدرك أن المسلمين يستطيعون الاحتفاظ بدينهم وتقاليدهم سليمة لا تمس ، ومع ذلك يسيرون مع عجلة الزمن • ولكن بونابرت لم يكن فى موقف يعينه على تلقين المصريين هذا الدرس • لقد كانت دعايته مخلصة فيما يتصل بالأهداف النهائية ، ولكنها منافقة كل النفاق فى استغلالها العواطف الدينية والخرافات الشعبية • وأهم من ذلك أن مركزه الحربى عقب انتصار نلسن كان قلقا جدا ، بحيث بدت جميع محاولاته لمخاطبة مشاعر المسلمين حيلا يائسة لا اقناعا مخلصا • وهذا التفسير الخبيث لمحاولاته يصبح مفهوما اذا ذكرنا الشطط الذى تورطت فيه سياسته الدينية فى النهاية •

ولما لم يكن تحت تصرف بونابرت سوى قوة حربية صغيرة يسيطر بها على بلد مترام خطر كمصر ، فقد اضطر الى الاعتماد على الصفوة من أهل البلد ليحكموه له • وقد انتهى بالفشل اختياره الأول للسيد محمد كريم حاكما على الاسكندرية • واضطر كليبر — بسبب عدم تعاون كريم الواضح — الى أن يستبدل به فى يوليو ١٧٩٨ الشيخ المسيرى — وكان أجدر بثقته — وأن يرسله مخفورا الى حامية بونابرت ليتصرف فى أمره نهائيا • وفى ٥ سبتمبر حكم بونابرت على السيد محمد كريم بالاعدام ، ولكنه خيره فى افتداء نفسه بمبلغ ٣٠ر٠٠٠ تلرو (*) ، وذلك جريا على تقليد معروف فى البلاد • وسواء كان الدافع لكريم هو ايمانه بقضاء الله ، أو بخله ، فانه أبى أن يدفع الفدية • فقتل رميا بالرصاص فى القلعة ، وحمل رأسه ليعرض على الملأ فى الشوارع • يقول نقولا الترك ان قتله أحدث أثرا سيئا فى الأهالى لأنه من سلالة النبى •

ومضى بونابرت على الرغم من هذه البداية المشئومة فى الحكم المحلى بمساعدة أعيان المسلمين • ففى غداة دخوله القاهرة أنشأ الاطار العام لهذا الحكم بتعيينه ديوانا ، أو مجلسا بلديا ، اختار أعضاءه من كبار المشايخ ، وعين مندوب فرنسى مراقبا بالديوان (**) • أما دور ديوان القاهرة — ودواوين الأقاليم

(*) كان التلرو يعادل التالير الامبراطورى • واذ كان سعر التلرو ٤ فرنكات ذهبية ، فهو يعادل ٥ شلنات تقريبا (فى عام ١٧٩٨) •

(**) آلت الوظيفة فى النهاية الى المواطن تاليان ، وهو الرجل الذى قاد حكومة المؤتمر الوطنى لقلب حكم روبسبير فى ٩ ترميدور ١٧٩٤ • والشىء الوحيد الذى يشترك فيه بونابرت وتاليان هو ان زوجتيهما كانتا خليلتين لعضو الادارة بارا • وبعد أن مرت بتاليان أيام عصيبة سواء فى حياته السياسية أو الزوجية ، وفق فى أن يلحق نفسه بالشعبة الاقتصادية من اللجنة العلمية • ووصل الى الاسكندرية على سفينة البريد « فيف » فى ١٣ اغسطس • فلقيه كليبر لقاء فيه فتور مقصود ، ولا عجب لقد كان كليبر يمقت رجال السياسة •

المنشأة على غراره – فهو أساسا اضفاء الصفة الشرعية على السياسات الفرنسية واقرارها بفضل مكانة العلماء والفقهاء الذين تتألف منهم هذه الدواوين • كتب بونابرت لكليبر يقول : « اننا اذا كسبنا تأييد كبار شيوخ القاهرة كسبنا الرأى العام في مصر كلها • فليس بين زعماء الأمة كلهم من هو أقل خطرا علينا من الشيوخ ، فهم جبناء ، عاجزون عن القتال ، يوحون – كجميع رجال الدين – بالتعصب دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين » (١٣) • وبالاضافة الى هذه الوظيفة الأساسية ، كانت الدواوين تنقل شكاوى الأهالى الى السلطات الفرنسية وتحاول جس الرأى العام لها • ولكنها كانت فى هذه المهمة الثانية لا يركن اليها اطلاقا ، شأن كل هيئة تضمر العداء للمحتل وان أذعنت لمطالبه •

وفى ٤ سبتمبر خطا بونابرت خطوة أبعد ، فدعا « ديوانا عاما » يمثل مصر كلها ليجتمع بالقاهرة بعد شهر • وقرر أن يتألف كل ديوان اقليمى من ثلاثة فقهاء ، وثلاثة تجار ، وثلاثة ممثلين للفلاحين وشيوخ البلد وقبائل البدو على التوالى • ومع أن النواب كان يختارهم حكام الأقاليم الفرنسيون ، فانه كان من الجائز أن يصبح الديوان العام ، وهو مجلس تمثيلي لا سابقة له في الشرق، « مجلسا لطبقات الأمة المصرية » ، ولكنا سنرى أن النواب فضلوا أن يجعلوه صفرا على اليسار •

وقد ضمن بونابرت بانشائه الدواوين التأييد الظاهر من أكثر عناصر المجتمع المصرى نفوذا واستقرارا – وان لم يضمن قط ولاءهم أو ثقتهم • ولكن كان هناك مهام حكومية بغيضة كره الاضطلاع بها الفرنسيون والمسلمون من الأهالى على السواء – وهى جمع الضرائب والبوليس • كان المماليك يستخدمون الصيارفة الأقباط فى جمع الضرائب قبل وصول بونابرت وكان مما يؤهل الأقباط لهذا العمل تعليمهم وطاعتهم وخبرتهم بشئون المال • واضطر بونابرت للمضى فى استخدامهم لأداء هذه المهمة كما كانوا يؤدونها من قبل ، وان قدر أن جانبا كبيرا من الأموال التي يجبونها من الفلاحين يحتجزونه لأنفسهم • فوضع نظاما يشتمل على مراتب ودرجات من الجباة الأقباط ، فكل « ملتزم » يجمع ضرائب اقليم من الأقاليم لديه موظفون فى مكتبه يعملون تحت رياسته ومندوب فرنسى الى جواره ، وعلى رأس هرم هؤلاء الموظفين الأقباط كلهم ملتزم عام هو المعلم جرجس الجوهرى • هؤلاء الصيارفة الذين خلعت عليهم الآن صفة رسمية كانوا يسلكون مسالك الحكام على حد قول الجبرتى • يقول « وقيدوا بذلك الصيارف من القبط ونزلوا فى البلاد مثل الحكام يحبسون ويضربون ويشددون فى الطلب » (١٣) •

أما عن البوليس فقد أنشأ بونابرت فرقا من الانكشارية مؤلفة من الترك واليونان والمغاربة وغيرهم من السفلة وشذاذ القوم • ومن أبرز هؤلاء وألفتهم

للنظر أيام الاحتلال الفرنسى مغامر رومى مسيحى يسمى بارتلمى أو بارتلميو(*) عينه بونابرت « كتخدا مستحفظان » القاهرة (أى نائب المحافظة) وكان هذا الضابط الزاهى المظهر والمسلك يقود سرية قوامها مائة من الأروام والجزائريين والمغاربة المتوحشين • وكان فارع القامة ، لا ينسى الناظر مظهره وهو يخرج على رأس أتباعه الأوغـاد فى عمامة بيضـاء ضـخمة تظهر بشرته البرونزية ، وعيناه تلمعان ، وعلى شفتيه ابتسامة يجمد لها الدم فى العروق ، وقد ارتدى ثوبه اليونانى الموشى بالقصب ، وحزاما أحمر ، وسراويل ضخمة ، ومعطفـا تعلوه رمانتان مما يضـعهما الكولونيل على كتفيه • وكانت زوجته العملاقـة الرهيبة تركب أحيانا الى جواره • وكان بارتلمى يحب العراك ، لأنه يتيح له اظهـار شجاعته والتباهى بثيـابه ، ولكن أحب الأشياء الى قلبه قطع الرقاب بالجملة • روى أنه اذا لم يجد من البدو المتمردين من يحمل رءوسهم الى القاهرة تذكارا كان يعزى نفسه برءوس بعض الفلاحين العاثرى الحظ الذين يصادفهم فى عودته للمدينة • وقد قدم للجنرال ديبوى مرة زكيبة بأكملها مملوءة برءوس البدو بينما كان هو وضيوفه يتناولون طعام الغـداء ، وقد آلمه أنه نغص عليهم طعامهم • يقول مؤرخ قديم للحملة المصرية « كان فى منظره وهو يسـير الى القلعة وقد جرد سيفه فى يده ، ومن خلفه ضحاياه المكبلين ، ما يكفى لاخماد كل الثوايا الشريرة فى قلوب الكثيرين » (١٤) •

ومـع أن اسـتخدام المسـيحين جبـاة للضرائب وحفظـة للأمن كان له ما يبرره من دواعى المصلحـة ، فقد كان من شـأنه ــ كما ذكر الجبرتى ــ أن يوحى لغير المسلمين بفكرة خاطئـة عن المسـاواة • فما لبث الناس أن رأوا المسيحيين واليهود يركبون الخيل كالسادة المسلمين ، ويحملـون السـلاح ، ولم يعـودوا يتوارون عن الأنظـار ، وضربت زوجاتهم مثـلا سـيئا بالخروج سافرات وتقليـد العادات الأوربية (**) • وقد أكرهت شكاوى المسلمين فى النهاية بونابرت على أن يصدر الأمر للأهالى من المسيحيين واليهود بأن يعودوا الى ارتداء عمائمهم القاتمة وأحزمتهم غير المزركشة وأحذيتهم السوداء • وكتب لكليبر يقول « مهما فعلت بالمسيحيين فسيظلون دائما أصدقاءنا • فيجب أن تمنعهم من أن يشتطوا فى وقاحتهم » (١٥) •

(*) « قلدوا برطلمين ••• وهو الذى تسميه العامة فرط الرمان ، كتخدا مستحفظان ، وركب بموكب من بيت صارى عسكر وأمامه عدة من طوائف الأجناد والبطالين مشاة بين يديه •• وسكن المذكور ببيت يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين أخذه بما فيه من فرش ومتاع وجوارى •• والمذكور من أسافل نصارى الاروام العسكرية القاطنين بمصر وكان من الطبجية عند محمد بيك الالفى وله حانوت بخط الموسكى يبيع فيه القوارير الزجاج أيام البطالة » الجبرتى جـ ٣ ص ١٢ •

(**) كانت جميع النساء غير المسلمات مجبرات على اتباع تقاليد الحجاب الاسلامية الى سنة ١٧٩٨ ، فيما عدا زوجات القناصل •

نجحت سياسة بونابرت في السيطرة على مصر بالتراضى مع الصفوة من المسلمين نجاحا خداعا أول الأول • فلم يحذ أحد من أعيان المصريين الذين شغلوا مراكز تحت رياسته حذو السيد محمد كريم • غير أن سياسته الدينية لم تقم جملة على مقتضيات المصلحة وحدها • لقد كان مخلصا فى احترامه للاسلام ، لأنه ينبع من موقفه العملى البحت من الدين • قال لمجلس الدولة فى عام ١٨٠٦: « اننى أرى فى الدين ••• سر النظام الاجتماعى » (١٦) فلا وجود للحكومة ولا للدولة بغير الدين • وكان الاسلام فى عينيه أنسب من المسيحية لحاجات النظام الاجتماعى ، لأنه لا يشجع الصراع بين العالمين المادى والروحى • وربما كان بونابرت حين كتب فى عام ١٧٩٧ لأسقف كومو يقول : « ان الفضيلة التى بشرت بها الأناجيل ••• هى أنسب الفضائل لشكل الحكومة الجمهورية » (١٧)• أقل اخلاصا منه حين أبلغ الشيخ المسيرى ، بعد ذلك بسنة : أنه ينوى « اقامة حكومة موحدة تقوم على مبادىء القرآن ، التى هى وحدها المبادىء الحقة القادرة على اسعاد الناس » (١٨) •

واحتـرام دين البلد المغلوب وتقاليده سياسة سليمة ، ولكن بونابرت اشتط فى مجاملته للاسلام • وقد أكره على الالتجاء فى النهاية لأعمال فيها انتهـاك للمقادس الدينية ـ أو خيل اليه أنه أكره على ذلك ـ بسبب ظرفين ضايقاه أشد المضايقة : أحدهما أزمته المالية المزمنة ، والثانى اعـلان تركيا الحرب • وسنفصل الحديث فى مكان آخر من الكتاب عن متاعبه المالية ، وأما اعلان السلطان الحرب فقد ضايق بونابرت مضايقة آثر معها أن يتظاهر أربعة أشهر بأنه لم يحدث ، مع أنه لابد قد أحاط به علما منذ أوائل أكتوبر •

كان بونابرت يعتقد حقاً فى مستهل حـكمه لمصر أن تاليران ذهب الى الآستانة وأنه سينتهى الى اتفاق ودى مع الباب العالى • وقد كتب غير مرة لوالى مصر ، الذى فر مع ابراهيم بك ، يرجوه أن يعود قائلا : « أتوسل اليك أن تؤكد للباب العالى أنه لن تصيبه أية خسارة ، وانى أتعهد بأنه سيتسلم نفس الجزية التى كان يتسلمها من قبل » (١٩) • كذلك كتب للصدر الأعظم رأسا يعرض هذا التأكيدات نفسها ويقترح حلفا مع تركيا على الروسيا • ولم تظفر هذه الرسائل كلها بجواب ، ولم تصل كلمة من فرنسا عن مهمة تاليران •

ومع أن هدف بونابرت المزعوم من دخوله مصر كان اذلال الأمراء المماليك، فقد حاول التراضى معهم عقب معركة امبابة • ففى أول أغسطس ، وهو اليوم الذى وقعت فيه معركة أبى قير ، خول لكارلو روزيتى القنصل النمسوى بالقاهرة كامل السلطة فى أن يفاوض مراد بك ويعرض عليه حكم اقليم جرجا بالصعيد• واستقبل مراد روزيتى بترحاب ، وكان شديد الحب له ، وأعطاه هذا الجواب لبونابرت « قول الى الجنرال بونابرت يأخذ عساكره ويرجع الى اسكندرية ونحن

تدفع له ١٠٫٠٠٠ كيس ويتوجه الى بلاده » · « فان فعل حقن دماء جنوده ووفر على مشقة محاربته » (٢٠) · ولم يرسل بونابرت ديزيه ليتعقب قوات مراد ويقضى عليها الا بعد أن تلقى هذا الجواب ·

كان المماليك يتلقون الأنباء بأسرع مما يتلقاه بونابرت ، لأن البدو كانوا يتعاونون معهم · وأكبر الظن أن مراد بك كان يعلم بتدمير الأسطول الفرنسى حين أجاب هذا الجواب المتغطرس · أما ابراهيم بك ، الذى عرض عليه بونابرت عروضا مماثلة فى ١٢ أغسطس فى الصالحية فلا ريب أنه كان على علم بهزيمة الفرنسيين البحرية (التى كان بونابرت لا يزال يجهلها) فلم يتنازل بالجواب· وهكذا أصبح طرد الفرنسيين من مصر آخر الأمر مسألة وقت لا أكثر فى نظر المماليك ·

أما وقد تجاهل الباب العالى بونابرت وأهانه الأمراء المماليك ، فقد راح يجس نواحى أخرى فى صبر وأناة · ففى ٢٢ أغسطس أرسل ضابطا من أركان حربه يسمى الميجر « بوفوازان » ليسلم رسالة الى أحمد باشا والى عكا ـ الذى اشتهر بالجزار ، وهو لقب يعتز به ـ وكان هذا الشيخ الذى بلغ السبعين قد ظل عشرات السنين مسيطرا على الشام · وكانت وحشيته مضرب الأمثال ، وكذلك كان مقته الشديد للفرنسيين ·

وكان وجود الجزار أشد الأخطار تهديدا لبونابرت ، لأن فى استطاعته أن يحشد ويسلح جيشا من ١٠٠٫٠٠٠ جندى · ولم يستقبل الجزار بوفوازان ، ولكنه قرأ خطاب بونابرت الذى عرض فيه عليه معاهدة صداقة وتجارة · فاشتعل غضبه · وكان بوفوازان محظوظا لأنه نجا بجلده من عكا ·· وقال فى تقريره عند عودته ان يافا وعكا تغلى مراجلهما ، وقد خول الباب العالى للجزار القيادة العسكرية على الشام كله · ولم يعلم بوفوازان أن الباب العالى قرر ـ أثناء وجوده فى عكا ـ أن يعلن الحرب على فرنسا (*) ·

كذلك لم تظفر رسالتا بونابرت الى والى طرابلس ووالى دمشق برد · ولم يرد عليه مطمئنا سوى شريف مكة ، الذى كان يعتمد فى دخله على قوافل الحجاج القادمة من القاهرة ، وعلى صادرات البن الى مصر ، ولكن حتى عبارات شريف مكة المطمئنة تبين أنها تنطوى على الخديعة · ولا بد أن دعاوى صداقته للسلطان والاسلام بدت لهؤلاء الحكام جميعا ضربا من الصفاقة يقرب من الجنون ، لا سيما وأنها وصلتهم بعد أيام ، بل أسابيع ، من وصول سعاة السلطان التتار يحملون اليهم نبأ اعلان جلالته الحرب على الفرنسيين ·

(*) لقى الكبتن « ماتى دوشاتورينو » الذى ارسله بونابرت ليتصل بالقنصلين الفرنسيين فى اللاذقية وحلب مصيرا أسوا : فقد زج به الجزار فى السجن بمجرد نزوله الى البر ، ثم أعدمه فى عام ١٧٩٩ حين غزا بونابرت الشام (انظر الفصل التاسع) ·

وأثار اعلان تركيا الحرب ـ على الفور تقريبا ـ سلسلة من الكوارث لم يحط بها بونابرت تماما الاحاطة الا في ديسمبر ويناير • ففي أوائل سبتمبر دخل أسطول روسى مياه البوسفور ، فرحب به الأتراك أيما ترحيب ، وكأن آل مونتاجيو يرحبون بآل كابيوليت (*) • كذلك تلقى حسن باشا والى رودس في سبتمبر أوامر بأن ينضم الى البريطانيين ، المرابطين أمام الاسكندرية ، على رأس أسطول تركى • وفي أكتوبر استولى على باشا والى يانينا ـ الذى كان بونابرت يعلق الآمال على مودته للفرنسيين ـ على المنشآت الساحلية المواجهة للجزر الايونية ، بينما استولى الأسطول الروسى على زنته وايثاكا وكفالونيا ، وحاصر كورفو التى قامت حتى ٣ مارس • وفي نفس الوقت بنفسه ثار المالطيون على الفرنسيين ، فقرر قائدهم الجنرال فوبوا الجلاء عن الريف والاكتفاء بالدفاع عن المدن والقلاع • وفى ١٩ سبتمبر وصل أسطول برتغالى بقيادة الأميرال « دونيزا » أمام مالطة ، وعززته بعد قليل مراكب انجليزية • وأفلح فوبوا فى المقاومة عامين ، ولكن مالطة أصبحت عبئا على الفرنسيين أكثر منها كسبا لهم •

ولم يبدأ أكتوبر ١٧٩٨ حتى عرف كل مصرى لم يصبب بالعته أن السلطان صديق فرنسا وحليفها العزيز قد أعلن عليها الحرب • ومضى بونابرت فى تجاهله ونفيه للأمر على أنه شائعة خبيثة يذيعها الانجليز والمماليك والدراويش المتعصبون • وكانت له براعة مذهلة حقا فى فن وضع الغمامات على عينه اذا اقتضى الأمر • وظل بونابرت الى ٣٠ أكتوبر يتشكك فى صحة الفرمان الذى أذاعه السلطان على الشعب ضد الفرنسيين ، بعد أن قرأه كل امام ومؤذن فى كل جامع من جوامع مصر • فى ذلك اليوم أمر ترجمانه براكفيش ، وكبيرا من المسلمين تركى الأصل ، بالذهاب الى سفن الأسطول الانجليزى التركى المرابط أمام الاسكندرية بحجة المفاوضة العادية ليتسقطا ما يستطيعان من أنباء • ودهش الأتراك والانجليز وضحكوا حين رأوا المبعوثين يصلان فى سفينة ترفع الراية التركية • واستقبلوهما بمزيج من التهكم والأدب ، وسمحوا لهما بما يطلبان من أخبار سياسية • وكانت الأنباء مدهشة مفزعة ، فلم يصدق براكفيش الجنرال مارمون ـ الذى كان وقتها على وشك تسلم القيادة فى الاسكندرية ـ كلمة واحدة منها • وقد سلما بأن السفن التى ترفع العلم التركى سفن تركية حقيقية ولا ريب ، ولكن لا يمكن أن يكون الباب العالى هو الذى أرسلها هناك : انما التقطها الانجليز فى رودس بعد أن أوهموا الشيخ الهرم حسن باشا أن الباب العالى أعلن الحرب على فرنسا •

واذا كان بونابرت لا يزال يحيره شعور الشك ، فقد أرسل مبعوثا آخر

(*) الأسرتان المتخاصمتان فى مسرحية شكسبير « روميو وجوليت » • (المترجم) •

هو الملازم جبير الى الباخرة زيلوس فى نوفمبر بخطاب الى حسن باشا · وضحك الكومودور هود وسأل جبير : « اذن فأنتم تشكون فى أن إلباب العالى أعلن الحرب عليكم ؟ حسنا ، اننى أقسم لك بشرفى أنه فعل · وماذا يصنع الآن مسيو بونابرت ؟ » ولما ترجم له خطاب مسيو بونابرت الى حسن باشا « تظاهر هود بأنه يهتز من فرط الضحك » (٢١) · أما حسن باشا فقال انه لن يجيب لا شفويا ولا كتابة ، وعليه فقد عاد الملازم جبير الى البر ·

ومع ذلك ظل بونابرت يتظاهر بأنه غير مقتنع · فكتب فى ١١ ديسمبر ـ اى بعد أن سيق المواطن روفان الى قلعة الأبراج السبعة بثلاثة أشهر ـ خطابا الى « المواطن تاليران ، السفير الفرنسى بالآستانة » (٢٢) وآخر الى الصدر الأعظم · وبالطبع لم يكن بذلك القدر الذى تظاهر به من الجهل بالوقائع أو السذاجة · ولكن سياسة النعامة بدت له خير سياسة ، ما دام الاعتراف بحالة الحرب لن يكسبه شيئا ·

٣

تتميز دورة الحياة كل عام فى مصر بايقاع تلتقى فيه الشمس والقمر فالنيل الذى يخصب فيضانه السنوى التربة خاضع للشمس : تعلو مياهه صيفا وتنحسر فى الخريف مخلفة وراءها طبقة غنية من الغرين · أما التقويم الاسلامى الذى يحدد الأعياد الدينية فيتبع دورة القمر · وحدث فى عام ١٧٩٨ أن اتفق وقوع الاحتفال بوفاء النيل وبمولد النبى فى تاريخين لا يفصل بينهما أسبوع، هما ١٨ و ٢٣ اغسطس ، بعد استيلاء الفرنسيين على القاهرة بشهر · أما الفاتحون فكانوا يحسبون سنتهم بنظام آخر يعتمد على حسابات فلكية دقيقة ـ وهو تقويم الثورة الفرنسية ، الذى حل محل التقويم الجريجورى من سنة ١٧٩٢ الى ١٨٠٤ حين ألغاه نابليون · وقد لاحظ نقولا الترك بحق أن الثوار ادخلوا النظام الجديد « كى يغيروا الأشياء القديمة » (٢٣) · وبدأت السنة الفرنسية السابعة فى الذكرى السادسة للجمهورية الفرنسية ، أول فندمير الموافق ٢٢ سبتمبر ، وهو يوم الاعتدال الخريفى ·

ولم تفت بونابرت الفرص التى يتيحها التقاء الأعياد الثلاثة ، ولا عجب فهو أول سياسى استغل الدعاية بمعناها الحديث استغلالا كاملا · فعزم على أن يربط بين نفسه وجيشه ، وبين الاحتفالات التى تحيى ذكرى أحداث منحت أهل مصر رزقهم ودينهم ، وأن يربط بين شعب مصر وبين الاحتفال الذى تحيى به الجمهورية الفرنسية الأولى مولدها وعهد التقدم والعقل الجديد · وهكذا يصبح هذا رمزا للصلة الأخوية بين الفرنسيين والمصريين ، وفى غمرة هذه الاحتفالات يخف وقع الصدمة التى أحدثتها هزيمته فى أبى قير ·

فما أن أشرقت شمس يوم ١٨ أغسطس حتى اتخذ الجنرال بونابرت مجلسه على منصة مقامة فى كشك عند ملتقى النيل بالخليج ، ليشرف على أول هذه الاحتفالات وجلس بجواره قواده فى ثيابهم العسكرية وقد اختلط بهم أعضاء ديوان القاهرة وغيرهم من أعيان المسلمين فى عماماتهم البهية ، ولحاهم الكبيرة ، وقفاطينهم ذات الأهداب المصنوعة من الفرو ، والتى تنبىء بمكانتهم • ولا يكاد المرء يصدق أن المسلمين أو الفرنسيين كانوا يطيقون لبس هذه الثياب تحت شمس أغسطس المصرية • ووقف شطر من الحامية الفرنسية فى تشكيلات العرض ، وراحت فرقهم الموسيقية الجمهورية تصدح تارة ، وآلات المصريين الحادة تعزف تارة أخرى • ثم كفت الموسيقى ، وقرأ أحد الأعيان اعلانا مفاده أنه وقد زاد « النيل المبارك » على ستة عشر قيراطا حسب مقياس الروضة ، وجب الشكر لله واستحق دفع الميرى للجباة • وقوبل هذا الاعلان بطلقات المدافع من البطاريات الفرنسية المقامة على الشلطىء وعلى الأسطول النيلى ، وكذلك قوبل الاحتفال الوثنى العجيب الذى يلقى فيه تمثال امرأة فى النهر • (وكانت تقدم فى العصور القديمة عذراء حقيقية ، مفروض أنها أجمل عذارى مصر ، قربانا لاله النيل ، وظلت هذه العادة مرعية فى أوائل العصر المسيحى ، الى أن أحل المسلمون الرمز محل الحقيقة ، اما لأنهم كانوا ينتفعون بالعذارى الجميلات انتفاعا أفضل ، واما لأنهم وجدوا مشقة فى الحصول عليهن) (*) •

وبينما كانت الفرقتان تعزفان قطع الجسر الذى يفصل النيل عن القناة ، وأعلنت طلقات مدافع أخرى تدفق الماء وهو يملأ مجرى القناة ويحمل معه أسطولا من الزوارق والصنادل • وما لبث ماء الفيضان أن غطى ريف القاهرة وكثيرا من شوارعها وميادينها التى استحالت الى فينيسيا افريقية • وفى الليل أضاءت المدينة فوانيس القوارب الملونة • وكان ميدان الأزبكية الذى نزل فيه بونابرت يتحول عادة فى مثل هذا الوقت من العام الى بركة كبيرة « ترى فيها الطيور تطفو على صفحة الماء كأنها النجوم تسبح فى القبة الزرقاء » (٢٤) على حد قول الشاعر (**) • ولكن هذا لم يحدث فى عام ١٧٩٨ : فهو اذ رغب فى استعمال الميدان متنزها لمدفعيته ، اتخذ التدابير لمنع المياه من الوصول اليه ، فانتشرت فيه المدافع بدلا من الطيور •

(*) « ••• وركب « بونابرت » صحبتهم بموكبه وزينته وعساكره وطبوله وزموره الى قصر قنطرة السد وكسروا الجسر بحضرتهم وعملوا شنك مدافع ونقوطا حتى جرى الماء فى الخليج » الجبرتى ج ٣ ص ١٥ •

(**) لعل الشاعر هو الشيخ حسن العطار ، صديق الشيخ الجبرتى ، الذى يروى وصفه لبركة الأزبكية فى أبيات منها :

بالأزبكية طابت لى مسرات ولذ لى من بديع الأنس أوقات

حيث المياه بها والفلك سابحة كأنها الزهر تحويها السماوات

(جـ ٣ ص ١٠٢) ـ المترجم

وشاء بونابرت أن يعتبر الاحتفال بوفاء النيل نجاحا شخصيا عظيما على الرغم من انعدام الحماسة الشعبية بصورة واضحة · فذكرت صحيفة « بريد مصر » (وهي أول صحيفة تطبع في مصر) أنه في عودته الى الأزبكية كان يتبعه « حشد كبير من الناس يتغنون بمدح الرسول والجيش الفرنسي » (٢٥) وهي مبالغة صحفية ينفيها الجبرتي ـ المؤرخ المتزن ـ نفيا باتا ·

وكانت الاحتفالات بالمولد النبوى ستبدأ في ليلة ٢٠ أغسطس · وقد أقيمت بأمر بونابرت بعد أن قرر الزعماء الدينيون العدول عن الاحتفالات العامة في ذلك العام بسبب « تعطيل الأمور وتوقف الأحوال » وبلغ الضجيج والفوضى غايتهما مدى ثلاثة أيام وثلاث ليال ، وتحولت شوارع القاهرة الى سوق ليلية ، بينما سار الألوف في مواكب يحملون المشاعل والشموع الكبيرة وينشدون « أغاني كلها نشاز ، ترافقها موسيقى أكثر نشازا » (على حد قول الميجر ديتروا) « ويتصايحون ويزعقون ويحـــدثون ضجيجا شـــنيعا » (٢٦) وفي ٢٣ أغسطس بلغت هذه الأفراح ذروتها · يقول ديتروا في يوميته : « ان الميادين العامة حافلة بالمعارض والفرج الصغيرة ـ فترى فيها الدببة والقردة المدربة ، والمغنين والمغنيات ينشدون أدوارا يجاوبهم فيها آخرون ، والنسوة يغنين الأشعار ، والحواة يأمرون الثعابين فتختفي ، والأطفال يرقصون رقصات غاية في الفجور ·· وظهر الدراويش عند المساء : والشعب يجل هؤلاء المتعصبين الذين يطلقون شعورهم ويســـيرون عراة تقريبا ·· واجتمع الأتقياء في حلقات يجلس فيها الرجال متلاصقين وقد عقد كل منهم ذراعه بذراع صاحبه · ثم بدأوا يهتزون في حركة عنيفة أفرادا وجماعة ذات اليمين وذات اليسار ، ورافق حركتهم التلوى العنيف ، واستمرت الى أن خارت قواهم » (٢٧) وقد دهش الفرنسيون من أمر الفقراء الدراويش · كان كثير منهم يجرون هنا وهناك عراة تماما « في نشوة دائمة » كما ورد في تقرير للجنة العلمية ، ولم يكن شيء من الأشياء محظورا عليهم · كانت النسوة يتبركن بالاتصال بهم ، وفي الأعياد يؤلفن نطاقا حول الولى ومن اختارها لحمايتهما » (٢٨) ·

وبينما كان الميجر ديتروا يرقب هذه المشاهد في شيء من الدهشة والحيرة، كان الجنرال بونابرت يحضر الصــلاة التي قامت في بيت الشيخ البكرى في وقار وهدوء ، وكان قد خلع على الشيخ فروة وقلده نقابة الأشراف · ولا بد أن شخصه الضئيل العصبي ـ وهو متربع على وسادته وقد زرر سترته السوداء الى ذقنه وبدا رزينا وقورا ـ كان يختلف اختلافا عجيبا عن المشايخ بقفاطينهم وعماماتهم ، وهم يهتزون بانتظام اذ يسمعون آيات القــرآن تتلى ، ويتلون صلواتهم على مسابحهم · وما من شك في أن عقله كان شاردا في أشياء غير التي تجرى أمامه ، وآية ذلك هذه القائمة المختارة من وجوه نشاطه في تلك الأيام ·

ففى ٢٢ اغسطس أملى فيما أملى تعليمات للجنرال ديزيه عن العمليات الحربية الموجهة ضد مراد بك ، وتعليمات للجنرال ديجوا موصيا اياه بأن يقطع رقاب تسعة أو عشرة على الأقل من أهل المنصورة عقابا وتأديبا ، وتعليمات للجنرال فيال لحماية المنشآت الخيرية والأماكن المقدسة ، وخطابا للصدر الأعظم يزعم فيه صداقته للسلطان ، وتعليمات للميجر بوفوازان عن بعثته لدى الجزار باشا ، وخطابا للجزار ، وعدة أوامر مشددة خاصة بالمعاملات المالية غير القانونية ، وأمرا بتكليف الأطباء والجراحين الذين لم يذهبوا ذلك اليوم لعيادة المرضى بأحد عنابر المستشفى العسكرى بالذهاب الى المخفر ، وقائمة بالأعضاء ولائحة للمجمع العلمى المصرى الذى أسسه فى ذلك اليوم تحقيقا للأغراض التالية :

١ ــ النهوض بالعلوم فى مصر ونشرها ٠

٢ ــ بحث ودراسة ونشر المعلومات الطبيعية والصناعية والتاريخية عن مصر ٠

٣ ــ ابداء الرأى فى مختلف المسائل التى تطلب فيها الحكومة المشورة (٢٩) ، وأمرا بتحديد رواتب كتيبة الانكشارية بالاسكندرية ٠

وفى ٢٣ أغسطس أملى الجنرال أمرا بأن ينشأ فى القلعة فرنان للخبز ومخزن للطعام ومستشفى لاستعمالها فى حالة الحصار ، وأمرا بالاستيلاء على ٣٠٠٠ جواد ، وأمرا فى النشرة اليومية يحرم على جميع القواد الصغار فرض التبرعات على السكان ويأمرهم بأن يمنعوا الفلاحين من تجاوز أنصبتهم من ماء النيل والترع ٠ وقبل ذهابه لبيت البكرى حضر أول اجتماع عقده المجمع العلمى المصرى ، **واقترح عليه أن يبحث المسائل الآتية :**

١ ــ هل من الممكن تحسين أفران الخبز ، وكيف ؟

٢ ــ هل من سبيل لصنع الجعة بدون حشيشة الدينار (التى لا تنمو فى مصر) ؟

٣ ــ وما هى الطرق التى تستعمل فى مصر لتنقية ماء النيل ؟

٤ ــ وأى الطواحين أصلح من الناحية العملية للقاهرة : طواحين الهواء أم الماء ؟

٥ ــ وهل فى مصر موارد طبيعية تعين على صنع البارود ؟

٦ ــ وما الموقف عموما فى مصر من ناحية القانون المدنى والقانون الجنائى وتدريس القانون ، وهل يمكن ادخال تحسينات يتقبلها الأهالى ؟

وزاد بونابرت على هذه الأسئلة التى تتفاوت من التافه الى الجليل ، أن جعل المجمع ينتخبه نائبا للرئيس . فاتخذ ، فى تواضع ، المكان التالى لمونج الذى أصبح رئيسا .

والبون شاسع بين المجمع العلمى المصرى وصلوات مشايخ الأزهر ، ولكنه لا وجود له عند نابليون بونابرت ، الذى كان أشبه بحرباء بشرى يستطيع فى لحظة أن ينقلب من المحارب الى المشرع أو العالم أو اللاهوتى . فتجده فى اليوم التالى ، ٢٤ اغسطس ، يصدر التعليمات فى هدوء لتحويل مسجد الصالحية الى قلعة ، وفى اليوم التالى يأمر بحرق قرية علقام التى وقع فيها ستة عشر فرنسيا فى كمين وقتلوا ، ومصادرة ما فيها من ماشية وغلال ، وسوق أعيانها الى القاهرة رهائن ، ولعل هذه هى الامور التى كان يقلبها فى عقله وعليه سيماء التقى والورع ، بينما كان الشيوخ يتلون أورادهم على مسابحهم .

وفرغ القوم من صلاتهم واتخذ بونابرت مجلسه ضيفا للشرف فى وليمة للشيخ . وقاوم فى بطولة شعور الغثيان الذى لابد قد غالبه وهو يرى أمامه شحم الضأن ، وولغ بيده فى تلال الأرز واللحم وأطايب الطعام المقدمة على صوان نحاسية مستديرة ضخمة . ثم قدم عصير الليمون ليغسل هذا كله . وتلا الوليمة عرض عسكرى ، ثم سار جميع الضباط تسبقهم فرقة موسيقية عسكرية ويرافقهم حملة المشاعل فى موكب الى بيت البكرى ، ويقول ديترو ان هذه الأفراح اختتمت ب « عرض حقير للصواريخ » .

وأقيمت احتفالات مماثلة فى غير القاهرة من المدن ، وصدرت الأوامر للقواد الفرنسيين بالمشاركة فيها . وقد راع الجنرال كليبر فى الاسكندرية وهو يحضر وليمة فى بيت الشيخ المسيرى أن يرى الأرز يقدم فى ثلاثة ألوان اكراما للجمهورية الفرنسية .

على أن محاولة التقريب بين الفرنسيين والمسلمين تبين أنها محاولة من جانب واحد لسوء حظ بونابرت ، وخلافا لما توقعه . حدث حين ألبس بونابرت الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس ديوان القاهرة طيلسانا مثلث الألوان على كتفيه تكريما له ، أن احمر وجه الشيخ غيظا وألقاه على الأرض ، وتغير وجه بونابرت غضبا . وأوضح الترجمان فنتور للمشايخ أن الطيلسان قصد به تكريم يرفعهم فى عيون الفرنسيين ، فأجابوا « لكن قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا من المسلمين » (٣٠) .

وأذعن بونابرت لمشيئة المشايخ فى أمر هذه الطيالس ، ولكنه أصر على أن يضعوا فى صدروهم على الأقل الشارة المثلثة الألوان (الجوكار) . فتعودوا أن يشبكوا الشارة قبل أن يدخلوا حجرة بونابرت ويخلعوها حال مغادرتها .

وما لبث الأمر كله أن تنوسى شيئا فشيئا فى هدوء ، ولكن بعد كفاح من بونابرت • فذات يوم راع ضباط أركان حربه أن يروه مرتديا الملابس «التركية» ليستقبل بها الديوان حتى يخجل المشايخ ويحملهم على أن يضعوا الشارة على الأقل • ويروى أن تاليان أقنعه بخلع هذا الزى • ويذكر بوريين هذه الواقعة فيقول : « كان يبدو مضحكا فى عمامته وقفطانه ، وغلب عليه الارتباك والخجل فى هذا الرداء الذى لم يألفه ، فبارح الحجرة ليخلعه ، ولم تحدثه نفسه بعدها بالعودة الى هذه المسخرة » (٣١) •

وظن بونابرت أن الاحتفال بالسنة الفرنسية الجديدة فى ٢٢ سبتمبر يتيح له فرصة ربط الشعب المصرى بالعادات والنظم الفرنسية • وكانت اجراءات الاحتفال مهزلة متقنة • وقد وصفها الشيخ الجبرتى وصحيفة بريد مصر من زاويتين مختلفتين تقريبا • بدأ اليوم باطلاق المدافع ثلاث مرات عند شروق الشمس ، ثم دقت الطبول لتدعو جميع الجنود للاجتماع فى ميدان الأزبكية • وفى الميدان رسمت دائرة واسعة أقيم عليها ١٠٥ عمودا (يسميها الجبرتى أخشابا منتصبة) يزين كلا منها العلم الفرنسى ، وترمز كلها لأقسام الجمهورية ال ١٠٥ • وكان يربطها بعضها ببعض « فستون » رمزا على وحدة الجمهورية وتماسكها (ويسميه الجبرتى حبالا) • وفى طرف من الميدان أقيم قوس نصر رسم عليه ريجو معركة امبابة ، وفى الطرف الآخر بوابة كتب عليها بالعربية « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » • وفى الوسط صار أو مسلة (*) تعلو سبعين قدما وعليها نقوش مناسبة بالعربية والفرنسية ، وقد رسم عليها (كما تقول صحيفة بريد مصر) « سبعة مذابح على الطريقة القديمة ، تختلط بها الشموع ، وتستند عليها تذكارات الانتصارات الحربية تعلوها الأعلام المثلثة الألوان وأكاليل الغار » (٣٢) وبينما كان القائد الأعلى وضباطه وكبار موظفيه الاداريين فرنسيين ومسلمين وأقباطا ، وأعضاء اللجنة العلمية يجلسون على منصة مفروشة بالأبسطة الفاخرة ، كانت فرق الموسيقى العسكرية « تصدح بالمارشات الحربية وتعزف الألحان الوطنية وأناشيد النصر المحببة الى جميع الجمهوريين) (٣٣) • أما الجبرتى فيقول : « ثم ان العساكر لعبوا ميدانهم وعملوا هيئة حربهم وضربوا البنادق والمدافع فلما انقضى ذلك اصطفت العساكر صفوفا حول ذلك الصارى وقرأ عليهم كبير قسوسهم ورقة بلغتهم لا يدرى معناها الا هم ، وكأنها كالوصية أو النصيحة أو الوعظ » (٣٤) • ولم تكن هذه العظة سوى اعلان من بونابرت قرأه أحد ضباطه واختتم بهذه الكلمات « ان أربعين مليونا من اخوانكم المواطنين

(*) يقول نقولا الترك « واما أهالى مصر فكانوا يقولون ان هذه شارة « الخازوق » الذى أدخلوه فينا واستيلائهم على مملكتنا • واستمر هذا العمود نحو عشرة أشهر • وحينما رفعوه استبشرت أهل مصر وابتهجت بالفرح » • ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية ص ٤٥ •

يفكرون فيكم ، وكلهم يقول « سيكون لجهودهم ودمهم الفضل فيما نستمتع به من عميم السلام والأمن والرخاء وثمرات الحرية المدنية » (٣٥) . وان المرء ليساوره الشك فى أن مثل هذه الملاحظات أجمع عليها الكل حقاً .

وتلا الاعلان هتافات بحياة الجمهورية ، ونشيد طويل جدا ألف خصيصا لهذه المناسبة (*) ، ثم وليمة أولها بونابرت لمائة وخمسين ضيفا . وكان للعوائد الفرنسية هذه المرة الصدارة على العوائد المصرية ، وانتقم المضيف هذه المرة من الشيوخ ، لأنهم اضطروا للأكل بالشوكة والسكين . وكان نخبان من الأنخاب يلفتان النظر . قال مونج : « لنشرب نخب النهوض بالفكر الانسانى وتقدم العقل » وقال بونابرت : « لنشرب نخب عيد الجمهورية الفرنسية الثلاثمائة ! » وهو الذى كان مزمعا أن يدفن هذه الجمهورية بعد ست سنوات .

ثم تلا ذلك سباق للخيل بعد الظهر لم يذكره الاخباري العربي ، ربما لأن الجواد الرابح فيه كان فرنسيا . يقول : « وعند الغروب أوقدوا جميع التناديل وعملوا حراقة بارود وصواريخ ونفوط وشبه سواقي ودواليب من نار ومدافع كثيرة نحو ساعتين من الليل . واستمرت القناديل موقدة حتى طلع النهار » . ويمضي الجبرتى — على عكس صحيفة بريد مصر — فيصف الحالة في صباح الغد : « ثم فكوا الحبال والتعاليق والتماثيل المصنوعة وبقيت البوابة المقابلة لباب الهواء والصارى الكبار وتحته جماعة ملازمون الاقامة عنده ليلا ونهارا من عساكرهم لأنه شعارهم واشارة الى قيام دولتهم فى زعمهم » (٣٦) .

كذلك رتب بونابرت اطلاق بالون فى الجو لهذه المناسبة ، ولكن «كونتيه» كبير طيارية لم يسعفه فى الوقت المناسب ، ولم يطلق بالون خال من الركاب الا فى أول ديسمبر — وخال لأن أحدا لم يرد التطوع بطيران قد يحط به وسط خيام البدو . وحالف العرض سوء الطالع ، فاشتعلت النار فى البالون ، وهبط الجندول (أو الدائرة كما يسميها الجبرتى) وهو يبعثر كمية من المنشورات المطبوعة . وشعر المصريون أنهم خدعوا . يقول الجبرتى — وهو شاهد عيان — فلما حصل لها ذلك انكسف طبعهم لسقوطها ، ولم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب تسير فى الهواء بحكمة مصنوعة ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون فيها الى البلاد البعيدة ... بل ظهر أنها مثل الطيارة التى يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح » (٣٧) . واغتاظ كونتيه من هذا الأثر الذى أحدثه اخفاقه — ومعلوم أن بعضهم عبر المانش عدة مرات بالجو — فبذل محاولة أخرى بعد حين . ويقول الجبرتى : « وصعدت (الطيارة) الى الأعلى

(*) الكلمات لبارسيفال جرانميزون ، والموسيقى لريجل

ومرت الى أن وصلت تلال البرقية وسقطت . ولو ساعدها الريح وغابت عن الأعين لتمت الحيلة وقالوا انها سافرت الى البلاد البعيدة بزعمهم » (٣٨) .

وفشل اطلاق البالونات فشلا ذريعا بوصفه وسيلة للدعاية . ولا عجب في هـذا ، فالشعب الذى ابتكر قصص ألف ليلة لا ينخدع الا بسحر أكبر من هـذا .

ولم تخفق مهارة بونابرت البهلوانية فى التأثير على المصريين فحسب . بل ان « مالو » ، العالم الطبيعي الذى وكل اليه تنظيم عرض ٢٢ سبتمبر الوطنى ، وجد مهمته « مهدئا هزيلا للكآبة التى رانت على حينا » . (وكان يذوب شوقا لخطيبته الألمانية الموجودة فى جسن ، والتى لم يصله منها سوى خطاب واحد في ثلاث سـنوات) . يقول « في هذه الفترة كان هذا الوباء النفسى ينتشر بسرعة فى الجيش . وكنا قد بدأنا نفيق من أوهامنا عن موقف السلطان من الحملة ، ولم نر فى المستقبل أملا ولا راحة للنفس . وهكذا احتفلنا بالعيد الأول من فندميير بلا حماسة » (٣٩) .

٤

حين وصل الجنود الفرنسيين القاهرة أول مرة فى يوليو ١٧٩٨ بدت المدينة خاوية على عروشها ، لا يرى فى شوارعها الا السارقون المتلصصون . أما التجار الأغنياء من أهلها الذين لم يهربوا فقد تحصنوا في بيوتهم . وأخذ غيرهم ، ومنهم كثيرات من زوجات المماليك وجواريهم ، يضربون في الريف هروبا من شياطين الفرنسيين داخل المدينة ، والبدو خارجها . ولابد أن القاهرة كلها بدت كبيرة الشبه بمدينة الموتى الغريبة المترامية ، التى ما زالت تنبسط على حافتها الشرقية ـ تيها من الدروب الضيقة الخاوية ، لا حياة فيها الا أن تكون حياة الكلاب والقطط الضالة ، ونسوة عجائز مقنعات يمضين خفية لقضاء مهمتهن الغامضة ، وجنازة تسير من الحين للحين يحمل فيها المشيعون الميت المكفن على نعش فى خطوات سريعة .

أما أول العناصر التي طلعت الى النور بعد وصول الفرنسيين فهى تلك التى يتوقع الانسـان طلوعها ، وهم بضـعة من النزلاء الأوربيين الشـاكرين للفرنسيين انقاذهم اياهم ، وباعة متجولون يتجرون فى كل سلعة حتى البغايا . وقد نجح الجاويش فرانسوا ، ومن صفاته المبادرة بتعرف أحوال البلاد ، فى أن يتلقى دعوة وجهها اليه صيدلى ايطالى للافطار فى الساعة الثامنة من صباح ٢٦ يوليو . وكان الافطار يتألف من سلطانية كبيرة من القهوة المخلوطة بلبن العنز والويسكي (٤٠) . وشهادة فرانسوا هذه خليقة بأن تدعم نهائيا الرأى

القائل بأن السلف القديم للقهوة الغالية (أى الفرنسية) قدمه ايطالى لفرنسى بالقاهرة فى عام ١٧٩٨ • وبعد أن أطلقت قهوته المعطرة لسانه ، راح يكشف لفرانسوا عن حقائق الحياة فى مصر ، قال : « ان الجميع خائفون • ولا يدور حديثهم الا عن المتاعب والفقر المنتشر ، والسرقات ، والقتل • فليس هناك أمن — لا على الحياة ولا على الأملاك • انهم يسفكون دم الانسان كأنه ثور ، ورجال البوليس فى جولاتهم بالليل والنهار يحاكمون ويحكمون وينفذون أحكامهم فورا دون استئناف • وهم يسيرون مصطحبين الجلادين ، وما ان يصدر الأمر حتى يسقط رأس شيطان مسكين » (٤١) • أما الموقف فى أمر النساء فسيىء جدا • على أن هناك مثلا تركيا يمكن الاهتداء به ، هو : خذ المرأة البيضاء لعيونها ، والمصرية للمتعة •

وكان موقف الفرنسيين فى أمر خمورهم محزنا ، فانظر الى هذه الاستغاثة المؤلمة التى شغلت ست صفحات مطبوعة وجهها الكولونيل سافارى ياور ديزيه فى ٢٤ يوليو الى مندوب الاسكندرية • فقد عدد دوق روفيجو العتيد الأمتعة الشخصية المطلوبة لديزيه وضباطه (ومنها متعلقات الكولونيل راب ، وهى بقرة ، وحقيبة كبيرة ، وملة سريره) ثم قال : « اذا استطعت أن تشترى زجاجات من الروم الجيد فارسلها ••• وليس عندنا طباخ ، فان وجدت طباخا فأتنا به •• اننا نعيش هنا أسوأ مما عشنا فى أى وقت • ليس عندنا قطرة نبيذ أو خمر ••• تذكر : نبيذ ، وخمر ، وروم • كأنى بنا نفتقر الى الشراب هذا الافتقار الشديد منذ قرون • والقليل الذى يوجد منه هنا ردىء غاية الرداءة ، فاحش الغلاء ، يستحيل العثور عليه ••• وداعا ، اننا فى انتظارك • فابذل جهدك • وتذكر قبل كل شيء أنه لن يكون لدينا أى نبيذ أو خمر الا ما تأتينا به ، وأن أربعة عشر صندوقا خشبيا من الصناديق الستة عشر تخص الجنرال بونابرت • فأستحلفك بالله أن تجلب بعض النبيذ والخمر من الناقلات • ان الجيش كله مصاب بالاسهال بسبب ماء الشرب • فبحق الله أسعفنا بالنبيذ والخمور والروم ، ولا تنس أمتعة الجنرال بليار ! » (٤٢) •

ولكن صلاة سافارى الظامئة للخمر لم تصل قط الى يد من وجهت اليه : فقد وقعت فى يد بعض البدو ، فنقلوها الى البريطانيين الذين طبعوها مع غيرها من الرسائل التى استولوا عليها فى الطريق ليثبتوا للعالم أن الجيش الفرنسى مقضى عليه بالهلاك • ومع أن نقص النبيذ والخمور قد خف بعض الشيء بمضى الوقت بفضل المهارة الفرنسية ، فانه ظل خطيرا طوال الاحتلال وكان عاملا كبيرا من عوامل هبوط معنوية الجيش •

ولم يمض طويل وقت حتى أدرك المصريون أن الجندى الفرنسى — على خلاف ما صوره لهم ابراهيم بك من أنه شيطان طول أظافره قدم — كان فتى

دمثا طيب القلب (اذا لم يستفز) ، غير فارع القامة ، رث الثياب ، قليل الاعتداد بكرامته ، مستغدا لانفاق راتبه ، ظمآن للشراب · يقول الملازم فرتراى الذى كان يخرج للفرجة فى شوارع القاهرة كل يوم « كان جنودنا يسيرون فى الشوارع كأنهم فى معسكر بفرنسا » · ويؤيد الجبرتى هذه الشهادة هذه المرة فيقول : « ومشوا فى الأسواق من غير سلاح ولا تعديل صاروا يضاحكون الناس ويشترون ما يحتاجون اليه بأغلى ثمن · فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطى صاحبها فى ثمنها ريال فرانسه ، ويأخذ البيضة بنصف فضة قياسا على أسعار بلادهم وأثمان بضائعهم ·· وفتح غالب السوقة الحوانيت والقهاوى » (٤٤) ·

وفى الأسبوع الأول من سبتمبر أرسل الجنرال كليبر من الاسكندرية ، بناء على طلب بونابرت جميع الموظفين المدنيين ، الذين لم تكن لهم بهم حاجة ماسة · ولم يكن بينهم المهندسون والعلماء والكتبة فحسب ، بل التجار المغامرون الذين رافقوا الحملة طمعا فى الربح · وقد أشار اليهم كليبر فى خطاب كتبه لبرتييه بقوله : « ذلك الدود الكثير الذى يتبع جيوشنا كما يتبع حيوان القرش المراكب ، والذى يقصر دونه الوصف » (٤٥) · وقد فتح بعض هذه الدود الحوانيت فى القاهرة لسد حاجة الزبائن الفرنسيين · ويصف الجبرتى عادة جديدة أدخلوها فيقول : « وفتح بعض الافرنج البلديين بيوتا يصنع فيها أنواع الأطعمة والأشربة على طرائقهم فى بلادهم فيشترى الأغنام والدجاج والخضارات والأسماك والعسل والسكر وجميع اللوازم ويطبخه الطباخون ويصنعون أنواع الأطعمة والحلاوات ··· وفى الوسط دكة من الخشب وهى الخوان التى يوضع عليها الطعام وحولها كراسى ، فيجلسون عليها ويأتيهم الفراشون بالطعام على قوانينهم فيأكلون ويشربون على نسق لا يتعدونه وبعد فراغ حاجتهم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة ويذهبون لحالهم » (٤٦) ·

وفتح أحد العبيد المالطيين الذى حرره الفرنسيون مؤسسة تختلف قليلا عن هذه الحوانيت · كانت مقاهى القاهرة ـ الى الوقت الذى بذل فيه المالطى هذه المحاولة الريادية ـ أقرب الى الحوانيت منها الى المقاهى بمعناها المفهوم فى الغرب · ففتح هذا العبد المعتوق ، القادم من حلب ، قهوة · يقول الجبرتى انه « جمع الناس للجلوس فيهـا والسهر حصـة من الليل ··· فاستأنسوا بالاجتماعات والتسلى والخلاعات ، وعم ذلك جهات تلك الخطة » ووافق ذلك هوى العامة لأن أكثرهم مطبوع على المجون والخلاعة وتلك هى طبيعة الفرنساوية ·· فصاروا يجتمعون عنده للسمر والحديث واللعب والممازحة ويحضر معهم ذلك الضابط (الذى كان المالطى ترجمانه) ومعه زوجته وهى من أولاد البلد المخلوعين أيضـا » (٤٧) ·

ولم يكن الضابط الفرنسى الذى يشير اليه الجبرتى هو الوحيد الذى اتخذ

له زوجة مصرية • فقد درج الفرنسيون في مصر ، سواء أكانوا متزوجين في بلادهم أم عزابا ، على الزواج بفتيات مسلمات ، وهو زواج صرح الشيوخ بأنه شرعى ما دام العريس قد نطق بالشهادتين •

أما الفرنسيون الزاهدون فى الزواج ، الذين لا يصبرون على العزوبة ، فكانت أمامهم وسائل أخرى أكثرها غير واف بالغرض • فقد رافق الجيش الى مصر نحو ٣٠٠ إمرأة أكثرهن تسلل على السفن ، ولكن الحسان القليلات منهن كن اما مراهقات ، واما حكرا للبعض • وكانت البغـايا من السكان كثيرات رخيصات ، ولكنهن ـ فيما خلا قلة من صغيرات السن ـ كن غير مغريات ، قبيحات ، مصابات بالأمراض • وقد حل بعض كبار الضباط مشكلتهم دون أن يبذلوا جهدا يذكر ، ومنهم الجنرال بيريه الذى كان فى وسعه أن يكتب لصديقه الكابتن لوجواى « لقد ترك لنا الأمراء المماليك بعض النسوة الأرمنيات والكرجيات اللطيفات اللائى استولينا عليهن لصالح الأمة » (٤٨) • (ترى ماذا كان رأى مدام بيريه فى هذا الكلام حين قرأته فى مجموعة الرسائل التى ضبطها الانجليز ونشروها) • ويقول الجبرتى ان الجوارى السود كن أشـد رغبة واستعدادا حتى من الأرمنيات أو الكرجيات • « وأما الجوارى السود فانهن لما علمن رغبة القوم فى مطلق الأنثى ذهبن اليهم افواجا ، فرادى وأزواجا ، فنطّطن الحيطان ، وتسلقن اليهم من الطيقان ، ودلوهم على مخبآت أسيادهن ، وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك » (٤٩) • وقد لاحظ الجبرتى وغيره من الاخباريين العرب عموما غرام الفرنسيين بالنساء ، ولعلهم ما كانوا يلحظونه لو كان الفرنسيون يؤثرون الغلمان • والعجيب أنه ليس هناك دليل على أن الفرنسيين فى مصر قلدوا العادات المحلية فى هذه الناحية ، وهو دليل على أن فرنسا طرأ عليها تغير كبير منذ ذلك الحين •

وقد جر ولع الفرنسيين العجيب بالنساء استهتارا خطرا بالآداب العامة ، كما يقول الجبرتى الصـارم ، سببه أولا هـذه الحرية المفرطة التى أباحوها لنسائهم •

يقول الجبرتى : « ومنهـا تبرج النساء وخـروج غالبهن على الحشمة والحياء ، وهو أنه لما حضر الفرنسيس الى مصر مع البعض منهم نساؤهم ، كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه ، لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى ، والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمـير ويسوقونها سـوقا عنيفا مع الضـحك والقهقهة ، ومداعبة المكارية معهم ، وحرافيش العامة ، فمالت اليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش • فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن ، وكان ذلك التداخل أولا مع بعض احتشام ، وخشية عار ، ومبالغة

فى اخفائه . فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا فى أهلها ، وغنموا أموالها ، وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات ، صرن مأسورات عندهم ، فزيوهن بزى نسائهم وأجروهن على طريقتهم فى كامل الأحوال . فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية . وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر . ولما حل بأهل البلاد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات فى حوزة الفرنسيس ومن والاهم ، وشدة رغبتهم فى النساء وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ـ ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها ـ فطرحن الحشمة والوقار ، والمبالاة والاعتبار ، واستملن نظراءهن ، واختلسن عقولهم ، لميل النفوس الى الشهوات ، وخصوصا عقول القاصرات » (٥٠) .

ومع أن « الوباء النفسى » الذى أشار اليه مالو واصل انتشاره بين القوات الفرنسية فى مصر ، فان المعسكرين منهم فى القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة حاولوا الصبر على هذا الموقف وتحسينه قدر الاستطاعة ، والاستقرار فى نظام لا يختلف عن نظامهم فى أرض الوطن الا أقل اختلاف . ولو أخذنا نموذجا ـ كيفما اتفق ـ من الاعلانات التى تنشرها صحيفة « بريد مصر » لتبينا كيف نقلت قطعة من باريس الى القاهرة : « فى نهاية الشهر الفينيسى ، فى بيت المواطن الطبيب فولمار ، يوجد مصنع للمشروبات والخمور بجميع أنواعها والطافيا والمشروبات الكحولية وغيرها من السلع الأوربية الطراز » (*) ، « المواطنون فور ونازو وشركاؤهما ، يصنعون جميع أنواع المشروبات فى ميدان بركة الفيل قرب المستشفى رقم ٢ بأسعار معتدلة » ، « حمامات فرنسية . خلف ميدان بركة الفيل » ، « تبغ فرنسى من جميع الأنواع مصنوع فى بيت محمد كاشف بشارع بتى توار ، أمام المطعم الميلانى » ، « حانوت القبعات الفرنسية يحيط المواطنين الفرنسيين بأنه أنشأ مصنعا للقبعات خلف مكتب البريد » . « كوتشينة جميلة تباع فى مطبعة الجيش » . « فور وجيشار ، وشركاؤهما . صانعون وتجار تجزئة لجميع أنواع المشروبات والخمور المستوردة ، النبيذ والقهوة والسكر والعطور .. الخ .. الخ » (٥١) (ويبدو أن المواطن فور الذى كان شريكا للمواطن نازو أول الأمر قد غير الشركة وتوسع فى تجارته) .

ولم تكن هذه المتع المرتجلة ، المذكرة للفرنسيين بوطنهم ، وقفا على المعسكرين فى القاهرة أو المدن القريبة منها ، بل استمتع بها أفراد الوحدات المعسكرة فى أماكن نائية . فيؤكد لنا الجاويش فرانسوا المعسكر فى بلبيس أن الكانتينات زودت بكل ما يشتهيه الانسان ، من الفطائر الفرنسية إلى النبيذ

(*) ويقول نقولا الترك « وخرجت النساء خروجا شنيعا مع الفرنساوية ، وبقيت مدينة مصر مثل باريس فى شرب الخمر والمسكرات والأشياء التى لا ترضى رب السماوات » .

وعرقى البلح ، فضلا عن خادمات الكانتين • أما من يميلون للألعاب الرياضية فكانوا يستطيعون ممارسة ألوان مختلفة منها • ولكن هوايتهم المفضلة كانت صيد النعام ، ويقول فرانسوا ان أفراد الجيش كله تقريبا كانوا يضعون ريش النعام في قبعاتهم (*) • وكانت تنظم للجنود حتى الرحلات الى الأهرام • (وقد حظرت عليهم الزيارات الفردية لها ، لأن وجود البدو فى المنطقة جعلها غير مأمونة) • وقد وجد الجندى ملر « أن من الأمور التى يتعذر على المرء فهمها أنهم استطاعوا رفع هذه الأحجار الضخمة الى هذا الارتفاع الشاهق » (٥٢) • وخط الجاويش فرانسوا اسمه ومكان ميلاده ورتبته وكتيبته وتاريخ زيارته للهرم الأكبر على جدار حجرة الملك (**) •

على أن الجنود ظلوا تعساء برغم هذه الملاهى ، واشتد حنينهم للوطن بسبب انقطاع وصول الرسائل اليهم من ذويهم نتيجة الحصار البريطانى ، وقد أعلن هذا المرض عن نفسه في البعض بأعراض بدنية لم تكن كلها مفتعلة ، وأفضى بالبعض الى ملانخوليا قاتلة ، ولكنه اتخذ فى الكثرة الغالبة صورا أهون ــ كالتذمر والتبرم ينفسان عن نفسهما من الحين للحين بالنكتة اللاذعة • وقد جر التذمر الذى اقترنت به البطالة والشعور الكاذب بالأمان تراخيا عاما في النظام كما يحدث عادة بين قوات الاحتلال • وأهملت نوبات الحراسة ، ووجد صغار الضباط وصف الضباط أن حمل المسدسات أخف وأكثر أناقة من حمل البنادق أو القربينات (بل سار بعضهم بلا سلاح على الاطلاق) ، وترك الجنود مهمة تنظيف سلاحهم للخدم الوطنيين • وانتشرت حوادث اغتصاب أموال الأهالى ، وبيع أملاك الحكومة طمعا فى الربح الشخصى ، بل السرقة والقتل ، وذلك على الرغم من الاجراءات العنيفة التى كانت تتخذ ضد مقترفى هذه الحوادث •

وأخطر من هذا ارتفاع نسبة المرضى فى الجيش • ويؤخذ من تحليل لأحوال القوات الفرنسية الصحية فى ١٨ أغسطس ١٧٩٨ أن ١٠ من الجنود على الأقل ــ و ١٥ ٪ في فرقة رينييه ــ كانوا نزيلى المستشفيات • ولم يأت ٢٢ أكتوبر حتى ارتفع المتوسط في الجيش كله الى ١٥٪ ، وهذا كله كان قبل غارة الطاعون • وبالطبع لم يظفر كثير من المرضى حتى بمكان في المستشفيات ،

(*) كتب نابليون يقول « ان النعامة لها جميع خصائص ربيب الصحراء • فهى كبيرة الحجم غير متناسقة الأعضاء عريضة العظام • وفيها بعض الشبه بالجمل (الحملة على مصر والشام في رسائل نابليون الأول ص ٣٨٩ ، الفصل ٢٩) •

(**) لم يستطع المؤلف تقصى أصل الاعتقاد الشائع بان جنديا فرنسيا اطار انف أبى الهول بالرصاص • وحدوث هذا جائز بالطبع ، وان كان غير ميسور الا بمدفع ميدان ، ولكن الأرجح ان منشا القصة هو من نوع المصدر الأدبى الذى ابتكر قصة جورج واشنطن وشجرة الكرز ، والصبى الهولندي والسد البحرى •• الخ •

فقد كانت مكتظة بمن فيها ، ينقصها الموظفون الضروريون والأجهزة الأساسية في كثير من الأحيان ، على الرغم من الجهود الجبارة التى بذلها ديجنيت ، ولارى ، وغيرهما من زملائهما (*) • وأكثر الأمراض تفشيا كانت الدوزنتاريا والرمد الحبيبى ، وهو شر الأوبئة المصرية • وكان الرمد يعزى عادة الى هواء الليل ، وهو يفضى الى العمى اذا لم يعالج علاجا وافيا • كتب الكولونيل لوجيه فى يوميته فى أكتوبر يقول « ليس أضر من النوم فى العراء فى هذا الفصل من السنة بمصر • وهطول المطر فى فرنسا مهما كان قويا لا يسبب لك البلل الذى يسببه ندى الليل هنا • ومن ثم ففى وسعك أن تثق بأنه فى كل زحف يستغرق أكثر من ثلاث ليال يتعطل ثلث الرجال فترة بسبب اصابتهم بالرمد (٥٣) • وفى أواخر سبتمبر ١٧٩٨ كان أكثر من ٥٠ شخصا من ١٧١ ضابطا وجنديا فى وحدة الفرسان المعسكرة بالصالحية مصابين بالرمد ، وقد طلب قائدها مزيدا من سلفات النحاس لعلاج المصابين • وفى الصعيد ارتفعت الاصابة بالعمى ونصف العمى ـ لأن قلة من المرضى هى التى شفيت شفاء تاما ـ الى نسبة مخيفة • كتب بونابرت الى ديزيه فى ٢ نوفمبر يقول « اذا لم يتجاوز عدد مرضاك ثمانمائة أو تسعمائة ـ » وكانت قوات ديزيه كلها أقل من ٣٫٠٠٠ رجل (**) •

وليس لدينا احصاءات عن الاصابة بمرضين آخرين من أمراض الاحتلال العسكرى المشهورة ، وهما الزهرى والسيلان • ولكن الذين يشيرون اليهما اطلاقا يجمعون على أنها نسبة عالية • وقد لجأ الفرنسيون فى كفاحهما أحيانا الى رسائل يغلب عليها العنف •

كتب الجنراول ديجا ، وكان حاكم القاهرة آنئذ ، الى بونابرت فى عام

(*) كثيرا ما وجه اللوم على أسباب النقص الى المديرين المدنيين الذين كانوا يديرون المستشفى بوصفه عملا تجاريا • وقد قدم المواطن « روتى » فى خطاب مؤرخ ١٤ نوفمبر ١٧٩٨ احتجاجا قويا على هذه التهم : « يجب بمقتضى شروط عقدنا أن أتسلم ٣٠٫٠٠٠ فرنك فى الشهر ولكننى لم أتسلم فى الشهر الماضى سوى ١٨٫٠٠٠ ، وفى هذا الشهر سوى ٥٫٠٠٠ ••• (ولكى أحصل على طلباتى) اضطررت للالتجاء الى حسابى الخاص ، واستدنت ••• وباختصار جاوزت كثيرا طاقتى ومواردى • ولست مسئولا لا عن أثمان اللحم المنقول الى رشيد ، ولا عن تكاليف نقله ، ومع ذلك فحين توقف توريد اللحم تكفلت به ••• ورغم هذا أصبحت هدفا لأشد ضروب اللوم اهانة • فالكل على حق وأنا وحدى المخطىء مع اننى الوحيد الذى لا يجد شيئا يلوم نفسه عليه » • (رسائل نابليون بونابرت غير المنشورة ، رسمية وشخصية : مصر ، ٢ ، ج ١٣ ـ ٣٧) •

(**) الرمد المصرى ، أو التراخوما ، أو التهاب الملتحمة الحبيبى ، مرض معد يسببه فيروس دقيق واسع الانتشار فى مصر • وهو وان كان سهل الشفاء اذا عولج فى أول الأمر الا انه يسبب العمى أو الاضرار البالغ بالبصر اذا أهمل • وما زال من المشكلات الصحية الكبرى فى مصر •

١٧٩٩ يقول « ان البغايا وباء يتفشى فى مساكن الفرنسيين ، ولا بد لابعادهن من اغراق من يقبض عليهن فى الثكنات » . وكان تعقيب بونابرت فى الهامش : « كلف أغا (الانكشارية) بهذه المهمة » (٥٤) . ويؤكد تاريخ قديم للحملة المصرية (٥٥) أن ٤٠٠ مومس قطعت رءوسهن وخيطن فى غرائر والقين فى النيل بأمر الأغا . ويغضى المؤلفون عن مسئولية بونابرت عن هذا العمل الفظيع ، فهو فى رأيهم لم يفعل أكثر من اصدار الأمر للأغا بجمع النساء وعلاجهن فى المستشفى . وقد غضب حين علم كيف أسيء تفسير تعليماته . ولكن الوثائق تنقض هذه المحاولة لتبرئته نقضا واضحا .

وكان هناك أخطار أخرى من أخطار الاحتلال ، وآثارها أقل فتكا ولكنها أكثر دلاله على طبيعة البلاد . ففى القاهرة مثلا انتشرت حوادث المرور الناشئة عن زيادة سرعة الحمير انتشارا يبرر ذكرها فى أمر يومى نبه جميع الفرنسيين الذين يركبون الحمير الى « تخفيف سرعتهم وهم يركبون فى الزحام » (٥٦) . والواقع أن الحمار المصري كـان أكثر الأشـياء غرابة فى مصر بعد الاهـرام والكرنك ، وقد حبب الزائرين فيه دائما بتعبيره الودى (الذى لا يشاركه فيه الجمل ولا الانسان) وأدهشهم بسرعته . وكان من المناظر المبهجة المضحكـة أن يرى الانسان مصريا طوله ستة أقدام تعبث الريح بجلبابه يعدو على حمار رشيق خفيف الحركة . وكانت الحمير بمثابة المركبات للقاهرة فى عام ١٧٩٨ ، يحبها المدنيون والعسكريون على السواء . يقول الجبرتى « فان للفرنسيس بذلك عناية عظيمة ومغالاة فى الأجر بحيث ان الكثير منهم يظل طوال النهار فوق ظهر الحمار بدون حاجة سوى أن يجرى به مسرعـا فى الشــارع ، وكذلك تجتمع الجماعة منهم ويركبـون الحمـير ويجهـدونها فى المشى والاسراع وهم يغنــون ويضحكـون ويتمســخرون ويشــاركهم المكاريــة فى ذلك » . ولما كان أعضـاء اللجنة العلمية معروفين بين الجنود بـ « الحمير » ، فقد سموا الحمير « العلماء » ، والبغال « أنصاف العلماء » .

والفرنسى لطيبته الأصيلة يتغلب بسهولة على نوبات الكآبة بالخمـر والغناء والسخرية من السلطان . ويسلم الجبرتى بأن الفرنسيين « من طبعهم فى الشرب نهم يتعاطون لحد النشوة وترويح النفس فان زادوا عن ذلك الحد لا يخرجون من منازلهم،ومن سكر وخرج الى السوق ووقع منه أمر مخل عاقبوه وعزروه » (٥٨) . فاذا اجتمعوا فى كانتيناتهم ومطاعمهم ومفاهيمهم راحوا ينفســون عن ضيقهم بكئوس قليلة ، وينشدون معا الأناشيد الوطنية وغيرها من الأغانى الخفيفة ، ويفصلون فى مسائل السياسة والاستراتيجية العليا ، ويصبون ازدراءهم على رؤساء التموين ومديرى المستشفيات والعلماء والحكومة ، ويتبادلون الشائعات عن مخابىء النبيذ الخيالية أو كنوز المماليك التى اكتشفت ، ويروون فى تواضع ما قاموا به من أعمال فى الحملات الحربية الماضية ، ويعقبـون على العـادات

المصرية وعلى كفاية قائدهم العسكرية وحياة الحب التى يحياها ، ويقولون ان فى وسع الجنرال كفاريلى ــ وكان ذا ساق خشبية ــ أن يبتهج لأن له رجلا أخرى فى فرنسا ، وإن العلماء مسئولون عن الحملة كلها لانهم حفزوا الحكومة عليها بدافع الفضول العلمى ، وأن الجنرال بونابرت له علاقة غرام بابنة الشيخ البكرى (التى ستحل محلها مدام فوريه التى لقبوها « كليوبطرة » ــ ولكن الحديث عنها كان بعد حين) ، وأن بين الشيخ البكرى وأغا الانكشارية خصومة دموية على « هيلانة الجميلة » • ويعنون بها غلاما جميلا من المماليك(*) •وكانت صحيفة « بريد مصر » تمدهم بأنباء لا يعتمد عليهـا كثيرا وان غلبت عليهـا الصفة الرسمية ، ومع الأنباء ملاحظات غريبة عن طرافة العادات المصرية ، وعبارات وطنية بليغة •

ورغبة فى رفع معنوية الجنود والاحتفاظ بملاهيهم فى نطاق محدود أمر بونابرت العلماء الفرنسيين بأن ينظموا مسرحيات هواة (كانت أدوار النساء فيها يلعبها الرجال فى الغالب) ، وأقام مستشفيات للناقهين ، وأمر بأن تقف فرق الموسيقى التابعة للوحدات العسكرية كل ظهر أمام المستشفيات العسكرية وتعزف « الألحـان التى تشرح صـــدور المرضى وتذكرهم بأجمـــل لحظـات حملاتهم الماضية (٥٩) » (**) وفى أواخر نوفمبر رخص لزميل مدرسته القديم دار جفيل بأن يؤسس ناديا ، لعله كان أول ناد للقوات المسلحة فى التاريخ • وقد سمى « التيفولى » [illegible] بملهى شعبى فى باريس • وكان النادى يقدم فرقة ال[illegible] الراقصة (وان لم يكن فيه من الراقصين والراقصات الا القليل) وموائد للبليارد وغيره من الألعـاب ، ومكتبـة ، والصحيفتين اللتين يصدرهما الجيش ، والقهوة ، والطعام الأوربى ، وحديقة ملاه ، وغير ذلك من أسباب الراحة التى ألفها الفرنسيون فى وطنهم • كتبت صحيفة بريد مصر فى وصف الافتتاح الكبير « ان أكبر ما أثار اعجاب المشاهدين وابتهاجهم •• هو وجود خمس عشرة سيدة أو عشرين فى ثياب فاخرة بعض الشىء ــ وهو مشهد جديد تماما فى مصر » (٦٠) • يقول الملازم فرتراى ان أهم عيب من عيوب التيفولى (وهى كثيرة) صعوبة تنظيم الحفلات الراقصة لقلة السيدات • ثم يختتم كلامه قائلا : « لذلك لم تكن حفلاته متألقة قط » (٦١) •

(*) افضى النزاع على هذا المملوك (وكان من مماليك مراد بك من قبل) الى حرب استعر اوارها بين أتباع الشيخ البكرى واتباع الاغا • وقد انتهت بحكم شبيه باحكام سليمان اصدره بوسييلج : ويقضى بان يحتفظ البكرى بالغلام نظير تنازله للأغا عن عقار قيم •

(**) كتب فى سانت هيلانه يقول « ان الطبول تحكى صوت المدافع ، وهى خير الآلات الموسيقية » (رسائل نابليون الأول ٣١٣ ــ ٣١) •

ولا وجه لاتهام بونابرت باهمال معنوية جنوده ، فهو لم يأل جهدا في علاج حنينهم للوطن بوسائل بارعة ، كالمسرح بلا ممثلات ، والجعة دون حشيشة دينار . وهذه الوسائل والحيل وان أعانتهم بعض الشيء الا أن نجاحها في ازالة الكآبة التي رانت عليهم جميعا كان مؤقتا . وظل الجنود الفرنسيون الى آخر يوم من أيام مقامهم بمصر لا يحلمون الا بشيء واحد : هو العودة الى الحياة الأوربية الناعمة .

الفصـل الســادس

المجمع العلمي والأزهر

١

من التجنى على الحقيقة أن يزعم زاعم أن العلماء والفنانين الملحقين بجيش بونابرت لم يشاركوا الجنود رغبتهم الشديدة فى العودة الى أرض الوطن • ففى صيف عام ١٧٩٩ ، حين انتشرت بينهم شائعات عن قرب رحيل بونابرت الى فرنسا ، اشتد قلقهم واضطرابهم • من ذلك أن الشاعر بارسيفال جرانميزون، الذى ذهب بصوابه التفكير فى أنه سيترك فى مصر بعد سفر بونابرت ، ركب فى اثره طوال الطريق من القاهرة الى ساحل البحر ، وكان لا محالة سابحا فى الماء وراءه لولا أنه أخذ على ظهر سفينته • ومع ذلك نجد فى أكثرهم روح مغامرة قوية فاقت فى تعويضها ما كان ينتابهم بين الحين والحين من نوبات الحنين الى الوطن • أما العاجزون عن التكيف من أمثال بارسيفال فكانوا استثناء للقاعدة • وكان أعضاء اللجنة العلمية الفنية ــ بخلاف عامة الجند ــ على وعى بهدف ايجابى يستطيعون تحقيقه فى مصر • فهنا فرص لا حد لها ، وكل شىء ينتظر أن يكشف ، وكل شىء ينتظر أن يصنع ، • وأحس العلماء والتكنولوجيون والفنانون والأطباء حمى المعركة ، والشعور المرهف بالحياة ، اللذين لا يعرفهما الجنود الا فى القتال ، فى كل لحظة تقريبا من لحظات مقامهم بمصر •

على أنهم لقوا عنتا شديدا فى الأيام القليلة الأولى بعد نزولهم بر مصر • فكان عليهم ــ باستثناء حفنة من كبار أعضــاء اللجنــة ــ أن يدبروا أمورهم بأنفسهم فى هذه الفوضى الشاملة • ولم يبرح الاسكندرية منهم مع بونابرت فى ٧ يوليو سوى مونج وبرتولليه • وقد ذكرنا فى فصل سابق ما أصابهم من محن وهم على ظهر السفينة «لوسيرف» أثناء القتال الدائر فى شبراخيت •

وأبحر عشرون آخرون الى رشيد بعد أسبوع • أما الكثرة فبقيت فى الاسكندرية الى أوائل سبتمبر • وكانت معيشتهم تتفـاوت حسب رتبهم المقـابلة لرتب العسكريين • ولا يبدى المواطن جولوا ، وهو أحد صغار المهندسين ، أى اعجاب بالمسكن الذى أعد له ولزملائه فى رشيد • يقول : ان البيت كان يموج بالحشرات ويحفل « بالقمامة والقاذورات المقززة للنفس » (١) ولم توزع عليهم جرايات ولم يعين لهم طباخ • لذلك نظم جماعة العلماء فى رشيد مطبخا مشتركا ، وتناوبوا شراء حاجاتهم وطهى طعامهم • وما لبثت أن عادت وسائل الراحة النسبية ، فوصلهم الخبز واللحم وجرايات النبيذ ، وأمكنهم استئجار الخدم •

ومع أن كثيرا من أعضاء اللجنة كلفوا طوال مقامهم بمصر ــ لا سيما فى أوائل هذه الفترة ــ بواجبات ادارية لا تتصل بمهنهم التى دربوا عليها الا أقل اتصال ، فقد أدوها عن طيب خاطر • فاستخدم مونج وبرتولليه فى « المهام الادارية » دون غيرها ، وكانا قد ارتقيا بفن مصادرة الأملاك الى مستوى العلوم الدقيقة أثناء تجربتهما فى ايطاليا ومالطة ، وراحا يخرجان كنوز المماليك المخبوءة ويضعان الخطط لفرض الغرامات على الأغنياء • وليس لدينا دليل على أنهما كرها هذا العمل ، فقد ظلت سمعتهما العلمية سليمة وان أصبحا فى حقيقة الأمر موظفين • أما فى الاســكندرية فقد وجـد الجنرال كليبر عملا مناسبا للمهندسين المدنيين والعسكريين ، ورسامى الخرائط ، وغيرهم من الفنيين الذين كانوا يؤلفون معظم القوة الفرنسية بالاسكندرية • وبنوا الثكنات وابتكروا نوعا جديدا من الأفران لصنع قنابل المدافع العالية الحرارة ، وصنعوا آلة عائمة لاطفاء الحريق ، وقاموا بالمسح الطبوغرافى ، ودرسوا فكرة قناة تمتد بين النيل والاسكندرية • ومع أن كليبر كان على وجه العموم لا يستخدم المدنيين كثيرا ، فانه سرعان ما أصبح ينظر الى « حميره » العلميين نظرته الى نفر لا غنى له عنهم ، وكره أن يسمح لهم بالرحيل حين دعوا الى القاهرة ، واذ كان انسانا رقيقا عطوفا ، فقد حاول ــ دون توفيق ــ أن يساعد الذين أسقمهم الحنين الى الوطن ، وعجزوا فى الغربة عن التكيف ، فى العودة الى وطنهم • كتب الى بونابرت يقول : ان المعمارى نورى « عليل الجسم والعقل » يريد العودة الى فرنسا ، وكذلك الفلكى كنو ، والأثرى بورلييه ، والجراح دوبوا الذى « لا ينى عن التفكير فى أطفاله الأربعة الذين ماتت أمهم وتركهم فى باريس » (٢) •

قبل وصول الفرنسيين الى الاسكندرية لم يكن قد طبع فى مصر سطر واحد • وجلب بونابرت مع حملته مطبعتين • وظلت احداهما ــ وكان يقوم عليها المستشرق مارسيل وواحد وثلاثون موظفا ــ بالاسكندرية الى نهاية عام ١٧٩٨ (وان سبقها مارسيل الى القاهرة) ، وكانت حروفها فرنسية ويونانية وعربية ، وعليها طبعت جميع منشورات بونابرت ، وأول كتاب طبع فى مصر ،

وهو : « تطبيقات في العربية الفصحى مختارة من القرآن لينتفع بها دارسو العربية » (٣) .

والى هذه المطبعة كانت هناك مطبعة خاصة أخرى شحنت للقاهرة عقب احتلال الفرنسيين وصاحبها رجل هو المواطن مارك أوزيل ، وكان الملازم الشاب بونابرت يبسط رعايته على مكتبة أبيه في الفترة التي قضاها على رأس الحامية في فالنس . ومارك أوريل واحد من جماعة الملتزمين أو أصحاب الامتيازات الكثيرين الذين كانوا يرافقون الجيوش الفرنسية في ذلك العهد . وقد أصدر في القاهرة صحيفة تظهر أسبوعيا تقريبا ، هي « بريد مصر » Le Courrier de l'Egypte ، ودورية أدبية علمية تسمى « العقد المصري » La Décade égyptienne وهي لسان حال المجمع العلمي . وهكذا اقترن اسمه منذ ذلك الحين بجهود اللجنة العلمية ، وان لم تكن له بها صلة رسمية .

ولم يتيسر استخداء العلماء الموجودين برشيد في اختصاصاتهم كما استخدم زملاؤهم بالاسكندرية . فعمل الرياضي فورييه والشاعر بارسيفال جرانميزون في لجنة لشراء مواد التموين . وتطوع الملحن فيوتو للعمل سكرتيرا لمينو . **وشغل معظم الباقين انفسهم بما وسعهم من اعمال** : فكان جولوا يجوب الريف مسلحا ببندقية رش ونظارة شمس ليجمع الطيور والنباتات ويدرس الآثار ، وتغلغل عالم الحيوان جوفروا سانتيلير في الدلتا يخفره حارس عينه له مينو . كتب يقول : « وجدت عددا من الطيور الطريفة . وكانت مهمتي أن الاحظها حية ، وأصفها من الناحية الحيوانية والتشريحية ، وأركبها هي وهياكلها العظمية في اطارات » (٤) . وأرض الدلتا جنة مثالية لمن يهوون مراقبة الطيور . أما دينون فراح — وكراسته لا تفارقه — يرسم ويساعد العلماء الطبيعيين برسم نباتاتهم وطيورهم ، وأما النباتي نكتو فقام بدراسته للزراعة المحلية . وكانوا كلهم على صلات ودية بالجنرال مينو الذى كانوا ينفقون معه الأمسيات يفلسفون ويتذمرون من القيادة العليا بالقاهرة . كتب مينو الى كفاريللي يقول : « عندى هنا من الرفاق الأوفياء ، والشهود على فقرى فى كثير من الأحيان ، المواطنون دينون ونكتو وفللوتو ... وأنا أعلم أنك تريد جميع أعضاء اللجنة من الفنانين (والعلماء) أن يلحقوا بك في القاهرة ، ولكنى أرجوك أيها الجنرال أن تترفق برجل يشعر بحاجته الى انسان يتكلم الفرنسية ، ويستطيع أن يتحدث اليه في الأمسيات حديثا ذكيا » (٥) . ولكن كفاريللي وبونابرت لم يترفقا به ، وما حل منتصف سبتمبر حتى كان أكثر العلماء قد التأم شملهم في القاهرة حيث أعد لهم مونج وبرتولليه وكفاريللي المساكن المريحة والمكاتب الوافية بالغرض .

كانت لدى بونابرت دوافع شتى حملته على انشاء المجمع العلمي بقرار في ٢٢ أغسطس ، ولكنها لم تكن بالدوافع المتناقضة اطلاقا . كان لا يزال

مزهوا بانتخابه في عام ١٧٩٧ عضوا بالمعهد القومي الفرنسي (وهو الهيئة التي حلت محل الأكاديمية الفرنسية أثناء الثورة) ، وكان الى ذلك يحس أن العلم يترك آثارا أبقى من الحرب • فهو لم يقنع قط بأن يكون القائد العظيم وكفى ، والواقع أنه صرح غير مرة ، وبإخلاص لا شك فيه ، بأنه عدو للعسكرية • فالعظمة تقتضيه أن يكون أكثر من قائد ، وأكثر من دكتاتور ، وأكثر من امبراطور : وما لم يخلف وراءه أثرا في التشريع ، وفي التقدم الصناعي والعلمي ، وفي جلائل الأعمال الفنية ، فلن يكون حظه في سجل التاريخ أكثر من فقرة عابرة • ومصر تصلح معملا تجريبيا لتحقيق هذه الغايات • لقد كان فهمه للعلم والفن بدائيا ، ولكن ذكاءه الثاقب مكنه من استخدامهما في تحقيق أغراضه •

وكانت القدرة على الجمع بين حب العظمة الشخصية ونفع الناس احدى المواهب الكثيرة التي تفرد بها • فأنشأ المجمع العلمي المصري معينا له ، وضربا من التجميع لأرباب الفكر ، لتساعده معلوماته وأبحاثه ومشورته في ادارة البلاد وارساء الأساس لتقدمها في المستقبل • وكان هذا الهدف في ذاته جديدا لم يسبق له نظير • وكانت المهام « العملية » التي ينتظرها من المجمع قسمين : فسد الحاجات العاجلة يقتضي اقامة طواحين للهواء ، وتطهير الترع وصيانتها ، وصنع الأدوات التي لا يمكن جلبها من فرنسا الى مصر (بسبب الحصار البحري) ، واصلاح النظام المالي • والتمهيد لتطور مصر الاقتصادي يقتضي القيام بدراسات تتناول شق قناة تصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، وبناء قناطر على النهر للافادة من مياهه على نحو أفضل ، وادخال محاصيل جديدة ، وتحسين وسائل الزراعة ، ومنع الأوبئة ، ووضع نظام تعليمي جديد •• الخ • وانصرف أعضاء اللجنة العلمية وأعضاء المجمع العلمي الى هذه المهام كلها بهمة وقدرة انتاجية مذهلتين • وأثمرت جهودهم أثرا خالدا من آثار الدرس الجماعي، وهو كتاب « وصف مصر » ، ويحتوي على عشرة مجلدات من النصوص ، وأربعة عشر مجلدا من اللوحات ، وقد نشر بين عام ١٨٠٩ و ١٨٢٨ • ولم يقم أحد من قبل ولا من بعد بدراسة تتميز بهذا الاتساع وهذه الدقة على أساس عمل ميداني تم في مثل هذه الفترة القصيرة (ثلاثة أعوام) وفي مثل هذه الظروف المرهقة غير المواتية •

على أن بونابرت كان يضمر ما هو أعظم وأجل حتى من هذا • ذلك أن أعضاء اللجنة لم يكونوا كلهم مهندسين وتكنولوجيين واقتصاديين ، بل كان منهم المعماريون والموسيقيون والأثريون والرسامون والرياضيون وعلماء الطبيعة والحيوان • ومع أن بعض هؤلاء كانوا يكلفون احيانا بأعمال نفعية خالصة ، فان الهدف الأساسي من وجودهم هو ارتياد كل جانب من جوانب هذا البلد الأسطوري الذي لا يعرف عنه الا القليل ـ تاريخه ، وآثاره وفنونه ، وبيئته

الجيولوجية ، وحيوانه ونباته ـ وباختصار السعى الى المعرفة المجردة والى المنفعة العملية سواء بسواء • وليس لدينا دليل على أن بونابرت كان يبدى أقل اهتمام شخصى بتصنيف الأسماك النيلية التى جمعها جوفروا سانتيلير بشغف مثلا ، أو حتى بمعبدى الأقصر والكرنك اللذين لم يكلف نفسه قط مئونة زيارتهما • وكانت مقترحاته الشخصية عن ميادين البحث الممكنة نفعيه دائما ، ان لم تكن تافهة ، ومع ذلك فان هذا المغرق فى النفعية كان يقدر نفع غير النافع : فمن العسير مثلا أن يتبين المرء أى فائدة عملية تجنى من وراء علم الآثار المصرية ، ولكن هذا العلم ولد بمجىء حملته الى مصر ، وسيظل اسمه على الدوام مقترنا به ، تماما كما زاد طراز « الامبراطورية » ، القائم على الضخامة الفرعونية ، من فخامة حكمه الامبراطورى • أجل ، انه لم يبدد شيئا قط ، اللهم الا أرواح النـــاس •

ولما لحق مونج وبرتولليه ببونابرت فى الجيزة عقب معركة امبابة ، صرح الجنرال ـ بعد أن شهد هذه الأهرام التى كانت أربعون قرنا من التاريخ تطل عليه من قمتها ـ ذلك التصريح المذهل ، وهو أن أحجار الهرم الأكبر قد يبنى بها سور يحيط بفرنسا ، عرضه متر وارتفاعه ثلاثة أمتار ـ وهى حسبة أيدها مونج فيما بعد •

وكانت الأهرام وأبو الهول هى الآثار القديمة الوحيدة التى زارها بونابرت فى مصر • على أنه أبى أن يدخل هرم خوفو لأن الدخول يقتضيه أن يزحف على يديه ورجليه ، وكان فى ابائه غاية فى الحكمة ، لأنه ليس هناك ما يرى فى الداخل ، ويشهد بهذا كل من جاز هذه التجربة الأليمة •• وبدلا من أن يدخل الهرم حث أتباعه على التسلق الى القمـــة ، ومنهم برتييه ومونج ـ وكانا قد جاوزا الشباب ـ ففعلا خوفا من سخريته اللاذعة أكثر من خوفهم من شمس سبتمبر • ولما وصل مونج الى القمة شارك زملاءه المتسلقين فى شرب زجاجة من البراندى •

ومع أن الفضل فى تأسيس المجمع العلمى المصرى يجب أن ينسب الى بونابرت ، فان تنظيمه كان أكثر الفضل فيه لجهود مونج الذى أعدته لهذا العمل خبرته واتساع أفقه ومواهبه الادارية إعدادا مثاليا • كان مونج يمثل خلاصة ما يتوقعه بونابرت من العــالم ، فخدمة الوطن بدت فى عينيه الغاية النهائية للعلم • وقد أوحت مصر الى مونج بأحلام امبراطورية فرنسية أفضى بها الى زوجته • كتب لها يقول انه لو استوطن مصر ٢٠٫٠٠٠ أسرة فرنسية ، « ليشتغل أفرادها بالمشروعات التجارية والمؤسسات الصناعية •• الخ لغدا هذا البلد أجمل مستعمراتنا وألمعها وأفضلها موقعا » (٦) هذه الروح هى التى مكنت الفرنسيين من استعمار الجزائر ـ وما تمخض عنه هذا الاستعمار من

نتائج • ولحسن الحظ كان كثيرون من أعضاء اللجنة العلمية الآخرين ، لا سيما الشبان منهم ، لا يشاركون رئيسهم حماسته الاستعمارية ، فكان ميلهم الى استعمار مصر أقل من ميلهم لدراستها ، ولنفع شعبها بعلمهم •

وقد وضع نظام المعهد فى ٢١ أغسطس بمعرفة لجنة مكونة من القواد بونابرت وكفاريللى وأندريوسى ، والمواطنين مونج وبرتولليه وجوفروا سانتيلير وكوستا وديجنيت • وقسم المعهد الى أربع « شعب » وعين أعضاء كل شعبة(*)• ويلاحظ أنه لم يقع الاختيار الا على أنبه أعضاء اللجنة العلمية والفنية (وبالطبع اختير جماعة الشعراء والموسيقيين لعدم وجود من يفضلهم فى ميادينهم) ، وأن المجمع ضم عددا من كبار الضباط العسكريين (بونابرت وكفاريللى وأندريوسى وسولكوفسكى) والموظفين الاداريين (بوسييلج وسوسى ولوروا) وشخصا من الخارج (هو القس اليونانى دومانشيس) ، وأن الشعبة الوحيدة الكاملة كانت شعبة الرياضيات ، وظل اثنا عشر مقعدا شاغرة فى الشعب الثلاث الأخرى • وقد يوجه النقد الى بعض من وقع عليهم الاختيار (ولابد أن من لم يقع عليهم الاختيار وجهوه) ، ولكن قائمة الأعضاء كانت بوجه عام تضم خلاصة المدنيين • وكان بونابرت يلقى من زملائه أعضاء المجمع معاملة الند للند ، فاذا نسى وضعه ذكره به الدكتور ديجنيت • وحدث ذات يوم وبونابرت يتكلم فى غير دوره على موضوع فى الكيمياء أنه قال فى نزق « ان الكيمياء مطبخ الطب ، وان الطب علم القتل » ، فرد عليه ديجنيت فى لطف ورقة « ان كان الأمر كذلك ، فبماذا تعرف فن قيادة الجيوش ؟ » (٧) وكان الجواب الحاضر يرد نابليون دائما الى هدوئه وبشاشته ، ولكن الصدام المشهور الذى وقع بينه وبين ديجنيت فى المجمع بعد سنة ترك فى نفسه تحاملا لم يزل على الطبيب الصريح •

(*) شعبة الرياضيات : بونابرت ، وأندريوسى ، ومونج ، وفورييه ، وكوستا ، وموراس سى (الذى حل محله بعد ذلك لانكريه) ، ومالو ، والفلكيان نوييه ، وكنتو ، والمهندسان المدنيان لوبير وجيرار ، وكبير مندوبى البحرية لوروا •

شعبة الطبيعة : برتولليه ، وكونتيه ، ودولوميو ، وجوفروا سانتيلير ، والدكتور ديجنيت ، والجراح دوبوا (حل محله بعد ذلك لارى) ، والحشرى سافينى ، والكيميائى ديكوتيل ، والنباتى دليل ، والمهندس شامبى : وقد ترك فى الشعبة كرسيان شاغران (وضم اليها بعد ذلك بوشان) •

شعبة الاقتصاد السياسى ، الجنرال كفاريللى (الذى حل محله بعد موته كورانسيه) ، وبوسييلج ، وتاليان ، وسلكوفسكى ، وجلوتييه ، وكبير مديرى مهمات الجيش سوسى (حل محله بورين) وظلت ستة مقاعد شاغرة •

شعبة الآداب والفنون : الشاعر برسيفال – جرانميزون ، واللغوى فنتور (وحل محله ريبو) ، والملحن ريجل ، والمعمارى نورى (حل محله لوبير الابن) ، والرسامون دينون ودوتيرتر ، وريدوتيه ، وقسيس يونانى هو دون رفايل دومانشيس • وظلت أربعة مقاعد شاغرة • (وقد ضم الى الشعبة الرسام ريجو فيما بعد) •

وتجلت الأهمية التى علقها بونابرت على المجمع العلمي واللجنة العلمية فى المسكن الذى هيأه لهما • فكانا يشغلان فى حى الناصرية مجموعة من المبانى المحيطة بقصر قاسم بك ــ وهو بناء رائع تركى الطراز له حديقة ظليلة وبهو وأعمدة فى الهواء الطلق وفسقيات بديعة • (وكان صاحبه في ذلك الوقت يقاتل الفرنسيين في الصعيد) • وأصبحت أكبر قاعات الإستقبال فى حرملك قاسم بك قاعة اجتماع المجمع • وكان العلماء يسكنون ويعملون فى حجرات القصر الأخرى وفى البيــوت المجاورة له ، الا اذا كانوا مشــغولين برحلاتهم الميدانية خارج القاهرة ، كتبه جوفروا سانتيلير لصديقه كوفييه يقول : « ان بيوتنا تتيح لنا راحة أكثر مما تجده فى اللوفر ، وترفا يعادل على الأقل ترف اللوفر • فالحديقة الضخمة ••• ذات الشرفات العالية الكثيرة ••• تتيح لنا زراعة النباتات ودراسة علم النبات » (٨) • وما لبث العلماء أن أنشأوا حديقة للحيوان وأخرى للطيور ، وخصص جانب آخر من الأرض للتجارب الزراعية • كذلك كان هناك معمل كيميائى ، ومتحف صغير للتاريخ الطبيعى ، ومكتبة ، ومرصد ، ومجموعة من المعادن وأخرى من الآثار ــ وهى وان كانت صغيرة جدا ، الا أنها كانت نواة متحف القاهرة ــ ومطبعة ، وورشة كونتيه العجيبة • وكان شطر كبير من العدد التى أخــذها العلماء معهم من فرنسا قد فقد على سفينة من السفن التى دمرت فى أبى قير • لذلك صنع كونتيه ومساعدوه فى ورشته هذه الأدوات اللازمة لصناعة هذه العدد التى كان لابد من تعويضها ، وصنعوا كثيرا غيرها ، كالأجهزة الجراحية ، والبراجل ، والعدسات التلسكوبية والمكروسكوبية ، والأصباغ اللازمة للمطبعة ، ولدار سك النقود ، ولتعويض أزرار الملابس العسكرية ، وأدوات المساحة ، والرسم ، وحتى شفرات السيوف ، والأبواق ، والقماش ، والقبعات • أجل ، فما من مشكلة استعصى حلها على ذكاء كونتيه وحذقه ، ولم ينفع رجل بمفرده جيشا كما نفع كونتيه الجيش الفرنسى •

ولم يحدث قط ـ الا فى عهد قريب جدا ــ أن جمع مثل هذا العدد الكبير من الأفراد الممتازين المشتغلين فى مختلف الميادين ، ليعملوا بمثل هذا التعاون الوثيق • وبالطبع ظل المتخصصون منهم يواصلون دراساتهم الخاصة ــ بالاضافة الى أعمالهم الرسمية فى أكثر الأحيان ، ولكن دون أن ينتقص هذا من دابهم ومثابرتهم ، ومع ذلك كان على الفرد منهم أن يقوم بعمل عدة أفراد ، وكان أحيانا عملا لم يخطر له ببال قط • وقد أشاع هذا البعث للمواهب المخبوءة ، وهذا التبادل الحافز ، جوا منشطا سرت عدواه حتى لغير العلماء • يقول جومار ــ وهو أحد العلماء الفرنسيين ــ فى مذكراته : « فضلاً عن جلسات المجمع المنتظمة كانت هناك اجتماعات غير رسمية تضم من أربعين الى خمسين شخصا كل مساء فى حديقة المجمع • فيتبادلون الأحاديث فى مشروعات أسفارهم ، والاكتشافات التى اكتشفوها ، ومختلف الموضوعات التى تستهوى السامعين

كالحديث في جغرافية مصر الطبيعية ، ومصر القديمة ، وحكومة البلاد ، وعادات شعبها » (٩) ·· وكان يختلف الى هذه الاجتماعات في كثير من الأحيان القواد وكبار الموظفين ، بل بعض المشايخ · ومن هؤلاء المؤرخ الجبرتي الذى ترك لنا وصفا عجيبا لزيارته · قال :

« وأفردوا (بيت حسن كاشف) ··· فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ، ومن يريدون المراجعة فيراجعون فيها مرادهم · فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختاه عريضة مستطيلة ، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون ، حتى أسافلهم من العساكر · واذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول الى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه اليهم ، وخصوصا اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة او تطلعا للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير ، وكرات البلاد ، والأقاليم ··· ولقد ذهبت اليهم مرارا وأطلعوني على ذلك · فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ويصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم، وهو قائم على قدميه ناظر الى السماء كالمرهب للخليقة وبيده اليمنى السيف وفي اليسرى الكتاب ، وحوله الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ بأيديهم السيوف·وفي صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين · وفي الأخرى صورة المعراج والبراق وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه من صخرة بيت المقدس · وصورة بيت المقدس والحرم المكى والمدنى · وكذلك صور الأئمة المجتهدين وبقية الخلفاء والسلاطين ··· وصور البلدان والسواحل والبحار والأهرام وبرابى الصعيد والصور والأشكال والأقلام المرسومة بها · وما يختص بكل بلد من أجناس الحيوان والطيور والنبات والأعشاب وعلوم الطب والتشريح والهندسيات وجر الأثقال ، وكثير من الكتب الاسلامية مترجمة بلغتهم · ورأيت عندهم كتب الشفاء ··· والبردة للبوصيرى ويحفظون جملة من أبياتها ، وترجموها بلغتهم · ورأيت بعضهم يحفظ سورا من القرآن · ولهم تطلع زائد للعلوم ، وأكثرها الرياضة ، ومعرفة اللغات ، واجتهاد كبير في معرفة اللغة والمنطق ، ويدأبون في ذلك الليل والنهار ··· وعند توت الفلكي وتلامذته في مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة ، وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن ··· وهى تركب ببراريم مصنوعة محكمة كل آلة منها عدة قطع تركب مع بعضها البعض ·· واذا انحل تركيبها وضعت في ظرف صغير · وكذلك نظارات للنظر في الكواكب وأرصادها ··· وأفردوا لجماعة منهم بيت ابراهيم كتخدا السنارى : وهم المصورون لكل شيء ، منهم أريجو المصور ، وهو يصور صور الآدميين تصويرا

يظن من يراه أنه بارز فى الفراغ مجسم يكاد ينطق · حتى أنه صور صورة المشايخ كل واحد على حدته فى دائرة ، وكذلك غيرهم من الأعيان ، وعلقوا ذلك فى مجالس سارى عسكر ، وآخر فى مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات ، وآخر يصور الأسماك والحيتان بأنواعها وأسمائها · ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذى لا يوجد ببلادهم فيضعون جسمه بذاته فى ماء مصقوع حافظ للجسم فيبقى على حالته وهيئته لا يتغير ولا يبلى ولو بقى زمنا طويلا · وكذلك أفردوا أماكن للمهندسين وصناع الدقائق · وسكن الحكيم رويا ببيت ذى الفقار كتخدا بجوار ذلك · ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه فى ناحيـة ، وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان واستخراج الأملاح ، وقدورا عظيمة وبرامات ، وجعل له مكانا أسفل وأعلى ، وبهما رفوف عليهـا القدور المملوءة بالتراكيب والمعـاجين والزجاجات المتنوعة ··· ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئا فى كأس ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى فغلا الماءان وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس وصار حجرا أصفر ، فقلبه على البرجات حجرا يابسا أخذناه بأيدينا ونظرناه ، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجرا أزرق ، وبأخرى فجمد حجرا أحمر ياقوتيا ، وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القربانة انزعجنا منه ، فضحكوا منا · وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة فى مقدار الشبر ضيقة الفم فغمسها فى ماء قراح موضوع فى صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص ، وأدخل معها أخرى على غير هيئتها وأنزلهما فى الماء ، وأصعدهما بحركة انحبس بها الهواء فى أحدهما ، وأتى آخر بفتيلة مشتعلة ، وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء ، وقرب الآخر الشعلة اليها فى الحال فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل أيضا ··· ومثل الفلكة المستديرة التى يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شىء كثيف ويظهر له صوت وطقطقة ، واذا مسك علاقتها شخص ، ولو خيطا لطيفا متصلا بها ، ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ، ارتج بدنه وارتعـد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده فى الحال برجة سريعة · ومن لمس هذا اللامس أو شيئا من ثيابه أو شيئا متصلا به حصل له ذلك ، ولو كانوا الفا أو أكثر · ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا » (١٠) ·

وتجمع شهادة شهود العيان الفرنسيين على أن زوار المجمع المسلمين لم يقع من نفوسـهم ما رأوه أى موقع · ولكن رواية الجبرتى تكذبهم · لقـد توقع الفرنسيون بالغرور المعهود فى الغربيين أن يستجيب الشيوخ لعجائب الصناعة بدهشة صبيانية كدهشة الشعوب المتوحشة · ولعله لم يخطر لهؤلاء الصناعيين

أنهم هم السذج الأقل بصرا بشئون الدنيا من الشيوخ الذين لم يبد عليهم التأثر بما شهدوا • لقد تأثر الشيوخ ما فى ذلك ريب ، وقد أعجبوا ، ان كان بين الجبرتى وبينهم شبه ولو قليل ، بهذا الانقطاع للعلم ، أكثر من اعجابهم بعرض الألاعيب والحيل الرخيصة ، ولكنهم أبوا الخضوع لسيطرة الغريب • وبعد قرن ونصف من الزمان تعلمت آسيا وافريقيا كل هذه الحيل ونفضت عنها هذه السيطرة • فأى الرجلين كان أكثر سذاجة ؟ أهو الشرقى الذى لم يسمع من قبل بالكهرباء ، أم الأوروبى الذى ظن أن اكتشاف الكهرباء يعطيه حقا أبديا فى السيادة على غيره ؟

هذا مع التسليم بأن مصر التى حققت قبل أربعين قرنا معجزات فى الصناعة ما زالت تثير الدهشة ، قد هبطت فى ذلك الحين الى مستوى بدائى لا يكاد يصدق • كتب نابليون بعد حملته بعشرين عاما يقول : « كان الوطنيون غاية فى البطء فى فهم كنه هذا المجمع الذى ضم رجالا وقورين مجتهدين (العلماء) ، لا يحكمون ، ولا يديرون ، ولا يقومون بأى وظيفة دينية • وقد حسبوهم يصنعون الذهب • على أنهم فى النهاية كونوا فكرة صحيحة عنهم ، فلقى العلماء الاجلال لا من الشيوخ والأعيان فحسب ، بل من أقل الطبقات وأدناها • والواقع أن العلماء الفرنسيين اختلطوا كثيرا بالعمال ، فعلموهم مبادىء الميكانيكا والكيمياء وهم يشرفون على أشغالهم » (١١) • أما هذه الأشغال التى يشير اليها نابليون فشملت رصف الطرق واقامة الحصون وشتى مشروعات الاصلاح المدنية ونستطيع أن ندرك مدى بدائية أساليب العمل عند الأهالى فى ذلك الوقت من هذه الفقرة التى كتبها الجبرتى فى تاريخه : « ولم يسخروا أحدا فى العمل ، بل كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرتهم المعتادة ، ويصرفونهم من بعد الظهيرة . ويستعينون من شواغل وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول المساعدة فى العمل وقلة الكلفة • كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويداها ممتدتان من خلف ، يملؤها الفاعل ترابا أو طينا أو أحجارا من مقدمها بسهولة بحيث تسع مقدار خمسة غلقان ، ثم يقبض بيديه على خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجرى على عجلتها بأدنى مساعدة الى محل العمل فيميلها باحدى يديه ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة » (١٢) • وهؤلاء هم أبناء الشعب الذى شيد الأهرام فى قديم الزمان !

***

وبينما كانت كثرة العسكريين ساخطة لا تدرى سببا لوجودها فى مصر ، لم يكن من محير للعلماء الفرنسيين الا أن يعرفوا بأى شىء من الأشياء الكثيرة التى تنتظر الأداء يبدأون • واذ تحرروا عن شواغل باريس الاجتماعية ووجدوا امامهم فرصا لا حد لها فى نفع الناس ، أبدوا نشاطا فاق فى تنوعه أى نشاط

شهده الناس من قبل ومن بعد في مثل هذه الجماعة • ولم ين المواطن بونابرت ، نائب رئيس المجمع ، عن تقديم الأسئلة العملية له : فهو يسأل هل فى الإمكان زرع الكروم في مصر ؟ وكم حبة تثمر الحبة من القمح فى مصر ؟ وكم فى فرنسا ؟ وهل في الامكان حفر الآبار فى الصحراء ؟ وكيف السبيل الى تحسين السقاية التى توصل الماء الى القلعة ؟ فما أن تطرأ فكرة على بونابرت حتى يقترح على المجمع دراستها • وكان كل موضوع يحال الى لجنة ، ويجلس الأشخاص ذاتهم فى لجان لا تفتأ عددها يتكاثر باطراد • وكان كثيرون يؤدون أعمالا ادارية فى الوقت نفسه : فلم يقتصر عمل بوسييلج على مالية الجيش ، بل رأس الادارة المدنية كلها • أما مونج وبرتولليه فقد وجدا فى كل مكان ، حتى أن الجنود الحائرين فى أمرهما أدمجوهما في شخص خرافي واحد سموه مونجيبر تولليه ، فكانا عضوين فى « اللجنة الادارية » (وهى لجنة تخصصت فى ابتزاز أموال الأغنياء) ، وعملا مفتشين فى دار سك النقود بالقاهرة ، ومندوبين فى الديوان العام ، وقاما بغير ذلك من المهـام الكثيرة • أما كونتيه ــ ذلك الرجل المتعدد الكفايات ــ فكان يعمل فى أربع لجـان ادارية على الأقل • وكان مالو وجولوا مكلفين بتنظيم الاحتفالات الوطنية • وأما الرياضى فورييه فعمل سكرتيرا دائما للمعهد ومحررا لصحيفة بريد مصر • وراس ديجنيت ادارة الجيش الطبية ــ وهو عمل جبار فى ذاته ــ وكان يحرر صحيفة « العقد المصرى » ويرأس لجنة تأسيس مستشفى الأهالى • هذا كله سقناه على سبيل المثال لا الحصر •

وواصل العلماء الفرنسيون مشروعاتهم الخاصة المختلفة وقدموا عنها تقارير فى جلسات المجمع الذى كان يجتمع كل خمسة أيام تقريبا ، كأن الموضوعات والمشروعات التي كلفهم بها بونابرت لم تكن كافية لشغل أوقاتهم • فقرأ برتولليه أبحاثا له فى تكوين النشادر ، والطريقة المصرية فى صناعة النيلة • وقرأ الجنرال أندريوسى تقريرا عن ارتياده بحيرة المنزلة ووادى النطرون ــ بحيرات الصوذا » الواقعة فى صحراء ليبيا جنوبى الاسكندرية ــ وزاد عليه وصفا للأديرة القبطية القريبة من البحيرات ، ومقالا عن عادات القبائل البدوية • وقرأ سوسى بحثا عن الحاجة لارتياد منابع النيـل ، ودوترتر عن مشروع انشاء مدرســة لتعليم المصريين الفنون الجميلة ، ونكتو عن الحاجة لانشاء كليات للزراعـة ومحطات للتجارب ، ودولوميو عن « اختيار وحفظ ونقل الآثار القديمة » المطلوب شحنتها من مصر الى فرنسا • أما كونتيه فهو فضلا عن صنعه لأقلام الرصاص ، استهلك قدرا منها فى رسم أكثر من خمسين رسما مفصلا تفصيلا دقيقا لمختلف الطرق الصناعية التي يستعملها الصناع وأرباب الحرف المصريون •

ولعل الدكتــور ديجنيت كان أنشط أعضاء المجمع • فقد تلا أبحاثا عن أسباب الرمد ووفيات الأطفال ، وتفقد المستشفى الوحيد الموجود بالقاهرة ، فوجد فيه خمسة وسبعين سريرا ــ منها خمسون مصنوعة من الحجر ــ ونحــو

أربعين مريضا من الجنسين جائعين مهملين ، منهم خمسة عشر اختلت عقولهم وقيدوا بالأغلال • وقد أسفر بحثه في الأدوية والوصفات البلدية عن موقف لا يقل عن هذا سوءا • ووضع ديجنيت الخطط لانشاء مستشفى مدنى يتسع لـ ٣٠٠ ــ ٤٠٠ سرير . ولانشاء صيدلية مركزية بالقاهرة ومدرسة للطب وأخرى للصيدلة ، ومدرسة ابتدائية تعلم الأهالى الفرنسية ليتابعوا دراسات يلقيها المعلمون الأوربيون فى مدارس أرقى • وظلت هذه المشروعات حبرا على ورق لقلة المال والوقت ، ولكنها نفذت بعد زمن قصير فى عهد محمد على على يد الفرنسى كلوت بك • على أن ديجنيت أمر أثناء ذلك بطبع الكتب الصغيرة بالفرنسية والعربية والايطالية فى علاج الطاعون البقرى والجدرى • ولكنه كان يرجو ، فى تواضع العالم الأصيل ، أن يتعلم كما يعلم : فقد ذكر أطباء جيش بونابرت فى منشور دورى بأن مصر كانت مهد الطب القديم ، وبأنه ربما بقيت فيها آثار من حكمة القدماء « اذن فادرسوا أنواع التطبيب البلدى بعناية ، فمهما يحتقر الانسان هذا الطب التجريبى لأول وهلة ، فانه يجب أن يعرفه قبل أن يحكم عليه » (١٣) •

ولم تهمل الأبحاث المجردة وان حظيت العلوم التطبيقية برعاية أعظم ، فتلا مونج أبحاثا عن السراب وعن الجاذبية الشعرية ، وفوربيه وكورانسيه عن الرياضيات العالية ، وكتب مالو مذكرة عن طبيعة الضوء وهو مع طليعة فرقة ديزيه بالصعيد •

ودرس مارسيل الشعر العربى ، وسافنيه الحشرات والديدان • وكتب جوفروا سانتلير بحثا فى جناح النعامة ، وبعد أن فرغ من الطيور انصرف لدراسة الزواحف والأسماك • وحدث ذات يوم ، بعد أن قرأ على المجمع العلمى بحثا عن الأسماك النيلية ، أن وقف شيخ من الحاضرين وطلب الكلمة • فقال : ان هذا البحث لا غناء فيه ، لأن النبى قال فيه كلمته الفاصلة ، وهى أن الله خلق ٣٠٫٠٠٠ نوع ، ١٠٫٠٠٠ منها تعيش فى اليابس والجو ، و٢٠٫٠٠٠ تعيش فى الماء •

***

أما أكثر العلوم التى أسهمت فيها اللجنة العلمية بأكبر نصيب فهى الجغرافيا والمصريات القديمة • ولم يكمل رسم خريطة مصر التى أمر بونابرت بتنسيق العناصر اللازمة لها فى ١٧٩٩ الا فى ١٨٠٦ • وقد نشر هذا الأثر القيم من آثار علم الخرائط ، والذى عد من الأسرار الى نهاية حكم نابليون ، فى كتاب وصف مصر ، وهو يؤلف مصور هذا الكتاب • أما علم المصريات فيدين بالفضل فى مولده لحفنة من المدنيين المرافقين للقائدين ديزيه وبليار فى الصعيد، ولكشف عارض تم على يد ضابط فى سلاح المهندسين • وكان المدنيون فى الصعيد قد نسخوا آلاف النقوش الهيروغليفية • أما معانى الحروف فكانوا

يجهلونها تماما · وقد تكهرب جو المجمع العلمى فى جلسة ١٩ يوليو ١٧٩٩ حين تلى على أعضائه خطاب من المواطن لانكريه يعلن فيه « اكتشاف نقوش فى رشيد قد تكون بالغة الأهمية » (١٤) · وكانت هذه النقوش ، المحفورة بالأزميل فى كتلة ضخمة مصقولة من البازلت ، مكتوبة بالحروف اليونانية والهيروغليفية وبخط مجهول (سمى بعدها بالديموطيقية) · وأدرك الكابتن بوشار مكتشف الحجر بفطرته أنه ربما كان فى هذا الحجر مفتاح اللغة المصرية والكتابة الهيروغليفية ، وكان فى ظنه على صواب · ذلك لأن الكشف لم يكن بالغ الأهمية فحسب ، بل ان النقوش الهيروغليفية والديموطيقية أحدثت ضجيجا كبيرا حين حل شمبليون رموزها بعد اثنتين وثلاثين سنة · أما كيف حدث أن وجد حجر رشيد طريقه الى المتحف البريطانى فسيأتى الكلام فيه فى موضعه ·

***

حدد تاليان فى البرنامج الذى كتبه لصحيفة « العقد المصرى » الهدف من هذه الدورية بقوله : « ان الهدف الذى نتوخاه هو التعريف بمصر ــ لا تعريف الفرنسيين الموجودين بها الآن فحسب ، بل تعريف فرنسا وأوروبا كلها » · ونظرة مدققة لقائمة محتويات الصحيفة كفيلة بأن تقنع أى انسان بأن هذا البيان لم يكن تفاخرا كاذبا · كان محرروها يعرفون أنها مركز تمهيدى لتجميع البيانات والمعلومات التى ستجد لها فى النهاية مكانا فى مؤلف جامع هو « وصف مصر » · وكان هذا الهدف واضحا للعسكريين أيضا · فسنرى أن ديزيه وبليار تعاونا مع العلماء وأبديا فهما قل أن تجده فى العسكريين · وأصر مينو على أن « ترسم جميع طيور اقليم رشيد التى لم ترسم بعد لنشرها فى الكتاب الذى تنوى الحكومة اصداره » (١٥) · وقد ساهم فى هذا المؤلف العظيم ضباط وجنود مجهولون بما صادوه من أنواع الحيوان ، وما دلوا عليه من أطلال ونقوش وأدوات حجرية عثروا عليها مصادفة ، أو بمجرد المغامرة بحياتهم لحماية العلماء العنيدين ·

كان هدف حملة بونابرت تحويل مصر الى مستعمرة لفرنسا تجنى من ورائها كسبا · ولتحقيق هذا الهدف لم تكن اللجنة العلمية أقل أهمية من الجيش · لقد أدرك معظم رجال الحملة منذ البداية تقريبا أنه مقضى عليهم بالفشل ، وأن الفظائع التى يقترفونها ويعانون منها لا جدوى منها على الاطلاق · أما العلماء الذين كان أهم أهدافهم غزو المعرفة واستخدامها فى نفع الانسان ، فلم يكن ممكنا أن يساورهم هذا الاحساس باليأس · ومن ثم نرى رجلا كجوفروا سانتلير يستطيع أن يكتب الى كوفييه فى غمرة الأهوال التى كانت كابوسا مزعجا لغيره من رجال الحملة : « هنا أجد من جديد رجالا لا يفكرون الا فى العلم · اننى أعيش فى قلب دوامة تشغى بالفكر ··· اننا نشغل أنفسنا فى

حماسة بجميع الموضوعات التى تهم الحكومة ، وبالعلوم التى كرسنا أنفسنا لها بمحض اختيارنا » (١٦) ٠

٢

كان الجنرال بونابرت معروفا بين المصريين ب « السلطان الكبير » ٠ واللقب ليس فى الواقع سوى ترجمة فضفاضة للقب « القائد الأعلى » ، ولكن بونابرت قبله برضى وباغتباط أكبر ٠ ذلك أنه كان يرى نفسه حاكما صاحب سيادة ، أكثر منه قائدا عسكريا ، واذ كان لا يقنع بأن يكون حاكما فحسب ، بل يبتغى أن يكون حاكما عظيما ، فقد بذل جهودا صادقة لارساء حكمه على مبادىء عقلية عالية : هى احترام عادات الأهالى وعقائدهم ، وتنمية موارد البلاد الطبيعية ، وتوزيع أعباء الضرائب بالعدل والقسطاس ، وتطبيق القانون بشدة ولكن فى نزاهة ومساواة ، ورد الحكم الذاتى شيئا فشيئا لشعب ألف العبودية منذ عهد الفراعنة ٠ على أن هذه النوايا الطيبة كلها أفسدها عامل واحد ولكنه بالغ الأهمية ، هو الافتقار الى المال ٠

اننا لا نملك دليلا على أن نابليون فاه بهذه البديهية المشهورة ، وهى « أن الجيش يمشى على معدته » ، ولكن من المبادىء التى جرى ــ كما جرت حكومة الادارة ــ على الأخذ بها ، أن يجعل البلاد المفتوحة تتحمل نفقات غزوها ٠

على أنه لم يكن بد من تعديل هذه الطريقة فى مصر ، التى كانت ــ الى أن أعلنت تركيا الحرب على فرنسا على الأقل ــ لا تعتبر من بلاد الأعداء ، لأنه لم يكن فى الامكان فرض ضرائب خاصة عليها كما كانت تفرض على غيرها من البلاد المفتوحة ٠ وكانت الحملة قد غادرت طولون وفى خزينتها من العملة ٤ر٦٠٦ر٩٠٨ فرنكا ، ثم أضاف التفتيش الدقيق فى مالطة نحو نصف مليون من الفرنكات ٠ ولما كانت جملة رواتب الجيش والأسطول تبلغ نحو مليون فرنك ، فقد كان واضحا أن هذا المبلغ لن يكفى طويلا ٠ ولم يكن فى الامكان جمع الضرائب فى مصر قبل أواخر الخريف ، لأنها كانت فى مواطنها قائمة على الدفع عينا ، وهكذا اضطر السلطان الكبير منذ اللحظة التى وطئت فيها قدمه الاسكندرية الى الالتجاء لكل وسيلة تخطر ببال المفلسين للحصول على المال ٠ ولا يكاد المرء يصدق الحساب الذى قدمه الخازندار استيف فى ٢١ سبتمبر عام ١٧٩٨ عن الايرادات والمصروفات ٠ فالميزانية فى جملتها تبين أن الايرادات تزيد على أربعة ملايين من الفرنكات تجمعت من بيع كنوز فرسان مالطة بالتدريج أو صهرها ، ومن بيع سبائك الفرسان أو صهرها ، ومن أملاك المماليك المصادرة ، ومن الغرامات المفروضة على نساء المماليك ، ومن القروض الاجبارية التى أمكن الحصول عليها من جماعات التجار الأوروبيين والسوريين

والقبط واليهود والمسلمين ، ومن الغرامات على اخفاء الأسلحة وشتى المخالفات ، ومن بيع الأملاك المصادرة الخاصة بامم الأعداء ، ومن بيع مقادير من القمح والأرز والصودا والسكر .. الخ ، ومن الضرائب المفروضة على الحوانيت ، ومن حصيلة الجمارك ، وحتى من مصادر كهذا المصدر « ١٤٤ فرنكا ــ مبلغ مدفوع من المواطن فرانتز الملازم الثاني في نصف اللواء الثامن والثمانين لحساب زوجته » (وليس هناك سجل يدل على أن المواطنة فرانتز تسلمت هذا المبلغ الذي ادخره زوجها من راتبه) . ولما كانت جملة المصروفات تزيد على ٨ ملايين ، فقد كان هناك عجز قدره ١ر٣١٧ر٤٦٧ فرنكا و ١٢ سنتيما يستقبل السنة السابعة للجمهورية .

وكانت الوسائل التي استعملت في جمع المال الى ذلك الحين مستقيمة لا غبار عليها اذا قيست بما اتبع من وسائل بعد ذلك ، وان لم تكن دائما محترمة . كان القرض الاجباري يتلو القرض ، وأعطى التجار الذين أخذت أموالهم بهذه الطريقة سندات على ايرادات الجمارك (وهي ايرادات لم تحصل قط لأن جميع الثغور ــ فيما عدا السويس ــ كانت محاصرة) وعلى الضرائب المنتظرة (وكانت تصرف حتى قبل أن تجبى) . وكان كبار موظفي المالية الفرنسيون يرحبون ويفرحون بكل أمارة على خيانة المواطنين الأغنياء أو عدم ولائهم ، لأنها تمكنهم من فرض الغرامات أو مصادرة الأملاك . وقررت الرسوم على تسجيل الأملاك ، واثبات الملكية ، والمشتريات والبيوع ، وباختصار على عدد ضخم من المعاملات التي يقتضي اجراء نظائرها في انجلترا ضريبة دمغة . وأكثر من نصف تاريخ الاحتلال الفرنسي الذي رواه الجبرتي عبارة عن سجل لمختلف هذه الوسائل وامثالها مما لا حصر له ، ولتطبيقها على الناس في كل يوم . ووجدت البراعة الهائلة التي أبداها كونتيه في ميدان الميكانيكا ندا لها في براعة المواطن بوسييلج وزملائه التي تشبه السحر ، لا بل ان بوسييلج حقق معجزة ، وهي أنه احتفظ بمحبة كبار المواطنين الذين كان يبتز مالهم .

وبالطبع تجنب الفرنسيون السرقة الصريحة ، فكانت جيوب الرجال والنساء تفرغ بالطرق القانونية وان كانت الطرق عاجلة في بعض الأحيان ، ولم يستول الفرنسيون على طعام أو خيل أو ابل او غير ذلك من سلع دون أن يعطوا أصحابها ايصالات أو صكوكا ، بل انهم كانوا يقبضون الثمن اذا حل أجل الدفع بفضل قروض اجبارية جديدة يضمنها مزيد من السندات . ومع ذلك ظلت رواتب الجند متخلفة تخلفا مزمنا ، ولم يعش الجيش بعيدا عن الافلاس أكثر من أسبوع أو نحوه . وحين خلف كليبر بونابرت في قيادة الحملة في أواخر صيف ١٧٩٩ استطاع أن يكتب لحكومة الادارة بأن سلفه ترك له دينا قدره ١٠ ملايين فرنك ، ٤ منها رواتب متأخرة للجنود .

ولا حاجة بنا للقول بأن هذه الأساليب غير المألوفة التي لجأ اليها السلطان الكبير ليحمل المصريين نفقات جيش لم يطلبوه كانت بغيضة في أعينهم • ومع ذلك لم تكن وسائله في ابتزاز أموالهم تختلف قط عن الوسائل التي استخدمها المماليك وألف أوساط المصريين مغاناتها •

وقد زاد من جور النظام العادى الذى اتبع فى جمع الايرادات أيام حكم الترك والمماليك أنه لم يكن نتيجة ظروف طارئة ، بل نظاما يتقبله الناس عموما • ولا ريب فى أن الأرقام التى قدرها نابليون فى بيانه للنظام المالى المصرى تفتقر الى الدقة ، ولكنها تعطينا على الأقل فكرة عن الموقف العام ما دمنا لا نملك احصاءات دقيقة عن الموضوع •

كانت الأرض ـ باستثناءات قليلة ـ يمتلكها الملتزمون أو الاقطاعيون الذين ينوبون فى ملكيتها عن السلطان ، فاذا مات المالك ظل وريثه مالكا للأرض بشرط أن يدفع لحاكم الاقليم ضريبة تركات كبيرة • وكان أكثر من ٩٠ ٪ من أراضى الملتزمين يزرعه الفلاحون • ويحصل الفلاح على حق زرع قطعة من الأرض بالشراء ، فاذا مات كان على وريثه أن يعيد شراءها من جديد • وكان الفلاحون يدفعون للملتزمين فضلا عن ذلك رسوما سنوية قدرها نابليون بثلاثين مليونا من الفرنكات كل عام • ومن هذه الملايين التى يجمعها الصيارفة الأقباط كان الملتزمون يدفعون ٦ ملايين ضرائب محلية ، و ٤ر٦ مليون للسلطان (وهى الميرى) فيكون باقى ايرادهم ٦ر١٧ مليونا • وفوق الملايين الثلاثين التى يدفعها الفلاحون للملتزمين كانوا يدفعون ٦ ملايين للضرائب المحلية ، و ٦ ملايين لشيوخ البلد (وهم أشبه بالعمد فى قراهم ، ويعملون فى الواقع وكلاء للملتزمين الذين يسمحون بما يفرضون من ضرائب مختلفة على الفلاحين) و ٨ ملايين للجباة الأقباط علاوة على ما يحملون الفلاحين على دفعه للملتزمين ، و ٤ ملايين يجمعها حكام الأقاليم عينا (خيلا وجمالا •• الخ) ، و ٩ ملايين لقبائل البدو نظير اعفاء الفلاحين من غاراتهم عليهم • وحاصل هذا كما يقول نابليون أن الفلاحين كانوا يدفعون مبلغا قدره ٦٣ مليون فرنك ، أما ما بقى لهم بعد ذلك فلا يذكر نابليون عنه شيئا ، ولكن من الواضح أنه لا يمكن أن يكون شيئا مذكورا ، أو شيئا على الاطلاق • وينتهى نابليون الى نتيجة موجزة مفيدة لا تحتمل الجدل « وخلاصة الأمر أن على الفلاح أن يتحمل العبء كله » (١٨) • وكان لابد من انقضاء قرن ونصف قبل أن تبذل أية محاولة جدية للانتقال بالفلاح من مرتبة الحيوان الذى استوحش ، الى مرتبة قريبة من الآدمية •

كان بونابرت يهدف الى غرضين هامين حين دعا الديوان العام للاجتماع بالقاهرة فى أكتوبر ١٧٩٨ ، أولهما ـ كما قال « تعويد أعيان مصر على أفكار المجالس النيابية والحكم » (١٩) • أما الثانى فاعادة النظر فى الاجراءات

الجنائية والمدنية وقوانين الملكية والمواريث والضرائب • غير أن أهم اصلاح اقترحه بعض مشيريه لم يتم فيه شيء ، بل لم يعرض على الديوان لمناقشته ، لأن الفرنسيين لم يستطيعوا الاتفاق عليه فيما بينهم • ذلك أن عددا كبيرا من القرى (قدره نابليون بثلاثة أرباعها — وهي مبالغة ولا شك) كان بغير ملاك ، لأن كثرة الملتزمين المماليك قتلوا في المعارك أو فروا • فهل تستغل هذه الفرصة لادخال اصلاح عام في ملكية الأرض الزراعية ولجعل الفلاحين ملاكا حقيقيين لهذه الأراضي ، أم يحتفظ بالنظام القديم ؟

أما الاشتراكيون من مشيرى بونابرت (ومنهم كفاريللى بالطبع) فقالوا ان هناك ٢ر٦ مليون فلاح من سكان مصر البالغ عددهم ٣ ملايين ، وان هذا الاصلاح سيحسن أحوال معاشهم تحسينا هائلا ، الأمر الذى يضمن أيضا عرفانهم بجميل فرنسا وولاءهم لها ، وأن كبار الملاك — على أية حال — لا جدوى منهم اطلاقا من وجهة النظر المالية • وأما المحافظون فكانت حججهم فى الاحتفاظ بالنظام القديم طريفة ، وهى تتلخص فيما يأتى :

١ — ان منح الأرض للفلاحين الذين يشغلونها سيجعل من المستحيل توزيعها على ضباط الجيش الفرنسى المستحقين لها أو المواطنين الموالين لفرنسا •

٢ — ما دام المحصول السنوى يعتمد على مقدار الفيضان فلابد من جهاز دقيق لتحديده ، وهى عملية لا يحذقها غير الملتزمين ورجالهم •

٣ — من حسن السياسة كسب ولاء الطبقة الوسطى المالكة الراسخة ، لا الجماهير الجاهلة المتقلبة •

وقد انتصر المحافظون ، لا لشيء الا لأن الأمر لم يتخذ فيه أى اجراء • وكما أن أراضى الكنيسة والمهاجرين فى فرنسا صادرها رجال الثورة وباعوها دون ثمن تقريبا للمغامرين الوطنيين ، كذلك قيل ان أراضى المماليك المصادرة ملك للأمة ووزعت لاشباع ذلك الاله الشره ، ونعنى به مالية الجيش • وهكذا ظل الفلاح فلاحا ، ولم يحصل جندى فرنسى واحد على الأفدنة الستة الموعودة •

ومع أن الاصلاح الجذرى ، من أى نوع كان ، قد امتنع على هذا النحو بفعل الفرنسيين أنفسهم ، فان الموضوعات التى قدمها الجنرال بونابرت للديوان العام كانت تمس أمورا بالغة الأهمية • من ذلك مثلا سؤاله : كيف تنظم دواوين الأقاليم ، وكم تكون رواتب أعضائها ؟ وكيف السبيل الى تنظيم المحاكم المدنية والجنائية ؟ وما القوانين التى يجب سنها لضمان حق الميراث ، وللقضاء على الاجراءات التعسفية الجارية ؟ وما الاصلاحات التى يمكن ادخالها على الطريقة المتبعة فى تثبيت حق الملكية وفى جمع الضرائب ؟

ان موقفا من المواقف لا يصبح تاريخيا الا لأحد أمرين : اما لأن المشاركين فيه على وعى بأنهم يصنعون التاريخ ، واما بفضل نتائج أعمالهم . ولو كان النواب الذين حضروا افتتاح الديوان العام الذى عقد بالقاهرة فى ٤ أكتوبر ١٧٩٨ يعلمون أنهم يؤلفون أول مجلس نيابى فى الشرق الأوسط ، أو لو كانت اجتماعاتهم خلال الأسبوعين التاليين قد تمخضت عن أى نتائج ، لكان هذا الموقف تاريخيا . ولكن الذى حدث هو أن هؤلاء النواب غلبتهم الحيرة والارتباك ، وكان همهم الوحيد ارضاء الفرنسيين دون احداث أى تغيير فى النظام القائم . وكان بونابرت حاضرا جلسة الافتتاح ، ومترجمه فنتور يقرأ رسالته . وقد ذكر الحاضرين فيها بما كانت عليه مصر من رخاء فى غابر الأيام ، وأعلن أنه أنقذ شعبها من حكومة الجهلة الأغبياء ، وأكد أن الفرنسيين لم يتعرضوا لأحد ، ودعا الأعضاء الى أن يقدموا له النصيحة فيما يبذل من جهود لاسترجاع النظام والرخاء . وينقل الجبرتى — الذى كان أحد النواب — هذا الخطاب كاملا : « قلت ولم يعجبنى فى هذا التركيب الا قوله « المفعمة جهلا وغباوة » بعد قوله « اشتاقت أنفسهم » ، ومنها قوله بعد ذلك « ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد » الى آخر العبارة (٢٠) .

ثم دعا فنتور العلماء والأئمة لاختيار رئيس للمجلس . ويقول الجبرتى : ان عدة أعضاء اقترحوا الشيخ الشرقاوى رئيسا — وكان شيخا للجامع الأزهر ورئيسا لديوان القاهرة . وأجاب الترجمان : « نو ! نو ! ، وانما ذلك يكون بالقرعة . فعملوا قرعة بأوراق فطلع الأكثر على الشيخ الشرقاوى » (٢١) . وهكذا نرى أن الاجراءات البرلمانية كانت شيئا جديدا على المجلس .

وعقد الديوان جلساته أسبوعين بتوجيه مونج وبرتولليه المندوبين الفرنسيين ، ويستشف من وصف الجبرتى أن مناقشاته كانت غاية فى الغرابة . كانت تصورات النواب عن الاصلاحات المقترحة وعن القانون المدنى الأوروبى لا تمت الى الواقع فحسب . فلأمر ما — مثلا — كانت فكرتهم عن قانون المواريث فى فرنسا « لا يورث الولد وتورث البنت .. لأن الولد أقدر على التكسب من البنت » (٢٢) وكان الرأى أن هذا النظام لا يتفق وتعاليم الرسول . وفى النهاية قدم الديوان اقتراحات بناءة عن تشكيل المجالس الاقليمية (اذ لم يكن مفر من هذا ما دام الفرنسيون يصرون على مبدأ الحكم المحلى) ، أما غير هذا من الموضوعات المقترحة على الديوان فقد تشبث فيها بالنظام الحاضر ، ورأى الابقاء على العادات والتقاليد القديمة أو ردها الى ما كانت عليه . ويقول الجبرتى ان الأعضاء المسيحيين كانوا على تمام الاتفاق فى هذا مع زملائهم المسلمين . وكان الاجراء المالى الوحيد الذى اقترح هو فرض ضريبة تصاعدية على العقارات فى المدن . يقول الجبرتى : « ولما أشيع ذلك فى الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك والبعض استسلم للقضاء ، فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا

فى ذلك ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عواقب الأمور ، ولم يتفكر أنه فى القبضة مأسور » (٢٣) ٠

كان رد الديوان العـام استنكارا لا ريب فيه ـ وان يكن غير مباشر ـ لسياسة بونابرت : فقد قضى بألا يحدث تغيير فى نظام الحياة الجارى ، وأن يظل كما كان من قبل وكمـا سيكون من بعد ، أما الاحتـلال الفرنسى فليس الا عرضا زائلا ، ومحنة يصبر عليها الشعب الى أن تنتهى النهاية التى لا مفر منها ٠ ولكن السلطان الكبير شاء أن يخطىء تفسير المعنى الذى رمى اليه الشيوخ٠ لا بل انه أفلح فى روايته التى أملاها بسانت هيلانة فى أن يقلب هذا الرد فيجعله استحسانا لاصلاحاته المقترحة ٠ والذين يصنعون التاريخ ، ويكتبونه أيضا ، يتمتعون بامتياز فذ هو كتابته مختلفا تمام الاختلاف عن الكيفية التى صنعوه بها ٠ ففى ١٧٩٨ لم يكن لدى بونابرت أى شك فى مغزى تصريح الديوان ٠ وقد أعطته الثورة التى قامت اثر ذلك ذريعة لحل الديوان ، فلما أعيد تشكيله بعد شهرين ، لم يبق له من أهميته الأولى غير ظلها ٠

ولما كانت مصر لم تنضج بعد لتقبل ما يجلبه الحكم الفرنسى من اصلاح ومزايا ، لم يكن بد من كسب رضى الشعب بطرق أقل مباشرة ٠ فما داموا لا يحترمون غير القوة ، فيجب أن يحكموا حكما حازما ، وما دام الحافز الوحيد لهم هو النعرة الدينية ، فلابد من توجيه هذه النعرة واستغلالها ٠ وقد وردت هذه الفكرة الطريفة فى خطاب كتبه بونابرت لرئيس حكومة جنوة المؤقتة فى عام ١٧٩٧ : « لا تنس أنك كلما جعلت الدين ، أو حتى الخرافة ، يصطرع مع الحرية ، فان النصر سيعقد دائما للدين على الحرية فى عقل الشعب » (٢٤)٠ ومعنى هذا بعبارة أخرى أن على المشرع أن يروض الدين لا أن يقاومه ٠ وقد حدا هذا المبدأ ببونابرت الى رد الكنيسة الكاثوليكية الى فرنسا بعد رجوعه من مصر ، وهو اجراء وصفه بأنه « لقاح ضد الدين » (٢٥) ٠ وقد حاول أن يستعمل فى مصر هذا الدواء الذى هو من جنس الداء ٠ فكتب لكليبر يقول : « علينا أن نهدهد التعصب حتى ينام قبل أن نستطيع اقتلاعه » (٢٦) ٠ وكان سبيله الى هذا أن يزعم أنه مبعوث العناية الالهية ٠ ولكن هذه الوسيلة باءت بالفشل أينما استخدمها ، فقد كانت فكرة الناس عنه أنه طاغية منافق ٠

وكان يحكى فى سياسته الدينية فى مصر نموذجا مشهورا ٠ كتب فى سانت هيلانة يقول : « ان الأفكار الدينية كانت على الدوام مسيطرة على الشعب المصرى فى شتى العصور ٠٠٠ فلما ظهر الاسكندر الأكبر على حدود بلادهم جاءوا ليحيوا هذا الرجل العظيم بوصفه محررهم ٠ ولما عبر الصحراء فى زحف لم يستغرق غير أسبوعين من الاسكندرية الى معبد آمون ، ولما جعل الكاهنة تستقبله بوصفه ابن جوبيتر ، كان يفعل هذا وهو على وعى تام بعقلية هؤلاء الناس ٠٠٠ وقد حقق بعمله هذا ، من حيث تثبيت دعائم فتحه للبلاد ، أكثر

مما كان يحققه لو بنى عشرين حصنا وعزز جيشــه بمائة ألف من المقــاتلين المقدونيين » (٢٧) .

لقــد كان الاقتداء بالاســكندر حلما يداعب خيــال نابليون منذ نعومة أظفاره . **ووجه الشبه بين الحالين هنا واضح** : فعليه أن يحل بالأزهر محل معبد آمون رع ، **ويروى نابليون فى تاريخه للحملة المصرية رعايته للأزهر فى لذة واغتباط . يقول** :

« ان مدرسة الأزهر ــ التى تقابل السوربون عندنا ــ أشهر مدارس الشرق قاطبة . وقد أنشأها صلاح الدين (*) . وكان ستون من العلماء يناقشون فيها الفقه ويفسرون القرآن والحديث . وهى المركز الوحيد الذى يستطيع أن يضرب للناس المثل فيقتدى به الرأى العام فى العالم الاسلامى وفى مذاهب الاسلام الأربعة ، وهذه المذاهب الأربعة ... يختلف أحدها عن الآخر فى نظام العبادة فقط . ويرأس كلا منها فى القاهرة مفت . ولم يغفل نابليون قط عن كسب رضاهم وتملقهم . كانوا شيوخا جديرين بالاحترام لفضلهم وعلمهم وثرائهم ، بل ومولدهم . وكانوا عند شروق كل شمس يأتون هم وعلماء الأزهر إلى قصره قبل الصلاة فيملأ حرسهم ساحة ميــدان الأزبكية ، ويمتطون بغالهم المطهمة ومن حولهم أتباعهم وعدد غفير من العدائين المسلحين بالشوم ، فيحييهم الحرس الفرنسيون التحية العسكرية ... وفى القصر ... يستقبلون بالتجلة ، وتقدم لهم الشربات والقهوة . وبعد لحظة يقبل الجنرال فيجلس وسطهم على الأريكة ، ويحاول كسب ثقتهم بالمناقشة فى القرآن ، وبطلبه تفسير الآيات الهامة ، وبابداء اعجابه العظيم بالرسول . حتى اذا غادروا القصر انصرفوا الى المساجد التى يجتمع فيها الناس ، فحدثوهم بآمالهم ، وهدأوا من روع هذه الأمة الكبيرة وعدائها للفرنسيين . فكانوا يؤدون للجيش خدمات ايجابية جدا » (٢٨) .

وقد حاول بونابرت فى أحاديثه مع العلماء والمفتين أن يقنعهم بأن الرسول خصه برعايته ، والا فكيف أتيحت له هزيمة المماليك الشجعان ؟ « ان هذه الثورة العظمى تنبأ بها القرآن فى عدة آيات » (٢٩) . وأعرب أئمة الدين عن محبتهم للسلطان الكبير : « فهو فى رأيهم مقدر من عند الله » . هذا على الأقل ما أكده السلطان الكبير فى سانت هيلانه . ولكنه يسلم بأن تسمية الفرنسيين بالكفار أثار « القلاقل وسوء الفهم » فى الأقاليم .

« كان السلطان الكبير فى أحاديثه (مع الشيوخ) يشكو بلهجة تغلب عليها المرارة ، من المواعظ العدائية التى يلقيها الأئمة فى المساجد فى صلاة

(*) اخطأ بونابرت هنا فنسب بناء الجامع الأزهر الى صلاح الدين الايوبى ، والواقع ان الأزهر بنى فى عهد الفاطميين (المترجم) .

الجمعة ، ولكن اللوم والانذار اللذين وجههما الشيوخ لهؤلاء الأئمة المشاغبين لم يكونا كافيين . وأخيرا ، وحين رأى أن اللحظة المواتية أتت ، قال لعشرة من كبار الشيوخ ــ وكانوا أكثرهم ولاء له : « لابد أن نضع حدا لهذه الفتن . أريد من الأزهر أن يصدر فتوى تأمر الناس بأن يحلفوا يمين الطاعة لى » واصفرت وجوههم لهذا الطلب فأنبأت برعب دفين . ثم غلبهم الوجوم والارتباك . وطلب الشيخ الشرقاوى ، كبير علماء الأزهر ، الكلمة ، وقال بعد أن استجمع شجاعته ، « انك تطلب رعاية الرسول الذى يحبك ، وتريد العرب المسلمين أن ينضووا تحت رايتك ، وترغب فى استرداد أمجاد العرب ، وأنت لست مشركا ولا وثنيا . فاعتنق الاسلام اذن ، لأنك لو فعلت لبادر الى الانضواء تحت لوائك مائة ألف عربى من بلاد العرب ومن مكة والمدينة ، ولاستطعت ــ وأنت قائدهم ومنظمهم ــ أن تفتح بهم الشرق وتسترد وطن الرسول بكل أمجاده » . فلما قال هذا علت الابتسامات وجوه الشيوخ ، وركع الجميع ضارعين الى الله أن يسبغ حمايته . وكانت الدهشة هذه المرة من نصيب الجنرال » (٣٠) .

وقد يبدو غريبا لأول وهلة ألا يستحق هذا المنظر المشهود الذى وصفه نابليون هذا الوصف الحى ، ولا نتائجه الغريبة ، سطرا واحدا أو اشارة فى كتابى الجبرتى ونقولا الترك . ولكن مزيدا من التأمل يدلنا على أن نابليون لا يبين بوضوح التاريخ الذى وقع فيه . ويزيد هذا الغموض غرابة أنه كان يحسب تاريخه للحملة المصرية أفضل من « التعليقات » التى كتبها يوليوس قيصر ، لأنه أورد فيه تواريخ الحوادث . ومع أنه من العسير أن نثبت أن هذا المشهد لم يقع على الاطلاق ، فان هذا الفرض مقبول الى حد كبير . وأغلب الظن أن الذى حدث فعلا أن الحجج التى نسبها نابليون فى منفاه للشيوخ والعلماء كانت فى الواقع حججه هو التى بسطها لهم . فهو الذى اقترح عليهم رغبته هو وجيشه فى اعتناق الاسلام ، يقول : « سرت بين الناس مئات الشائعات . فقال بعضهم : ان النبى نفسه ظهر للسلطان الكبير وقال له : ... اجهر بايمانك بأركان دينى لأنه دين الله . ان العرب فى انتظار هذه العلامة ، وسأخضع آسيا كلها لسلطانك » (٣١) . وكل الدلائل تقطع بأن الشائعات لم تنتشر بين الناس كما زعم ، بل بأنه هو الذى نشرها عمدا . ويواصل حديثه ، وفيه رنين الصدق هذه المرة ، فيقول : « ان السلطان الكبير انتهز فرصة هذه الشائعات ليلمح بأنه فى رده (على النبى) التمس مهلة سنة يعد فيها جيشه ، فمنحها له النبى ، وأنه تعهد بأن يبنى مسجدا عظيما ، وأن الجيش كله سيعتنق الاسلام ، وأن اثنين من كبار الشيوخ ، هما الشيخ السادات والشيخ البكرى ، يعتبرانه مسلما فعلا » .

وليس هناك ما يدعونا للتشكك فى هذا القدر من رواية نابليون المزوقة : فقبل أن يمضى طويل وقت على وصوله القاهرة بين له الشيوخ بأنه ما دام يزعم

أنه من أتباع محمد ، وما دام جيشه يحب الاسلام ، فان أمثل الطرق لاثبات اخلاصهم هي اعتناق الاسلام . واذ كان بونابرت قد انقطع ما بينه وبين العالم الخارجي ، فقد رأى من حسن السياسة أن يتملق آمالهم حتى ولو كانت تفتقر الى الاخلاص كدعاواه . ولكنه وهو الرجل الواقعي لم يكن في الوقت نفسه راغبا في الوفاء بوعده الا اذا أكرهته ضرورة قصوى . وقد قال لرفيقه جورجو في لحظة سهو في سانت هيلانة : « ان المرء في هذه الدنيا يجب أن يبدو صديقا للناس ، وأن يبذل الوعود الكثير ، ولا يفي بوعد منها » (٣٢) . وكان الشيوخ يفكرون بنفس الطريقة ، فكان كل من الطرفين يتظاهر بأن صاحبه استغفله .

وتلا ذلك نقاش عجيب بين شيوخ الأزهر وبونابرت . وقد أخبر بونابرت الفقهاء بأن اعتناقه هو وجيشه الاسلام دونه عقبتان . أولاهما مسألة الختان ، والثانية تحريم الخمر . فرجاله الذين ألفوا شرب الخمر طوال حياتهم لن يرتضوا الزهد فيها ، وهم كذلك زاهدون في الختان أشد الزهد . وتناقش الفقهاء في هاتين القضيتين طويلا ، ثم طلعوا بفتوى تزعم أن الختان نافلة ، وأنه ليس ضرورة لا غنى عنها لمن يعتنق الاسلام ، أما الخمر فقد يشربها الانسان وهو مسلم ، وان يكن في حالة من الاثم لا تجعله أهلا للاستمتاع بمباهج الجنة . وفكر بونابرت في الأمر ثم صرح بأنه مقتنع بجوابهم عن الأمر الأول ، ولكنه قال : ان الفقهاء لابد يمزحون عن الأمر الثاني : فلم يعتنق انسان دينا يحكم عليه بالهلاك في الجحيم لأنه يواصل ممارسة عادة لا ينوي الاقلاع عنها ؟ واختلى الفقهاء ليعيدوا النظر في المشكلة طالبين المعونة من الله لينير بصائرهم : وأخيرا أصدروا فتوى ثانية ، فيما روى نابليون — وليس لدينا رواية غير روايته — : ومؤداها أن في وسع الفرنسيين أن يشربوا الخمر ويدخلوا الجنة رغم هذا ، بشرط التكفير عن هذا الاثم بالتصدق بخمس دخلهم بدلا من العشر المألوف . وبهذه المناسبة نذكر أن الشيخ البكري ، الذي كان في هذا الجدل الفقهي يوفق بين الطرفين ، ألف كل ليلة أن يثمل بشرب خمر مزجت فيها زجاجة من البرجندي بأخرى من البرندي (*) .

ولا يذكر نابليون على التحديد متى صدرت الفتوى الثانية ، ولكن يبدو من سياق الأحداث أنها لابد صدرت خلال غيابه في الشام في ربيع ١٧٩٩ . وبعد عودته للقاهرة أصدر علماء الأزهر بيانا يزعم أن السلطان الكبير « يحب المسلمين ، ويعز الرسول ، ويهذب نفسه بقراءة القرآن كل يوم ، ويريد بناء مسجد لا نظير له في بهائه وفخامته ، ويود اعتناق الاسلام » (٣٣) . ولكن نابليون لا يقول لنا ، وهو يسوق هذا البيان ، انه لم يصدر الا بناء على طلبه .

(*) هذا ما يؤكده على اى حال رستم رضا مملوك نابليون الشهير في مذكراته ، وكان من سباليك الشيخ البكري .

وربما بدت هذه الوعود معقولة فى نظر العلماء على ما فيها من سخرية لأن الجنرال مينـو كان قد اعتنق الاسـلام قبيل ذلك ، لأسباب تتصل بالغرام والسياسة أكثر مما تتصل بالغيبيات ·

٣

أفضى نابليون مرة لأحد رفاقه بسانت هيلانة بهذا الحديث « ليس الذى يعجبنى فى الاسكندر الأكبر حملاته الحربية ··· بل أساليبه السياسية ··· لقد كان محقا حين أمر بقتل بارمينون الذى عارض بحماقته فى تخلى الاسكندر عن التقاليد الاغريقية · وكان منتهى حسن السياسة منه أن يذهب لزيارة معبد آمون ، فهو بهذا فتح مصر · ولو أننى مكثت فى الشرق لأقمت على الأرجح دولة كدولة الاسكندر بذهابى الى مكة للحج » (٣٤) ·ونابليون هو الرجل الذى قال للجنرال كولنكور وهو يهرب من روسيا فى غير هوادة : « اننى حين أكون فى حاجة الى زيد من الناس لا أحجم عن شىء : فاننى أقبل ··· » (٣٥) ·

وجد السلطان الكبير نفسه فى مأزق وهو يمارس سياسته الاسلامية · كان عليه ـ ان شاء أن يدخلها على الشيوخ ـ أن يقنعهم باخلاصه ، وعليه ـ ان شاء أن يدخلها على الجيش ـ أن يقنع جنوده بعدم اخلاصه · ولكنه أخفق فى اقناع الشيوخ ، وعجز عن تهدئة بعض الريب والشكوك التى ساورت أتباعه · فما الذى يريد أن يفعله بالضبط ؟ أهو يريد انشاء مستعمرة لفرنسا ؟ أم امبراطورية شرقية لنفسه ؟ أم مجرد كسب الوقت ؟

وكان أشد قواد بونابرت صرامة فى نقده كليبر ، الذى يكبره سنا ويسبقه ترقية · ولما كان هذا الالزاسى الصريح الفارع القامة جنديا محترفا ، فقد كان يضيق برجال السياسة ، وكان على علاقات سيئة بهم منذ زمن طويل · وقد ارتضى أن يحارب تحت قيادة بونابرت ليبتعد ما أمكن عن حكومة الادارة · ولكنه وان احتقر حكومة الجمهورية ، الا أنه آمن بالجمهورية · وسرعان ما تبين فى بونابرت رجلا سياسيا أكثر منه قائدا ـ ولكنه سياسى ذو أهداف أبعد وأشد خطرا من أهداف العصابة التى تحكم فرنسا · فبونابرت انتهازى · كتب كليبر فى يومیته الموجزة يقول فى وصف رئيسه : « ليس لديه خطة ثابتة · وكل شىء عنده يجرى بانتفاضات قصيرة · وأعمال اليوم تتم وفق حاجة اليوم · انه يزعم أنه يؤمن بالقدر » (٣٦) · وبونابرت فى رأى كليبر دكتاتور يريد أن يعرف كل شىء خيرا مما يعرفه أى انسان غيره · يقول عنه : « انه عاجز عن تنظيم أى شىء أو ادارته ، ومع ذلك فما دام يريد أن يفعل كل شىء ، فهو ينظم ويدير · ومن هنا الفوضى والاسراف فى كل شىء · ومن هنا حاجتنا لكل شىء ، ومن هنا الفقر الذى نعانيه ومن حولنا الخير والرخاء » (٣٧) · وبونابرت

مدلل : « أهو محبوب ؟ وكيف يمكن أن يكون ؟ انه لا يحب أحدا · ولكنه يحسب نفسه قادرا على التعويض عن هذا بالترقيات والعطايا » (٣٨) ·

كان كليبر معجبا بعبقرية بونابرت الحربية وجرأته ، ولكن لم يمض عليه بمصر أكثر من أسابيع حتى بدأ استهتار رئيسه التام يروعه · فالقائد الذى له صفات الجندى الأصيل لا يرسل جنوده ليعبروا صحراء بلا زاد ولا ماء ، ولا يجازف بما جازف به بونابرت حين زحف بجيشه على مصر · وقد قال كليبر مرة ان بونابرت من طراز القواد الذين يريدون موردا من الجنود لا يقل عن ١٠٠٠ر١٠ جندى فى الشهر · ومرة قال بونابرت عبارة يقدم بها لملاحظة له : « أما من جهتى ، أنا الذى ألعب مع التاريخ لعبة » ، فأفزع هذا القول كليبر فزعا جعله يسجل الكلمات فى مذكرته ·

كان مسلك بونابرت فى مصر مسلك عاهل شرقى لا قائد من قواد الجمهورية الفرنسية · ولعله لعب هذا الدور بدافع الضرورة السياسية ، ولكن يلوح أنه كان يستطيبه كثيرا ، وأنه أسرف فى لعبه · وكان واضحا لكليبر ، منذ البداية تقريبا ، أن الحملة طائشة ، سيئة التجهيز ، مقضى عليها بالفشل · لذلك لم يشارك « المستعمرين » حماستهم — وعلى رأسهم مينو ومونج — وبدا له أن أحكم طريق هو الجلاء عن مصر ، لا خسارة مزيد من الأرواح وبذل مزيد من التضحيات دون مقابل · فاذا لم يتيسر الجلاء ، فخير ما يمكن عمله هو الانتظار الى أن تتيسر المفاوضة للتسليم بصلح شريف · وفى الوقت نفسه يجب — للسيطرة على الموقف — أن تحكم مصر بالحزم والعدل لا بالمنشورات المزوقة من ناحية ، والطغيان والتعسف من الناحية الأخرى · وقد اثبت حكم كليبر لمصر بعد رحيل بونابرت الى فرنسا ، أنه يحترم الاسلام على الأقل بقدر ما كان يحترمه سلفه ، وان لم يجد ضرورة تحمله على التصريح بأنه سيعتنق الاسلام ، ويرد للأمة العربية أمجادها ، كما فعل بونابرت ·

أما عداء كليبر لبونابرت — ذلك العداء الذى بلغ قمته فى خطاب الاتهام اللاذع الذى وجهه كليبر للادارة عقب رحيل رئيسه عن مصر — فقد اشتعل أول مرة حين كان حاكما للاسكندرية · ولم يكن كليبر من قبل بالقائد السلس القياد ، ولكن بونابرت آذى شعوره بأشد مما آذاه أى رئيس آخر · واشتد ضيقه بالأوامر المتعسفة والتعنيف المستمر الذى كان يتلقاه من القاهرة ، لأن جرح رأسه وان التأم كان يسبب له آلاما حادة · وكانت شكاوى كليبر المتصلة — من جهة أخرى — من ألوان النقص ، وميله الى تعديل الأوامر أو تجاهلها حسبما يراه مناسبا فى ضوء الظروف المحلية ، تغيظ بونابرت · وفى ٣ سبتمبر التمس كليبر من بونابرت أن يستدعيه من الاسكندرية : « أرجوك أن تسمح لى بالانضمام الى فرقتى من جديد · فأنا أرى أن سلوكى يناقض أوامرك ، والسياسة الادارية التى انتهجتها ، مناقضة لا مناص معها من أن يسوءك » (٣٩) ·

ثم كرر هذا الرجاء بعد أربعة أيام ، فكتب لرئيسه يقول : « انني لا أعرف شيئا عن الادارة » (٤٠) • كذلك كان الخطاب الذى كتبه لبرتييه فى نفس اليوم لا يقل ضيقا وحدة • فالأمر الذى أصدره بونابرت بنقش أسماء الأبطال الذين ماتوا فى معركة الاسكندرية على عمود بومبى لم يمكن تنفيذه لأنه لم يعط قائمة بأسمائهم ، وحتى لو أرسلت له القائمة ، فان نقش الأسماء لن يتيسر قبل احتفال الأول من فندميير ، لأن عمود بومبى مصنوع من الجرانيت لا من الزبد ، أما صحيفة « بريد مصر » التى كان برتييه قد وافاه بعدة نسخ منها ، فقال عنها : « ان صحيفتك الصادرة بالقاهرة ليس فى تحريرها من الجاذبية ما يتيح الأمل فى الحصول على مشتركين كثيرين فيها • فهى على الأقل يجب أن تكتب بالفرنسية » (٤١) •

وما أن غادر رسول كليبر الاسكندرية فى طريقه الى القاهرة حتى أتاه رسول القاهرة بتوبيخ شديد اللهجة من رئيسه • كتب له بونابرت يقول : « تفضل على بألا تقلب ترتيباتي رأسا على عقب • فهى مبنيـة على عوامل لا تستطيع تقديرها ما دمت بعيدا عن مركز الظروف » (٤٢) • وأعقب بونابرت هذا بثورة على ما اعتبره اسرافا فى الانفاق ، لا سيما على المستشفى العسكرى بالاسكندرية ، وثورة أخرى بسبب رفض كليبر أن يفرض قرضا اجباريا اضافيا على تجار الاسكندرية • لقد كان واضحا أن كليبر لا يتبين خطة رئيسه العظمى، والتمس كليبر فى سخطه أن يجرى تحقيق فى مسلكه ، وختم خطابه قائلا : « انك نسيت أيها المواطن الجنرال وأنت تكتب ذلك الخطاب أنك تمسك بمحفار التاريخ فى يدك ، وأنت تكتب لكليبر • وانى أتوقع أيها المواطن الجنرال أن أتسلم بالبريد التالى أمرك بوقفى عن عملى ، لا بوصفى حاكما على الاسكندرية فحسب ، بل عن جميع وظائفى فى الجيش ، الى أن تحاط احاطة أتم بما يجرى وما جرى هنا » (٤٣) •

وتجاهل رد بونابرت هذه الغضبة وكتب يقول : « ان كنت حقا أمسك بيدى محفار التاريخ فأنت أقل الناس حقا فى الشكوى منى » (٤٤) • ولكن كليبر لم يلن : ففى ١٩ سبتمبر سلم قيادته للجنرال مانكور ، وبعد ثلاثة أيام التمس أن يعاد الى فرنسا لاعتلال صحته • ولم يكن فى وسـع بونابرت أن يخسر كليبر ، وكان يستطيع ، اذا احتاج الى رجـل ، أن يغير لبوسه ، فأجـاب « يحزننى أن أسمع بتوعكك • وانى لأرجو أن تتحسن صحتك بفضل مناخ القاهرة ، وأنك بعد أن تبرح رمال الاسكندرية ستجد مصرنا أقل سوءا مما تبدو لأول وهلة ••• ثق فى صـدق رغبتى فى أن أراك وقـد اسـترجعت صحتك ، وفى الأهمية التى أعلقها على احترامك وصداقتك • وانى آسـف لأننا تشاجرنا قليلا ، وأنت تظلمنى اذا ارتبت فى أسفى • وفى مصر تنقشع الغيوم (ان كان هناك غيوم اطلاقا) بعد ست ساعات على الأكثر • أما أنا

فان كانت هناك غيوم فى سماء صداقتنا فقد انقشعت عندى بعد ثلاث · ان احترامى لك ، على الأقل ، كبير كالاحترام الذى كنت تبديه لى أحيانا · أرجو أن أراك بالقاهرة بعد أيام ·· ولك تحيتى ومحبتى » (٤٥) ·

ولم يستطع كليبر أن يفعل شيئا ، ففى ٢٢ أكتوبر وصل الى القاهرة ليستمتع بمناخها الصحى ، ويتلقى الحكمة التى فى خطة بونابرت العظمى عن كثب · وكان أول ما رأى وسمع هى المدافع الفرنسية فى القلعة ترمى الأزهر بقنابلها ، وجموع المسلمين الثائرين الصاخبين يذبحون الفرنسيين والنصارى ويقيمون المتاريس فى الشوارع ، والمؤذنون يحرضون المؤمنين من أعلى المآذن على قتل أصدقائهم الفرنسيين ·

٤

أغرب ما فى الثورة التى نشبت بالقاهرة فى ٢١ أكتوبر أنها أخذت الفرنسيين على غرة ، مع أن اقترابها كان ينادى به على الملأ من أسطح المنازل وقمم المآذن ·

وقد عللت الثورة بمختلف الأسباب · ويبدو أن نابليون والجبرتى متفقان – فى روايتهما – على تعليل الثورة بالأوامر الادارية الفرنسية التى أبغضها الشعب ، وأهمها ما ذكرنا من أوامر مالية – كالقروض والبيوع الاجبارية ، وأوامر الاستيلاء ، والغرامات ، ورسوم التسجيل ·· الخ · على أن هذه كلها لم تمس الا الطبقة العليا والوسطى ، اللتين لم تلعبا دورا ايجابيا فى الثورة ولكن قوانين أخرى مست عامة الشعب مسا مباشرا : فقد أمر بونابرت بازالة جميع البوابات التى تفصل أحياء المدينة عن بعضها البعض تيسيرا للانتقال فى القاهرة ، وأمر أصحاب الحوانيت باضاءة مصابيح الشوارع طوال الليل أمام حوانيتهم ، وأمر بهدم عدة بيوت ومسجد لأنها عاقت استحكامات القلعة ، ووضع مزيدا من المدافع فى القلعة وصوبها الى المدينة ، وأدخل قوانين صحية جديدة نظم بها دفن الموتى للتخفيف من خطر الأوبئة ، ولكنها نفرت عامة الشعب · على أن الشرارة التى أوقدت نار الثورة فى رأى الجبرتى هى ضريبة العقارات التى أوصى بها الديوان ·

ومع أن هذه العوامل كلها أعانت بلا شك على قيام الثورة ، الا أنها لا تعللها تعليلا مرضيا · والمعلم نقولا الترك هو الذى يتعمق الثورة الى أسبابها الحقيقية · فقد أوفده سيده أمير الدروز الى مصر ليلاحظ ما يجرى فيها ، فأحسن نقولا الملاحظة · يقول ان الفرنسيين فى عزلتهم اليائسة حاولوا التودد الى الشعب « لانهم نظروا ذواتهم أنهم بقوا قلايل ولا عمال يحضر لهم أمداد ، بل كلما على نقص من غير زيادة · فما أمكنهم الا المساواة والمواساة ، وكانوا

يقدموا لأهل البلد كل محبة لكي يجلبوهم الى محبتهم ، ولكن هذا الشيء ضد الطبيعة » (٤٦) · « فلهذا السبب صعب جدا دخول الافرنج على المصريين الى هذه الديار ولا سيما اذ كانوا يروا نساءهم وبناتهم مكشوفين الوجوه ، مملوكين من الافرنج جهارا ، ماشيين معهم فى الطريق ، نايمين قائمين فى بيوتهم ·، فكانوا يكادوا أن يموتوا من هذه المناظر · وناهيك تلك الحمامير التى اشتهرت فى كامل أسواق المدينة جهارا ، حتى وفى بعض الجوامع أيضا · هذا الرويا والمنظر كانت تجعل المسلمين يتنفسوا الصعداء ويطلبوا الموت فى كل ساعة · ولكن فى مدة الفرنساوية كانت الناس الدون فى أحسن حال من بياعين وشيالين وأرباب صنايع وحمير وسياس وقوادين ونساء خوارج · وبالنتيجة الناس الأدنيا كانوا منشرحين ، وسببه كان اطلاق الحرية · وأما الشطر الثانى الأعلى والأوسط شديد التعب جدا من كامل الملل لسبب وقوف الحال من عدم الداخل والخارج » (٤٧) ·

والواقع أننا اذا استثنينا التجارة مع بلاد العرب ، فان الصادرات والواردات توقفت فعلا « ان الانكليز قفلوا (على الفرنساوية) البواغيز باقفال انكليزية » (٤٨) ومع ذلك ــ كما يقرر تقولا الترك ــ لم يكن هناك عجز خطير فى الواردات ، بل ان الطعام كان أوفر من العادة ، وهبطت أسعار المواد الأساسية · لذلك يحق لنا أن نتساءل : لم ثارت الطبقات الدنيا التى حسنت أحوالها ، بينما امتنع الأغنياء عموما عن الثورة وهم الذين يحق لهم أن يشكوا ؟ **والجواب واضح** : فقد استخدم الأغنياء والمستنيرون هؤلاء الفقراء المتحمسين المحرضين مطية لبلوغ هدفهم ·

أما ما نفر الأهالى فلم تكن مظالم السلطات الفرنسية ــ فقد ألفوا المظالم ــ بل البدع التى أدخلها الفاتحون حتى وان كانت لصالحهم · وقد زاد هذا النفور تحريض المتعصبين من الزعماء الدينيين (لا سيما الذين لم يعطوا المناصب أيام حكم الفرنسيين) ، والدعاية التى بثها عمال الجزار باشا وبكوات المماليك المنفيين · فكان الجزار وابراهيم بك يبعثان من الشام بالرسول تلو الرسول ، وكانت فرمانات السلطان سليم التى تدعو جميع المسلمين الى الجهاد ضد الفرنسيين تدخل مصر بهذه الطريقة ويقرؤها الأئمة علنا فى المساجد · وقد ذكرت أن الفرنسيين كفار ، وأعداء لا للاسلام فحسب ، بل لجميع الأديان ، وأن جيوش الدولة العثمانية قادمة سريعا لتسحقهم · « وستغطى مراكب عالية كالجبال سطح البحار · وستصل مدافع تبرق وترعد ، وأبطال يزدرون بالموت فى سبيل الله ··· ليطاردوا الفرنسيين » · أما الجزار نفسه « فقد كتب له باذن الله الهيمنة على ابادتهم ·· ولن يبقى لهؤلاء الكفار أثر ، لأن هذا وعد الله ، ومآل أطماع الأشرار الخسران ، ومصيرهم الهلاك » (٤٩) · ورافق تهديد الجزار وعيد ابراهيم لكل متعاون مع الفرنسيين · وعلم بهذه الرسائل جميع أعضاء

ديوان القاهرة الذين يلقون بونابرت كل يوم . وكانت تقرأ في المساجد ، والمؤذنون يحضون الناس على الثورة من قمم المآذن خمس مرات في اليوم . فلم يبدأ شهر أكتوبر حتى قامت الاضطرابات في الدلتا : ففي منطقة المنزلة شن الفلاحون حربا تشبه حرب العصابات بقيادة حسن طوبار الثرى الذى كان يراسل ابراهيم بك ويتظاهر في الوقت نفسه بصداقته للفرنسيين . وفي طنطا قام الأهالي بثورة في ٧ أكتوبر استجابة لمنشورات الجزار ، ولكنها أخفقت .

غير أن الفرنسيين غفلوا تماما عما يبيت لهم ، على الرغم من هذه النذر بهبوب العاصفة . كتب سكرتير بوسييلج في ٦ سبتمبر يقول : « ان شعور الاطمئنان الكامل يسود جميع طبقات المجتمع بفضل اعتدال حكومتنا » (٥٠) . وفي ١٤ سبتمبر وجد بونابرت نفسه وهو خارج من بيت الشيخ السادات (أحد أعضاء ديوان القاهرة) محاطا بجمع من الناس ، يقول الجبرتي انهم كانوا « يلغطون ويخلطون . فلما نظروه وشاهد هو جمعيتهم داخله أمر من ذلك ، فصاحوا بأجمعهم وقالوا بصوت عال الفاتحة ، فشخص اليهم وصار يسأل من معه عن ازدحامهم ، فلطفوا له القول ، وقالوا انهم يدعون لك ، وذهب الى داره . وكانت نكتة غريبة وساعة اتفاقية عجيبة كاد ينشأ منها فتنة » (٥١) . ومع أنه من الصعب على من يجهل العربيـة أن يميز بين اللعنـات وعبارات الاستحسان ، فانه أصعب أن نصدق أن بونابرت قد اتطلى عليه هذا الجواب تماما . والأدلة متوفرة على أنه كان على بينة من نشاط الأئمة والمؤذنين في تهييج الأهالي : وهو لم يطلب الى ديوان القاهرة أن يعلن ميله للاسلام الا رغبة في مقاومة هذا النشاط . كذلك لابد أنه كان على علم برسل الجزار وابراهيم ، لأنه أمر بقطع رأس اثنين منهما . اما أنه كان يعتقد حقا ، أو يتظاهر بالاعتقاد ، بأن الفرمانات التي أذاعت اعـلان تركيا الحرب على فرنسا قد زيفها الجزار والمماليك ، فذلك أمر لعلنا لن نستطيع القطع فيه بجواب . ولكنه كان أوفق له على أية حال أن يعتبر هذه الفرمانات مزيفة ، ويزعم أن الأمور تجرى على ما يرام بينه وبين الباب العالي .

ومع ذلك أخذت الثورة بونابرت على غرة حين قامت . كان يشعر ، وهو مؤيد في الظاهر من أعضاء الدواوين وكبار زعماء المسلمين ، أن من السهل السيطرة على الغوغاء . ولكنه كان في هذا واهما . وأغلب الظن أنه لم ينخدع في ولاء المشايخ ، ولكنه كان يعتمد على خوفهم . وما من ريب في أنهم غدروا به . فقد أمسكوا عنه علمهم بالثورة الوشيكة ، ولكن من المؤكد أيضا أنه لم يكن لهم يد في التحريض على الثورة . ذلك أنهم ــ وهم من سراة القوم ــ كانوا سيخسرون الكثير اذا أخفقت ، ولما كانوا ذوى مكانة مرموقة بين الناس ، فقد كان في استطاعتهم دائما أن ينضموا اليها اذا نجحت .

أما الطبقة الوسطى ـ وهم التجار وأصحاب الحوانيت ـ فان أكثرهم كذلك لم يشارك بدور ايجابى فى الثورة ، بل ان كثيرا منهم خبأوا الفرنسيين وقدموا لهم المعونة كما أجمع كل الشهود • غير أن بلوغ الثورة درجة الغليان فى اللحظة التى أوشكت فيها ضريبة باهظة جديدة على الوقوع على كواهلهم ربما حمل بعضهم على الترحيب بنشوبها • أما العناصر المجاهدة حقا ، فهم الغلاة فى الدين ـ كالأئمة ، وطلاب الأزهر ، والأوليـــاء ، والفقراء والمكفوفين ، والمتسولين ، الذين انضم الى صفوفهم ذلك الضرب من الغوغاء الذى يؤلف « العالم السفلى » فى المدن الكبرى ، وينطلق فجأة كلما وجد السلب والنهب والقتل سندا أعلى يؤيده • ولم يكن هذا الجمع يختلف كثيرا عن الجمع الذى سار الى فرســاى فى ٥ أكتوبر ١٧٨٩ ، أو الذى جاب شــوارع باريس فى ٢ سبتمبر ١٧٩٢ وهو يرفع ثديي الأميرة دولامبال على رءوس الرماح •

***

يقول نقولا الترك مشيرا الى ثورة ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ : « فى ذات يوم نهار الأحد فى عشرين ربيع آخر نزل أحد المشايخ الصغار وكان من مشايخ الأزهر وبدأ ينادى فى المدينة أن كل مؤمن موحد بالله عليه بجامع الأزهر ، لأن اليوم ينبغى لنا أن نغازى فى الكفار ، وكان أغلب أهل البلد معهم الاس بذلك ، وأما الفرنساوية فكانوا متغفلين عن ذلك • ففى الحين والساعة قفلت البلد ، فبلغ الخبر أولا الى شيخ البلد الذى هو الجنرال دبوى • وهذا الرجل كان صعبا جدا ، فقام من ساعته • وقال ما الخبر • فقالوا له ان جعيدية البلد قايمين على ساق وقدم ومجمهرين نحو خان الخليلى والنحاسين فركب وأخذ معه خمسة خيالة فقط بناءً أنه يكشف الخبر ويهجعهم • ففيما هو جايزا عند خان الخليلى حيث كانت هناك بعض جماهير وعمالين يبنون متاريس ، فبرز لهم أحد البلضاشات من أحد العطف ، وضربه فى خاصرته بخشب فوقع من ظهر الحصان، فحملوه جماعته وأتوا به الى حارة الأفرنج القـديمة فمات بالطريق ودفنـوه بالجنينة » (٥٢) •

ويقول ديتروا فى يوميته ان ديبوى قتل برمح لا بعصا ، وكان على أى حال أول ضحايا الثورة • ففى الساعة السادسة صباحا وضح ـ كما يقول ديتروا ـ أن أمرا ذا بال وشيك الوقوع • كان النـاس المسلحون بالبنادق والعصى يجرون الى الجامع الكبير والمؤذنون يرفعون أصواتهم بالتحريض • وأقفلت المتاجر • وفى الساعة الثامنة وقف الجنود على قدم الاستعداد • أما بونابرت فغادر القاهرة هو والجنرالان كفاريلى ودومارتان ومعهم ديتروا ـ ظانا أنه مسيطر على الموقف تماما ـ ليفتش على بعض الحصون الجارى اقامتها فى مصر القديمة وجزيرة الروضة • وفى نحو العاشرة تلقى نبأ مؤداه أن ثورة عامة

تشبث ، وأن ديبوى قتل • وعين بونابرت الجنرال بون ليحل محل ديبوى ثم قفل من فوره عائدا الى القاهرة • ولما وصلت جماعته الى باب المدينة استقبلها سيل من الصخور ، فعاد أفرادها أدراجهم ، ثم وفقوا فى النهاية الى دخول المدينة من باب بولاق • وكانت القذائف تسمع الآن من كل مكان والجثث ملقاة فى الشوارع • واشتعلت النيران فى أماكن كثيرة ، ولكن حرس بونابرت افلحوا فى العودة به الى ميدان الأزبكية •

وكان العامة فى هذه الأثناء قد اقتحموا حى الأروام وقتلوا الرجال وسبوا النساء ونهبوا الحوانيت • كذلك حاصروا بيت الجنرال كفاريللى الذى أودعت فيه بعض الآلات العلمية • وكان كفاريللى مع بونابرت ، ولكن كبير رسامى الخرائط تستفويد ، وأربعة آخرين من المهندسين ، وجماعة صغيرة من الحرس العسكرى ، اندفعوا فى غيابه الى منزله لينقذوا آلاتهم العلمية • وظلوا يقاومون مهاجميهم أربع ساعات ، وأخيرا حاولوا أن يخرجوا من مكمنهم • وما هى الا ثوان حتى ذبح تستفويد وثلاثة من مساعديه • واقتحم العامة البناء • يقول الجبرتى : « وكان بتلك الدار شيء كثير من آلات المصانع والنظارات الغريبة والآلات الفلكية والهندسية والعلوم الرياضية وغير ذلك مما هو معدوم النظير ، كل آلة لا قيمة لها (الا) عند من يعرف صنعتها ومنفعتها • فبدد ذلك كله العامة وكسروه قطعا وصعب ذلك على الفرنسيس جدا ، وقاموا مدة طويلة يفحصون عن تلك الآلات ، ويجعلون لمن يأتيهم بها عظيم الجعالات » (٥٣) •

وبينما كان النهب يدور فى بيت كفاريللى ، حاصر جمع آخر المستشفى العسكرى وقتل جراحين عند بابه • وسيطر الثوار على القاهرة باستثناء القلعة ، وميدان الأزبكية ، والثكنات ، ومبانى المجمع العلمى (وكلها بعيد بعضها عن بعض) ، وحاول القاضى مناقشة الجمع فرجموه ، ولكنه أفلح في الهروب ، ونهب بيته كما نهبت عدة متاجر للنصارى والمسلمين على السواء •

أما بونابرت فقد ثار غضبه وهو فى مقر قيادته بقصر الألفى • فأمر مدفعية القلعة المعززة بمدافع الهاويتزر والمورتار بأن تسدد المدافع الى الجامع الأزهر وما حوله من أحياء هى مركز الثورة ، وكانت أزقتها الملتوية ومتاريسها تجعل من المحال اتخاذ أى اجراء دون هذا عنفا •

ونسيت القيادة الفرنسية فى هذه الفوضى العلماء والفنانين المقيمين بقصر قاسم بك والمنازل المجاورة له ، وكانوا يبعدون عن مقر القيادة نحو ميلين • ولم يكونوا أول الأمر محاصرين بالضبط ، ولكن جمعا مهددا احتشد حول هذه المبانى • وأرسل مهندسان على وجه السرعة الى مقر القيادة طلبا للنجدة ، فلم تصلهم الا قبيل المســاء على صورة سرية من رماة القنابل ، وأربعين بندقية

لتوزيعها على العلماء ، ومعها ثلاثون قطعة من الذخيرة لكل منهم · ولم يعرف استخدام هذا السلاح غير قلة من العلماء ·

وانقضى الليل فى شىء من الهدوء ، وكل فريق يتخذ عدته للغد · وفى نحو منتصف الليل استدعيت سرية رماة القنابل من المجمع · يقول دينون؛ وكان يشارك دولومبو وغيره من المدنيين في سكنى بيت على مسافة من المجمع « وفى صباح الغد استؤنف القتال ، وكنا قد تسلمنا سلاحا ، واستعد جمع العلماء للقتال ، وعين القواد ، وكان لكل خطته ، ولكن أحدا لم يشعر بأنه ملزم بالطاعة » (٥٤) · أما فى قصر قاسم بك فكان مونج يتولى القيادة · ولما رأى بعض العلماء أن الهروب ممكن اقترحوا هذا الحل ، ولكن مونج انتصر عليهم ببلاغته ، فقد سألهم « أتجرؤون على التخلى عن أدوات العلم التى أودعت أمانة فى أعناقنا ؟ » (٥٥) · ولم يجرؤ أحد على ذلك ، وراح العلماء يتصيدون أفرادا من جمع المهاجرين المتكاثر فى بطولة ، ساعات عدة ، الى أن أنجدتهم الدوريات الفرنسية فى الوقت المناسب ·

وكان بونابرت فى فجر ذلك اليوم قد أرسل ياوره اللواء سولكوفسكى يحمل رسالة الى الجنرال ديما · ولكن القدر أبى أن يصل سولكوفسكى الى غايته · ذلك أن جواده انزلق وهو يعبر قرية فى أرباض القاهرة ، فقتل هو وتسعة من الحراس الخمسة عشر المرافقين له · يقول ديفرنوا ان الثوار ألقوا جثته الى الكلاب ليأكلوها · وكان سولكوفسكى جنديا يبشر بمستقبل عظيم ، ووطنيا اتخذ الجندية مهنة لا لشىء الا لأنه حسبها معينة له فى النهاية على القتال لتحرير بولندة ، ومثاليا تغلب عليه المبادىء الراديكالية · ولكن خبرته حين عمل مع بونابرت علمته شيئا فشيئا ـ كما تكشف مذكراته ـ أن يتشكك فى أطماع رئيسه · وقد تظاهر بونابرت بأنه يقدر مواهبه ، ولكنه تباطأ فى ترقيته · يقول الجنرال بليار فى يوميته ان موت سولكوفسكى : « أحزن القائد الأعلى الذى قال فى النهاية · لقد مات ، فهو سعيد » (٥٦) · كذلك كان من الموتى السعداء ثلاثة وثلاثون مريضا فى المستشفى العسكرى ذبحوا وهم قادمون الى القاهرة من بلبيس ·

وبدأ ضرب الأزهر بالقنابل حوالى الظهر واستمر الى المساء · وأصدر بونابرت أمره الى الجنرال بون بأن « يبيد كل من فى الجامع » (٥٧) · يقول الجبرتى : « فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر ، وحرروا عليه المدافع والقنبر ، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين ، كسوق الغورية والفحامين · فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه ، نادوا يا سلام من هذه الآلام ، يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف ، وهربوا من كل سوق ، ودخلوا فى الشقوق · وتتابع

الرمى من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الأركان ، وهدمت فى مرورها حيطان الدور ، وسقطت فى بعض القصور ، ونزلت فى البيوت والوكائل ، وأصمت الآذان بصوتها الهائل · فلما عظم هذا الخطب ، وزاد الحال والكرب ، ركب المشايخ الى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل ، ويمنع عسكره من الرمى المتراسل ، ويكفهم كما انكف المسلمون عن القتال ، والحرب خدعة وسجال » (٥٨) ·

ولا ريب فى أن رؤية الجبرتى ستار المدفعية لأول مرة حملته على المغالاة فى تأثيرها · فالأزهر كما يقول نابليون ، وهو يبدو مقنعا فى هذه النقطة ، لم تلحق به الا أضرار طفيفة ، ولم يدمر من المنازل فى الحى المحيط به غير عدد ضئيل (*) · واستمر ضرب البنادق الموجه للبطاريات الفرنسية من مآذن جامع السلطان حسن وقبته طوال العصر · ولما أقبل المساء وأحدثت القنابل فعلها أحدقت ثلاث أورطات من المشاة و ٣٠٠ فارس بالأزهر · وتقدم رجالها لا يعترض ضربهم وسيوفهم معترض ودخلوا الجامع عنوة · وفى مقدمة الفرسان الذين شقوا طريقهم الى صحنه شخص غريب المنظر ، ذلك هو الجنرال ديما ، الذى جلس بصدره الأسمر القوى العارى ، على ظهر جواد يشب بقائميه ومنخراه ينفثان الدم ، وراح يلوح بسيفه فوق رأسه فبدا صورة تجمع بين الرهبة والجمال ، وصاح المسلمون « انه الملاك ! الملاك ! » — أو هذا على أى حال ما يؤكده ولده ، الذى اخترع خياله الخصب أيضا قصة الفرسان الثلاثة ، والكونت دى مونتكريستو ·

وفى لحظة أخلى الجامع ممن فيه · وأخذ يضع مئات من الثوار أسرى ، ولكن يبدو أن أحدا منهم لم يقتل بحد السيف ، بل ان الجبرتى ، وهو الذى لا يتوانى فى سرد فظائع الفرنسيين ، لا يذكر أن مذبحة وقعت — وكل ما قاله ان الفرنسيين انتهكوا حرمة الأزهر · « ثم دخلوا الى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع ، والأوانى والقصاع ، والودائع والمخبآت ، بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا فيه وتغوطوا ، وبالوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب

(*) لابد أن الأزهر — الذى يجرى ترميمه الآن — كان متهدما بعض الشىء فى عام ١٧٩٨ · ولم تنفجر القنابل التى سقطت فى منطقته على البناء الأصلى ، بل فى الصحن ذى الأعمدة ، ولا شك انها فتكت بمن سقطت عليهم ·

وكسروا أوانيه ، والقوها بصحنه ونـواحيه ، وكل من صـادفوه به عروه ، ومن ثيابه أخرجوه » (٥٩) ٠

وبينما كان هذا كله يجرى ، رأى الناس شخصا غريبا يتسلل خارجا من الأزهر ، وهو كهل فرنسى بدين يلبس خفين ورداء يخفى بين ثناياه شيئا ضخما ٠ وكان فى استطاعة ضباط المدفعية الفرنسيين أن يروه بمناظيرهم وهو يتخذ سمته الى الأزبكية ، متعقبا الفرسان ورماة القنابل وجثث القتلى ٠ فلما وصل مقر القيادة أثار ظهوره الدهشة ٠ ذلك أن الرجل كان المواطن مارسيل ، المستعرب والمشرف على المطبعة ، وقد أخرج من تحت ردائه مخطوطا رائعا للقرآن الكريم يرجع تاريخه للقرن الثالث عشر ، استنقذه من ثورة غضب الفرنسيين المدمرة ٠

وما لبث القتال أن توقف فى القاهرة عقب هبوط الظلام في ٢٢ أكتوبر ٠ وخسر الفرنسيون نحو ٥٠٠ رجل ، وقدرت خسارة الثوار بألفين الى ثلاثة آلاف ٠ وكانت الثورة بوجه عام مقتصرة على العاصمة ، ولكنها اندلعت كذلك فى عدة بلاد أخرى ، لا سيما بلبيس التى كان فيها حامية فرنسية قوية ٠ وكان الملازم فرتراى ، الذى لزم مستشفى بلبيس لاصابته بالرمد (وقد استعاد بصره بعد حين) ، بين المرضى والعميان الذين وزع عليهم السلاح ليدافعوا عن أنفسهم ضد مهاجميهم ٠ يقول ان الثورة « اختتمت بعقوبات رهيبة شرفتنا ورفعت قدرنا » (٦٠) ٠

كذلك وقعت عقوبات فى القاهرة ، ولكنها أخفيت تحت ستار من الرأفة ٠ ففى غداة الثورة مثل فى قصر بونابرت شيوخ الأزهر وأئمته (ولم يتخلف منهم غير الشيخ السادات الذى احتج بمرضه) ٠ ويذكر نابليون هذا الحدث فى سانت هيلانة فيقول : « كانت تبدو عليهم سيماء الرجال المذنبين الذين عذبهم القلق » ٠ ومع ذلك لم يكن فى الامكان توجيه تهم بعينها اليهم ، أضف الى ذلك أن بونابرت عول على ألا يحقق فى سلوكهم ، فقال لهم : « انى أعرف أن كثيرين منكم كانوا ضعافا ، ولكنى أميل الى الاعتقاد بأن أحدا منكم ليس مذنبا » (٦١) ٠ وقال ان الدم الذى أريق فيه الكفاية ٠ وان كتب الأزهر المقدسة سترد اليهم ، فليطهروا اذن الجامع الذى انتهكت حرمته ، وليدفنوا موتاهم ، وليعلنوا عفوه الكريم على الملأ ٠

ويقول نابليون ان الشيوخ خروا على ركبهم وقبلوا الكتب الدينية التى ردها اليهم ٠ ولم تكن رأفة بونابرت مبعث دهشة لهم فحسب ، بل للفرنسيين على الأخص ، سواء منهم الجنود والمدنيين ، الذين تذمروا قائلين انها ستحمل على محمل الضعف ٠ ولكن بونابرت أصر على سياسة الصفح برغم نقدهم وشدة تشاؤمهم

وأصبح «صفح بونابرت عن ثوار القاهرة» موضوعا محببا للرسامين والمثالين خلال حكم نابليون . ولكن رسومهم وتماثيلهم لا تعطى أقل فكرة عن حقيقة ما حدث .

فذات يوم أدلى بونابرت ، بعد رجوعه من مصر بقليل ، بتعليقات طريقة على منظر الصفح الوارد فى الفصل الأخير من مسرحية كورنيى « سنا » . وكان سنا قد تآمر على حياة أوغسطس ، فبدلا من أن يعاقبه أوغسطس ، مد له يد الصداقة قائلا : « لنكن أصدقاء يا سنا » . قال بونابرت ان كورنيى شاعر يفهم لغة السياسة . « مثال ذلك أنني وجدت منذ عهد غير بعيد تفسير الخاتمة التى انتهت اليها مسرحية سنا . ففى أول الأمر لم أر فيها الا حيلة لاضافة فصل خامس مؤثر ، ثم ان الرأفة فى ذاتها فضيلة تافهة حقيرة ، ما لم ترتكز على دوافع سياسية ... ولكن ذات يوم كشف لى مونفيل وهو يلعب ذلك الدور أمامى سر هذه الفكرة العظيمة . اذ نطق هذه الكلمات « لنكن أصدقاء يا سنا » بلهجة ماكرة خبيثة أفهمتنى أن عمله لم يكن الا من قبيل خدعة الحاكم الطاغية ، فاستحسنت ما بدا لى من قبل عاطفة صبيانية ، وأدركت الآن أنه حيلة متعمدة » (٦٢) .

ولما كان شيوخ الأزهر هم الأداة الوحيدة التى يستطيع بونابرت الاعتماد عليها فى مصر ، ولما كان من الصعب ، على أى حال ، اثبات أى تهمة ضدهم ، واذ كان يركن الى معاونتهم له على تهدئة الشعب ، فان صفحه عنهم لم تشبه شائبة من ضعف العاطفة الانسانية . والواقع أنه فى الوقت الذى سمح لهم فيه بتقبيل يديه اعترافا بالجميل ، كانت أوامر معينة أصدرها للجنرال برتييه تنفذ فى القلعة : « تفضل أيها المواطن القائد بأن تأمر قومندان القاهرة بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أمسكوا وبيدهم سلاح . فليؤخذوا الى شاطىء النيل ... بعد هبوط الظلام ، ولتلق جثثهم المقطوعة الرؤوس فى النهر » (٦٣) . وفضلا عن هؤلاء المسجونين ، أعدم فى القلعة ثمانون عضوا من « ديوان الدفاع » (الذى تزعم الثورة) . وقد علق نابليون على هذا الحادث بعد ذلك بعشرين عاما بقوله : « كانوا قوما ذوى تفكير عنيف متطرف » (٦٤) . وهكذا نجد جهرا بالعفو عن الأبرياء ، واعداما للمعارضين فى الخفاء ، وتحت جنح الظلام ، وهى سياسة خليقة بأن تحظى برضى مكيافللى .

وكان هناك رجل يرتع فى هذا الجو الذى يناسب طبيعته فى الأيام التالية للثورة ، وذلك هو برطلمين ضابط البوليس المنتفخ الأوداج الزاهى الثياب . يقول الجبرتى : « وانتدب برطلمين للعسس على من حمل السلاح او اختلس ، وبث أعوانه فى الجهات ، يتجسسون فى الطرقات ، فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم ، وما ينهيه النصارى من أبغاضهم ، فيحكم فيهم بمراده ،

ويعمل برأيه واجتهاده ، ويأخذ منهم الكثير ، ويركب فى موكبه ويسير ، وهم موثقون بين يديه بالحبال ، ويسحبهم الأعوان بالقهر والنكال ، فيودعونهم السجون ، ويطالبونهم بالمنهوبات ، ويقررونهم بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب ، ويدل بعضهم على بعض ، فيضمون على المدلول عليهم أيضا القبض . وكذلك فعل مثل ما فعله اللعين الأغا وتجبر فى أفعاله وطغى وكثير من الناس ذبحوهم ، وفى بحر النيل قذفوهم . ومات فى هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها الا الله » (٦٥) .

وكان هناك آخرون لم يشملهم عفو السلطان الكبير ، نخص بالذكر منهم الشيوخ الستة الذين قيل لبونابرت انهم قادة الثورة . فبعد أن اعتقلوا فى بيت الشيخ البكرى نقلوا الى القلعة بحجة تافهة فى ليلة ٢ نوفمبر ، وهناك أدانهم مجلس عسكرى ثم قطعت رءوسهم فى صباح الغد . وهم « العلامة الفاضل الفقيه الشيخ أحمد الشرقاوى (*) ... وكان جسيما عظيم اللحية » ، و « الشيخ الامام العمدة الفقيه عبد الوهاب الشبراوى » الذى كان مدرسا فى المشهد الحسينى ... « وكان حسن الالقاء سلس التقرير جيد الحافظة » و « الشاب الصالح ... الفقيه الشيخ يوسف المصيلحى » الذى كان يملى دروسا بجامع الكردى . و « الشيخ اسماعيل (البراوى) ، وكان قليل البضاعة لأنه تغلب عليه النباهة واللسانة » ، والشيخ عبد القاسم ، الذى لا يخصه الجبرتى بصفات بعينها ، و « الشيخ سليمان الجوسقى ، شيخ طائفة العميان » ، الذى أثرى فى تجارة الحبوب ، وكان فى استطاعته أن يرسل جيشا بأسره من العميان ليقنع مشتريا أو بائعا عنيدا (٦٦) . وحكم على تسعة آخرين بالاعدام غيابيا . ولا جدال فى أن هؤلاء الرجال الخمسة عشر الذين قدمهم زملاؤهم قربانا لغضبة السلطان الكبير للعدالة كانوا أشد رجال الدين المسلمين تعصبا وتهييجا للجماهير .

وأذيع أثناء ذلك فى جميع مساجد مصر منشور من علماء الأزهر يعلن تسامح بونابرت ، ويأسف لوقوع الثورة ، ويدمغ بالزيف جميع الفرمانات الصادرة من الباب العالى ضد الفرنسيين ، ويؤكد خرافة الحلف الفرنسى التركى .

ومع أن بونابرت لم يطلق العنان بالضبط لفضيلة الرحمة فيه ، فانه لا يمكن القول انه خرق روح العفو الذى أصدره . فاذا استثنينا الثوار الذين قبض عليهم والسلاح فى يدهم ، لم نجد هناك اعداما بالجملة ، ولا غرامة جماعية فرضت لمعاقبة الثوار . وأحكام الاعدام التى صدرت نفذت خفية تقريبا ، لا علانية لتكون عبرة للناس . ولم يكن شيوخ الأزهر مغالين حين أعلنوا للناس

(*) هو غير الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس ديوان القاهرة .

أنه لولا ضبط القائد الأعلى لغضبه لكان هناك حمام من الدماء · وقد كتب دينون – وهو من ألفنا لطفا ورقة طبع – يعرب عن حالة عقلية سادت وقتها بين العسكريين والمدنيين : « لعل جميع الذين شهدت عيونهم الجنود الفرنسيين يستسلمون كان يجب أن يعدموا دون استثناء » (٦٧) · ومع ذلك يعترف دينون بأن « جميع (المسلمين) الذين أسكن الفرنسيون فى بيوتهم كانوا تواقين لانقاذهم واخفائهم وقضاء حاجاتهم » (٦٨) · ومن هؤلاء سيدة عجوز ، يقول انها تطوعت بأن تخفى دينون وزملاءه العلماء فى حرملك بيتها · أفكان يجب أن تعدم هى أيضا لأن عينيها شهدتا الجنود الفرنسيين يستسلمون ! ان الأقوياء أقل اهتماما بسمعتهم من الضعفاء ، وقد أثبت بونابرت قوته فى هذه المناسبة بالذات ·

وسرعان ما عادت المياه الى مجاريها · فطهر الأزهر وعاد الناس الى الصلاة فيه · وصنع كونتيه وسحرته الميكانيكيون آلات علمية جديدة تعوض ما نهب منها · وأعيد فى ديسمبر ديوان القاهرة والديوان العام بعد تعطيلهما شهرين · وقد تعلم المصريون أن الفرنسيين لا يمكن طردهم بالثورة ، وتعلم الفرنسيون أن يكونوا أكثر حذرا برغم جميع مظاهر الصداقة والود · ومع ذلك استمر النقد لسياسة بونابرت « اللينة » · ولكنه تجاهله تماما · ذلك أنه أدرك أنه لا يملك لا القوة ولا الحق فى اخضاع شعب بالقوة الغاشمة ، لأنه كان بالضبط أصلب من نقاده · أضف الى ذلك أن شفقته كثيرا ما كانت تحدها عدالته المعوقة · كتب للجنرال رينييه يقول : « فى كل ليلة نقطع نحو ثلاثين رأسا أكثرها لزعماء الثورة · وفى اعتقادى أن هذا سيعلمهم درسا نافعا » (٦٩) ·

ووجد الدرس طريقه على الأقل الى الرؤوس التى لم تقطع · وما كان لثورة نشبت أن تظهر فساد سياسة بونابرت الاسلامية فى عينيه · ففى ٢١ ديسمبر بعد أن أذاع على أهالى القاهرة فى منشور عفوه الكامل عنهم واعادته للديوان واصل حديثه بأسلوب غريب :

« أيها العلماء والأشراف ، أعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذى يعادينى ويخاصمنى انما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره ، فلا يجد ملجأ ولا مخلصا ينجيه منى فى هذا العالم ، ولا ينجو من بين يدى الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى · والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وارادته وقضائه ، ومن يشك فى ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة · وأعلموا أمتكم أن الله قدر فى الأزل هلاك أعداء الاسلام وتكسير الصلبان على يدى ، وقدر فى الأزل انى أجيء من المغرب الى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها واجراء الأمر الذى أمرت به · ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وارادته وقضائه · وأعلموا أيضا أمتكم أن القرآن العظيم صرح فى آيات كثيرة بوقوع الذى حصل ، وأشار فى

آيات أخرى الى أمور تقع فى المستقبل ، وكلام الله فى كتابه صدق وحق • اذا تقرر هذا وثبتت هذه المقالات فى آذانكم ، فلترجع أمتكم جميعا الى صفاء النية واخلاص الطوية ، فان منهم من يمتنع عن الغى واظهار عداوتى خوفا من سلاحى وشـد سطوتى ، ولم يعلموا أن الله مطلع على السرائر ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور • والذى يفعل ذلك يكون معارضا لأحكام الله ومنافق ، وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب • واعلموا أيضا أنى أقدر على اظهار ما فى نفس كل أحد منكم لأننى أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه ، وان كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذى عنده • ولكن يأتى وقت ويوم يظهر لكم بالمعايشة أن كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم الهى لا يرد ، وان اجتهاد الانسان غاية جهده ما يمنعه عن قضاء الله الذى قدره وأجراه على يدى ، فطوبى للذين يسارعون فى اتحادهم وهمتهم مع صفاء النية واخلاص السريرة والسلام » (٧٠)•

وفى الطبعة العربية لهذا المنشور كما أورده الجبرتى آنفا عدة اختلافات عن النص الفرنسي ، لا سيما هذه العبارة (الواردة فى النص الفرنسى) « ولكن يأتى وقت يرى فيه جميع الناس أننى أهتدى بأوامر من السماء ، وأن كل جهود الانسان لا تغنيه شيئا ضدى » (٧١) • يقول الجبرتى : « وقد أوردت ذلك وان كان فيه بعض طول للاطلاع على ما فيه من التمويهات على العقول والتسلق على دعوى الخواص من البشر بفاسد التخيلات التى تنادى على بطلانها بديهة العقل فضلا عن النظر » (٧٢) • ومن الصعب أن يختلف المرء فى الرأى هنا مع هذا المؤرخ • ومع ذلك ، فحين زار كلوت بك ــ الطبيب الفرنسى الذى كان فى خدمة محمد على ــ السويس بعد ستة وثلاثين عاما ، قال له شيخ هرم نام بونابرت مرة فى بيته : « لم يكن بونابرت عدوا للاسلام ، ولو أراد ذلك لاستطاع أن يهدم جميع المساجد بسن ابرة • ولكنه لم يفعل • فليكن اسمه عظيما بين الناس الى الأبد ! • • • لقد قالوا لنا انه فى ساعة موته على صخرة نائية قيده عليها اثنا عشر ملكا من ملوك النصارى بعد أن نوموه بشراب من أشربة العشق ، رأى المحاربون الذين كانوا معه روحه تأتى لتستريح على حد سيف مرهف • الا فليستريح فى سلام ! » (٧٣) وما لم يكن كلوت بك مخترعا لهذه القصة ، فانه يبدو أن دعاية بونابرت أحدثت أثرا قويا حقا فى عقول بعض الناس •

الفصــل السابع

الغازى بين الترويح والتكدير

١

فى ١٨ ديسمبر ١٧٩٨ ، أى بعد أن أعلن الجنرال بونابرت بثلاثة أيام أن جميع أعماله موحى بها من الله ، أصدر أمرا للمواطن فوريه ، الملازم بفرقة الفرسان الثانية والعشرين ، بأن يستقل أول مركبة بريد الى رشيد (وكان انشاء خدمة بريد بالمركبات من الأشياء الكثيرة التى استحدثها الفرنسيون فى مصر) ومن ثم يمضى الى مالطة ثم الى باريس آخذا معه بعض الرسائل . وعليه أن يمكث فى باريس عشرة أيام ، ثم يعود منها « بأقصى سرعة يستطيعها » . أما الرسائل الأربعة التى وكل اليه حملها فتافهة جدا ، ولكن مهمته كانت تنطوى على أكثر من ظاهرها .

لقد أرسل الملك داود أوريا الحثى زوج بثشبع ــ بعد أن استهواه حسنها ــ الى خطوط القتال الأمامية ، حيث لقى حتفــه ، أما الجنرال بونابرت فأرسل الملازم فوريه الى باريس ، لانه أولا كان أرأف به من أن يقتله ، ثانيا لأنه ربما لم يكن لنواياه قبل مدام فوريه من الدوام ما يجعل اختفاء زوجها الى الأبد أمرا مرغوبا فيه .

واذا كانت رسالة بونابرت رقم ٣٧٧٥ (وهى أمره الصادر لفوريه) تنطوى على أكثر مما يبدو فى ظاهر الأمر ، فكذلك كان ينطوى تعلقه الفجائى بمدام فوريه .

كان بونابرت ذا طموح أدبى وهو لا يزال حدثا لا يحمل الا رتبة الملازم .

ومن بين المخطوطات التى خلفها حواران طريفان ـ أولهما حوار مع امرأة شريرة لقيها في حدائق الباليه رويال وصحبها الى بيته لمجرد القاء محاضرة عليها ، وثانيهما حوار عن الحب جرت فيه هذه العبارة على لسانه : « أعتقد أن الحب ضار بالمجتمع وبسعادة الفرد » (١) • وكان ضبطه لشهواته الى الوقت الذى التقى فيه بجوزفين بوهارنيه (أكتوبر ١٧٩٥) أمرا غير مألوف لشاب فى عصره ومهنته ، وان لم يكن ضبطا تاما • قال مرة معقبا « ان محاولة المرء أن يجعل نفسه محبوب النساء تستغرق وقتا ، وقد كنت على الدوام ــ حتى حين لم يكن عندى ما يشغلنى ــ أحس احساسا غامضا بأنه ليس لدى وقت أضيعه » (٢) •

وحين لقى جوزفين كانت فى الثلاثين من عمرها ، أرملة ، وخليلة لبارا الذى أوشك أن ينبذها • والقارىء لمذكرات بارا الصريحة يحكم بأن النظرة الفاحصة الى وجهها تكشف عن أشياء أكثر حتى مما يكشف عنه عمرها ، ومع ذلك كان للتعبير المرتسم على وجهها حلاوة واغراء ، وكان لحركاتها رشاقة أنثوية ، وفى ثيابها ، وبيتها ، وأثاثها ، أناقة أرستقراطية ، وشهوانية مرهفة ، أخضعت للفور تقريبا ذلك الشاب الذى تغلب عليه الفجاجة ، والذى كان يصغرها بست سنوات • ولم تمض أسابيع قليلة حتى استسلمت له ، فتيقظت عاطفته • كانت هى المرأة الوحيدة التى أحبها حقا فى حياته ، وقد أحبها برغبة عاتية يحس القارىء قوتها الى اليوم فى الرسائل التى كتبها لها• فهى فى نظره المرأة : فألهب شهوته جسدها الذى كان أكثر شبابا من وجهها ــ هذا الجسد الممشوق ، الطويل الأطراف ، النحيل ، اللدن • كان يعرف ماضيها ، ولكن الغيرة من هذا الماضى لم تأكل قلبه • على أنه صمم أن يتزوجها لتكون ملكا خالصا له • وكانت جوزفين تخفى املاقها كما تخفى حقيقة عمرها فطلبت النصيحة والمعونة من عشيقها السابق بارا وهى تخشى مستقبلا لا يحمل لها فى طياته سوى الفاقة ، ثم استقر رأيها على أن الجنرال بونابرت أمامه مستقبل باسم على الرغم من مظهره غير المهذب ، بل المخيف نوعا ما • فتظاهرت بأنها تبادله حبه • وقبيل رحيله لتولى قيادة جيش ايطاليا تزوجا باحتفال مدنى • وأضاف بونابرت فى شهادة الزواج عامين على عمره ، وحذفت هى ثلاثة أعوام من عمرها • وكان يتوقع أن تلحق به فى ايطاليا بعد قليل ، ولكنها وجدت معينا لا ينضب من الأعذار التى احتجت بها لتأخير سفرها • وبينما كان ينتصر فى المعركة تلو المعركة ، ويبعث الى جوزفين بنشرات انتصاراته التى يشيع فيها رنين الفخر ، والتى جعلت منه بطلا لأوربا ، مضت هى فى جولات لهوها بصحبة الشبان الحسان الوجوه • وراح يلعنها وهو يعبدها • فكتب لها من ميلان يقول : « لاحظى هذا : انك دمرتنى تدميرا ، وقد أيقنت انك فعلت هذا فى اللحظة التى خضع فيها قلبى لك فى اللحظة التى بدأت فيها

تفرضين علي ، يوما بعد يوم سلطانا لا حد له باسترقاقك حواسي كلها » (٣) • ولكنه كتب اليها بعد أربعة أيام من تورتوني يقول : « انى أحبك أكثر من كل شيء يتصوره العقل ••• وكل لحظة من لحظات حياتى مكرسة لك ••• اننى لا أقضى ساعة دون أن أفكر فيك ، ولم يخطر لى قط أن أفكر فى امرأة أخرى ••• فقوتى ، وذراعاى ، وعقلى — كلها لك ••• ان روحى فى بدنك ••• والأرض لا تبدو جميلة فى عينى الا لأنك تسكنينها ••• ألف قبلة على عينيك ، على شفتيك ، على لسانك ، على ••• » (٤) (ويزعم ناشر هذه الرسائل أن الكلمة المحذوفة مطموسة)

ولكنها ظلت فى باريس رغم هذا • وثارت الشائعات عن عشيق شاب ، فهدد بونابرت بقتلها ان صحت الشائعات ، وفى ذلك الوقت كان ايمانه بالفضيلة لا يقل عن تشبثه بغرامه • وقالت جوزفين ، ربما فى شيء من نشوة السرور : « انه رجل مضحك هذا البونابرت » (٥) • وأخيرا ، وبعد أن هددها بالاستقالة من قيادة الجيش ليلحق بها ، وصلت الى ميلان فى يوليو ١٧٩٦ • وكان فى معيتها ، فضلا عن كلبها البغيض فورتنيه الذى عض نابليون مرة فى ساقه وهو يغازلها ، المواطن ايبوليت شارل ، مساعد الجنرال لكلير • وكان لقاء الزوجين حارا مشبوبا • ولكن كانت هناك لسوء الحظ حرب يجب أن يخوضها بونابرت • وهكذا كان البطل يتردد ذهابا وجيئة بين ساحة القتال والنصر ، وبين الفراش ونشوة الحب • وفى منتصف نوفمبر كان فى فيرونا يقاتل ويفكر فى غرامه • فكتب لزوجته وهى فى ميلان (أو هكذا ظن) يقول : « انك تعلمين علم اليقين أننى لا أستطيع أن أنسى جولاتنا القصيرة ، وتعرفين — الغابة السوداء الصغيرة • اننى أبعث لها بألف قبلة وأنتظر بفارغ الصبر عودتى اليها » (٦) • وبعد أسبوع كان فى ميلان بعد أن دفع النمساويين أمامه فى شيء من التهور وقد عيل صبره • واندفع الى قصره : ولكن جوزفين كانت قد غادرته ، الى جنوة ، ومعها خادمتها ، وكلبها ، والمواطن شارل • وكتب اليها بونابرت يقول : « هأنذا أصل الى ميلان ، وأندفع الى مسكنك ، بعد أن تركت كل شيء لأراك وأضمك بين ذراعى (ويلى ذلك مزيد من الكلمات « المطموسة ») ، ولكنك كنت قد رحلت • فأنت تجرين وراء الملاهى ، وتبعدين حين أقرب اليك ، انك لم تعودى تبالين بنابليونك العزيز • لقد أحببته لنزوة طارئة ، وعدم الوفاء يجعلك لا تكترثين به » ثم يلى ذلك التهديد المعروف بالانتحار : « اننى أنا الذى ألفت الخطر ، أعرف الدواء لجميع أوصاب الحياة • فالتعاسة التى أعانيها لا حصر لها • وكان من حقى ألا أتوقعها »(٧) وهكذا بعث الحاسب القديم من جديد ، فى شخص العاشق المقهور •

ولكنه لم يقتلها ، ولم يلتمس الموت فى المعركة ، بل انه رفض أن يسلم بالأدلة الموفورة على أن المواطن شارل عشيق لزوجته ، وان كان قد استصدر

أمرا بطرده من الجيش • ولم تأل أسرته ـ أمه واخوته وأخواته ـ جهدا فى تبصيره بالحقيقة بعد عودته لفرنسا ، ولكن من ذا الذى يريد أن يرى الحقيقة وهو تائه في نعيم غاباته المسحورة ! أضف الى ذلك أن الدوافع المغرضة التى تحفز مخبريه كانت واضحة غاية الوضوح •

وروعت فكرة الطلاق المحتمل جوزفين الغارقة فى ديونها • فرافقت زوجها الى طولون ، حيث تقرر أن يركب البحر الى مصر • وذات صباح وجد الجنرال ديما بونابرت ـ حين ذهب اليه ليقدم نفسه للقائد الأعلى ـ فى الفراش مع زوجته ، ويبدو أنها كانت عارية تحت الأغطية تبكى • وقال بونابرت للعملاق الأسمر المرتبك : « انها تريد أن تصحبنا الى مصر • فهل أنت آخذ زوجتك معك يا ديما ؟ » وقال الرجل المستقيم : « لا وربى • ولو أخذتها لكانت عبئا ثقيلا على » (٨) • وأبدى بونابرت بعض الملاحظات المطمئنة عن الاذن لزوجات الجند بأن يلحقن برجالهن بعد حين ، وصفع زوجته صفعة قوية على كفلها النحيل الجميل • ومن المعقول أن نفترض أن دموع جوزفين كانت صادقة ، ولعلها آثرت أن تصحب زوجها الفاتح عن أن تعود الى عشيقها الجميل مسيو شارل • ولكن مهما كان حب نابليون لجوزفين عظيما ، فانه كان يحسن تحديد الوقت المناسب له • قال مرة : « ان الحب شغل العاطل ، وراحة المحارب ، ومهلكة الملك » (٩) • ولو أنه وقف من الحب موقفا غير هذا لما كان هناك مسيو شارل ، ولما كان هناك بالطبع نابليون الامبراطور كذلك • ولكن الذى حدث أنه لم يكن يريد لأى امرأة أن ترافق جنوده ، وكان فيه من النزاهة ـ أو قل الفطنة ـ ما يكفى لجعله يضرب المثل لجيشه •

ويذكر القارىء أنه كتب فى اليوم التالى لدخوله القاهرة الى أخيه جوزيف يقول : « لقد رفع الحجاب تماما عن عينى » • أما كيف رفع الحجاب ، ومن الذى رفعه ، فسر ما زال غامضا ، ولكن لابد أن هذا وقع فى فترة تقع بين رحيله عن طولون وانتصاره فى معركة امبابة • ولعل بعضهم أقنعه آخر الأمر أن مسيو شارل عشيق لزوجته ، وأنه فى تلك اللحظة يعاشرها فعلا • اذن ، فما جدوى أن يكون المرء الجنرال بونابرت ، أو حتى الاسكندر الأكبر ، اذا كان الشخص الذى يتوق الى وضع مجده تحت قدميه ، يؤثر قبلات شاب ليس الا عضوا فى مجلس ادارة احدى الشركات ؟

وياور بونابرت المدعو جونو هو الذى قدم له الدليل على خيانة جوزفين ، اذا أخذنا بمذكرات بوريين التى لا غنى لنا عنها ، وان كانت لا يعتمد عليها الى حد يثير الغيظ • ولكن أرملة جونو ـ دوقة أبرانتس ـ تنفى هذا فى مذكراتها ساخطة • والواقع أن رواية بوريين لا يمكن أن تكون صحيحة ، لأنه يذكر أن هذه الواقعة حدثت فى العريش فى فبراير ١٧٩٩ ، وبونابرت على

وشك دخول سوريا • ويقول ان الجنرال اشتعل غضبه ، وكانت كلمة الطلاق تجرى على لسانه عشرين مرة فى الدقيقة • ولكن هذا التاريخ يقع بعد خطاب بونابرت لجوزيف بنصف سنة ، وبعد شهرين من اقتناع بونابرت بأن استمراره فى الوفاء لزوجته يجعله أحمق فى عيون الناس • ومن الحقائق أنه نوى نية صادقة أن يطلق زوجته بعد عودته الى فرنسا • وأيا كان زمان علمه بما بلغته خيانة جوزفين ، ومكانه ، والشخص الذى أنبأه ـ وأغلب الظن أن هذا وقع قبل ٢٥ يوليو ١٧٩٨ ـ فان الذى لا شك فيه هو أن هذا الكشف قد ترك فيه وفى مستقبله أثرا • كتب يقول لأخيه : « لم يبق لى الا أن أصبح أنانيا بكل ما فى الكلمة من معنى » • صحيح أنه لم ينقصه الطمع الذى لاتشوبه الرحمة قبل هذا الكشف ، ولعله كان يسبيله الى هذه الكلبية المفرطة ، حتى ولو ظلت جوزفين وفية له وفاء بنيلوبى لزوجها • ولكن حياته طرأ عليها تحول : فقد تغير البطل النحيل القسمات ، الشاعرى ، المثالى ، تغيرا كاد يكون فجائيا ، الى الطاغية البدين ، الساخر ، المادى • وقد حدث هذا التغير فى مصر ، وان ظل غير ملحوظ عامين أو ثلاثة • وانقلب المواطن بونابرت الى « السلطان الكبير » ، واستحال الفتى الطموح والعاشق الغيور الى رجل يجلب قوادوه النساء الحسان الى فراشه ليسحقهن كما يسحق الجيوش بعد أن يفرغ من املاء رسائله •

عقب وصول بونابرت الى القاهرة قدم له أصدقاؤه من الشيوخ ست حسان شرقيات • وتأملهن بونابرت فوجدهن بدينات ، ثم صرفهن دون أن يمسسهن • ولا عجب فجوزفين كانت نحيلة • كذلك نفرته رائحتهن ، وكان فى هذا متزمتا • فقد قال بعد ذلك باثنى عشر عاما ، معقبا على انتصار غرامى عارض وقع له فى فينيا ١٨٠٥ : « كانت من ألطف النساء اللاتى لقيتهن •• لانه لم يكن لها رائحة قط » (١٠) • وفى رواية ينقصها السند الكتابى ، أن زينت بنت الشيخ البكرى ، التى لم تجاوز الستة عشر ربيعا ، لقيت فى نفسه هوى أكثر من سواها • لقد كان مغرما بالأجساد الجميلة والأطراف الدقيقة ، والحسناء المصرية الشابة لا تبارى فى هذا الميدان ، وليس فى امكاننا أن نعرف على التحقيق لم والى أى مدى أغضى أبوها الشيخ عن هذه الصلة ، ولعله كان مشغولا عن مراقبة ابنته مراقبة مشددة بالجرى وراء مملوكه المتنازع عليه ، أو بشرب زجاجات البرندى والبرجندى كل ليلة ، أو بأحلامه بأنه قد يصبح حما السلطان الكبير • وعندما اضطر الفرنسيون للجلاء عن مصر فى سنة ١٨٠١ ، أراد غلاة المؤمنين معاقبة النساء اللاتى عاشرن الكفار • وكانت زينب احدى ضحاياهم ، وقد عرفت فى أيام عزها ب « فتاة القائد المصرية » • ولابد أن صلتها ببونابرت كانت قصيرة المدى ، وكذلك كانت حياتها • يقول الجبرتى : « وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه طلبت ابنة الشيخ البكرى ، وكانت ممن تبرج

مع الفرنسيين ، بمعينين من طرف الوزير · فحضروا الى دار أمها بالجودرية بعد المغرب ، وأحضروها ووالدها · فسألوها عما كانت تفعله ، فقالت انى تبت من ذلك ، فقالوا لوالدها ما تقول أنت ؟ فقال أقول انى برىء منها ، فكسروا رقبتها » (١١) ·

وفى أول ديسمبر ١٧٩٨ ، ربما بعد أن سئم بونابرت زينب اللطيفة ، التى كانت تعوزها أفانين جوزفين بوهارنيه المجربة ، لقى بولين فوريه · وكان ذلك وهو يشهد مع أركان حربه الاحتفال بتطيير البالون الفاشل الذى خيب ظن الجبرتى · ولاحظ اثنان من شباب الياوران ، أحدهما أوجين ابن زوجته ، الحسناء فوريه بين المتفرجين ، فأعربا عن اعجابهما الشديد بعبارات عالية لفتت انتباه بونابرت · وتأمل الجنرال الشابة فأثارت اهتمامه · كانت يومها فى العشرين ، امرأة رائعة الحسن ، تبدو عيناها الزرقاوان بهيتين تحت أهدابها الطويلة السوداء ، ويكللها شعر ذهبى بديع ، (ويقول الجنرال بولان الذى كان يعرفها معرفة وثيقة تكفل لنا صدق روايته ، أن شعرها حين تسدله كان يغطيها كالعباءة ، وكأنها الليدى جوديفا) · وفى هذا المساء ذاته تنازل بونابرت بزيارة « التيفولى » الذى افتتح حديثا ، وبالطبع كانت مدام فوريه هناك · وراح يحملق فيها خلال الزيارة كلها ، ولم تكن آداب الغزل عنده مهذبة جدا ·

أما بولين فوريه هذه فكانت الابنة غير الشرعية لأب مجهول ، وطاهية تسمى بليل ، لذلك عرفها الكثيرون بكنيتها اللطيفة « بيليلوت » · وكانت حتى زواجها أخيرا من الملازم فوريه تشتغل بائعة للقبعات ، وهى مهنة كان من شأنها فى الحياة الفرنسية فى القرن الثامن عشر أن تلقى حتما بالفتيات الحسان بين أحضان الرجال المعجبين · وأحبت زوجها حبا حملها على أن تلبس ما يلبسه جنود فرقته من حذاء وسراويل وصدرية ومعطف ، وأن تخفى شعرها الطويل تحت قبعة مثلثة ، وتستقل معه السفينة الى بلاد مجهولة · وخاضت على احدى الناقلات بشبراخيت أول معاركها الحربية · ولكن لقاء المماليك كان أيسر من مقاومة قاهرهم · ففى ١٧ ديسمبر ، أصدر بونابرت أوامره بايفاد زوجها الى مالطة وباريس — وهى رحلة كان كل فرد فى جيشه تقريبا يخرج فيها بسرور أكثر من الملازم فوريه · وما ان استقل زوجها عربة البريد الى رشيد حتى دعيت بيليلوت هى وبعض السيدات الأوربيات الى حفلة عشاء فى ميدان الأزبكية · وراح المضيف يحملق فيها خلال العشاء كله · ولما قدمت القهوة أراق الضابط الجالس الى جوارها — وكان « لحمة » جدا — قدحا على ثوبها الجميل ، ولكنه هدأ من روعها ، وقال انه سيصعد بها الى حجرة تستطيع أن تصلح فيها ما أفسد · وكانت لاتزال تدعك ثوبها حين أقبل عليها القائد الأعلى للجيش · وانتظر الضيوف عدة ساعات قبل أن يعود أحدهما · وبعد

أيام قليلة شغلت بيليلوت ، التى عرفت الآن بكليوبطرة قصرا مجاورا لقصر بونابرت فى ميدان الأزبكية ، وراحت تطوف القاهرة راكبة أفخر مركبـاته .

بيد أن العلاقات الغرامية السعيدة فى زمن الحـرب يعيبها أن العـدو لا يفتأ لها بالمرصاد . والذى حدث أن الملازم فوريه لم يصل قط الى مالطة ، فضلا عن باريس . ذلك أن سفينة البريد « شاسير » التى غادرت الاسكندرية فى ١٨ ديسمبر وقعت فى أسر السفينة البريطانية « ليون » فى اليوم التالى . وأبدى القبطان الانجليزى كرما انسانيا خارقا نحو الملازم فوريه ، فأبى أن يحكم عليه كما حكم على بقية بحارة شاسير وركابها بأهوال السجن التركى ، بل انه أبى أن يحتفظ به رهينـة للاسـتبدال ، وصمم على أن يرده من فوره الى الاسكندرية بعد أن تعهد بشرفه بعدم مقاتلة البريطانيين . ووصل الملازم فوريه الى الاسكندرية والحيرة تغلبه ، وازدادت حيرته لمحاولات الجنرال مارمون أن يبقيه هناك لأسباب بدت له واهية فهو يريد ، على الأقل ، أن ينـام مع زوجته الحبيبة ما دام قد أخفق فى مهمته ، وما من شىء يقوى على منعه من الرجوع الى القاهرة . فلما عاد لم يجد بيليلوت فى البيت ، ولكنه يسمع كثيرا من الشائعات حولها .

ولما انقشعت أوهام الملازم فوريه أبدى الغلظة لزوجته ، بل القسوة . لقد استغفله بونابرت ، واستغفلته زوجته ، ولا يبعد أن القبطان البريطانى استغفل الثلاثة . و « ورغبة فى حماية نفسها من وحشيته » (١٢) طلبت بيليلوت الطلاق ، فأجيبت الى طلبها بسهولة مذهلة . أما عشيقها فكان قد وعدها بأن يطلق زوجته ويتزوجها ، عسى أن تنجب له طفلا ، وهو ما عجزت عنه جوزفين . وحاول كلاهما جاهدا دون أن يفلح . وقال بونابرت لبورين معترضا « ما العمل اذن ؟ ان هذه الـ ..... الصغيرة الغبية لا تريد أن تلد لى طفلا » . وأفهمت بيليلوت أن من مصلحتها أن تحمل . فأجابت « رباه ! انها ليست غلطتى أنا ! » (١٣) .

وأصبحت الآنسة بليل ، كما سمت نفسها الآن ، بعد طلاقها خليلة رسمية للسلطان الكبير ، ترأس حفلات عشائه ، ويسير ضـباط أركانه فى حاشيتها . ولم يعف سوى أوجين بوهارنيه من واجب حراسة العربة التى تركبها خليلة زوج أمه ــ وهذا بعد أن أوضح له فى سخط ما فى موقفه من شذوذ وغرابة .

ولم يدم الغرام اللذيذ طويلا . فلم ينقض شهران حتى خرج بونابرت فى حملته على سوريا . وصحب كثير من قواده وجنوده نساءهم وخليلاتهم ــ وهو قرار ندموا عليه أشد الندم فيما بعد . أما الجنرال بونابرت فصمم على ألا يسلك مسلك مارك أنطـونى من حبيبته كيلوبطره ، فتـرك بيليلوت فى

القاهرة ، واليها كان يكتب خطابات ربما بلغت حرارتها مبلغا لم ير معه ناشرو رسائله من اللياقة أن يطبعوها ، فاختفت ولم يعرف من أمرها شيء • وقد ظل طوال حياته العسكرية وفيا للمبدأ الذى آمن به ، وهو عدم اصطحاب امرأة معه فى حملاته الحربية •

٢

لم تكن صلة بونابرت ببولين فوريه على حرارتها حبا عظيما ، بل الأحرى أن نقول انها كانت وسيلة للثأر من زوجته ، ومتعة جندى يروح عن نفسه : ولم يكن جندى أحوج من الجنرال بونابرت للترويح عن نفسه واراحة أعصابه المتوترة فى شتاء ١٧٩٨ ـ ٩٩ • فقد كان عليه خلال أسابيع غرامه الثمانية مع الشقراء بيليلوت (التى أنفق منها أسبوعين بعيدا عنها فى رحلة للسويس) أن يواجه طائفة من الكوارث لم يعرف لها مثيلا سوى أيوب ، ولكنه على عكس أيوب ، لم تند عنه علامة من علامات الضيق والعناء •

كان الحصار البريطانى على مصر محكما « ولا عاد خارج ولا داخل ، ولا طير يطير »(١٤) على حد قول نقولا الترك • ولكن نقولا كان يميل الى العبارات الفضفاضة لأنه شاعر • فالواقع أن هذا الحصار لم تفلت منه الطيور فحسب ، بل المراكب أيضا • ومع ذلك كان حصارا مجديا بنسبة ٩٠٪ على الأقل • فقد يحدث بين الحين والحين أن تفلح سفينة فرنسية أو محايدة فى الافلات من الحصار (تحت جنح الظلام عادة) ودخول مصر أو الخروج منها • ولكن يمكن أن يقال بوجه عام أن الفرنسيين فى مصر كانوا يحسون احساسا كاملا بالعزلة ، وكان الرجل منهم محظوظا اذا تلقى رسالة من وطنه مرة كل عام • يقول نقولا الترك ان الناس « فهموا جيدا •• أنه انقطع أملهم من امداد يأتيهم من بلادهم • فقالوا فى ذواتهم نحن نضاضدهم ونحاربهم ، ورويدا رويدا يخلصون ، لأن الذى لا يزيد ينقص » (١٥) •

كان الجيش الفرنسى يتضاءل ، وصفوفه تتناقص تناقصا أكيدا وان كان بطيئا • ففضلا عن ضحايا المعارك والاغتيالات الفردية وحوادث الانتحار بين رجاله ، كان هناك المرض ، وبدأ الطاعون يجتاح الجيش فى ديسمبر • ومات أول ضحية للوباء ــ وهو المواطن لانتريج ــ فى دمياط قبل ذلك فى أكتوبر • وشخصت حالته بأنها « حمى وبائية أو معدية » (١٦) ، وظلت كلمتا « الطاعون الدملى » محظورتين طوال تفشى الوباء • وكان رأى بونابرت أن أشد ما ينطوى عليه الطاعون من أخطار هو الخوف • قال للاس كاز فى سانت هيلانة : « ان الخوف ساعد على تفشيه أكثر من أى عامل آخر • ذلك أن البؤرة الرئيسية للمرض هى الوهم • وفى أثناء الحملة المصرية مات كل الذين ابتليت عقولهم

بالوهم · والشجاعة الأدبية أضمن واق منه ، وأجدى علاج له ··· وخير وسيلة لوقاية الجيش منه هي شغله وجعله يواصل سيره · وقد تبين أن التعب والانشغال عنه كانا خير أسباب الوقاية » (١٧) · ولم يحدث أن رفع رجل من عظماء التاريخ سياسة النعامة الى مثل هذه المستويات الرائعة من الجلد والثبات ·
وقد أخبر طبيبه الدكتور أوميارا وهو يواصل ذكرياته عن الطاعون « نجحت حينا في اقناع الجنود بأنه ليس الطاعون وانما هو حمى مصحوبة بدمامل ، ولكي أقنعهم برأيي هذا ، كنت أقصد على مرأى من الجميع فراش جندي مصاب، وأمسك به · وكان لعملي هذا أثر كبير في تشجيعهم ، بل ان بعض الجراحين الذين تولوا عنهم خجلوا وعادوا الى مباشرة أعمالهم (١٨) · أما الجراحون الذين لم يعودوا فقد حق لهم أن يندموا على فعلتهم ، ويشهد بذلك الأمـر اليومي المؤرخ ٨ ينـاير ١٧٩٩ وهذا نصـــه : « ان المواطن بوايبه جراح مستشفى الاسكندرية بلغ به الجبن أن يرفض علاج الجنود المجروحين ، المخالطين للمرضى الذين قيل انهم يشكون مرضا معديا · انه غير جدير بأن يكون مواطنا فرنسيا ، وسيلبس ثياب النساء ، ويوضع على حمار ، ويسحب في شوارع الاسكندرية ، وعلى ظهره لافتة كتب عليها « غير جدير بأن يكون مواطنا فرنسيا ، لانه يخشى الموت » ، ثم يودع السجن ويعاد الى فرنسا في أول سفينة مسافرة » (١٩) · وقد تبين أن بوايبه اتهم ظلما · ولم تنفذ العقوبة فيه ، ولكن الفقرة التي نشرت في الأمر اليومي لم يمكن محوها · وقد ذكر الدكتور ديجينيت أن مدام تامبيية زوجة أحد ضباط البحرية ، وإحدى نجوم التيفولى في القاهرة « أثار سخطها أن يصدر الأمر بأن ارتداء ثياب النساء رمز على الجبن » ذلك أن مدام تامبييه — وكانت حسناء رياضية الجسم في السابعة والعشرين — لم تطق هذا التهجم على بنات جنسها · يقول الطبيب انها أعلنت أنها « على استعداد لمبارزة بونابرت، وأنها بستريه ، والمسدس في يدها ، أن الخوف — حتى الخوف منه — لا يملأ قلوب جميع النساء » (٢٠) ·

ولم يكن القوم في ذلك الوقت يعرفون الناقل الفعلي لعدوى الطـاعون الدملي ، وهي البراغيث المنبعثة من الفيران الموبوءة · ولكن طرق الوقاية والعلاج التي استخدمها ديجينيت ولارى ، وفرضتها أوامر بونابرت على الجيش ، كانت فعالة الى حد لا بأس به · وليس لدينا احصاءات يوثق بها عن عدد الاصابات والوفيات ونسبة الشفاء من المرض · وكانت غارة الطاعون أشد ما تكون أذى خلال الحملة على سوريا ، أما في مصر فقد اقتصرت الاصابة به بوجه عام على المدن الساحلية · ولكن جملة الحالات المميتة لا يمكن أن تكون تجاوزت ٢٠٠٠ حالة · وبعض طرق بونابرت الوقائية تبـدو لنا معقولة جـدا · كتب الى قومندان الاسكندرية يقول : « مر رجال فرقة المشاه الخفيفة السيئي الحظ بأن يتجردوا من ثيابهم كما نزلوا من بطون أمهاتهم ويغتسلوا في البحر جيدا · وليدعكوا

أجسامهم من الرأس الى القـدم ويغسلوا ثيـابهم ··· وأوقف الاستعراضات ونوبات الحراسة خارج المعسكرات ··· وأصدر الأوامر للجنود بأن يغسلوا أرجلهم وأيديهم ووجوههم يوميا ، وأن يراعوا أصول النظافة » (٢١) · أما العلاج فقد قال عنه للدكتور أوميارا « بناء على نصيحة الأطباء ، أصدرت الأمر بأن تفتح كل الدمامل التي لا يحتمل أن تتقيح ، وقبل أن أصدر هذا الأمر أمرت باجراء هذه التجربة على عدد من المرضى ، وبعلاج عدد مماثل لهم بالطريقة العادية ، فتبين أن نسبة أكبر كثيرا من الأولين تماثلت للشفاء » (٢٢) ·

وكان الجندى ميبه ، المعسكر فى دمياط ، أحد الذين شفوا من الطاعون يقول : « يبدأ هذا المرض بحمى مرتفعة يعقبها صداع شديد ، وتكون حيل أو غدة فى حجم البيضة تقريبا فى خن الورك أو فى أى مفصل آخر · فاذا ظهر الحيل فقل على المريض السلام · واذا ظل على قيد الحياة أربعة أيام كان الأمل فى شفائه كبيرا ، ولكن هذا لا يحدث الا نادرا » (٢٣) أما فى حالة ميبه ، فقد رأى الأطباء الذين فحصوه أنه لا جدوى من فتح دمله ، وترامت مداولاتهم الى سمع ميبه ، فانتظر حتى انصرفوا ، ثم فتح دمله بمبراته · وقد عاش ليكتب عما جرى له · أما الكابتن تورمان فقد قضى فترة تفشى الطاعون فى قلعة أبى قير المقفرة يرتعد من العدوى ويذهب بلبه السأم · كتب فى يوميته يقول : « فى كل يوم يسقط أربعة أو خمسة من الرجال الاثنى عشر المكلفين بالحراسة » (٢٤)· ولما رست سفينة البريد « أوزيريس » القادمة من فرنسا فى خليج أبى قير ، دهش قبطانها لرثاثة ضباط الحامية الفرنسيين الذين أتوا ليشربوا الروم من مائدته · وما لبث بحارته كلهم ، باستثنائه هو وثلاثة آخرون ، أن أصيبوا بالطـاعون ·

وكان نوع الطاعون الذى أصاب دمياط أقل أذى من طاعون الاسكندرية أو لعل الظروف الصحية فى دمياط كانت خيرا منها فى الاسكندرية · ولكن الطاعون ، حتى فى الاسكندرية ، كان يسير سيرا بطيئا أول الأمر ، فاستهان به القوم الى حد يثير الدهشة · وبعد شهر بلغ عدد الموتى حوالى ١٣٠ ، ثم اشتد فتك الوباء فجأة · وكتب مارمون الى مينو فى ١٧ يناير يقول ان احدى الأورط تفقد كل يوم من ستة الى سبعة من رجالها « وسيقضى عليها قضـاء مبرما فى ظرف شهر واحد » (٢٥) · وبعد خمسة أيام ارتفعت الوفيات الى ١٧ فى اليوم · وتباطأ المعزل فى تقديم الأقوات للمرضى ، فكان الرجال يتضورون جوعا فضلا عن معاناتهم سكرات الموت من المرض · وكتب مارمون يناشد مينو المعونة : « أستحلفك بالله ألا تهملنا ، بل أرسل لنا نقودا ··· أرسل بعض القمح ، ان ما بقى عندنا منه لا يكفينا أكثر من ٤٨ ساعة · والتذمر شديد بين الجنود ، ولو شقوا عصـا الطاعة لما كان فى هـذا غرابة ··· انهم يموتون جوعا » (٢٦) · وراجت مع هذه التعاسة شائعات أكثرها مغالى فيه · فقيل

ان المرضى الذين يشكون أمراضا عادية يوضعون فى أسرة لم تكد ترفع عنها جثث ضحايا الطاعون ، وأن خدم المستشفيات يبيعون ثياب الموتى بدلا من أن يحرقوها ، وأن الجثث كانت تظل بلا دفن ٢٤ ساعة ، أو تدفن فى قبور ضحلة فتنبشها الكلاب لتأكل الموتى • وسواء صحت هذه الشائعات أو لم تصح ، فهى تعطينا فكرة عن الروح المعنوية السائدة بين حامية الاسكندرية • ولم تكن الأحوال فى أبى قير خيرا من هذا • فكانت جراية الجندى اليومية قوامها نصف رطل من الخبز ، ونصف أوقية من زيت الزيتون • وكتب الحاكم فى تقريره يقول : « ان عددا من رجالى هربوا ، وأخبروا رفاقهم أنهم سيبحثون عن مكان أو سيد يستطيع اطعامهم » (٢٧) •

وفى ٢٢ يناير وصل الى رشيد نفر من الأطباء الموفدين من القاهرة فى طريقهم الى الاسكندرية ، وبينهم طبيب بندقى يقطن القاهرة يدعى جيورجو فولدونى ، أعلن أنه خبير فى الطاعون • ولكن مينو كتب لبونابرت يقول :

« يبدو أن فولدونى أشد تعلقا بالخمر منه بمهنته ••• فهو مخمور ليل نهار » (٢٨) • وكتب ديجنيت بعد وصول فولدونى الى الاسكندرية يقول : « انه اعتكف فى حذر وكان عديم النفع اطلاقا » (٢٩) • ولكن فولدونى بذل — بشهادة آخرين — نصائح تبينت فائدتها رغم أنه كان معتكفا لا يكف عن الشراب •

واتخذ بونابرت اجراءات صارمة ، بالاضافة الى ايفاده فولدونى واصداره الأمر بأن يأخذ الجنود خمامات بحرية (وهو تكليف ثقيل اذا أدى فى الاسكندرية فى ديسمبر ويناير) • فكتب لمارمون يقول : « كلف طبيبا كبيرا بالمرور على المستشفيات ••• وزيارة جميع المرضى ، والأمر باطلاق النار فورا فى فناء المستشفى على جميع الخدم والموظفين الذين يأبون بذل العناية المطلوبة وتوزيع الطعام على المرضى » (٣٠) • ولعل معنوية المرضى ارتفعت عند سماعهم الرصاص يطلق على خدم المستشفيات ، ولكن معنوية الخدم هبطت • فكان يموت منهم نفر كل يوم ، دون معونة من فصيلة ضرب النار — كما جاء فى تقرير لأحد مندوبى الجيش — ومن رأيه « أنه يحسن للاستعاضة عنهم ، أن تدفع مرتبات الخدم نقـدا بدلا من اكراههم على تعريض حيـاتهم للخطر دون أن يدفع لهم فلس واحـد » (٣١) •

وعلى الرغم من هذه التدابير الصارمة التى اتخذها بونابرت لدرء خطر الطاعون ، فقد ظل متفشيا فى الاسكندرية حين بدأ جملته السورية • أما انتشاره فى دمياط فقد وجد بونابرت من مصلحته أن يتجاهله ، فلم يجد على المدينة حتى بمعزل للمصابين • وفى أواخر يناير غادرت أورطة من المشاة المدينة الموبوءة وانضمت الى وحدات الطليعة قاصدة سوريا •

٣

وبينما كان بونابرت يواجه الطاعون كما واجه اعلان الباب العالى الحرب ـ أى بالتجلد والتجاهل ـ كان عليه مهمة أخرى هى البحث عن طرق لتعويض النقص فى صفوف جيشه . ومن الحلول الجزئية التى نفذها ضم بحارة السفن الى قواته البرية . ولكنه اتخذ تدابير أخرى . فمنذ ٧ سبتمبر أمر بونابرت بتجنيد جميع العبيد المماليك الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والرابعة عشرة ، ليؤلف منهم فى النهاية سلاحا من المماليك فى الجيش الفرنسى . وفى ٣ أكتوبر شكل حرسا وطنيا من جميع المدنيين الأوربيين الذكور فى مصر ممن بلغوا سن التجنيد . وقد وردت هذه الفقرة فى أمر مؤرخ ٢٨ ديسمبر « كلما تمردت قرية عاقبها القائد المنوط بحكم الاقليم بالقبض على جميع الغلمان بين الثانية عشرة والسادسة عشرة ، وعليه أن يرسل تقريرا للقائد الأعلى ليصدر أوامره بالتصرف فيهم » (٣٢) . وواضح أن هدفه هو تأليف معين احتياطى من المجندين . وبعد عودة بونابرت من سوريا حيث فقد كثيرا من جنوده ، اتجه تفكيره لتأليف جيش مستعمرات من المماليك السود . فكتب لديزيه فى يونيو ١٧٩٩ يقول : « أود أيها المواطن الجنرال أن أشترى ٢٠٠٠ ــ ٣٠٠٠ زنجى ممن تزيد أعمارهم على السادسة عشرة » (٣٣) . ثم كتب بعد أيام قليلة الى سلطان دارفور يقول : « أرجوك أن ترسل لى بالقافلة التالية ٢٠٠٠ عبد أسود تزيد أعمارهم على السادسة عشرة بشرط أن يكونوا أقوياء أشداء ، وسأشتريهم كلهم لحسابى » (٣٤) . ومن الطريف أن نلاحظ أن بونابرت لم ينو تأليف وحدات من الملونين فى جيشه ، بل أراد ــ كما كتب لديزيه ــ أن يدمج مائة زنجى فى كل أورطة فرنسية .

وكان ديزيه يؤيد بقوة مشروعا شبيها بهذا : هو ادماج المماليك الصغار الموجودين بمصر ، وعددهم يناهز الألفين ، مع صبيان البحارة الفرنسيين ، والزنوج المستوردين ، وصبية العرب ، وتدريب الجميع تدريبا حربيا وتعليمهم تعليما فرنسيا . وكان المشروع عمليا جدا ، ولو أنه نفذ لأغنى الجيش عن التعزيزات من أرض الوطن . كذلك كان من شأنه أن يغير مجرى التاريخ : فالجيش المخلط الذى فكر ديزيه وبونابرت فى جمعه لايشبه من قريب ولا من بعيد جيوش المستعمرات التى حفل بها القرنان التاسع عشر والعشرون ، بل هو جيش يقاتل فيه الفرنسيون والزنوج والعرب والمماليك ، ويرقون جميعا على قدم المساواة . وقد فصل بونابرت هذه الفكرة على نطاق أوسع فى مذكرة طويلة خلفها بمصر حين عاد الى فرنسا : فرأى أن توفد الرسل الى سنار والحبشة ودارفور لشراء ١٠٠٠ر١٠ عبد صغير كل سنة : ويمكن أن يدمج ٠٠٠ر٢٠ من هؤلاء فى الجيش بمعدل ٢٠ عبدا لكل كتيبة ، ويؤلف الباقون سلاحا احتياطيا أركان حربه من الفرنسيين .

بيد أن هذه كلها مشروعات بعيدة الأجل ، لا تؤتى ثمارها قبل خمس سنوات • لذلك عولج النقص المطرد فى صفوف الجيش بعض العلاج باضافة مجندين الى القوات الاحتياطية ، من أمثال فتاك الأروام والمغاربة الذين يقودهم برطلمين • فأهم شىء هو البقاء بمصر زمنا يكفى لاستغلال مواردها الكامنة • ولكن هذا المشروع بدا ميئوسا منه فى عيون الأغلبية الساحقة من جنوده وضباطه •

لم يكن بونابرت يتسلم النشرات اليومية التى تنبئه بتآكل جيشه قطعة قطعة فحسب ، بل كان عليه أيضا أن يواجه وباء من الاستقالات • ففى الوقت الذى طلب اليه كليبر فيه أن يستدعيه من منصبه بالاسكندرية ، راح مينو يعدد شكاواه فى رسالة طويلة لاذعة • قال حاكم رشيد المغيظ : « اذا كان هذا ما تسميه الادارة ، فان جميع الأفكار التى تعلمتها فى حياتى لا بد أن تكون خطأ ، ويجب على أن أرجوك اعفائى من منصبى » • ولكن بونابرت لم يلق للأمر بالا • واذ كان عديم التأثر بالاهانات ، فقد كان يفلح دائما فى تهدئة ثائرة من يحتاج الى خدماتهم • أما اذا كان فى غير حاجة لرجل ، فقد كان أكثر استجابة لمطالبه وأقل غفرانا •

وفى المراحل الأولى للحملة اختار القواد المتذمرون الجنرال ديما ليتكلم بلسانهم • واذ كان ديما مشربا بالمبادىء الجمهورية القوية ولكن فى غير ذكاء كثير ، فقد بلغت به السذاجة أن يعرب عن شعوره وشعور زملائه القواد بصراحة جافية خلت من الحكمة والسداد ، وكانت أقرب الأشياء الى التمرد — ولكن بونابرت رأى أن يعفو عنه ، بعد أن هدده باعدامه رميا بالرصاص • وفى الشهور التالية ، لا سيما أثناء ثورة القاهرة ، أتى ديما من أعمال البسالة بالمعجز الذى لو ذكره ابنه فى احدى رواياته لبدا ضربا من المبالغة • وقد قيل انه يعدل جيشا بأسره • كان فى استطاعته أن يأتى من أعمال القوة بما يذهل ، وفى رواية أنه كان يستطيع وهو راكب جواده ، قابض بكلتا يديه على عرق فى سقف الاسطبل ، أن يرفع الجواد بين فخذيه • كذلك كان فى استطاعته أن يدفع باربع من أصابع يده فى قصبات أربع بنادق ، ثم يحمل البنادق الأربع فى طرف ذراعه الممدودة • وكانت جرأته فى الحب تتكافأ مع قوته ، وشجاعته يتحدث بها الناس كأنها من الأساطير • وقد أكسبته ضراوته وجماله كنية « الشيطان الأسود » فى التيرول ، و « الملاك » فى مصر • وكان أحيانا يبدى براعة فى الحركات والحيل الحربية • من ذلك أنه وهو فى النمسا ، حين عجز بعض المشاة عن تسلق سياج ، راح ، القائد بكل بساطة يلتقطهم ويقذف بهم فوق السياج الواحد تلو الآخر ، فدحر بذلك النمساويين المذعورين • فهو بهذه المؤهلات كان يصح اعتباره رجلا ذا قيمة ، ولكن ليس بالذى لا يستغنى عنه •

ومع أن ديما ولد وربى فى سانتو دومنجو ، فانه كان يشعر بحنين طاغ لفرنسا · وقد أخبر الدكتور ديجنيت أن جو مصر يؤذى صحته ، · فهل يستطيع أن يعطيه شهادة بسوء صحته ويساعده على الرجوع لفرنسا ؟ وأنبأ ديجنيت بونابرت بهذه المقابلة · وقال بونابرت « فى استطاعتى بسهولة أن أستعيض عنه بلواء » ثم أذن له بالسفر · ولكنها كانت خاتمة حياة ديما العسكرية ·

كذلك سمح بالعودة الى فرنسا للجنرال مانكور الذى خلف كليبر حاكما على الاسكندرية ، ولدولومييه الذى كره اشتراكه فى الحملة منذ اضطر الى القيام بدور مريب فى الاستيلاء على مالطة · وأرسل بونابرت أخاه لويس الى فرنسا فى نوفمبر فى بعثة هامة ، وكان يشكو اعتلال الأعصاب ، مصابا بمرض سرى · ولكن حين انهالت على بونابرت طلبات العودة الى الوطن بحجة المرض ، أوقف معظمها بنشره الملاحظات التالية فى أمر عام موجه للجيش « ليس فى نيتى أن أحتفظ فى الجيش برجال لا يقدرون شرف زمالتى فى السلاح · فليذهبوا ، وسأيسر سفرهم · ولكننى لا أريدهم أن يخفوا الدوافع الحقيقية التى تدفعهم الى رفض مشاركتنا فى جهودنا وأخطارنا بحجة الاصابة بأمراض مختلفة : فاننا نغامر بخطر مشاركتهم ايانا فى أمجادنا أيضا » (٣٦) ·

وبالطبع كان كثيرون من الذين رحلوا عن مصر مرضى حقيقة لا ادعاء ، ومنهم الجرحى والعميان الأربعون الذين أبحروا من الاسكندرية فى ١٥ ديسمبر على باخرة جنوية يرافقهم كبير قوميسيرية الجيش سوسى ، الذى كان مجروحا جرحا طفيفا ، وكان · كما يقول الدكتور ديجنيت فى مذكراته ـ أكثر شوقا لاخفاء بعض الصفقات المالية المريبة منه للبرء من جرحه · وأفلتت السفينة من الحصار البريطانى والتركى ودخلت ميناء أوجستا فى ٧ يناير · ولم يكن قبطانها لسوء الحظ يعلم أن ملك الصقليتين فى حرب مع فرنسا · وسيق الركاب الى أحد مستشفيات السجون : وفى ٢٠ يناير اقتحم الغوغاء السجن ورجموهم بالحجارة حتى ماتوا · وهكذا تبين أن المصريين والترك حملان وديعاء اذا قورنوا بالصقليين ·

وقد لقى مثل هذا الحظ العاثر تقريبا ديما ودولومييه ، اللذان أبحرا مع دفعة أخرى من العميان والجرحى · ورسا الركاب كسابقيهم على أرض نابولية · وكانت سجون الملك فرديناند صديق اللورد نلسن موبوءة · فمات دولومييه عقب عودته الى فرنسا فى عام ١٨٠٠ بعد أن قضى فى أحد هذه السجون واحدا وعشرين شهرا · وفى أثناء سجنه استطاع أن يكتب بقطع من الفحم المحروق ، على هامش كتاب مقدس وعلى شتى قصاصات الورق ، مخطوطا سماه « فلسفة علم المعادن » ، وهو أحد كتب الطليعة فى نظرية الجيولوجيا · أما ديما فكان

أصلب من صاحبه عودا وان افتقر الى موارده الذهنية · لذلك لم تقض عليه هذه المحنة ، فعاد الى فرنسا حيث أنجب مؤلف « الفرسان الثلاثة » ·

أما الجنرال برتييه فله حالة خاصة · فقد رجا هو كذلك أن يعاد الى الوطن في أجازة مرضية : كان قد أسقمه حب مدام فسكونتي ، وهي سيدة خلفها في ايطاليا · وكتب الى مينو في أول نوفمبر يقول : « انني أتعذب كثيرا · وقد أصبت بالصمم التام تقريبا » (٣٧) · ولكن يبدو أن صممه كان نفسيا ، لأنه استطاع أن يظل رئيسا لأركان حرب نابليون ستة عشر عاما أخرى · ومنحه بونابرت الأجازة التي طلبها ، ولكن برتييه مكث بمصر آخر الأمر · يقول نابليون في مذكراته ١٨١٦ : « لم أر حبا كحب برتييه لمدام فسكونتي · كان وهو بمصر يحب أن يرقب القمر في الوقت الذي حسبها ترقبه فيه · وأقام في وسط الصحراء خيمة يتعبد لها فيها : فوضع صورتها بداخلها وراح يحرق لها البخور · واستخدم ثلاثة بغال لنقل هذه الخيمة ومتاعه · وكثيرا ما كنت أدخلها وأرقد على الأريكة وحذائي في قدمي ، فكان مسلكي يثير غضبه الشديد لما فيه من تدنيس لهذا الهيكل المقدس · كان يحبها حبا جما يستفزني للكلام عليها ، ولكن بشر دائما · بيد أنه لم يبال ، فقد كان يبهجه أي حديث عنها ، بل انه أراد أن يترك الجيش ليعود اليها · وجهزت كل رسائلي ليحملها معه · وتلقيت تمنياته الطيبة وهو يودعني ، ورتبت له سفينة بريد يسافر عليها — واذا هو يعود الى والدموع تترقرق في عينيه » (٣٨) · ويؤيد بوريين رواية نابليون عن هذه الواقعة · فقد تقرر أن يغادر برتييه القاهرة في ٢٩ يناير ليستقل الفرقاطة كوراجوز — في اللحظة التي كان بونابرت موشكا أن يخرج في حملته السورية · ويزعم بوريين أن برتييه ظل حينا عاجزا عن تركيز ذهنه في واجباته « فقد هبطت ذكرياته الغرامية التي أفرط في تقديسها بقواه الضعيفة التي حبته بها الطبيعة · وذات يوم جئته بأمر من القائد الأعلى ، فوجدته راكعا على أريكته الصغيرة أمام صورة مدام فسكونتي ··· واعتقد الكل أن برتييه على وشك الرحيل الى الاسكندرية ، واذا هو يذهب ليرى بونابرت ويسأله : « اذن فأنت مصمم على الخروج في حملتك الى آسيا ؟ » وأجاب بونابرت : « أنت تعلم يقينا أن كل شيء معد للحملة ، وسأرحل بعد أيام قلائل » · « اذن ففي هذه الحالة لن أتركك ··· وها هو ذا جواز سفري وتعليماتي » · وسر بونابرت كثيرا من قرار برتييه ، فعانقه » (٣٩) ·

وأيا كانت فكرتنا عن برتييه ، فان القرار الذي اتخذه بتأجيل عودته الى مدام فسكونتي ليمكث مع قائده الأعلى كان ينطوي على الجرأة — لأن الحملة السورية كانت مغامرة يائسة · ذلك أن بونابرت كان عليه أن يواجه قوة الدولة العثمانية بأسرها بجيش قوامه ١٣٫٠٠٠ رجل · وكان الرجال الـ ١٠٫٠٠٠ الذين خلفهم وراءه في مصر — وهو لم يتم فتحها بعد — كل ما يملكه للسيطرة

على قطر يمتد ٦٠٠ ميل من السودان الى البحر المتوسط · كان منبتا عن أرض الوطن ، لا تصله منه أنبـاء ولا مؤن ، ثغوره محاصرة ، وخزانته خاوية ، والطاعون يتفشى بين صفوف جيشه · ولم تكن فرص الانتصار أمامه مشرقة جدا · ومع ذلك يصعب علينا ، بعد قرن ونصف من النقد ، أن نقول أى خطة أخرى أكثر اشراقا كان مستطيعا أن ينتهجها غير محاولته الخروج من مكانه على الأقل ·

وقد يبدو مسلك بونابرت المفعم بالثقة بنفسه ، فى موقف يراه غيره ميئوسا منه . مسلكا طائشا غير عملى · ولكن الواقع أن تقديره للموقف كان تقديرا واقعيا مشربا بالتعقل والتدبر ، بقدر ما أتاح له حكمه وهو مفتقر الى أنباء حديثة ، أو أنباء يركن اليها · ومع أنه كان يشك فى أن الباب العالى أعلن الحرب رسميا على فرنسا ، فانه علم أن الجزار باشا حشد جيشا جرارا وأنه يتخذ العدة لغزو مصر برا · وللفرنسيين أن يتوقعوا نزول جيش انجليزى تركى أيضا بمجرد انتهاء فصل الشتاء · فخير دفاع اذن هو الهجوم على الجزار لا انتظاره ، وهزيمته قبل الربيع ثم العودة الى مصر فى الوقت المناسب لمنع أى محاولة لانزال جيش ببرها ، على أن هذا ، وان كان خير دفاع ، الا أنه ينطوى على أخطار جسيمة · وخير منه ، ان أمكن تجنب الحرب مع الباب العالى ، واستعمال مصر ورقة تساوم بها فرنسا على الصلح مع انجلترا · وقد ألمح الى امكان تنفيذ هذه الخطة فى ٧ أكتوبر ، حين كتب للادارة تقريرا عن استعدادات الباب العـالى للحرب ، فقال : « قد يكون من المفيد للجمهورية الفرنســية لو اســتخدم فتح مصر وسيلة للحصـول على صـلح مشرف مع انجلترا » (٤٠) · ولكن هذه الرسالة الهامة التى عهد بها الى أخيه لويس لم تصل الى باريس الا فى ٣ فبراير ١٧٩٩ ، بعد أن بدأت الحملة السورية فعلا ·

واذ لم يكن من المؤكد اطلاقا أن تكون انجلترا على استعداد للمفاوضة لعقد الصلح ، فقد رأى بونابرت أن حكومة الادارة يجب أن تبذل غاية الجهد لتحطيم سيطرة انجلترا على البحر المتوســط ، وانهاء الحصـار المفروض على الساحل المصرى · لذلك راح يناشدها فى الرسالة تلو الرسالة (بما فيها رسالة ٧ أكتوبر) أن تحشد أسطولا جديدا للبحر المتوسط · ولكن اقتراحاته بدت غير واقعية فى نظر الادارة : فالسفن التى يطلبها اما غير صالحة ، واما لازمة للدفاع عن مالطة وكورفو · وفى رسالة ٧ أكتوبر عرض اقتراحا جديدا مؤداه أنه قد يحسن بالحكومة ، اذا كانت تخلت عن مشروع غزو ارلنده ، أن ترسل أسـطول الأطلنطى بأسره الى البحر المتوســط ، فتكره بذلك البريطانيين على القتال وهم أبعد عن قواعدهم من الفرنسيين · وكانت حجته قوية لا مغمز فيها ، فأرسلت حكومة الادارة فى شهر مارس الأميرال بروى على رأس أسطول الأطلنطى الى البحر المتوسط · ولما كانت الحكومة قد تخلت عن المشروع الايرلندى قبل

ذلك بنصف سنة ، فقد حق لنا أن نتساءل ، لم لم تفعل الادارة هذا فور سماعها نبأ انتصار نلسن فى أبى قير ؟ ولكن الذى حدث هو أن أسطول بروى - حتى بعد دخوله البحر المتوسط - لم يقدم المعونة لبونابرت ، ولم يكدر صفو نلسن : وأفلتت فرصة النصر من الأسطولين الاسبانى والفرنسى لافتقارهما الى هدف واحد يستطيعان الاتفاق على توحيد قواتهما ضده .

على أن بونابرت كان متخذا ما اتخذ من قرارات ، حتى ولو كان على يقين من ضآلة فرص النصر أمامه ، ومن عدم اكتراث حكومة الادارة اطلاقا بسوء موقفه . فليس أمام المرء في موقف ميئوس منه الا أمران لا ثالث لهما . اما الانتحار ، واما الانتظار والترقب ، لعل تحولا فى الأحداث لا يخطر بالبال قد يخفف من ظلام الموقف . فقد يتحطم الحلف الانجليزى الروسى التركى ، أو قد تعقد تركيا صلحا منفردا (وما درى أن الباب العالى وقع فى ديسمبر ١٧٩٨ معاهدات تحالف مع روسيا وانجلترا ، تعهد فيها كل طرف بألا يعقد صلحا منفردا) . أو لعل بعض الانتصارات الكبرى على الأتراك فى سوريا قد تكسبه تأييد العرب ، وعندها لا يستبعد أى شىء - حتى الزحف على القسطنطينية . وعلى أية حال ، ماذا كان فى وسعه أن يفعل الا أن يبذل هذه المحاولة ؟

أما أن يرجو الادارة اجلاء جيشه عن مصر فذلك طلب لا معنى له : لأنه اذا كان فى استطاعة فرنسا أن ترسل السفن اللازمة لإجلاء الجيش ، فالجلاء لا لزوم له . وأما أن يطلب هدنة من البريطانيين دون اذن من حكومته ، أو دون ضرورة حربية قاهرة ، فذلك محال . لأن هذا التصرف لن يقضى على مستقبله فحسب ، بل انه يتعارض تماما مع مفهوم الشرف عنده . على انه كان يستطيع احاطة حكومته بحرج موقفه ، وأن يسألها الاذن له بالمفاوضة . ولكنه لم يفعل ، بل انه صور موقفه بأبهى الألوان . وكل ما طلبه من حكومته هو أن ترسل أسطولا ، ان أمكن ، ليحطم الحصار تحطيما مؤقتا على الأقل ان لم يكن دائما . ثم طلب العقاقير والخمور والجراحين والمرقهين ، وطلب الأنباء قبل كل شىء . فافتقاره الى الأنباء السياسية معوق خطير له ، وانقطاع الخطابات من أرض الوطن من أهم الأسباب فى هبوط معنوية جنوده . وفيما عدا ذلك لم يطلب شيئا . كتب فى خطاب ٧ أكتوبر يقول : « لا ينقصنا شىء هنا . فنحن ممتلئون قوة وعافية وأملا » (٤١) . فلم هذه الأكذوبة الضخمة ؟ ربما لأنه أدرك أنه كلما اعتقدت حكومته أنه ضعيف ، قلت المبررات فى نظرها لتقديم العون له . أو ربما لأن طبيعة أطماعه حتمت عليه ألا يعود الى فرنسا متسولا ، بل بطلا فاتحا .

بذلت حكومة الادارة عدة محاولات للاتصال ببونابرت ، اما عن طريق سعاة البريد الرسميين واما بواسطة التجار المحايدين ، ودول البربر ، وغير

ذلك من المسالك التى تلقيها الصدفة فى طريقها . وأفلتت رسائل معدودة من الحصار ـ ولكن وصولها تأخر ، ففقدت قيمتها . والكثرة الغالبة من المبعوثين لم يصلوا قط لنهاية الرحلة ، ولو سجلت مغامراتهم لملأت مجلدات كثيرة . واستنادا الى هذه المحاولات يؤكد المؤرخون ـ حتى المتحيزون منهم لنابليون ـ أن رجال الادارة بذلوا قصارى جهدهم للاتصال ببونابرت ، وأن فشلهم لا يدل الا على إحكام سيطرة الانجليز على شرقى البحر المتوسط . ولكن هذه الحجة ضعيفة لا يمكن الدفاع عنها اطلاقا .

بين بونابرت طرقا شتى تستطيع السفن الفرنسية أن تنفذ بواسطتها من الحصار البريطـانى . وقد نجح هو فى اخراج عـدد من السفن من الموانىء المصرية تحت جنح الظلام . ووقع بعضها طبعا فى قبضة العدو . ولكنها مغامرة يبدو أن الحكومة الفرنسية لم تشعر بأنها جديرة بزج السفن الفرنسية فيها للاحتفاظ باتصالاتها مع خمسين ألفا من الفرنسيين المعزولين . ولعل لرجال الادارة عذرهم فى هذا ، ولكن لنذكر أنه كان فى امكانهم ارسال قوة قوامها ست بوارج أو سبع لتحطيم الحصار ولو مؤقتا بين الحين والحين ، دون التعرض الا لأخطار طفيفة جدا . ولكن الحكومة الفرنسية لم ترسل هذه القوة ، بل لم تبحث فى امكان ارسالها . ومن السهل حشد الكثير من الأسباب التى تبرر عدم القيام بهذه العمليات ، ولكن هذا التبرير ، وان بدا مقبولا فى كل تفاصيله، يحجب حقيقة ناصعة ، هى أن محاولة من هذا القبيل لم تبذل اطلاقا .

على أن رجال الادارة كانوا راغبين على الأقل فى بذل النصيحة الطيبة ، وان أسفوا لعجزهم عن تقديم أية معونة أو تعاون . ففى ٤ نوفمبر ١٧٩٨ قدم لهم تاليران خطابا مطولا يشتمل على تعليمات لبونابرت ليصدقوا عليه . ويبدأ الخطاب بلومين غير مستورين ـ أولهما لأن بونابرت كان يحمل رسائله سعاة مهملون تركوا الرسائل تقع فى أيدى العدو ، وثانيهما لتمكينه نلسن من تدمير أسطوله . **ثم يجمل الخطاب الموقف السياسى على هذا النحو** : ان روسيا وتركيا أعلنتا الحرب ، والنمسا على استعداد للانضمام اليهما ، ونابلى تتسلح ، والهولنديون حلفاء ضعاف،وبروسيا واقفة على الحياد،وأسبانيا وعدت بتقديم المعونة ولكنها لا تفعل شيئا . ان الأفق مظلم ، ولكن فرنسا ستقاوم العواصف المتجمعة أيا كانت . أما عن بونابرت وجيشه : فان الاتصال به أو ارسال الامداد له مستحيل فى المستقبل المنظور . « اذن فعليك أن تدبر أمرك بنفسك ، على الأقل فترة من الزمن . وكل ما قمت به فى هذا الباب لكسب الأهالى فى جانبك ، وللتفاهم مع العرب ، ولاجتذاب حلفاء كثيرين من الفريقين ، كل هذا جدير باستحساننا . وما دمنا عاجزين عن ارسال أية معونة لك ، فان حكومة الادارة أحكم من أن تصدر اليك أى أوامر ، بل أى تعليمات . فقرر الطريق الذى تسلكه حسبما يتيحه موقفك وما لديك من وسائل فى مصر ... وما دام من الصعب

في الوقت الحاضر تيسير عودتك (أي عودة جيشك) الى فرنسا فاختر لك واحدا من ثلاث : اما البقاء في مصر وتوطيد قدمك فيها بحيث تكون في مأمن من أي هجوم تركي (مع العلم بأن جو مصر في بعض الشهور مؤذ جدا للأوربيين ، خصوصا اذا لم يتلقوا أية معونة من أرض الوطن) ، واما الزحف على الهند فاذا بلغتها وجدت ولا ريب من يرحب بالانضمام اليك للكفاح ضد سيطرة الانجليز ، واما السير الى القسطنطينية ولقاء العدو الذي يهددك . والخيار في يدك وفي يد الرجال البواسل المتازين الذين معك » (٤٢) .

والوثيقة موقعة من تريار ، وكان يومها رئيس الادارة ، ولكن واضعها هو تاليران ، المسئول الأول عن وجود الجيش الفرنسي في مصر . على أن نصيحته الطيبة لم يكن لها لزوم . فأول هذه الحلول المعروضة على بونابرت واضح لا خفاء فيه . أما ثانيها — وهو الزحف على الهند — فغير معقول . وأما ثالثها — وهو الزحف على القسطنطينية — فلا يقل استحالة عن سابقه (*) . فنصيحة تاليران — اذا أخذتها من جميع جوانبها — **لا تعدو أن تكون** : ان موقفك ميئوس منه ، فاصنع خير ما وسعك .

ومع أن هذه الرسالة لم تكن بالضبط معينة لبونابرت ، فانها كانت هامة ، لأنها على الأقل تشتمل على أنباء خطيرة . ومن ثم كان المفروض أن يبذل بعض الجهد لتوصيلها لبونابرت بأقصى سرعة ممكنة . وقد عهد بنسخة منها للواء لوكوت ، فتباطأ ثلاثة أشهر في أسبانيا ثم مضى الى أنكونا وكانت محاصرة، وهذه النسخة لم تصل قط الى صاحبها . وعهد بنسخة ثانية الى تاجر مسافر الى تونس ، وبعد أن وصل الى تونس بيومين أعلن الباي الحرب على فرنسا ، فلم تصل هذه النسخة أيضا الى يد بونابرت . وحمل مبعوث ثالث يدعى وينان مورفو نسخة ثالثة من الوثيقة ، وغادر جنوه في ٩ فبراير (بعد توقيعها بثلاثة أشهر) فبلغ دمياط في ٢٦ فبراير ، وكان بونابرت في سوريا وقتها بعد أن اتخذ قراره على مسئوليته . وتسلم الرسالة في ٢٥ مارس وهو يضرب الحصار على عكا . وكان واضحا أن الادارة لم تحفل كثيرا بتوصيل الرسالة اليه سريعا، ولو أرسلتها في مركب بريد لوصلت في أغلب الظن الى مصر في أوائل ديسمبر على الرغم من حصار الكومودور هود .

أما الرأي بأن الادارة تخلت عمدا عن بونابرت ورجاله تخلصا من قائد كثير المطامع وجيش صخاب من غلاة الجمهوريين فقد بدأ الدعاة الانجليز باذاعته في عام ١٧٩٨ ، وردده كثير من المؤرخين . ولكن ما من دليل يقوم على صحته : فالحقيقة الواضحة هي أن رجال الادارة كانت تواجههم مصاعب هائلة داخل

(*) صحيح أن نابليون نفسه يذكر في تاريخ الحملة أن الرأيين الآخرين كانا في ذهنه في ذلك الحين ، ولكن لنذكر أنه كان وقتها غارقا في أحلام الماضي .

فرنسا — حيث خطر الافلاس أو قلب الحكومة ماثل في كل لحظة تقريبا ، وخارج فرنسا — حيث يتجمع حلف جبار ضدها · وكان رجال الادارة فى شغل بموقفهم عن القلق على موقف بونابرت فى غير موجب للقلق ، خصوصا وهم عاجزون عن مساعدته على أية حال · فالجيش الفرنسى بمصر لا يعدو أن يكون بيدقا واحدا على لوحة الشطرنج ، وبيدقا يمكن الاستغناء عنه · واذا استطاع بونابرت صانع المعجزات انقاذه فبها ونعمت ، والا فالخسارة أقل فداحة من محاولة تبذلها الإدارة لانقاذ هذا الجيش ·

٤

انهالت الأنباء على مصر طوال شهرى نوفمبر وديسمبر بما يتخذه الجزار من استعدادات للحرب · ولم يحل يوم ١٩ نوفمبر حتى لم يعد فى الامكان تجاهل نواياه العدوانية ، فأرسل اليه بونابرت انذارا نهائيا يقول فيه : « لست أريد محاربتك اذا لم تكن عدوى ، ولكن الوقت قد حان لتفسر تصرفاتك · فاذا مضيت فى حمايتك لابراهيم بك على حدود مصر ، فانى سأعد هذا عملا من أعمال الحرب ، وسأزحف على عكا » (٤٣) · وهذا كلام واضح جلى ، ولكن الجزار لم يعبأ بالرد ، شأنه من قبل — ألا أن يكون الرد بعد قليل بالأفعال لا بالأقوال ·

ومن بين الرسائل التى حملها بونابرت الملازم فوريه العاثر الحظ ، تقرير كتبه لحكومة الادارة وردت فيه فقرة ذات دلالة : « وصل على ظهر سفينة تجارية رست أخيرا بالسويس راكب هندى يحمل خطابا لقائد القوات الفرنسية بمصر ، وقد فقد الخطاب · ويبدو أن مجىء قواتنا الى مصر وقع من نفس القوم فى الهند وقعا عظيما ··· والقتال يدور هناك » (٤٤) · ولسنا نعلم على التحقيق أكان الراكب الهندى ، الشديد الاهمال فى توصيل الخطابات التى ربما غيرت مجرى تاريخ العالم ، مبعوثا لتيبو صاحب ، أم للحاكم الفرنسى ل « جزيرة فرنسا » المسماة الآن « موريتيوس » ·

كان تيبو صاحب خصما لدودا للانجليز ، ومن ثم كان كثير الاعجاب بالفرنسيين · وقد خلف أباه حيدر على سلطانا على ميسور · وكانت هوايته المحببة الى نفسه التفرج على جهاز ذاتى الحركة ، عجيب ، صنعه له ميكانيكى فرنسى — هو ببر بالحجم الطبيعى ينشب مخالبه فى ضابط انجليزى فيفتك به ، وتحتوى أحشاؤه على جهاز موسيقى يحكى زمجرة الببر وولولة الرجل الانجليزى · وهو اليوم من أحب المعروضات للمتفرجين فى متحف فكتوريا وألبرت ، حيث وضع ، لنزوة طارئة ، أمام المدخل المؤدى الى بهو الموسيقى · وقد حمله كرهه الشديد لانجلترا على أن يبسط رعايته فى عام ١٧٩٧ على ناد

يعقوبى أنشأته الجالية الفرنسية فى عاصمته سرنجابتان · وعقد النادى جلسته الأولى فى ٥ مايو فى حضرة السلطان ، وأقام الأعضاء « شجرة حرية » ، وأقسموا اليمين على البطش بكل الطغاة ، الا تبو صاحب · وفى يناير ١٧٩٨ وصل اثنان من مبعوثيه الى « جزيرة ايل دفرانس » لاستطلاع امكان التحالف مع فرنسا لطرد البريطانيين من الهند · وفى ذلك الوقت أو نحوه كان ممثلو « الايرلنديين المتحدين » يجرون مثل هذه المفاوضات فى باريس ، فلا لوم اذن على الحكومة الفرنسية اذا استنتجت أن الشمس لا تغرب على كراهية الحكم البريطـــانى ·

وأثار تقرير المسافر الهندى ، الوارد من السويس ، اهتمام الجنرال بونابرت ، ويبدو أنه الى ذلك الحين لم يكن يعبأ كثيرا بالاتصال بتبو ·

وكان الجنرال بون قد احتل السويس دون مقاومة فى ٧ ديسمبر ، وهناك أسباب كثيرة لاهتمام القائد الأعلى بهذا الميناء · أولا : كون السويس الميناء المصرى الوحيد الذى لم يحاصره البريطانيون ، باستثناء ميناء صغير على البحر الأحمر هو القصير ، وكانت ايرادات الجمارك من البضائع الواردة من الهند وبلاد العرب ذات قيمة للفرنسيين الذين أقفرت خزانتهم من النقود · ثانيا : ما روى من أن السويس نهاية قناة قديمة خربة كانت فى يوم من الأيام تصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، وكان من المهام التى كلف بها بونابرت البحث فى امكان شق قناة جديدة بين البحرين · يضاف الى هذا أن بونابرت استقبل فى ٧ نوفمبر وفدا من البدو قدم من الطور ، بشبه جزيرة سيناء ، وصحب الوفد راهب من دير القديسة كاترين الشهير المشيد على جبل سيناء · وقد رغب عرب الطور فى الحصول على ضمانات لسلامة قوافلهم التى تذهب الى القاهرة حاملة اليهم الفحم · وأعطاهم بونابرت التأكيدات التى طلبوها ، وكان للمقابلة وقع قوى فى نفوســهم ، فقـالوا : « ان ذراعــه قوية ، وكلمـــاته حلوة » (٤٥) · وفى الوقت ذاته منح بونابرت رهبان جبل سيناء امتيازات كانت فى حقيقتها امتيــازات سيادة · ولابد أن فكرة كسب صـداقة العالم العربى ، مسلمين ومسيحيين ، لم تكن بعيدة كل البعد عن خواطره · وعرب الطور أول قبيلة هامة تعرض صداقتها عليه ، والتحالف معهم ذو قيمة كبيرة لوقوعهم عند ملتقى مصر وسوريا وجزيرة العرب ·

وفى ٢٤ ديسمبر سافر بونابرت الى السويس يصحبه حرس مسلح وعدة علماء وأركان حرب ، وبعض تجار القاهرة · ولم يخلف وراءه بولين فوريه فحسب ، بل حتى طاهيه · يقول الجبرتى : « وكان معه من الأدم فى هذه السفرة ثلاثة طيور دجاج محمرة ملفوفة فى ورق ، وليس معه طباخ ولا فراش ولا فرش ولا خيمة · وكل شخص من عسكره معه رغيف كبير مرشوق فى طرف

حربته يتزود منه ، ويشرب من سقاء لطيف من صفيح معلق فى عنقه » (٤٦) ولكن الجبرتى يغالى · فان بونابرت أخذ ـ حسب رواية صحيفة بريد مصر ـ ثلاثة خدم « فقط » لخدمته الخاصة · والغريب أن هذه الجماعة الصغيرة كانت تصحبها احدى مركبات القائد ـ وهى بالطبع أول ، وربما آخر ، عربة من نوعها تعبر صحراء العرب · ولم يركبها بونابرت ، ولعل مونج وبرتولليه ركباها ·

وفى الأيام القلائل التى أنفقها بونابرت فى السويس كان أهم نشاط له (وان لم يكن أكثر علانية) هو استقباله تجار الحجاز واليمن ومسقط ، لاقامة الاتصالات الودية مع حكام هذه البلاد ، ولجمع الأخبار عن الاستعدادات الحربية فى سوريا · وقد أذيع نبأ رحلته الى « عيون موسى » أكثر مما أذيع نبأ هذا اللقاء ، وهى عيون طبيعية بقرب ساحل سيناء على أميال جنوبى السويس · وخاض بونابرت ورفاقه البحر الأحمر على ظهـور جيادهم عند انحسار المـد ليصلوا الى العيون · وفى عودتهم بعد الغروب ضل المرشدون العرب الذين أسكرهم الجنود الفرنسيون طريقهم ، وكاد يحل بالجماعة المصير الذى حل بفرعون وهو يطارد موسى · واضطرت الجياد ـ بعد أن فاجأها المد العالى ـ الى السباحة مسافة ، وأشرف الجنرال كفاريللى على الهلاك ، وفقد ساقه الخشبية ·

وفى اليوم الذى بدأ فيه بونابرت رحلته عائدا الى القـاهرة ، ترك هو وقواده وعلماؤه الطابور الرئيسى ليفحص آثار مجرى قناة السويس القديمة · ولم يكن العثور على هذا المجرى بالطبع عسـيرا ، فالناس كلهم يعرفون أنه موجود هناك · ومع ذلك نسب بونابرت لنفسه فضل كشفه قبل غيره · وتابعت جماعته الصغيرة مجرى القناة صوب البحيرات المرة نحو خمسة عشر ميلا ، معرضة نفسها لخطر لا يستهان به ، ولم تلحق بالطابور الرئيسى الا بعد هبوط الظلام بوقت طويل · كذلك وجدوا فى اليومين التاليين آثار القناة التى كانت تربط النيل بالبحيرات المرة · وكانت النتيجة المباشرة لهذه الرحلات تعيين فريق من المهندسين والمساحين برئاسة كبير المهندسين لوبير لمسح برزخ السويس · وأتم الفريق هذا العمل بأمانة فى ظروف قاسية · ولكن خطأ طفيفا تسلل لسوء الحظ الى حسابات المهندسين ، فانتهوا الى أن مستوى البحر الأحمر يعلو عن مستوى البحر المتوسط بثلاثين قدما · واقتضى الأمر اعادة هذا العمل من جديد حين بدأ فرديناند دلسبس شق القناة بعد ذلك بستين عاما ·

***

وأمر بونابرت طابوره وهو قافل الى القاهرة بمهاجمة قبيلة معادية من البدو كانت تهدد مواصلاته مع السويس ، فأحرق الفرنسيون معسكر الأعراب وحملوا الرهائن وصادروا الماشية والماعز والابل · ودخل « السلطان الكبير »

القاهرة في ٦ يناير تتقدمه هذه الحيوانات · ويقول الجبرتي ان العربان ساروا وراء الطابور ـ رجالا ونساء وصغارا ـ يتبعون في حزن ماشيتهم طوال الطريق الى القاهرة · ولابد أن هؤلاء جميعا ، بالاضافة الى المركبة التى تجرها الخيول الستة ، كانوا يؤلفون موكبا عجيبا ·

وقد أصبحت سرقة الماشية والإبل من البدو لأوهى الأسباب والمعاذير (الا من بعض القبائل المتحالفة مع الفرنسيين) سياسة فرنسية عليا · وبعض أوامر بونابرت في هذه الفترة خصصت لهذه المسألة · وسجل الميجر ديتروا هذه الظاهرة في يوميات ١٨ ـ ٢١ يناير فقال : « ان البدو يطاردون فى الصحراء أينما كانوا · وفى كل يوم يستولى رجالنا على غنيمة منهم · فتارة يأخذون نساءهم على غرة ويحملونهن رهائن ، وتارة يستولون على ماشيتهم وخيلهم وابلهم · أما الابل فقيمتها لا تقدر ، لأننا سنقوم برحلة عبر الصحراء » (٤٧) · والواقع أن الغارات التى شنها بونابرت لسرقة الابل كانت من قبيل الاستعداد لحملته السورية · وقد شكل فرقة للهجانة يعزز بها خيالته· وكان على أفرادها أن يحملوا المزاريق فضلا عن عتاد المشاة المألوف ، أما زيهم العسكرى فقد صمم من قبل ـ وهو « الثوب الرمادى من فوقه العمامة ، وتغطيه العباءة العربية » (٤٨) · ومنظر الجمل ، وصوته ، ومسلكه أحيانا ، يشعرك لأول وهلة بأنه حيوان شرس : وقد تردد الهجانة الجدد المعممون ، وهم يقربون من ركائبهم أول الأمر احجاما ، ولكن سرعان ما ألفوها · كذلك كانت الحاجة ماسة للابل لنقل المؤن والمدافع ، بل والجرحى أيضا ـ لأن النقالات المحمولة على الجمال كانت هى أيضا من مستحدثات الفرنسيين الأخيرة · أما الماشية والغنم فكانت تسرق من جهة لتموين الجيش ، ومن جهة أخرى لتشجيع العرب على أن يسلكوا مع الفرنسيين سلوكا أكثر مودة · يقول ديتروا « كان منظر هذه الفرق المغيرة وهى عائدة من غاراتها عجيبا · فكل فارس يحمل تحت معطفه شاة أو جديا ينأمىء ، ويأخذه خفية الى زقاق · وقد يبيع الرجل منهم حصانا مسروقا ببضعة قروش ، أو يهرب آخر بحمل ، ويعود آخرون بنسوة غاية فى القبح ملكوهن بحق الغزو » (٤٩) ·

ومع أن بونابرت شجع السرقة اذا حققت منفعة ، فانه كان يبدى سخطه على القتل بطريقة علنية · ففى ليلية ٣ ـ ٤ يناير قتل لص أو أكثر ثلاث نساء مسلمات فى القاهرة ، ونجت رابعة بالاختباء تحت فراشها · واتهم الرأى العام بعض الجنود الفرنسيين بهذه الجريمة وفى ٨ يناير أمر بونابرت عقب عودته من السويس بالقبض على عشرة رجال ينتمون لفرقة الرماة الثالثة بنصف اللواء الثانى والثلاثين استنادا الى أدلة واهية · وبعد التحقيق فى الأمر ، ودون اهتمام بدعوة مجلس عسكرى ، حكم القائد الأعلى على اثنين من المشبوهين العشرة بالاعدام رميا بالرصاص ، فأعدموا فى ذات اليوم · وسجل ديتروا الواقعة التالية

وهو يروى قصة الاعدام : « وقبل أن يموتا شربا نخب القائد الأعلى قائلين انه دفع للخطأ . ثم أضافا : « سنرون كيف يستطيع رماة نصف اللواء الثانى والثلاثين أن يواجهوا الموت . ولم تكن محاكمة ولا حكم » (٥٠) .

وبعد أيام قلائل قبض أغا القاهرة على القاتل الحقيقى ، وكان خادما فى البيت ، وقد اعترف بجريمته . ولكن سلطانا كبيرا . يقتضيه واجبه أن يتخذ الكثير من القرارات العاجلة ويراعى مقتضيات السياسة العليـا ، لا بد أن يخطىء بين الحين والحين . وقد أخطأ بونابرت مرة أخرى بعد خمس سنوات ، ولكن الضحية هذه المرة لم يكن من جنود فرقة الرماة ، بل الدوق دانجيان ، الذى عقب فوشيه على اعدامه السريع بقوله « انه شر من الجريمة ــ انه غلطة » .

وبعد أن أقنع السلطان الكبير الأهـالى بعدالته التى لا تبطىء ، رأس الاحتفالات ببداية شهر رمضان ، نعم بأسبوعين آخرين مع السيدة فـوريه (سابقا) ، وفى ١٠ فبراير غادر القاهرة ليقاتل أحمد باشا الجزار فى سوريا . فى هذا الوقت تقريبا ، وبعد نصف عام من قتال لا هوادة فيه ، كان الجنرال ديزيه بالصعيد يحاول بفرقته الوحيدة القيام بعمل ثلاث فرق ليحتفظ بثمرات فتحه فى ظروف عصيبة جدا .

الفصل الثامن

الى الشلالات

فى ليلة ٢٥ ـ ٢٦ أغسطس ١٧٩٨ بدأ الجنرال ديزيه زحفه من الجيزة مطاردا مراد بك ومعه ٢٫٨٦١ من المشاة ومدفعان • وهكذا بدأت حملة استمرت تسعة أشهر ، واضطرت ديزيه وفرقته الى الزحف والتقهقر مسافات لا تقل جملتها عن ٣٫٠٠٠ ميل • وقد اقتفوا آثار مراد صاعدين مع النيل ، وطاردوه برا الى اقليم البهنسا ، والفيوم ، ثم صعودا مع النيل ثانية مارين بأسيوط وجرجا ، مخترقين أطلال دندرة والكرنك والأقصر الضخمة ، وصعودا مع خانق النيل الى أسوان ، المدينة التى قاس فيها ايراتوستينيس الأرض قبل ذلك بعشرين قرنا ، ومن أسوان الى فيلة التى تقع على مسيرة يوم من مدار السرطان ، ثم رجوعا ، ورحلة فرعية عبر صحراء العرب الى البحر الأحمر ـ كل هذا ومراد ينطلق أمامهم بأقصى سرعة ، تارة هاربا ، وتارة منقلبا ليهاجمهم ، يختفى مرة فى واحة بالصحراء ، ويعود مرة أخرى للظهور خلفهم ، ينكمش جيشه حينا الى بضع مئات من الأتباع الأوفياء ، ولكنه لا يلبث أن يجمع الأحلاف والجيوش الجديدة ، ثم ينتهى به المطاف حيث بدأ ، دون أن يظفر به مطارده ـ عند أهرام الجيزة •

كانت حملة عقيمة ، ولكنها من أعظم المغامرات فى العصور الحديثة ـ مغامرة كان كل رجل تقريبا من رجال ديزيه على وعى بها • وقد وجد بودرا ، وتريكو ، وجيبور ـ وهم من رجال ديزيه ـ فى أنفسهم من الهمة ، برغم تمزق ثيابهم وتهرؤ نعالهم وامتلاء عيونهم بالصديد ، ما حفزهم

لنحت أسمائهم المغمورة على الصخور الجرانيتية الممتدة على ضفة النيل ، جنبا الى جنب مع من سبقوهم ـ يوليوس تيناكس ، وفاليريوس بريسكوس ، وكوينتوس فياتور ـ فسجلوا بذلك وجودهم هم أيضا فى تلك البقعة ٠

وديزيه أكثر بطلى هذه الملحمة شهرة ، فحياة الأبطال الحربيين الفرنسيين مسجلة تسجيلا أوفى من حياة أبطال المماليك ٠ ومع ذلك ما زالت شخصية ديزيه محيرة غامضة ، غموض شخصية مراد ٠

ولد لوى ديزيه دفيجو فى ١٧ أغسطس ١٧٦٨ ـ قبل مولد بونابرت بسنة ـ فى جبال أوفرن ، من أسرة تنتمى لطبقة صغار النبلاء ، وكانوا من أصحاب الضياع فى الريف ، وحين بلغ الثامنة دخل مدرسة افيا الحربية ليدرس على منحة دراسية ٠ وكانت المدرسة التى تديرها « جماعة الخطابة » قد أدخل عليها تلك السنة فقط اصلاح على يد وزير حربية جديد ممتاز هو الكونت دوسان جرمان ٠ والى القارىء نص بعض تعليمات هذا الوزير : « يجب ألا توجه للتلاميذ اطلاقا ألفاظ نابية ، وأن يحرم ضربهم ٠٠ فالرجال الذين ينبغى أن يهتدوا فى حياتهم كلها بالشرف ، يجب أن يربوا بمبادىء الشرف ٠ اذن فأمثل ضروب العقاب ايقاظ احساسهم بالخزى ، وحرمانهم من الأشياء المحببة اليهم ٠٠٠ ولكن حتى هذه الوسائل التى يقصدبها اذلالهم يجب عدم الالتجاء اليها الا بمقدار ، لئلا يعتاد الأطفال الذل ٠ ويجب أن يقوم الثواب على هذه المبادىء ذاتها ٠ على الشرف والامتياز ، لكى يصبح هذان ضرورة لا غنى عنها لنفوسهم » (١) ٠ ولعل هذه المبادىء المثالية لم تضيع تماما على التلميذ الذى اشتهر فيما بعد بالسلطان العادل ٠ ولكن تقارير ديزيه المدرسية كانت مريعة ، ولعله كان أسوأ تلاميذ فصله ٠

وحاول فى الخامسة عشرة أن يدخل الأكاديمية البحرية ، فلما رفض طلبه حصل على وظيفة ملازم ثان فى فرقة المشاة البرتنية ٠ ومع أنه كان لا يزال ملازما عند نشوب الثورة الفرنسية ، فقد رأى ـ كما رأى معظم النبلاء المنخرطين فى سلك الجيش ـ أن يبقى فى الجيش دون نظر للآراء السياسة ، بدلا من أن يهاجر ويقاتل وطنه ٠ ونشبت الحرب فى عام ١٧٩٢ ، وجلبت معها فرصا لا حد لها للمجد والطفرة فى الترقى ٠ ورقى ديزيه الذى كان يقاتل فى جيش الراين الى رتبة الفريق فى ٢٠ أغسطس ١٧٩٣ ، فقفز بذلك من ملازم ثان الى رتبة القيادة فى سبعة شهور ٠ ومع أنه كان مرؤوسا لمورو فى حملات ١٧٩٦ ـ ٩٧ ، فانه اكتسب شهرة لم تفقها غير شهرة القائد الأعلى لجيش ايطاليا : وأصبح اسما ديزيه وبونابرت محل الاعجاب الشديد ـ من الفرنسيين المنتصرين والنمساويين المغلوبين على السواء ٠

ولكن مهما ذاعت شهرة قائد فى جيش الثورة الفرنسية ، فان منصبه

لم يكن فى مأمن من التقلبات : فلجنة الأمن العام ، وحكومة الإدارة من بعدها ، مستعدتان لطرد أى قائد ، بل لاعدامه رميا بالرصاص · استعدادهما لصنع قائد جديد · وفى أثناء حكم الارهاب ، بينما كان ديزيه يرقى سلم الشهرة فى صفوف الثورة ، كان أشقاؤه وأبناء عمومته يقاتلون فى صفوف أعداء الثورة فى جيش المهاجرين الذى يقوده كونديه ، وكانت أمه وأخته نزيلتى السجن · وفى يناير ١٧٩٧ أمرت لجنة الأمن العام بالقبض على الجنرال ديزيه بوصفه مشبوها سياسيا · واستقبل رجال ديزيه المندوبين الذين أتوا للقبض عليه بالسناكى ، فعدلت اللجنة عن رأيها · ولقى ديزيه مصاعب أخرى بعد حين ، ولكنه بطريقة أو أخرى كان يفلح دائما فى الافلات منها · أكان ديزيه جمهوريا ، أم ملكيا ، أم صاحب مهنة يرعى مصلحته لا أكثر ؟ ان ديزيه — أيا كانت سريرته — لم يشعر قط بأقل دافع للافصاح عنها · فبونابرت ، بما طبع عليه من حب الكلام رغم غموض شخصيته ، يعد بالقياس الى ديزيه كتابا مفتوحا ·

ولما اضطلع بونابرت فى ابريل ١٧٩٧ بتوقيع الهدنة مع النمسا فى لوبن ، قرر الجنرال ديزيه أن يزور ايطاليا ويرى كيف يعيش النصف الآخر من الجيش ويكسب هذه الأمجاد · وكان فى رحلته الى ساحات القتال فى لومبارديا والبندقية مدفوعا من جهة برغبته القوية فى التعلم واستخلاص العبر من عظمة الآخرين ، سواء المعاصرين منهم أو السابقين ، لأن هذه احدى طبائعه البارزة · وقد قال عنه الرياضى فورييه « كان ديزيه ملما بتفاصيل كل عملية حربية كبيرة · فاذا لم تواته فرصة المشاركة فى النصر ، رغب على الأقل فى رؤية ساحة القتال · وكان يبدو كأنه مسوق رغم أنفه للاتصال بكل شىء عظيم أو مفيد تحقق من قبل ··· ويتمنى لو أنه عاصر كل بطل من أبطال التاريخ»(٢) كانت له الى ذلك دوافع أقل تنزها عن الغرض · فقد أفضى لأحد أصدقائه الأخصاء بهذه العبارة فى تلك الفترة « انى واثق أن مورو لن يقوم بأى عمل جليل ، وأنه حتم علينا أن نلعب دورا ضئيلا ما دمنا تحت قيادته ، بينما كتب لذاك (أى بونابرت) أن يرقى معارج الشهرة ، ويظفر بمجد عريض لا بد أن ينعكس بعضه على أعوانه » (٣) · ومعنى هذا بعبارة أخرى ، أن ديزيه سعى الى بونابرت عمدا ، لأنه رأى فيه نجما صاعدا يحسن أن يكون وثيق الصلة به ·

كان ديزيه يدرس فى أسفاره ميادين القتال وهو متخف يرتدى الملابس المدنية · وقد انتهى الى هذه النتيجة ، وهى أنه ما من شىء صنعه بونابرت لم يكن هو ليصنعه ويصنعه بتضحية أقل فى الأرواح · ومن الأقوال المأثورة فى جيش الراين ، أنه اذا مضى رجل للقتال تحت امرة أى قائد غير ديزيه قال لرفاقه « وداعا » ، أما اذا قاتل تحت امرة ديزيه ففى وسعه أن يقول « الى

الملتقى » . ولم يكن ديزيه بالقائد الذى يحتاج الى مورد من الجنـــد يبلغ ١٠٫٠٠٠ رجل كل شهر . فلقد كان جنديا أصيلا . والمجـد الحربى عنـد بونابرت وسيلة الى السلطان ، أما عند ديزيه فغاية فى ذاته .

ومع أن ديزيه ربط مستقبله بمستقبل بونابرت ، بل مات لينقذه ،فان البطل لم يقع من نفسه فى أول لقاء لهما فى باسيريانو موقعا طيبا جدا . كتب فى يوميته « انه متكبر ، متصنع ، حقود ، لا يغفر أبدا . وهو شديد الادمان للمؤامرات . انه غنى جدا ، ولا غرابة ، لأنه ينفق من موارد قطر بأكمله .. وهو لا يؤمن بالاستقامة ولا الأدب واللياقة ، ويقول ان هذا كله حمـاقة ، ويزعم أنه عديم الفائدة ولا وجود له فى هذه الدنيا » (٤) .

ومهما تكن تحفظات ديزيه فى حديثه عن بونابرت ، فان هذا أفضى اليه بسره منذ البداية . فقد كتب فى يوميته عقب مقابلة من مقابلاتهما الأولى : « مصر .. برزخ السويس » وكان هذا فى الوقت الذى أخذ فيه المشروع المصرى ينضج فى ذهن بونابرت . وبعد عودة ديزيه من ايطاليا بقليل ، عين قائدا مؤقتا لجيش انجلترا حتى يعود بونابرت الى فرنسا . وهكذا ارتبط مصـير الرجلين .

ولعل زهد ديزيه فى الافضاء بآرائه فى أى شخص « أو أى شئ » ما لم تتصل هذه الآراء بقرار محدد يجب اتخاذه ، كان عاملا أعان على شدة تعلق الناس به وتمجيده بقدر ما أعان موته الباسل فى الحادية والثلاثين . فميوله العلمية ، وحياده فى السياسة ، وحبه للانصاف ، واخلاصه للواجب والشرف، وبساطته العسكرية ، وجلده ورباطة جأشه ، وتجنبه للتظاهر والفخفخة ــ كل هذه الخلال تجعله صـورة مجسمة لجنـدى متصوف صوره فينى فى كتابه « العظمة والعبودية الحربيتان » . وقد قال نابليون فى مذكراته بسانت هيلانة « كان ديزيه منصرفا بكليته الى الحرب والمجد ... كان دائما مهمل اللباس ، بل رثه أحيانا ، يحتقر الراحة والدعة . وقد أهديته بمصر غير مرة ثياب ميدان كاملة ، ولكنه كان دائما يفقدها . وكان من عادة ديزيه أن يلقى بنفسه تحت مدفع وينام راضيا كأنه فى قصر منيف ... لقد هيأته الطبيعة ليكون قائدا عظيما » (٥) .

وكان ديزيه صاحب ملاعيب ومقالب أحيانا ، شأن الكثير من الزاهدين فى مخالطة الناس والتحدث اليهم . فمرة تعشى مع بعض الضباط النمساويين فى فندق بتريستا وهو متخف ، فكاد يتحداه أحدهم للمبارزة لعبارات ذم بهـا الجنرال ديزيه الذى كان الضابط يمتدحه . ولعله كان يغتبط لو علم ان الخلف ليس لديهم أدنى فكرة عن حقيقة شكله . فصوره العديدة لا يشبه بعضها بعضا أقل شبه . فنابليون يذكره « رجلا قصير القامة متجهم الوجـه » أقصر منه

ببوصة ـ ومعنى ذلك أن طول ديزيه خمسة أقدام . ووصفه آخرون بأنه طويل جدا ، ويقول شاهد ان طوله خمسة أقدام وخمس بوصات . ويجمع الكل على أنه كان قبيح الوجه ، وأن جزح السيف الذى أصابه فى وجهه ١٧٩٣ لم يصلح من منظره ، ويجمعون على أنه كان مهمل المنظر ، سيىء اللباس ، أشعث ، وعلى أنه كان خفيف الروح يحب مداعبة ضباطه ، له قدرة على الحديث الذكى الساحر ، وله ذاكرة قوية الى درجة شاذة . ولكن هذا كله لا يزيد صورته جلاء ووضوحا .

وقد نشأ عن نزعة فى تفكير الناس فى القرن التاسع عشر ، خلطت بين الشخص المثالى والشخص المجرد من الجنس ، أن تصور القوم ديزيه رجلا « منصرفا بكليته الى الحرب والمجد » ، مخلصا أشد الاخلاص للواجب والشرف والعدالة ، معرضا كل الاعراض عن مطالب الجسد . ولو عرف ديزيه هذه الصورة لبدت له نكتة ضخمة ـ يستمتع بها فى صمت . لقد كان فضوله الذهنى نشيطا حقا ، ولكن ليس لدينا دليل على أنه كانت له أى ميول علمية متأصلة ، ومع أنه كرس حياته للجندية بكل عنائها وكدها ، فانه لم يحتقر لذات الجندى الرخيصة . ويعلق أحدث كتاب سيرته بعض الأهمية على اصابته بعدوى مرض سرى ، وعلى ما زعمته امرأة بأنه أبو ابنتها غير الشرعية . وقد كتب ديزيه نفسه وهو بمصر الى حبيبته فى فرنسا ، يقول انه محاط بحريم كامل . ومع أن هذه الحقائق قد تدل على أن الحرب لم تكن الموضوع الوحيد العالق بذهنه ، فانه ينبغى ألا يغالى فى أهميتها . فالاصابة بالسيلان ، أو انجاب طفل غير شرعى ، لا يقتضيان المرء أن يكون زئر نساء ، ومن عادة الناس التباهى و « الفشر » . والظاهر أن علاقاته الغرامية الجادة ظلت أفلاطونية ـ ومن الجرأة أن نقطع بالسبب : أهو احجامه وتردده (ربما بسبب شعوره بقبحه) ، أم وقفه نفسه على الحرب .

والعلاقات الغرامية العارضة أقل فى حياة ديزيه ، وقد كتب لآخر امرأة ، واسمها مارجريت لونورمان ، رسائل تغلب عليها الصراحة ، تستحق رسالة منها كتبها بعد رحيله عن مصر فى عام ١٨٠٠ أن تفرد لها صفحة فى أى مجموعة مختارة من الدعابات الذكية . يقول : « انك تريدينني يا سيدتى المحبوبة أن أسرد لك تفاصيل مغامراتى الحربية والغرامية ... فليكن لك ما تشائين . واعلمى اذن أن كل شىء سار على ما يرام عند رحيلى عن أوربا . وتعلمين أننى كنت أركب الكوارجيز (أى الشجاعة) ، ترافقنى الكابرسيوز (أى الهوائية) والأموريز (أى المحبة) ، والكوكيت (أى المتدللة) ، والفيكتوار (أى المنتصرة) والاسبرانس (أى الأمل) والكونستانس (أى الوفاء) . ويجب أن أنبهك يا سيدتى الى أن الكونستانس انهارت فى الطريق ... فتخلفت فى مالطة . أما الأموريز فقد اغتصبها الأتراك وسرقوها . وأما الكوكيت فأفلتت منهم .

وأما الكابرســبوز فوقعت فى يد الانجليز ، وأما الكوارجيــز فغرقت ، وأما الاسبرانس فبقيت معنـا • وأما الفيكتوار فظلت وفيــة لنـا ، ونحن عائدون بهـا » (٦) •

وفي رسالة أخرى لمارجريت نجده أقل دعابة وأكثر جودا بأخباره • والى القارىء ما كتبه الجندى الذى « يحتقر الراحة والدعة » والذى ينام قانعا تحت مدفع كأنه ينام في قصر منيف ، عن حياته الغرامية فى مصر : « أحببت أستيزا الصغيرة ، وهى فتاة جورجية لطيفة ، جميلة كفينوس ، شقراء ، رقيقة • وكانت فى الرابعة عشرة ـ برعمتى وردة • وقد آلت الى بحق الميراث ، لأن سيدها مات ••• ثم أهديت سارة ، وهى حبشية رغناء فى الخامسة عشر من عمرها وقد رافقتنى فى رحلاتى • كذلك ملكت مارا ، وهى طفلة ساذجة من دجلة ، وفاطمة ، وهى فارعة الطول ، حسناء ، جميلة التكوين ، ولكنها تعسة جدا ••• أولئـك حريمى » • ثم يمضى فى حديثه « والى هؤلاء يجب أن أضيف ثلاث زنجيات ، وغلاما أسود صغيرا اسمه باقل • ومملوكا صغيرا اسمه ، اسماعيل ، حلو الصورة كأنه ملاك » (٧) • ولعل ديزيه غالى فى قصته اغاظة لمارجريت ، ولكن سارة الحبشية الرغناء كانت ترافقه فعلا فى رحلته الملحميه • وقد تبدو الفكرة مخيبة لأوهام من يرون فى ديزيه قديسا من قديسى الحرب • ولكن ديزيه كان جنديا له كل ما للجندى من فضائل ورذائل •

كان مـراد بك يكبر ديزيه بأكثر من عشرين سـنة • فأما من الناحيـة البدنية ، فلم يكن غريمان أشد تباينا منهما • وكان ديزيه الضئيل الجسم الذى لم تجد عليه الطبيعة بحسن الصورة والذى أضناه المرض ، هو المطارد • وقد أوتى مراد ـ الطريدة ـ قوة ثور ومكر ثعلب • وكان ببنيته القوية ، ووجهه الشركسى الشاحب الذى تحيط به لحية شقراء كثة ، وعينيه الناريتين القاسيتين يعلوهما حاجبان ضاريان ، وثيابه البهية الزاهية التى بدا فيها نقيضا لديزيه فى ثيابه الرثة ـ كان فى هذا كله صورة مجسمة لقوة الرجولة ، التى أضافت اليها ندبة طويلة على أحد خديه مسحة حربية •

وليس لدينا معلومات أكيدة عن شباب مـراد • ولعل تجار الرقيق فى وطنه ـ بلاد القوقاز ـ قد اشتروه أو خطفوه ، ثم انتهت طفولته فى سـن الثامنة ، السن التى ألحق فيها ديزيه بمدرسة داخلية على منحة دراسية • ذلك أن العبد المملوك كان يبلغ مبلغ الرجال فى سن صغيرة جدا ـ فى نحو الثامنة أو العاشرة • وكان يعلم أن يكون سيدا رغم كونه عبدا • فيدرب على استعمال السلاح ، والفروسية ، والخيلاء • وكان المملوك اذا ركب فى شوارع القاهرة ترجل عامة الناس عن بغالهم أو حميرهم ليمر • ومتى حصل العبد المملوك على قيادة نفر من الأتباع أصبح حـرا ، واقتنى العبيد ، وأطلق لحيتـه ـ وذلك

شرف لا يناله غير الأحرار • وأصبحت علاقته بسيده علاقة الولاء بين التابع والسيد الاقطاعي ، لا علاقة العبد بسيده بالمعنى العادى ، على أنه وهو صبى كان عبدا لسيده حقا ، يقوم الى ذلك مقام الخليلة له أحيانا كثيرة ــ دون أن يمنعه هــذا من أن يكون أبا قبل أن يبلغ الرابعة عشرة • وكانت القــوة ، والكبرياء ، والشهوة ، هى المبادىء التي يهتدى بها في سلوكه : فالجسد عنده شيء يستثمر ، أو يقتل ، أو يمتلك •

كان مراد عبد الأحد عبيد على بك الكبير (*) ، الذى حــكم مصر ســيدا مستقلا من عام ١٧٦٤ الى ١٧٧٣ • وفى كفاح البكوات للسلطة بعد موت على بك لمع مراد وابراهيم وتقاسما السيادة • وتزوج مراد أرملة على بك ، وهى السيدة نفيسة ، وكانت امرأة ذات ثراء طائل (آل اليها من زوجها على بك) وقد أوتيت الى ذلك شخصية قوية • واستطاع بماله ، لا بقوة السلاح ، أن يصل الى ما وصل الى ما وصل اليه من مقام • وكان بذله المال مضرب الأمثال كما قال الجبرتى وهو يذكر موت مراد : « وأخذ فى بذل الأموال وانفاقها على أمرائه وأتباعه ••• وحظى عنده كل جرىء غشوم عسوف ذميم ظلوم • واشتهر بالكرم والعطاء ، فقصده الراغبون ، وامتدحه الشعراء والغاوون ، وأخذ الشيء من غير حقه ، وأعطاه لغير مستحقه ••• وكان يغلب على طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط فى الاقدام مع عدم الشجاعة • ولم يعهد فيه أنه انتصر فى حرب باشره أبدا على ما فيه من الادعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور كما قال القائل :

أسد على وفى الحروب نعامة   فتخاء تنفر من صفير الصافر (٨)

ولكن مرادا كان من جهــة أخرى منظما كفئا خلوا من الغرض • أنشأ ترسانة فى القاهرة ، وجلب لها الصناع من الخارج لصنع المدافع ، وكذلك أنشأ أسطول المماليك النيلى وعين لقيادته أحد الأروام المسيحيين • وكان هذا الرومى ، واسمه المعلم نقولا ، يتمتع بما يتمتع به الأمراء من تمييز وتشريف وكذلك كان نائب مراد المقرب اليه ، ابراهيم كتخدا السنارى ، وهو نوبى أسود بنى لنفسه قصرا جميلا فى القاهرة ، وكان مغرما بالجوارى الشركسيات يتثقف بدراسة التركية وتعلم فنون السحر •

وبينما كان نائبه ابراهيم ، ونائب ابراهيم هذا ، يحكمان باسم مراد ، كان هذا يعيش عيشة مترفة ، معتزلا فى الجيزة ، وقد « تعاظم فى نفسه وتكبر على أقرانه وأبناء جنسه » • ويقول الجبرتى انه كان مدمنا للذات ، « الا أنه كان يحب العلماء ويتأدب معهم ••• ويميل طبعه الى الاسلام والمسلمين ، ويحب معاشرة الندماء والفصــحاء وأهل الذوق والمتكلمين ، ويشــاركهم ويباسطهم

(*) محمد بك أبى الذهب •

ولا يمل من مجالستهم ومنادمتهم ، ويناقل فى الشطرنج ويطلب أهل المعرفة فيه ، ويحب سماع الآلات والأغانى » (٩) • وقد قضى مرة ست سنوات دون أن تطأ قدمه أرض القاهرة ـ ربما لأن كبرياءه لم تسمح له بأن يكره على اقتسام السلطة والمجد مع ابراهيم بك الذى كان يحكم العاصمة بوصفه شيخا للبلد •

وكان مراد بما اشتهر به حتى بين البكوات المماليك من خيلاء وقسوة (*)، نقيضا واضحا فى هذه الصفات لديزيه ، « السلطان العادل » • أما من حيث العلم بالحركات الحربية فقد كانت معلوماته العسكرية مقتصرة على مبدأين : اهجم ، فاذا كان الهروب ضرورة فاهرب • أما ديزيه ، الذى درس التاريخ ، فكان ملما كل الالمام بجميع نواحى العلوم العسكرية • ومع ذلك كان الغريمان متعادلين فى المهارة الاستراتيجية • فعبقرية ديزيه علمية ، وعبقرية مراد فطرية •

وهناك أوجه شبه أخرى بين الرجلين رغم كل ما بينهما من فروق • فكلاهما عنيد أشد العناد ، لا تثنيه المثبطات ، جسور ، رابط الجأش ، شديد المراس • وكلاهما عاش للحرب ـ فأما ديزيه فسعيا وراء مجد خيالى مجرد ، وأما مراد فحبا فى السلطان والمال • وفى هذا الصراع الذى اشتبكا فيه لم يفز أحدهما ولم يخسر ، بل زادا منزلتهما أهمية فى التاريخ •

٢

شعر مراد بك أن نابليون عنف بعض الشيء فى ضربه بامبابه ، ولكن لم يخطر بباله قط أنه هزم • وبكل بساطة تقهقر جنوبا آخذا معه الآلاف الثلاثة أو الأربعة من المماليك الذين تركهم ، وما استطاع حمله معه من أمواله • ولم يجد مشقة وهو فى بنى سويف والفيوم والمنيا فى جمع الجنود الجدد من المشاة ، والحصول على المؤن والذخائر الجديدة ، بل الأموال أيضا • واستطاع بفضل البدو أن يحتفظ باتصاله الوثيق بالقاهرة ، وبالجزء الذى يحتله الفرنسيون فى مصر ، وبالأسطول الانجليزى المرابط أمام الأسكندرية ، وبزميله ابراهيم بك فى غزة ، وبالجزار باشا فى عكا • وراح المماليك يتنقلون من مكان الى آخر بخيامهم الفخمة التى يخطف بريقها الأبصار والفلاحون يصدعون بأوامرهم •

رأينا فى فصل سابق (**) كيف رفض مراد بازدراء عروض بونابرت التى حملها اليه روزتى • وبينما كان مراد يعرض أن يدفع لبونابرت نفقات جلائه عن مصر ، كانت زوجته نفيسة تدفع لخزانة الفرنسيين ما يعادل مليونا من

(*) يجمل الجبرتى رأيه فى مراد فى هذه الكلمات « وبالجملة فمناقب المترجم لا تحصى وأوصافه لا تستقصى ، وهو كان من أعظم الأسباب فى خراب الاقليم المصرى بما تجدد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور والتهور ومسامحته لهم ، فلعل الهم يزول بزواله » جـ ٣ ص ١٧٩ •

(**) الفصل الخامس ، ص ١٥٧ •

الفرنكات الذهبية أو يزيد ، سدادا لغرامات فرضت عليها بشتى الحجج والمعاذير • على أن هذا المبلغ لم يكن سوى قطرة من موارد الزوجين • كذلك آوت نفيسة الجرحى من جنود الفرنسيين ومرضتهم ، وكان لها مع السلطات الفرنسية علاقات تتسم بالكرامة وعزة النفس ، وقد احتفظ الفريقان فى صلاتهما بمظاهر المجاملة المشوبة بالحذر •

كان بقاء مراد بمصر الوسطى والعليا لا يبرحهما أمرا لا يطيقه الفرنسيون حتى ولو لم ينشأ عنه تهديد مباشر لتملكهم القاهرة والدلتا • فما دام مراد حرا طليقا فسينتظر سكان الأقاليم المحتلة عودته آخر الأمر ، سواء أرادوا أو لم يريدوا ، وسيصانعون الحكام الفرنسيين ويداجونهم ، وتتأثر نفوسهم بدعاية مراد وتستجيب لها اما بالخوف منه واما بالتحمس له • أضف الى ذلك أنه كان من الضرورى طرد مراد من مصر الوسطى والعليا قبل أن يجد من الوقت متسعا لجمع الضرائب هناك ، لئلا يفلت هذا المورد من الخزانة الفرنسية وهى فى أمس الحاجة اليه • فحملة ديزيه البطولية لم تكن مطاردة لمراد فحسب ، ولكنها كانت أيضا سباقا بين جامعى الضرائب المتنافسين • وقد اقتضى الأمر — حتى فى الدلتا وغيرها من الأقاليم التى يحتلها الفرنسيون — تجريد الفصائل الحربية لتعزيز سلطة جباة الضرائب الأقباط • ومنذ عشرين قرنا لاحظ ديودور الصقلى أن المصريين يعتبرون أنفسهم مغفلين اذا دفعوا ما يجب عليهم دفعه دون أن يضربوا أولا • وأضاف دينون الى هذه الملاحظة بعد أن أوردها قوله « أتيح لى أن ألاحظ أنهم وان لم يرفضوا الدفع قط ، الا أنه ما من حيلة بارعة لم يلجأوا اليها ليؤجلوا الدفع ولو ساعات قليلة »(١٠) وقد ضرب الفلاحون فى مصر الوسطى والعليا فى ذلك العام أكثر مما تعودوا كل سنة ، لأنهم فى أكثر البقاع أكرهوا على دفع المستحق عليهم مرتين •

بدأت حملة ديزيه على مراد فى ليلة ٢٥ — ٢٦ أغسطس حين غادرت قواته الجيزة يحملها أسطول صغير مؤلف من بضع سفن حربية ، وزوارق كبيرة ، وشبكات ، وأجرام (وهى سفن الملاحة النيلية) • وبدت فرقته المؤلفة من أقل من ٣٠٠٠ رجل ومدفعين فقط والخالية من الفرسان ، أقل من قوة المماليك بصورة يرثى لها • ولكن لنذكر أن قوات المماليك قل أن اجتمعت فى جيش واحد ، اذ كان كل أمير يقوم بعملياته الحربية مستقلا ، ما لم يدعهم مراد ليحتشدوا للقتال • ولو احتشدوا لأتاح تفوق الخطط والحركات الحربية الفرنسية ، لفرقة من ٣٠٠٠ رجل ، أن تهزم بسهولة حشدا سيىء التنظيم يفوقها مرات من حيث العدد • وقد تلقى مراد نفسه هذا الدرس فى شبراخيت والأهرام • لذلك أخذ ، كما أخذ كوتوزوف بعد أربعة عشر عاما ، بخطة تجنب الالتحام بالعدو فى معارك حامية ، واستدراجه ليوغل بعيدا عن قواعد تموينه ، معتمدا على تدميره تدميرا بطيئا بعملية

التفتيت والتآكل . ولعل هذه الخطة كانت تفلح مع أى عدو ، تقريبا، إلا ديزيه.

بعد أن أبحر ديزيه ١٢٥ ميلا الى الجنوب ، أخذ شطرا من جنوده وسار برا على أمل مفاجأة مماليك مراد فى البهنسا (وهى أوكسر ينيكوس القديمة) على حدود الصحراء الليبية . وأنفق الفرنسيون ثلاث ساعات فى عبور هذا الاقليم المغمور ، والماء يصل الى خصورهم والوحل الى ركبهم ، ثم وصلوا الى البهنسا ليروا آخر ابل المماليك تخوض بحر يوسف ، ثم تختفي فى الصحراء. وقفل ديزيه راجعا الى النيل ، وقطع ١٣٥ ميلا أخرى صاعدا النهر ليلحق بأسطول مراد ، الذى علم أنه عند أسيوط . ولم يجد هناك أسطولا ، ولكنه سمع أن كتيبة من المماليك تعسكر فى البر على خمسة عشر ميلا فى بنى عدى . فلما وصل الى بنى عدى كان المماليك هم ونساؤهم وأمتعتهم قد رحلوا منذ أربع وعشرين ساعة . وعاد ديزيه ثانية الى النيل ، واتجه هذه المرة شمالا ، اذ بدا أن مرادا فى اقليم الفيوم الخصيب ، وقد صمم ديزيه على مباغتته هناك .

ولم يمض على الحملة ثلاثة أسابيع حتى أصبحت حال الجنود يرثى لها . وكل ما استجاب به بونابرت لتوسلات ديزيه اليائسة فى طلب الأمداد والمزيد من الجرايات والعقاقير والذخيرة هو ٣٠٫٠٠٠ جراية من البسكويت (وهذا لا يعدو أن يكون قسطا صغيرا من المطلوب) وثمانون رجلا . كتب اللواء دوتزيلو رئيس أركان حرب ديزيه الى برتييه يقول « لقد استفحلت حالات المرضى بين رجالنا فى الأيام الأخيرة . فأكثر من ٣٠٠ مصابون بالرمد ، ثم ان الدوزنتاريا تفشت بينهم من جديد .. وسنعيد للقاهرة غدا جميع المصابين بأمراض سرية وبعض من يشكون الحمى . وجميع جراحى مستشفى الميدان مصابون بالرمد ، فيما عدا كبير الجراحين ... وكل ما تسلمناه من الـ ١٣٥ قنطارا من البسكويت الذى وعدنا به من القاهرة هو ٨٣ قنطارا .. والفرقة تشكو من العجز فى الأحذية . فأرجوك أيها الجنرال أن تأمر بارسال بعض الأحذية ، فالجنود يلقون عنتا كبيرا من اضطرارهم للسير حفاة على الرمال المحرقة » (١١) .

وفى ٢٤ سبتمبر دخل الأسطول بحر يوسف عند ديروط (*) . وكانت الملاحة شاقة جدا لأن هذا الطريق المائى كثير الانحناءات ، وكان مستواه قد بدأ فى الهبوط . وفى أول أكتوبر عادت الفرقة للبهنسا ، وهى تبعد نحو سبعين ميلا عن ديروط فى خط مستقيم . وبعد يومين تقابل الفرنسيون مع أول

(*) تركت عدة زوارق حربية لتجوب النيل ، وكذلك تركت الحملة وراءها الصنادل الكبيرة . أما بحر يوسف ، الذى سمى باسم الخليفة الذى له فضل شقه ، فطريق مائى بعضه طبيعى وبعضه صناعى ، يمتد نحو ٢٠٠ ميل طولا بموازاة النيل ، ويأخذ منه الماء من ديروط الى الفيوم . وهو مجرى قديم للنيل ، كما ظن دينون صوابا .

فصائل المماليك ، وأنزل ديزيه رجاله ، وأمرهم بالتقدم سيرا على الأقدام وهم يناوشون العدو فى الطريق • وأخيرا ، لحق بمراد فى ٧ أكتوبر ، وكان ينتظره فى دير سديمنت ، وهو أحد الأديرة القبطية على مقربة من اللاهون ؛

قدر ديزيه قوة مراد بنحو ٤٠٠٠ — ٥٠٠٠ فارس من البدو والمماليك • وبعد أن شكل الفرنسيون مربعهم المعهود وعلى جوانبه فصائل رماة البنادق ، ألقى فرسان مراد أنفسهم عليهم بسرعتهم وثقلهم المألوفين • كتب ديزيه الى بونابرت يصف المعركة فقال « وراقبهم جنودنا البواسل — وهم يقتربون — بغاية الهدوء • وصحت برماة الكتيبة الحادية والستين « هيا ، أطلقوا النار ! » فأجابوا « لن نفعل أيها الجنرال قبل أن يصبحوا على عشرين خطوة منا » (١٢) • ولكن على الرغم من رصاص البنادق ورش المدافع الذى انهال راسا على الفرسان ، فانهم حملوا على الفرنسيين بوحشية شديدة . فأحدثوا عدة ثغرات قوية فى المربعات الفرنسية • ودار بعد ذلك قتال فردى بين رجال الفريقين تقشعر لفظاعته الأبدان • وراح الجرحى والمحتضرون يطعن بعضهم بعضا • يقول دينون (نقلا عن شاهد عيان) « زحف أحد رجالنا ، وكان صريعا على الأرض ، صوب مملوك محتضر ، وقطع حلقومه • وسأله ضابط « كيف تستطيع أن تقتل هذا فى حالتك هذه ؟ » وأجاب الجندى « من السهل عليك أن تتكلم • أما أنا فليس أمامى غير بضع دقائق أعيشها ، وأريد أن أستمتع بها ما دام ذلك فى استطاعتى » (١٣) •

وبعد أن استمرت المعركة أكثر من ساعة ، فتحت أربعة مدافع أو خمسة — أخفاها المماليك خلف أحد التلال — نيرانها على الفرنسيين • ولولا أن ديزيه هجم على البطارية واقتحمها لتوه ، لكانت النتيجة كارثة محققة على الفرنسيين ، على أن ديزيه تردد لحظة ، لأن الهجوم معناه أن يترك الجرحى وراءه ، فيمثل بهم المماليك ويذبحونهم ما فى ذلك ريب ، ثم أمر بالهجوم • واضطر رجاله أن يطأوا الجرحى ، الذين راحوا يتوسلون الى رفاقهم أن يأخذوهم معهم أو يضربوهم بالنار • يقول الجنرال بليار فى يوميته « ان أحدهم غطى عينه بمنديله وأدار جسمه ووجهه الى الأرض انتظارا للموت ••• وأمسك جندى كان مجروحا جرحا مميتا رفيقا له بذيل سترته ، وأبى أن يفلته • واذ رأى هذا أنه مقتول لا محالة دون أن يكون ذا فائدة لرفيقه ، استل مديته وقطع ذيل سترته وترك الجريح الشقى فأجهز عليه المماليك » (١٤) • ولكن الهجوم نجح : فاستولى الفرنسيون عنوة على ثلاثة أو أربعة من مدافع العدو ، وفر المماليك والبدو المذهولون فى غاية الفوضى والخلل • ولم يكن المنتصرون فى حال تتيح لهم مطاردتهم ، فقد قتل منهم أربعة وأربعون وجرح مائة ، وقدرت خسائر المماليك بأربعمائة • وتقهقر مراد الى الفيوم •

قال الجنرال فريان الذى اشترك فى المعركة فى رسالة كتبها بعدها مباشرة تقريبا «أعتقد أن الجنرال ديزيه أبرد من الثلج بعشر درجات » (١٥) ٠

وسمح ديزيه لرجاله أن يستريحوا فى اللاهون ، وأجلى الجرحى ٠ ثم زحف الى الفيوم ـ تلك الواحة الأسطورية الخضراء ، التى خلبت تماسيحها المقدسة ، وبحيرتها الصناعية الهائلة ، ومعابدها ، ولابرنتها ، وغير أولئك من الأسرار الغامضة ، ألباب الناس منذ كتب هيرودوت عنها ٠ ولكن ديزيه لم يجد شيئا من هذه العجائب ، ولم يجد مرادا كذلك ٠ فقد عاد الى اللاهون بينما كان ديزيه يبحث عنه فى الفيوم ، وكان عائدا الى البهنسا حين عاد ديزيه الى اللاهون بعد أن غادرها بأربعة أيام فقط ٠ كتب ديزيه الى بونابرت يقول « كان يسرنى أن أواصل مطاردتهم ، لولا ما تنطوى عليه هذه المهمة من مشقات فى الظروف الحاضرة ٠ فالفيضان الذى يعزلنى عن القرى سيجعل من المستحيل على أن أجد طعاما للجنود ٠٠٠ أما القناة (بحر يوسف) فلم تعد صالحة للملاحة ، والمرضى فى الجيش يسببون لى ارتباكا شديدا ٠ ان الرمد وباء مريع حقا ، فلقد حرمنى من ١٤٠٠ رجل وفى مرات زحفنا الأخيرة كنت أسحب معى نحو ١٠٠ من هؤلاء التعساء الذين كف بصرهم تماما ٠٠ اننا فى الواقع عراة ، حفاة ، محرومون من كل شىء ٠ والجنود فى حاجة ماسة للراحة ٠ أعطنا اذن الأمداد والمؤن ، وسنمضى قدما ٠٠ فأى شىء تريدنى أن أفعل ؟ » (١٦) ٠

ووافق الجنرال بونابرت هذه المرة على أن الجنود فى حاجة الى الراحة ٠ فأجاب ديزيه بأن يدع مرادا وشأنه فترة ، وأن « ينظم » الفيوم ٠ (والتنظيم معناه جمع الضرائب ، ومصادرة الأغذية والخيل) ٠ وفى أواخر أكتوبر عاد ديزيه الى الفيوم ، التى كان مراد قد « نظمها » قبيل عودته ٠ وأحس الأهالى أن القوم أسرفوا فى تنظيمهم ٠ ففى ٨ نوفمبر ، بينما كانت كثرة رجال فرقة ديزيه خارج العاصمة ينظمون الاقليم ، اضطر نحو ٥٠٠ من الجنود ـ ثلثهم مرضى بالرمد ـ الى الدفاع عن العاصمة ضد آلاف من الفلاحين المسلحين ٠ وفقد الفرنسيون أربعة رجال ، وقتلوا نحو ٢٠٠ ٠ ولم يحل ٢٠ نوفمبر حتى أخلى ديزيه الفيوم ، بعد أن نظمها تنظيما شاملا ٠ ولم يترك بها حامية ولا ديوانا اقليميا ٠ ثم استقرت فرقته فى بنى سويف على النيل انتظارا للأمداد ٠ أما هو فذهب الى القاهرة ليستوثق من الحصول على مطالبه ٠ وكان مراد فى هذه الأثناء يكتب لشتى زعماء القبائل فى شبه جزيرة العرب عبر البحر الأحمر ، ويشرع فى تنظيم الصعيد ٠

وبينما كان رجال ديزيه يطاردون مرادا ذهابا وجيئة بين الفيوم وأسيوط ، كلف الملازم ديفرنوا من سلاح الفرسان بمهمة لا تقل عن هذه عسرا ، ولكن تبين أن أداءها كان أقل عناء ٠

ذلك أن مرادا كان يعتمد اعتمادا كبيرا على القبائل البدوية في اقليم بني سويف وبقربه ليسهلوا له مواصلاته ، ويخفروا قوافل أمداده وأمتعته ، ويعززوا قواته . لذلك كان من المهم اقناع القبائل المختلفة بأن يصبحوا حلفاء للفرنسيين . واختار بعضهم في مقر القيادة اللازم ديفرنوا للقيام بهذه المهمة الدبلوماسية الحساسة . وغادر ديفرنوا القاهرة يرافقه حرس من فارسين من الهوسار (الخيالة الخفيفة) وشيخ بدوي وابنه ، وركب في الصحراء ، وزار ثلاثا وعشرين قبيلة في تسعة عشر يوما ، وأنفق في رحلته وقتا ممتعا جدا وفاته أن يقول لنا هل وقع معاهدات صداقة كثيرة أم لم يوقع ، ولكن ما من شك في أنه كسب أصدقاء شخصيين كثيرين .

ومع أن حارسيه البدويين ضمنا له سلامته ما دام في رعايتهما ، فقد كان محقا في أن يكون شديد الحذر حين بدأ رحلته . فقد ظلت واقعة يرويها في مذكراته (وتؤيدها المصادر المستقلة) حية جدا في ذاكرته ، وخلاصتها أن ضابطا شابا من ضباط أركان الحرب يدعى دينانو أمسكه البدو حين كان الفرنسيون يزحفون الى القاهرة . وأعطى مبعوث بونابرت لشيخ القبيلة مائة قرش فدية لدينانو . وأغلب الظن أن هذا المبلغ كان أكبر مما ألف رجال القبيلة أخذه ، فتضاربوا أمام المبعوث لاختلافهم على توزيعه ، وهو أمر كثير الحدوث بين البدو . ولكن الغريب تصرف الشيخ بعد ذلك . فقد استل طبنجته من حزامه ورمى السجين برصاصة فقتله ، ثم رد القروش المائة للمبعوث . وكان الحكم كأحكام سليمان — ان كان له في أحكام سليمان شبيه . ولا ريب أن القصة كانت ماثلة في ذهن ديفرانوا ، ولكنه سرعان ما تبين أن نزول المرء ضيفا على البدو يختلف كل الاختلاف عن كونه رهينة . يقول : « أينما ذهبت أتيح لي أن أستمتع بالعطف والرعاية اللذين أغدقهما على شيوخ البدو ونساؤهم وبناتهم » (١٧) .

ولا تضيف قصة ديفرنوا الى معلومات علماء السلالات جديدا ، ولكنها تجربة لطيفة تناقض تلك التجارب المروعة التي مر بها رفاقه في فرقة ديزيه . كذلك يتبين لنا من هذه القصة أنه كان من أكثر رجال بونابرت قدرة على التكيف . يقول « مهما اختلفت القبائل التي زرتها ، فانني كنت أشارك في ملاهي أولئك البدو . فأجلس الى جوار الشيخ وأبنائه وأسر كل السرور بطعامهم وقهوتهم . وكان يحجز لي وللفارسين اللذين رافقاني ركن في خيمة شيخ القبيلة ليل نهار لنستريح فيه . وتعكف النساء والفتيات على حلب الغنم وصنع الجبن أو عمل الفطير ، ويضطلعن بطهي الطعام وتقديمه . ويضعون بطانية بسيطة من صوف الغنم أو وبر الجمل لتفصل في النهار بين مكان النساء والرجال ، ولكنها ترفع في الليل فيختلط الجنسان ، في الأسرة الواحدة فقط . وقد نمنا في خيام كثيرة ، ولكنا وجدنا هذه العادات ذاتها في كل مكان .

وكان النسوة والفتيات يغنين أكثر الوقت ، وكن مرحات ، متحررات في النظر الى ملابسنا وأشخاصنا • وقد رغبن كثيرا في ازالة شعرنا من فوق المعدة وغيرها من المواضع التي لا يزيله منها الغربيون عادة ••• ويجب أن أضيف أن كثيرات منهن كن غاية في الجمال وحسن الخلقة ، وأن لهن عيونا ساحرة » (١٨) • واذا كان هذا الوصف لا يضيف كثيرا الى معلوماتنا عن أسلوب حياة البدو ، فانه يعطينا فكرة طيبة عن أسلوب حياة ديفرنوا • وقد كوفيء على خدماته حين عاد من مهمته ، فرقي الى رتبة الكبتن في ٢١ نوفمبر • وبعد أسبوعين ألحق هو وألف من الفرسان بفرقة الجنرال ديزيه • وفي طريقه الى بني سويف وقف بأهرام الجيزة • وهناك كشف عن جانب مختلف من جوانب شخصيته • فليس كان الفرنسيين يقدرون جمال المرأة الشرقية ، ولكن كل فرنسي تقريبا يقدر جمال قطعة من النحت أو التصوير • وقد أرى بعضهم ديفرنوا نقوشا بارزة بديعة في بعض المقابر القريبة من الهرم الأكبر ،وكانت تمثل شتى الأعمال الريفية مرسومة بما امتازت به خطوط الفن المصري القديم من نقاء ودقة ونظام عجيب • ويعقب ديفرنوا على هذه النقوش بقوله « ان ما يستحق الاعجاب أكثر من كل شيء هو الدقة التامة في تصوير أصغر التفاصيل ••• لقد هزت هذه المناظر الرائعة مشاعري هزا قويا بحيث ما زالت ذكراها عالقة بذهني بعد خمسين عاما » (١٩) • لا بأس ، من فارس بفرقة الهوسار •

***

في ٨ نوفمبر ، وهو اليوم الذي عاون فيه ١٥٠ من الفرنسيين الذين عشيت أبصارهم في الدفاع عن الفيوم ، غادر الجنرال بليار الجيزة بكتيبة أرسلها بونابرت ليعزز بها قوة ديزيه • وكان عليه بعد أن ينضم الى ديزيه أن يستأنف قيادة نصف لواء المشاة الخفيف الحادي والعشرين ، وهو احدى وحدات ديزيه التي اضطر الى تركها مؤقتا بسبب اصابة شديدة بالرمد • ووصل الى « الزاوية » في اقليم بني سويف في ١٣ نوفمبر ، وغادرها بعد أسبوع الى بني سويف (*) • وبينما كان في الزاوية لحق به كهل من المدنيين يبلغ الحادية والخمسين ، وكان رحالة عنيدا فاق في حيويته أي محارب من الخيالة أو الرماة – ذلك هو فيفان دينون ، الذي كان يوما ما فتى محبوبا في فرساي أيام لويس الخامس عشر ومدام دباري • ومكث دينون مع نصف اللواء الحادي والعشرين تسعة أشهر ، وفي أثناء مغامراتهما المشتركة كشفا لأوربا مفاخر المعمار والنحت المصريين •

(*) لم يستطع المؤلف تحديد موقع الزاوية اليوم أو في الماضي • ولعلها الشنوية ، وهي قرية تظهر على الخرائط ولكن لا يلحظها أي شخص يمر بها •

كان دينون منذ وصوله الى القاهرة من رشيد يلاحظ المناظر المحلية ويدون المذكرات ويرسم ، ويزور الأهرام وأبا الهول ويرسم ، ويحضر جلسات المجمع العلمي ويرسم ، ويشارك تقريبا في القتال أثناء ثورة القاهرة ويرسم • وقليل من الرجال ، في أي عصر من العصور ، كانوا يرقبون ما حولهم بعيون مفتوحة كدينون •

وهو فيما يعلم المؤلف الرجل الوحيد الذي وفق في أن يصف بالألفاظ جمال الأهرام وأبي الهول ، وهي آثار لا تروع معظم الناس الا بضخامتها فقط • يقول عن الأهرام كما تلوح للناظر من بعيد « وددت لو استطعت تصويرها في تلك الألوان الشفافة المصفاة التي تدين بها لذلك القدر الهائل من الهواء المحيط بها ••• والبعد الشاسع الذي يمكن أن ترى منه يجعلها تبدو شفافة تلونها زرقة السماء بلون خفيف وترد اليها ما أفسدته القرون من كمال الزوايا ونقائها » (٢٠) • فأما أبو الهول ، الرواغ الجمال على أحسن تقدير ، فقد سجله دينون بألفاظه خيرا من ريشته : « ومع أن نسبه هائلة ، فان الخطوط التي ظلت باقية الى اليوم تمتاز بالليونة كما تمتاز بالنقاء : وتعبير الوجه رقيق جميل هادىء ••• والفم ذو الشفتين الغليظتين يتسم في انسيابه بشهوانية وفي تنفيذه برهافة جديرتين بالاعجاب ، فهو لحم ينبض بالحياة • ولو شعر انسان بأن هذا الرأس ينقصه ما اصطلح على تسميته بالأسلوب ـ أعني الأشكال المستقيمة المتكبرة التي أضفاها الاغريق على تماثيل آلهتهم ، لما كان في هذا الشعور انصاف للبساطة ، ولا للمسة الطبيعة الرائعة الرقيقة ، اللتين تنتزعان الاعجاب في هذا التمثال » (٢١) •

على أنه كان أقل تقديرا للموسيقى والرقصات العربية ، ولكن قدرته على الوصف تحتفظ بمستواها الرفيع حين يذكر الاحتفال بمولد النبي يوم شهده برشيد • يقول ان ضيوف الشرق الفرنسيين دعوا بعد العشاء الى حفلة شعبية اتخذ الشارع مسرحا لها بعد أن أضيء بالمصابيح والشموع الكبيرة • « وكان في جانب منه فرقة موسيقى عسكرية تتألف من مزامير قصيرة ذات صرير ، ودفوف ، وطبول ألبانية كبيرة ، وفي الجانب الآخر الرباب والمغنون ، وفي الوسط الراقصون الأروام ، والخدم يطوفون بالقهوة والشربات وماء الورد والنراجيل » • وبعد أن وصف دينون تناوب الأغاني والمردات والموسيقى « المصرصعة » التي ترافقها ، قال : « وزاد صوت أخن منبعث من مغن ملهم تلك الشهوانية الرتيبة التي أوحت بها أنصاف الأنغام الصادرة من الربابة ، والتي كانت دائما تتجنب القرار وتعزف على الوتر الثاني وتنتهي دائما على الوتر الثالث كأنها أغنية اسبانية من نوع « السيجويديلا » : ولعل في هذا ما يدل على أن احتلال المسلمين لأسبانيا وطن فيها هذا النوع من الموسيقى ••• وكانت الرقصة التالية شبيهة بالأغنية • فهي لا توحي بفرح ولا انشراح ،

بل بشهوانية سرعان ما تحولت الى دعارة ، زادها بشاعة أن الراقصين ــ وهم من الرجال دائما ــ يعبرون فى تبذل كثير عن مناظر لا يسمح بها ، حتى الحب بين الجنسين ، الا مستورة بستار الظلام » (٢٢) · كذلك كان دينون : فيه مسحة من العجب ، ومسحة من الخيال الشعرى ، ولكنه أبدا قوى الملاحظة واضح العبارة ، ومن الصعب أن نقول من غيره كان أجدر بهذه النشوة التى أحسها لكونه أول أوربى ، خلال ألفى عام ، أتيح له أن يتأمل عن كثب عجائب آثار الكرنك والأقصر ·

وبعد أن وصل دينون الى الزاوية تلقى عرضا من الجنرال بليار بأن يشاركه مسكنه · يقول دينون ان هذا كان أشبه بقسمة الذرة : فمسكن بليار من الصغر بحيث يقتضى وضع مائدة فى الغرفة رفع الفراشين أولا ، فاذا أرادا الاغتسال وارتداء ثيابهما وجب رفع المائدة · وفى الليلة الثانية انهار المطبخ والاسطبل · ولا عجب فالبيت كله من الطوب الأخضر ، ولكنه كان خير بيوت القرية · على أن كلا الرجلين كان لحسن الحظ مرحا محبا للدعابة ، والا لكانت هذه بداية سيئة لعشرتهما التى دامت تسعة أشهر · يقول دينون : « أرجو أن يكون بليار محتفظا لى بذكرى طيبة كتلك التى تركتها فى نفسى رقته وهدوء طبعه وظرف خلقه الذى لا يتأثر بالأحداث » (٢٣) (*) ·

كان بليار ودينون فى بنى سويف مع بقية فرقة ديزيه حين عاد ديزيه من القاهرة ووجد أن مددا من ٨٠٠ جندى قد وصل قبله ، وفى ١٠ ديسمبر انضمت الى مشاته البالغ عددهم ٣٠٠٠ كتيبة من الفرسان قوامها ألف رجل ظل ديزيه يلح فى طلبها شهورا ، وقد انتزعها من بونابرت انتزاعا تقريبا ، وكان يقود الفرسان الجنرال دافو ، الذى رقى بعد ذلك مارشالا للامبراطورية ، والذى دحر الجيش البروسى فى آورشتات ١٨٠٦ · كذلك أعطى ديزيه مزيدا من قطع المدفعية الخفيفة ، والجرايات ، وغير ذلك من المؤن · وفى ١٦ ديسمبر بدأت فرقته زحفها الذى امتد بها وراء أسوان ، أما أسطوله النهرى الذى تخلف عن الجيش بعد قليل ، فقد أقلع فى ذات الوقت تحت قيادة الكابتن جيشار · وكان يركب الى جوار ديزيه رجل فذ ، لولا لباقته وكفايته وشجاعته لما استطاع ديزيه ــ فى أغلب الظن ــ أن ينال ما نال من أمجاد النصر رغم عبقريته كلها · وذلك هو المعلم يعقوب القبطى ، الذى كان من الناحية الرسمية منوطا بجمع

(*) ان المقارنة الدقيقة بين رواية دينون ويومية بليار التى لم تنشر ، تدلنا بجلاء على أن بليار وضع يوميته تحت تصرف دينون ليستعين بها فى تاليف كتابه · وكثير من ملاحظات دينون ليس سوى شرح لمذكرات بليار ، التى لم يكتبها باسلوب أدبى كاسلوب دينون · لذلك لا يمكن استعمال المصدرين ليثبت أحدهما الآخر · ومن حسن الحظ أن قدرة بليار على الملاحظة كانت تعدل قدرة دينون ، ولكن من الأسف أن دينون لم ير أنه يخلق به الاقرار بفضل بليار ·

الضرائب فى مصر العليا ، ولكنه كان فى الواقع شريكا لديزيه فى قيادة حملته. وكان المعلم يعقوب ، بن يوحنا ومارية غزال ، الذى كان اذ ذاك فى مستهل عقده الخامس ، أصلح مستشار لحملة توجه ضد مراد ، الذى كان يعقوب يعرفه جيدا لأنه اشتغل من قبل ناظرا لدائرة زميل لمراد يدعى سليمان بك . كان خبيرا بطبيعة البلاد وبأهلها ، وله فى كل مكان صلات ، وفيه دهاء وحسن سياسة لا تجد لهما نظيرا حتى فى الجباة الأقباط . وكان يتسم بصفة نادرة بين قومه — هى الشجاعة والكفاية الحربيتان . وكان أهل الصعيد يسمون فرقة ديزيه « جيش المعلم يعقوب » . ولو وقع هذا لقائد غير ديزيه لبرم به ، ولكن ديزيه ، المغرم بالتخفى ، رأى ما فى هذا الخطأ من فوائد ، ولم يفعل شيئا ليثنى الناس عنه . والواقع أنه ما من قرار اتخذه ديزيه خلال حملته كلها دون أن يستشير « القبطى » . وهو لقب يعقوب فى الجيش . ولما غادر بونابرت مصر وأنشىء فيلق قبطى فى الجيش الفرنسى ، أصبح المعلم يعقوب قائده .

٣

بلغت الفرقة فى أول مرحلة للزحف بلدة الفشن الواقعة على النيل . وفى أول وقفة لها عند احدى القرى وقعت لها حادثة من الحوادث المؤسفة التى تكشف عن حقيقة الحرب أكثر من أى وصف للمعارك وما يراق فيها من دماء . وقد سجلها دينون وبليار — دينون فى كتابه بشىء من الفضفضة الأدبية ، وبليار فى يوميته بغاية القصد — والى القارىء ما كتبه بليار : « فى أثناء وقوفنا تسلل غلام صغير الى حيث كان أحد فرساننا نائما وسرق بندقيته . ولاحظ فارس آخر فعلة الغلام فجرى خلفه ، وجرى الغلام بأسرع ما يستطيع وهو يخفى السلاح تحت جلبابه . ولم يقف الا بعد أن أصابه الجندى بجرح سيف فى ذراعه . وجىء به أمام الجنرال ديزيه فاستجوبه . فأجاب وهو يتطلع الى السماء بأن الله أمره أن يسرق ، وأن لديزيه أن يفعل به ما يشاء . ثم خلع طاقيته وأعطاها للجنرال وطلب اليه أن يفصل فى مصيره . وظل طوال الوقت هادئا هدوءا عجيبا وأبدى قوة خلق نادرة . أما الجنرال فقد راعى صغر سنه وخضوعه لحكمه ، ثم حكم عليه بثلاثين جلدة . وانحنى الغلام طواعية وتلقى الجلدات على ظهره دون صوت أو دمعة . وعمره يتراوح بين الثامنة والعاشرة ، وهو حلو الصورة . ولو أتيح له بعض التعليم لتقدم كثيرا » (٢٤) .

***

وصل الفرنسيون الى أسيوط فى عيد الميلاد ، بعد أن زحفوا بمعدل خمسة وعشرين ميلا الى ثلاثين فى اليوم . ولم يجدوا مرادا كما أملوا ، ولكنهم وجدوا أسطوله ، واستولوا عليه . وهنا ، وبعد مسيرة تسعة أيام فقط ،

أخذت نعالهم تتهرأ ، وبلغ عدد المرضى فيهم ٢٠٠ · كذلك كانوا يعانون من شدة البرد ، فالشمس حامية فى النهار ، ولكن الصقيع ينزل فى الليل ·

وكان مراد ، وهو يسبق الفرنسيين بيوم واحد فقط ، ينتقل خلال ذلك من قرية الى قرية ليجمع الميرى · ولم يكن دائما يلقى الترحيب ، لا سيما فى المدن والقرى التى تكون فيها غالبية الأهالى من الأقباط ، وهم أكثر عددا فى مصر العليا والوسطى منهم فى مصر السفلى · يقول بليار فى يوميته : « علمنا أن المماليك اشتبكوا فى معركة مع أهل صنبو · فقد طلب المماليك ضرائب باهظة وماشية وجمالا ، فرفض الأهالى · ونشب القتال بينهما ، وقتل من الفلاحين ثمانون ، وفقد المماليك ثمانية رجال منهم خازن مراد ··· ونهبت القرية ··· وقد أرسلت وفدا للجنرال ديزيه تطلب حمايته » (٢٥) ·

ولكن أية حماية كان فى استطاعة ديزيه أن يمنحها اياهم ؟ لقد كان هو أيضا مضطرا لفرض ضرائب ، والاستيلاء على الماشية والجمال والخيل ، ثم المضى قدما ليخلفه المماليك فى الغالب · وكانت توسلات القرويين أن يعفوا من الضرائب لأنهم دفعوها فعلا لمراد تلقى فى مقر القيادة بالقاهرة الرفض بلا استثناء · ومع أن كثيرا من القرى المصرية دفعت الميرى المفروض عليها مرتين فى تلك السنة ، فان السلطان سليم الثالث ، الذى كان الفريقان يجمعانها باسمه ، لم ير منها قرشا واحدا · وبعد أن لاحظ دينون هذه العمليات المالية عدة أسابيع بدأ يرثى « للأهالى ، الذين أتينا الى مصر لنحقق لهم الرفاهية ·· ذلك أنهم اذا أكرههم الخوف على ترك قريتهم عند اقترابنا منها ، ثم عادوا اليها ، لم يجدوا فيها سوى الطين الذى بنيت به حيطانهم · فأدواتهم ، ومحاريثهم وأبوابهم ، وسقوف بيوتهم — كلها كانت تستعمل وقودا لطهى حسائنا · وقدورهم تكسر ، وقمحهم يؤكل ، ودجاجهم وحمامهم يشوى ·· وأينما وقفنا بقرية أمرنا هؤلاء البؤساء بالعودة ، والا عوملوا معاملة العصاة أو حلفاء الأعداء ، وأكرهوا على دفع الضريبة مضاعفة · فاذا أذعنوا للتهديد وجاءوا ليدفعوا الميرى، كان رجالنا يخطئونهم أحيانا بسبب كثرة عددهم وما يحملون من عصى ، فيحسبوهم جماعة من الزعاع المسلحين ، وفى هذه الحالة تطلق عليهم دورياتنا النار دون تردد ، قبل أن يتسع لهم الوقت لبيان غرضهم · ثم يدفن موتاهم ونظل أصدقاء حتى يجدوا الفرصة للثأر دون أن يتعرضوا للخطر · صحيح أنهم لو ظلوا فى قريتهم ودفعوا الميرى ··· لوفروا على أنفسهم مشقة الرحلة الى الصحراء ، وتمتعوا بمشاهدة طعامهم يؤكل بطريقة منظمة ، وتلقوا نصيبهم منه ليأكلوه ، واحتفظوا بأجزاء من أبوابهم ، وباعوا بيضهم للجنود ، واغتصب من أزواجهم وبناتهم عدد أقل : ولكن هذا كان يعد جريمة تعاون معنا ، فاذا عاد المماليك بعد رحيلنا لم يتركوا لهم قرشا ولا حصانا ولا جملا ، وكثيرا ما كان عمدة القرية يدفع حياته ثمنا لتحيزه المزعوم لنا » (٢٦) ·

فليقارن دافعو الضرائب ، الذين يرثون لأنفسهم ، متاعبهم بمتاعب الفلاحين المصريين في عام ١٧٩٨ ! ولكن الفلاحين كانوا قد ألفوا هذا الضرب من المعاملة آلاف السنين ، واذا كانت أربعون قرنا من التاريخ تطل على أحد ، فانما على هؤلاء الفلاحين ، وتطل عليهم في اشفاق ، لا على المماليك المتعجرفين ، أو الفرنسيين الباحثين عن أمجاد الحرب • ومع ذلك كان هؤلاء الفلاحون في حرب لا تكاد تضع أوزارها مع القرى المجاورة ، كأن هذه المتاعب لم تكن كافية ، وهي حرب يثيرها جدي مسروق أو ترعة متنازع على مائها ، الى غير ذلك من المبررات والأسباب • وكانت معاركهم تنتهي دائما بموت عدد منهم • وتستطيع أن تعرف حكومة مصر يومئذ ، سواء المحلية أو المركزية ، بأنها فوضى تزيد الايجارات والضرائب سوءا على سوء • وقد أتيحت الفرصة مرة « للسلطان العادل » (الجنرال ديزيه) عقب رحيله عن أسيوط ألا يشن الحرب أو ينهب القرى ويسلبها ، بل يعيد السلام الى ربوعه بين قريتين مقتتلتين • يقول بليار انه واجه الشيخين أحدهما بالآخر « وشرح كل منهما قضيته ، فوزن ما له وما عليه بميزان العدل والقسطاس ، وانتهى الرجلان ، اللذان كانا يريدان قبل نصف ساعة أن يفتك الواحد بصاحبه ، بتقدير ما فاه به الفاتح من أفكار وآراء حكيمة ، أو أوامر أصدرها اليهما ، ثم انصرفا صديقين • وكان ذلك يوما سعيدا ••• » (٣٧) ولسوء الحظ لم يكن هناك « سلطان عادل » يقوم بمثل هذه المهمة لرؤساء دول أوربا •

***

يبدأ وادي النيل يضيق عند أسيوط • ولا تنبسط الأرض المزروعة ، المحصورة بين سلسلتين رهيبتين من الجبال ، أكثر من عشرة أميال ، وقد تعرض قليلا أو يزداد ضيقها كثيرا • ووجد الفرنسيون في هذا الاقليم رخاء لم يجدوه في مصر السفلى • فالحقول والبساتين وأدغال النخيل يانعة مخدومة ، والطرق والترع أحسن حالا • ولكن الحرب خلفت آثارها في كل مكان • فقد زار دينون ديرا قبطيا بنته القديسة هيلانة أم قسطنطين الكبير ، وأحرقه رجال مراد في اليوم السابق لزحف الفرنسيين مارين به • وكان الرهبان قد فروا ولم يتركوا الا نفرا قليلا من الاخوة العلمانيين ، يذكر دينون أنهم « كانوا يلبسون أسمالا ، وما زالوا يعانون من الصدمة التي أصابتهم من أهوال البارحة » • وكان جانب من الستر الخشبي العتيق القائم في مكان المرتلين قد لفحته النيران : « ومع ذلك فقد أكرهت الضرورات الملحة ، لحرب ملحة ، رجالنا على أن يزيلوا كل شيء حتى الأطلال التي خلقتها الكارثة ، وآثار التخريب الذي كنا نحن السبب فيه » (٣٨) •

كان مراد يباهي أينما ذهب — فيما نما الى المعلم يعقوب — بأنه سينتظر الفرنسيين في جرجا لينازلهم ، وكانت يومها أهم مدن مصر العليا • فلما وصل

ديزيه الى جرجا تبين له أن مرادا غادرها في الليلة الماضية • واضطر ديزيه للتوقف على ما به من شوق لمواصلة الطراد • ذلك أن الريح البحرية ركدت ، فتخلف عنه أسطوله النهرى • ولما كانت السفن تحمل مئونة الفرقة ، لم يكن بد من انتظار وصولها قبل المغامرة بالزحف الى الجنوب مسافة أبعد •

ونجم عن هذا التأخير نتائج خطيرة ، بل فتاكة بكثير من رجال الحملة • ذلك أن مراد بك أبدى — خلال الأسابيع الثلاثة التى مكثها الفرنسيون فى جرجا — وهو معسكر على نحو خمسة وثلاثين ميلا الى الجنوب ، نشاطا فاق حتى نشاطه المألوف ، فجمع جيشا من ١١٫٠٠٠ فارس و ٣٠٠٠ من المشاة • وكتب لخصمه اللدود حسن بك ، وكان أميرا من أمراء المماليك يحكم اسنا ، واقنعه بأن يدفنا خصومتهما : فأتى حسن بأربعمائة مملوك من مماليكه وانضم الى مراد بمماليكه البالغين ١٫٥٠٠ • وكان مراد قد كتب لشريف ينبع وشريف جدة — على ساحل الحجاز المطل على البحر الأحمر — يطلب اليهما جلب المحاربين ليعاونوه فى جهاده مع الكفار ، وكان عماله فى النوبة يشترون العبيد ليجندوهم فى جيشه ، ومبعوثوه فى طول الصعيد وعرضه ، من أسوان الى أسيوط ، يحملون الرسائل لتحريض الفلاحين على أن يقتلوا هذه الحفنة من الغزاة الفرنسيين ويغرقوهم فى حمام من الدم • واستعان فى حربه حتى بالأطفال ، فكان الصبيان فى جرجا يسرقون أسلحة الفرنسيين بالعشرات •

كان أرهب أمداد مراد هم المقاتلون العرب القادمون من الحجاز ، الذين عبروا البحر الأحمر بالألوف • وقد زعموا كلهم أنهم من سلالة الرسول ، وكانوا يلبسون العمائم الخضراء ، ويحملون البنادق والسيوف والرماح والخناجر ، وفى خلقهم صلابة تنطق بها وجوههم • وقد تبين أن كثيرا منهم من الحجاج المغاربة الذين التقطوا بسرعة فى الطريق ، ولكن أكثرهم — وأشدهم تعصبا بالطبع — عرب خلص من شبه الجزيرة • ومع أن شريف مكة لم يشجعهم بالضبط على الانضمام الى مراد ، فانه لم يفعل شيئا ليثنيهم • وقد أرسل فى الوقت ذاته الرسائل الودية لبونابرت ، لأن موارده كانت تعتمد الى حد كبير على ما يصدره من البن الى مصر •

وتجمع الروايات على أن « المكيين » أو « أشراف ينبع » كما سماهم الفرنسيون ، هؤلاء المقاتلين ذوى الجلود البرونزية والأجساد النحيلة ، كانوا مصداقا لحكم بونابرت على العرب : « ان ضراوتهم لا يعدلها الا انحطاط مستوى معيشتهم ، لأنهم معرضون أبدا للرمال الساخنة والشمس المحرقة ، محرومون من الماء • لا رحمة فى قلوبهم ولا عهد • فهم صورة مجسمة للرجل المتوحش كأبشع ما يتصوره العقل » (٢٩) • وكان هؤلاء الرجال من سلالة أسلافهم ، الذين فتحوا نصف العالم قبل أحد عشر قرنا • وقد جاءوا فى عام ١٧٩٨ ليقاتلوا الفرنسيين الكافرين بنفس الايمان •

وكان لمراد حذق رهيب في الحصول على أمداد لا حصر لها لاشباع نهم الحرب • كان يقنع الفلاحين ، الذين لم يكد يفرغ من ابتزاز مالهم ، بأن الفرنسيين هلك منهم كثير ، وأنهم معزولون مقضي عليهم بالهلاك ، وأن مهاجمتهم لا خطر فيها • ثم يضع الفلاحين حاجزا بينه وبين الفرنسيين ، ويرقبهم وهم يذبحون ، ويعتبره كسبا له ان قتلوا فرنسيا واحدا مقابل كل مائة يقتلون منهم ، وبدلا من أن يخف لنجدتهم ينطلق كالسهم الى مكان آخر ، ليبدأ هذه المناورة نفسها من جديد • ولا يعلم أحد على التحقيق ما الذى وعد به حسن بك ، ولكن لابد أنه أجزل له الوعود •

ونزلت كل الأمداد العربية فى ثغر القصير الصغير • واتفق أنه حين وصلت أول قوة عربيـة ، كان بونابرت قد أرسل لتـوه أسطولا صغيرا من السويس ليحتل القصير • ووصل الأسطول الفرنسى والأسطول المكى فى وقت واحـد ، وهو اتفاق ما كان فى استطاعة بونابرت أن يتكهن به • وضرب الأسطول الفرنسي ضربا شديدا ، وقفل راجعا الى السويس ، واختتم قائده تقريرا راجيا ألا يرسل مستقبلا فى مهام مستحيلة التنفيذ كهذه المهمة •

***

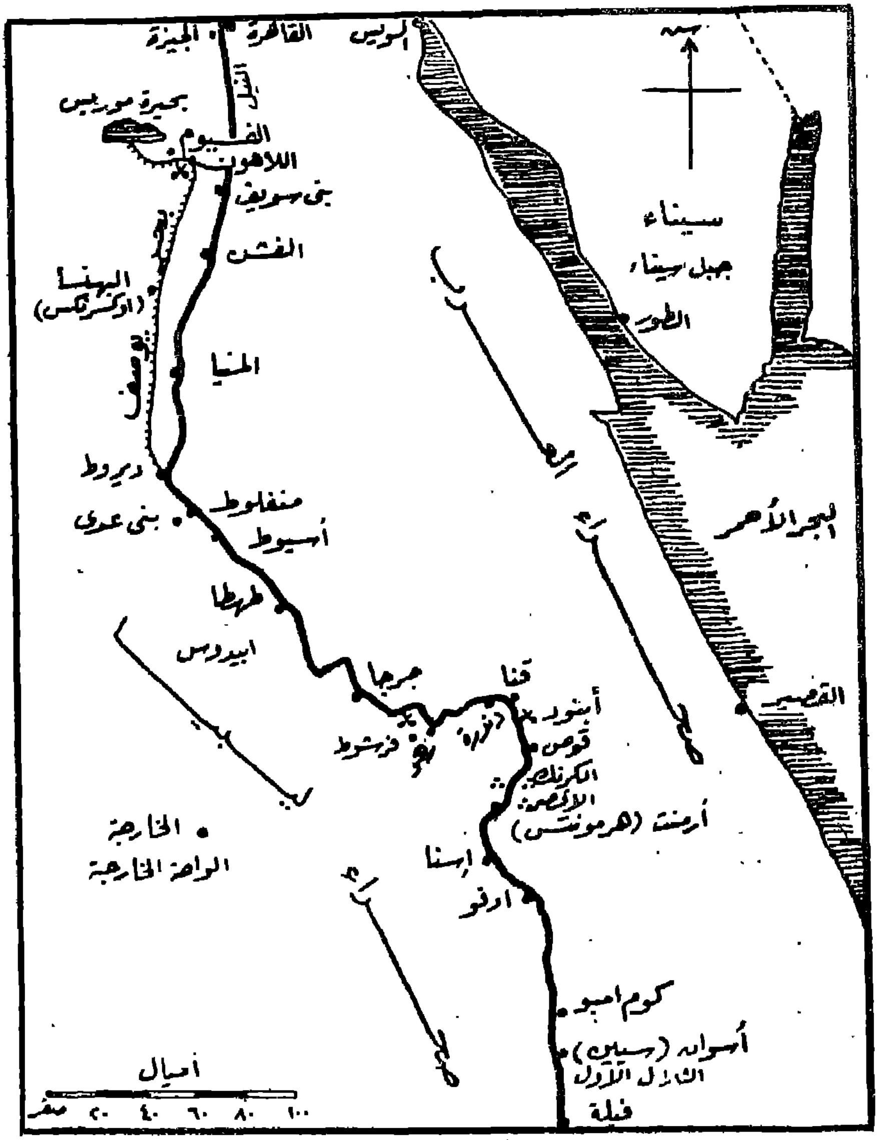
بينما كان مراد يجمع قواته فى هو ، على مسيرة يومين الى الجنوب ، كان الفرنسيون ينتظرون فى جرجا ظهور الكابتن جيشار بأسطوله النهرى وهم يزدادون كل يوم غيظا • ولكنهم كانوا على الأقل يستطيعون أن يعزوا أنفسهم بوفرة الطعام ورخصه • فقد كان ثمن الاوزة معادلا لشلنين تقريبا ، وثمن الدجاجة شلنا ، وثمن البيضات الست ، أو الحمامة ، نصف شلن • يقول بليار فى يوميته : « لم نجد قط بلدا فيه الطعام أرخص ••• وقد يظن المرء لأول وهلة أن هذه الأسعار الرخيصة للأغذية معناها الفقر • ولكن اذا مكث أربعة أو خمسة آلاف جندى فى مدينة عشرة أيام دون أن ترتفع الأسعار ، فلابد أن السبب هو وفرة الأغذية » (٣١) • منطق صائب أيها الجنرال ! ومع ذلك فلم كان الفقر واسع الانتشار رغم هذه الوفرة كلها ، وهذا الرخص كله؟

ورفه الفرنسيون عن أنفسهم ببعض الملاهى ، فضلا عن أكل الحمام بسعر ستة بنسات للواحدة بدلا من بسكويت الجراية ، ولم تكن كل هذه الملاهى فجورا بالنساء • فهم يستمعون مثلا الى الرواة العرب يتلون القصص العجيبة يترجمها لهم ترجمان جملة جملة • وفى عشية رأس السنة وصلت القافلة السنوية القادمة من النوبة • وتعشى أخو قائد القافلة مع الجنرال ديزيه • يقول ديزيه : « كان مرحا ، حار العاطفة ، ذكيا ••• وهو أشد سمرة من البرونز ، وله عينان جميلتان » • وقال انه عائد لتوه من رحلة الى مكة والهند استغرقت عامين ، وان له ثمانين أخا كلهم أمراء ، وكلهم أبناء لسلطان دارفور •

وكانت قافلته المؤلفة من ٢٠٠٠ جمل تحمل للقاهرة سن الفيل ، وتبر الذهب ، والسنا (مكى) ، والتمر الهندى ، والعبيد ، والجوارى السود • وأدارت هذه الأنباء رؤوس الفرنسيين ، فخطرت لهم هم أيضا خواطر نفذوها بعد أسابيع قليلة • وانهالت أسئلتهم فى الوقت نفسه على الأمير الأسود • فكم يكلف العبد الزنجى تجار العبيد ؟ وأجاب الى المرأة تكلف بندقية ، والرجل بندقيتين • وهل توجد حقا مدينة تسمى تمبكتو ، « تلك المدينة الشهيرة التى ما زال وجودها لغزا يحير أوربا ؟ » (٣٢) فقال انها موجودة يقينا ، على رحلة ستة أشهر من دارفور صوب الجنوب الغربى ، وقال ان تجار دارفور يختلفون اليها بانتظام ، ويبيعون البضائع التى يشترونها من القاهرة للأهالى (وهم « غاية فى ضآلة الجسم ولطف الطبع ») ، ويأخذون ثمنها تبرا • وأضاف الأمير فى رواية دينون (الذى يقسم أن القصة كما سردها منقولة عن حديث الأمير كلمة كلمة) أن أمام أوربا سوقا هائلة لبضائعها فى أفريقيا ، وأننا نحن (أى الأوربيين) سنلقى الترحيب اذا استعمرنا أفريقيا ، وأننا ان فعلنا لم نلحق أى ضرر بتجارتهم ، وأننا سنربطهم بمصالحنا عن طريق تزويدهم بما يحتاجون اليه » (٣٣) • ويخيل الينا أن هذا الكلام أيضا لم يقع على آذان صماء ، ومصداق هذا تاريخ القرن التاسع عشر •

وهكذا انقضت الأسابيع الثلاثة فى جرجا • يقول بليار مسجلا هذه الفترة :« فى كل مساء ندعى (نحن ضباط أركان الحرب) الى حفلة فى بيت الجنرال ، فنقضى ساعتين لطيفتين بين الأصدقاء ، نتحدث ونناقش شتى المسائل التى تهمنا فى كثير أو قليل » (٣٤) • وأخيرا وصل المواطن جيشار بأسطوله فى ١٩ يناير ، وراحت الفرقة الموسيقية العسكرية تعزف من فوقه الألحان الفرنسية المرحة ، وبعد يومين غادرت جرجا فرقة ديزيه ــ المؤلفة من ٣٠٠٠ من المشاة ، و ١٠٠٠ من الخيالة ، وفى اليوم التالى (٢٢ يناير) تلقاهم مراد فى سمهود بجيش قوامه ٣٠٠٠ من المشاة ، و ٧٠٠٠ من الفرسان العرب القادمين من الصعيد ، و ٢٠٠٠ من « المكيين » المشاة يقودهم الشريف حسن حاكم ينبع ، و ٢٠٠٠ من المماليك • وكانت هذه هى الفرصة التى ظل ديزيه يحلم بها طوال الأسابيع الخمسة عشر الماضية •

وسارت المعركة كالعادة • وفى هذه المرة كون ديزيه مربعين من المشاة بدلا من مربع واحد • ووضع مربعا من الفرسان فى القلب ، أما المدفعية ففى الجناحين • وجربت خيالة المماليك عدة نقط للهجوم ، فلما صدوا فى كل نقطة منها تركوا المهمة للمكيين ، فقتل منهم عدد كبير ، وفر المماليك الى الصحراء • وبلغت خسائر الفرنسيين فارسا واحدا • وبالطبع كان هناك عدد من الجرحى منهم الكابتن ديفرنوا الذى كان مع فصيلة من فصائل الطليعة أمام المربعين • يقول فى مذكراته كأنه يسرد الواقعة عرضا : « أصبت بثمانية عشر جرحا



مصر الوسطى والعليا

بسيطا ، ولكن العدو اتخذني هدفا رئيسيا · وقطعت ضربة سيف أوتار ساعدي الأيمن ، فاضطررت الى حمل سيفي في يسراي ، وقد أوقفني هذا موقفا خطرا ··· وصحت بسافاري أن يخف لنجدتي ··· فصاح مجيبا : « ساعد نفسك ما استطعت » (٣٥) وأثار الرد غضب ديفرنوا · ويقول انه اندفع لا يلوى وسط المعركة قاصدا مستشفى الميدان ، وهناك فحص الجراح جروحه وأسفر الفحص عن الآتي : بالسبابة اليسرى والأصابع الوسطى قطوع ، وبالذراع اليمنى جرح يصل للعظم ، ورض شديد في الجبهة ، وتسعة عشر قطعا صغيرا ، بالاضافة الى اثني عشر جرحا أو نحوها في كفل جواده · ولم يجمع أحد بين القصد والتواضع في العبارة ، والمبالغة ــ ربما باستثناء البارون مونشاوزن ــ ببراعة كبراعة الكابتن ديفرنوا · أما ديزيه فلا يجد ــ وهو يكتب تقريره عن المعركة لبونابرت ــ ما يقوله عن ديفرنوا أكثر من هذه العبارة : « أصيب المواطن ديفرنوا بجرح من خنجر في معصمه ، دون أن يسبب له هذا عاهة مستديمة » (٣٦) ·

كان المماليك يفرون الى الجنوب ، والفرنسيون يجدون في ــ مطاردتهم ــ جدا صرفهم عن تجريد جثث القتلى مما تحمل ، ومرة أخرى هرب مراد ، ولكن الفرنسيين عزموا هذه المرة ــ فيما كتب ديزيه لبونابرت ــ على أن يطاردوا مرادا حتى يطردوه من مصر ، ويحتلوا الأقاليم الواقعة في أقصى الجنوب ، وينتظروا حتى يهلك مراد جوعا وفقرا · وفي هذه الأثناء كان حلفاء مراد ، بل وبعض رجاله ، أخذوا يتخلون عنه ، وراح البكوات يتنازعون فيما بينهم : وهذا على الأقل ما رواه للفرنسيين مملوك هارب ــ كان مسقط رأسه بلدا لا يخطر بالبال هو سكسونيا ــ وانضم الى الفرنسيين مزيد من الهاربين من جيش مراد في الأيام التالية · ومع ذلك فان المماليك كما تبين لديزيه بعد قليل ، « أشبه بأفعوان « ليرنا » ، فما ان نقطع رؤوسهم حتى تطلع لهم رؤوس جديدة » (٢٧) · فلما وصل الفرنسيون الى أسوان ، بعد مسيرة ٢٥٠ ميلا في عشر أيام ، كان مراد قد أوغل في أعماق السودان ، حيث ، أخذت تطلع له رؤوس جديدة ·

٤

حين تطوع دينون بالانضمام الى فرقة ديزيه ، كان بعيد الأحلام شديد التحمس · كتب بعد ذلك في مذكراته عن هذه الفترة فقال انه كان يعرف انه سيكون « أول من يرى ، ويرى دون أي أفكار مسبقة · كنت موشكا أن أطأ تراب أرض ظلت محجوبة وراء ستار من الغموض والأيام دهورا طويلة ، ومغلقة أمام الأوربيين جميعا مدى الألفي عام الماضية · ومنذ أيام

هيرودوت الى يومنا الحاضر ، كان جميع الرحالة يقنعون بالملاحة مصعدين فى النيل لا يجرؤون على البعد بحيث تغيب زوارقهم عن أبصارهم ، ولا يتركونها الا ساعات قليلة ليلقوا بنظرة عاجلة قلقة على الآثار القريبة من ضفة النهر ... أما أنا فلم أخش ــ بعد أن شجعنى لقاء الجنرال ديزيه الودى ، والمعونة التى قدمها الى جميع الضباط الذين شاركونى حب الفنون ــ الا من الافتقار الى الوقت ، وأقلام الرصاص ، والورق ، والموهبة » (٣٨) .

وربما كانت موهبته محدودة ، ولكنها كانت من النوع المجتهد المدقق ، وهو أنسب المواهب لمهمته ، وكان له فى حماسته وفهمه الفنى أكثر من عوض عن عيوبه . فأما أقلام الرصاص فكان هو ورجال البعثة العلمية الذين انضموا الى الفرقة بعده يفتقرون اليها طوال الوقت . وكانت الشحنات الجديدة تطلب باستمرار من القاهرة حيث يصنعها المواطن كونتيه . وراح دينون ورفاقه يصهرون رصاص البنادق ويصنعون منه الأقلام ريثما تصلهم الشحنات من القاهرة .

ولكن أمس الحاجات كانت الحاجة الى الوقت ، وذلك فى الأسابيع الستة الأولى على الأقل . فلقد كان حتما على دينون أن ينتقل مع الفرقة والا هلك . وكانت الفرقة مضطرة الى التنقل السريع ، فى مراحل زحف طويلة جدا ، وراء مراد الذى كان يروغ منها أبدا . والبلدة الوحيدة التى وقفت بها الفرقة فترة تذكر هى جرجا ــ ولم يكن فى جرجا أو ما يجاورها من الآثار الهامة ما يستحق المشاهدة . وكانت هرموبوليس قد عذبته بالآمال الخداعة ، وهو يقول ان معبدها « كان أول أثر كشف لى عن أسرار العمارة المصرية القديمة ، وقد ظلت أحجاره ... تنتظرنى أربعة آلاف عام » (٣٩) . وسمح له بليار بدقائق قليلة يخط فيها رسما سريعا للمعبد ، ثم استأنفت الفرقة الزحف بسرعة خمسة وعشرين الى ثلاثين ميلا فى اليوم . وفى أسيوط بدا له كأن مقابر ليكوبوليس القديمة تومىء اليه ليشاهدها ، فخصص لها ساعات قليلة اختطفها اختطافا . وكانت الكهوف الجنائزية المنحوتة فى صخور السلسلة الليبية الجرانيتية ، مغطاة بالرموز الهيروغليفية : « التى تستغرق قراءتها شهورا على فرض الالمام باللغة ، ويستغرق نسخها أعواما » (٤٠) . وغادرها دينون كارها . وقبل أن يصل الى جرجا كان الرمد يلهب عينيه اللتين تنتظرهما أشياء تفوق كثيرا ما رأتا من قبل . وقد خفف من أعراض المرض بأخذ الحمامات المصرية التى أصبح مدمنا عليها . وعلى اثنى عشر ميلا فقط من جرجا ، فى حافة الصحراء ، تقع أطلال أبيدوس « حيث بنى أوزيمانديأس معبدا ، وحيث كان قصر ممنون » . وفى الأسابيع الثلاثة التى فرضت عليه البطالة فيها . كان فى كل يوم يتوسل الى ديزيه أن يرسل فصيلة لاستطلاع منطقة أبيدوس . « وكان ديزيه يقول لى كل مرة « أريد أن آخذك هناك بنفسى . ولكن مراد بك موجود

على مسيرة يومين منا هنا ، وسيكون هنا بعد غد ، وتنشب بيننا وبينه معركة فنهزم جيشه ، وبعد يومين لن يبقى لنا ما نفكر فيه الا الآثار ، وسأساعدك على فحصها » (٤١) ٠

غير أن ديزيه لم يف بوعده تماما ٠ فبعد معركة سمهود اضطرت فرقته في مطاردتها الحثيثة لمراد الى الزحف عبر أبيدوس وتنتيرة (دندرة) ، وهرمونتيس (ارمنت) ، وطيبة ، وأبوللونوبوليس ماجنا (ادفو) ، حتى بلغت سيين (أسوان) ، دون توقف أحيانا ، أو متوقفة في العادة وقتا لا يكفي الا لاثارة شعور دينون بالخيبة والفشل ٠ على أن الجند نسوا في دندرة مؤقتا مطاردة مراد ، وأطالوا الوقوف بالمعبد الرائع ٠ يقول دينون « ودون أن تصدر اليهم أو يتلقوا أي أوامر ، ترك كل ضابط وجندي الطريق واندفع الى تنتيرة ، وتلبث الجيش كله هناك بقية اليوم من تلقاء نفسه ، وياله من يوم ! ويالها من سعادة في اقتحام كل الأخطار للوصول الى هذه الوليمة ! » (٤٢) ٠

أما شعوره الأول فشعور الدهشة ٠ لقد اضطر الى نبذ ما لقنه من قبل عن القواعد الكلاسيكية للأساليب الدورية والأيونية والكورنثية ٠ « لن تجد أبسط ولا أحسن حسابا من الخطوط القليلة التي تألف منها هذا المعمار ٠ فالمصريون الذين لم يستعيروا شيئا من غيرهم من الأمم لم يضيفوا زخرفا دخيلا واحدا ، ولا حشوا واحدا لا لزوم له الى الخطوط التي أملتها الضرورة ٠ والنظام والبساطة مبدآهما اللذان سموا بهما الى الذروة » ، بل ان النقوش البارزة والكتابات والرسوم المسرفة التي تكسو هذه الأبنية لا تحدث كسرا في هذه الخطوط : « فالخطوط تحترم ، وكأنها شيء مقدس ، وكل ما يبدو للناظر عن قرب مزخرفا ، أو غنيا ، أو مترفا ، يختفي عن بعد فلا يبقى الا الأساس » ٠ وكان الرسم بالألوان يستخدم لزخرفة المعمار ٠ « كان النحت رمزيا ، أو قل معماريا ٠ وهكذا كان المعمار أرقى الفنون ، كما اقتضت ذلك المنفعة ٠٠٠ وحذار من خطأ شائع هو الاعتقاد أن المعمار المصري يمثل هذا الفن في مهده ، والأصح أن نقول انه الصورة القياسية لهذا الفن » (٤٣) ٠

وراح دينون في انفعاله يرسم بضراوة وسط هذه الكنوز المحيرة ٠ « وظللت أنتقل والقلم في يدي من أثر الى أثر ، تجذبني طرافة الواحد فأترك الآخر ٠٠٠ ولم أجد من العيون والأيدي ما يكفي ، وكان رأسي أصغر من أن يرى ويرسم ويصنف كل شيء يروعني النظر اليه ٠ وشعرت بالخجل من قصور الرسوم التي صورت بها هذه الروائع » (٤٤) ٠ واكتشف فجأة — في غفلته عن الشمس الغاربة وخشيته أن « تفلت » منه دندرة — أنه وحيد في هذه البقعة ، الا من رفقة الجنرال بليار الصبور ، الذي راح يرقبه بعين حارسة وهو يكره أن يقطع عليه فرحته ٠ ثم لحقا بالفرقة عدوا على جواديهما ٠ وفي

المساء ذهب أحد الضباط الى دينون وقال له معترفا « منذ اليوم الذى حضرت فيه الى مصر كنت أحس أننى خدعت خداعا تاما ، وكنت على الدوام مبتئسا مريضا · ولكن دندرة أبرأتنى · فما رأيته اليوم عوضنى عن كل تعاستى · وأنا لا أبالى الآن ما يحدث لى فيما بقى من هذه الحملة ، وسأظل أبدا سعيدا بأننى انخرطت فى صفوفها » (٤٥) ·

***

وراء دندرة صادف الفرنسيون أول ما صادفوا من تماسيح · ويزعم دينون أنه شهد تمساحا طوله ثمانية وعشرون قدما ، وهذا طول كبير جدا ، وأن « عدة ضباط يوثق بكلامهم » رأوا تمساحا طوله أربعون قدما ــ وهو غير معقول · على أن الجنود سرعان ما تبينوا أن التماسيح ، مهما بدت ضخمة ، لا تستحق شهرتها بالتوحش · فقد كانوا يستحمون فى النيل فى هدوء على بضعة أقدام من هذه المخلوقات البطيئة دون أن تفتك بهم أو تصيبهم بأذى · وبينما كان الجنود يتحدثون عن التماسيح وصلوا فى الساعة التاسعة من صباح ٢٧ يناير الى منحنى فى النهر ، فطالعهم على جانبى النهر مشهد طيبة القديمة كاملا ، بما احتوته من معابد فى الأقصر والكرنك · ووقفت الفرقة كلها من تلقاء نفسها وصفق أفرادها استحسانا · يقول ديفرنوا : « ودون أن يصدر أمر للرجال ، وقفوا فى طوابيرهم وأدوا التحية العسكرية على قرع الطبول وعزف الموسيقى » (٤٦) · وكانت لحظة شبيهة بتلك التى رأى فيها رجال بالبو المحيط الهادى أول مرة ــ مع هذا الفارق ، وهو أن المحيط كان هدف الاسبانيين ، أما طيبة فكانت منحة خالصة لم يسع اليها الفرنسيون ·

وفى وسط هذه التحية العسكرية لعبقرية الانسان كان دينون يرسم أول منظر لطيبة · وعرض عليه الجنود فى حماستهم أن يستخدم ركبهم مسندا للوحته ، وأحاط غيرهم به حماية له يرسم من أشعة الشمس التى تبهر العيون · يقول «أود أن أعطى قرائى فكرة عن هذا المشهد لأشركهم فى الشعور الذى أحسست به أمام هذه الآثار الجليلة ، وفى العاطفة المثيرة التى جاشت بها نفوس جيش من الجند جعلتنى رهافة حسهم أبتهج بزمالتهم وأعتز بفرنسيتى » (٤٧) ·

وما زال وصف هذه اللحظة بعد مائة وستين عاما مؤثرا الى حد يجل عن التصوير · بيد أن المأزق الذى وجد دينون نفسه فيه بعد ذلك ينطوى على مفارقة مضحكة جدا · فهو يقول انه ظل شهورا يتسكع فى جحور كالزاوية ، وبنى سويف ، وجرجا ، لم يجد فيها شيئا مما ذهب لمشاهدته · وها هو ذا الآن قد وصل الى طيبة ، ولكنه مضطر الى التحرك فيها عدوا على جواده · ففى مدينة الموتى ، حيث ركب مع ديزيه ، هاجم نفر من الأعراب الشديدى النشاط والحركة، المسلحين بالمزاريق ، جماعته · فعاد ركضا الى الشطر الرئيسى من الجيش ،

ورسم معبدا ، ثم انطلق كالسهم وراء الجنود الذين غادروا المكان . ووقف بعد ذلك يرسم تمثالا هائلا قد سقط على الأرض وتحطم (وسأل نفسه : أهو أوزيمانديياس ؟) ، ووجد نفسه وحيدا مرة أخرى ، ثم اندفع الى سهل وقف به الجنود ليعجبوا بتمثالين ضخمين جالسين (تعرف الناس على أحدهما بأنه تمثال ممنون ، ولكن التمثالين فى رأى دينون لزوجة أوزيمانديياس وابنه) ، ثم قفز على ظهر جواده ليلحق بالجنود وهو لا يزال يرقب بعينيه ويتأمل راكبا ، وخلف طيبة وهو حانق حنق المغلوب على أمره . على أنه لحسن الحظ استطاع فى الشهور التالية أن يزور هذا المكان على مهل غير مرة .

وفى هرمونتيس (أرمنت) نام دينون فى معبد ، ومن حوله رسوم الاله الذئبى أنوبيس . ورسمه فى الفجر ثم مضى الى اسنا ، وهى لاتوبوليس القديمة، ومنها الى ادفو (أبوللونوبوليس ماجنا) مارا بأطلال هيراكونبوليس ذات الأحجار الرملية المتهدمة ، فى أعقاب مماليك محمد الألفى ، فوصلها قبيل الغروب : ليرسم بالجهد معبدها الشبيه بالقلعة ، المملوء بالأكواخ الطينية الحقيرة « كأنها أعشاش العصافير فى منازلنا » كما يقول . ثم مضى قدما ، مخترقا خانقا جرانيتيا يضيق شيئا فشيئا ، ومنه بالزورق عابرا النيل الى أسوان ، وهى سيين القديمة ، حيث وصلت الفرقة فى ٢ فبراير بعد أن غادرها المماليك بيومين . والزحف مسافة ٢٥٠ ميلا فى عشرة أيام ، فى أرض وعرة معادية ، بجيش منهوك القوى ، مهرأ النعال ، يشكو كل فرد فيه تقريبا من الرمد ، مثل رائع من أمثلة الجلد والاحتمال . وأشرف الجنرال بليار على أسوان ، بينما كان جنوده يعبرون النيل ، من مكان صخرى عال ، وكتب فى يوميته يقول « وتكشف العين الى الغرب صحراء شاسعة ، والى الجنوب منظر رهيب هو منظر الصخور الوعرة التى تؤلف الجندل ، وكأنها ترمز الى نهاية العالم المتحضر . فهنا يبدو أن الطبيعة تقف فى طريقنا وتقول « كفوا ولاتمضوا أبعد من هذا » . أما الى الشرق فجزيرة الفنتين ، وخضرتها وأحراج نخيلها نقيض الجبال الجرداء المحيطة بها » (٤٨) .

٥

ولم يطل مكث الجنرال ديزيه فى أسوان . ففى ٤ فبراير قفل راجعا الى الشمال ، تاركا نصف لواء المشاة الخفيفة الحادى والعشرين الذى يقوده بليار ، وسار محاذيا ضفة النيل اليمنى . ومر ثانية بطيبة ، على الضفة التى تقوم عليها الأقصر والكرنك هذه المرة . كتب سافارى ، ياور ديزيه ، فى يوميته فى ١٨ فبراير — وهو الواقعى العبارة عادة — يقول : « يا لها من نشوة يحسها المرء وهو يشهد منظر المعبد والمسلة » (٤٩) . (وهذه المسلة تقوم اليوم فى ميدان الكونكورد بباريس ، حيث لا يكاد يتطلع اليها أحد) . وواصل ديزيه زحفه

شمالا الى أسيوط ، فوصلها فى ٨ مارس ، ومكث بها عشرة أيام ، ثم عاد يصعد مع النيل ثانية مسافة ١٨٠ ميلا الى قنا (غير بعيد من طيبة) ، وكانت نهاية طريق القوافل القادمة من القصير ، ميناء البحر الأحمر • وبلغ مجموع المسافات التى قطعها ديزيه فى زحفه ورجوعه فى الخمسين يوما الواقعة بين ٤ فبراير و ٢٧ مارس نحو ٥٥٠ ميلا • ولم يكن التفرج على البلاد هدفه الأول •

كان لدى ديزيه ٤٠٠٠ رجل حين بدأ زحفه من بنى سويف فى ١٦ ديسمبر • وبهذا العدد توقع منه بونابرت أن يسيطر على شريط طوله ٦٠٠ ميل من أقاليم معادية محصورة بين صحراوين • ولم يكن فى استطاعته ، ليحقق هذا الهدف ، أن يترك حاميات يذبحها المماليك والعرب والفلاحون • وقصارى ما استطاعه أن يشعر هؤلاء بوجوده فى كل مكان تقريبا — ومن هنا هذا الزحف المتصل • أكان ديزيه عالما باستحالة مهمته ؟ ربما • ومع ذلك فكلما استحالت المهمة عظم المجد الذى ينال بأدائها • وقد تظاهر بأنها ممكنة — ولكنه لم يغل فى تظاهره غلوا يمنعه من طلب المعونة • ففى خطاب الى بونابرت ، مؤرخ ١٨ فبراير ، وصف موقفه هكذا : معارك متصلة مع الفلاحين والمتطوعين المكيين ، ومراد على وشك أن ينقلب مهاجما ، مخترقا الصحراء وراء خط ديزيه ، وعجز خطير فى الذخيرة والأحذية ، والعقاقير والمدافع الخفيفة • « كأننا هنا فى نهاية العالم • انه موقف محزن • تذكر أننا مفتقرون الى كل شىء ، وأن نوع الحرب التى نخوضها عسير • ولن أزيد عن تفاصيل موقفنا • فأنا لا أحب الشكوى » (٥٠) •

وحين كتب ديزيه هذا كان بونابرت يحاصر العريش ويوشك أن يدخل الشام ، فلم يستطع أن يوفر له شيئا من مطالبه ، واعتمد اعتمادا تاما على مقدرة ديزيه على السيطرة على الصعيد بأقل القليل • ولم يصل الى ديزيه شىء من مطالبته • ولم تحل بواكير مارس حتى بدأ يدرك الحقيقة المؤلمة • فكتب فى ٩ مارس الى ديجا، الذى كان يحكم القاهرة فى غياب بونابرت ، يقول : « ان القائد الأعلى حين أمرنا بفتح الصعيد كان منصرفا تمام الانصراف الى حملته هو ، فلم يعطنا شيئا على الاطلاق • وكانت مكافأة فرقتى على جهودها المضنية أن تخلفت رواتب رجالها شهرا عن رواتب بقية الجيش • اننا لا نملك أحذية ولا ملابس ولا نقودا ، وقد أضنانا التعب • ولكننا سنمضى قدما ، نهزم المكيين والمماليك والفلاحين • لم تصلنى أخبار من الجنرال بليار منذ اثنى عشر يوما ، وقد طلبت من القائد الأعلى أشياء كثيرة أحتاج اليها ، ولكننى يئست ، لأننى لن أحصل منه على شىء اطلاقا » (٥١) •

وعبارة ديزيه هذه لا توفى سوء موقفه وموقف بليار حقهما من الوصف :

أما احتلال بليار لأسوان فقد بدا في الأسبوعين الأولين نزهة يتخللها الطريف القليل من القتال واغتصاب النساء . لقد آن للرجال أخيرا أن ينعموا بقسط من الراحة . يقول دينون فى مذكراته عن هذه الفترة : « كان خلع ملابسى ، وجلوسى ، ورقادى للنوم ، يبدو لى متعا لذيذة مترفة . وكان هذا شعور الجنود كلهم . ولم يمض علينا بأسوان يومان حتى انتشرت دكاكين الخياطين والحذائين والجواهرية والحلاقين الفرنسيين يعلقون لافتاتهم ، كما انتشرت المطاعم التى تقدم وجبات الطعام بأسعار محددة . ونزول جيش بأى مكان كفيل بنمو المهارة الصناعية بغاية السرعة : لأن كل فرد يستخدم ما أوتى من مواهب لصالح الجماعة . ولكن الذى يميز الجيش الفرنسى عن غيره من الجيوش هو اهتمامه بالكماليات فى نفس الوقت ، وبنفس العناية التى يبذلها للضروريات . وهكذا كنت ترى بأسوان الحدائق والمقاهى وألعاب الورق العامة . وفى مخرج القرية الى الشمال طريق تحف بجانبيه الأشجار ، هنا أقام الجنود لافتة عسكرية كتبوا عليها : الطريق الى باريس رقم ١٬١٦٧٬٣٤٠ » (٥٢) .

وزار دينون مع بليار جزيرة الفنتين ورسم معابدها واتخذ منها « منزله الريفى ، وحديقة نزهته ، ومركز ملاحظاته وأبحاثه فى وقت واحد » (٥٣) . وأراد بليار أن يمضى قدما الى الجنوب ويحتل جزيرة فيلة . ولكنه لقى بعض المقاومة . يقول فى يوميته : « علت صيحات الأهالى ، وراحت النسوة ينشدن أناشيد المعركة ويثرن الغبار ، ثم أعطين اشارة القتال » (٥٤) . ولكن بليار أمر ببناء أطواف واقتحم الجزيرة ودهم النساء . يقول دينون : « وألقى الجميع — الرجال والنساء والأطفال — بأنفسهم فى النهر . وكنت ترى النساء ، الثابتات على فطرتهن الوحشية ، يغرقن الأطفال الذين لا يستطعن حملهم معهن ، ويشوهن بناتهن حماية لهن من اغتصاب المتصرين . ووجدت فتاة فى السابعة أو الثامنة خيطت ... بطريقة منعتها من قضاء الضرورة العاجلة ، وسببت لها تشنجات رهيبة . ولم أستطع انقاذ حياة هذه المخلوقة الصغيرة التعسة الا بعد عملية مضادة وحمام . وكانت الفتاة غاية فى الجمال » (٥٥) . فيا له من لقاء نافع بين حضارة الشرق والغرب ! ولكن النتائج لم تكن مبررة لهذا العناء كله ، لأن بليار أخلى الجزيرة بعد يومين ولم يعد اليها قط . وسواء مكث بها الفرنسيون يومين . أو عامين ، أو قرنين — فهل يساوى النصر أو الدفاع هذا الثمن ، وهو تشويه طفلة صغيرة ؟ وما حظ المواطنين بليار ودينون من التحضر ، اذا كان فيهما هذه الحساسية الشديدة لروعة أطلال مضى عليها خمسة وثلاثون قرنا ، وهذا الاغضاء عن اغتصاب الجسد الحى ؟

كان الجنرال بليار يستخدم الجواسيس بسخاء ، فأنبأوه أن المماليك الموجودين جنوبى مدار السرطان يتضورون جوعا لأنهم أتوا على كل شىء استطاعوا

ابتزازه من الأهالى السودانيين ، وأنهم فى يأسهم موشكون على الرجوع واستئناف الهجوم . وأحس بليار ، كما يحس أى قائد ذى ضمير ، أن واجبه يحتم عليه منع العدو من الحصول على مزيد من الأغذية ، لذلك بعث بفصيلة الى الجنوب لقرية قليب طود ، وقال لديزيه انه أمر رجاله « باتلاف جميع القمح الموجود بالقرية ، وكان فيها منه قدر كبير . وكان فى وسع الأهالى المساكين أن يرقبوا فى ساعة واحدة اتلاف ثمرات شهور ثلاثة من الكد ... واعطيت الفلاحين الذين مكثوا فى القرية بضع قطع من النقود ، واخبرتهم أن عليهم ان جاءوا أن يطلبوا بعض الذرة من أسوان » (٥٦) . ولم يسجل التاريخ هل أرسل الفلاحون فى طلب الذرة من أسوان ، فان كانوا قد فعلوا فلابد أنهم وجدوا بليار قد غادرها .

كذلك أخبر الجواسيس بليار أن مراد بك على وشك اختراق الصحراء من كلابشة الى أسيوط ـ وهى مسافة تبلغ نحو ٣٠٠ ميل ـ ليقطع الاتصال بينه وبين ديزيه . وغادر بليار أسوان فى ليلة ٢٤ ـ ٢٥ فبراير فى شىء من العجلة دون أن يترك بها حامية ، ليلحق بمراد أو ليتجنب على الأقل قطع مراد للاتصال بينه وبين ديزيه . وهكذا اتضح أن الرحلة الى أسوان لم يكن لها ضرورة أو داع ، اللهم الا فرحة الجند برؤيتهم طيبة .

وبينما كان الجنرال بليار يسمح لجنوده باغتصاب النساء ليرفع معنويتهم، ويأمر باتلاف المحاصيل ليهبط بمعنوية المماليك ، وصلت الأنباء للجنرال ديزيه والمعلم يعقوب بوجود مراكز تجمع للجنود المكيين فى قنا ، وبنزول ٢٫٠٠٠ آخرين من المتطوعين المكيين فى القصير ، وباقتراب قوة من المماليك من الجنوب بقيادة عثمان بك .

اضطر ديزيه الى ترك أسطوله قرب قنا حين زحف شمالا بأكثر جيشه الى أسيوط فى أواخر فبراير . وفى أوائل ابريل علم الشريف حسن بوجود الأسطول على أميال من الكرنك ، وكان يقود نحو ألفين من مشاة المكيين . وفى ٣ ابريل أدرك المكيون الأسطول الفرنسى ، فراحوا يطلقون نيران بنادقهم على سفنه . وردت السفينة « ايطاليا » ـ التي كانت تحمل نحو ٢٠٠ بحار و٣٠٠ من الجرحى والعميان وفرقة موسيقية على ظهرها ـ على هذه النيران بنيران مدفعية مدمرة . على أن هذا لم يخف المكيين بتاتا ، فاستطاعوا أن يستولوا على بعض الصنادل الصغيرة وبدأوا يرتقون ظهر ايطاليا . ولما رأى قبطانها « موراندى » أن المقاومة لن تجدى ، حاول أن يتحرك بها بعيدا عن العرب ، ولكنه لم يفلح الا فى ارسائها على البحر . وكان العرب الآن قد صعدوا الى ظهر ايطاليا بالمئات . وفى أثناء القتال الذى دار بين الأفراد من الجانبين وجها لوجه أمر موراندى باحراق السفينة واخلائها . وقتل بوابل من الرصاص عقب تنفيذ هذا الأمر مباشرة تقريبا . واقتاد المكيون الأحياء من الفرنسيين الى البر . وهناك

أمر المنتصرون فرقة موسيقى نصف اللواء الحادى والستين أن تعزف ، وعلى أنغام مارشات الثورة الفرنسية قتل الأسرى ــ وأكثرهم من العميان أو الجرحى ــ ثم جاء دور الفرقة الموسيقية ٠

وبينما كان الأشراف مشغولين على هــذا النحو ، كان الجنــرال بليار بنصف لوائه الحادى والعشرين يزحف شمالا فى مراحل طويلة مضنية تنفيذا لتعليمات ديزيه له بأن يعسكر فى أرمنت (هرمونتيس) ٠ ووصلها هنــاك بالضبط فى اليوم الذى كان فيه بحارة « ايطاليا » وركابها يذبحون على ثلاثين ميلا الى الشمال ٠ وفى ٤ مارس أنبأه جواسيسه أن ٦٠٠٠ ــ ٧٠٠٠ آخرين من المكيين نزلوا فى القصير ٠ وبعد يومين بلغه نبأ الاستيلاء على « ايطاليا » ٠ فعبر النيل وسار بسرعة هبوطا مع النيل على ضفته اليمنى ٠ واخترق دينون هذه المرة الأقصر والكرنك دون أن يتوقف ولو لحظة ريثما يرسم بريشته منظرا واحدا ٠ وفى قوص حذر شيخ البلد الذى كان ديزيه قد حالفه بليار من المضى فى زحفه الى أبعد من ذلك ، فالاقليم يعج بالمكيين ، والفرنسيون ماضون الى حتفهم ما فى ذلك ريب ٠ وفى ٨ مارس التقت قوة بليار ، المؤلفة من ألف رجل يشكون كلهم تقريبا من الرمد ، بقوة من المكيين قوامها ٣٠٠٠ من المشاة ، وبنحو ٣٥٠ من المماليك عند أبنود (*) ٠ وكانت مدفعية بليار تتألف من قطعة خفيفة واحدة ٠ وكان لدى المماليك والعرب عدة مدافع استطاعوا أن يطلقوها فى احكام وان لم تركب فوق عربات ٠

وتقــدم الفرنسيون فى مربعهم المعهود صــوب خط العــدو المنبسط ، فتضعضــع فى بطء ، ثم تقهقر نحو قرية ابنود حيث تحصن المقاتلون فى البيوت يقول دينون الذى شهد ثلاثة ضباط يقتلون أمام عينه وهو يتحدث اليهم « وظللنا نقاتل ست ســاعات دون توقف ٠ ثم أمسكنا لحظة لنلتقط أنفاسنا بعد أن إضنانا التعب وخنقنا الحر ٠ ولم يكن لدينا ماء على الاطلاق مع أننا كنا فى أمس الحاجة اليه ٠ وأذكر اننى وجدت أثناء احتدام القتال ابريق ماء مسندا الى جدار ، واذ لم يكن لدى متسع من الوقت لأشرب ، فقد أفرغت الابريق فى قميصى وأنا سائر » (٥٧) ٠

وبعد أن التقط الفرنسيون أنفاسهم استأنفوا الهجوم على القرية واستولوا على عدة بيوت ، وقتلوا بالسلاح الأبيض نحو ٢٠٠ مملوك ٠ ثم ركزوا هجومهم على منزل لأحد المماليك اعتصم به عدد كبير من المكيين وظلوا يقاومون الهجوم ٠ وبعد ساعتين كان الفرنسيون قد فقدوا ستين قتيلا ، وجرح منهم مثل هــذا العدد أمام هذا المنزل وحده ٠ وتوقف القتال بعــد غروب الشمس ، ولكنه

(*) ورد اسمها عند الفرنسيين « بنود » ، ولا بد انها هى « ابنود » ٠

استؤنف فى الفجر . كتب بليار الى ديزيه فى الغد يقول : « أصدرت الأمر باقتحام البيت . وأفلحنا فى شق طريقنا الى الحوش واشعال النار فى البناء . ونزل المكيون عدوا الى الحوش وهم عراة يمسك كل منهم سيفا بيد والبندقية بالأخرى ، وهم يطلقون النار على جنودنا ويقفزون كالمجانين الى اللهب محاولين اطفاء النار بأقدامهم » (٥٨) . يقول دينون وهو يصف هذا الحادث نفسه : « وراحوا يخوضون النيران كأنهم الشياطين خرجت من الجحيم . وأحسست وأنا أشهدهم بمزيج من الرعب والاعجاب . وتخللت المشهد فترات من السكون تسمع فيها صوتا واحدا (يصلى) ، وتسمع رد الجماعة بالأناشيد الدينية وصيحات الحرب ، ثم يقلون بأنفسهم علينا رغم يقينهم من أنهم ملاقون فى ذلك حتفهم » (٥٩) .

وأرخى الليل سدوله ، ولكن المكيين ما فتئوا يقاومون فى البيت وفى الحوش الذى تناثرت فى جنباته جثث القتلى . ونقبوا فى الظلام جدارا وهربوا ، ولكن كثيرين منهم فتك بهم الجنود الفرنسيون خارج البناء . وفى الصباح دخل الفرنسيون البيت ، وكان قد تخلف به نحو ثلاثين من المكيين أعجزهم عن الفرار مرضهم أو جراحهم . يقول بليار : « وكانوا لا يزالون يريدون الدفاع عن أنفسهم ، فقتلوا جميعا الا ثلاثة تونسيين استبقيتهم لأستجوبهم » (٦٠) . وما ان فرغ القتال حتى راح الفرنسيون يلتمسون العزاء عند نساء القرية .

***

وصل ديزيه وجنوده الى أسيوط فى ٨ مارس ــ وهو اليوم الذى بدأ فيه بليار معركة الأيام الثلاثة مع المكيين . وجهر كل الاقليم المحيط بأسيوط بالعصيان : ذلك أن مراد طوى الأميال الثلاثمائة عبر الصحراء الليبية منتصرا فى السباق على ديزيه ، وحرض الفلاحين على التمرد مستعينا بكذبه المعهود . على أن ديزيه لم يكن هو الآخر بطيئا : فقد قطع ١٢٠ ميلا ــ وهى المسافة من فرشوط الى أسيوط ــ فى أربعة أيام ، وهى سرعة لم يتوقعها منه مراد . وتعاقبت الأحداث على النحو المعروف مرة أخرى . فبعد أن خدر المماليك الفلاحين بدعايتهم ، وضعوهم حاجزا بينهم وبين الفرنسيين ، ثم انطلقوا هاربين على جيادهم الى الصحراء ، بينما كان الفرنسيون يذبحون نحو الف من الفلاحين .

وحرب كهذه يمكن أن تمضى ــ كما يعلم ديزيه ــ الى ما شاء الله . كتب الى بونابرت يقول : « لو أنك تركت هذا الاقليم دون جنود ولو لحظة ، لارتد فورا الى سادته الأولين ... ولن أرهقك بسرد متاعبنا فلن تجد فى ذلك لذة ... لقد وجهت اليك أيها الجنرال عدة رسائل عاجلة بطلب العتاد ، وأنا عليم بمسيس حاجتنا اليه ، ذلك ان موقفى فى الواقع خطير . ان الذين يسالون شيئا من الأشياء يبدون كأنهم يتحسرون على أنفسهم . ومع ذلك انظر الى الحرب

التى علينا أن نخوضها ، وليس لدى جنودى من الطلقات الا ما يحملونه فى حقائبهم · فاقل ما تستطيع عمله أيها الجنرال هو أن تلقى بالك الى ما يطلب منك · ان فى الصعيد ١٫٨٠٠ مملوك ، وسأذهب وأقاتلهم » (٦١) ، اما نصف لواء بليار فكان اذ ذاك قد بقيت عنده ٨٠٠٠ قطعة من الذخيرة · وكتب ديزيه مناشدا الجنرال ديجا فى القاهرة : « أستحلفك بالله أن ترسل الينا بعض الذخيرة ، وأن ترسلها على عجل » (٦٢) · وأرسل دونزيلو ، رئيس أركان حرب ديزيه ، فى الوقت نفسه قائمة مفصلة الى الجنرال برتييه ، الذى كان فى سوريا مع بونابرت ، ضمنها الحد الأدنى لمطالبه وهى : ٣٠٠٫٠٠٠ قطعة من الذخيرة ، و ١٫١٠٠ قنبلة مدفع ، و ١٥٠ قنبلة هاويتزر ·· الخ · ثم قال : « وما لم تتفضل علينا بارسال بعض العقاقير ، فان مرضانا الذين يتكاثرون يوما بعد يوم سيهلكون · فهل نحن منفيون فى اقليم طيبة حتى نترك فى زوايا النسيان ؟ ··· اننا لا نطلب الا الأشياء الأساسية ، ولكنى ألاحظ آسفا أن طلباتنا لم تأت بنتيجة · والفكرة الوحيدة التى تعزينى هى أنها ربما لم تصلكم » (٦٣) ·

على أن وصول هذه الطلبات أو عدم وصولها الى مقر قيادة بونابرت سواء · ذلك أن بونابرت ، حين كتب ديزيه ودونزيلو اليه والى رئيس أركان حربه ، كان بجبل الكرمل فى الأراضى المقدسة ، بعد أن ارتكب لتوه أبشع مجزرة فى تاريخ الحملة كله ، وأخذ يسير حثيثا الى حصار عكا بجيش تفشى فيه الطاعون وخلا فعلا من المدفعية ·

ومع أن حال قوات الجنرال ديزيه لم تكن لتشرح صدره ، فانه وجد بعض العزاء فيما وصلت اليه حال المماليك هم أيضا ، من سوء ، كما دلت جميع التقارير التى وصلت الى المعلم يعقوب · كان رجال مراد يهجرون جيشه زرافات وينضمون الى جيش ديزيه ـ بعد أن فتنتهم ولا ريب دعاية القبطى البارعة · ودب الشقاق بين البكوات · وكان أهم سبب دفع المماليك ، الذين عهدنا فيهم الشجاعة فى الظروف العادية ، الى المبادرة فى كل معركة بالهرب الى الصحراء ، هو أمل كل منهم فى الابقاء على قواته بينما يحطم الفرنسيون جيوش منافسيه · وهذا الضرب من السياسة بين الحلفاء ابان المعركة مسلك شائع مألوف فى الحرب ، وان تستتر وراء مختلف الحجج والمعاذير · ولم يحل منتصف مارس ١٧٩٩ حتى كانت قوات المماليك قد انقسمت أشتاتا تحاول كل فصيلة منها أن تدبر لنفسها ما تستطيع من أقوات · وتقهقر مراد الى الواحة الخارجية ، ومعه عثمان بك البرديسى ، وعثمان بك الطمبورجى ، وذلك المحارب الذى سيظل اسمه دائما مذكورا ـ وهو محمد بك المنفوخ · أما حسن بك فقد يمم صوب قنا جنوبا مع عدة أمراء بقواتهم ، كما فعل أيضا محمد بك الألفى

هو وكتيبته • وراح غيرهم من البكوات والكشاف يضربون فى أرجاء الريف • أما سليمان بك فقد جاوز أسوان جنوبا ، وكانت فلول المكيين بين النيل والقصير فى انتظار الامداد • وهكذا بدا فى الظاهر أن ديزيه يسيطر على صعيد مصر ، ولكن ما ان يول ظهره حتى يلتئم شمل قوات العدو المشتتة على هذا النحو ثانية وتحتل الاقليم كما كتب لبونابرت • لذلك لم يكن أمامه سوى شيء واحد ـ هو أن يمضى فى مطاردة أعدائه شمالا وجنوبا ، وفى قطع رءوس الأفعوان كلما طلعت من جديد •

وقد قسم ديزيه قواته غير مرة للقيام بمهام تأديبية معينة • ففى ٥ أبريل مثلا بعث دافو مع شطر من خيالته شمالا ليطارد بعض الجنود المكيين • وفى جرجا علم دافو أن ثورة تشبت شمالا عند بنى سويف ، وأن مرادا يغادر واحته لينضم الى الثوار • فخف دافو الى المكان • وفى أول مايو قتل ٢٠٠٠ من الفلاحين المسلحين فى بنى سويف ، وكانت خسائر الفرنسيين ثمانية رجال، وهو عمل مجيد ولا ريب ، ولكن الكابتن ديفرنوا ، الذى كان مع دافو ، أتى بما هو أعظم • فقد هاجم وحده تقريبا القافلة القادمة من دارفور ، والتى تصادف مرورها اذ ذاك ـ وهى نفس القافلة التى أحسن الجنرال ديزيه استقبالها ـ واستولى منها على ٨٩٧ جملا • فلما أقبل بغنيمته كاد دافو يجن فرحا . فقال له : « لقد أقبلت عليك الدنيا يا كابتن • فهذا العمل الذى أتيته قضى على خطط أعدائنا (*) ••• وستظفر باثنى عشر نصيبا من الغنيمة ، ويظفر مساعدك بستة أنصبة ، وكل ضابط صف وخيال بنصيب » (٦٤) • وكان دافو فى تقريره للجنرال ديجا أكثر تحديدا لقيمة هذه الأنصبة • فقد كتب له يقول : « لقد حصل عدة جنود على ما قيمته خمسة عشر أو عشرون ألف فرنك ذهبى » (٦٥) •

٦

فى هذه الأثناء كان رجال الجنرال بليار الأقل حظا يزحفون شمالا وجنوبا بين قنا وأسوان ، ويقاتلون الفلاحين والمكيين والمماليك (**) • ولم يرحب بهذا

(*) ليس هناك دليل على أن مرادا كان يضع الخطة لمهاجمة القافلة • ومن غير المحتمل أنه كان مهاجمها حتى اذا استطاع ، لأنه لم يرد اضعاف التجارة بين السودان ومصر • ولكن قطع الطريق على هذا النحو اقتضى دافو وديفرنوا انتحال عذر يبرره • وقد اعتذر بونابرت بعد ذلك لسلطان دارفور من هذه الفعلة •

(**) فى هذه العمليات صادف الكبتن رينو ، الذى أرسله بليار على راس ٢٠٠ رجل ليعيد احتلال أسوان ، قوات للمماليك تفوق قوته أكثر من ثلاثة أضعاف ، وهزمهم بفضل جرأته • وأصيب حسن بك وعثمان بك بجراح مميتة فى هذا القتال الذى سماه نابليون « أبدع معركة فى الحملة المصرية بأسرها » • (الحملتان المصرية والسورية فى رسائل نابليون الأول ٢٩ ـ ٥٣٦) •

التذبذب المتعب ، القتال ، بين الشمال والجنـوب سوى دينون وعـدد من المهندسين المدنيين الذين أرسلهم ديجا من القاهرة لينضموا الى قوات ديزيه ٠ ونصت تعليمات الجنرال كفاريللي لقائد الجماعة ، وهو كبير المهندسين جيرار ، على « أن يبحث الوسائل التى يمكن الانتفاع بها من النيل فى زيادة خصوبة مصر ، وأن يجمع البيـانات اللازمة لوضع خريطة عامة للنظـام المائى لهـذه البلاد » (٦٦) ٠ وكان المشروع جليلا جدا ، وهو لا يزال ينفذ فى أيامنا هذه ، وان قامت بالتنفيذ أيد أخرى ٠ ولكن رجال جيرار ــ وهم المواطنون ديبوا ، ايمى ، وديشانوا ، وديكوتيل ، ودروزيير ، وديبوى ، وجولوا ، وفيلييه ديتراج (وكلهم من المهندسين) ، وكاستكس (وهو مثال وحفار) ــ ما لبثوا أن أفلت زمامهم من يده ٠ ونسيت مائية النيل ، وغدا علم الآثار هوايتهم المحببة ٠ فما ان رأوا أول المعابد والمقابر القائمة على طريقهم حتى انضموا الى دينون فى رسم كل شىء ــ التفاصيل المعمارية ، والأعمدة ، والتماثيل ، والحطام ، والرسوم ، والكتابات الهيروغليفية ــ التى لم يفقهوا كلمة منها ــ والتى تكفى لملء عدة مجلدات ٠ وقد وجدوا أمامهم من العمل القدر الكبير ، لأن زحف بليار شمالا وجنوبا أخذهم غير مرة الى الأقصر والكرنك ٠ وفاقت طلباتهم لأقلام الرصاص فى الحاحها الشديد طلبات بليار لرصاص البنادق ٠ وكانوا يعبرون النيل دون حراسة ، ويعرضـون حيـاتهم للخطـر ، لينسخوا مزيدا من النقـوش الهيروغليفية ٠ وقد صهروا رصاص بليار الثمين وصبوه ليصنعوا منه مزيدا من الأقلام ٠ وأسخطت هذه « الهيروغليفيات » المواطن جيرار ، وهو الوحيد الذى تذكر الهدف من رحلتهم ٠ وأحس الهواة الشبان بكره عميق سليم لجيرار ، فكتب فلييه الى صديق له يقول : « انى أتهمه أمامك بأنه يكره الآثار ٠ فقد أنفق فى النوم ثلاث ساعات من الأربع التى مكثها بدندرة » (٦٧) ٠ ورفعوا الأمر الى الجنرال بليار قائلين : ألم يفعلوا كل ما طلب اليهم جيرار أن يفعلوه فى أمر المهمة المائية ؟ نعم لقد فعلوا ، اذن فلم يضطهدهم هذا الفلاح ؟ وكان دينون قد حول بليار قبل ذلك بكثير الى صفوف عشاق الهيروغليفيات ، فخول لهم كامل الحرية فى مواصلة نسخ النقوش ٠ بل ان عددهم زاد بفريق جديد من النساخ أرسل اليهم بعد قليل من القاهرة ٠ وكانت ثمرة جهودهم ، التى نشرت بعد سنوات فى كتاب « وصف مصر » ، مسحا شاملا للزراعة والتجارة فى الصعيد ، وعددا من المذكرات الأكثر تخصصا ، وذخيرة من البيانات الخاصة بعلم الآثار المصرية ، وهو علم ظهر الى عالم الوجود وأصحاب الفضل فيه يحملون قلما بيد ، وبندقية بالأخرى ٠

***

ورغم هذه المهام الكثيرة التى تتطلب الجهد والعناية أصيب الجميع بالرمد ومنهم الجنرال بليار الذى كان قد أصيب به من قبل ٠ ولم تكن رياح الخماسين

ـ تلك العواصف الرملية الساخنة التي تهب على مصر شهورا ـ مما يعين على شفائهم • ومع ذلك استمر ديزيه ، وكان يومها بجرجا ، يلح على بليار فى الزحف على القصير مخترقا ١٥٠ ميلا من الجبال والصحراء • وكان الاستيلاء على القصير ضرورة لا مناص منها اذا أريد صد تيار المتطوعين المكيين ، واعادة التجارة مع بلاد العرب الى مجاريها • وقد زاد هذه الضرورة وضوحا دخول بارجة بريطانية مياه البحر الأحمر ، وقذفها السويس بالقنابل ، وشروعها فى جوب البحر بين جدة والقصير • فلو أن البريطانيين سيطروا على البحر الاحمر كما سيطروا على البحر المتوسط لأصبح موقف الفرنسيين ميئوسا منه •

وكان الجنرال بليار يقدر أهمية القصير ويتوق الى الزحف عليها ، ولكنه رأى أن القيام بهذه المهمة يقتضيه أكثر من ٨٫٠٠٠ طلقة رصاص ، وأن من العسير عليه أن يقود ألايا عبر الصحراء وهو لا يكاد يبصر بعينيه الملتهبتين صديدا • وبدأ يشعر نحو الجنرال ديزيه بما يشبه شعور هذا نحو بونابرت • وكتب في يوميته في ١١ مايو يقول : « ان الجنرال ديزيه يعتقد أن أوامره يمكن أن تنفذ بالسرعة التى استقر بها رأيه عليها » (٦٨) • وكتب أيضا لديزيه ، وقال لرئيسه انه ان وجد شخص يصر على ضرورة الاستيلاء على القصير فان بليار هو هذا الشخص ، ولكن لابد من وسيلة تيسر له مهمته • « انى أعيد القول أيها الجنرال ، انه حتى اذا كانت الطبيعة لم تحبنى بما حبتك من مواهب وعلم ، فانها على الأقل منحتنى احساسا بالشرف ، وحتى اذا لم يستخفنى الطموح الى المجد كما يستخف بعض الناس ••• الخ » (٦٩) •

واضح اذن أن الأعصاب بدأت تثور ، سواء أعصاب الفرنسيين أو خصومهم • ورد ديزيه بملاحظات ملطفة ، ولكنها لم تلطف من غضب بليار ، كذلك رد بأن أرسل الى بليار جميع ما طلب من ذخيرة ومؤن ، فوصلته فى ٢٥ مايو • وفى ٢٦ مايو غادر بليار قنا ليزحف على القصير برغم ما يشكو من رمد ، آخذا معه ٣٥٠ من الجنود المشاة على ظهور الجمال ، و ٤٠٠ جمل تحمل مؤنا ، ومدفعا ، وحرسا من ٦٠ أعرابيا من قبيلة موالية يمتطون الجمال أيضا ، فعبروا ١٥٠ ميلا من الصحارى الجبلية فى ثلاثة أيام • وفى ٢٨ مايو ركبوا أربع عشرة ساعة • وفي الغد احتلوا القصير دون قتال ، وكانت قرية صغيرة رغم أهميتها الاستراتيجية • وكتب بليار من القصير الى شريف مكة خطابا يجعل المرء يفرك عينيه دهشة • لقد ظل رعايا الشريف يلاحقون بليار بغاراتهم شهورا ، وظل الجنرال بونابرت يحارب جيش الامبراطورية العثمانية فى سوريا شهورا • ومع ذلك فان خطاب بليار الى الشريف يبدأ هكذا : « انك تعلم أيها الشريف أن الجمهورية الفرنسية حليف حميم للدولة العثمانية ، وأن جيوشها التى لا تقهر تحمى جميع المسلمين أينما وجدوا » (٧٠) •

وترك بنيار نحو ثلثي رجاله في القصير ليكونوا حامية لها وقوة تعزز مينامها ، ثم غادرها في أول يونيو ، فوصل الى قنا بعد ثلاثة أيام . أما دينون الذى رافق جماعة بليـار فكان يتوق الى حمام نيلي ينعشه ، فلقد كان قيظ الصحراء لا يطاق ، والعواصف الرملية محرقة . لكنه لسوء الطالع اكتشف أن النيل بدل شخصيته في هذه الأيام القلائل التي غابها عنه . يقول : « ان النيل يبطئ جريانه أواخر الخماسين . ويفقد النهر نقاءه وشفافيته . وتشوب الخضرة مياهه » (٧١) .

ولكن دينون لم تفت في عضده رياح الخماسين ولا القيظ ولا مياه النيل البطيئة ، فمضى في بساله يرسم الأطلال بينما يذرع بليار البلاد شمال النيل وجنوبه . فهو يعود الى دندرة ، والكرنك ، واسنا ، وادفو ، ثم يقفل الى قنا شمالا . والتصق جفناه من الرمد والتهبت مقلتاه ، ونزف أنفه طويلا ، وانتشر على جلده طفح مؤلم ، واستحالت مسامه كلها بثورا ، وكان الجنـود الذين لا يبلغون أكثر من نصف عمره يغشى عليهم بالعشرات من شدة الحر ، ولكنه وجد في كل مرة جاز فيها الاقليم نفسه جديدا يرسمه وينقله . واكتشف وادى الملوك ، واكتشف رموزا هيروغليفية لم يرها من قبل . يقول ذاكرا زيارته الثالثة لأدفو : « لقد زدت أبجديتى الهيروغليفية بأكثر من ثلاثين رمزا » (٧٢) . ولم يكن يفوق حماسته سوى غنى هذا العالم الضخم من الأحجار ، وجماله ، وغموضه ، وعظم تناسقه ورشاقته — هذا العالم الذى سلخ أربعين قرنا من الزمان ، والذى بدأت أوربا تكتشفه من خلال عينيه الرمداوين .

وتوقفت أمداد مراد من المكيين باحتلال القصير . وساد الهدوء نسبيا ومؤقتا أرض الصعيد . ولزم المماليك ، بعد أن حرموا معونة حلفائهم ، أطراف البلاد — في السودان ، وفي الصحراء ، وفي الواحات — وهم عاجزون عن القتال وان لم يهزموا . وأتيحت للجنرال ديزيه الفرصة أخيرا جدا في أسيوط ليثبت أركان فتحه ، وليحكم بدلا من أن يطارد ويدمر . يقول نقولا الترك : « ولكن هذا الجنرال المذكور روق بلاد الصعيد وطيبها بحسن عقله وتدبيره وفراسته وشجاعته وقوة بأسه وكثرة جودته وكرمه . وبقيت بلاد الصعيد أروق من بحرى » (٧٣) .

وفى ٥ يوليو غادر دينون قنا على مضض ليعود الى القاهرة . وكان النيل قد بدأت مياهه تزيد ، فرأى من صندله التماسيح الضخمة تسبح الى الشمال حتى جرجا . ولاحظ الطيور على الماء وقد أصبح عددها أوفر وأنواعها أكثر مما رآها من قبل . ومر في النيل مرة أخرى بأهرام سقارة والجيزة . وبعد غياب تسعة شهور عاد الى المجمع العلمى المصرى . وقد فعل ظهوره ، وتلاوته تقريره على زملائه في جلسة خالدة ، في سامعيه فعل الكهرباء . حقا لقد كان

دينون هو الفاتح ان كان ثمة فتح ، وبقي فتحه على الأيام دون أن تلقه خسارة أو ضياع .

أما الفتوح الأخرى ، الفتوح الحربية ، فكانت قلقة مزعزعة . فبونابرت على وشك مقابلة قوة تركية كبيرة أنزلت في أبي قير بعد أن عـاد من حملته السورية التى كانت وبالا عليه ، والتى حاولت دعايته أن تحولها الى انتصار . أما مراد فقد خرج من مكمنه في الصحراء حين نما اليه نبأ الحملة التركية سلفا ، وتربص للفرنسيين بقرب الهرم الأكبر ليشارك فى المعركة ، وفي ليلة ١٣ يوليو ، ومن قمة هرم خوفو ، دار حديث ممتع ـ بالاشارة ـ بين مراد وزوجته نفيسة الواقفة على سطح منزلها .

الفصـل التاسع

الجزارون فى الأرض المقدسة

١

كان اقليم سوريا ، كما عرفه الناس فى عام ١٧٩٩ ، يتألف من سوريا ولبنان وفلسطين المحتلة والأردن • وكان مقسما الى خمس ولايات عثمانية ، هى حلب ودمشق وطرابلس وعكا والقدس • أما القدس فانفردت بنظام حكم خاص بها • وقد دارت رحى حملة بونابرت السورية فى فلسطين لا فى أرض سوريا الأصلية ــ أى فى فلسطين المحتلة ، واقليم بحيرة طبرية فى الأردن •

وهو اقليم يقدسه المسلمون والمسيحيون على السواء ، ويسميه اليهود أرض الميعاد • ويقدر نابليون أن سكان سوريا بأسرها فى عام ١٧٩٩ كانوا يبلغون ٢ر٥ مليـون نسمة • ومن هؤلاء نحـو ١٢٠ر٠٠٠ من الدروز الذين يحكمهم أميرهم حكما مستقلا ، ونحو ٣٢٠ر٠٠٠ من المسيحيين • وكان أكثر المسيحيين يعيشون فى المنطقة التى دارت فيها معارك الحملة •

وفى تقدير نابليون أن ربع ايراد سوريا كان من نصيب خزينة الدولة العثمانية وقافلة الحج السنوية • يقول : « أما الباقى فمن نصيب الولاة • والمدن تتهاوى أطلالا ، والثغور تمتلىء بالطمى ، والطرق تردم ، والمستنقعات تنشر الأمراض فى السهول ••• ومع ذلك ما زالت البلاد محتفظة بطابعها • وقد قال أحد كتاب العرب « ان مصر مزرعة ، ولكن سوريا جنة » (١) •

ولو أتيح لجنود نابليون أن يعودوا الى فلسطين اليوم لرأوا وجهها قد تغير كثيرا ، أما باقى سوريا فلم يعتره الا أقل تغيير • ففى كل مكان يطالعهم مشهد المراعى الهادئة المعهودة ، والرعـاة وقطعان الغنم ، وأحـراج الزيتون والبساتين ، وهى أكثر مناظر الدنيا جمالا وهدوءا وخلودا • فى هذه الأرض قرب الفلسطينيون القرابين البشرية للاله مولوخ ، وذبح اليهود الفلسطينيين ،

وذبح هيرودس الأطفال في بيت لحم ، وذبح الرومان اليهود ، وذبح الصليبيون العرب والعرب الصليبيين ، وذبح الترك الكل دون تمييز ، وذبح نابليون الترك • ولم تقف المذابح بعدها ، ولعل المستقبل يخبيء في طياته مزيدا من المذابح الفظيعة ، على أن للجنرال بونابرت وأحمد باشا الجزار أن يتباريا في هذا السجل القياسي من التقتيل الذي لا موجب له ، على الأقل منذ عهد الملك هيرودس •

***

اضطلع بونابرت بالحملة السورية وعدته نحو ١٣٫٠٠٠ رجل (*) • ولا يشتمل هذا العدد على أشتات الموظفين المصريين والعرب الملحقين بالجيش ـ كالخدم والجمالين والمترجمين والعمال ••• الخ ـ ولا على الموظفين المدنيين الفرنسيين ، والأطباء ، وموظفي المالية ، ومن اليهم • وقد اصطحب نفر من الضباط وزوجاتهم الدائمات أو المؤقتات معهم ، ومنهن زوجة الجنرال فروبيه الايطالية الباسلة ، وهو الذي كان يقود لواء تحت امرة كليبر • يقول الجبرتي : « وخرج أيضا عدة كبيرة من عسكرهم ومعهم أحمال كثيرة ، حتى الأسرة والفرش والحصر وعدة مواهي ومحفات للنساء والجواري البيض والسود والحبوش اللاتي أخذوها من بيوت الأمراء وتزيا أكثرهن بزي نسائهم الافرنجيات » (٢) •

يضاف الى هذه الجماعة العجيبة المنظر ، جماعة أخرى سافرت في حرس عسكري خاص بقيادة مصطفى ، وهو موظف تركي كان كتخدا لباشا القاهرة حين وصل اليها بونابرت • وقد عينه بونابرت أميرا للحج (ولم يكن هذا التعيين الا من قبيل التشريف ، لأن قافلة الحج لم تبرح القاهرة في تلك السنة) • وكان في الجماعة غير مصطفى هذا قاضي القاهرة (وهو تركي أيضا) ونفر من المشايخ • وكان لبونابرت ثلاثة أهداف من اصطحاب هؤلاء الرجال : فوجودهم معه دعاية طيبة ، وقد يفيد منهم في مفاوضاته مع الجزار والباب العالي ، وهم رهائن في يده • وسنرى أنهم لم يحققوا أي هدف من هذه الأهداف •

وأخيرا ، فان نفرا كبيرا من اللجنة العلمية رافقوا حملة بونابرت على سوريا ، ومن بينهم مونج وبرتولليه اللذان لا غنى عنهما ، وعالم التاريخ الطبيعي سافيني ، والرياضي كوستا ، والفيزيائي مالو ، والمستشرق وكبير المترجمين فنتور • وآخر هؤلاء ، ونفر آخر من أعضاء مجمع القاهرة ، لم يعودوا

(*) وبيانهم كالآتي : أربع فرق مشاة جملتها ٩٫٩٢٢ رجلا ، ٨٠٠ فارس ، ٣٧٠ مهندسا ، ١٣٨٥ مدفعيا ، ٤٠٠ دليل (راكبا وراجلا) ، ٨٨ هجانة • الجملة : ١٢٫٩٧٥ • ولم تكن فرق المشاة (ويقودها كليبر ، وبون ، ولان ، ورينييه) في كامل قوتها لأن فصائل قد اقتطعت منها لتظل معسكرة في مصر •

من الحملة أحياء . أما هدف بونابرت بالضبط من اصطحابهم في حملة لن تستغرق في رأيه أكثر من شهرين فما زال سرا غامضا .

***

وقبل أن يغادر بونابرت القاهرة بأسبوعين كتب الى امام مسقط يطلب اليه أن يوصل رسالة الى تبو صاحب . وكانت رسالته لسلطان ميسور تتسم بالبلاغة أكثر من الصراحة : « لقد أنبئت بوصولي على ساحل البحر الأحمر بجيش غفير لا يقهر ، وأنا تواق لتحريرك من نير انجلترة الحديدي . وأود أن ترسل الى السويس أو القاهرة رجلا ذكيا تثق به لأجتمع به » (٣) . وسواء وصلت الرسالة الى البير — كما كان تبو يحب أن يلقب نفسه — أو لم تصل ، فذلك أمر غير ذي بال : ذلك أن القوات البريطانية التي يقودها الجنرال ستيوارت استولت عنوة على سرنجاباتان في ٤ مايو ، فوجدت جثة تبو تحت كومة من الجثث . وهكذا أكل الانجليز البير (*) .

ويبدو أن كتابة بونابرت لتبو في هذه المرحلة ، مضافا اليها عرض تاليران السخي اطلاق يده في الزحف على الهند ، يضفيان بعض الوجاهة على ما طاف بخيال نابليون في سانت هيلانة من أحلام عن أهداف مغامرته السورية وما كان يرجوه منها . كتب يقول انه كان يرجو ، متى استولى على عكا ، أن ينضم المماليك والأعراب في مصر ... الي قواته ، فاذا حل شهر يونيو دانت له حلب ودمشق، وأصبحت له مراكز أمامية في جبال طوزس ، وغدا متصرفا في جيش عدته ٢٦٫٠٠٠ فرنسي و ٦٫٠٠٠ فارس من المماليك والأعراب من مصر ، و ١٨٫٠٠٠ من الدروز والمارونيين وغيرهم من الجنود السوريين ، في حين يكون ديزيه بمصر على استعداد لارسال مدد من ٢٠٫٠٠٠ رجل ، منهم ١٠٫٠٠٠ فرنسي و ١٠٫٠٠٠ زنجي تحت قيادة الفرنسيين . في هذه الظروف يكون في موقف يتيح له ارغام الباب العالي على عقد الصلح وضمان موافقته على زحفه على الهند . فاذا حالفه الحظ استطاع أن يصل الى السند في مارس ١٨٠٠ على رأس ٤٠٫٠٠٠ رجل بالرغم من فقده أسطوله .

وقد استبعد فريق من أكثر المؤرخين رزانة وجدا هذه الرواية المذهلة باعتبارها وهما من أوهام ناتج عاطل ، أو اضافة متعمدة للأسطورة النابليونية . ولكن نابليون — كما أجمع شتى الشهود — كان يستغرق في أمثال هذه الأحلام عن الماضي منذ عام ١٨٠٣ ، وفي أول ديسمبر ١٨٠٥ — وهي عشية موقعة أوسترلتز — قال لضابط أركانه كما روى الكونت « دسجير » : « لو استطعت

(*) ردت ميسور للأسرة المالكة الهندية ، وقسمت بقية أملاك تبو بين حيدر اباد والمهراتا وشركة الهند الشرقية .

الاستيلاء على عكا ،للبست عمامة ، ولجعلت جنودى يرتدون السراويل التركية الفضفاضة ، ولما عرضتهم لخوض المعارك الا فى الضرورة القصوى ، ولجعلتهم فيلقا مقدسا — جندى الخالدين . ولأنهيت الحرب مع الترك بجند من العرب واليونان والأرمن ، ولكسبت معركة فى اسوس بدلا من خوض معركة فى مورافيا . ولنصبت نفسى امبراطورا على الشرق ، ولعدت الى باريس بطريق القسطنطينية » (٥) .

فهل قال هذا ولما ينقض أكثر من ستة أعوام على اخفاقه أمام عكا ، وهو فى عشية أعظم انتصاراته ، لمجرد ايهام سامعيه بضخامة مشروعاته ، أم أنه كان قد فكر جديا فى تنفيذ هذا المشروع المجنون ؟ يقول بوريين ان بونابرت أفضى اليه بمثل هذه الأفكار قبل زحفه على سوريا « ولكن يجب أن أضيف أنه كان يقدر تمام التقدير ما بين هذه المشروعات والوسائل التى تحت تصرفنا من بون شاسع » (٦) . ولا ريب أن نابليون لم يكن قط يستبعد أى احتمال ، وما كان فى طبيعته أن يقاوم الفرص أكثر مما كان فى طبيعة أوسكار وايلد أن يقاوم المغريات . وهو يعلن فى تاريخه للحملة السورية أن هدفه الأول من غزو سوريا هو هزيمة الجزار والاستيلاء على غزة ويافا وعكا ، وتأليب المسيحيين والدروز ، « ثم ترك ما بقى للظروف » (٧) . وهذا صحيح ولا شك . ففى اليوم السابق لرحيله عن القاهرة كتب للادارة يشرح أهداف حملته ، فقال انها ثلاثة : دعم فتحه لمصر بهزيمته الأعداء على حدودها ، وبهذا يمنع نزول جيش انجليزى تركى بها ، وارغام الباب العالى على « تفسير موقفه » وربما حمله على فتح باب المفاوضات ، وحرمان الأسطول الانجليزى الذى يجوب البحر المتوسط من قواعد تموينه فى سوريا ، وكلها أهداف محدودة ومعقولة . وقد أضاف فى لهجة رزينة : « علينا أن نهزم أعداء كثيرين : الصحراء ، والأهالى ، والأعراب ، والمماليك ، والروس ، والترك ، والانجليز » (٨) . ولم يشأ أن يضيف الطاعون الى هذه القائمة الرهيبة .

وأيا كانت الأحلام الخاصة التى راودت خيال بونابرت ، فانه لم يكن يغفل قط عن الواقع ، الا اذا لم يكن من ذلك مفر لأن الواقع غير مقبول . ولم يكن قد بلغ هذه المرحلة بعد فى فبراير ١٧٩٩ . واذا استثنينا خطابه لتيبو صاحب ، ولم يكن سوى مجس يسبر به غوره ، لم نجد أى شاهد — فى رسائل بونابرت ولا فى أعماله — على أنه كان يرجو أن يحقق فى سوريا أكثر من الأهداف التى ذكرها فى خطابه للادارة . وبالطبع لو أن الفرصة واتته للقيام بمزيد من العمل لانتهزها ، ولكن الذى حدث أنه أخفق حتى فى تحقيق هذه الأهداف المحدودة .

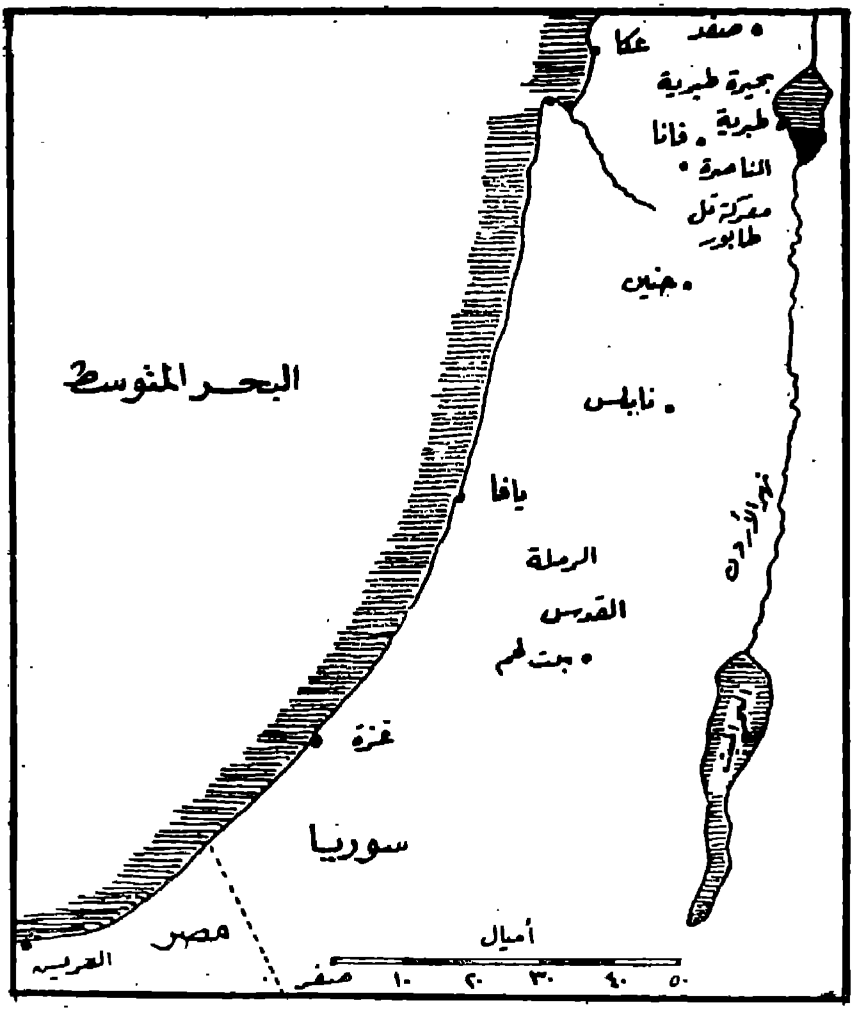
كان بونابرت قد أمر الجنرال لوجرانج (من فرقة رينييه) فى ٢٣ ديسمبر ١٧٩٨ باستطلاع ساحل شبه جزيرة سيناء الواقع على البحر المتوسط ، وبأن

ينشىء نقطة منيعة فى قطية بقرب الحدود السورية . وبالرغم من الظروف المعاكسة ـ وهي غارات الأعراب المتصلة ، والمطر الذى لم ينقطع ـ أبلغ لوجرانج فى ١٧ يناير أن تحصينات قطية تمت اقامتها . وعين بونابرت قطية ملتقى ونقطة استراحة للوحدات المشتركة فى الحملة . وكانت التقارير ترد عن تجمعات متزايدة لجيوش المماليك والترك فى ثغر العريش داخل الحدود المصرية : ذلك أن الجزار كان يستعد للهجوم .

ووصلت أكثر فرقة الجنرال رينييه الى قطية فى الأيام الأولى من فبراير وغادرتها فى ٦ فبراير ، لأن بونابرت أصدر أمره للفرقة بالاستيلاء على العريش . وفى اليوم ذاته وصل كليبر بفرقته التى استأنف تولى قيادتها بهمة . وغادر قطية فى ١١ فبراير ووصل تجاه العريش فى المساء نفسه . أما بونابرت فوصل الى العريش فى ١٧ فبراير تصحبه قيادته وفرقة بون ، واستاء لأنه وجد المدينة لم تسقط بعد . وأما الجنرال لان الذى تولى قيادة فرقة فيال فوصل آخرهم ، فى ١٨ فبراير ، بعد أن عبرصحراء سيناء عبورا يذكرنا ببعض مراحل الزحف السابق للحملة . كتب كبير الصيارفة بيروس فى يوميته يقول : « انتحر عدة جنود باطلاق النار على رؤوسهم » (٩) .

وقد أعدت مراحل الحملة بعناية أكثر قليلا من اعداد الزحف من الاسكندرية الى القاهرة ، ولكن هذا لا يعنى الشىء الكثير . كان هناك جمال كثيرة لنقل المؤن ، واتخذت الاستعدادات كذلك لتوفير خدمات المستشفى والمياه ولنقل مدفعية الميدان . على أنه تبين أن مدفعية الحصار أثقل من أن تنقل على اليابس خلال مستنقعات وصحار . لذلك شحنت فى مراكب تحملها من دمياط الى عكا رغم ما عرضه كونتيه من صنع مركبات خاصة عريضة العجل تيسر النقل البرى . ولعل بونابرت كان يوفق فى الاستيلاء على عكا لو أنه استمع الى رأى كونتيه .

على أن الجيش كان سيىء التجهيز رغم هذا القدر من بعد النظر . فقد اضطر بونابرت الى رهن محاصيل الصعيد حتى قبل ضمها لكى يدفع رواتب الجند المتأخرة . كتب الجنرال داما فى يوميته يقول : « لقد خيل الى أن هذه الحملة المرتجلة التنظيم لا محالة ملاقية شدائد كثيرة . أولها أن الأقوات غير موفورة ... ثم ان البرد والجو المطير ... كانا ينذران بالعنت الشديد الذى ينتظرنا أثناء زحفنا فى الصحراء ، وكان خليقا بهما أن ينبهانا الى أن جنودنا سيصابون بشتى الأمراض لأنهم يرتدون ثيابا رقيقة لا تلائم الموسم ولا الاقليم ، ولم يكن لديهم غير القمصان والسراويل والمعاطف المصنوعة من الكتان ... (ويبدو أن بونابرت لم يستطع أن يتصور بعد أن أنفق فى القاهرة شهورا ما يمكن أن يبلغه البرد والمطر فى ساحل مصر وسوريا الواقع على البحر المتوسط) . كل هذه الأفكار لم تخطر لأحد ببال ، أو لعلها لم يكن لها وزن



حملة بونابرت على سوريا (١٧٩٩)

على الاطلاق عند القائد الأعلى ، مع أن اهتمام قائد الجيش يجب أن يوجه قبل كل شيء الى صيانة قواه البشرية ، لاسيما في بلد تنتشر فيه الأمراض انتشارا واسعا . وكان خليقا به أن يحرص على ألا يستهلك الرجال كما يستهلك الخراطيش ، لأنهم لا يعوضون بسهولة كما يعوضون في أوربا » (١٠) .

ولعل بونابرت كان مجيبا عن هذا كله بأنه ما دام الاضطلاع بالحملة ضرورة لا محيص عنها ، فانه لم يكن بد من استعمال ما لديه من موارد . أما ما بقي فرهن بمحالفة الحظ له وبحيوية رجاله . وتروى مدام دستال عنه قوله : « ان الفرنسيين آلات عصبية » ثم نضيف : « انه يريد بها أن يصور ما طبعوا عليه من مزيج من الطاعة وسرعة الحركة » (١١) .

٢

استولت الدهشة على الجنرال رينييه عند وصوله أمام العريش بعد زحف شاق في ٨ فبراير ، لأنه لم يجد معسكرا كبيرا للعدو فحسب ، بل حصنا منيعا . وكان المعسكر يشتمل على نحو ٦٠٠ فارس من المماليك والعرب والترك ونحو ١٢٠٠ من المشاة الألبانيين الذين أرسلهم الجزار . أما الحصن فكان بناء حجريا مربعا تقوم الأبراج المثمنة على جانبيه ومن حوله أسوار ترتفع ٣٠ قدما . وكانت عدة حاميته ١٢٠٠ ـ ١٥٠٠ رجل أكثرهم من أشداء المشاة الألبانيين والمغاربة ، يضاف اليهم نفر قليل من المماليك .

وكان أول عمل قام به رينييه هو الاستيلاء على قرية العريش التى دافع عنها أهلها ، فقتلوا دون ابطاء بحد السيف أو السنكى على الأصح . وبعد ثلاثة أيام انضمت قوات كليبر الى رينييه . وكان رجال رينييه بدأوا يتضورون جوعا ـ لأن العريش لم يكن لديها من الأقوات ما تقدمه للفرنسيين ، فهى قرية صيد صغيرة واقعة بين البحر والصحراء . وكان الموقف بادئ التناقض : فالمحاصرون الذين يصومون رمضان من الشروق الى الغروب رغم توافر الأقوات عندهم يجوعون محاصريهم . ومفارقة أخرى هى أن مؤن الأتراك كان مصدرها الأكبر هو مخزن الجيش الفرنسى فى دمياط ، حيث باعها موظفو التموين المغامرون طمعا فى الربح لتجار يونانيين نقلوها فورا ليبيعوها الى المماليك بربح أكبر ـ وهو اجراء شائع فى جميع الحروب ان توخينا الحقيقة .

وحاصر رينييه وكليبر الحصن ، ولكن الأمل كان ضعيفا فى تسليمه قبل أن يصل مدد من الجنود والمدفعية . وفى الوقت نفسه قاد رينييه فى ليلة ١٤ ـ ١٥ فبراير أربع كتائب فى هجوم مباغت على جنود المعسكر التركى وعددهم ١٨٠٠ . ولما كان المسلمون لا يقاتلون عادة بين الغروب والفجر ، فان

الترك لم يتخذوا الحيطة لأنفسهم · فدخل الفرنسيون المعسكر بعد نصف الليل بقليل دون أن يلحظهم أحد ، وقتلوا الرجال النيام بالسلاح الأبيض في سكون حتى بلغوا قلب المعسكر ، واذا كلب ينبح · وتنبه النائمون ودب الرعب في صفوفهم فحاولوا الفرار ، ولكن منافذ المعسكر كانت قد سدت · يقول رينييه في تقريره : « وسرت في المعسكر كله ، وقتلنا كل من وجدنا » (١٢) وكان من بين القتلى ، وعددهم ٤٠٠ ـ ٥٠٠ ، أمير من المماليك وعدة كشاف ، وأسر ٩٠٠ ، ولم يفقد الفرنسيون سوى ثلاثة رجال · ووصف نابليون هذا الهجوم بأنه « من أجمل العمليات الحربية التي يتصورها العقل » (١٣) · والأمر كله على أي حال رهن بتعريف المرء للجمال ·

ومع أن رينييه استولى على مخازن الذخيرة والمؤن في المعسكر فانها كانت ضعيفة الأثر في تخفيف جوع الفرنسيين · يقول مالو الذي كان ملحقا بفرقة كليبر ، ويؤيده في قوله شهود آخرون « كنا نأكل الجمال والخيل والحمير » (١٤) وحدث ذات صباح أن رائدا (ميجر) آلمه أن يكتشف أن جواده اختفى من مربطه · فوبخ رجاله على أكله ، فأجابوا أنهم أدوا له خدمة لأن الجواد كان خبيثا ، ولكنهم وعدوا بالاستماتة في الدفاع عن فرسه ·

وفي ١٨ فبراير بدأ قائد الحصن المفاوضة · وأرسل يقول انه وان كان لديه قدر وافر من الذخيرة والطعام الا أنه على استعداد لتسليم الحصن بشروط معينة لأن المعونة التي وعد بها لم تصله · وكانت شروطه أن يسمح له وللحامية بمغادرة الحصن بسلاحهم ومتاعهم وبالذهاب حيث شاءوا · فأبى بونابرت ، لكنه عـرض اقتراحا مضادا · فقد وعد اذا سلمت الحامية بأن يرد لأفرادها سلاحهم مكرمين ، وينقلهم الى مصر حيث يستطيعون أن يركبوا البحر لأي بلد شاءوا · ولكن القائد التركي رفض قبول هذا العرض لأنه يعلم تمام العلم أن مصر محاصرة · وبعد أن أنفق بونابرت اليوم في المفاوضات ، أمر باطلاق ستار كبير من نار المدافع في صباح الغد · لقد توقع أن تسقط العريش دون مشقة ، وها هو ذا الحصار يدوم عشرة أيام ، وسيتضور جيشه جوعا ان لم يتقدم الى بقاع أكثر خصبا ·

وكونت المدفعية الفرنسية دائرة حول الحصن على مسافة ٣٠٠ ياردة ، واستمر ستار النار اليـوم كله دون هوادة تقريبـا · وسقط كثير من قنابل الفرنسيين وقذائف مدافعهم التي أخطأت المرمى في صفوفهم على الجانب الآخر فقتلت وجرحت عدة رجال · ويقول مالو ان بعض القذائف الفرنسية سقطت في مستشفى الميدان · ولما قرب المساء فتحت ثغرة صغيرة في الأسوار (لأن مدافع الميدان كانت ضعيفة الأثر لانعدام مدفعية الحصار) · وفي الليل تسلل رجال الخنادق الى أحد الأبراج · وبلغت خسائر الفرنسيين في ذلك اليوم

٢١ مدفعيا و ١٧ من رجال الخنادق و ٣٥٠ من المشاة • يقول ديترو ا : « لقد أبدى العدو بسالة خارقة • فرمموا ما تهدم وواصلوا اطلاق النار من البرج دون أن يعبأوا بقذائف مدافعنا وقنابلنا » (١٥) • وهكذا قابل بونابرت عدوا يختلف كل الاختلاف عن العدو الذى التقى به فى مصر •

واستؤنف اطلاق المدافع في صباح الغد دون أن يحدث أثرا أكبر من أثره فى اليوم السابق •

كان بونابرت يكره الحصار على شدة حبه للمعارك • فالحصار يذهب بصبره • وحوالى الظهر أرسل رسولا للحصن يحمل راية الهدنة ويدعو الحاكم للتسليم لأن الأسوار ثغرت • (وكانت قواعد الحرب السائدة يومها تقضى بأن الحامية التى ترفض التسليم بعد ثغر الأسوار تعرض نفسها للقتل بسيوف المحاصرين) وكانت شروط بونابرت سخية في الظاهر : وهى أن يسلم الحصن للفرنسيين قبل الساعة الرابعة بعد الظهر ، وأن يحتفظ أفراد الحامية بسلاحهم ومتاعهم دون الخيل ، وأن تسير الحامية فى الصحراء الى بغداد وتقسم اليمين الا تحارب في جيش الجزار مدى عام • ولكن من العسير أن يرى المرء كيف تستطيع الحامية الوصول الى بغداد راجلة دون أن تموت فى الطريق ، أضف الى ذلك أن بونابرت لم يكن ينوى أن يحترم شروطه •

وقبــل كبار ضباط العـريش الشروط واقســموا « بموسى وابراهيــم ، وبالنبى ••• وبالقرآن » أن يحترموها بحذافيرها • وكان هناك ٨٠٠ ــ ٩٠٠ رجــل من الحامية لا يزالون أحيــاء ، ويقول الكابتن دوجيرو انه كان بينهم « مملوكان شركسيان صغيران بارعا الجمال يحملان السلاح ولا يبدو عليهما أثر للخوف ، مع أنهما لا يجاوزان العاشرة أو الثانية عشرة » (١٦) •

وأمر بونابرت بنزع سلاح المملوكين ، مخالفا بذلك شروط التسليم ، وارسالهما لمصر حيث أطلق سراحهما • وأما باقى الجنود الترك ، ومعظمهم من المغاربة والألبان واليونان ، فقد أحاط بهم جنــود فرقة الجنرال بون بمجرد اخراجهم من الحصن ، وحملوا الكثيرين منهم بوسائل تتفاوت فى اللين على الانضمام للقوات الفرنسية خيرا من أن يهلكوا فى الصحراء • يقول مالو : « لقد ضربنا للترك أول مثل في الغدر والخيانة ، فهربوا كلهم بعد ذلك حالما سنحت لهم الفرصة » (١٧) •

ووجد الفرنسيون داخــل الحصن من المؤن الوفيرة ما خفف جوعهم • ويقول مالو الذى يعذر فى تذكر هذه الواقعة انهم وجدوا أيضا « غرفة بأسرها مملوءة بالمحتضرين من ضحايا الطاعون » (١٨) •

وأرسلت الأعلام التركية التى استولى عليها الفرنسيون الى القاهرة بأمر

بونابرت لعرضها فى الأزهر دليلا على النصر • ونفذ الأمر فعلا ، ورفرفت الأعلام من أهلة مآذن الأزهر خلال أيام عيد الفطر الثلاثة ، وحيتها المدافع الفرنسية من القلعة • يقول الجبرتي ان الضباط الفرنسيين بالقاهرة قاموا بزيارات رسمية لأعيان المدينة فى أول أيام العيد « وجاملهم الناس بالمداراة أيضا » (١٩) •

ولا ريب أن الأعيان كان قد بلغهم أن أمير الحج والقاضي ـ وهما الشيخان الموقران اللذان أخذهما بونابرت معه الى سوريا ـ أفلحا فى الهروب من حرسهما حتى قبل بلوغهما الحدود السورية •

***

واستأنف الجيش الفرنسي زحفه غداة الاستيلاء على العريش بعد أن ترك فيها حامية صغيرة • وكانت فرقة كليبر طليعة الجيش ، وقد ضل طريقه فى الصحراء ، ولكنه ظهر فى النهاية قبل أن يصل الجيش الى غزة ، وهي المدينة التي سملت فيها عينا شمشون • واستولى الجيش على غزة فى ٢٤ فبراير دون مقاومة ، وأعمل فيها الجنود السلب والنهب • وبعد أن تزود الفرنسيون بالأطعمة والذخيرة من المخازن التي استولوا عليها ، غادروا غزة بعد أربعة أيام ، كأنهم جحافل من الجراد مسافرين على بطونهم • وظل الجو كما كان غاية فى السوء • كتب بونابرت للجنرال ديجا يقول : « اننا فى الوحل والماء الى ركبنا • ولا يختلف الجو والبرد كثيرا عنهما فى باريس فى مثل هذا الوقت من السنة • ومن حظك أنك تتمتع بشمس القاهرة » (٢٠) • وفتك البرد حتى بالجمال ، على صلابة أعوادها ، فى الطريق من غزة الى الرملة •

وفى الرملة ، وهي بلدة واقعة بين يافا وبيت لحم ، وصل اليها الفرنسيون فى أول مارس ، تبين أن الأهالي المسلمين هربوا فى اليوم السابق ، وأن المسيحيين بقوا بها ليرحبوا بالفرنسيين • ذلك كان أثر دعاية بونابرت بين المسلمين • كذلك وجد الفرنسيون مزيدا من المؤن خلفها مماليك ابراهيم بك • وقد زاروا ديرين ، أحدهما أرمني والآخر كاثوليكي روماني • وكان جميع نساء البلدة المسيحيات قد التجأن اليهما • (وواضح أنه حتى النساء المسيحيات لم يثقن بالفرنسيين الا الى هذا الحد ، وليس الى أبعد منه) • يقول ديتروا صاحب اليومية « هؤلاء النسوة بيض البشرة جدا ولكن بياضهن تشوبه الصفرة ، وبعضهن جميلات ، وهن لا يعبأن كثيرا بحجب وجوههن • وقد ابتهجن جميعا وابتهج الأطفال أيضا برؤيتنا » (٢١) • وأقام بونابرت مستشفى عسكريا فى الدير الكاثوليكي • يقول ديجنيت : « انه وان كان أكبر مباني المدينة وأوفرها راحة ، الا أنه صغير جدا ، وينقصه الهواء النقي •• وسرعان ما امتلأ بالمرضى » (٢٢) •

وبعد أن قضى الفرنسيون يومين بين المسيحيين استأنفوا زحفهم . فوصلوا أمام يافا حوالى ظهر اليوم نفسه . وكانت تدافع عن المدينة المسورة والحصن قوة تركية كبيرة وفريق من الأهالى . يقول ديتروا « تقع يافا على ساحل البحر المتوسط على قمة تل أشبه بقمع السكر . وفى منتصف هذا القمع يحيط بها سور تقوم على جناحيه الأبراج ، وهكذا تعلو المدينة من داخله كأنها المدرج فوق الأسوار ... وشمال هذا المرتفع وقلبه ... يكسوهما حرج كبير من أشجار البرتقال والليمون واللوز » . (٢٣)

وفى اليوم التالى وهو ٤ مارس ، بدأ الجنرال بونابرت يتخذ العدة للهجوم على المدينة التى تبعد نحو خمسين ميلا عن بيت لحم ، حيث بشر الملائكة قبل ثمانية عشر قرنا بالسلام على الأرض لجميع البشر ذوى النيات الطيبة . وبدأ الهجوم فى الساعة الثانية من بعد ظهر ٧ مارس ، بعد أن رفضت الحامية شروط التسليم التى عرضها عليها بونابرت واحتجزت رسوله . وأحدث رجال الخنادق ثغرة فى الأسوار . وما هى الا ساعات حتى سقطت المدينة فى أيدى الفرنسيين على الرغم من مقاومة المدافعين العنيدة . أما ما حدث عند سقوطها فروايات شهود العيان عنه موفورة جدا . وبعض هذه الروايات واقعية ، وبعضها مشوبة بالسخط ، ولكنها كلها متفقة .

***

لم يشهد الميجر ديتروا من قبل مدينة تقتحم وتؤخذ عنوة . يقول « ان كان هناك تعويض عن بشاعة هذا المنظر فهو بسالة جنودنا الذين قاموا بالهجوم ، ورباطة جأش قائدنا الأعلى وضباط أركان حربه وحكمتهم وجرأتهم ، وكانوا طوال الوقت على أقدام من الثغرة » . (٢٤) وحالما استولى هؤلاء الجنود البواسل على المدينة ودخلوها أعملوا السيف فى نحو ٢٫٠٠٠ جندى من الحامية كانوا يحاولون التسليم . وراح الفرنسيون يقتلون أعداءهم كالمجانين طوال ذلك المساء كله ، والليل كله ، وفى صباح الغد . فالرجال والنساء والأطفال ، والمسيحيون والمسلمون « وكل من له وجه انسان سقط صريع جنونهم » كما قال مالو الذى ما زالت الصفحات التى كتبها فى وصف هذا المشهد البشع تتجاوب بشعور الفزع والخزى .

ان سلوك الجنود الظافرين فى المدن التى يستولون عليها عنوة ظاهرة يصلح لبحثها الطب النفسى لا المؤرخون . ولا حاجة بنا لوصف هذا المشهد — فكلنا قرأ روايات كهذه ، وجميعها متشابهة . ولا يملك المرء الا أن يتساءل ما الذى يجعل جماعة من الناس الطيبين فى قرارة نفوسهم — ومنهم الأزواج العطوفون ، والأبناء المطيعون ، والمحبون الرفيقون ، والآباء أرباب الأسر — ينقلبون وحوشا ضارية زاعقة ، فيطعنون بمداهم الشيوخ والفتيات والرضع ،

ويهتكون أعراض البنات وهن مازلن فى أحضان أمهاتهن المائتات . ويتضاعف هياجهم حين يسمعون صرخـــات الاسترحام ، ويمضون في هذا الجنون أربعا وعشرين ساعة ؟ لعله لا يكفى أن يعلل هذا الغضب المجنون بما قاسوا قبله من آلام وحرمان ، أو بما يحدثه الهجوم نفسه من توتر . وأعود فأقول . ان هذه المسألة لم تبحث بحثا علميا . أما فى الحرب الحديثة فلعليا لا تحتفظ الا بأهمية نظرية ، اذ أنه من اليسير اليوم قتل مليون من الآدميين دون انفعال على الأطلاق بالضغط على زر ، ومع ذلك لابد من التسليم بأن هذه الظاهرة ـ فى الصراع المدنى على الأقل ـ ليست باقية فحسب ، بل انها فى بعض أنحاء العالم تنذر بالانفجار على نطاق لم يسبق له نظير .

كل هذا ، وشر من هذا ، وقع فى يافا فى ٧ و ٨ مارس . أما نابليون فليس لديه ما يقوله فى تاريخ الحملة السورية عن هذا الموضوع الا هذه العبارة: « بلغت سورة الجند قمتها : فأعملوا السيف فى كل انسان ، وقاست المدينة بعد نهبها جميع الأهوال التى تقاسيها مدينة مقتحمة » . (٢٦) ولكن ما كل شاهد عيان لهذا الحادث احتفظ بمثل هذه الذكرى الهادئة المحايدة .

وكان ٥٠٠ر٢ ـ ٠٠٠ر٣ جندى تركى قد التجأوا الى القلعة . ففى صباح ٨ سبتمبر أرسل بونابرت اثنين من ياورانه ـ بوهارنيه وكروازييه ، وكلاهما حدثان ـ الى المدينة ليريا ما الذى يمكن عمله لاعادة النظام الى ربوعها . وناداهما الجنود الترك من نوافذ القلعة بعد أن تبينوهما من حزاميهما العسكريين . وصاح الترك بأنهم على استعداد للتسليم اذا وعدوا بألا يعاملوا كما عومل بقية أهل يافا . وأعطى الشابان على مسئوليتهما تأكيدات شفوية بأن رجال الحامية لن يقتلوا . وعلى هذا الوعد خرج الجنود وسلموا سلاحهم . فلما رأى بونابرت ياوريه يعودان مع بضعة آلاف من الأسرى اصفر وجهه وقال ساخطا « ماذا يريدانني أن أفعله بهم ؟ ما هذا الذى صنعاه ؟ (٢٧) .

ويذكر نابليون وجميع كتاب المذكرات والمؤرخين ـ حتى من خصومه ـ هذه النقط التالية ، محاولين تبرير القرار الذى اتخذه فى أمر هؤلاء السجناء : ان ارسالهم الى مصر يتطلب حراسا كثيرين لا قبل لبونابرت بأن يقتطعهم من جيشه ، أما ابقاؤهم معه أسرى حرب أو جنودا احتياطيين فأمر خطر وثقيل ، وقد زعم أنه ، على أية حال ، لم يكن لديه من الطعام ما يكفيهم دون اضرار بالغ بجيشـــه ، وأما نزع سلاحهم واطلاق سراحهم . فلن تكون نتيجته الا انضمامهم الى الجزار لتعزيز قواته فى عكا . ومن ثم لم يكن مناص من قتلهم .

ومن العســير التســليم بجميع أجزاء هذه الحجج ، بصرف النظـر عن الاعتبارات الأدبية التى تحمل المرء على أن يشجب ، بادىء ذى بدء ، ذبح عدة آلاف من الأسرى دون استفزاز ، بعد أن استسلموا بسلامة نية بناء على وعود

بدلت لهم ، فى حين كانوا يستطيعون بذل أرواحهم غالية · وأكثر من هذا عسرا أن يفهم لم قبل بعض المؤرخين المشهورين هذه الحجج التى تخلط بين مجرد الراحة ، وبين الضرورة القاهرة · ولنسلم بأنه لم يكن لديه عدد كاف من الرجال لحراسة الأسرى فى طريقهم الى مصر برا ، ولا عدد كاف من السفن لحملهم اليها بحرا ، ولنسلم بأن جيشا عدته ١٣٫٠٠٠ لا يستطيع أن يجر معه ٣٫٠٠٠ أسير ، ومن باب أولى ٣٫٠٠٠ حليف مريب بالطبع · ولكن لننظر فى أمر اطعامهم : ان الطعام الوحيد الذى كان الفرنسيون يملكونه هو ما استولوا عليه من أسراهم · ولعلهم كانوا يستطيعون توفير ما يكفى منه لامساك رمق هؤلاء الأسرى الذين كانوا يأكلون طعامهم · ثم كم من الرجال كان على بونابرت أن يتركهم ليحرسوا ٣٫٠٠٠ من الأسرى العزل الجائعين · ربما مائة · لقد كان فى استطاعته تدبير هذا العدد · والواقع أنه ترك أكثر من مائة رجل فى يافا · ولكن لنفرض أنه حتى هذا كان غير ميسور له ، وأنه لم يكن يستطيع تدبير حراس قليلين لمعسكر من الأسرى ، ولا اطعام هؤلاء الأسرى بقصعة من الأرز كل يوم دون أن يثير التذمر بين رجاله — فلم لم يكتف بتجريدهم من السلاح وتسريحهم ؟ انهم لو ذهبوا للانضمام الى حامية عكا لكانوا عبئا على الجزار لا عونا له ، لأنه كان سيضطر الى اطعامهم وتسليحهم وهو فى غير حاجة ماسة اليهم ·

وكانت حجة بونابرت الأخيرة ، أنه وجد بين حامية يافا نحو ٩٠٠ رجل من حامية العريش كان قد سمح لهم بالانصراف بأسلحتهم شريطة ألا يقاتلوا مدة عام تحت امرة الجزار : فما داموا قد حنثوا بيمينهم ، فلا حاجة به للإبقاء على حياتهم · وهى حجة واهية · فقد أرسل بونابرت الى مصر نفرا من هؤلاء الرجال التسعمائة الذين وجدهم فى حامية العريش وأدخل نفرا أكثر فى قواته ، وبذلك حنث هو بوعده قبل أن تتاح لهم فرصة الحنث بوعدهم · ولا يمكن أن يكون باقيا من هؤلاء الرجال أكثر من ٣٠٠ أو ٤٠٠ ، ان كان هناك أى عدد كبير منهم · ثانيا ، ما هو الجهد الذى بذل للتعرف عليهم ، أيا كان عددهم ؟ والجواب أن جهدا لم يبذل قط · وأخيرا ، حتى لو فرضنا أن ثلث الأسرى كانوا فعلا من حامية العريش ، وأنهم حنثوا بيمينهم ، فلم يعاقب الثلثان الباقيان ؟

ان المرء لا يحب أن يسلم بأن رجلا عظيما كنابليون يمكن أن يصدر أمره بمذبحة شاملة دون ضرورة · وقد يكون أكثر راحة وعزاء له أن يقبل قصة بوريين ، وهى أن بونابرت عقد مجلسا عسكريا لم يصل الى هذا القرار الأليم الا بعد أن وزن جميع الاعتبارات الممكنة الأخرى · ولكن لسوء الحظ لا يذكر أحد غير بوريين هذا المجلس العسكرى ، بل ولا المشورة غير الرسمية · وليس هناك شاهد على أن مجلسا قد عقد · وكل الشواهد تشير الى أن بونابرت

وحده هو الذى أمر باعدام الأسرى ، وان أحدا لم يعترض أو يجرؤ على الاعتراض، وأن الاعدام نفذ بدقة تامة • واذا كان للاعدام سبب ، فهو من نوع مختلف تمام الاختلاف عن الأسباب التى ذكرت • ذلك أن بونابرت تعمد سياسة ترمى للتأثير القوى فى الجزار • فاذا قاومه الجزار فى عكا ، حاق برجاله نفس المصير الذى حاق بحامية يافا • رجاله فقط ــ لا الجزار نفسه • والواقع أن بونابرت استثنى عددا من الأسرى من هذه المذبحة ، لاسيما المواطنين المصريين الذين ردهم الى بلدهم ، و ٣٠٠ مدفعى تركى دربهم الضباط الفرنسيون وكان يرجو الافادة منهم • ولكن أهم من استثناهم هو حاكم يافا ، عبد الله أغا ، الذى وقع على قدم بونابرت يطلب الرحمة وينالها فورا • ولم يكن الأثر النفسى للعفو عن عبد الله وذبح الحامية مما يغيب عن الجزار وحاميته • ومن المسلم به أن ٢٫٥٠٠ شخص قتلوا ، لا لضرورة قاهرة ، بل تحقيقا لراحة واحداثا لتأثير متعمد •

واذا كان شهود هذه الجريمة البشعة قد ذكروا ظروفا مخففة لها فهم انما فعلوا هذا ليهونوا من عار اشتراكهم فيها ، أو على الأقل وقوفهم مكتوفى الأيدى وهم يشهدون ارتكابها •

وقد سجل الميجر ديتروا بيانا بعدد من أعدموا (٢٨) :

ففى ٧ مارس مات أثناء الهجوم أكثر من	٢٫٠٠٠	تركى
وفى ٨ مارس رمى بالرصاص	٨٠٠	»
وفى ٩ مارس رمى بالرصاص	٦٠٠	»
وفى ١٠ مارس رمى بالرصاص	١٫٠٤١	»
الجملة	٤٫٤٤١	

والى القارىء ما كتبه المواطن بيروس ، مساعد كبير الصيارفة استيف فى ١٠ مارس (خامس آحاد الصوم الكبير) ، لأمه ، وهى بلا شك سيدة طيبة من سيدات الطبقة الوسطى الراقية فى كاركاسون :

« ان قيام الجنود الحانقين ، بعد اقتحام مدينة والاستيلاء عليها عنوة ، باعمال السلب والنهب والحرق والتقتيل كيفما اتفق أمر تقتضيه قوانين الحرب والانسانية تسدل قناعا على هذه الفظائع • ولكن صدور الأمر ، بعد انقضاء يومين أو ثلاثة على الهجوم وبعد أن تهدأ سورة الغضب ، فى وحشية هادئة ، بقتل ٣٫٠٠٠ رجل استسلموا لنا بسلامة نية ! تلك جريمة بشعة ستشجبها الأجيال القادمة ما فى ذلك ريب ، وسيجد الذين أمروا باقترافها مكانهم بين جزارى البشرية •

ان نحو ٣٫٠٠٠ رجل ألقوا سلاحهم ، فسيقوا على الفور الى معسكرنا وفصل عنهم بأمر القائد الأعلى المصريون والمغاربة والأتراك ٠

وفى صباح اليوم التالى أخذ المغاربة جميعهم الى شاطىء البحر وبدأت كتيبتان فى رميهم بالرصاص : وكان أملهم الوحيـد فى النجاة هو أن يلقوا بأنفسهم فى البحر ، فلم يترددوا ، وحاولوا كلهم الهروب سباحة ٠ فضربوا بالرصاص على مهل ، ولم تمض لحظة حتى اصطبغ ماء البحر بدمائهم وانتشرت جثثهم على سطحه ٠ وأسعد الحظ نفرا قليلا فوصـلوا الى بعض الصخور ، ولكن الأوامر صدرت للجنود باقتفاء أثرهم فى قوارب والاجهاز عليهم ٠٠٠ أما وقد تم اعدام هؤلاء الرجال فقد رجونا صادقين ألا تتكرر هذه الجريمة ، وأن يعفى الأسرى الباقون من القتل ٠٠٠ ولكن سرعان ما خاب رجاؤنا حين اقتيد ١٫٢٠٠ مدفعى تركى فى اليوم التالى ليعدموا ، وكانوا قد جوعوا يومين أمام خيمة الجنرال بونابرت ٠ وصدرت التعليمات المشددة للجنود بألا يسرفوا فى الذخيرة ، فبلغت بهم الوحشية أن أعملوا فيهم الطعن بالسنكى ٠ وقد وجدنا بين الضحايا أطفالا كثيرين تشبثوا وهم يموتون بآبائهم ٠ وسيعلم هذا المثال أعداءنا أنهم لا يستطيعون الركون الى صدق نية الفرنسيين ، وسيقع دم هؤلاء الآلاف الثلاثة الضحايا على رءوسنا ان عاجلا أو آجلا » (٢٩) ٠

والمواطن بيروس ، كاتب هذا الخطاب ، لا يقل فى وطنيته كفرنسى عن المواطن بونابرت ، أو عن أى عضو فى منظمة المقاومة السرية فى ١٩٦٢ ٠

وغير هـذه الرواية من روايات شهود العيـان ، وبعضهم شاركوا فى الجريمة ، أكثر اثارة للاشمئزاز من رواية بيروس ٠ وحسبنا أن نذكر واقعة صغيرة : وذلك أن الترك وهم على شاطىء البحر كوموا جثث زملائهم الموتى محاولين عبثا أن يقيموا منها متاريس فى وجـوه الطاعنين بالسناكى ٠ قال بونابرت : « لقد كان السنكى دائما سلاح الشجعان » (٣٠) ٠

كانت فرقة الساحل الرهيبة لا تزال تواصل مهمتها حين أصدر بونابرت فى ٩ مارس منشورا لأهالى فلسطين يقول فيه : « الزموا الهدوء فى بيوتكم ٠٠ وأنا أضمن سلامة الجميع وحمايتهم ٠٠ وسيكون الدين على الأخص موضع الحمـاية والاحتـرام ٠٠٠ لأن جميـع الطيبـات من عنـد الله : والنصر من عند الله » (٣١) ٠

وفى اليوم نفسه كتب الى الجزار يقول : « ما دام الله يهبنى النصر فانى أحب أن أحذو حذوه تعالى فلا أكون شفيقا رحيما بالشعب فحسب بل بحكامه أيضا » (٣٢) ٠ والخطاب دعوة للتسليم ٠

ومن المؤن التى استولى عليها الفرنسيون فى يافا ٤٠٠٫٠٠٠ جراية من البسكويت و ٢٫٠٠٠ قنطار من الأرز ٠ وقد نهب الجنود أكثر من هذا كثيرا

قبل أن يتمكن القومسير من الاستيلاء عليه • ولكن الأسرى وجب ضربهم بالنار لأنه لم يمكن توفير الطعام لهم •

وفي ٨ مارس — وهو اليوم الثانى من أيام المذبحة ، أرسل الله — الذى من عنده تأتى جميع الطيبات — الطاعون على الجيش الفرنسى وصبه على رؤوسهم بسخاء •

***

كان الطاعون فى دمياط خفيفا بعض الشيء • وقد اشتد فى رشيد وأبى قير والاسكندرية ، ولكن فى هذه البلاد أيضا أصاب حاميات منعزلة ، ولم يصب جيشا بأسره فى الميدان • أما الطاعون فى يافا فكان يختلف عن هذا • يقول ديجنيت انه ما وافى ٩ مارس حتى كانت احدى وثلاثون حالة دخلت المستشفى المنشأ فى دير الروم الأرثوذكس ، ومات من هؤلاء أربعة عشر • وكتب ديترو فى اليوم التالى فى يوميته يقول : « تفشى فى فرقة الجنرال بون مرض مصحوب بدمامل يفضى الى الموت العاجل ويؤكد لنا الأطباء أنه ليس الطاعون » • ويقول فى ١٢ مارس : « انه حمى شديدة مصحوبة بدمامل ••• وقد خر تحت وقعها كثير من الجنود وماتوا فجأة • وقد ظن أن المرض هو الطاعون ، وانتشر هذا الرأى انتشارا واسعا حمل نفرا ممن ظهرت عليهم أعراضه على الانتحار » (٢٣) •

والمرض الوحيد الذى يمكن أن يلتبس معه الطاعون الدملى فى طوره الأول هو التسمم الكحولى الحاد • فترى المريض خاملا يترنح ويفقد القدرة على الربط ويهذى فى تشنجات تشبه هذاء السكارى • وتسبب الهذيان حمى عرف أنها ترتفع الى ١٠٧ فهرنهيت • ويصحب هذا ألم عام ، لا سيما صداع عنيف • والعرض التالى الذى قد يستغرق ظهوره يوما أو أياما ، هو ظهور دمل أو عدة دمامل ورد من قبل وصفها على لسان الجندى مييه (*) • فاذا ظهر هذا العرض لم يعد فى نوع المرض خفاء ، وأصبحت نتيجته خطرة • وقد لاحظ الفرنسيون أن الآلام التشنجية التى تصيب المريض كثيرا ما تشبه أعراض مرض الكلب •

وبذل ديجنيت ورجاله قصارى جهدهم لمنع انتشار المرض — سواء بتغيير موقع المعسكرات ، أو بعزل جميع المرضى ، أو بفصل بعض ضحايا الطاعون منذ البداية عن غيرهم من المرضى ، ومع ذلك فان ديجنيت — رغم أنه كان على بينة من هذا المرض — أصر فى حكمة على اخفاء حقيقته عن الجيش • وبالطبع لم تجد هذه المحاولة بعد بضعة أيام •

(*) انظر الفصل السابع (٢) •

ورغبة فى مقاومة الرعب الذى انتشر فى صفوف الجيش ، أتى الجنرال بونابرت فى ١١ مارس أمرا لا يقل غرابة عن المذبحة التى أمر بارتكابها قبل ثلاثة أيام فقط • وصورة الرسام جرو « بونابرت يتفقد ضحايا الطاعون فى يافا » تستحق ما حظيت به من شهرة • فهى على عكس معظم الصور التاريخية المشهورة مبنية على حقائق ثابتة • ولنا أن نثق بديجنيت شاهدا ، وهو بالطبع لم يكن صديقا لبونابرت • **يقول :**

« فى ١١ مارس ١٧٩٩ شعر الجنرال بونابرت ، ومعه ضباطه أركان حربه ، أن من واجبه زيارة المستشفى ••• وجال الجنرال فى أرجاء المستشفى وملحقاته ، وتكلم مع معظم الجنود الذين كانوا فى وعى يسمح لهم بسماعه ، وظل ساعة ونصف الساعة بغاية الهدوء ، يبدى اهتمامه بتفاصيل الادارة • وبينما كان فى عنبر ضيق مزدحم جدا ، ساعد على رفع ، أو على الأصح حمل جثة بشعة لجندى اتسخت سترته الممزقة من تفجر دمل متقيح ضخم من تلقاء نفسه » (٢٤) •

ويروى خطاب كتبه مندوب الجيش « دور » نفس القصة ، وكذلك ترويها فقرة فى يومية ديتروا ، ويضيف اليها هذا التعقيب : « ان هذا العمل الذى يدل على فطرة سياسية عميقة أحدث أثرا بالغا ، وقد خف الرعب من المرضى فعلا » (٣٥) •

ترى ، أى رجل هـذا الذى أمر يوما فى هدوء بقتـل ١٠٤١ شخص بالسناكى ليحدث ضربا من التأثير ، وأتى فى اليوم التالى بنفس الهدوء عملا يحجم عنه أعظم القديسين ، لا لشىء الا ليحدث ضربا آخر من التأثير ؟ انه سؤال يفتح الباب لكثير من الجدل • ولكن الذى لا جدال فيه أن بونابرت كان محظوظا : فان عدوى الطاعون لم تنتقل اليه • وبعد ستة شهور ، فى ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ ، نراه يقول للمجلس الأعلى للهيئة التشريعية الفرنسية « تذكروا أن اله الحرب واله الحظ يسيران بجانبى » (٣٦) • وكان له كل العذر ان آمن بهذا ، ولكنه بالطبع لم يؤمن به • وهذه الملاحظة أيضا قدرها ــ أو على الأصح أساء تقديرها ــ ليحدث ما يريد من تأثير •

وبعد تفقده المستشفى بيومين ، أصدر الأوامر بتجنيد المسيحيين من أتباع الكنيسـة اليونانية الأرثوذكسية اجباريا لخـدمة الجرحى فى المستشفيات ، والمسيحيين من أتباع الكنيستين اللاتينية والأرمنية لملاحظة « حالات الحمى » فى المستشفى ــ والمقصود بها حالات الطاعون • وفى نفس الأمر أنشأ ديوانا محليا يشترك فى عضويته المسلمون والمسيحيون ، وعهد ب « اقليمى » يافا والرملة الى رئيس ادارة الجيش ، الجنرال جريزيو • وفى اليوم التالى رحل هو وجيشه للزحف على عكا •

لم يكن الجنرال جريزيو شاكرا للمنصب الذى وكل اليه · فلقد روعه الطاعون ، ولم يره أحد خلال ادارته (القصيرة الأجل) الا حين غادر خيمته ليحبس نفسه فى بيت من البيوت · ولم يكن يتصل بالعالم الخارجى الا من ثقب فى الحائط يتسلم منه طعامه أيضا · ولم يفعل هذا الا يوما واحدا ، وفى اليوم التالى أصابه الطاعون ومات ·

وقد تركت لجريزيو حامية من ١٥٠ رجل و ٣٠٠ جندى مصاب بالطاعون· وكان مالو ملحقا بأركان حربه ·.وبعد أيام من رحيل الجيش انضم اليه عضو آخر من اللجنة العلمية هو سان سيمون ، أخو مؤسس الطائفة السانسيمونية · يقول مالو : « كان فى صحة سابغة · وفى اليوم التالى مات » (٣٧) ·

ووكل الى مالو نفسه ادارة مستشفى الطاعون · كتب يقول : « كنت أذهب الى المستشفى فى مثابرة ، وأنفق كل صباح وسط الروائح الفاسدة الكريهة المنبعثة من ذلك المجرور ، الذى كان كل ركن فيه مكتظا بالمرضى · ولم أفطن الى أعراض الطاعون الا فى اليوم الحادى عشر · وفى ذلك الوقت تقريبا مات رئيس ادارة الجيش الجنرال جريزيو · وكان نصف الحامية مضروبا بالطاعون ، وبلغ عدد الموتى ثلاثين كل يوم ··· ومن بين كل اثنى عشر رجلا لم ينج سوى رجل واحد ··· وتفشى الطاعون فى كل بيت ··· وعزل رهبان دير الكابوشين أنفسهم اتقاء العدوى ، ولكن أكثرهم مات » (٣٨) ·

وكان مالو من بين الـ ٨٪ الذين نجوا · فأجلى الى دمياط فى أواخر ابريل ، وتماثل للشفاء أثناء رحلته فى البحر · فلما عاد بونابرت الى يافا فى ظروف تختلف عن الظروف التى زارها فيها أول مرة ، كان لا يزال فى المستشفى نحو ٢٠٠ من مرضى الطاعون · وسنرى كيف تصرف فيهم ·

فى هذه الأثناء كان بونابرت يحاصر عكا · وكان الطاعون متفشيا فى جيشه وفى حصن الجزار على السواء ·

٣

فى عام ١٧٨٣ دخل لوى ـ ادمون لوبيكار دفليبو المدرسة الحربية فى باريس وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وهناك زامل تلميذا كورسيكيا يدعى نابليون بونابرت · ويبدو أنهما كانا متباغضين بالفطرة · كانا يشتركان فى مقعد واحد فى الفصل ، ولم تخل ركب الصبيين من الكدمات الزرقاء والسوداء لفرط ما كان الواحد يتلقاه من صاحبه من ركل · وكان فليبو دائما متقدما على بونابرت فى الفصل · ينال الجوائز الأولى فى حين ينال بونابرت الثالثة ، وتخرج

فى ١٧٨٥ بتقديرات أعلى من منافسه • وعين كلاهما ملازما فى المدفعية • ولما اندلع لهيب الثورة الفرنسية افترق مجرى حياة الواحد عن صاحبه تماما ، ولكن الصدمة جمعتهما وجها لوجه مرة ثانية بعد عشر سنوات •

وهاجر فليبو الأرستقراطى فى ١٧٩١ وحارب فى جيش كونديه ضد الجمهورية الفرنسية الى ١٧٩٥ ، حين عاد الى فرنسا يحمل مشروعا لاثارة تمرد ملكى فى الاقليم الوسطى • فلما قبض عليه هرب بمعونة احدى قريباته ، ولم يلبث أن غادر فرنسا فى ١٧٩٧ ، ولكنه عاد اليها فى نفس السنة ــ خفية بالطبع ــ ليستأنف نشاطه المعادى للثورة • وفى مستهل ربيع ١٧٩٨ صمم على تحرير ضابط بحرى انجليزى محبوس فى سجن « التمبل » فى باريس ، وهو السجن الذى أودع فيه لويس السادس عشر ومارى انطوانيت قبل اعدامهما • أما الانجليزى فاسمه وليم سدنى سمث ، المشهور بالسير سدنى سمث ، ولكن يجب ألا نخلط بينه وبين سميه الكاتب •

وبدأ فليبو تنفيذ خطته بمطارحة ابنة السجان الغرام ــ وهى دائما وسيلة لطيفة ناجعة فى الاتصال بالسجين • كذلك حصل على أوراق مزيفة جعلت منه ضابط بوليس • وذات يوم تقدم الى سجن التمبل ومعه أربعة من أصدقائه المتنكرين فى زى رجال الشرطة ، وأبرز أمرا مزيفا سلم له على اثره سمث • وفى ٨ مايو وصل مع سمث الى لندن • وحصل له سمث على وظيفة كولونيل فى الجيش البريطانى •

أما سدنى سمث فلم يكن ماضيه أقل طرافة من ماضى فليبو • فقد ولد فى سنة ١٧٦٤ ، وكان الابن الثانى لكابتن فى فرقة الحرس ، ثم دخل البحرية فى الثالثة عشرة ، وعين ملازما فى سنة ١٧٨٠ ، وشهد القتال فى خليج تشسبابيك وفى سانت كتس ، وفى سنة ١٧٨٥ خرج فى أجازة طويلة • وبعد أن قضى عامين فى فرنسا ــ ذلك البلد الذى يبدو أنه كان يؤثره على غيره دائما برغم أنه قدر له أن يحاربه فى قوة لا تقل عن محاربة أى عدو له ــ قرر أن يلقى نظرة على بلاد المغرب، وهناك أنفق أكثر عام ١٧٨٨ • وبعد أن قدم للبحرية تقريرا عما رآه مضى الى ستوكهولم ، فوقع موقعا حسنا من نفس الملك جوستاف الثالث (وما كان أيسر اعجابه بالشبان البواسل المغامرين) وعين ضابطا فى البحرية السويدية وقاتل ضد البحرية الروسية وأميرها جون بول جونس ، فمنحه جوستاف لقب الفروسية (وهو لقب اعترف به جورج الثالث ــ ومن هنا تلقب سدنى سمث بالسر) • وبعد اقامة وجيزة بانجلترة يمم صوب القسطنطينية ، حيث كان أخوه تشارلز سبنسر سمث سكرتيرا أول فى السفارة البريطانية • وعاش هناك ثلاثة أعوام سعيدا يصنع صداقات أفادته اعظم فائدة فيما بعد • ولما استدعته البحرية الى انجلترة فى ١٧٩٣ لم يجد مركبا ينقله ، فابتاع سفينة جمع فيها نوتية من ملاحين بريطانيين جنحت بهم سفينتهم ، وعبر البحر المتوسط وانضم للأسطول البريطانى فى طولون •

ولما أكره الانجليز على الجلاء عن طولون بفضل جهود الكابتن بونابرت ، تطوع سمث باحراق المراكب الانجليزية التى اضطروا لتركها · وأحرقها ، ولكنه لم يأت عليها تماما · ومنا بدأت السلطات الفرنسية تفطن لوجوده . ولما لم يكن يشغل وظيفة ضابط عامل فى البحرية البريطانية ، فقد اعتبرت هذه السلطات مغامرته تلك عملا من أعمال القرصنة ·

ولكنه لفت نظر الفرنسيين اليه أكثر من ذى قبل بعد أن عين ضابطا حسب القواعد المرعية عند عودته لانجلترة ، وذلك بالغارات التى كان يشنها على المراكب الفرنسية على طول ساحل فرنسا · والواقع أنه ما كان يستطيع أن يفعل شيئا دون أن يلفت النظـر اليه ، فقد كان فى مزاجه ذلك النـوع الانجليزى من الزهو ، الذى هو خليط من الوقاحة الهادئة ، والشجاعة ، والاندفاع ، وحب التمثيل · وقبض عليه الفرنسيون أمام الهافر فى ١٧٩٦ ، واذ كان لا يزال متهما بالقرصـنة بسبب مغامرته فى طولون ، فقد سـجنه الفرنسيون وأحكموا حراسته فى التمبل · وهنـاك ظل خاملا عامين الى أن أنقذه فليبو ، الذى كان زهوه من النوع الفرنسى الأرستقراطى ــ وقوامه البسالة المضبوطة غاية الضبط ·

وعين اللورد سبنسر الكابتن سمث قائدا للسفينة « تيجر » ، ذات المدافع الثمانين ، وأصدر اليه التعليمات بالابحار الى البحر المتوسط · واصطحب سمث فليبو معه · ولما كان قد تلقى سلطات خاصة ذات طبيعة دبلوماسية تخول له المفاوضة مع الباب العالى،فقد اعتبر نفسه مستقلا عن قيادة نلسن،ورقى نفسه الى رتبة الكومودور ، ورفع راية الكومودور على سفينته · ولكن نلسن أنكر عليه تصرفه هذا وان كان هو نفسه لم يكن على الدوام مثلا يحتذى فى طاعة رؤسائه · واضطر سمث فى النهاية الى الرضوخ والاعتراف بسلطة نلسن · وفى أوائل مارس ١٧٩٩ أخذ عن هود قيادة الأسطول الصغير الذى كان يجوب البحر المتوسط ، وبذلك انتقل اليه لقب الكومودور بالطريقة القانونية · وما ان وصل حتى نما اليه نبـأ بأن بونابرت استولى على يافا · فأرسل من فوره السفينة ثيسيوس وعليها فليبو الى عكا ليعزز دفاع الجزار ، ثم تبعها هو بعد قليل ، ووصل الى عكا على ظهر تيجر فى منتصف مارس ·

ولولا وصول فليبو فى الوقت المناسب لجاز أن ينسحب الجزار من عكا ، والتى يبدو أنها كانت غير محصنة · وقد ثناه فليبو عن الانسحاب ، ولم تمض أيام قلائل حتى جعل من عكا حصنا منيع المنال · وما ان تولى فليبو تنظيم الدفاع على البر ، وسندنى سمث تعزيزه من البحر - حتى إنتعشت على الفور روح الجزار المقاتلة ·

أما ماضى الجزار ، الذى كان عمره ضعف عمر منقذيه الفرنسى والانجليزى،

فهو يزري بماضي كل منهما • ولد هذا الشيخ ــ وكان بين الستين والسبعين ــ في البوسنة ، وهي جزء من شمالي يوغوسلافيا معظم سكانه من المسلمين ، وكانت يومها ولاية تركية على الحدود • ثم نزح عن البوسنة فتيا بسبب بعض المشاكل ، وربما بسبب جريمة قتل ، وانخرط في سلك البحرية التركية ، وتشاجر مع زملائه البحارة ، وترك البحرية ، وتضور جوعا فترة من الزمان ، ثم باع نفسه لتاجر رقيق في أسواق الأستانة ، فحمل الى القاهرة حيث اشتراه علي بك الكبير • وبعد أن أصبح أحمد ــ وهو اسمه الحقيقي ــ مملوكا ، أدى لعلي بك خدمات ذات طبيعة خاصة • ذلك أن علي بك كان يسير حثيثا الى منصب الحاكم الفعلي لمصر • وقد اقتضاه الوصول الى هذا المنصب التخلص من نفر من البكوات المماليك ، فتخلص له منهم أحمد بطرق شتى ، وهذا هو الذي أكسبه لقب الجزار ، الذي حمله منذ ذلك الوقت في فخر واعتزاز •

وبعد أن قضى بضع سنوات في عمله هذا تشاجر مع عليٰ بك ــ وكان ذا طبيعــة مشاغبة ، مزهــوا على الطريقة البوسنية ــ ورحــل عن مصر الى القسطنطينية رأسا ، ومنها الى سوريا حيث احتمى بيوسف أمير الدروز • وعمل ضابطا تحت قيادة والي دمشق ، وبعد قليل عين حاكما على بيروت • واختلف مع الأمير يوسف بعد أن سرقه ، وبعد شتى المناورات السياسية المعقدة ، التي تستعين بالقتل ، وفق في الظفر بولاية عكا • ويصف البارون دتوت الذي زار عكا في ١٧٧٧ الجزار بأنه رجل وفي لذلك الطراز القديم من الحاكم الشرقي المستبد وفاء يتهمه الانسان معه بالافراط • يقول البارون : « لقد دفن في الجدران عددا كبيرا من المسيحيين اليونان حين أعاد بناء أسوار بيروت ليدفع عنها غزو الروس • ولا تزال ترى رؤوس هؤلاء الضحايا المساكين التي تركها الجزار ظاهرة ليستمتع بتعذيب أصحابها » (٣٩) • وليس معنى هذا أن القصة حقيقية، ولكنه يدلنا على نوع القصص التي تداولها الناس عن الجزار • ويبدو أنه كانت له جوانبه الطيبة ، فكان يطعم الفقراء ، ويوظف من شوه أجسادهم ، ويزوج أرامل الرجال الذين قتلهم • ومهما يكن من شيء ، فان الجزار كان ذا خلق قوي ، وما من شك في أنه كان أشد الولاة الأتراك المعاصرين له حبا للقتال والمشاكسة • كذلك اكتسب فيما يقرب من ستين عاما حسا سياسيا مرهفا أنبأه بأن الجنرال بونابرت لا يمكن الوثوق به حليفا ، وأنه لا يحتمل أن يحتفظ طويلا بسلطانه على مصر اذا قاومه الجزار • ولم يكن لرسائل بونابرت اليه أيا كان نوعها ــ سواء تملقته أو هددته ــ من أثر الا اضحاكه أو اثارة غضبه الشديد • والحق أنه من العسير أن نرى كيف يمكن لرجل مثل الجزار أن يقبل الاحتفاظ بمنصبه بفضل رضاء الجنرال بونابرت وهو الرجل الخطير البعيد الأطماع ، لا برضاء السلطان سليم الثالث البعيــد عن الجزار ، والذي يدعه وشأنه •

ومع ذلك فان لبونابرت كل العذر اذا اعتقد أن شطرا كبيرا على الأقل من السكان السوريين ـ خصوصا الدروز والمسيحيين الذين كان الجزار يعمل فيهم السيف بين الحين والحين ـ سيؤيدونه ضد الباشا . وقد كتب المواطن بيروس . الذى لم يكن عاشقا أعمى لبونابرت ، لأمه فى ٢ أبريل يقول : « ان جميع السوريين يبغضون الجزار ... فما من عذاب لم يوقعه بمسيحيى سوريا ومسلميها على السواء ، بل بأكثر أتباعه ولاء له . وقد أمر بجدع أنوف البعض، وصلم آذان البعض الآخر ، وأمر بسمل عيون نفر منهم وتشويه نفر آخر أو حدوهم كالخيل » (٤٠) .

لقد ألف أحمد الجزار ، والكومودور سدني سمث ، والكومودور فليبو ، فريقا ممتازا ضد عدو لا يقل عنهم امتيازا .

٤

جلا الجزار عند اقتراب الفرنسيين عن ثغر حيفا الواقع على الطرف الجنوبى لخليج عكا . وفى ١٧ مارس أمر بونابرت باحتلال حيفا وأقام قيادته على جبل الكرمل ، وقد استطاع أن يشرف على الخليج الجميل كله . ولكنه لم يبد فى عينه جميلا ، ذلك أنه رأى أمام عكا بارجتين انجليزيتين ـ التيجر والزيلوس ـ وعدة زوارق حربية انجليزية ، وبعض السفن التركية . فعجل بارسال الأوامر للكابتن ستاندليه ، الذى كان مقررا أن يأتى بالأسطول حاملا مدفعية الحصار من دمياط الى عكا ، طالبا اليه اما ألا يبرح دمياط ، وإما أن يبقى فى يافا ان كان بارحها فعلا .

ولكن فى ذات اليوم الذى أملى فيه بونابرت هذا الأمر ، وهو ١٨ مارس ، كان الكابتن ستاندليه وأسطوله يدنوان من رأس الكرمل ، ووصول الأسطول فى اللحظة التى يصل فيها الجيش البرى كان فى ظاهر الأمر توقيتا دقيقا . ولكن هناك ظروفا يكون فيها التأخير خيرا من الوصول فى الميعاد . وكان اليوم كثير الضباب ، فلما دار ستاندليه حول رأس الكرمل لم يفطن الى سفن السر سدنى سمث الا وهى واقفة على رأسه تقريبا . واستولى الانجليز على ست من ناقلاته ، وفرت ثلاث بينها سفينة ستاندليه .

وفى اليوم التالى اتخذ الجيش الفرنسى موقفه أمام عكا . لقد فقدت مدفعية الحصار ، ولكن فقدها لم يبد أمرا خطيرا فى عين بونابرت ، فبدونها استولى من قبل على العريش ويافا ، ومظهر عكا يدل على أنها أقل منهما مناعة بكثير . فحصون عكا غتيقة بعض الشىء ، لأنها كانت مدينة مسورة حصنها فرسان الاسبتارية أثناء الحروب الصليبية ـ وكانت آخر معقل لهم فى سوريا ـ وهى

الى ذلك تبـدو متداعية - على أن كل من يهتم بتفقد أى حصن من حصـون الصليبيين فى بحـر المشرق يقتنع فورا بأنهم لم يبخلوا بالأحجـار لتعويض جدرانهم • أضف الى ذلك أن بناء عكا على شبه جزيرة جعل ثلثيها يواجه البحر الذى يسيطر عليه سدنى سمث • أما ناحية البر فكانت أسوارها ذات الشرفات تبرز فى زاوية • وعلى جوانبها أبراج عدة أطلق الفرنسيون على أكبرها بعد حين لقب « البرج اللعين » • وكانت قلعة الجزار ، وهى بناء مربع مكين يجاور السور ، تواجه الشرق • أما فى الغرب ، فى نهاية رصيف بارز فى الخليج ، فقد حصن فنار ليدافع عن الميناء الصغير • وكان محيط المدينة كلها لا يجاوز ألف ياردة تقريبا ، وسكانها يتراوحون بين ١٠٫٠٠٠ و ١٢٫٠٠٠ • وقد جلب الانجليز – بالاضافة الى المدافع المقامة فى الأبراج وعددها ٢٥٠ مدفعا – مدفعية خاصة بهم ، و ١٢٠٠ قنبلة و ٤٠٠٠ قذيفة مدفع ، ومدفعين من مدافع المورتر ، وكمية هائلة من البارود •

ومع أن بونابرت لم يخامره أى شك فى أن عكا ستسقط فى يده بعد أيام قلائل ، فان عدم وجـود المدافع ذات العيـار الثقيل ، وطبيعـة الأرض والتحصينات – كل أولئك كان يتطلب من الاستعدادات السابقة للهجوم ما هو أكثر احكاما مما تطلبه الهجوم على العريش ويافا • وبينما كان الجنود والمهندسون الذين يوجههم الأعرج كفاريللى يقيمون عـدة الحصار اتخذ بونابرت خطوات سياسية ليكسب أحلافا ضد الجزار • وبدت هذه العملية يسيرة ، نظرا للكراهية الشديدة التى يشعر بها جميع من يخضعون لحكم الجزار تقريبا ، مسلمين كانوا أو مسيحيين أو يهودا أو دروزا : فدعا مندوبين من البلاد القريبة – من الناصرة وقانا وغيرهما من القرى المسيحية التى كانت أسـماؤها لا تزال ترن رنينا مألوفا فى آذان كثير من الفرنسيين ، ليجتمعوا به فى قصر قيادته • وكتب لبشير أمير الدروز يعده بأن يمنح الاستقلال لشعبه وأن يرد اليهم ثغر بيروت • واستقبل عباس الضاهر الذى قتل الجزار أباه وحل محله واليا على عكا ، وعينه شيخا على طبرية التى احتلها الفرنسيون بعد أيام قلائل •

لا بل ان بونابرت تبادل المجاملات مع السر سدنى سمث – ولعله كان فى هذا مستوحيا روح أسبوع الآلام المقدس • كان سمث يحتفظ بعدد من أسرى الفرنسيين على سفنه ، وبينهم الملازم دلوسال ، وهو الوحيد الذى بقى على قيد الحياة اثر كمين ذبح فيه الفلاحون أفراد سريته • فلما أخذ دولوسال الى عكا وخشى السر سدنى سمث أن يقطع الجزار رءوس جميع الفرنسيين الذين فى متناوله (باستثناء فليبو بالطبع) ، هربه الى احدى سفنه وأحسن معاملته ، وزوده بالثياب الجديدة ودعاه لمائدته •

وانفق أن الفرنسيين قبضوا فى ٢١ مارس على عدد من الانجليز كان سدنى سمث أرسلهم برا الى حيفـا فى محاولة طائشـة للاستيلاء على بعض السفن

الفرنسية الصغيرة الراسية هناك . وفي ٢٢ مارس - يوم الجمعة الكبيرة - اقترح سمث تبادل الأسرى ، وقدم تقرير دولوسال لقائد وحدته ، وأضاف سمث الى التقرير حاشية حذر فيها الفرنسيين من مقابلة اهانات الجزار بمثلها انتقاما لما لقيه دولوسال على يديه : « لقد دبرت الأمر بطريقة تجعل الجزار لا يطالبنا برده اليه ... ومقابلة اساءات الجزار بمثلها لن يثمر الا تذكير الجزار بالأمر وحمله على طلب رد الأسير اليه ، نظرا لحقده وحقد الترك على الفرنسيين. ان المسيو دولوسال ضيفي الآن ، وسيظل ضيفي حتى تسنح الفرصة الملائمة لرده الى فرنسا (٤١) . ووافق بونابرت ، ورد الأسرى الانجليز ، وأبلغ شكره بطريق رئيس أركانه قائلا : « لا يخامرك شك في رغبتي في ارضائك ياسيدي ، أو في حرصي على انتهاز كل فرصة لأمد يد المعونة لمن نكبته أخطار الحرب من بني وطنك » (٤٢) . وكانت هذه آخر كلمة مؤدبة ، أو حتى لائقة ، أرسلها بونابرت لسدني سمث ، أو تكلم بها عن ذلك الرجل الذي كان على الدوام مهذبا موفور الذوق ، مع شهامته وغرابة أطواره .

***

وفي خلال ذلك راح الجنود الفرنسيون طوال أسبوع الآلام يحفرون الخنادق وتساورهم المخاوف من الطاعون . وقد أشار ديجنيت على جميع الأطباء ، في خطاب دوري نشره عليهم ، أن يتأكدوا من أن كل فرد يغتسل ويتمضمض ويدفئ نفسه . وقال ان الخبرة دلت على أن « المرض غير معد » (٤٣). وهذا قول غريب عن الطاعون . ولكن بصرف النظر عن الاعتبارات السيكولوجية، يمكن أن يعتبر ديجنيت محقا في قوله هذا ، لأن الطاعون لا ينتقل مباشرة من شخص الى شخص ، بل عن طريق لدغ البراغيث . على أنه ليس من اليسير على الجنود الاحتفاظ بالنظافة والدفء وهم يحفرون الخنادق في سوريا في شهر مارس . وقد أقيم مستشفى لمرضى الطاعون على جبل الكرمل ، وبلغ عدد المرضى الجدد الذين أدخلوا المستشفى بين ١٠ و٢٥ أبريل (وهي المدة الوحيدة التي لدينا عنها احصاءات) ٢٦٩ مريضا بالاضافة الى القدامى وعددهم ١٥٢ . ومن جملة هذه الحالات وعددها ٤٢١ ، مات ٥٧ لغاية ١٥ ابريل ، وأفرج عن ١٣٧ ممن شفوا أو كانوا ناقهين ، وبقي بالمستشفى ٢٣٠ مريضا . ولما كانت عدة فصائل ، وأكثر رجال فرقة كليبر ، غائبين في هذه الفترة في مختلف المهام ، فقد كان معسكر الحصار يتألف من ٩٫٠٠٠ رجل تقريبا . ومعنى هذا أنه في خلال أسبوعين ضرب بالطاعون ٣ ٪ من جيش الحصار - وهي ليست نسبة مذهلة ، ولكنها مخيفة مع هذا . على أن الزيادة في نسبة الشفاء كانت مشجعة . فقد هبطت نسبة الوفيات كما ذكر ديجنيت في تاريخ الحملة الطبي من ٢٠ ٪ في الحالات الجديدة الى ١٠ ٪ (٤٤) . ولا تشمل هذه الاحصاءات

الضحايا من غير العسكريين ـ كخدم المستشفى الذين ماتوا كلهم تقريبا بالطاعون ٠

ولكن اذا كانت نسبة الشفاء ارتفعت أثناء الحصار ارتفاعا مشجعا ، فان الأحوال في مستشفى الطاعون لم تكن مشجعة على الاطلاق ٠ ويضيف ديجنيت هذه التفاصيل المثيرة بعد تأكيده أن جميع المرضين الذكور كانوا في أواخر الحصار اما في عداد الموتى واما في النزع : « كان خدم المستشفى ، بهذه المناسبة ، من حثالة المجتمع ، فأكثرهم مجرمون هربوا من سجون جنوه أو شفيتافيكيا أو مالطة ٠ ولم يغرهم بالخدمة في المستشفيات الا شرههم للمال الذي يأخذونه من المرضى (*) وكثيرا ما اضطررت لتنظيف « البدرونات » الموحلة التي يرقد فيها مرضاى على الحصر ، ومعنى هذا أنني اضطررت لالتقاط خرق الموتى وثيابهم وقبعاتهم ورميها في النار التي أوقدتها لهذا الغرض خلف المستشفى » (٤٥) ٠ وقد أقسم الدكتور ديجنيت يمين أبقراط كأصدق ما يقسم انسان ، ولعله غلا في تنفيذ وصاياه غلوا ما كان أبقراط يحلم به ٠ يقول : « انني رغبة في تهدئة مخاوف الجنود ورد روحهم المعنوية دفعت بمبضعي يوما ، في وسط عنبر الطاعون ، في قيح دمل لأحد الناقهين ٠٠٠ وشرطت به خن وزكي ، وقرب أحد ابطي ، شرطا خفيفا دون أن أتخذ أي احتياط غير الاغتسال بالماء والصابون ٠ وظل مكانا الشرط ملتهبين التهابا طفيفا أكثر من ثلاثة أسابيع ٠٠٠ وهذه التجربة الناقصة التي لم أروها الا بسبب ما أثارت من تعليقات كثيرة ليست كبيرة الدلالة في مجال الطب ٠ وهي لا تغير الحقيقة التي شهدت عليها آلاف الحالات ، وهي أن هذا المرض يمكن انتقاله ، انما تدل على أن الظروف الضرورية لهذا الانتقال لم تحدد جيدا » (٤٦) ٠ ولعل التجربة ليست كبيرة الدلالة في مجال الطب ، ولكنها تدل ولا ريب على أن ديجنيت كان يسير على الدرب ، وأنه لو قدر له العيش بعد نصف قرن لجاز أن يصبح من أعظم رواد الطب في عصرنا هذا ، وأنه كان يملك من رباطة الجاش والشجاعة ما يفوق التصور ٠ وهو يضيف هذه الحاشية الطريفة لقصته : ذلك أن الجندي الذي طعم ديجنيت نفسه بمصل دمله لقي طبيبه بعد شفائه تماما أثناء زحف شاق أقيم في الصحراء ٠ وقدم الرجل لطبيبه شربة ماء من قنينة بدافع عرفان الجميل ٠ وقبلها ديجنيت ، ولكن بعد أن تغلب على « شعور قوي بالتقزز » ٠ حقا لقد كان ديجنيت رجلا ٠

ان تواريخ حصار المدن مملة في العادة برغم أنف هومر ٠ فهي في رأى

(*) يستفاد من هذا ان بعض المذنبين المحكوم عليهم بالسجن في السفن والذين عملوا نوتية على عدد من الناقلات التي نقلت الفرنسيين الى مصر ، اغراهم الطمع في الربح بالعمل ممرضين ٠ وقد استخدم البعض الآخر في فرق العمل وعوملوا معاملة خشنة جدا ٠

القارئ العادى تعرض سلسلة رتيبة من العمليات غير المفهومة التى تتكرر الى ما لا نهاية ، والتى تذكره تذكيرا بعيدا ب « العم توبى » و « الأنباشى تريم » • صحيح أن لحصار طروادة لحظاته الممتعة ، وكذلك كان ذلك الحصار الآخر لعكا يوم لقى رتشارد قلب الأسد صلاح الدين وجها لوجه • ولكن لا الجنرال بونابرت شابه رتشارد ، ولا الجزار باشا شابه صلاح الدين ، وكان حصار عكا فى ١٧٩٩ أقرب الى أهوال قتال الخنادق فى الحرب العالمية الأولى ، منه الى بسالة الصليبيين والمسلمين ذوى النجدة والشهامة •

ولقد غيرت الزيادة التى طرأت منذ أيام نابليون على مدى المدفعية وقوتها طبيعة فن الحصار تغييرا تاما • ويمكن أن توصف خصائصه الأساسية ، كما كان يمارس فى تلك الأيام ، وصفا موجزا بعيدا عن تخصص الفنيين • فالجيش المحاصر يعسكر على مرأى من هدفه ولكن خارج مرمى مدفعيته • كتب بيروس من عكا الى أمه فى كاركاسون يقول ، ان معسكرنا يزداد كل يوم شبها بالسوق الريفية • فالنبيذ ، والخمور ، والتين ، وكعك القمح ، والعنب ، والزبد ، الخ••• كل شىء هنا موفور وان غلا ثمنه غلاء فاحشا • ولكن المرء لا يعبأ بحساب القروش أثناء حملة حربية » (٤٧) • ولنا أن نتصور أن « الخ » هـذه تشمل أشياء لا يذكرها المرء لأمه المقيمة فى كاركاسون •

ولم يكن مجرد اقامة معسكر حول حصن يكفى لاسقاط هذا الحصن • فالهجوم على عكا اقتضى تهيئة المداخل أولا ، فكان لابد من حفر الخنادق من المعسكر الى الأسوار ، وقاية للمهاجمين من نيران المدافعين المضادة • ثم لابد من وضع الألغام تحت الأسوار أو الأبراج • وبينما تمضى هذه الأعمال ــ ومختلف الوحدات تتناوب الحفر ــ ينهال المدافعون ، ان كان لديهم ذخيرة كافية ، على الحفارين بقذائف مدافعهم وقنابلهم ، أو قد يرقبونهم فى هدوء وهم يقومون بمهمتهم ثم يفسدون ما صنعوا بخروج كبير ــ أى بهجوم مضاد من الحصن ــ ترافقه نيران محكمة التسديد • وفى عكا استخدمت الطريقتان جميعا •

فاذا سارت أعمال الحفر شوطا مرضيا صدر الأمر بالهجوم • فيبدأ بستار مدفعية ضخم يستهدف أساسا النقطة التى وقع عليها الاختيار للهجوم ، وان سدد أحيانا الى نقطة أخرى تضليلا للعدو • والغرض هو إحداث ثغرة ، واحداثها فى العادة ممكن اذا رافق المدفعية تفجير لغم على النقطة المطلوبة • ثم تصدر الاشارة بالهجوم الفعلى • فتنطلق أول موجة من المهاجمين ، وهم عادة رماة القنابل اليدوية ، خلال الخنادق محاولين تسلق الأنقاض المتساقطة من الثغرة • أما العدو فلا يقف بالطبع مكتوف الأيدى ، بل يطلق على المهاجمين كل ما عنده ــ من نيران بنادق ، وقذائف مدافع ، وقنابل ، وأحجار ــ ويتلقى بالسيوف والمدى كل من ينفذ من الثغرة • وكانت الهجمة ، سواء نجحت أو أخفقت ، تكلف من الأرواح أكثر كثيرا مما تكلف المعركة ــ وهى حقيقة قد تعين على

تفسير وحشية الجنود فى المدن الساقطة ، ولما كان تسلق حصن منيع أمرا لا يخطر ببال انسان فى وعيه ، فقد كان المهاجمون يعطون قبل الهجوم مباشرة نصيبا موفورا من الخمر يزيد على تعيينهم العادى .

فاذا نجح الهجــوم فبها ونعمت ، والا استمر اطـلاق القنــابل وحفر الخنادق ووضع الألغام من الجانبين ، حتى يرى أن الوقت حان لهجوم آخر أو خروج آخر . وفى حصار عكا كان واضعو الالغام من الفرنسيين والترك يعملون أحيانا على أقدام من بعضهم ، وحين رفع الحصار بعد شهرين كان الفرنسيون قد قاموا بثمانى هجمات كبيرة .

ذلك هو النظام الأساسى لفن الحصار . ولكن حصار عكا كان يتميز بعدة خصائص جديرة بالذكر .

١ـ يتيح موقف المهاجمين عادة خــارج الحصن لهم التمــون بالأقــوات والذخائر وتعويض ما يخسرون من الجنود . ولكن الفرنسيين فى عكا لم يكن لديهم قواعد تموين ولا أمداد يعوضون بها خسائرهم . وكانوا يرحبون بكل قذف مدفعية يأتيهم من الحصن أو السفن البريطانية ، لأنهم يستطيعون بفضله جمع قذائف المدافع واستعمالها من جديد . هذا بينما يتلقى الجزار باشا كل ما يحتاج اليه من مؤن وأمداد عن طريق البحر . ولعل وصول عدة مئات من رجال المدفعية المدربين على يد معلمين أوربيين من الآستانة فى أخريات الحصار كان عاملا فاصلا فى نتيجه الحصار .

٢ ـ الذى يحدث عادة حين يحاصر جيش مدينة أن يكون المحاصرون أكثر عددا من المحصورين . فاذا طال الحصار عما توقعه الجيش المهاجم استطاع أن يترك وراءه قوة تكفى للاستيلاء على الحصن ويواصل الزحف الى هدف آخر . ولكن قوة الحامية فى عكا كانت تقريبا مساوية لقوة جيش بونابرت . ولكن أهم من هذا أنه لم يكن لدى الفرنسيين سوى ١٣٫٠٠٠ رجل : لذلك لم يكن ممكنا أن يواصلوا زحفهم قبل الاستيلاء على المدينة وتدمير قوات الجزار .

٣ ـ حين يكون ثلثا الحصن مطلين على البحر ، فان العدو يحاصره عادة برا وبحرا . أما فى عكا فالبحر يسيطر عليه المدافعون .

٤ ـ يستخدم المهاجمــون مدفعية الحصــار عادة ليستولوا على الحصن المحاصر . أما فى عكا فقد استخدمت هذه المدفعية ـ ولكن الذين استخدموها ليسوا هم المحاصرين . ذلك أن المدافع الثقيلة التى استولى عليها السر سدنى سمث من قبل أمام رأس الكرمل أنزلت الى البر ، فاستخدمها الترك ضــد الفرنسيين . ولم تصل بونابرت أمداد تعوض مدفعيته المفقودة الا فى أخريات الحصــار .

كان الجنرال بونابرت يبغض حصار المدن ، ذلك أن عبقريته كانت من النوع الذى يتطلب الحركة السريعة • ومع أنه أرسل الى الاسكندرية فى طلب شحنة أخرى من مدفعية الحصار تنزل فى يافا ، فانه لم ينتظر وصولها ليأمر بالهجوم • وكانت ثمانية أيام من الاستعداد تبدو له كأنها الأبدية طولا • فأصـــدر أمره بالهجوم فى ٢٨ مارس • أما مرؤسوه من القواد فكان الشك يخامرهم فى وفاء الخنادق الممدودة الى الأسوار بالغرض • قال كليبر الفارع الطول لبونابرت القصير القامة وهما يفحصان استعدادات الحصار معا : « يا لها من خنادق مضحكة هـــذه التى حفروها هنا • ربما كانت تناسبك أنت أيهـــا الجنرال ، أما أنا فلا تكاد تصل الى بطنى » (٤٨) •

وبينما كان الفرنسيون يحفرون خنادق لا تصلح الا للأقزام ، أنزل السر سدنى سمث ٨٠٠ بحار انجليزى ليعزز بهم مدفعية الجزار ، وراح الكولونيل فليبو يعمل دائبا ليل نهار ليثبت المدفعية فى مكانها ويدرب رجالها ، ولم يسمع بونابرت ، الذى كان لا يزال يجهل وجود زميل فصله القديم ، الا أن يلحظ هذا الذى صنع ، وذلك عقب اصداره الأمر بالهجمة الأولى التى بدأت فى الرابعة من صباح يوم ٢٨ مارس بقذف الحصن بالقنابل • ورد الترك ، تعززهم المدافع البحرية التى جلبها رجال السر سدنى ، بنيران مضادة بلغ من تدميرها أنه لم تأت الساعة السادسة صباحا حتى فقد الفرنسيون أربعين مدفعيا بين جريح وقتيل ، وعطلت مدافعهم كلها ما عدا ثلاثة • ومع ذلك أحدث المهاجمون ثغرة ، على أنها لعلوها أكثر من عشرين قدما فوق الخندق كانت عديمة القيمة عمليا ، ولكن هذا الاعتبار لم يمنع بونابرت من اصدار الأمر الى رجاله بتسلقها على سلالم تعلو اثنى عشر قدما الى ستة عشر •

وجلس الجزار باشا فى مكانه قـــرب المتراس بلحيته البيضـــاء وعينيه الناريتين ، مستعدا لمنح المكافآت لجنوده عن كل رأس من رؤوس العدو يضعونه أمامه • وكانت عادة قبلية يجب أن يراعيها ، ولكن الفرصة لم تكن مواتية هذه المرة : فقد استحال على الفرنسيين ماديا أن يتسلقوا الثغرة • ومع ذلك فان المثال الذى ضربه بونابرت فى يافا بث الرعب فى قلوب رجال الجزار ، فأخذوا يتركون مراكزهم بمجرد رؤيتهم الفرنسيين يهاجمون • وساقهم الجزار كالأنعام الى أماكنهم وأطلق عيارين من مسدسه على المهاجمين ، ثم صاح بهم « مم تخافون؟ ألا ترون أنهم يهربون ؟ » (٤٩) وعاد الترك الى مراكزهم ، وما هى الا دقائق حتى كان الفرنسيون القادرون على الهروب يهربون فعلا • ولعل هذه اللحظة كانت أحرج اللحظات فى حصار عكا بأسره • وبينما كان الترك يستعيدون ثقتهم بأنفسهم ، بدأ الفرنسيون يتخاذلون • يقول الكابتن دوجيرو فى يوميته : « منذ تلك اللحظـــة رأى الكثيرون منا أننـــا لن نستطيع الاســـتيلاء على ذلك الحصن » (٥٠) •

ولكن الجنرال بونابرت لم يكن يفقه للتخاذل معنى · فما لم يضع كل شيء ، فان الانتصار التام ما زال ممكنا · وقد علق أمله على ما يحدثه لغم يوضع تحت البرج الكبير من أثر ، فتم وضع اللغم فى ٣١ مارس رغم نيران المدفعية التى ظلت تنهال فى غير هوادة من الحصن · وأمر بونابرت بهجوم آخر يشن فى أول أبريل ، وفى هذا الهجوم جرح أو قتل جميع المهاجمين تقريبا · وبين الجرحى ياوران لبونابرت هما دوروك وأوجين بوهارنيه · وهنا أدرك الجميع ، حتى بونابرت ، أن المزيد من المحاولات لن يجدى ، ما لم تصل مدفعية الحصار ·

اعتمد المؤلف فى الفصول السابقة غير مرة على المذكرات التى كتبها رئيس ادارة الجيش الجنرال لوجييه ، الذى عينه كليبر فى هذه الوظيفة ، والميجر ديتروا من سلاح المهندسين · وتكشف مذكرات الرجلين عن انسانين مستقيمين، ذكيين ، قويى الملاحظة ، لم يستطع أحدهما أن يرى مبررا معقولا لوجودهما أو لوجود زملائهما فى الشرق · ولكن شهادتهما لن تسمع فيما يلى من فصول هذا الكتاب ، ذلك أن لوجييه قتل فى الخنادق أثناء الهجوم الأول ، أما ديتروا فقتل فى هجوم تركى مضاد بعد ذلك بيومين ·

وقتل الكابتن مايى دو شاتورينو من هيئة أركان الحرب العامة فى خندق عكا فى ٢٨ مارس · وكان له شقيق أوفده بونابرت فى مهمة دبلوماسية لسوريا قبل ستة أشهر · أما الأخ ــ وهو كابتن أيضا ــ فقبض عليه الجزار وسجنه فى الحصن · وفى ٣٠ مارس أى بعد موت أحد الشقيقين تحت أسوار عكا بيومين ، شنق الشقيق الآخر بأمر الجزار ومعه عدة مئات من المسيحيين الآخرين ، وقذفت جثتهم فى البحر ، فألقتها الأمواج على الشاطىء حيث وجدها الفرنسيون· ولم يكن الشقيقان مايى ، اللذان ماتا على هذا النحو فى بحر يومين لا يفصل بينهما غير سور من أسوار العصور الوسطى ، قد رأى الواحد منهما أخاه مدى ستة أعوام . باستثناء لقاء قصير فى القاهرة ·

ونحن اذا أخذنا فى الحسبان طبع الجزار لم يصعب علينا أن ندرك لم أمر بذبح مئات المسيحيين ــ ومنهم مايى ــ بعد الهجوم الأول على حصنه · ولكنه أصعب أن نفهم لم لم يستطع سدنى سمث وفليبو منعه من أن يأتى ما أتى · وما من شك فى أن الرجلين صنعا أثناء الحصار كله ما وسعهما صنعه لكبح شدة الجزار ولانقاذ الضحايا الذين قد يفتك بهم · أما كيف أمكن أن تقع مذبحة ٣٠ مارس رغم جهودهما فسر ما زال غامضا · وقد أفضى الحادث الى سوء تفاهم منكود بين السر سدنى سمث وبونابرت ، الذى اعتبر السر سدنى شريكا فى المجزرة · وسنرى كيف أدى سوء التفاهم هذا الى موت مئات آخرين من الرجال ·

ومع أنه لم يقع هجوم آخر على عكا خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من أبريل، فقد استمر حفر الخنادق ووضع الألغام ، وقيام العدو بالحفر ووضع الألغام

المضادين ، ومبارزات المدفعية ، والهجمات المضادة ، وغير ذلك من أشغال الحصار وتقاليده • وكانت الأمطار قد كفت عن الهطول ، ولكن رياح الخماسين بدأت • وظل مرضى الحمى الجدد يصلون كل يوم الى مستشفى الطاعون • وهبطت الروح المعنوية في المعسكر • وفي فترة الهدوء أرسل بونابرت فرقة كليبر وعدة وحدات صغيرة لتوطيد سلطة الفرنسيين داخل البلاد ، ولصد جيش والى دمشق الزاحف على عكا •

***

بينما كان بونابرت يحاصر عكا أخذت عصبة من أعدائه تتألف من حوله • ذلك أن الجزار استنجد بأهل نابلس والجبليين ذوى النزعة الحربية وبوالى حلب ووالى دمشق • وفي أوائل ابريل أنهى المخبرون المسيحيون الى بونابرت أن نحو ٧٫٠٠٠ مقاتل من اقليم نابلس قد تجمعوا في الجليل ، وأن جيش والى دمشق يزحف عليه • وفي ٥ ابريل صدت كتيبة استطلاعية ، يقودها الجنرال جونو ، قوة من الفرسان تفوقها مرات في العدد قرب الناصرة • وفي ٩ أبريل أرسل بونابرت كليبر بجزء من فرقته لينجد جونو • وبعد يومين صد كليبر على رأس ١٫٥٠٠ رجل ، قوة تركية تبلغ ثلاثة أضعاف رجاله قرب قانا الجليل ، حيث أنقذ المسيح مرة عرسا من الفشل • ووصلت الأنباء بأن مزيدا من الوحدات التركية عبرت الأردن الى الشمال من بحيرة طبرية • وأرسل بونابرت الجنرال مورا بكتيبتين من المشاة للقائها • وفي ١٥ أبريل التقى رجال مورا بهـذه الوحدات على مرتفع يطل على الأردن ، وكان في استطاعتهم أن يروا على ضفة النهر الأخرى خيام المعسكر التركى • وهجم الفرنسيون مدفوعين بالأمل في الغنيمة ، ومكونين مربعاتهم العادية • يقول شاهد عيان : « انهم لم يسـيروا سيرا ، بل جروا ، وقلبوا وهم يهبطون السفح هؤلاء الخيـالة ذوى المظهر الفخم » (٥١) وبعد أن دحرت قوات مورا نحو ٥٫٠٠٠ رجل دون خسارة في جانبها تقريبا ، خاضت النهر وعسكرت في خيام الترك • يقول الشاهد المذكور : « وهنا أنفق جنودنا بقية النهار يقايضون على الغنائم التي استولوا عليها » (٥٢) • وهكذا طهر الأردن شمالى بحرية طبرية •

أما في الجنوب فكان الموقف أكثر عسرا ، لأن كليبر كان موشكا أن يلقى معظم جيش والى دمشق • وفي ١٦ ابريل ، وهو اليوم التالى لانتصار مورا الرائع على الأردن ، التقى كليبر ، على رأس ألفين من رجاله ، بمعسكر الوالى في سهل ازدريلون أسفل جبل طابور • وكان للباشا برجاله البالغين ٢٥٫٠٠٠ من الفرسان و ١٠٫٠٠٠ من المشاة ، تفوق عددى نسبته ١٧ : ١ • ولكن جيشه كان أخلاطا أكثرها متطوعون كان تدريبهم سيئا ونظامهم أسوأ • وكان كليبر قد وضع خطة لهجوم ليلى ، ولكنه لم يصل الى المعسكر الا في الساعة السادسة صباحا ، ففقد بذلك ميزة المباغتة • وما لبثت مربعاته أن طوقها

٢٥٫٠٠٠ فارس ، فلم يستطع الا القتال دفاعا عن جيشه • وكان فى مقر قيادته زوجة الجنرال فردييه الذى كان يقود لواء فى المعركة •

وظل الفرنسيون عشر ساعات ، من السادسة صباحا الى الرابعة مساء ، يقاتلون دون توقف وبغير أمل كبير ، وهم يصدون منهم العدو • وأخذت ذخيرتهم من الرصاص تنضب • كتب الجندى مييه عن هذه الواقعة يقول : « كنا نتمنى أن ننزل عما لدينا من خبز قليل لقاء بعض الطلقات والبارود • ولم يكن لدينا وقت للأكل ، ولو وجد لما أفدنا منه ، لأن الظمأ والاعياء قد أخذا منا كل مأخذ ، فلم نقو حتى على الكلام • وكان على مسافة قريبة منا بحيرة لم تستطع الفرقة أن تبلغها ، فلم يكن سبيل اذن لتجديد قوانا » (٥٣) •

وتأزم موقف الفرنسيين : واذا رجال كليبر يسمعون من مرتفع جنوبى ساحة القتال دويا حكموا بأنه صادر من مدفع فرنسى • وكان المدفع من مدافع فرقة الجنرال بون ، التى قادها بونابرت بنفسه لانقاذ كليبر • يقول شاهد عيان : « كان التأثير مسرحيا » (٥٤) » •

يقول نقولا الترك ان العثمانيين حين سمعوا طلقة المدفع : « ارتجوا ••• وبدوا يهربوا • فحالا لما نظرهم الكومنضة ضرب عليهم مدفع ثانى ، فكامل العسكر حالا هربوا وبدوا يتجاروا فى الجبال والوديان مسرعين جـــدا ، والفرنساوية يتفرجوا عليهم من بعيد ويضحكون » (٥٥) •

كانت معركة جبل طابور ، كما شاء بونابرت أن يسمى هذا الاشتباك ، انتصارا باهرا وغير متوقع • ولا ريب فى أن كليبر ارتكب خطأ جسيما حين وضع نفسه فى هذا المركز السيىء ، ويجب أن ينسب الفضل فى الانتصار الى الرجال الذين ثبتوا عشر ساعات لعدو يفوقهم عددا ، والى بونابرت الذى فطن الى ضرورة التدخل الخاطف فوصل فى الوقت المناسب بالضبط ، واستقر رأيه فورا على أنجح مناورة يمكن قيامه بها • ومع أن جيش باشا دمشق لم يدمر فانه تشتت ، ولم تزد خسائر فرقة كليبر فى هذا القتال الذى كانت النسبة فيه ١ : ١٧ على قتيلين وستين جريحا •

وفى اللحظة التى سمع فيهــا كليبر اشارات المدفع أمر رجاله المرهقين بمطاردة الترك الهاربين • يقول الجندى مييه فى مذكراته : « تذكر أيها القارىء ما قلته لك ــ أننا كنا نموت ظمأ • ولكن ظمأنا للانتقام أطفأ ظمأنا للماء ، وألهب ظمأنا للدماء ••• والواقع أننا رحنا نخوض الى خصورنا مياه هذه البحيرة التى كنا نشتهى أن نشرب منها قدحا قبل لحظات • غير أننا لم نعد نفكر فى الشرب، بل فى القتل وفى صبغ البحيرة بدماء هؤلاء الهمج الذين كانوا يطمعون منذ لحظة فى قطع رءوسنا واغراقنا فى البحيرة التى أغرقوها فيها هم والتى امتلأت بجثثهم »(٥٦) • والجندى مييه ، الذى فقد بصر احدى عينيه من الرمد ونجا

من الطاعون قبل أن يشارك في المعركة ، كان مدرسا كهلا في قرية فرنسية حين كتب هذه السطور ٠

في تلك الليلة نام الجنرال بونابرت في الناصرة ٠ يقول الكونت دلافاليت الذي كان يومها ياور بونابرت : « وقبل أن يدخل القرية وقف بعين ماء عتيقة تشرب منها الماشية ٠ وهناك استقبله أعيان القرية ، وكان كل شيء يذكر بالمشاهد القديمة التي ورد وصفها في الانجيل بغاية البساطة ٠ وقوبل الفرنسيون بفرح عظيم (من الأهالي المسيحيين) ، وأنفق الجنرال بونابرت وضباط أركانه الليل في دير الناصرة » (٥٧) ٠ كذلك فتح الآباء الدير للجرحى الفرنسيين وعنوا بهم ٠

وفجأة تذكر الجنود الفرنسيون ، بعد أن ملأوا بحيرة بدماء القتلى وجثثهم ، أنهم ولدوا مسيحيين ٠ وأحيت الناصرة ذكريات طفولتهم عن الأناجيل ، والتناول الأول ، وأجراس الكنائس التي أسكتت في فرنسا ستة أعوام ٠ يقول الدكتور ديجنيت انه في غداة الانتصار « احتفل بانتصاراتنا بترتيل « تسبيحة الشكر » ترتيلا مهيبا ٠ وكان هناك حفلة عماد ٠ وتطوع الجنرال بونابرت بأن يكون عرابا للطفل ، ومدام فرديه عرابة ٠ وطلب رائد في كتيبة الفرسان الرابعة عشرة ، كان مريضا وشعر بدنو أجله ، أن يختم حياته — ما دام في الأرض المقدسة — بتعزيات الدين ومراسمه » (٥٨) ٠ ومع هذا يجب ألا ننساق مع العاطفة ، فان بعض الجنود الفرنسيين ، في نزعة فولتيرية أكثر منها ملحدة ، كانوا يهزأون بالناصرة ٠ يقول لافاليت عن كنيسة الناصرة : « ان البناء يشبه كنائسنا القروية ، غير أن قاعة الكنيسة كانت فيما روى لنا غرفة نوم العذراء ٠٠ وقد أكد لنا رئيس الدير تأكيدا جازما أنه حين أتى الملاك جبرائيل ليبشر العذراء بحظها المجيد المقدس لمس بعقبه ذلك العمود (وهو عمود رخامي أسود يجاور المذبح) فانكسر ٠ فبدأنا نضحك ، ولكن الجنرال بونابرت ردنا الى جدنا بنظرة صارمة » (٥٩) ٠ ودفن جندي فرنسي أصبعه التي فقدها في المعركة — ولأمر ما التقطها واحتفظ بها — بخشوع في مقبرة المدينة وهو يقول : « لست أدري ما الذي سيحدث لباقي جثتي ، ولكن ستكون لي على الأقل أصبع في الأرض المقدسة » (٦٠) ٠ وساورت الشكوك جنديا آخر على شفا الموت ، ألح عليه الآباء الرهبان في تناول الأسرار المقدسة الأخيرة ، فاستشار رفاقه ٠ وقالوا له : « لا تغضب هؤلاء الرهبان المساكين الذين تعبوا كثيرا في العناية بك ٠ ثم أي ضرر تتعامر به ان أطعتهم ؟ » (٦١) وبينما كانت تسبيحة الشكر ترتل في الناصرة ، كان الفرنسيون يحرقون قرية ومدينة جنين في اقليم أهل نابلس الجبليين ٠

يقول نابليون : « ان فرح المسيحيين لا يمكن وصفه ٠ فقد رأوا قوما من دينهم بعد قرون طويلة من الظلم ٠ وكانوا يحبون أن يرووا قصصا من الانجيل

يعرفونها خيرا مما يعرفها الجنود الفرنسيون · وقد قرأوا منشورات القائد الأعلى التى أذاع فيها أنه صديق المسلمين وأمنوا على مسلكه هذا ولم ينتقص هـذا من ثقتهم فيـه · وخلع نابليون القفاطين الموشـاة بالفراء على ثلاثة من كبارهم ··· وكان أحدهم يبلغ من العمر مائة عام وعاما ··· ودعاه القائد الأعلى لتناول الطعـام معه · ولم يكن الشيخ يستطيع أن ينطق بثلاث كلمات دون استشهاد من الكتاب المقدس · وقد ظل هؤلاء المسيحيون ثابتين على ولائهم حتى حين تنكر له الحظ.وقد أفاد منهم خلال حصار عكا كله » (٦٢) كذلك اضطروا لدفع ثمن هذا الولاء بعد أن رفع الحصار ،حين كتب بونابرت لشيوخ الأزهر أنه سيعتنق الاسلام ويبنى مسجدا فخما ·

وبعد أن قضى بونابرت يومين بين المسيحيين ، عاد الى حصار عكا تاركا كليبر ليحرس الأردن ·

وبينما كان الفرنسيون يصدون الترك فى الناصرة وقانا وجبل طابور وغيرها من الأماكن المقدسة سارت الاستعدادات لهجوم آخر قدما وان لم يخل الأمر من تدخل المحاصرين · ففى ٧ أبريل قطع هجوم مضاد قوى ، يقوده ضابط انجليزى ، عملية وضع لغم تحت « البرج اللعين » ولكنه لم يفلح فى افساده · وقتل خمســة عشر انجليزيا فيهم قائدهم · وظن بونابرت أن الضـابط هو الكولونيل فليبو ، ولكى يتأكد أمر باخراج الجثة ، فأخرجت بخطاف بطريقة بشعة · وتبين أن الجثة للكابتن تومس أولدفيلد ، أو انفيلد ، الذى دلت أوراقه على أنه أبلى بلاء حسنا فى الاستيلاء على مدينة الكاب من الهولنديين ، ودفن الفرنسيون جثته التى أخرجت بالخطاف باحتفال عسكرى ·

وبعـد يومين تهشمت ذراع الجنرال كفاريللى اثر اصابتها بقذيفة مدفع تركى ، وبتر الدكتور لارى الذراع ، وما لبث كفاريللى أن أصيب بحمى شديدة· وعلى هذه الحال وجده بونابرت حين عاد من الناصرة ·

أما جاسبار مونج فلم تكن حاله بأفضل من حال كفاريللى · فقد ساعد ديجنيت ولارى على تنظيـم المستشفى وخدمات الميـــدان الطبية ، وأصـيب بالدوزنتاريا ، وراح يهذى من الحمى · فأمر بونابرت بنقله الى خيمته · وذكر مونج بعد ذلك أنه فى ليلة باردة حسبه بونابرت نائما فغطاه فى رفق ببطّانية أخـرى ·

وفى منتصف أبريل وصلت مدفعية حصار جديدة بدل المفقودة مشحونة بالسفن الى يافا · وفى ١٩ أبريل كتب بونابرت الى بوسيبلج بالقاهرة يقول انه يتوقع الاستيلاء على عكا فى ٥ أو ٦ مايو ، وأضاف : « وسأبرحها فورا وأعود الى القاهرة » (٦٣) ·

وأمر بونابرت بهجوم آخر يشن فى ٢٤ أبريل دون انتظار جلب مدافع الحصار من يافا . وبدأ الهجوم فى الساعة التاسعة صباحا بتفجير لغم آخر تحت البرج الكبير . كتب بيروس لأمه يقول : « كان تأثيره الوحيد نسف ركن من أركان البرج ... وهاجم رماة القنابل الثغرة ببسالة ، مع أنه كان واضحا أن اختراقها مستحيل . وانهال العدو المتربص فى قمة البرج خلف المتاريس على جنودنا بالأحجار والقذائف والقنابل اليدوية . ولكن جنودنا ما كان ليثنيهم شىء عن بلوغ هدفهم ، فلجأ الترك الى برميلين أو ثلاثة من البارود ألقوها عليهم . واختنق جميع رجالنا (من الانفجار) وان أفلح نفر قليل فى الجرى وقد أحرقت النار نصفهم » (٦٤) .

أما بونابرت فأمر بهجوم آخر يشن صباح الغد ، بعد أن أفقده الفشل كل رحمة .

وأفلح الرماة الفرنسيون هذه المرة فى دخول رواق البرج الأسفل ، ولكن الترك انهالوا بقذائفهم وقنابلهم على الفرنسيين ــ وكانوا يبلغون المائة ــ من فتحة فى سقف الرواق . ومن بين الجرحى فى هذه المذبحة الملازم الثانى « فوزو » من سلاح المهندسين ، وكان الفتى البالغ من العمر ستة عشر ربيعا طالبا بمدرسة الهندسة ، وذلك أول عهده بالقتال . وكان المواطن فافييه ، المهندس المدنى باللجنة العلمية ، يحب الفتى . قال أحد زملائه يذكر الواقعة بعد ذلك : « وذهب اليه فافييه فى الخندق ، وحمله على كتفيه عائدا به ، وأسبل له جفنيه بعد قليل . وأصابه ما يشبه الجنون ، وانفجر فى بونابرت انفجارا أثار كثيرا من التعليقات » (٦٥) . أما بونابرت فقد أصغى فى تبلد لغضبة فافييه الهستيرية ، « ثم انسحب دون أقل علامة من علامات التأثر ، كأن التهم المحمومة التى يهذى بها فافييه موجهة الى غيره » (٦٦) .

وفى هذا الوقت بدأ الجنرال كفاريللى يعالج سكرات الموت . وسأل بونابرت بوريين : « كيف حال كفاريللى ؟ » وأجاب سكرتيره : « لقد أشرف على نهايته . وطلب الى أن أقرأ عليه مقدمة فولتير لكتاب مونتسكييه « روح القوانين » ثم أدركه النعاس » . وقال بونابرت : « عجبا ! أراد أن يسمع هذه المقدمة ! هذا مضحك » (٦٧) . وذهب ليرى صديقه تلك الليلة فوجده فاقد الوعى . ومات كفاريللى أثناء الليل (*) .

(*) كتب الجبرتى يصف كفرللى : « كفرلى المسمى بابى خشبة ، وهو يمشى بها مدون معين ، ويصعد الدرج ويهبط منها اسرع من الصحيح ، ويركب الفرس ويرمحه وهو على هذه الحالة ، وكان من جملة المشار اليهم فيهم ، والمدبر لأمور القلاع وصفوف الحروب ، ولهم به عناية عظيمة واهتمام زائد ... » جـ ٣ ص ٣١ .

وأخيرا وصل جزء من مدفعية الحصار فى ٣٠ أبريل ٠ وأمر بونابرت بشن هجوم آخر (وهو الخامس) فى أول مايو ٠ فانتهى بانتشار الذعر بين المهاجمين ٠ كذلك أخفق هجوم ليلى فى ٤ مايو : فقد أضاء الجزار جبهته كلها بالمصابيح احتياطا ٠ وصد الهجوم الكبير السادس كسابقيه فى ٦ مايو ٠ وفى ٧ مايو كانت مدفعية الحصار كلها فى مركزها ، فبدأ هجوم آخر فى التاسعة صباحا ٠ ودل نجاحه الجزئى على أن بونابرت ربما كان مستوليا على عكا لو أوتى من الصبر ما يجعله ينتظر وصول مدافعه الكبيرة بدلا من تضييع رجاله وموارده على محاولات مرتجلة يائسة ٠ وأخيرا وفق الفرنسيون فى ارساء قدمهم على « البـرج اللعين » ٠ واستؤنف القتال فى صباح الغد على الأسـوار وعلى الساحل ، حيث أنزل السر سدنى سمث بحارته ليحموا مرور قوة من رجال المدفعية الأتراك ، المدربين على أيدى الأوربيين ، من ناقلاتهم الى الحصن ٠ ولما هبط الظلام كان البرج لا يزال فى قبضة الفرنسيين ، ونفذ الى المدينة فعلا نحو ٢٠٠ فرنسى يقودهم الجنرالان لان ورامبو ، ولكنهما اكتشفا بعد فوات الوقت أن رجالهما لا يتبعونهما ٠

ذلك أن السر سدنى سمث استطاع من أسوار عكا ، قبيل الظلام ، أن يرقب بمنظاره المقرب الجنرال بونابرت وأركان حربه يوجهون الهجوم من تل سمى باسم رتشارد قلب الأسد ٠ ودلت حركات بونابرت ـ فيما يذكر تقرير السر سدنى ـ على وشك استئنافه الهجوم ٠ وقرر الجزار باشا ، الواقف الى جوار سمث ، أن يترك الفرنسيين يتسلقون الثغرة دون معوق ، وكان الكولونيل فليبو قد بنى خط دفاع آخر خلف الأسوار ، وهناك تحفز الترك للقاء مهاجميهم ٠ وبينما كان لان ، فى المؤخرة ، لا يزال يهيب برجاله أن يتبعوه مخترقين الثغرة ، طوق الفرنسيون الذين اخترقوها ودخلوا حدائق الجزار وقتلوا بالسناكى ٠ وكانت النساء من الأسطح يشجعن الترك بزغاريدهن العالية ٠ وقتل الجنرال رامبو ، وجرح لان برصاصة ٠ كذلك جرح نفر من الانجليز جراحا مميتة ، وكان الترك أخطأوهم فى الظلام فحسبوهم من الفرنسيين ، ولكن سمث تغاضى عن الحادث فى سماحة ٠ وكف الفرنسيون عن هجومهم بعد خمس وعشرين ساعة من القتال المتواصل ٠

وكان السر سدنى على يقين من أن الفرنسيين سيستأنفون الهجوم بعد قليل ٠ ذلك أنهم فتحوا فى الأسوار ثغرة تتسع لمرور طابور عرضه خمسون رجلا ٠ والمدينة كما كتب سمث فى تقريره للورد سانت فنسنت : « ليست ، ولم تكن فى يوم من الأيام ، محصنة طبقا لقواعد فن الحرب ٠ ولكن يجب أن ندافع عنها ، وسندافع عنها ، طبقا لكل القواعد الأخرى ، لا لأنها فى ذاتها تستحق الدفاع ، ولكنا نشعر أن بونابرت ينوى أن ينطلق من هذه الثغرة الى فتوح جديدة (٦٨) ٠

في اليوم التالى ، وهو ٩ مايو ، زحف الجنرال كليبر بلواء فردييه ، بناء على أوامر بونابرت ، الى عكا تعزيزا لقوات الحصار : لأن بونابرت استقر رأيه على شن هجوم أخير فى ١٠ مايو · فالثغرة مفتوحة ، وآلاف المسيحيين والدروز فى أرجاء فلسطين كلها أقسموا على الانضواء تحت لوائه · اذن فليبذل هـذه المحاولة أيضا عسى أن يتحقق حلمه فى الزحف على الآستانة · ويشير سلوكه فى ذلك اليوم الى أنه كان يسعى اما الى النصر واما الى الموت · ولكنه لم يبلغ واحدا منهما ، وكانت أمثال هذه الحالات النفسية الطارئة لا تلازمه طويلا ·

وتلقت مدام بيروس من ولدها الوصف التالى ، ولعل هذه السيدة كانت أعلم نساء كاركاسون قاطبة بالشئون الحربية :

تقرر أن تبدأ الهجوم فرقة كليبر (أى لواء فردييه) · وقاد رئيس ادارة الجيش ، الجنرال فوليه ، طليعة الهجوم ، فقتل على الثغرة · ولكن هذا الحادث السيىء لم يفت فى عضد (نصف اللواء) الخامس والسبعين ، فألقى رجاله بأنفسهم فى المدينة فى نفس الوقت الذى هاجمت فيه فرقتا رينييه وبون القوات (التركية) خارج الأسوار · ولكن الافتقار الى تنسيق العمليات ، أو ربما جهود العدو ، ثبطت همة من دخلوا (المدينة) · فأسر الذين لم يقتلوا فى المعركة أو لعلهم ذبحوا ، لأنهم لم يعودوا ·

وكففنا عن اطلاق النار حائرين من هذه الفوضى الشديدة · واستراح الجنود هنيهة · وجمع كل الرجال الذين أمكن جمعهم ، ووصل رماة قنابل اللواء الخامس والعشرين ورماة بنادق اللواء الثانى الى تلك النقطة وأمروا بالنزول الى الخنادق · وحملت حماسة هؤلاء الجنود الجدد وبسالتهم القائد الأعلى على الاعتقاد بأنه يستطيع الأمر بهجوم جديد · وأراد أن يكون أول من يتسلق الثغرة ، واقتضى منعه جهدا غير قليل » (٦٩) ·

ويواصل بيروس وصفه فيقول ان رماة القنابل لم يكونوا فى حاجة لأن يتقدمهم بونابرت : فقد ألقوا بأنفسهم فى الثغرة « كالمجانين » · وكان الهجوم بغير هـذه الطريقة محـالا ، لأنه كان لابد لهم ، لكى يصـلوا الى الثغـرة ، من أن يطأوا ـ دون مبالغة ـ جثث سابقيهم المتعفنة ، الذين دفنوا تحت بوصات من القاذورات فى الخنادق · (لأن الجزار أبى غير مرة وقف اطلاق النار للسماح بدفن الموتى كمـا يليق) · وكانت طبقة التراب الرقيقة قد خفت أثنـاء قتال الأيام الماضية ، فكان المنظر بشعا والرائحة الكريهة لا تطاق · وقوبل المهاجمون المندفعون كالمجانين عند الثغرة بأفتك نيران مضادة صبت على الفرنسيين فى حصار عكا بأسره · وهنا جرح الجنرال بون قائد الفرقة جرحا مميتا ، وكذلك ياوره كروازييه الذى رماه بونابرت بالجبن فى دمنهور ، والذى وجد أخيرا ذلك الموت الذى تمناه عشرة شهور · كتب بيروس لأمه مؤكدا « اننى لا أغالى اذا

قلت انه من المحقق أن نصف الجيش هلك » (٧٠) • فاذا كان بروس يعنى بعبارة « نصف الجيش » نصف قوة الحصار ، وبكلمة « هلك » قتل أو جرح جراحا خطيرة ، فانه حقا لم يغال الا أقل مغالاة •

لقد قامر بونابرت بآخر ورقة رابحة وخسر • فما ان صد هذا الهجوم الأخير حتى قرر أن يتقهقر • فهو لم يقتل ولم يجرح • أما شهوته الطارئة للموت المجيد فى ساحة الوغى فقد اختفت • وراح منذ الآن يسخر كل ذكائه وحذقه فى اظهار هزيمته بمظهر الانتصار •

قرر المؤرخ لاجونكيير — على أساس ما وجده فى محفوظات وزارة الحرب الفرنسية من احصاءات يشوبها بعض النقص — أن خسائر الفرنسيين فى الحملة السورية بلغت على الأقل ٢٠٠ر١ قتيل بيد العدو ، و ٠٠٠ر١ ميت بالمرض ، و ٣٠٠ر٢ مريض أو جريح جراحا خطيرا (٧١) • وكان الجنود الذين قادهم بونابرت أكثر من ثلثهم قد مات أو عجز • وأكثر الناس لو أصيبوا بكارثة كهذه كانوا ينتحرون ، أو يسعون الى عقد هدنة •

أما السر سدنى فقد حسب ، وهو يرى معنوية الجنود الفرنسيين تهبط الى الحضيض ، أن الفرصة سانحة لشن حرب سيكولوجية • لذلك انهال على الخنادق أسفل الأسوار فى أيام الحصار الأخيرة سيل من المنشورات المطبوعة بالفرنسية فى المطبعة السلطانية بالآستانة • وكان المنشور يحمل خاتم الديوان السلطانى ، ولكن كاتبه على الأرجح هو السر سدنى • « هل يخامركم الشك فى أن حكومة الادارة حين أرسلتكم الى بلد ناء كهذا ، كان هدفها الوحيد نفيكم عن فرنسا ••• وأن يلقى كل فرد منكم حتفه ؟ » ذلك هو السؤال الذى وجهته النشرة الى الفرنسيين الذين قرأوها والنتن يفوح من زملائهم المتحللة جثثهم من حولهم • « فاذا كنتم نزلتم أرض مصر وأنتم فى جهل مطبق من وجهتكم ، واذا كنتم قد استخدمتم أداة لانتهاك معاهدة ••• أفلا يكون هذا خيانة وغدرا من رجال ادارتكم ؟ أجل ، ذلك لا شك فيه • ولكن مصر يجب أن تحرز من هذا الغزو الفاجر وفى هذه اللحظة يزحف جيش عرمرم ، ويغطى سطح البحر أسطول ضخم • فعلى الذين يريدون منكم تجنب الخطر الذى يتهددهم ، أيا كانت رتبهم ، أن يبادروا دون ابطاء بابداء هذه الرغبة لقواد جيش الحلفاء وقواتهم البحرية • وستضمن لهم سلامة السفر الى أى مكان يريدون ••• فليسرعوا بالافادة من كرم الباب العالى ورأفته ، وليقدروا هذه الفرصة المواتية للهروب من هذه الهوة السحيقة الرهيبة التى دفعوا فيها دفعا ! » (٧٢) •

وقد أجمعت كل المراجع الفرنسية ، واتفق جميع المؤرخين الفرنسيين ، على أن منشور الصدر الأعظم أحدث عكس التأثير الذى استهدفه سدنى سمث • ويؤكد السير سدنى أن الفرنسيين كانوا يتخاطفون النشرات فى شوق ويقرءونها

باهتمام ، ولكنه لم يقل لنا ان جنديا واحدا لبى دعوة التسليم · ذلك أن واحدا منهم لم يفعل · فقد أسيء اختيـار الألفاظ ، كمـا يحـدث كثيرا فى الحروب البسيكولوجية ، فلم تغر قراءها ، بل أثارت سخطهم · ولكنها فى الوقت نفسه تلبثت فى عقول الجنود · ويدل بغض بونابرت الأعمى للسر سدنى ، وما اتخذه بعد أسابيع قليلة من اجراءات شديدة ضد « المهيجين » من جنوده ، على أن المنشور التركى قد أحدث بعض الأثر ·

ثم اتجه سدنى سمث الى مخاطبة القائد الأعلى للجيش الفرنسى رأسا ، بالاضافة الى ما أذاعه من نداءات على هذا الجيش · وكان بونابرت قبل خروجه الى سوريا قد أرسل المواطن بوشان ، القنصل الفرنسى فى مسقط ، الذى اتفق وجوده بالقاهرة ، فى مهمة الى الآستانة ، على أن يستقل السفينة التركية الراسية فى الاسكندرية ، والتى صرح لها بونابرت بالابحار لهذا الغرض ، ويعرض على الباب العالى ترتيبا مرضيا ، بشرط أن يوقف كل الأعمـال العـدائية ضـد الفرنسيين · ووردت هذه العبارة ضمن تعليمات بوشان : « لو أنك سئلت هل يوافق الفرنسيون على الجلاء عن مصر ، (فليكن جوابك) ولم لا ؟ » (٧٣) وبالطبع لم تلق مهمة المواطن بوشان نجاحا ، ففى رودس وقع هو وتعليماته فى يد السر سدنى · **وفى ٨ مايو ١٧٩٩ أمر السر سدنى بان يوصل الى بونابرت الخطاب التالى :**

« سيدى الجنرال

لما كانت تعليماتك لمبعوثك بوشان تحتوى على هذه العبارة « لو أنك سئلت هل يوافق الفرنسيون على الجلاء عن مصر » وعلى جوابك « ولم لا ؟ » فانى أعتقد أنه يحسن بى أن أبعث اليك بمنشور الباب العالى المرافق ، وأنك لن تجده فى غير محله ··

ولم أشأ أن أسألك « هل الفرنسيون على استعداد للجلاء عن سوريا ؟ » قبل أن تتاح لك فرصة مقارعة قوتك بقوتنا ، لأنه لم يكن ممكنا اقناعك ، كما اقتنعت أنا ، بالاستحالة العملية لمشروعك · أما الآن ··· وفى وسعك أن ترى أن (هذا الحصن) يزداد كل يوم قوة على قوة بدلا من أن يضعفه حصار امتد شهرين : « هل أنت على استعداد لاجلاء جنودك عن أراضى الدولة العثمانية قبل أن يغير تدخل جيش الحلفاء العظيم من طبيعة هذا السؤال ؟ » ·

ولك أن تثق يا سيدى الجنرال بأن حافزى الوحيد على هذا السؤال هو رغبتى فى حقن الدماء · وتفضلوا ··· الخ ·

سدنى سمث ··

ولعل السر سدنى لم يقدر كل التقدير أى نوع من الرجال كان يخاطب • ولعله أيضا لم يكن ليكتب بهذا الأسلوب المتعالى لو أن بونابرت لم يتهمه قبل ذلك بأيام ، فى أمره اليومى ، بأنه كدس الأسرى الفرنسيين على المراكب الموبوءة بالطاعون ، وبأنه شريك الجزار فى ذبحه للمسيحيين ، وبأنه أثبت بتصرفاته جميعها أثناء الحصار أنه مجنون • على أية حال توقف كل اتصال بين الرجلين نتيجة هذا الحقد الشخصى المتبادل ، وذلك فى اللحظة التى مست الحاجة فيها لتعاون السر سدنى فى اجلاء آلاف الجرحى وضحايا الطاعون • وبلغ من حقد نابليون على سدنى سمث أنه ، بعد مضى عشرين عاما ، لم يكن بعد فى استطاعته أن يذكر اسمه دون أن يردفه بطائفة من النعوت الصارمة •

كثيرا ما يكون التقهقر عملية أشق من الهجوم • أما تقهقر بونابرت من عكا فانطوى على مشكلتين عويصتين جدا : كيف يجلى المصابين ، وكيف يبعد مسافة كافية عن مطارديه : فما من شك فى أن الجزار لن يضيع وقتا فى الافادة من تفوقه • وهناك مشكلة أخرى بالاضافة الى هاتين ، وهى اظهار التقهقر بمظهر الانتصـــار •

وفى ١١ مايو ، وهو اليوم التالى للهجوم الأخـــير الوبيل على عكا ، أمر بونابرت الأميرال بيريه الذى كان يرابط أمام يافا بأسطول صغير ، أن يرسو على ثغر طنطورة الصغير (على أميال جنوبى عكا) ويجلى ٤٠٠ من المصابين بجراح خطيرة • وتجاهل بيريه الأمر قائلا انه لا يستطيع المجازفة بسفنه أمام قوات سدنى سمث المتفوقة ، ثم أقلع عائدا الى أوربا • ولعل هذا القرار لا يشرف بيريه كثيرا ، ولكن كان من اليسير على بونابرت أن يحصل من سدنى سمث على ضمان لسلامة مرور سفن بيريه ، لولا أنه آثر ، كما سنرى ، أن يضحى بآلاف من العجزة والجرحى ومرضى الطاعون الذين كان مسئولا عن حياتهم ، على أن يسأل السر سدنى مكرمة • ويقول الكابتن دويجيرو فى يوميته ان رحيل بيريه أوقع بونابرت فى حيرة شديدة : « كان بونابرت فى غاية القلق (على الجرحى) : اذ لم يكن أمامه سبيل لنقلهم » (٧٤) • وقسم القائد الأعلى ، فى سلسلة من الأوامر أصدرها ابتداء من منتصف مايو ، جميع المرضى والجرحى البالغ عددهم ٢٫٣٠٠ الى فئات ثلاث : القادرون على السير ، القادرون على الركوب ، والمحمولون على النقالات • أما جميع القادرين على السير ، بما فيهم الضباط ، فليسيروا على الأقدام دون مراعاة لرتبهم • ويجب أن تستعمل كل الخيل والبغال والجمال والحمير لغرض واحد هو نقل المرضى ، فيما عدا الدواب التى تنقل المدافع ، بل تقرر أن يترك الجيش جزءا كبيرا من مدفعيته • وأما المصابون بأبلغ الاصابات فينقلون من يافا الى دمياط على السفن الصغيرة القليلة التى تركها بيريه • ومن العبث تناول تدابير بونابرت فى هذا الأمر بمزيد من التفصيل ، لأن الواقع الذى حدث فى التقهقر كان قليل الشبه بالأوامر التى أصدرها ، وربما وهو يعلم تماما استحالة تنفيذها ،

لأن الأوامر المكتوبة على الورق ستبرره أمام التاريخ ، التاريخ المكتوب على الورق، والذى كثيرا ما يتجاهل الحقيقة الحية ٠

وفى ١٦ مايو مات فنتور (*) كبير مترجمى الجيش بالدوزنتاريا (**) وفى ذات اليوم جرى حديث طريف بين بونابرت والدكتور ديجنيت فى حضور الجنرال برتييه ٠ يقول الطبيب فى مذكراته ان بونابرت قال له فى اقتضاب ، بعد أن ذكر عدة ملاحظات على موقف الجيش من الناحية الطبية : « لو كنت فى مكانك لوضعت حدا لعذاب رجالنا من مرضى الطاعون ، وللخطر الذى يتهددونا به فى الوقت نفسه ، وذلك باعطائهم (جرعة كبيرة من الأفيون) ٠ ومضى بونابرت يقول انه لو كان هو نفسه مصابا بالطاعون لرجا أن يسدى اليه هذا الصنيع ٠ وشعر الدكتور ديجنيت أنه لا يستطيع الموافقة على هذا ، من حيث المبدأ من ناحية ، وبسبب علمه بارتفاع نسبة الشفاء من ناحية أخرى ٠ فأجاب ببساطة : « فيما يتصل بى ، يقتضينى واجبى أن أصون الحياة » ٠ وقال بونابرت لديجنيت ان هدفه هو أن يصون الجيش ٠ وأضاف : « لن أحاول التغلب على وساوسك ، ولكنى أعتقد أننى واجد أشخاصا يقدرون نواياى خيرا مما تقدرها » (٧٥) ٠ أما الجنرال برتييه فقد ظل خلال الحديث كله صامتا يكتفى بقضم أظافره ٠

ولم يسمم أحد يومها ، ولكن الرواية لم تتم فصولا

أمر بونابرت بقذف عكا بجميع ما يملك من مدافع ، لا سيما قصر الجزار ، مدى أربعة أيام متوالية ـ ١٢ الى ١٥ مايو ٠ وهدفه أولا اخفاء استعداداته لرفع الحصار ، وثانيا اصابة المدينة بأبلغ ما يستطيع من أضرار ما دام مضطرا لترك مدفعيته الثقيلة وذخيرته ، وثالثا أن يستطيع أن يعلن على الملأ أنه دمر عكا ٠ وفى ١٦ مايو كتب لديوان القاهرة أنه على وشك الرجوع من سوريا ٠ وقال : « وجائب معى جملة محابيس بكثرة وبيارق ٠ ومحقت سراية الجزار وسور عكا وبالقنبر هدمت البلد ، ما أبقيت فيها حجرا على حجر ٠٠ والجزار مجروح ٠٠٠ » ٠

ثم يتبع هذه الأكاذيب بمزاعم غريبة ٠ ويمضى السلطان الكبير الى الحديث عن أحوال مصر فيقول : « وانى بغاية الشوق الى مشاهدتكم ، لأنى بشوف أنكم عملتم غاية جهدكم من كل قلبكم ، لكن جملة فلاتية دائرون بالفتنة ٠ لأجل ما يحركون الشر فى وقت دخولى ٠ كل هذا يزول مثل ما يزول الغيم عند شروق الشمس » (٧٦) ٠

(*) يقول الجبرتى « ومنتوره هذا ترجمان سارى عسكر ، وكان لبيبا متبحرا ، ويعرف باللغات التركية والعربية والرومية والطليانى والفرنساوى » ص ٧١ ٠

(**) كما تقول الوثائق الرسمية ، ولكن اعراض مرضه توحى بأنه ربما كان الطاعون ٠

واستولى على شيوخ القاهرة شيء من الحيرة وهم يقرءون هذا الخطاب ، وتساءلوا لم لم يهتم السلطان الكبير بالاستيلاء على عكا بعد أن جعل عاليها سافلها ؟ ولكن أكاذيبه على افتضاحها كانت موجهة الى جماعة من الرجال لا يعرفون عن فنون الحرب شيئا ، ويعيشون على بعد مئات من الأميال ، وعلى تمام الاستعداد لاذاعتها على الشعب الجاهل ــ وهو ما فعلوه فى الواقع (*) ٠ ولكن أصعب من هذا أن نفهم كيف وجد بونابرت فى نفسه من الصفاقة ما يجعله يقدم لجيشه هذا المزيج الشفاف من الأكاذيب الوقحة ، والتهوين من شأن ما عجز عن نيله ، واضفاء الحواشى البراقة على الواقع الأليم ــ كما فعل فى منشور ١٧ مايو الذى أعلن فيه التقهقر الوشيك :

« أيها الجند ، انكم عبرتم الصحراء التى تفصل أفريقيا عن آسيا بسرعة تفوق سرعة أى جيش من العرب ٠

وقضيتم على الجيش الذى كان زاحفا على مصر ٠٠٠

وشتتم فى السهل الواقع أسفل جبل طابور الجحافل القادمة من كل حدب وصوب فى آسيا والتى تجمعت طمعا فى سلب مصر ونهبها ٠

ان المراكب (التركية) الثلاثين التى رأيتموها راسية تجاه عكا منذ اثنى عشر يوما كانت تقل الجيش الذى أزمع حصار الاسكندرية ٠ ولكن بما أن الجيش اضطر لنجدة عكا فان أمره انتهى هناك ، وستصحبكم بعض راياته فى عودتكم لمصر ٠

والآن وقد وطدنا أقدامنا فى قلب سوريا ثلاثة أشهر بحفنة من الرجال لا أكثر ، وبعد أن هدمنا حصون غزة ويافا وحيفا وعكا ، سنعود الى مصر ٠ وأنا مضطر للعودة اليها لأن هذا هو الفصل الذى نتوقع فيه انزال قوات معادية هناك ٠

منذ أيام قلائل كان لا يزال فى استطاعتكم الأمل فى أن تأخذوا (الجزار) باشا أسيرا فى قصره ، ولكن الاستيلاء على حصن عكا لم يعد فى هذه المرحلة جديرا بأن تبذل فى سبيله ولو أيام قلائل ٠ وأنا الآن أحوج للرجال البواسل الذين كنت سأخسرهم فى هذه المحاولة ، ليقوموا بعمليات أهم ٠

أيها الجند ، ان مزيدا من الشدائد والأخطار يواجهنا ٠٠٠ وستجدون فيها فرصا جديدة للمجد ٠ واذا كان فى كل يوم من أيام هذه المعارك الكثيرة

(*) يقول الجبرتى ان بونابرت وجه خطابا سريا ثانيا للديوان عدد فيه الأسباب الحقيقية لرفع الحصار عن عكا ، والراجح أن الجبرتى لم يختلق الخطاب ، ولم يكن القصد من الخطاب الرسمى الا تبصير الديوان بنوع الدعاية التى يريدهم بونابرت أن يبثوها ٠

يلقى بطل حتفه ، فان أبطالا جددا يجب أن يقوموا ويحتلوا مكانهم بين الصفوة الذين يتصدرون اخوانهم فى الخطر وينتزعون النصر منه انتزاعا » (٧٧) ٠

كان الرجال الذين وجه اليهم هذا الكلام يعرفون أن عكا لم تهدم ، وأن الجيش التركى لم يقض عليه ، وأن الحصار رفع لأنهم هزموا ٠ وما من ريب فى أنهم كانوا حفنة من الرجال ، وأنهم أتوا من الأعمال الجبارة ما لا يتصوره العقــل ، ولكنهم كانوا يدركون أن نصفهم قتلوا وشوهوا فى سبيل مغــامرة يائسة ٠ وربما أفلح منشور بونابرت ، ولو قليلا ، فى رد روحهم المعنوية اليهم ، ولكن أغلب الظن أن هذا الحشد الصارخ من الكذب والنفاق والبلاغة لم يكن موجها اليهم هم، بل الى ذلك الجمع العظيم من الحمقى المعروفين باسم « الأجيال القادمة » و « التاريخ » ٠ فماذا يهمه ان هز كل رجل فى جيشه كتفيه بابتسامة ساخرة عند قراءته هذه الأوهام ، ما دام المؤرخون سينقلونها عنه ويبعثون هزات الاعجاب فى قراء أشد سذاجة من شيوخ الأزهر المخدوعين ؟

والاشارة الى السفن التركية الثلاثين تستحق التعليق ٠ فالجنود الذين أقلتهم أنزلوا بمساعدة السر سدنى سمث الى البر ولم يقض عليهم بل كانوا من العوامل الفاصلة فى هزيمته ٠ ولم يقصد بهم قط حصار الاسكندرية ٠ فلما ظهرت القوات التركية الموجهة لهذا الغرض فجأة عند أبى قير بعد ذلك بقليل أسقط فى يد بونابرت ، لأنه اضطر لتفسير ظهور جيش زعم أنه دمره من قبل٠

ولكن بونابرت لم تكن تهمه الوقائع الصغيرة والصدق ، فقد كانت عبقريته سياسية أكثر منها حربية ، وكان هدفه احداث تأثير كلى شامل ٠ ومن ثم صدرت الأوامر فى مايو ، وهو بداية التقهقر ، بأن تسير القيادة مسبوقة بجميع الأعلام المستولى عليها ، وأن على أفرادها « كلما مروا بقرية أن يدخلوا بالأعلام منشورة والموسيقى تصدح » (٧٨) ٠

وقد روى أندريه بيروس لأمه الظروف التى بدأ فيها التقهقر ٠ فكتب لها من القاهرة بعد شهر يقول : « لم يكن لدينا أى وسائل للنقل ، وكان علينا أن نحمل معنا ألفا أو ألفا ومائتين من الجرحى والمرضى ، فضلا عن أربعين قطعة من المدفعية ٠٠٠ أما ما بقى كله من مدافع من جميع العيارات ، ومدافع مورتار ، وقذائف ، وقنابل ، وبنادق وطلقات — أعنى الذخيرة كلها تقريبا — فكان لابد من دفنه فى الحقول وعلى الساحل ٠ ونسفنا البارود الذى تركناه ، وكومنا كل صناديق الذخيرة وأحرقناها فى السهل ٠٠٠ وتمت جميع الاستعدادات لرحيلنا٠٠ واذا العدو يقوم بهجوم مضاد نشيط فى ٢٠ مايو ، وقد دام اليوم كله تقريبا ٠ وكان اطلاق النار رهيبا ٠ وظل العدو يلقى بنفسه فى خنادقنا ، ولكن رجال فرقة رينييه ٠٠٠ ظلوا يدفعونه ويكبدونه خسائر فادحة » (٧٩) ٠

وفي الساعة الثامنة ، بعد هبوط الظلام • بدأ الجنود يرحلون • وفي صباح الغد رأى الترك في عكا أن معسكر الفرنسيين خلا ممن فيه •

٥

اصطنع السير سدني سمث أسلوب نلسن الكنسي المتميز وهو يكتب له تقريره عن انتصاره : « ان عناية الاله القدير ظهرت ظهورا عجيبا في هزيمة الجيش الفرنسي وتقهقره العاجل ••• وسهل الناصرة هو الحد الذي انتهى عنده ماضي بونابرت العجيب » (٨٠) • أما الكولونيل فليبو فكان لسوء الحظ عاجزا عن مشاركة السر سدني فرحته ، ذلك لأنه مات قبل أن يرفع بونابرت الحصار بنحو أسبوع ـ اما بالارهاق كما أكد سمث ، واما بالطاعون

ووصـــل الجيش الفرنسي المتقهقر الى حيفا حوالي نصف الليـــل • وكتب بيروس لأمه يقول : « كنا نرجو أن نعفى من منظر الموتى والمحتضرين البشع ••• واذا نحن نرى في دخولنا حيفا بالليل نحو مائة مريض وجريح تركوا وسط ميدان فسيح • وملأ هؤلاء المساكين اليائسون الجو بصراخهم ولعناتهم ••• وكان بعضهم يمزقون أربطتهم ويتمرغون في التراب • وجمد الجيش لهذا المنظر • فوقفنا هنيهـــة ، وعين في كل كتيبة رجال لحمل هـــؤلاء المرضى والجرحى بين أذرعتهم الى طنطوره ، ثم استأنفنا السير (٨١) •

ومضى ضحايا العناية قدما • وفي طنطورة وجدوا على الساحل ٧٠٠ أو ٨٠٠ آخرين من الجرحى ومرضى الطاعون ، « ولم تكن هناك سفينة واحدة تنقل هؤلاء جميعا » كما قال بيروس (*) • واقتضى الأمر دفن المزيد من المدافع والذخيرة واحراقها لتوفير مزيد من الخيل لنقل الجرحى والمرضى • وفي أثناء القيام بهذه العملية انفجر صندوق ذخيرة فقتل وشوه عددا من الواقفين •

وكفت فرق الموسيقى الآن عن العزف • يقول بوريين : « رأيت بعيني رأسي ضباطا مبتوري الأطراف يلقيهم (حمالوهم) عن نقالاتهم ••• ورأيت رجالا مبتوري الأطراف ، ومجروحين ، ومرضى بالطاعون ، أو ربما يشتبه في اصابتهم بالطاعون ، يتركون في الحقول ، وكان يضيء لنا الطريق في سيرنا المشاعل التي نحرق بها المدن والقرى والدساكر والمحاصيل الغنية التي حفلت بها الأرض • وأصبح الريف كله شعلة من نار ••• ولم نر من حولنا الا رجالا

(*) تؤكد بعض التقارير المكتوبة في تلك الفترة أن هؤلاء الرجال أجلـــوا بالمراكب عن طنطورة • ولكن الحقيقة أنهم لم يجلوا ، لأن الأميرال بيريه لم يصدع بأوامر بونابرت • وهذا مثل مشهور لأمر لم ينفذ ، ومع ذلك يعتبره المؤرخون حقيقة واقعة •

فى النزع ، وآخرين ينهبون ويسلبون ، وغيرهم يحرقون . وكان الموتى على جانب الطريق يقولون بصوت لا يكاد يسمع : « اننى جريح فقط ، ولست مصابا بالطاعون » ، ولكى يقنعوا من يمرون بهم كانوا يفتحون جروحهم ، أو يحدثون بأجسامهم جروحا جديدة . ولكن أحدا لم يصدقهم . وكان القوم يقولون « انه ميت » ثم يعبرون .... وكان البحر الى يميننا ، والى يسارنا ومن ورائنا الصحراء التى نخلفها ، وأمامنا ألوان العذاب والحرمان التى تنتظرنا » (٨٢) .

وهذا الوصف الذى كتبه بوريين . وما هو بالرجل الذى يوثق بكلامه دائما ــ يؤيده فيه جميع شهود العيان الآخرين .

كان بونابرت قد أصدر الأوامر الصارمة بألا يركب كل قادر على المشى . وفى طنطورة سأله سائس خيله والجيش على وشك استئناف السير : « أى جواد تريد أن تركب يا سيدى الجنرال ؟ » فضرب بونابرت السائس فى وجهه بسوطه وهو محنق وقال له : « يجب أن يسير الجميع على الأقدام أيها ال ..... وأنا مثلهم ! ألا تعرف أوامرى ؟ » وأحدثت هذه الغضبة أثرها المطلوب . **يقول بوريين:** « ومن تلك اللحظة تنافس القوم فى أيهم ينزل قبل غيره عن جواده لحمل المرضى ، بشرط ألا يكونوا مصابين بالطاعون » (٨٣) .

ومن القلة المميزة التى لم يفرض عليها السير مونج ، وبرتولليه ، وكوستا ، وكان ثلاثتهم ناقهين من المرض.وقد وضع بونابرت عربته تحت تصرفهم ، وأخذوا معهم رجلين مصابين بالطاعون وزوجه جندى ترضع طفلا . ولم يصب واحد منهم بعدوى الطاعون .

كان مونج ورفاقه يموتون ظمأ رغم ركوبهم . ومروا بالدكتور ديجنيت وكان يمشى ، فقدم لهم زمزميتين من الماء . وشكره مونج ، ثم أعرب له عن حزنه لفتور بونابرت من نحو الطبيب ، ووعد بأن يذكره عنده بكلمة طيبة . وردا عليه بدأ ديجنيت يرتل المزمور الأول بأعلى صوته « طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار ، وفى طريق الخطاة لم يقف ، وفى المجالس الموبوءة لم يجلس »(*) .

وواصل الجيش زحفه الى يافا وسط الريف المشتعل ، الذى أمر بونابرت بتدميره تعطيلا لمطارديه وحرمانا لهم من الزاد . وكان القناصة من الفلاحين يهاجمون الطوابير المتخلفة من اليسار ، وزوارق السر سدنى ترميهم بقنابلها من اليمين . وفى عصر ٢٤ مايو وصلوا يافا ، حيث ذبحوا قبل شهرين فقط ٦٫٠٠٠ شخص على الأقل . ومكثوا فيها أربعة أيام . وكان هم بونابرت الأول عند وصوله أن يأمر رئيس ادارة الجيش بواييه بالرحيل فى الغد ومعه الرجال المصابون بجراح خفيفة وعددهم ٣٠٠ ، وعدة أسرى منهم عبد الله أغا قائد حامية

(*) فى المزمور « وفى مجلس المستهزئين لم يجلس » (المترجم) .

يافا ، والرايات التركية التى استولى عليها الفرنسيون، ليسبقوا الجيش الرئيسى الى مصر • وقد نص أمر بونابرت على أن يعرض بوابيه الرايات التركية فى كل قرية ويشهرها علامات على النصر » (٨٤) •

وبين ٢٥ و ٢٧ مايو أرسل مزيد من الجرحى ومرضى الطاعون مقدما بالبر ـ ماشين أو راكبين أو محمولين كما تقتضى حالهم ـ وأرسل مئات من الحالات الخطرة بحرا الى دمياط على ست سفن صغيرة لم تجهز اطلاقا لهـذه المهمة ، واعترض السر سدنى سمث السفن ووجدها ـ كما كتب فى تقريره لنلسن : « تعوزها كل الضروريات ، حتى الماء والزاد • فاتجهت رأسا الى سفن صاحب الجلالة واثقة كل الثقة أنها واجدة النجدة الانسانية ، ولم يخب أملها • وقد أرسلتها الى دمياط حيث تجد مزيدا من العون الذى تحتاج اليه ، والذى لم يكن فى طاقتى توفيره لهذا العدد الكبير • وقد كانت عبارات شكرهم لنا تختلط باللعنات يستنزلونها على قائدهم الذى آثر تعريضهم للهلاك ـ كما قالوا ـ على أن يجدد الاتصال الأمين الشريف بالانجليز ، ذلك الاتصال الذى قطعه بزعم باطل خبيث ، مؤداه أننى عرضت الأسرى السابقين (الذين استبدلوا فى عكا) عن عمد لعدوى الطاعون » (٨٥) • وليس لدينا كلمة واحدة نضيفها لتقرير السر سدنى سمث عن حالة الجرحى الفرنسيين ومعنويتهم ، أو عن اتهامات بونابرت له بما يسمى اليوم حرب الميكروبات ، وكل الدلائل الموجودة لدينا تؤيد تمام صدق السر سدنى سمث •

وفى ٢٧ مايو كتب بونابرت تقريرا عن انتصاراته فى سوريا لحكومة الادارة ، وذكر ما يأتى فى حديثه عن أيام الحصار الأخيرة • بدت الفرصة مواتية لاستيلائنا على عكا ، ولكن جواسيسنا واللاجئين الينا من جنود الأعداء وأسرانا منهم ـ كلهم أبلغونا أن الطاعون اجتاح المدينة وأن أكثر من ستين شخصا يموتون به كل يوم ••• فلو دخل الجنود المدينة ••• لجلبوا معهم الى المعسكر جراثيم هـذا المرض الخبيث البشع الذى يثير من الرعب ما لا تثيره جيـوش العالم قاطبة » (٨٦) • أما أن الطاعون اجتاح جيشه هو وكلفه ألف رجل ـ فذلك ما أمسك عنه التقرير ، **كذلك ضرب صفحا عن ضحايا الهجمة الأخيرة** : ولا عجب ، فحسبه كيف يفسد ذكرها أثر ما سماه بونابرت فى الخطاب ذاته « الأحداث المجيدة التى أنجزت فى سوريا فى الشهور الثلاثة الماضية باسم الجمهورية » •

وما كاد بونابرت يفرغ من املاء هذا الخطاب ، أو هذا الافتئات الصارخ على الحقيقة ، حتى أمر بتسميم من بقى بمستشفى يافا من مرضى الطاعون • ويقول بوريين انه زار المستشفى قبل أن يصدر هذا الأمر • « وجاس بونابرت فى سرعة بين العنابر وهو يضرب أطراف حذائه الصفراء بسوط ركوبه ••• (وقال) سيكون الترك هنا بعد ساعات قليلة • فليأت معنا كل القادرين على

النهوض ، وسيحملون على المحفات والخيل » ... وأعلن صمت الرجال وتبلدهم التام ... عن نهايتهم القريبة (٨٧) » (*) .

وكان قد بقي في المستشفى نحو خمسين مريضا . فلما رفض الدكتور ديجنيت أن يكون له يد في تسميمهم ، حصل بونابرت على المخدر من الحاج مصطفى ، وهو طبيب تركي من الآستانة وصل الى يافا عقب استيلاء الفرنسيين عليها . وأعطى كبير الصيادلة رواييه السم للمرضى . وهناك ما يبرر الاعتقاد بأن مصطفى ، أو رواييه ، أو كليهما ، أعطى الرجال عمدا جرعة غير كافية . يقول الدكتور ديجنيت : « وألقى بعضهم (المخدر) ، وشعروا بالراحة ، وشفوا، وعاشوا ليقصوا ما حدث » (٨٨) . ويؤيد السر سدنى سمث هذه الرواية في تقريره لنلسن ، فيقول انه حين دخل الترك يافا ، وجدوا سبعة من المرضى البائسين قد تركوا أحيـاء في المستشفى ، وهم يلقون الحمـاية ، وسيعتني بهم » (٨٩) . وليس هناك شاهد على أن رجلا واحدا مات فعلا بالسم ، ولكن ليس هناك شك في أن بونابرت أمر باعطائهم السم .

وقد قام جدل سخيف حول هذا الحدث . فاتهم الدكتور لارى رسميا ديجنيت بالكذب حين نشر هذه الحقائق بعد ذلك بسنوات . ويميل عباد نابليون لانكار القصة برمتها . ولكن تقوم ضدهم شهادة بوريين ، وجاك ميلو ، والمارشال مارمون ، والمهندس مارتان ، وكليبر ، وديجنيت ، والجاويش فرانسوا ، وستة غير هؤلاء على الأقل . ويؤكد بونابرت نفسه هذه المزاعم أكثر مما ينفيها وهو يروى قصة الحملة ، فيقول ان السم ترك الى جوار المرضى قبل جلاء الفرنسيين عن يافا ليستطيعوا تناوله تجنبا للوقوع في قبضة الأتراك . ومن الصعب أن نفهم لم أثارت هذه المسألة كل هذا الجدل المشبوب : فحتى لو كان بونابرت قد أمر بقتل بضع عشرات من مرضى الطاعون الميئوس من شفائهم رحمة بهم ، فلا ريب في أن عملا كهذا يمكن تبريره أكثر من ذبح آلاف من أسرى الحرب ، وهو ما أمر به في يافا قبل ذلك بعشرة أسابيع .

وفي ٢٨ مايو أنهى الفرنسيون احتلالهم ليافا بألعاب نارية اذ نسفوا الحصون ثم استأنفوا زحفهم الطويل . كتب السر سدنى سمث لنلسن يقول : « ان الطريق بين عكا وغزة تنتشر عليه جثث الموتى الذين سقطوا اعياء أو بفعل جراح طفيفة » (٩٠) ويذكر الكولونيل فيجو ـ روسيون ، الذى اشترك في عملية التقهقر ، سخط الجنود على قائدهم الأعلى « لقد قيل ان (الجرحى) كان يمكن اجلاؤهم بالبحر ، وان السر سدنى سمث عرض أن يدبر حراستهم الى

(*) كثيرا ما خلط الناس بين هذه الزيارة الثانية لمرضى الطاعون في يافـا ، وزيارة بونابرت الأولى التى جعلها جرو موضوعا لصورته (انظر الفصل التاسع ـ ٢) وتؤيد مذكرات سافارى دوق روفيجو (١ ـ ١٦١) شهادة بوريين .

الاسكندرية ، بل اقترح أن ينقلهم على مراكبه انقاذا لهم من الترك المتعصبين ، ولكن بونابرت – في رأى الجند – لم يمتنع عن بذل أى محاولة لمفاوضة الانجليز فيالموضوع فحسب ، بل رفض جميع عروضهم : وحمله كبرياؤه أخيرا على تحريم كل اتصال جديد بهم والا كان الاعدام عقوبة المخالف » (٩١) والناس عموما يعتقدون أن جيش نابليون كان يعبده وقد يكون هذا صحيحا فى ايطاليا ، وقد يكون أيضـا صـحيحا بعـد الحملة المصرية ، أما فى مصر فان الجيش كان يكرهه ·

واستمر انسـحاب الجيش · ودون كليبر حادثا صغيرا فى مذكرته : « التقهقر من عكا · أونباشى ··· وقف بمريض بالطاعون على الطريق وقطع حزام نقوده · وتوسل اليه المريض أن يترك له الفرنكات الاثنى عشر التى فى حزامه « اننى ان أعطيتها لاعرابى فقد ينقذ حياتى » وأجاب الأونباشى : « أنت تخدع نفسك » · « اذن فاترك لى الأمل على الأقل » ، وأمره (ضابط) برد الحزام » (٩٢) ·

٣٠ مايو : وصل الجيش الى غزة · ٣١ مايو بدأ الزحف خلال صحراء سيناء · أول يونيو : وصل الجيش بعد مسيرة يومين متتالين فى الصحراء من الشروق الى الغروب ، أو على الأصح سقط اعياء فى العريش على أرض مصرية · ٥ يونيو : استؤنف الزحف فى الصحراء ·

ووقف الجيش وقفة قصيرة قرب الغروب · فلما أمر كليبر رجاله بعدها أن يواصلوا السير لم يبدوا حراكا · وتكرر الأمر ، ولكن أحدا لم يتحرك وانهال سيل من الشتائم على رءوس الضباط · وأسرع ياور صوب العصاة · فأوقفوه بسناكيهم ، وعاد الياور جريا الى كليبر · وقال القائد : « اتركهم وشأنهم · دعهم ينفسوا عن غيظهم ويلعنونا ، فذلك هو التفريج الوحيد الذى بقى لهم ، ويجب ألا نحرمهم منه · فلنتظاهر حتى بأننا لا نلحظ عصيانهم وسيأتون – وسترى · فلتمض أمامهم » (٩٨) · وفعلا قام الجند بعد قليل كأنهم الأطفال المتمردون ، وتبعوا قائدهم ·

وفى مساء ٣ يونيو ، وبعد مسيرة تسع ساعات ، دخل الجنود قطيا التى بدأوا منها الزحف على سوريا · وكان وراءهم على الطريق شريط طويل من الموتى رجالا ونساء – لأن عددا من المسيحيين الفلسطينيين شاركوهم تقهقرهم هربا من انتقام الجزار · فلما لاحت لهم مصر تهللوا وغمرتهم الفرحة · وقد وردت هذه العبارات فى ختام يومية الحملة السورية التى كان يكتبها سلاح المهندسين : « ان مصر التى هى غاية منانا تلوح لنا كأنها فرنسا ثانية ووطن آخر ، وذكرياتنا القاسية عنها تتلاشى ، وها نحن أولاء عائدون اليها لنكون مع أصحابنا وزملائنا ، أما آلامنا الماضية فقد نسيناها » (٩٤) ·

ولكن ما كل الجنود نسوا آلامهم بالسرعة التى نسيها بها كتاب هذه اليومية • ففي الصالحية أصدر بونابرت فى ٩ يونيو أوامر مشددة ضد « المهيجين » في الجيش ، وطلب الى كل قائد كتيبة أن يعد قائمة بأسمائهم ويقدمها للقائد الأعلى ، فاذا ثبتت على « المهيج » جريمة الخروج على النظام ضوعفت عقوبته ، واذا تبين أن « المهيج » مذنب لأنه أضعف روح الجنود المعنوية وهم يخوضون المعركة أو يزحفون فى مراحل شاقة طويلة أعدم رميا بالرصاص دون محاكمة • وبفضل هذه الاجراءات الصارمة لم تلبث الروح المعنوية أن ارتفعت ثانية •

***

دخل بونابرت القاهرة فى ١٤ يونيو على رأس معظم القوة الباقية من جيشه • وكان الجرحى والمرضى قد وزعوا بعناية على عدد من المدن اخفاء لحقيقة عددهم • ولم يشترك غير الأصحاء فى هذا العود الظافر •

وكانت فعلا أوبة ظافرة ، أخرجها الجنرال ديجا الذى أصدر اليه بونابرت تعليمات مفصلة اخراجا فخما • ودخل الجيش من باب النصر • ونثر فى طريقه سعف النخل ، وحمل كل جندى سعفة مثبتة فى قبعته • وصحب أعضاء الديوان ، والحامية الفرنسية ، والمتطوعون الوطنيون ، وجميع رجال السلطة المدنيين والعسكريين فى القاهرة ، الجيش الظافر الى ميدان الأزبكية على أنغام الموسيقى ، بينما نشرت غنائم الجيش من رايات العدو • واكتظت الشوارع بجموع كبيرة • يقول الكابتن ديجيرو ، يبدو أنهم كانوا تواقين لمعرفة عدد من بقى منا على قيد الحياة » (٩٥) •

لقد لعب كل من شارك فى هذا العرض دوره باتقان جدير بالاعجاب ، ولكن أحدا لم ينخدع به •

وبعد عشرة أيام من دخول الجيش المظفر الى القاهرة ، كتب أندريه بيروس ، والذكريات لا تزال حية ، وصفه الطويل للحملة فى خطاب لأمه ، وهو الوصف الذى نقلنا منه الكثير فى الصفحات السابقة • ويختم بيروس وصفه بهذه العبارات « اليوم يستريح الجيش من تعبه • ولكن منشورا أصدره القائد الأعلى يعلن لنا أن أمامنا مزيدا من المعارك • فمتى يارب تكف عن هذا القتال ••• ان المذكرات التى دونها خلال الحملة السورية صادقة أمينة • ويدلك تقرير القائد الأعلى ، الذى أرفقه مع خطابى ، على مدى الكذب الذى لابد للانسان أن يتورط فيه مادام مشتغلا بالسياسة » (٩٦) •

الفصل العاشر

اله الحرب واله الحظ

١

عقد بونابرت يوم رحيله عن عكا مجلسا من أركان حربه • وبعد الاجتماع كتب كليبر فى يوميته هذه الكلمات « انقشعت كل الأوهام » (١) ولسنا نعلم ما الذى قاله بونابرت حتى يزيل ما بقى لكليبر من أوهام قليلة ، ولكن من السهل أن نرى الآن ونحن نستعرض الماضى ما كان يجول بخاطره ، ولم يكن لأعماله التالية من أثر على كليبر الا اشتداد شعوره بانقشاع أوهامه وبالاحتقار لبونابرت •

ذلك أن بونابرت ــ بعد أن خسر لعبته الدامية فى عكا ــ صمم على العودة الى أوربا فى أول فرصة ، مخافة أن تفوته غنيمة أكبر • ولكى نفهم منطقه علينا أن نعود عودة قصيرة الى أصول الحملة • فنحن نذكر أن القارة الأوربية ، حين استقر رأى بونابرت على القيام بالحملة ، كانت فى سلام • وقد أقنعه فحصه للاستعدادات الحربية التى اتخذتها فرنسا ضد انجلترة بأن مشروع غزو الجزر البريطانية مقضى عليه بالفشل ، ولم يكن فى نيته أن يربط بين نفسه وبين الفشل • وكان المخرج الوحيد من هذه الورطة تزعم مغامرة عظيمة أخرى ــ هى الحملة على مصر • والحق أن المغامرة بدت له عظيمة فى ذلك الحين ، فستكون مصر مسرحا للتاريخ العالمى يسدد منه الضربة القاضية على انجلترة ، ويقيم امبراطورية فى المستعمرات ، ويحدث ثورة فى تجارة العالم • انها مغامرة جديرة به ، وقد رحبت بها الصحافة الفرنسية عام ١٧٩٨ بوصفها بداية عهد جديد •

ولكن تدمير الأسطول فى « أبو قير » واعلان تركيا الحرب على فرنسا ، وعدم ارسال الحكومة الفرنسية المدد للجيش الفرنسى فى مصر ، ثم الكارثة التى حاقت به الآن فى عكا ــ كل هذا غير الصورة تغييرا تاما ، فلم تعد مصر

مسرحا لتاريخ العالم بل ذيلا له ، بينما توشك القرارات الخطيرة الفاصلة أن تتخذ فى أوربا ، سواء فى ساحة القتال أو الاجتماعات التى يعقدها الساسة المتآمرون خفية . ان مصر وآسيا لم يعد فيهما فرص أخرى ، أما أوربا ، الحقيرة ، التى كان منذ سنة واحدة فقط يتكلم عنها بازدراء ، فقد أغرقته الآن بمجد أعظم . فلو طال بقاؤه بمصر لضاعت الفرصة الى الأبد . لقد استنفدت مصر الغرض منها فيما يخصه ، وان كان بقاؤها فى قبضة فرنسا قد يفيدها بعض الفائدة فى حالة المفاوضات للصلح العام .

كان القرار الذى اتخذه بونابرت بينه وبين نفسه بالعودة الى أوربا مبنيا من جهة على تقديره للموقف فى مصر ، ومن جهة أخرى على أنباء تلقاها من أوربا ، وهى أنباء ذات دلالة على ضآلتها . فقبل أن يغادر القاهرة الى سوريا بأيام قابل تاجرا فرنسيا يدعى هاملان وصل أخيرا من تريستا . ومن هاملان هذا عرف بنشوب الحرب فى ايطاليا ، وباستيلاء جيشى نابلى على روما ، وباعلان الباب العالى الحرب رسميا على فرنسا ، وبالحصار الروسى التركى على كورفو . وبدا لبونابرت أن حربا عامة تنتظم معظم دول أوربا وشيكة الوقوع . يقول بوريين « فى اليوم الذى رحل فيه (الى سوريا) قال انه سيعود اذا وصلته خلال شهر مارس أنباء مؤكدة بنشوب الحرب بين فرنسا والحلف الأوربى » (٢) .

وفى ٢٥ مارس ، بينما كان بونابرت يحاصر عكا ، تلقى مزيدا من المعلومات من فينان مورفو ، الذى أتاه بخطاب الادارة المؤرخ ٤ نوفمبر (*) . وكانت الأنباء الواردة فى الخطاب قديمة ، ومع أن مورفو استطاع أن يبلغ بونابرت معلومات أحدث ، فانه لم يعرف أن الحرب استؤنفت ثانية بين فرنسا والنمسا . على أنه لم يأت يوم ١٨ ابريل حتى كان بونابرت قد عرف من مصدر آخر أن الفرنسيين استعادوا روما واستولوا على نابلى، وهو تطور جعل الحرب مع النمسا أمرا مؤكدا . ولعل هذا يعيننا على تفسير شوق بونابرت للاستيلاء على عكا بأى ثمن تقريبا ، وذلك ليفرغ من الحملة السورية ، ويعود الى مصر منتصرا انتصارا كبيرا أو صغيرا ، ومنها ينطلق الى أعمال أجل وأعظم .

ولم تسقط عكا ، ولكنه أفلح فى اخفاء فشله وراء مظاهر قوية وان كانت رخيصة . وفى ٢١ يونيو ، أى بعد عودته الظافرة الى القاهرة بأسبوع ، أصدر تعليماته للأميرال جانتوم بأن يحتفظ بالفرقاطتين « موريون » و « كارير » على أهبة الاستعداد للاقلاع الى فرنسا . وبهما أبحر فعلا بعد شهرين .

(*) انظر الفصل السابع ـ (٣) .

أما انفاقه شهرين آخرين بمصر فله مبررات عدة • فهو أولا يأمل أن يستدعى رسميا الى فرنسا ، وكان فى نوفمبر الماضى قد أرسل أخاه لوى الى فرنسا فى مهمة ، هى العمل على عودته بالتعاون مع شقيقه جوزف ولوسيان وربما مع تاليران أيضا • وهناك سبب ثان ، هو أنه كـان ينتظر مزيدا من الأنباء الموثوق بها • اضف الى ذلك أنه لا بد من تحين اللحظة المناسبة التى يستطيع فيها التسلل من الأسطول البريطـانى الذى يجوب البحر فى أمان نسبى • وأخيرا ، وأهم من هذا كله ، أنه كان يتوقع نزول جيش من الحلفاء على ساحل مصر • فاذا استطاع صده أمن مصر من الهجوم عدة شهور ، وعاد الى فرنسا بنصر آخر يضاف الى مفاخره • أما الجيش فيبقى فى مصر بالطبع ، فهو قادر على الدفاع عنها سنة أخرى على الأقل ، ويجب المساومة به اذا أجريت مفاوضات الصلح •

على أنه سيمضى فى هذه الأثنـاء فى حكم مصر كما حكمها من قبـل ، وسيسلك كأنه ينوى البقاء فيها أبدا •

***

والمقدمات المنطقية التى بنى عليها الجنـرال كليبر تفكيره هى بذاتهـا مقدمات بونابرت • فهو قدم الى مصر لأنه اقتنع بأهميـة المشروع ، وأدرك الآن أن الحملة أخفقت فى كل غرض ، الا التمهيد للمرحلة الثانية فى مستقبل الجنرال بونابرت • واذ كان موقفه من أطماع بونابرت موقف العداء لا عدم المبالاة فحسب ، فقد بدا له أن الخير كل الخير فى التعجيل باعادة الجيش الى فرنسا • فالحاجة اليه ماسة فى فرنسا ، وهو فى مصر ينحل شيئا فشيئا • أما التضحية بحياة آلاف الجنود للمساومة بهم فى دنيا السياسة فقد بدت له فكرة واهية بل فظيعة • لقد كان بونابرت سياسيا حسابا ، أما كليبر فجندى عاطفى • وفى هذا التناقض بين نظرتيهما ومزاجيهما مفتـاح كل التصرفات المحيرة التى صدرت عن بونابرت وكليبر خلال تلك السنة •

٢

لم يواجه بونابرت ديوان القاهرة بوجه مشرق متهلل رغم ما أعلن له قبل ذلك من أن جميع المتـاعب فى مصر ستتبدد لدى عـودته كما تنقشع الغيوم أمام أشعة الشمس • قال لهم فى مستهل خطابه « انه قد بلغنى أن الأعداء قد شاعوا على بأننى مت فانظروا الى وأمعنوا النظر ، هل أنا بونابرت أم لا » (٣) واذا كانت عيونهم لم تقنعهم ، فان أعماله فى الأسابيع التالية لم تترك لهم مجالا للشك فى حقيقة شخصه •

وبينما كان بونابرت يفتقد نصف جيشه فى سوريا ، نشر ديزيه السلام فى ربوع الصعيد ، وحفظ ديجا وبوسييلج النظام فى القاهرة بفضل ما أوتيا من حصافة واعتدال · وقامت الاضطرابات فى الدلتا وأخمدت قبل أن يعود بونابرت بشمسه المبددة للغيوم · فكان هناك حركتا تمرد خطيرتان ، بالاضافة الى غارات البدو وكمائن الفلاحين العادية · ولم تفض الحركتان الى نتيجة سوى المذابح المألوفة ، ولكن دلالتهما فى أنهما أظهرتا قلق الأهالى المستمر ، وضعف سيطرة الفرنسيين ·

أما أقل الحركتين شأنا فالمحرض عليها مصطفى أمير الحج،الذى كان مفروضا أن يتبع بونابرت الى سوريا مع قاضى القاهرة وعدة شيوخ وحرس من الانكشارية المغاربة · ولكن أمير الحج تعلل ببعض الأعذار ، وبدلا من أن يذهب الى سوريا أخذ يطوف باقليم الشرقية وجمع بالرشاوى نحو ۲٫۰۰۰ بدوى هاجموا قافلة فرنسية ، وكانوا مصدر تهديد لخط تموين الفرنسيين فى الطريق لسوريا · ولما انتفى كل شك فى خيانة مصطفى ، أرسل ديجا عدة فصائل لتعقبه هو وحلفائه · وكان شيوخ القاهرة قد هربوا من مصطفى الآن – بدافع الحيطة أكثر من الولاء للفرنسيين – ولم يبق معه سوى القاضى عسكر ، أو قاضى قضاة القاهرة ، بين الأعيان (وكان القاضى تركيا عثمانيا كأمير الحج) · ولما اقتربت قوات الفرنسيين التأديبية اختفى أيضا حلفاء مصطفى من البدو حاملين كل ما أعطاهم من مال · أما مصطفى فيذكر تقرير الجنرال لانوس أنه اتخذ الطريق الىسوريا ونتف شعر لحيته يأسا » (٤) وغنى عن القول أنه لا الأمير ولا القاضى انضما الى بونابرت فى سوريا ·

ولم يمنح شيوخ القاهرة أمير الحج تأييدهم وان عطفوا عليه ، لأنهم قوم حذرون · ولكنهم فى الوقت نفسه متمسكون بالتقاليد ، اذ لم يقبل الشيخ العريشى – وهو شيخ مصرى – منصب القاضى الهارب الذى كان يشغله الترك منذ أمد بعيد ، الا بعد ضغط شديد ·

أما أخطر الحركتين فقد نشبت فى الاسكندرية وكان المحرض عليها رجل متعصب يدعى أحمد ، وهو فقير أو درويش من درنهبليبيا ، إدعى أنه المهدى المبعوث لقيادة المؤمنين فى القضاء على الكفار ·

وسرعان ما أثارت مواعظ المهدى بدو البحيرة وفلاحيها السذج فى الاقليم كله · وراح هذا الدرويشالمجرد من الثياب تقريبا ، المختلط العبارات ، يدهش سامعيه بدعاوى جريئة لا يتوقعونها الا من نبى صادق : فهو يزعم أنه يستطيع احالة الفرنسيين الى تراب بمجرد النظر اليهم ، ووقف قذائف المدافع فى الهواء ، ومنع المدافع من الانطلاق بنفخه أنفاسه صوبها ، وتحويل كل ما يمسه الى ذهب : أما الرصاص فلا يؤذيه ولا يؤذى أتباعه ، وأما جسده فروح خالص ،

وهو يقتات على غمس اصبعيه فى ابريق لبن مرة في اليـوم ودعك شـفتيه بهما ، وأضاف الى هذه المزاعم دعوى أخرى هى أنه ابن ملك المغرب • واستهوت صفات المهدى الفلاحين وعرب الصحراء فجند منهم عدة آلاف • واستولوا على دمنهور ليلة ٢٤ ـ ٢٥ أبريل ، وذبحوا الحامية الفرنسية ، ثم زحفوا على الدلتا • وأدركتهم حملة تأديبية فرنسية فى دمنهور فى ٩ مايو • وتبين أتباع المهدى خطأهم فى أول لقاء لهم برصاص البنادق وقذائف المدافع ، ففروا الى الصحراء ، وصب الفرنسيون انتقامهم على الأهالى كالعادة • وكتب الجنـرال لانوس الى ديجا يقول : « ان دمنهور زالت من الوجود ، وقد أحرق أو ضرب بالنار ألف ومائتان الى ألف وخمسمائة من أهلها » (٥) ولا يعرف على التحقيق هل فر المهدى نفسه أم سقط بين الضحايا •

وثورة المهدى تذكرنا بقصة قصيرة كتبها بونابرت فى التاسعة عشرة وهو لا يزال صاحب طموح أدبى • وتروى هذه القصة ، واسمها « النبى المقنع » خاتمة نبى يدعى حكيم ، من أهل القرن الثامن • وقد غطى حكيم هذا وجهه بقناع فضى ليخفى عاهته بعد أن أصيب بالعمى فى معركة مع رجال الخليفة وزعم للناس أنه لو نزع هذا القناع لأعشى سنا نوره كل من يتطلع اليه • ثم حمل أتباعه على حفر بئر عميق يقع فيها أعداؤه حين يهاجمونه • فلما حفروا البئر دعاهم لوليمة ، دس لهم فيها السم جميعا ، وجر جثثهم الى البئر ثم أشعل نارا عظيمة ليحرقها وألقى بنفسه فى النار • ويختم بونابرت الشاب القصة بقوله « وهذا مثل عجيب للشطط الذى يمكن أن يدفع الانسان اليه جنون الشهرة » (٦) • وهى قصة غريبـة ، وتبدو أغرب اذا عرفت سـيرة مؤلفها فيما تلا ذلك من حياته •

***

ومع أن حركتى التمرد قد أخمدتا قبل عودة بونابرت ، فقد ظلت الكمائن تتربص بالفرنسيين وظلت قوتهم تتعرض للغارات ، وعاد مراد بك مرة أخرى الى القتال • أما الطاعون فخفت وطأته ولكن الجدرى كان يتفاقم ، وأخذت القوات الفرنسية تتضاءل تضاؤلا محققا وان كان بطيئا • وقد اعترف بونابرت فى تقريره الذى كتبه لحكومة الادارة فى ٢٩ يونية بأنه فقد ٥ر٣٤٤ رجلا منذ بداية الحملة (أى نحو ١٥٪ من قواته البرية) وأنه يتوقع أنه لن يبقى فى ربيع ١٨٠٠ سوى ٠٠٠ر١٥ منهم ٠٠٠ر٣ لا يصلحون للقتال • ونظرا لما وقع من جدال عنيف بينه وبين كليبر (الذى لم يستطع الرد لأنه ميت) فانه يحسن التنبيه الى هذه الأرقام التى قدمها بونابرت نفسه • وللمرة الأولى ذكر وباء الطاعون ، وللمرة الأولى طلب مددا ـ حده الأدنى ٦٠٠٠ رجل •

ثم لجأ فى الوقت نفسه لكل طريقة ممكنة ليزيد قواته • ففضلا عما طلب من شحنات العبيد السود من سلطان دارفور ، أصدر تعليماته بأن يكلف الجنود العجزة بالأعمال الادارية كلما أمكن ذلك ، وأن يدخل الموظفون الاداريون فى الجيش بعد اعفائهم من واجباتهم الادارية على هذا النحو • وفى الوقت نفسه اهتم اهتماما فجائيا بمصير الجنود الفرنسيين المعتقلين فى القلعة لشتى الجرائم ، وأمر باعادة النظر فى الأحكام الصادرة عليهم • وهدفه الواضح هو رد أكبر عدد ممكن منهم للخدمة العامة • ولم يكن مثل هذا الحنان فى طبعه •

أما المسجونون المسلمون فى القلعة فقد أنهى بونابرت متاعبهم بحل حاسم على بساطته • فأمر بين ١٩ و ٢٢ يونيو بأن يرمى بالرصاص اثنان وثلاثون منهم دون اتخاذ أى اجراء قانونى سوى توقيع بونابرت • وكان بعضهم أسرى حرب أخذوا فى سوريا ، استنفدوا أغراضهم بمجرد أن عرضهم فى موكب نصره ، وغيرهم أتباع لأمير الحج ، وبعضهم مماليك عادوا الى القاهرة دون أن يشتروا الأمان من السلطات الفرنسية • أما المبررات التى اختلقها بونابرت لكثير من أحكام الاعدام فهى تبدو مقتضبة بعض الشىء • « محمد التار ، المتهم بالطعن فى الفرنسيين يعدم ••• عليك أيها المواطن الجنرال (ديجا) أن تأمر باعدام الرجال السبعة فى سرية عمر (الأنكشارية) الذين أبلغتنى أنهم أشخاص صخابون » (٧) • وفى ٢٣ يونيو اقترح ديجا ــ وهو بطبيعته رجل رحيم ولكن يبدو أن صبره فرغ ــ على بونابرت هذا الحل : « بما أن حالات الاعدام تتزايد فى القلعة فانى أريد أن أعين جلادا (يقطع الرءوس) ليحل محل فرقة اطلاق النار • وفى هذا توفير للذخيرة وتخفيف للضجة » • وأشر بونابرت فى الهامش « موافق » (٨) •

ولكن أعجب حكم بالموت فى هذه السلسلة البشيعة من الأحكام كتبه بونابرت فى ٨ يوليو : « عليك أيها المواطن الجنرال بقطع رأس عبد الله أغا ، حاكم يافا السابق المعتقل فى القلعة • فهو استنادا الى كل ما قاله لنا عنه أهل سوريا وحش يجب أن يمحى من ظهر البسيطة (٩) •

وقد يذكر القارىء أن عبد الله أغا كان قائد بضعة آلاف من الترك الذين أمر بونابرت بذبحهم دون استفزاز على ساحل يافا •وقد أبقى على حياته ليشجع الجزار باشا على الاستسلام ، وليعرضه على أهل القاهرة فى موكب نصره • واذ لم يتخذ فى محاكمته أى اجراء قانونى فانه لم يثبت قط ماذا كانت جرائمه فى سوريا ، أو هل الفرنسيون مختصون بادانته عليها • وقد قطع رأسه فى ٩ يوليو •

كانت الرؤس لا تزال تتهاوى فى القلعة حين دعا بونابرت فى ٢٩ يونيو أول جلسة للمجمع العلمى المصرى عقدت منذ رحيله • وكان المجمع قد فقد ثلاثة من أعضائه ــ كفاريللى وفنتور وهوراس ــ وكلهم مدفونون تحت أسوار

عكا . على أن بونابرت لم يحضر الجلسة ليرثى الموتى ، بل ليعين لجنة تضع تقريرا عن الطاعون الدملى فى سوريا . وألمع فى وضـوح الى أن الهدف من اللجنة القاء تبعة فشل الحملة على هذا الوباء . أما الرجل الوحيد الذى كان يستطيع الكلام في هذا الموضـوع بشىء من العلم واليقين ، وهو الدكتـور ديجنيت ، فلم يعين فى اللجنة . وأباح بونابرت لنفسه فى النقاش الذى تلا الاقتراح أن يتندر تندرا رخيصا على حساب الأطباء . وقفز ديجنيت على قدميه وأعلن رأيه صراحة « فى عنف أذهل الحاضرين الكثيرين » فقال ان جريمته هى أنه رفض اعطاء السم لضحايا الطاعون فى يافا ، ثم ان هناك أشياء أخرى أغفلها الجنرال ذكرها لاستخفافه بكل مبادىء الفضيلة . ومضى ديجنيت ، غير عابىء بمحـاولات بونابرت ومونج لاسـكاته ، ينفس عن غيظـه المكتـوم من « التملق المرتزق » و « الاستبداد الشرقى » و « الحرس المسلح الموضوعين فى دار جمعية مسالمة من العلماء » . وما ان وصل الى هذا حتى كانت الجمعيـة المسالمة من العلماء على وشك التضارب . وواصل ديجنيت حديثه فى صوت أهدأ : « اننى أعلم أيها السادة ، وأعلم أيها الجنرال ـ أنك تتخذ هنا صفة غير صفة العضو المجرد من أعضاء المجمع ، وأنت تريد أن تسيطر على كل شىء ـ وأعرف أننى انسقت مع عواطفى ، وأننى قلت أشياء سيكون لها صدى أبعد كثيرا من هذا المكان . ولكننى لن أسحب كلمة واحدة مما قلت ... وانى ألوذ بعرفان الجيش بصنيعى » (١٠) .

وبعد هذا المشهد العاصف مباشرة طلب ديجنيت الاذن بالعودة الى فرنسا لدواع صحية وعائلية ، ولكن بونابرت رفض طلبه ، فمكث الطبيب بمصر حتى سلمت الحملة فى ١٨٠١ . ولم يتخذ بونابرت أى اجراء غير هذا ضد ديجنيت . فهو كمـا قالت مدام دستار فيما بعد ، « رجل تسكته المقـاومة الصادقة . وجناية الذين احتملوا طغيانه ليست أقل من جنايته » (١١) .

بينما كان بونابرت يقتل الوقت فى القاهرة مترقبا شيئا يصنعه ، ويوقع عقوبات الاعدام (على السوريين والمصريين) ، ويقضى الليل فى فراش مدام فوريه ، ويأمر بجمع الضرائب الباهظة ، ويناقش موضوع الطاعون ، كـان مراد بك برجاله المائتين أو الثلاثمائة يتململ ضيقا بالبقاء فى الواحة الخارجة حتى غادرها . واستطاع بسلسلة مذهلة من الخدع والتعرجات أن يروغ من جميع القوات التى أرسلت لاعتراض طريقه ، ودخل اقليم البحيرة فوجده هادئا هدوءا مخيبا لآماله بعد هزيمة المهدى ، ثم عاد أدارجه ليرابط قرب أهرام الجيزة . وكان هدفه ولا ريب الانضمام الى القوات البرية التركية التى أحيط علما بقرب وصولها من البحر . ويبدو أن مرادا وزوجته تبادلا فى ١٣ يوليو

الحديث بالاشارات من قمة هرم خوفو وسطح قصرها بالقاهرة . فلما علم بونابرت بالأمر قرر أنه قد يحسن به أن يتولى بشخصه الاشراف على مطاردة هذا الأمير الرواغ مادام غير مشغول بما هو أهم . فالقبض على من يستعصى على القبض قديضيف مفخرة لمفاخره .

وفى ١٤ يوليو نقل بونابرت مقر قيادته الى الأهرام ، وبالطبع كان مراد قد رحل . وفى صباح اليوم التالى تلقى بونابرت وهو معسكر بالأهرام نبأ من الاسكندرية ينبئه بأن أسطول تركيا وصل الى الشاطىء ، وأنه على وشك انزال جيش يقدر بنحو ١٢٫٠٠٠ الى ١٥٫٠٠٠ رجل . وهذا هو الجيش الذى ادعى فى النشرات التى أذاعها من عكا أنه دمره : كذلك كانت تلك فرصته التى يترقبها . فلم يضيع لحظة . وبعد أن أملى سلسلة من الأوامر لقواد الجيش المنتشرين فى جميع أرجاء مصر ، فض المعسكر فى الساعة ١٢٫٣٠ مساء بعد ثلاثة أيام كان فى الرحمانية على مائة ميل الى الشمال يحشد قوة ضاربة ضد الترك . ويكاد يكون ضبط توقيته ، وسرعة تنفيذه ، وادراكه الخاطف لجميع العناصر الأساسية فى الموقف ــ يكاد هذا كله أن يكون ضربا من المعجزات .

فى اليوم الذى كان بونابرت يبحث فيه عن مراد فى الأهرام ، رست خمس بوارج تركية ، وثلاث فرقاطات ، وخمسون أو ستون ناقلة ، أمام خليج أبى قير وبدأت تنزل جنودها على الساحل . وكان يرافقها عدة مراكب بريطانية يقودها الكومودور سدنى سمث . واقتحم الترك معقلا فرنسيا الى الشرق من قرية أبى قير ، وذبحوا المدافعين عنه وعددهم ٣٠٠ ، وفرضوا الحصار على الحصن الواقع فى قمة شبه الجزيرة ، ولم يكن يدافع عنه غير ٣٥ من الفرنسيين ، ونصبوا معسكرهم هناك وبعد ثلاثة أيام سلمت حامية الحصن بعد أن انتظرت عبثا وصول الجنرال مارمون بالمدد من الاسكندرية . ولكن الترك ، حتى بعد هذا ، لم يتخذوا خطوة أخرى ، بل اكتفوا بالتحصن هناك . أما ما كان قائدهم مصطفى باشا ضارى عسكر الرميلة ــ وهو رجل أبيض اللحية وقور ــ ينوى عمله بهذا فلايزال سرا . فالمركز الذى اختاره قوى ، ولكن قصارى ما يستطيع أن يصنعه فيه هو أن يطرد منه أو يجوع .

وبينما كان الترك قاعدين ، تحرك الفرنسيون . ففى ٢٤ يوليو ، أى بعد أن تلقى بونابرت نبأ نزول الترك بتسعة أيام ، كان قد حشد ما يقرب من ١٠٫٠٠٠ جندى فرنسى قرب أبى قير . ومع أن فرقة كليبر لم تكن قد وصلت نقطة الملتقى ، فان بونابرت أصدر الأمر بالهجوم فى صباح الغد . وقد يبدو هذا تهورا ــ أو مغالاة فى الجرأة ــ فى نظر من يصدقون الأرقام التى ذكرها بونابرت بعد ذلك تقديرا لقوة الجيش التركى ، ولكنه يبدو أمرا عاديا جدا

اذا أدركنا أن عدد الترك كان فى الواقع مساويا لعدد الفرنسيين ان لم يكن أقل ، وأن الترك لم يكن لديهم خيالة ، فى حين كان لدى بونابرت ألف منهم (*) ·

وفى الليل دعا بونابرت الجنرال مورا قائد الخيالة لخيمته · وبعد أن ناقش معه خطط الهجوم قال « هذه المعركة ستقرر مصير العالم » · وذهل مورا ، ثم أجاب « انها على أى حال ستقرر مصير الجيش » (١٧) · ولم يكن هذا ما يضمره بونابرت ، فقد كان يفكر فى فرنسا ، وقد بدأ يعتبر مستقبله وتاريخ العالم شيئا واحدا ·

وبدأ الفرنسيون هجومهم فى الصباح الباكر · وكان مركز الترك قويا · فهناك ثلاثة خطوط دفاع متعاقبة تقطع عنق شبه جزيرة أبى قير ولا تسمح الا بهجوم أمامى مباشر ، وهناك التأييد القومى الذى يأتيهم من الزوارق الحربية أمام الساحل · ولكن المركز كان فى الوقت ذاته محفوفا بالخطر ، لأنه لم يدع للترك مجالا للتقهقر الا الى الحصن الصغير القائم على رأس شبه الجزيرة ، أو الى البحر · والفضل الأكبر فى انتصار بونابرت راجع لعنف هجومه الذى أكره الترك على الارتداد رغم أن مقاومتهم كانت غاية فى البسالة · وأتت اللحظة الفاصلة عقب الظهر بقليل ، حين هجمت خيالة مورا بسرعة وقوة أوصلتاها الى الحصن فى دقائق معدودة بينما كانت كتيبتا المشاة اللتان يقودهما لان لاتزالان تزحزحان الترك من معقلهم الرئيسى · وهنا أخذت المعركة تستحيل الى مذبحة · وأفلح بضعة آلاف من الترك فى الوصول الى الحصن ، وقتل نحو ألفين بالسيوف والسناكى ، وحاول ضعف هذا العدد على الأقل السباحة الى سفنهم ، فغرقوا أو رموا بالرصاص من الشاطىء · ومن القلائل الذين أفلحوا فى الوصول الى سفنهم ضابط شاب اشتهر بعد سنوات قليلة ، وهو محمد على مؤسس الأسرة المالكة ، التى ختمها الملك فاروق ختاما غير مشرف ·

وما حلت [illegible] الواحدة حتى انتهت المعركة · وكتب بونابرت لديجا يقول « انها من أ[illegible] المعارك التى شهدتها » ، ولكنه فى تقريره لرجال الادارة وصفها بأنها « أرسب منظر شهدته » (١٤) ·

ومورا ــ فى أكثر الروايات ــ هو الذى قبض بشخصه على القائد الأعلى التركى · وقبل أن يسلم مصطفى باشا أصاب بمسدسه فك مورا الأسفل ،

(*) كتب مصطفى باشا لحكومته عشية المعركة « ليس لدينا سوى ٧٫٠٠٠ رجل صالحين للقتال » · ويذكر بونابرت نفسه فى خطابه المؤرخ ٢٨ يوليو لحكومة الادارة ان ٩٫٠٠٠ تركى قتلوا ، وهذا معناه الجيش التركى باسره تقريبا · ولم يرفع هذا الرقم الى ١٨٫٠٠٠ الا فى تقريره الثانى (المؤرخ ٢ أغسطس) · ويقدر السر سدنى سمث قوة الجيش التركى بسبعة آلاف ، ويقدرها سكرتير سمث بثمانية آلاف الى تسعة ، وكليبر بتسعة · ولكن كل كتب التاريخ والمراجع مازالت تصر على قبول تقدير نابليون المغالى فيه ، وهذا مثال على أن الكذب يفيد ·

ولكن مورا أطاح السلاح من يد الباشا بسيفه وأطاح معه أصبعين من يده ·
واستقبل بونابرت الباشا المهزوم بأدب جم ، بل انه ضمد يد الشيخ بمنديله ـ وهو تلطف لم يضع سدى ، لأن مصطفى باشا أسدى للفرنسيين أكثر من صنيع قبل أن يموت بعد ذلك بعام ·

أما الحصن فقد واصل المقاومة فيه نحو ٢٫٥٠٠ تركى يقودهم ابن مصطفى باشا · وفى صبيحة اليوم التالى لانتصار بونابرت زار الباشا الأسير فى خيمته، وأقنعه بالانضمام اليه فى دعوة الحامية الى التسليم ، واعدا رجالها بسلامة الوصول الى المراكب التركية · ووافق ابن الباشا وكبار ضباطه على الاقتراح ، ولكن الجنود تمردوا وأصروا على الدفاع الى آخر رمق من حياتهم ، لأنهم تذكروا ما فعله بونابرت فى يافا · وقاوموا أسبوعا رغم ما كبدوا من مشاق لا تصدق · وأخيرا ، وبعد أن مات منهم ألف ـ وحاول الكثيرون أن يشربوا ماء البحر بعد أن ذهب الظمأ برشدهم ـ خرج الباقون فى ٢ أغسطس · يقول الجاويش فرانسوا : « كانوا أشبه بالأشباح · وانحنوا كلهم وطلبوا الموت ··· وأعطيناهم الماء والطعام » (١٥) وأقبل الأتراك فى نهم شديد على الطعام ، فمات منهم ٤٠٠ بسوء الهضم ، حتى قبل أن يرحلوا الى الاسكندرية ·

وفقد الفرنسيون فى قتال ذلك الأسبوع ٢٢٠ قتيلا ونحو ٧٥٠ جريحا · وهى خسائر قليلة اذا قيست بخسائر الترك ، ولكن الترك كانوا يستطيعون تعويض خسائرهم بسهولة ، فى حين لا يستطيع الفرنسيون ذلك · كتب سدنى سمث للورد نلسن يقول : « يطيب لنا فى هذه الظروف المنحوسة أن نلاحظ أن خسائر العدو بلغت مبلغاً ستقضى معه انتصارات قليلة أخرى كهذا الانتصار على الجيش الفرنسى » (١٦) ومعنى هذا بعبارة أخرى أن كل ما على انجلترة أن تفعله هو أن تضحى بنحو ١٠٠٫٠٠٠ تركى آخرين ، فلا يبقى بعد ذلك فرنسى واحد فى مصر ·

كتب السرسدنى تقريره لنلسن فى ٢ أغسطس ١٧٩٩ · وكان نلسن قد أملى فى ٢ أغسطس ١٧٩٨ ، فى أبى قير هذه نشرة النصر التى بدأت بهذه العبارة « ان الله العلى القدير قد جعلنى الأداة السعيدة فى تدمير أسطول العدو » ولكن السر سدنى فى تقريره عن معركة أبى قير الثانية لم يكن لديه ما يقوله عن الاله العلى القدير ، الذى خذله هذه المرة ، فكتب بدلا من ذلك يقول « يؤسفنى أن أحيط سيادتكم علما بهزيمة الفرقة الأولى فى الجيش العثمانى هزيمة كاملة » (١٧) وكان الدور الآن على بونابرت ليستعين باسم العلى القدير عبثا · فقد تلقى تهانى الديوان على انتصاره حين عاد الى القاهرة فى ١١ أغسطس · ولكن فرحة الشيوخ المفتعلة لم تخف فزعهم : فقد

عقدوا الآمال على تدمير الجيش التركى للفرنسيين . وأخذ بونابرت يرقبهم في فتور وترجمانه يقرأ عليهم رسالته . وأذهله انزعاجهم . أجل أفلم يخبرهم المرة بعد المرة بأنه مسلم صادق لا غش فيه ، وأنه يكره المسيحيين الذين أطاح بمذابح كنائسهم وصلبانهم ، وأنه نبذ ديانته الأولى ؟ أكان الله يهبه النصر تلو النصر لولا أنه أداته المختارة ؟ ومع ذلك ورغم ذلك كله ، فما زال الشيوخ يصرخون فى عناد على التشكك فى اخلاصه ـ ولكن سيأتى اليوم الذى فيه «تفتشون على عظام الفرنساوية وتبكون عليها » .

ومضى الشيوخ فى تشككهم بينهم وبين أنفسهم ، على الرغم من انزعاجهم وخوفهم من هذه الغضبة . ويذكر نقولا الترك أنهم كانوا يقولون : « كل هذا خداع ومخاتلة لبينما يتملك ، وأما هو نصرانى ابن نصرانى » (١٨) .

وبينما كان بونابرت يوبخ الشيوخ على ارتيابهم فى صدق نياته ، كان يتخذ العدة سرا لرحيله عن مصر . وبعد أسبوع رحل ، وبعد عام أعاد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الى فرنسا .

***

كان بونابرت قد أرسل عقب انتصاره فى أبى قير ضابطين الى السفينة البريطانية « تيجر » ليتفقا على تبادل الأسرى مع السر سدنى سمث وأهداهما السر سدنى سميث ـ الذى لا تفوته المجاملة والتلطف ـ مجموعتين من الصحف الأوربية . وقرأ بونابرت فى هذه الصحف الأنبـاء حتى ١٠ يونيو ـ وهى بالضبط الأنباء السيئة التي يترقبها : ففى كل جبهة كانت فرنسا على شفا الكارثة . فى هذه اللحظة قرر بونابرت كما زعم فى روايته للقصة ـ تلك الرواية التى يرددها كالببغاء كل كتاب تاريخ مدرسى تقريبا ـ أنه لابد عائد الى فرنسا لينقذها من الهزيمة والفوضى اللذين تدفعها اليهما حفنـة من المحامين ورجال السياسة .

وفى هذه الرواية من الصدق قدر يكفى لتزكيتها عند المؤرخين الذين يحبون أن يعرضوا حقائقهم ببساطة .فسمث فعلا أرسل الصحف الى بونابرت، والأنبـاء فعلا كانت سيئة ، وبونابرت عـاد فعلا الى فرنسا وأنقذها من الفوضى والهزيمة . ومادام قد نجح ، فهو اذن صادق . (والمؤرخون يتسامحون مع الناجحين ويعنفون على الفاشلين ، وفى هذا ، وفى هذا فقط ، يبدون حاسة سياسية قوية) . أما حقائق الموضوع فهى بالطبع أن بونابرت كان يترقب هذه الأنباء ليرحل عن مصر ، وأن عبارات الانزعاج والأسف التى أبداها مسبب عدم كفاية القواد والساسة الفرنسيين كانت مع صدقها تخفى قدرا من الابتهاج لا يقل قوة : وأنه كان يخشى أن يسبقه أحد الى قطف الكمثرى التى نضجت

وكانت في انتظاره • وكتب الى رجال الادارة يقول ان اقتناعه بحاجة فرنسا اليه يدفعه الى المغامرة بخطر الوقوع في قبضة البريطانيين ، وأنه لو لم يجد فرقاطتيه اللتين ستعودان به الى فرنسا لالتف بمعطفه وقطع الرحلة فى قارب شراعى •

ولا معنى للسؤال عن دافعه الى العودة ، أهو رغبته فى انقاذ فرنسا أم فى انقاذ مستقبله • فدوافع المرء يجب الحكم عليها من واقع خلقه كله • أما بونابرت فهو ينظر الى نفسه والى فرنسا على أنهما شيء واحد • فهو لا يستطيع العظمة بدونها ، وهو سيجعلها عظيمة • ومرة قال « ان السلطة خليلتى » ، ومرة أخرى قال لنفس السائل « ليس لى سوى غرام واحد ، وخليلة واحدة ، هى فرنسا • ففى فراشها أنام • وهى لم تخنى قط ••• فاذا احتجت الى خمسمائة ألف رجل وهبتهم لى » (١٩) • وفرنسا والسلطة هما اسمان مختلفان من أسماء التدليل أطلقهما على عشيقة واحدة ، وفى سبيل الظفر بهذه العشيقة هو الآن موشك على الرحيل عن مصر وترك جيشه ، بالضبط كما يدع المحب غراما عابرا فى سبيل حب عظيم •

وبالطبع حكم الآخرون على عمله هذا فى ضوء مختلف • وقال بعضهم ان هذا هروب • وحق بونابرت أو عدمه فى العودة بمفرده ، ودون اذن صريح من حكومته ، مسألة يمكن أن يطول الأخذ والرد فيها دون الوصول الى نتيجة • ولو حاكمته محكمة عسكرية على هذا العمل لاستند حكمها على دواعى المصلحة أكثر من دواعى العدالة • ويمكن أن يعفى بونابرت أدبيا من مسئوليته أمام حكومة اكتفت باعطائه المشورة الغامضة دون المعونة ، فتختزل المشكلة فى هذه الحالة الى سؤال بسيط هو : أمام من كان بونابرت مسئولا — أمام ماسماه مصيره ؟ ، أم أمام جنوده ؟ لقد أجاب القائدان — بونابرت وكليبر — عن هذا السؤال فى وضوح لا لبس فيه ، كل عن نفسه •

***

من الأنباء التي استفادها بونابرت من الصحف التى أرسلها اليه سدنى سميث ، أن القتال نشب بين فرنسا والنمسا منذ شهر مارس ، وأن الأرشيدوق شارل طرد فرنسا من ألمانيا والمارشال سوفاروف من ايطاليا ، وأن الحكومة الفرنسية تتعاقب عليها الأزمات السياسية والاقتصادية ، بحيث أصبح من المحتمل أن تنهار الجمهورية انهيارا تاما • أما فى الناحية الايجابية ، فقد أحاط علما بأن أسطول الاطلنطى الفرنسى الذى يقوده الأميرال بروى وزير البحرية دخل البحر المتوسط وأنه فى طولون ، وأن أسطولا اسبانيا صغيرا يقوده الأميرال مازاريدو غادر قادس ورسا عند قرطاجنة • ولعل هذا النبأ الاخير الذى يبشر بعمل مشترك يقوم به الفرنسيون والاسبان فى البحر المتوسط ،

كان خلقيا بأن يغرى بونابرت بالبقاء فى مصر ترقبا للنتيجة . ولكنه لم يغره ، والنتيجة التى تمخضت عنها حملة بروى تبرر موقف بونابرت .

كانت تعليمات بروى الأصلية تقضى بأن يتعاون مع الأسطول الاسبانى فى تموين مالطة وكورفو المحاصرتين ، ثم يحمل المؤن ومددا من عدة آلاف الى الاسكندرية . وبد أن قدم بروى المعونة لاجلاء الجنود الفرنسيين من مختلف الموانى الايطالية ، انضم فى ٢٢ يونيو الى مازاريدو فى قرطاجنة . وكان الأسطول الفرنسى الاسبانى الموحد يتألف من اثنتين وأربعين بارجة . ولما كانت السفن الحربية البريطانية فى البحر المتوسط ــ وعددها ستون ــ موزعة بين عدة أساطيل صغيرة ، فقد أتيحت لبروى فرصة فذة ليطرد البريطانيين من ذلك البحر ويقود اسطوله الى مصر .

وكانت حكومة الادارة فى هذه الأثناء قد أصدرت فى ٢٦ مايو تعليمات جديدة لبروى وبونابرت : مؤداها أن على فرنسا أن تركز قواها نظرا للانتصارات النمساوية والروسية المنذرة بالخطر ، فعلى بروى أن يستخدم ما يستطيع من وسائل لكسب السيطرة المؤقتة على البحر المتوسط واجلاء الجيش الفرنسى عن مصر . وكتب تاليران لبونابرت يقول « وستستطيع أيها المواطن الجنرال أن تحكم بنفسك هل فى امكانك أن تترك بمصر جزءا من قواتك وأنت مطمئن ، وفى هذه الحالة تخول لك الادارة أن تعهد بقيادتك لمن تراه صالحا لها » (٢٠) ولا حاجة للقول بأنه كان مستحيلا على بونابرت أن يترك بمصر جزءا من قواته مطمئنا . والذى حدث أن السؤال ظل نظريا خالصا ، لأن مازاريدو أبى أن يتعاون فى أى مشروع سوى اعادة فتح مينورقة التى استولى عليها الانجليز . ولجأ بروى للحكومة الأسبانية ، فأوقفت مازاريدو وأمرته بالعودة الى الاطلنطى ، وتبعه اليه بروى ، وهكذا ضاعت آخر فرصة لكسب السيادة على البحر المتوسط دون أن تطلق رصاصة واحدة .

ولعل أبرز حدثين فى حياة الأميرال مازاريدو هما أولا عرضه ٥٠٠ر٠٠٠ فرنك فى الشهر لراقصة لقاء رضائها أن تكون خليلته ، وثانيا رفضه التعاون مع بروى فى ١٧٩٩ . ولو كان أكثر تعاونا ، فظهر هو وبروى ومعهما اثنتان وأربعون بارجة أمام الاسكندرية فى أواخر يوليو أو أوائل أغسطس ١٧٩٩ ، لأسفر هذا فى أغلب الظن عن نتيجة خطيرة ، ولكان على بونابرت أن يواجه الاختيار بين العودة الى فرنسا مع جيشه أو رفض الجلاء عن مصر ، ولكان التاريخ على كلا الحالين قد اتخذ مجرى آخر .

لم يمكث بونابرت فى مصر أكثر من أسبوع ــ من ١١ اغسطس يوم عاد من أبى قير الى ١٨ أغسطس يوم رحل نهائيا عن مصر . ولم يفض بسره الا لخمسة رجال اختارهم ليصحبوه الى فرنسا ، وهم الأميرال جانتوم (الذى بقى فى

الاسكندرية ليعد العدة للرحيل) ، والجنرال برتييه ، وبوريين ، ومونج ، وبرتولليه • أما الذين تقرر بقاؤهم بمصر فلم ينذر منهم واحد ـ حتى ولا خلف بونابرت • بل ان كل الاحتياطات اتخذت تجنبا لاحداث الذعر بين صفوف الجيش ، فظل بونابرت عاكفا الى آخر يوم على المسائل الروتينية ـ كتحصين الصالحية والعريش ، وتعيين لجنتين علميتين يرأسهما فورييه وكوستا لارتياد آثار الصـعيد بطريقة منظمـة ، والتعجيـل بجمع الضرائب ، وصرف ملابس عسكرية من أقمشة جديدة للجيش كله • (ونصت سلسلة الأوامر الصادرة لهذا الغرض على كل التفاصيل ، عدا طريقة دفع النفقات للمتعهدين) • وفى ١٣ اغسطس احتفل بالمولد النبوى بالأبهة المعهودة ، وتناول الطعام فى بيت الشيخ البكرى ، وكان مصطفى باشا وغيره من كبار الضباط الأتراك المأسورين فى أبى قير ضيوف الشرف ، وقد أذهلهم أن يروا بونابرت يصلى مع المصلين من الشيوخ •

وفى ١٧ اغسطس أخطر جانتوم بونابرت أن الأسطول الانجليزى التركى غادر المياه المصرية ، ربما للتزويد من قبرص ، وأنه يتوقع أن يظل الساحل فى الأيام القليلة التالية خاليا نسـبيا من سفن العدو • وقرر بونابرت أن يبرح القاهرة تلك الليلة عينها ، وكان قد أذاع أنه موشك الرحيل فى جولة تفتيشية بالدلتا اتقاء للشائعات ، ولكن تعليماته الأخيرة لبوسييلج توحى بأن غيبته قد تطول • « أطلب اليك فى الحاح أن تتخذ التدابير النشيطة للتعجيل بجمع الايجارات والضرائب ، ••• وأن تظل على علاقات طيبة بالشيوخ ، وأن تحفظ النظام فى القاهرة • وأطلب الى الجنرال ديجا أن يضرب بشدة على يد محدثى الشغب لأول بادرة • وليقطع كل يوم خمسة رءوس ، محتفظا دائما ببشاشته رغم ذلك » (٢١) •

وفى هذا اليوم نفسه كتب للصدر الأعظم رسالة سنتناولها بمزيد من التعليق فى موضع تال • **وعرضت الرسالة الصلح** : « ان الباب العالى يستطيع بالمفاوضة أن يبلغ ما لا يبلغه بقوة السلاح ••• انكم تريدون مصر ، وأنا أفهم هذا ولكن فرنسا لم تقصد قط أن تنتزعها منكم وكل شىء يمكن تسويته فى حديث ساعتين » (٢٢) •

وفى الساعة العاشرة مساء ذهبت عربة بونابرت لتأخذ مونج وبرتولليه من مقر المجمع العلمى المصرى • وكان المجمع يشغى منذ أيام بشائعات قرب رحيل القائد الأعلى الى فرنسا • وذهل العلماء المجتمعون فى قاعة الطعام وقت اعلان وصول العربة حين رأوا أكبر زملائهما يعدوان ليحزما حقائبهما • وانهال على مونج وبرتولليه وابل من الأسئلة بمجرد نزولهما • فسأل كوستا « حسن أيها المواطن مونج ، أنعقد اجتماعنا القادم فى أطلال طيبة ؟ » (وكانت هناك شائعات عن زيارة بونابرت للصعيد) • واختلط الجواب على مونج لارتباكه

فقال « نعم ، سنجتمع فى دندرة عند ـ جنوب ـ شمال ـ دندرة » . وسأله بارسيفال ـ جرانميزون « أتمرون بدمياط ؟ » . فأجاب مونج متلعثما « لا علم لى بشيء ، وأعتقد أننا ذاهبون الى الوجه البحرى » . وأخيرا ، وبعد أن ضيق كوستا وفورييه الخناق على مونج وهما يتبعانه هو وبرتولليه طوال الطريق الى العربة ، أفلت منه أربعة أخماس السر ، فقال « يا صديقى ، اذا كنا ذاهبين الى فرنسا فأؤكد لكما أننا لم نعرف عن هذا الأمر شيئا الا ظهر اليوم » (٢٣). وكان أعضاء المجمع لا يزالون يناقشون هذا الجواب الغريب بينما أخذ أحدهم ـ وهو بارسيفال ـ فى حزم حقائبه فعلا . وكانت تلك هى المرة الأولى التى أبدى فيها أى نشاط منذ وصوله الى مصر ، لقد اعتزم أنه ، هو على الأقل ، لن يترك فى مصر اذا استطاع الى الخروج منها سبيلا .

ولم يلبث أن لحق مونج وبرتولليه بعد منتصف الليل بقليل ببونابرت فى حديقة قصر الألفى .. كذلك كان دينـون هناك لأنه أحد المختارين . وراح بونابرت يتحدث حديثا عابرا مع العالمين وهو يتمشى ذهابا وجيئة ، ثم يتركهما بين الحلين والحين ليلحق بمدام فوريه ويقرصها فى تلطف ، وكانت تتمشى على طرقة أخرى مطمئنة لا ترتاب فى شيء وهى ترتدى سـترة فارس من فـرقة الهوسار وسراويل ضيقة ؛ كذلك وقف على أهبة الاستعداد ابن زوجة بونابرت ، أوجين بوهارنيه ، وثلاثة آخرون من ياورانه ـ هم دوروك ولافاليت ومرلان ـ وهم من بين أعضاء الجماعة ، ثم بوريين ، وعضو جديد فى الأسرة لم يبرح قط نابليون منذ تلك اللحظة حتى ١٨١٤ .

كان مملوك نابليون المشهور ، رستم رضا ، فى التاسعة عشرة من عمره يومها . خطفه وهو صبى فى السابعة رجل يصفه فى مذكراته الطريفة بأنه « تاجر أطفال » . وبعد عدة خبرات أليمة جيء به الى الأستانة ثم الى القاهرة ، سالكا طريقا لا يمكن أن يسلكه مسافر آخر ، ربما باستثناء « بلمان » (حامل الجرس) فى كتاب لويس كارول (*) . يقول رستم « مررنا بالمضايق الخطرة التى يعود النيل فيها الى دخول « البحر الأسود » والتى يصطدم فيها النهران الواحد بالآخر » (٢٤) . وفى القاهرة اشتراه صالح بك ، وهو يومهـا أمير الحج ، فأخذه الى مكة فى ١٧٩٧ . وفى عودة صالح علم أن الفرنسيين استولوا على مصر ، فقرر أن يلحق بابراهيم بك فى سوريا ، وارتكب خطأ بذهابه الى عكا سعيا للصلح مع الجزار باشا خصمه اللدود القديم . وقدم له الجزار فنجانا من القهوة ، وبعد نصف ساعة مات صالح . واتخذ رستم طريقه الى القاهرة متخفيا فى زى فلاح ، وهناك وجد « جنودا فرنسيين كثيرين ، ورماة كهولا

(*) الاشارة الى كتاب «Alice in Wonderland» (اليس فى بلاد العجائب) .
(المترجم)

ملاح الوجوه ذوى شوارب بيضاء » (٢٥) • وأخيرا وجد عملا فى بيت الشيخ البكرى ، الذى « كان يشغل وظيفة كبيرة فى الادارة المدنية » • ودللته نساء البكرى ، وشغف به البكرى شغفا غير طبيعى ، الى أن استهواه مملوك صغير آخر • وكانت هناك مشاحنات ، فلما عاد بونابرت من سوريا فى يونيو ١٧٩٩ أهداه البكرى رستم وجوادا أسود فارها • ومن يومها ظل رستم — وهو لايخلع عنه زى المماليك — يخدم نابليون حارسا وتابعا وقوادا • وأصبح وجهه مألوفا للناس كوجه الامبراطور نفسه تقريبا ، وقد خلد فى صور كثيرة وهو ممتط صهوة جواد يتبختر الى جوار سيده • وبعد أن جمع رستم ثروة طيبة بالارهاب واستغلال النفوذ ، ترك سيده قبيل تنازله عن العرش دون كلام ولا سلام ، وتزوج فتاة فرنسية ، وكتب مذكراته التى تكشف عن خادم ساذج ، أمى ، حريص ، « يلطجى » •

واختار بونابرت — بالاضافة الى المجمعيين الثلاثة والياوران الأربعة وسكرتيره ومملوكه وطاهيه — عدة قواد ليرافقوه فى رحلته — هم كبير ضباطه أركان حربه برتييه الذى كان يتحرق شوقا للقاء مدام فسكونتى ، والجنرالات أندريوسى ، ولان ، ومارمون ، ومورا ، الذى لحقوا به بعد سفره من القاهرة أما حرسه فمن فصيلة من المرشدين يقودهم قائد أصبح فيما بعد المارشال باسيير • وكل هؤلاء شبان مخلصون له ، بعكس معظم القواد القدامى الذين تركهم بمصر •

ولم تكن بولين فوريه واحدة من الجماعة • فلما أعد كل شيء ودعها بونابرت وهو يربت على خدها ويقبلها قبلة عابرة • ثم ركبت الجماعة الصغيرة الى بولاق ، ومنها استقلت السفينة فى الثالثة صباحا • وعلى هذه الصورة التى لا احتفال فيها ، ولا طبل ولا زمر كما يقولون ، انسل البطل من العاصمة ومن المعشوقة التى ظفر بها • وانتهى بذلك « أحفل سنوات عمره بالأحلام » •

وصل بونابرت وحاشيته الى الاسكندرية فى ٢٢ أغسطس • ولم يدخلوا المدينة بل وقفوا على أميال منها الى الشرق ، فى مكان بين نادى سبورتنج الحالى وقصر المنتزه • وهنا انضم اليهم على الشاطىء الأميرال جانتوم والجنرال مارمون قادمين من الاسكندرية ، والجنرال مينو الذى استدعى من رشيد •

ولاحت على الأفق قلوع مركب انجليزى فى أغلب الظن • وكان المركب مشرقا وهو يمخر الماء بسرعة • وألح جانتوم على بونابرت أن يقلع فى تلك الليلة مخافة أن يعود البريطانيون قبل أن يستطيع الرحيل • وكانت السفينتان لاموبرون ولاكاريير قد أقلعتا فعلا من الميناء الجديد ورستا أمام الساحل •

وبينما كان بونابرت ينتظر غروب الشمس راح يتمشى ذهابا وجيئة مع الجنرال مينو الذى أفضى اليه بالسر ساعتها فقط ، وسلمه حزمة من الأوراق•

وكانت تحوى منشورا موجزا للجيش ، وخطابا للديوان وطائفة من التعليمات لكليبر . أما كليبر نفسه فكان أثناء ذلك يذرع الاقليم من دمياط الى رشيد ، حيث أمره بونابرت أن يبقى فى ٢٤ أغسطس ليتحدث اليه « فى أمور على جانب كبير من الأهميــة » (٢٦) . وكان بونابرت بالطبــع فى عرض البحر فى ٢٤ اغسطس : ولم يجرؤ البطل على مواجهة خلفه الذى لا علم له بالأمر ولا رغبة له فى أن يخلفه .

ووعد بونابرت ، فى منشوره للجنود . ورسالته للديوان ، أن يعود سريعا . وقد يكون هذا من حسن السياسة ، ولكنه لم يكن من الأمانة فى شيء .

وأرخى الليل سدوله ـ وهو يرخيها مبكرا فى مصر ـ ولم تصل الزوارق لتقل الركاب الى سفنهم . وكانت الليلة قمراء : وأشعل المسافرون المشاعل لهداية الزوارق مخاطرين باثارة الشبهات . وأخيرا وصلت الزوارق حــوالى الساعة الثامنة ، وبعد ساعة صعد بونابرت الى ظهر السفينة لاموبرون . وكانت الريح ساكنة . وقدم العشاء ، وذهبت الجماعة الى حجرة الطعام .

ولم يكن هناك أمل فى هبوب الريح قبل الشروق ، وظلت السفن فى المرسى طوال الليل . وفى الخامسة صباحا اقترب زورق من جانب السفينة لاموبرون : لقد أفلح بارسيفال جرانميزون ، مترجم « تاسو » و « كاموان » المثابر ، الذى أسقمه الحنين الى الوطن ، فى الوصول فى اللحظة المناسبة . ورفض بونابرت أول الأمر السماح له بالصعود الى السفينة رفضا باتا . فقد كان يحقد على باسيفال منذ أبى أن يتولى تحرير « بريد مصر » أو يكتب قصيدة واحدة فى الاشادة به ، بل ان بارسيفال بدأ يكتب ملحمة يشيد فيها باستيلاء ريتشارد قلب الأسد على عكا ـ وهو موضوع جفل له بونابرت حتما لأكثر من سبب ـ وكأنه مدفوع الى ذلك بدافع الحقد . على أن بونابرت لان بعد أن ألح عليه مونج وبرتولليه فى أن يقبل زميلهما ، ثم سمح للشاعر فى دعابة رخيصة أن يصعد الى ظهر السفينةلاكاريير . وفى الساعة الثامنة صباحا أقلع الأسطول الصغير . وما حلت الظهيرة حتى اختفت عن النظر الكثبــان الرمليــة الجرداء وأشجار النخيل القليلة المنتشرة على الساحل المصرى .

٣

اســتغرقت رحلة بونابرت سبعة وأربعين يوما لم يتخللها حادث هام . والتزم الأميرال جانتوم الذى قاد الأسطول الصغير ـ المؤلف من فرقاطتين وسفينتى بريد ـ شاطىء بلاد البربر حتى وصــل تجاه سردينيا . وكانت هــذه المياه بالنسبة لغيرها خلوا من الطوافات الانجليزية ، أما خطر الوقوع فى قبضة العدو فكان أعظم فى المرحلة الأخيرة .

ولا ريب فى أن بونابرت كان فى حاجة لشىء من الحظ ليصل الى فرنسا دون أن يقع فى قبضة الانجليز ، ولكنه هو وأكثر المؤرخين من بعده غالوا كثيرا فى تقدير هذا الخطر · كانت الفرقاطتان مسلحتين تسليحا ثقيلا ، وما لم تخطئا فتلتقيا بأسطول للعدو يفوقهما ، فهما لن تتعرضا الا لخطر لقاء طوافات انجليزية مفردة تستطيعان بسهولة أن تتفوقا عليها فى قذف القنابل · فالخطر اذن ليس أعظم من الكسب المرتقب ، واذا نظرنا الى الأمر من زاوية مستقبل بونابرت لم نجد حاله ــ حتى لو أسره العدو ــ أسوأ من حاله لو بقى فى مصر · ومع ذلك لا يفتأ المؤرخون ، حتى من خصومه ، يرددون القول بأن بونابرت خاطر بحياته فى سبيل العودة لفرنسا ــ وهى دعوات لا تثبت لحظة واحدة أمام التفكير السليم ·

وأعظم من هذا الخطر بكثير تلك الأخطار التى واجهها حين عاد الى فرنسا · فهنا المغامرة الحقة · فقد يستقبل استقبال الأبطال ويدفع به لكرسى الحكم فى موجة من الحماسة ، أو قد يرمى بالرصاص باعتباره هاربا من الجيش · وكان قد وطن النفس على لقاء أى طارىء ، ولكنه لم يستطع وضع خططه الى أن يحيط بالموقف ويألفه · قال لأصحابه فى الرحلة : « ان العظمة معناها الاعتماد على كل شىء · وأنا أعتمد على الأحداث ، والأحداث تعتمد على الصدفة » (٢٩) ·

أما الموقف السياسى الذى كان موشكا أن يجده فى فرنسا فقد ظل متميعا غاية التميع عدة شهور ·

كان يحكم فرنسا بمقتضى دستور ١٧٩٥ ــ وهو بناء غريب الشكل وضع لحماية الساسة والمستغلين ــ مجلس تنفيذى من خمسة مديرين يسأل أمامهم أعضاء الوزارة ، وهيئة تشريعية مؤلفة من مجلسين ــ مجلس « القدماء » ومجلس الخمسمائة · ويختار المجلسين هيئة صغيرة من الناخبين ، يشترط فى أفرادها نصاب ملكية ضيق النطاق · ولم يكن هناك جامع بين رجال الادارة سوى الكره والتشكك المتبادلين ، ورغبة الواحد منهم فى طرد الآخر من منصبه · أما مجلس القدماء فيسوده الوسط ، واليمين المعتدل الملكى ، وأما مجلس الخمسمائة ــ الذى كان لوسيان شقيق بونابرت عضوا فيه ــ فما زال اليسار اليعقوبى يؤلف فيه أقلية قوية تهدد بضم الوسط الى صفها ·

وتعرضت حكومة الادارة لنار حامية من اليمين واليسار نتيجه للكوارث الحربية التى منيت بها فرنسا فى ربيع ١٧٩٩ ولعدد من الاجراءات المالية التى كرهها الشعب غاية الكره · وفى أثناء ذلك انتخب أكثر نقاد الدستور تنديدا به فى ١٦ مايو ليحل محل أحد رجال الادارة ، ونعنى به سييس ، أحد رجال الدين السابقين ، وأهم متحدث باسم الطبقة الوسطى الثائرة فى ١٧٨٩ · وكان الرأى الشائع عنه أنه مفكر سياسى متعمق · وقد وجه سييس جهوده كلها

منذ انتخابه لقلب الحكومة التى كان عضوا فيها • وحجته التى ذكرها لخلصائه أن فرنسا أحوج ما تكون الى سلطة أقوى وأثبت • أما القوة التى كان يحاول الحصول على تأييدها فقد أشار تلميحا الى أنها احدى اثنتين ، اما هيئة تنفيذية من ثلاثة أعضاء وهيئة تشريعية تروض وتطوع بشتى الطرق ، واما ملكية دستورية •

وكان يقف فى طريق سييس ثلاثة من زملائه الأربعة فى حكومة الادارة ، وكذلك الكتلة اليسارية فى مجلس الخمسمائة • وكانت الحركة البارعة التى يريد القيام بها هى استخدام الكتلة اليسارية لعزل أعضاء الادارة الثلاثة • وكان يلزمه لهذا الغرض أداة طيعة فى مجلس الخمسمائة ، وقد وجدها فى لوسيان بونابرت •

أما رجل الادارة الذى لم يرد سييس اقصاءه فهو بارا ، النبيل القديم والعشيق السابق لجوزفين بوهارنيه ، والعشيق الحالى لمدام تاليان ، ولكل فتى وسيم الوجه تصل اليه يده ، والمرتشى الفاسد بطنا وظهرا ، الذى كان يوما يعقوبيا مسعورا ، وأصبح الآن ملكيا مستترا • وقد ظل شهورا يفاوض ملك فرنسا المنفى لويس الثامن عشر ليرده الى عرشه لقاء منحة تبلغ ١٢ مليون فرنك • ولم يذكر سييس نشاط بارا للوسيان وان كان على علم به ، فقد كان مما يخدم خطته الآن أن يحتفظ ببارا فى منصبه ، ولن يكون من العسير شراؤه فى أى وقت •

وقام لوسيان بمهمته خير قيام • وأسفرت سلسلة من الهجمات البرلمانية عن احلال جوهييه عضوا فى الادارة محل تريار فى ١٧ يونيو ، ودوكو محل مرلان فى ١٩ يونيو ، والجنرال مولان محل لاريفيلير - ليبو فى ٢٠ يونيو • أما دوكو فقد تحالف مع سييس فى الشهور التالية : وأما جوهييه ، الذى كان أهم مؤهلاته تولى وزارة العدل أثناء حكم الارهاب ، فقد أصبح عقبة فى طريق سييس ، ولكنها عقبة لا تستعصى كثيرا على التذليل ، وأما مولان ، الذى كان مجهولا تماما ، فكان يتمتع بميزة هى أن له علاقات طيبة جدا بالجناح المتطرف من اليعاقبة دون أن يشاركهم حماستهم • كذلك غير عدة أعضاء فى الوزارة فى الأسابيع التالية • فأصبح الجنرال برنادوت وزيرا للحرب ، وهو من الناحية الرسمية يعقوبى متحمس ، وروبرت لنديه ، الذى كان عضوا فى لجنة روبسبيير للأمن العام ، وزيرا للمالية ، وفوشيه ، الراهب السابق الذى لعب فى حكم الارهاب دور غير صغير ، وزيرا للشرطة • وكان سييس وبارا يأملان من وراء تعيين ثلاثة من اليعاقبة المشهورين فى هذه المناصب الوزارية أن يسكتا المعارضة اليسارية ، دون أن يتعرضا لخطر كبير • وكان من أول أعمال فوشيه اغلاق نادى اليعاقبة • ولم يكن اظهار انقلاب يمينى بمظهر الانقلاب اليسارى بالأمر الهين ، ولكن سييس حققه •

واضطر وزير رابع الى الاستقالة فى ٢٠ يوليو ــ وهو تاليران • وكان سقوطه ــ الذى لم يزد فى حقيقته على مصرع ملك على خشبة المسرح ــ نتيجة جهود الدعاية التى قام بها ضده اليعاقبة والانجليز • ذلك أن الحكومة الانجليزية ما برحت منذ انتصار نلسن فى معركة « أبو قير » تشجع الرأى القائل بأن حكومة الادارة أرسلت الجنرال بونابرت وجيشه الى هلاك محقق فى مصر لمجرد الرغبة فى الخلاص منهما • ولكى يضفى بث شيئا من الوجاهة على هذا الخط من خطوط الدعاية اتخذ الاجراءات لنشر الرسائل التى كتبها الفرنسيون فى مصر ووقعت فى قبضة الانجليز • ولم يأل المحرر ــ الذى علق على هذه الرسائل تعليقات فاقت النصوص طولا ــ جهدا فى اقناع قرائه بأن جيش بونابرت ضحى به عمدا • وابطالا لمفعول هذه الدعاية ، أمرت الحكومة الفرنسية كذلك بنشر هذه الرسائل مع تعليقات تدحض تعليقات المحرر الانجليزى • ولكن على الرغم من جهد الحكومة الفرنسية ، انتهز المتحمسون من اليعاقبة فرصة الهزيمة التى حلت بالجيوش الفرنسية فى جميع الجهات الأوروبية ليتهموا الادارة بالتراخى والخيانة ، واتهموا فى الطريق رجال الادارة بأنهم « نفوا الى الصحارى العربية أربعين ألفا من الرجال ــ هم زهرة جنودنا ، والجنرال بونابرت وصفوة علمائنا ، وأدبائنا ، وفنانينا » (٢٨) وانقلب القوم الذين رحبوا بالحملة على مصر بوصفها بداية عصر جديد وثورة فى التجارة العالمية (فقد استهوت قناة السويس عقول الجماهير) ، فأصبحوا هم أنفسهم بين يوم وليلة يندون بها لأنها حماقة ، لا بل مؤامرة مبيتة •

وتاليران هو بالطبع المحرض الأكبر على مشروع الحملة على مصر • على أن الهجوم فى أول الأمر وجه أساسا الى بارا ، عضو الادارة الوحيد الذى بقى فى منصبه من بين الأعضاء الخمسة الذين وافقوا على الحملة • وأوقف بارا الهجوم عليه بمجرد اشارة لبعض ما وقع فى انتخاب لوسيان من مخالفات آثر بارا الاغضاء عنها ولكنها ••• وكان الحديث بينه وبين لوسيان ، وكفت لوسيان اللبيب هذه الاشارة • ومن تلك اللحظة اتخذت حملات الهجوم تاليران هدفا لها • ونفى تاليران عن نفسه كل مسئولية ، زاعما أنه ورث مشروع الحملة المصرية عن سلفه فى وزارة الخارجية ــ وتلك حجة قديمة لا سيما فى محيط الوزراء الفرنسيين • ونفى السلف ، وهو شارل دولاكروا ، هذه التهمة بشدة فى الصحف كما حق له أن ينفيها • (ومن الطريف المثير أن نذكر أن تاليران الذى نسب المشروع المصرى الى دولاكروا كان قد نسبت اليه هو ــ وعلى أسس أقوى ــ أبوة المصور أوجين بن دولاكروا) •

واستقال تاليران كارها أن يواصل هذا الجدل • على أنه عين خلفه ، وهو رينار القنصل الفرنسى فى سويسرا ، وكان رجله الوفى قلبا وقالبا • وظل تاليران فى منصبه الى ٥ سبتمبر انتظارا لعودة رينار • وفى هذه الفترة

كتب مذكرة صدقت عليها الادارة فى ١٠ سبتمبر ، وأوصى فيها الحكومة بفتح باب المفاوضات مع الباب العالى ، مستخدمة فى ذلك وساطة السفير الاسبانى فى الأستانة ، لرد مصر الى السيادة العثمانية ، واجلاء الجيش الفرنسى عنها • وكان قد مضى على الجنرال بونابرت فى ١٠ سبتمبر ثمانية عشر يوما فى رحلة البحر الى فرنسا • وكان هو أيضا قد بدأ المفاوضات مع الباب العالى ، ولكنه لم ينتظر اجلاءه •

كان تنفيذ سييس ، الأسقف السابق ، لانقلابه ــ أو لاصلاحه الدستورى كما سماه ــ لا يقتضيه هيئة تشريعية طيعة فحسب ، بل « سيفا » على حد قوله • والسيف يعنى فى لغة ذلك العهد « بلطجيا » ، أى قائدا راغبا فى اعارة عضلاته لمشروعات رجل سياسى لا تتوافر فيه الدستورية تماما • فاذا حانت اللحظة المناسبة خول مرسوم من مجلس القدماء هذا القائد السلطة على القوات الداخلية ، فيستطيع جنوده تشجيع الهيئة التشريعية على التصويت بالطريقة المرغوبة ، واذا تم هذا كافأ السياسى القائد بأى شىء ، الا أن يشركه فى الحكم • أما القائد الذى عقد عليه سييس ولوسيان بونابرت الآمال فهو جوبير ، الذى سلم قيادة القوات الفرنسية بايطاليا فى ٢٨ يوليو • وكان اختيار جوبير ينطوى على الحكمة : فهو فى رأى الناس جمهورى مخلص • وهو يتمتع سرا بثقة المنفيين الملكيين ، وهو راغب فى لعب دوره ، وهو أقل خطرا من برنادوت أو بونابرت • ولكن يشاء سوء الطالع أن يهزم جوبير فى ١٥ أغسطس على يد سوفاروف فى نوفى وأن يقتل فى المعركة • وأضافت فرنسا بطلا جديدا الى سجل أبطالها ، ولكن سييس خسر سيفه ، وهى خسارة عز فيها العزاء • وقال سييس وهو يبكى « لقد ضعنا • فلن نجد أبدا قائدا آخر يستطيع أن يفتح ايطاليا ، وفى الوقت نفسه يعيننا على قلب الحكومة بالتضامن مع الملكيين » (٢٩) ونحن نشارك سييس هذا الشعور ، ذلك أنه وان كان سيف آخر فى طريقه اليه من الاسكندرية الا أن هذا السيف كان أكبر من أن يتقلده سييس •

وبينما كان بونابرت لا يزال فى مكان ما أمام شاطىء بلاد البربر ، وبارا وسييس لا يزالان يواصلان مؤامراتهما المنفصلة فى تعاون يشوبه القلق ، كان الجنرال برنادوت وزير الحربية يدبر انقلابا لحسابه الخاص • فأما خطته فهى ببساطة القبض على بارا وسييس ، واقامة حكومة يعقوبية يضع نفسه على رأسها • وتحقيقا لهذا الغرض استعان هذا الجمهورى المخلص الأمين الذى قدر له أن يختم حياته ملكا على السويد ، بالجنرال جوردان ، وهو نائب فى مجلس الخمسمائة • وفى ١٣ سبتمبر طلب جوردان الى زملائه النواب الموافقة على اقتراح باعلان حالة الطوارىء فى البلاد ، بعد أن رسم لهم صورة مظلمة للموقف الحربى فى الخارج ، وللمؤامرات الملكية فى الداخل • وكانت الموافقة على هذا الاقتراح معناها عزل حكومة الادارة • صحيح ان ثلاثة من أعضاء الادارة الخمسة كانوا

هم أيضا يريدون عزل الادارة ، ولكنهم كانوا يريدون أن يعزلوها بأنفسهم وكانت لحظة حرجة ، وأنقذ لوسيان بونابرت الموقف · فقد سلم بأن الجمهورية في خطر لا ريب فيه ، ولكن تصريحا رسميا بهذا المعنى لا يحل الموقف · « وحين تكون دولة في خطر ، فلا انقاذ لها الا بتقوية حكومتها الراهنة أو بتغييرها » وتعالت صيحات تقول « أنقيم دكتاتورية ! » ومضى لوسيان في لهجة خطيرة « أسمع كلمة « دكتاتورية » · ليس منا أحد يتردد في أن يطعن بخنجره أول رجل يجرؤ على الرغبة في أن يكون دكتاتور فرنسا » (٣٠) واستقبلت العبارة بتصفيق اجماعي وان جاء أكثره على كره ، وقد استعيدت هذه العبارة بعد شهرين ، بروح مختلفة ، في مناسبة أخرى ·

واجتازت الحكومة الخطر ، وأجلت الجلسة دون تصويت على الاقتراح وقبل منتصف الليل بساعة استقال برنادوت من وزارة الحربية ·

***

في ٣٠ سبتمبر وصل أسطول بونابرت الصغير الى خارج ميناء أجاكسيو بكورسيكا ، وهي مسقط رأسه · وفي اليوم نفسه هزم الجنرال ماسينا في زيوريخ القوات النمساوية الروسية ، فأدار بهذا النصر الدوائر على الحلفاء · وبدأ سوفارف تقهقره الكبير مخترقا جبال الألب ، وما لبث القيصر بول بعد قليل أن أعلن حياد روسيا · وكان اتفاق الأحداث على هذا النحو من سوء طالع بونابرت : فقد انتقص بعض الشيء من أهمية الرجل الذي لاغنى عنه

وفي أول أكتوبر ألقت السفينة لاموپرون مراسيها عند أجاكسيو · وسرعان ما التف حولها حشد من الزوارق يحمل نصف سكان الميناء · وتدفق الجمع على سطح الفرقاطة ضاربا بقوانين الحجر الصحي عرض الحائط ليهتف لمواطنه البطل · وكان بينه كهلة قصيرة القامة ترتدي ثوبا أسود منفعلة أشد انفعال · وصاحت « ولدي العزيز » ، وصاح بونابرت « أمي ! » وكانت المرأة مرضعه : وكانت لحظة مؤثرة · ولكن موظفا واحدا من موظفي الحكومة لم يظهر · وقيل لبونابرت المدهوش في تعليل غيابهم ان موظفي البلدية والادارة الحكومية قد زج بعضهم البعض في السجن ، وهكذا انعكست الفوضى السياسية المتفشية في باريس على أجاكسيو بطريقة كورسيكية فذة ·

وبارح الأسطول أجاكسيو في ٧ أكتوبر ، فلاح له الساحل الفرنسي مساء الغد ، كما لاح له أسطول انجليزي من اثنتين وعشرين سفينة ، هو أسطول الأميرال كيت · ومضى الانجليز في طريقهم دون أن يلقوا بالا الى الفرنسيين : فقد رأوهم ، ولكنهم في ضوء الغسق المعتم حسبوا الفرقاطتين من فرقاطاتهم · وهكذا يتعلق التاريخ بخيوط كهذا الخيط · وفي صباح ٩ أكتوبر نزل بونابرت

في فريجي . وتجاهل السكان مرة أخرى قوانين الحجر ، وحملوا بونابرت الى المدينة في موكب النصر ، وبعد ساعة وقفت مركبة ببابه على أهبة الاستعداد . وبعد أن أنفق بونابرت أسبوعا يركب في موكب نصره ، وقفت مركبة بباب بيته في شارع لافيكتورا بباريس في الساعة السادسة من صباح ١٦ أكتوبر . وكانت النشرة التى أذيع فيها انتصاره فى «أبو قير» قد سبقته بأيام قلائل .

وفى مساء ١٣ أكتوبر ، وبينما كانت ليون تتلألأ بالأضواء احتفالا بالجنرال بونابرت ، كانت زوجة القائد تتعشى فى باريس مع الرئيس جوهييه عضو الادارة . وكانا لا يزالان على المائدة حين جيء ببرقية تقول ان بونابرت نزل الى البر . وصعق جوهييه ، وفزعت جوزفين . وقالت متلعثمة « يجب أن أستقبله فى الطريق . يهمنى جدا أن أسبق اخوته الذين أبغضونى دائما » (٣١) ثم انطلقت لاتلوى .

وكان لجوزفين كل العذر فى هذا القلق . فهى فضلا عن غرامها المفضوح مع المواطن شارل ، استدانت ما قيمته عدة مئات الألوف من الفرنكات ، ولو طلقها بونابرت لما بقى لها فلس واحد . وبلغ من حرصها على الارتماء بين ذراعى زوجها أنها اتخذت طريقا غير طريقه فأخطأته .

وفى هذا المساء نفسه (١٣ أكتوبر) ، فى حجرة أخرى من حجرات قصر اللكسمبورج الذى أقام فيه أعضاء الادارة ، تلقى سييس أيضا البرقية التى تعلن نزول بونابرت الى البر . وقال متمتما للوسيان ، وكان الى جواره « بعد فوات الآوان » ذلك أنهما بعد موت جوبير الباكر ، استقر رأيهما على الجنرال مورو ليستعملاه سيفا ، ولكن مورو لم يكن تواقا للقيام بهذه المهمة ، فلما حضر بعد قليل وسمع بالنبأ ، قال فى جفاء : « حسن ، هاكما الرجل الذى تنشدان فهو أقدر منى على انفاذ انقلابكما » . وذلك حق لا ريب فيه ، ولكن مع أن سييس كان فى حاجة الى سيف ، فان « سيف مورو ، أو جوردان ، أو جوبير ، كان يلبى حاجته . . . أما سيف بونابرت فطويل عليه (٣٢) على حد قول لوسيان فى مذكراته .

والذى يعتمدون على نقولا الترك فى استقاء المعلومات عن التاريخ الأوربى — ولابد أنهم نفر قليل — يخرجون من دراساتهم برواية أصيلة جدا لقصة وصول بونابرت الى السلطة . يقول نقولا : « وحين بلغ وصوله الى روسا المشيخة الكبار . . . فبالحال عملوا ديوان وقطعوا فتاوى بأن بونابرت رجل مفسد بالمملكة وهو الذى هيج على المشيخة الحروب وأنهض الملوك ضدها ، فهذا قصاصه أن يتنزل عن رتبته ويرجع صلدات وتكون وظيفته ورديان على باب ديوان المشيخة . . . فقدم الطاعة لأمرهم ووقف ورديان الى حين ما طبخ له طبخة وعمل له حزب » (٣٣) .

وقد لا يكون هذا تاريخا ، ولكنه لم يبعد عن التاريخ الا قاب قوسين . ذلك أن الادارة اجتمعت فى ١٤ أكتوبر ـ قبل وصول بونابرت الى باريس بيومين ـ لتتناقش فيما هى فاعلة به . ودمدم سييس قائلا : « حسن ـ انه ليس سوى قائد آخر يضاف الى سابقيه . ولكن ، قبل أن نمضى شوطا ابعد ، هل أذنت الحكومة للجنرال بالعودة ؟ » وعرض النـائب بولى دولاميرت ، وكان حاضرا المناقشة ، أن يقدم اقتراحا باعتبار بونابرت خارجا على القانون .

وقال سييس كمن يتلوى : « ولكن هذا معناه رميه بالرصاص ـ وهو أمر خطير وان كان يستحقه » . وأجاب بولى : « تلك تفاصيل لا أريد الخوض فيها . فمتى حكم بأنه خارج على القانون فليقطع رأسه على المقصلة أو فليعدم رميـا بالرصاص ، أو فليشنق ، ولا يهمنى أى هـذه ـ فما هى الا طريقة من طرق الاعدام » (٣٤) . (وبعد أسبوع واحد انضم بولى دولاميرت هذا الى لفيف مشيرى بونابرت المخلصين ، الذين ألحوا عليه فى تقلد زمام السلطة) .

أما استجابة مجلس الخمسمائة لنبأ عودة بونابرت فكانت حاسمة لا تدع مجالا ـ على الأقل فى المستقبل القريب ـ لرمى بونابرت بالرصاص ، أو حتى للحكم عليه بأن يقف ديدبانا ببابه . فقد استقبل النواب فى أروابهم وقبعاتهم الغريبة النبأ بالهتاف والتصفيق ، بينما عزفت الموسيقى لحنا وطنيا . (ولا غرابة فهذا البرلمان العجيب كان له أوركسترا على أهبة الاستعداد لمصاحبـة نوبات الوطنية التى تصيبه) . وفى مســاء ١٤ أكتوبر أضيئت باريس كلهـا بالأنوار . وكان اسم بونابرت لا يزال يرمز فى أذهان الجماهير للنصر ، وللسلام بصفة خاصة .

ولا يمكن أن يقال ان الحماسة الشعبية انتقلت عدواها الى الادارة . وفى مساء وصول بونابرت الى باريس زار رئيس الحكومة جوهييه . الذى لم يكن ميله لمدام بونابرت يمتد الى زوجها . (وكانت مدام بونابرت أثناء ذلك لا تزال تبحث عن زوجها فى طرق فرنسا) . وقال الجنرال « لقد أفزعنى النبأ الذى وصلنى فى مصر ، فلم أتردد فى ترك جيشى لأشاركم أخطاركم » . وأومأ جوهييه قائلا نعم ، ان الأخطار كانت كبيرة ، ولكنها لحسن الحظ انتهت . فقد صد الجنرال برون الانجليز فى هولنده ، وهزم ماسينا النمساويين والروس فى زيوريخ ، « وها أنت قد جئت فى الوقت المناسب لتحتفل بانتصـارات زملائك فى السلاح » (٣٥) .

وفى اليوم التالى مثل بونابرت فى ثوب عسكرى غاية فى البساطة أمام أعضاء حكومة الادارة ليقدم لهم تقريره وهم يرفلون فى عباءاتهم الرومانيـة الزائفة وريش النعام المثلث الألوان . وقال لهم فى تواضع انه يضع نفسه فى خدمتهم ـ على رأس جيش ان أعطوه جيشا ، أو مدفعيا بسيطا . ولم يذكر

نوبة الديدبان · وكان جواب رجال الادارة فاترا لا التزام فيه ، ولكنهم لم يجرءوا على التشكيك فى قانونية عودته ·

وكانت الأحداث تدخر له مزيدا من المعوقات قبل أن يتحقق له النصر النهائى · وأول هذه فى بيته · فقد عادت جوزفين أخيرا فى ١٨ أكتوبر · أما بونابرت فقد اغلق على نفسه باب حجرته وأمرها بالخروج من البيت بعد أن أمر بوضع امتعتها كلها فى بهو المنزل ·· وظلت طوال اليوم تقرع باب حجرته باكية متوسلة · ولكن بكاءها وتوسلاتها ذهبت أدراج الرياح :فهو مصمم على طلاقها · وأخيرا جربت خط هجوم جديدا دفعتها اليه وصيفتها · فقد ألقى ولداها أوجين وأورتنس فى الخنادق ، فأحدثا ثغرة دخلت منها جوزفين ظافرة · وفى الصباح زار لوسيان — أعدى أعداء جوزفين — أخاه وهو يتوقع أن يجد زوجته وقد دحرت ولاذت بالفرار ، ولكنه بدلا من هذا وجدهما فى الفراش معا · هذا على الأقل ما تقوله القصة · ولا يحتاج المرء الا قليـــل من الخيــال ليفترض أن علاقات جوزفين الودية باثنين من أعضاء الادارة — هما بارا وجوهييه — أعانت على اتخاذ بونابرت موقف المغفرة مؤقتا · وكانت اتصالاتها مفيدة له جدا فى الأسابيع الثلاثة التالية ·

***

فى ٢١ أكتوبر حضر لوسيان بونابرت ليتحدث الى أخيه نابليون نيابة عن سييس · فقال ان نابليون اذا أيد الانقلاب الذى يعتزمه سييس سيعين واحدا من القناصل الثلاثة — وهم الهيئة الثلاثية المفروض أنها ستحكم فرنسا · ولم يبد الجنرال رأيه · وكذلك كان موقفه حين عرضت عليه خلال الأسابيع الثلاثة التالية عروض مغرية شبيهة بهذا العرض من المتآمرين الآخرين — بارا عن الملكيين ، وبرنادوت عن اليعاقبة · فهو يأبى أن يكون « سيفا » لأحد · وهو يأبى أن يندمج فى أى حزب · انما سيعمل لنفسه فقط ، أو لفرنسا كلها : وهما نفس الشىء عنده · ومع أن رجال السياسة حسبوه قائدا ، فان القائد كان رجل سياسة · فلم يستعمل القوة لصالح رجل كسييس أو بارا ، اذا كان يشعر شعور الواثق بأنه هو نفسه قادر على الاضطلاع بالحكم — دون استخدام القوة — بتكتيل أغلبية برلمانية وراءه ؟ أن الذى ينشـده بونابرت حقيقة هو نظام حكومة رياسى على النمط الأمريكى (دون الفدرالية) ، يلعب هو فيه دور جورج واشنطن (دون التخلى عن الرياسة بعد الفترة الثانية) · وكان يؤيده فى هذا الراى ويشجعه عليه لفيف مشيريه الأخصاء ، الذين كان أمهرهم وأكثرهم نفوذا تاليران والصحفى روديرر ·

ولكن القائد لم يكن متمرسا بشئون السياسة رغم عبقريته السياسية · وبدا لآخر لحظة أن السياسة المحترفين سيهزمونه صحيح انه قد يوفق فى كسب

أغلبية برلمانية نظرية تؤيده ، ولكن ما جدوى هذا اذا أثار مقاومة الادارة العنيدة له ؟ واكتشفت هذه الحقيقة فى ٢٣ أكتوبر حين راغ عضوا الادارة ، جوهييه ومولان ، من اقتراحه الذى عرض فيه الحلول محل سييس فى الادارة : فالجنرال أصغر من الأربعين بعشرة أيام ، وهى نصاب السن الذى مضى عليه الدستور لعضوية الادارة . وكانت أسهم بونابرت قد بدأت فى الهبوط ولما يمض عليه بباريس سوى أسبوع واحد . لقد كان ماسينا بطل الساعة ، ونسى الناس فتح مصر . أو رمته بالحماقة نفس الصحافة اليسارية التى هللت له قبل عام . وأشارت صحيفة المساجيه فى عدد ٢٠ أكتوبر الى أن السبب الوحيد الذى حمله بونابرت على ترك مصر فجأة ، هو الهروب من تمرد وشيك فى جيشه كله . ولكن أسهم لوسيان كانت فى صعود : ففى ٢٥ أكتوبر انتخب رئيسا لمجلس الخمسمائة .

ولما لم يجد القائد من الزعماء السياسيين من يرغب فى التعاون معه بشروط القائد ، لم يكن أمام القائد من سبيل الا أن يغير شروطه . فوافق أخيرا فى أول نوفمبر على أن يجتمع سرا بسييس فى بيت لوسيان . ولكن الشروط التى فاجأ بها سييس وأخاه لم تكن بالضبط ماتوقعاه . قال انه سيتعاون فى قلب حكومة الادارة بل ارتضى أيضا أن يكون أحد القناصل الثلاثة مع سييس ودوكو - بشرط أن تكون الحكومة الجديدة مؤقتة . فليس فى وسع سييس أن يفرض دستورا جاهزا على الأمة،ولا بد أن تقوم لجنة تشريعية بوضع الدستور الجديد . وختم كلامه بقوله انه اذا لم يرض سييس بهذا « فلا تعتمدا على . فليس فى البلاد نقص فى القواد الذين ينفذون أوامر مجلس الخمسمائة » . وصعق سييس . وقال للوسيان متأوها وهو يغادر الاجتماع « يبدو أن الجنرال اختار موقع المعركة كما يختاره فى ساحة القتال وعلينا أن نتبع رأيه ، فلو أنه نكل لضاع كل شىء » (٣٦) .

ولم يكن فى الوقت متسع للابطاء . فكلا بارا وبرنادوت يتخذ العدة لانقلاب خاص يقوم به . وما لبثت تفاصيل المؤامرة أن حيكت فى سلسلة من الاجتماعات الليلية السرية . وقام تاليران ورودير بدور الوسيط بين بونابرت وسييس . وكانت مهمة شاقة معقدة ، لأن جميع أعضاء الادارة الخمسة يسكنون قصر اللكسمبورج ، ويتجسسون على مساكن بعضهم البعض . على أن انضمام فوشيه وزير الشرطة الى المتآمرين بعث فيهم شعورا مريحا بالأمن والطمانينة . كذلك ضمنوا التأييد المالى بفضل الصيرفى كوللو ، الذى كان لبونابرت معه معاملات رابحة للطرفين خلال الحملة الايطالية . ولم تمض خمسة أيام حتى كان كل شىء معدا . فوضع النص الذى ينقل به مجلس القدماء مقر انعقاد المجلسين الى سان كلو ، وكذلك نص المرسوم الذىيخول لبونابرت قيادة الجيش. فاذا تم نقل المجلسين الى سان كلو ، حيث يحيط الجند بقاعتى الاجتماع ، أقنع النواب بعزل حكومة الادارة والتصويت للنظام المؤقت الجديد : وبدا أن دور بونابرت فى هذه

الثورة هو دور « السيف » لاأكثر رغم كل تدبيره • وحدد يوم ١٦ برومير (٧ نوفمبر) موعدا للانقلاب •

وقد تكون المؤامرات أشبه بالدرامات ، ولكنها كثيرا ما يكون لها لحظات مضحكة • ففى ٦ نوفمبر ، وهو اليوم السابق للانقلاب المدبر ، أولم نواب المجلسين ، اللذين كان بونابرت مزمعا أن يقلبهما ، وليمة فخمة تكريما للجنرالين بونابرت ومورو فى كنيسة سان ـ سولبيس التى حولت خلال الثورة الى « هيكل للنصر » • ومد الطعام لسبعمائة وخمسين مدعوا فى الكنيسة القارسة البرد • وسرعان ما برد الطعام فى أوانيه ، وظل الضباب يتسلل الى القاعة من خلال أبوابها ، وران على الوليمة جو أكثر برودا حتى من الطعام • وكان عدد من اليعاقبة ، أهمهم برنادوت ، غائبين بشكل ملحوظ • ولم يمس بونابرت من الطعام الا بيضتين مسلوقتين وثمرة واحدة من الكمثرى • وكانت فرقة الموسيقى أثناء ذلك تعزف لحنا يدعى « أين يمكن أن يسعد الانسان أكثر من سعادته فى حضن أسرته ؟ » ثم جاء دور الأنخاب • وكان النخب الذى طلب بونابرت الى الحاضرين أن يشربوه هو « نخب اتحاد جميع الفرنسيين ! » ثم بارح المكان بعد وصوله بأقل من ساعة • فحياه فى الخارج جميع الفرنسيين المتحدين بخليط من الصفير والهتاف •

وأرجأ بونابرت الانقلاب الى ١٨ برومير بعد أن ثبط همته فشل الوليمة الذريع • وكان فى نيته قبل أن يغامر بهذا كله أن يتخذ بعض الاحتياطات الاضافية فى خططه ، لاسيما التأكد من تعاون الجنود وقوادهم معه • كذلك كان يطبع عددا من الكتيبات والنشرات التى فوجىء بها سييس فى اليوم العظيم •

وأنفق سييس أكثر يوم ١٧ برومير فى تلقى دروس فى الركوب • وكان فى نيته أن يركب فى صباح الغد الى قصر التويلرى ، حيث يجتمع مجلس القدماء ، على رأس حرس الادارة ، تسبقه الموسيقى • وشد ما أدهشه فى فجر ١٨ برومير أن يكتشف أن حرس الادارة قد اختفى من أرض اللكسمبورج : ذلك أن بونابرت نقله فى هدوء ، متعجلا استخدام السلطة التى ستخول له فى الغد •

تلقى مجلس القدماء فى الليل دعوات للاجتماع فى التويلرى فى ساعة مريبة هى الخامسة صباحا • وفى الساعة السابعة والنصف صوت الشيوخ المهزوزون طائعين بالموافقة على نقل الهيئة التشريعية الى سان كلو ، ودعوا الجنرال بونابرت للمثول أمام المجلس لقسم اليمين باعتباره قائدا لقوات الجيش • ووصل المرسوم الى يد بونابرت بعد ساعة تقريبا • فعدله فى هدوء ، وأضاف الى قائمة الوحدات الموضوعة تحت قيادته حرس الادارة الذى كان سييس قد احتفظ به لنفسه • واضطر سييس الى الركوب وحيدا الى التويلرى

ظل قواد الوحدات منتظرين فى زيهم العسكرى بباب بونابرت ساعة وقد أدهشهم أن يروا أنفسهم بهذه الكثرة وحيرهم السر فى دعوتهم على هذا النحو. ووصل برنادوت — « الرجل العقبة » كما سماه بونابرت — آخر الكل فى ثياب مدنية مع صهره جوزيف بونابرت · ورفض أن يشارك بأى دور فى المغامرة ، ولكن بعد بضع كلمات حادة سمح بأن يسحب الى بيت جوزيف لتناول الأفطار · فلما آزيحت العقبة ، ظهر بونابرت على عتبة داره ، وتلقى هتاف الضباط المجتمعين ، ثم ركب الى التويلرى ·

فى نحو هذا الوقت كان بارا يأخذ حماما · فلما خرج وجد زائرين هما تاليران والأميرال بروى ، فقدما له خطاب استقالة لا ينقصه الا توقيعه · وقد أفلح مبعوثا بونابرت فى ارهابه ، فوقعه قبل أن تتاح لهما الفرصة ليعرضا عليه المليونين من الفرنكات اللذين قدمهما كوللو لهذا الغرض ·

والقى بونابرت فى التويلرى خطابا وجيزا بعد أن حلف اليمين · وقال « لا ينبش أحد الماضى بحثا عن أمثلة قد تعوق تقدمنا ! فلاشىء فى التاريخ بأسره يشبه السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، ولاشىء فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر يشبه اللحظة الراهنة » (٣٧) ثم خطب فى الجنود المجتمعين بحدائق التويلرى خطابا أطول ، مندداً بالادارة الحكومية وواعدا بتحقيق الوحدة القومية · ولم يكن شىء من هذه الخطب داخلا فى خطط سييس ، وكذلك النشرات التى دبجها رودير لبونابرت ، والتى بدأت تتداولها الأيدى فى باريس · وهكذا أخذ زمام السيف يفلت من يد سييس ·

كان اثنان من أعضاء الادارة — وهما سييس ودوكو — اتخذا مقرهما فى التويلرى ليقلبا الادارة · أما الثالث ، وهو بارا ، فقد استقال استقالة كريمة · وأما العضوان الباقيان — وهما جوهييه ومولان — فلما ذهبا الى التويلرى ليريا ما يحدث ، أخبرهما بونابرت أن حكومة الادارة لم يعد لها وجود · وكرها أن يريا الأوضاع فى هذا الضوء ، فرفضا الاستقالة ، وعادا أدراجهما الى اللكسمبورج ، حيث وضع بونابرت حرسا عليهما ·

وعاد الجنرال الى داره بعد منتصف الليل · وقال لبوريين « لم تسر الأمور سيرا سيئا جدا · وسنرى ما يأتى به الغد » (٣٨) ثم مضى الى فراشه بعد أن وضع مسدسين محشوين بجانب وسادته ·

أما الغد فقد سار فى الحق سيرا سيئا جدا · وصل بونابرت الى سان كلو قبيل الظهر · وهتف الجنود حين ظهر « ليحى بونابرت ! » ، وصاح النواب « ليحى الدستور ! » ·

وفى الساعة الواحدة والنصف فتح مجلس القدماء جلستهم فى القاعة ·

الكبرى بقصر سان كلو . وشعر الكثيرون منهم بأنهم خدعو بالأمس . وتعالت الصيحات « لادكتاتورية ! » ، ووافق المجلس على اقتراح يدعو كل عضو لحلف يمين الولاء للدستور باجماع الأصوات الا صوتا واحدا .

وكان بونابرت فى هذه الأثناء قد ازداد قلقه وهو فى احدى حجرات الاستقبال بالقصر ينتظر نتائج المداولات . وفى الثالثة والنصف علم أن القدماء والقوا على قرار يدعو الى انتخاب ادارة جديدة . وبدا لبونابرت كأنه خسر كل شيء . فأسرع الى القاعة الكبرى وقد شرد الدم من وجهه غضبا ، ومن خلفه حرس من الرماة . وأثارت النظرات العدائية التى سددها اليه الشيوخ ذوو العباءات الحمراء سورة غضبه . فتدفق من فمه خطاب مفكك العبارات ما لبثت مقاطعات السائلين العديدين الملحفين أن أحالته رطانة لاتفهم . وصاح فيهم « فاذا اقترح خطيب ارتشى يذهب الأجانب الحكم على بأننى خارج على القانون فلتسحقه صاعقة الحرب من فوره ! ... انى أوجه الخطاب اليكم أنتم يا زملائى البواسل فى السلاح ، أنتم أيها الجنود الشجعان الذين قدتهم الى انتصارات كثيرة ! .. اذكروا أن اله الحرب واله الحظ يسيران الى جانبى ! » (٣٩) . وهمس بوريين فى أذنه « أخرج من هنا أيها الجنرال ، فانك لم تعد تعرف ما تقول ».(١٤٠) . ولكن بونابرت مضى فى هذيانه الغاضب عدة دقائق أخرى قبل أن ينسحب .

وكان الانقاذ الوحيد لبونابرت فى كسب مجلس الخمسمائة . وبينما النواب يناقشون الأحداث المحيرة التى وقعت فى الساعات الأربع والعشرين الأخيرة اذ ببونابرت يندفع الى القاعة على قعقعة السلاح . ووقف الرماة بالباب، وما ان رأى النواب الجنود حتى قفزوا واقفين على مقاعدهم . وتعالت الصيحات « اطردوا الدكتاتور من حماية القانون ! » ، بينما حاول لوسيان عبثا من كرسى الرياسة أن يهدىء هذه الثورة . وأمسك عدد من النواب بياقة الجنرال ودفعوه هناك ، بل يبدو أنهم لطموه على وجهه . وأخيرا سحبه أربعة من الرماة بعيدا عن القاعة ليكون فى مأمن ، وكان على خديه خدوش .

وجرى بونابرت الى سييس لاهثا لا يكاد يبين . وصاح « أيها الجنرال ! انهم يريدون أن يطردونى من حماية القانون ! » (٤١) ولا بد أن الأسقف السابق قد استشعر لحظة من الرضا الخبيث حين سمع « الجنرال » يدعوه « جنرالا » .

ما العمل اذن ؟ ان بونابرت لم يعرف الهزيمة من قبل . لقد شل الموقف تفكيره .

أما فى مجلس الخمسمائة فكان أخوه لوسيان أثناء ذلك يجتاز نصف ساعة عصيبا . وقد نزل من كرسى الرياسة غير مرة ، وفى كل مرة يأمره المجلس المحنق أن يعود اليه . أفيرأس اذن المجلس وهو يحكم بطرد أخيه من

القانون ؟ وفجأة ظهرت كتيبة من الرماة كأنها نجدة من السماء ، فأمسكت به واختطفته • وارتج على النواب أول الأمر لاختفاء رئيسهم فجأة ، ثم ما لبثوا أن عادوا الى مناقشاتهم بدونه •

واندفع لوسيان الى الحجرة التى يجلس فيها سييس وبونابرت • وقال سييس فى هدوء « أيريدون أن يطردونا من حماية القانون ؟ حسن أيها الجنرال ، الحل أن تطردهم من قاعتهم » (٤٢) • وأذهل الاقتراح الآخرين بكل ما فى بساطته من قوة • فجريا معا الى أسفل الدار ، وقفزا على جواديهما ، وركبا عدوا الى جنود حرس الهيئة التشريعية ، وكانوا واقفين فى طوابيرهم • وخطب فيهم لوسيان أولا قائلا « ان رئيس مجلس الخمسمائة يعلن لكم أن أغلبية المجلس الساحقة يرهبها فى هذه اللحظة نفر قليل من النواب المسلحين بالخناجر » • فهذه « الحفنة من المجانين الهائجين » أصبحوا خوارج على القانون • لذلك طلب لوسيان الى الجنود باسم الشعب أن يحموا الأغلبية من الخناجر بسناكيهم •

وأوحى ترديد كلمة « الخناجر » الى الجنرال بونابرت بفكرة ، وبدأ هو نفسه الآن يخطب فى الجنود • فصاح : « أردت أن أتحدث الى النواب فأجابونى بالخناجر » (٤٣) • واقتنع الجنود ، فساروا الى الأورانجرى على دق الطبول ، حيث كان الخمسمائة غارقين فى فوضى من الجدل فى غيبة رئيسهم ، وما أن دخل الجنود القاعة وسناكيهم مثبتة ، حتى قفز النواب من النوافذ وجروا تاركين شملاتهم فى الحديقة •

وانتهى كل شىء فيما خلا شكليات قليلة • وصوت القدماء بعد ذلك بساعات بالموافقة على تشكيل حكومة مؤقتة ، وحذا حذوهم فلول الخمسمائة الذين دعاهم لوسيان من جديد لهذا الغرض • وعين بونابرت وسييس ودوكو قناصل للحكومة المؤقتة • وهنا وصل تاليران من باريس • فقال « دعونا نتناول العشاء » (٤٤) •

***

حصل الجنرال بونابرت على ما أراد ، ولكن بغير الطريقة التى بيتها • فما هكذا ارتقى الجنرال واشنطن الى منصب الرياسة ، وطرد خمسمائة نائب من قاعتهم بالسناكى لا يحتاج الى رجل كنابليون بونابرت • لقد صاح به أحد النواب عصر ذلك اليوم « هل كسبت انتصاراتك أيها الجنرال لتفعل هذا ؟ » (٤٥) وهو سؤال وجيه • فهل من أجل هذا قتل فى مصر قرابة ١٥٫٠٠٠ رجل ، أو شوهوا ، أو ماتوا عطشا ، أو فقدوا بصرهم ؟ وهل من أجل هذا مات أضعاف هذا العدد من الترك والعرب والفلاحين ؟ نعم ولا : فليس من أجل هذا بقدر ما هو من أجل ما يتلوه ، من أجل مجد لا نظير له فى العصور الحديثة ، بذلت فى سبيله عدة ملايين أخرى من الأرواح •

أكانت معارك مصر والشام ضرورة لا معدى عنها لكسب معركة سان كلو ؟ لا ، اللهم الا من الناحية السلبية الخالصة · فلو لم يذهب بونابرت الى مصر ويكسب فيها معارك قليلة ، ولو لم يخسر معركة أبى قير البحرية فيطلق بذلك سلسلة الأحداث التى أفضت الى استئناف حرب عامة ، لجاز أن يشتهر بأنه الرجل الذى أخفق فى الاستيلاء على الجزر البريطانية لا أكثر ، وهى شهرة ما كانت لتفتح له الطريق الى السلطة·

والتكهن بما كان يحدث لو ··· تسلية لذيذة طريفة ولكن لا يقل عنها طرافة أن نذكر حقائق بسيطة أغفلها الآخرون · ومن هذه الحقائق أن بونابرت كتب الى الجنرال كليبر حين رحل عن مصر يقول : « سأظل معك بالروح والقلب ··· وسأعد كل يوم من عمرى مضيعا اذا لم أفعل فيه شيئا للجيش الذى أتركه تحت قيادتك » (٤٦) ولكن بونابرت لم يفعل شيئا ولم يقل شيئا على الاطلاق طوال الشهر الذى انقضى منذ نزوله بأرض فرنسا (فى ٩ أكتوبر) الى تعيينه قنصلا (فى ١٠ نوفمبر) ليفرج من كرب الجيش الذى خلفه بمصر · لقد كان فى شغل عنه بأمور أهم ، وظلت شواغله تتزايد يوما بعد يوم ·

يروى أن الجنرال كليبر قال حين علم برحيل بونابرت : « أيها الأصدقاء ، ان هـذا الـ ــ تركنا وسراويله مملوءة ــ وسنعود الى أوربا وندعكها فى وجهه » (٤٧) · وهو أمل مغر ، وقد يأسف الكثيرون على أن كليبر لم يستطع تحقيقه·

٤

اذا أسندت القيادة العليا فى جيش من الجيوش الى أحد قواده استشعر فى العادة السرور أكثر من الغضب ، ولكن الجنرال كليبر استشاط غضبا حين علم أنه عين لقيادة جيش الشرق · فبونابرت فى رأيه هرب تاركا اياه ليواجه المشكلات التى خلفها ويدفع ثمن أخطائه · بل ان بونابرت لم يجرؤ على مواجهة خلفه الذى كان سيرفض القيادة أو يقبلها بشروط محددة جدا · وبونابرت حين جعل كليبر ينطلق الى رشيد ليلقاه فى موعد لم يكن فى نيته الوفاء به لم يغرر به تغريرا رخيصا وحسب : بل انه أثبت جبنه الأدبى ، وقد غل يد كليبر بمجموعة من التعليمات دون أن يعطيه فرصة مناقشتها أو تعديلها · فلما درس كليبر التعليمات فغر فاه مكذبا ، لأنها بعدت عن علاج الموقف بعدا يكاد يكون تاما ·

كان الشطر الأكبر من هذه التعليمات يتألف من مذكرات أربع ــ عن الادارة الداخلية ، والتحصينات ، والدفاع ، وموقف مصر السياسى · وكانت تعرض

مبادىء أولية لا ضرورة لذكرها لقائد محنك مثل كليبر ، فضلا عن أن جميع مرءوسي بونابرت سمعوه يرددها ترديدا مملا ، أو كانت تتصل اتصالا هزيلا بالموقف على الطبيعة • ان فى استطاعة كليبر أن يصرفها بدعابة من دعاباته اللاذعة ، ولكن الأجيال القادمة ستعجب بعمق ما فيها من ذكاء وبصر « ان قمبيز ، واجزرسيس ، والاسكندر الأكبر ، وعمرو بن العاص ، وسليم الأول ، كلهم دخلوا مصر •• من صحراء غزة •••• ان تركيا لم تعد دولة بل مجموعة من الولايات المستقلة ••• ان الطاعون من أخطر أعداء الجيش ••• ان مكة قلب الاسلام ••• لا يفتك أن الاسكندرية يجب أن تصبح فى النهاية عاصمة مصر ••• والتحصينات الدائمة ، والمخازن ، والمستشفيات ، والترسانات ، وطواحين الهواء ، والمصانع يحسن اقامتها فى الاسكندرية ••• » (٤٨) وهكذا وهكذا • ولا يحتاج المرء لجهد كثير ليتصور التعليقات التى حيا بها كليبر ، وهو ذلك الساخر الموهوب ، هذه المجموعة الفذة من البديهيات والأحلام الفارغة• لقد ترك له بونابرت جيشا هبطت قوته المقاتلة الأصلية الى النصف ، وانحطت روحه المعنوية ، وهده المرض ، واستحالت ثيابه أسمالا ، وتفشى التمرد فى صفوفه ، وترك له عجزا قدره ١٢ مليون فرنك ، دون أمل فى ايرادات منظمة لعدة شهور ، وبلدا يغلى بالسخط المكتوم ، ولا يمكن السيطرة عليه سيطرة فعالة بالقوات التى تحت تصرف كليبر ، وموقفا حربيا يقربه كل نصر فيه من الكارثة أكثر فأكثر ، فانجلترة تسيطر على البحار • وتركيا (مهما وصفها بونابرت بأنها « لم تعد دولة ») تجرد جيشا من ٨٠٠٠٠ مقاتل ضده • فى ظروف كهذه يبدو الكلام فى تقوية أسباب الدفاع • والاحتفاظ بالعلاقات الطيبة مع الزعماء الدينيين ، وصرف الملابس الجديدة للجيش ، وانشاء المستشفيات والترسانات ، والمصانع ، والاستعداد للبقاء الدائم بمصر — كل هذا يبدو بعيدا بعض الشيء عن الواقع • ولا ريب فى أن بونابرت لم يتوقع أن ينخدع كليبر بهذا كله ، كذلك لم يكن هو يخدع به نفسه : ولكنه وهو يترك لكليبر هذا العبء ، كان يرسي الأساس لأسطورة اتساع أفقه وبعد نظره •

كان من الأمور المعروفة عن كليبر أنه أبرز متحدث باسم القواد والموظفين الذين يعتبرون المغامرة المصرية مشروعا فاشلا لا أمل فيه ، ويحبذون الجلاء عن مصر بأسرع ما يستطاع على أن يتم بشروط مشرفة • وكان هذا الحزب يؤلف الكثرة بين كبار الموظفين وعامة الجند على السواء • أما حزب « المستعمرين » — الذين ما زالوا يؤمنون بجعل مصر مستعمرة دائمة غنية — فكان أبرز المدافعين عنه الجنرال دافو ، وهو شاب طموح طموحا مرضيا ، والجنرال مينو المكتهل ، الذى غلا فى حماسته الاستعمارية فاعتنق الاسلام وسمى نفسه جاك عبد الله مينو • ولعل ديزيه ينبغى ألا يعد واحدا من هؤلاء « المستعمرين » ، وذلك رغم أنه كتب مذكرات تستحق الاعجاب عن طرق ادارة اقليم لم يستطع حتى السيطرة عليه ، ولكنه لم يكن أيضا من « أنصار الجلاء » • فلم اختار بونابرت كليبر دون

جميع الناس ليخلفه ؟ والجواب المعقول الوحيد هو أن أضمن طريقة لحمل كليبر على البقاء بمصر ، ومنع حدوث انشقاق علنى فى القيادة العليا ، هى جعل كليبر قائدا أعلى للجيش • كذلك كان كليبر أكفأ القواد وأحبهم الى الجنود باستثناء ديزيه ، وقد رغب بونابرت فى أن يتبعه ديزيه الى فرنسا فى نوفمبر ، وأصدر تعليمات محددة بذلك (*) •

وتحت هذه التوابل الكثيرة • من النصيحة الطيبة ، والأحلام العريضة ، والاشارات الى قمبيز والاسكندر الأكبر ، والمواصفات التفصيلية عن تنفيذ مشروعات خيالية ، أخفى الجنرال بونابرت أرنبا يضطرب حيوية وواقعا : فقد كتب لكليبر يقول ، اذا لم تصلك لغاية مايو القادم معونة ولا أنباء من فرنسا ، واذا فتك الطاعون فى العام القادم بأكثر من ١٫٥٠٠ رجل رغم جميع الاحتياطات ••• فلك أن تبرم الصلح مع الباب العالى ، ولو كان الجلاء عن مصر أهم شروطه » (٤٩) • وقد تحتمل هذه الفقرة عدة تعليقات ، وسنعلق عليها بعد قليل • وحسبنا هنا أن ننقل تعليق كليبر عليها فى خطاب مشهور أرسله الى حكومة الادارة • قال : « انى ألفت أنظاركم أيها المواطنون أعضاء الادارة الى هذه الفقرة لأنها ذات دلالة من نواح عدة ، ولأنها توضح الموقف الحرج الذى أجدنى فيه » (٥٠) •

كان بونابرت قد أرسل الى كليبر مع تعليماته صورة من خطابه الذى كتبه فى ١٧ أغسطس للصدر الأعظم ، والذى أكد له فيه أن فرنسا لم ترد قط انتزاع مصر من السلطان ، وأن كل شىء يمكن تسويته فى حديث ساعتين • على أنه أوضح لكليبر أن اتفاقا على الجلاء لا يستتبع بالضرورة الجلاء الفعلى • قال : « يكفى أن تعطل تنفيذ الاتفاق ، ان أمكن ، حتى تبرم معاهدة صلح عامة • ان الدولة العثمانية ••• تنهار ، وسيكون الجلاء عن مصر وبالا أعظم على فرنسا ان رأينا هذا البلد الخصيب يقع فى يد دولة أوربية أخرى ونحن على قيد الحياة » (٥١) • وهذا بالطبع هو المنطق الذى نبعث منه الحملة المنحوسة بأسرها ــ وهى حقيقة لم تفت كليبر :

ورأى كليبر أن تعليمات بونابرت يمكن اغفالها جملة • أولا لأنه من المشكوك فيه أن يكون لقائد أعلى ترك جيشه دون اذن من حكومته الحق فى اصدار تعليمات لخلفه ، وقد نقل بونابرت ــ بتعيينه كليبر قائدا أعلى ــ كل

(*) لم يكن لبونابرت الحق بالطبع فى أن يأمر باعادة جنرال الى فرنسا بعد رحيله هو عن مصر ما دام قد أزمع التخلى عن القيادة • ومن ثم فقد استعمل هذه الصيغة الغريبة : « فى نية (الحكومة) أن يعود الجنرال ديزيه الى أوربا فى نوفمبر » • ولا حاجة بنا للقول ان « الحكومة » لم تعرب عن نية كهذه • وبمثل هذه العبارات الغامضة الملتبسة كان بونابرت يأمل أن يوحى بأنه عائد الى فرنسا تنفيذا لأوامر الحكومة •

سلطاته اليه ضمنا • ثانيا لأن كليبر لم يستشر ، بل لم يسأل ، أهو راغب فى القيادة • وأخيرا لأن التعليمات قامت على أسس باطلة، وكانت مستحيلة التنفيذ • والوثيقة الوحيدة ـ بين الأوراق التى أرسلها اليه بونابرت ـ التى كان لها فى نظر كليبر دلالة ايجابية هى صورة الخطاب الذى كتبه للصدر الأعظم • لقد فتح بونابرت الطريق للمفاوضات ، وكليبر مصمم على أن يمضى فيها الى ختامها الموفق بأسرع ما يستطيع • ولكنه رأى أن واجبه الأول ، فى الوقت ذاته ، أن يحقق للجيش دفع رواتبه وتوفير الكساء والغذاء له ولو كلفه ذلك الجور على الفئات التى كانت حتى ذلك الوقت تتمتع بتسامح بونابرت ـ كالشيوخ ، وكبار التجار ، والجباة الأقباط ، والمستغلين فى ادارته الحكومية • « أيها الجنود ، لا يخامركم شك فى أن حاجاتكم الملحة ستكون على الدوام محل اهتمامى الأول » (٥٢) ، بهذه الكلمات اختتم كليبر أول منشور أذاعه على الجيش ، وكان يعنى ما يقوله •

لقد أكد كثير من الكتاب أن الجنود الفرنسيين فى مصر تلقوا نبأ رحيل بونابرت بالأسف والفزع • فاذا كان الأمر كذلك ، فليس السبب رحيله بل مكثهم بعد رحيله • والشواهد التى بين أيدينا تدل على أن ابتهاجهم حين علموا بأن قائدهم الجديد هو كليبر فاق كثيرا شعورهم بالحزن • فكليبر يحظى على الأقل بما يحظى به ديزيه من حبهم ، وهو يتمتع بثقتهم المطلقة قائدا لهم ، ووقفته القوية فى جانب التخلى عن مصر مشهورة بينهم •

أما عن استجابة السكان ـ لا سيما الشيوخ ـ للتغيير الذى طرأ على القيادة ، فقد آثر كليبر ألا يترك شيئا للظروف أو المصادفات • فحين دخل القاهرة فى موكب مهيب فى ٣١ أغسطس ، أبدى أبهة الملوك ، ولاحت على طلعته صرامة كانت نقيضا واضحا لبشاشة بونابرت « وكان أمامه نحو الخمسمائة قواس وبأيديهم النبابيت وهم يأمرون الناس بالقيام والوقوف على الأقدام لمروره » وأحنى الناس رءوسهم وأيديهم مكتوفة وهو يمر • يقول الجبرتى انه حين قدم اليه أكابر البلد من المشايخ والأعيان « لم يروا منه بشاشة ولا طلاقة وجه مثل بونابرته ، فانه كان بشوشا يباسط الجلساء ويضحك معهم » (٥٣) •

***

كانت تعوز الجنرال كليبر موهبة الألفة السهلة التى يمتاز بها كل سياسى والتى أوتى منها بونابرت حظا وافرا • لقد كان كليبر ـ الرجل ذو البنية القوية والطلعة المهيبة ، والقامة المديدة التى تقرب من ستة أقدام ، والذى يميل بعض الشىء الى السمنة ، ويشبه شعره معرفة الأسد ، التيوتونى بملامحه العريضة الصريحة ، القوى الصوت الآمر النظرة بفطرته ـ كان فى هذا كله صورة صادقة للمحارب الجبيل فى سنوات نضجه ، وتقيضا واضحا للكورسيكى

القصير القامة الشاحب الوجه ، المرتبك الحركة • كانت شخصية بونابرت مغناطيسية ، أما شخصية كليبر فتوحي بالاحترام فقط • كان كليبر يبدو للذين عرفوه في صفته الرسمية فقط هادئا ، باردا ،صارما الى حد الخشونة • ولا ريب في أنه كان في استطاعته أن يكون شديد الصرامة سواء مع جنوده أو مع الأمة التي وضع حكمها على كاهله على كره منه • غير أن صرامته كانت تتبدى ضغطا متصلا ، قويا في غير جلبة ، لا عن طريق «الأمثلة» الشاذة الوحشية التي أسرف بونابرت في ضربها للناس اسرافا شديدا •

كان دخول كليبر القاهرة في هذه الأبهة مؤذنا بالتغيير الذي طرأ على سياسة الاحتلال الفرنسية • فرأيه منذ بداية الحملة أن أي محاولة لكسب مودة الأهالي المسلمين عن طريق التظاهر بالمودة والأخوة مقضي عليها بالفشل : فلن تنطلي هذه الخدعة على القوم ، فضلا عن أنهم سيخطئون فهم التسامح فيحسبونه ضعفا • أما الشيء الوحيد الذي يحترمونه أو يفهمونه فهو القوة • ولما كان يعتبر احتلال الفرنسيين لمصر مرحلة عابرة لا أكثر ، لذلك لم ير معنى لمحاولة اصلاح أحوال هذا الشعب ، التي هي وليدة آلاف السنين من الظلم والاستغلال والفوضى • وكان يوافق على ما انتهجه بونابرت من سياسة مراعاة العادات والتقاليد الوطنية واحترام الاسلام ، ولكنه لم يوافق على انتحال سلفه صفة المسلم • ومصر في نظره مجرد اقليم تحت الاحتلال العسكري المؤقت ، لاقلب امبراطورية استعمارية يمكن اقامتها • ولعل آمال بونابرت العريضة كانت تعوزه ، ولكنه أبدى تعقلا وحكمة أكثر كثيرا من بونابرت •

على أن سياسته كانت خاطئة في ناحية واحدة • كانت القاعدة التي انتهجها بونابرت أن يقطع ست رءوس كل يوم ويحتفظ ببشاشته • أما في ادارة كليبر فكانت رءوس قليلة تقطع ، ولكن لم يكن هناك بشاشة أيضا • وبدا للشطر الأكثر نفوذا من السكان أنه يصنع شرا من قطع الرءوس : ذلك أنه كان يعتصر الأغنياء بطريقة منتظمة • كان من أول أعماله اكراه الجباة الأقباط على دفع ٨٠٠٫٠٠٠ فرنك ، استنادا الى أنه يكفيهم أن يربحوا ١٠٪ من تجارتهم هذه • واحتج الأقباط ، وناقشوا ، وبكوا ، ولكن كليبر ظل صلبا لا تلين له قناة • وحدث في مناسبة تالية حين توافرت له كل المبررات لقطع رءوس عدة شيوخ ، أنه عفا عنهم ولكنه وقع عليهم غرامات باهظة • ومن الحقائق التي تصدق في كل بلاد الله أن الناس يقبلون في غير تردد التعرض لخطر بعيد الاحتمال هو خطر قطع رءوسهم ، ولا يقبلون — اذا استطاعوا الى عدم القول سبيلا — حقيقة أكيدة ، هي أن تفرض عليهم ضرائب تزيد على ما ألفوا دفعه منها : والثورتان الكبيرتان ، الأمريكية والفرنسية ، مصداق لهذا القانون العام • على أن هذه الحقيقة كانت تصدق على مصر أكثر منها على أي بلد آخر • صحيح ان الفقراء في عهد كليبر اعتصروا أقل مما اعتصروا في عهد أي ادارة سابقة ، ولكن اعتصار

الفقراء لاخطر فيه (على الحاكم في ذلك الوقت) ، في حين أن اعتصار الأغنياء اعتصارا يجاوز الحدود المقبولة محفوف بخطر أكيد ·

على أن كليبر بين أخصائه كان رجلا يختلف تمام الاختلاف عنه في صفته الرسمية · فهو بينهم ينبذ كل تكلف وتحرج · وأما حفلات عشائه فيسودها المرح والنشاط بقدر ما يسود البرود حفلات بونابرت · وقد تصبح لغته خشنة ، وهو أقل ما توصف به ، في المجال العسكري ومجال الأدب المكشوف ، ولكن روح الفكاهة فيه لاذع لا فظ ، وهو يمارسه في سخاء على حساب بونابرت · وكانت دعاباته عن « البطل » و « القوى القادر » يتناقلها الضباط ، كما كانت رسومه الهزلية التي يخططها بيد سريعة موهوبة ·

أما كراهية كليبر الصريحة لبونابرت فعزاها البعض الى عقائده الجمهورية وعزاها البعض الآخر الى الغيرة · ومن العسير أن يحكم المرء على مبلغ الاخلاص للعقيدة الجمهورية في رجل حارب في خدمة لويس السادس عشر وماريا تريزا قبل أن ينضم الى جيش الثورة الفرنسية · وأما الغيرة فنحن اذا غضضنا النظر عما في جميع المهن من قدر عادى من التحاسد بين أفرادها ، ولم نجد مبررا للاعتقاد بأن كليبر كان يخص بونابرت بغيرته في الوقت الذي يعجب فيه بجرأته وعبقريته الحربية · ولما وصل الى « أبوقير » عقب انتصار بونابرت عانقه قائلا « أيها الجنرال ، انك كبير كهذه الدنيا ، والدنيا أصغر من أن تسعك » (٥٤) — وهو ثناء جميل ، رغم مسحة من الخبث ربما شابته · ولكن الذي لم يكن كليبر يطيقه في بونابرت هو طمعه · فليس في وسعه الا احتقار رجل ضحى في هدوء بآلاف الأنفس التي عهدت اليه في سبيل مستقبله الشخصي · لقد قامر بونابرت بجيشه وخسر ثم تسلل هاربا كالجبان ، تاركا الجيش يدفع ديونه ، وعاد الى فرنسا بطلا ليتجر بانتصاراته الفارغة · كذلك بدا الأمر على الأقل للجنرال كليبر · وتحول اشمئزازه من بونابرت الى مقت ايجابي · فلم يعقد النية على أن يخرج بجيشه من مصر فحسب ، بل حاول الاضرار بسمعة بونابرت في فرنسا بكل مافي متناوله من وسائل ·

ولعل بعض هذه الوسائل كان دون مقامه ، وان تجلى فيها ولا ريب حبه للفكاهة · من ذلك أنه بدا تواقا للاستجابة الى ما طلبته مدام فوريه من اعادتها الى فرنسا : فعودتها ستزعج « البطل والعاشق الذي فقدته » (٥٥) · وقد أبحرت مدام فوريه فعلا على السفينة الأمريكية « أمريكا » ولكن السفينة البريطانية ثيسيوس نقلتها منها وردتها الى مصر (فحظ بونابرت عجيب حقا) ، وهناك اضطرت الى البقاء شهورا قبل أن تصل الى فرنسا في النهاية · ولكن أهم من هذا ذلك الخطاب الذي وجهه كليبر لحكومة الادارة في ٨ أكتوبر ، والذي وصلت صورة منه الى بونابرت بعد أن أصبح قنصلا أول ، ووقعت صورة أخرى في يد البريطانيين ، فكان لها نتائج وبيلة لكل من كان له بالأمر صلة ·

رسم خطاب كليبر صورة غالت فى التشاؤم · على أن التعليقات التى علق بها نابليون على هذه الصورة بعد ذلك كانت أكثر غلوا فى الاتجاه المضاد · كتب كليبر يقول ان الجيش هبط الى نصف قوته · (فزعم بونابرت أن هذا غير صحيح ، وانتهى بتقديرات زائفة الى أن لدى كليبر فى ذلك الوقت ٢٨ر٥٠٠ رجل ، ومع ذلك فان بونابرت قرر فى خطابه الذى كتبه للادارة فى ٢٨ يونيو ، أن الجيش سيهبط فى عام ١٨٠٠ الى ١٥ر٠٠٠ رجل منهم ٣ر٠٠٠ لا يصلحون للقتال !) وأضاف كليبر أن الأمراض تتفشى فى الجيش ، وأن الجنود يرتدون أسمالا مهلهلة · صحيح ان بونابرت أمر بصرف ملابس جديدة للجنود ، « ولكنه ترك هذا الأمر كما ترك أمورا كثيرة غيره عند هذا الحد والافتقار الى المال اضطره ولا ريب الى تأجيل تنفيذ هذا المشروع المفيد » (٥٦) ·

أما عن الافتقار الى المال فقال « حين أبحر بونابرت لم يترك فى الخزانة فلسا واحدا ، ولا ما يعادل النقد · بل ترك على العكس عجزا يكاد يبلغ عشرة ملايين ··· وتقدر متأخرات رواتب الجنود وحدها بأربعة ملايين » (٥٧) · (وعلق بونابرت على هذا بأن العجز لا يزيد على مليون ونصف من الفرنكات · والواقع أن حساب الرصيد فى ٨ أكتوبر ١٧٩٩ فيه عجز يقرب من ١٢ مليون فرنك · وهذا بالطبع بعد رحيل بونابرت بشهرين) ·

وكتب كليبر ، فى غير مبالغة ، عن الموقف السياسى الداخلى فى مصر بأنه قلق مزعزع على أحسن الفروض · أضف الى ذلك أن جيشا تركيا كبيرا يقوده الصدر الأعظم وصل فعلا الى غزة (واعترض بونابرت على هذه النقطة أن الصدر الأعظم لم يكن قد دخل سوريا بعد فى ٨ أكتوبر · وهذه مغالطة : فقد وصل الصدر الأعظم الى غزة بعد قليل) ·

ويمضى كليبر فيقول ان هذا هو الموقف الذى ورثه عن الجنرال بونابرت. - « لقد رأى الأزمة القاضية وشيكة الوقوع » (٥٨) · وبسبب هذه الأزمة التى لا مهرب منها بدأ بونابرت المفاوضات مع الصدر الأعظم · فماذا بقى لكليبر الا أن يتابع هذه البداية ، دون أن ينتظر فتك الطاعون بألف وخمسمائة آخرين من رجاله ! ومن ثم فقد كتب كليبر للصدر الأعظم وأرسل له نسخة من خطاب بونابرت ·

أما بوسييلج فقد بر كليبر فى تقريره المالى المنفصل ، الذى يوحى بأن بونابرت أخذ من الخزانة مليونى فرنك لاستعماله الشخصى ·

فلما وصل تقريرا كليبر وبوسييلج الى باريس كانت حكومة الادارة فى خبر كان · ورد بونابرت ــ وهو قنصل أول ــ على كليبر بطريق الجنرال برتييه وزير حربيته ، فقال ان معلومات كليبر غير صحيحة ، ويجب على أى حال ألا يوقع معاهدة بالتسليم · وخطاب برتييه مكتوب فى ١٢ يناير ١٨٠٠ · ولكنه

لم يصل الى يد كليبر الا بعد مضى بعض الوقت على التوقيع والتصديق على التسليم ٠

***

كتب كليبر أول خطاباته للصدر الأعظم يوسف باشا فى ١٧ سبتمبر ٠ فأعاد ما ورد فى خطاب بونابرت المؤرخ ١٧ أغسطس من دعوة للباب العالى بالدخول فى المفاوضات لرد مصر الى تركيا ، ولاستئناف التحالف التقليدى بين فرنسا وتركيا ٠ على أن لهجة كليبر كانت أقل حماسة وأكثر لباقة ٠ وبعد ذلك بأسبوع وعد كليبر الجيش فى تفاؤل بقرب حلول السلام ، وذلك فى منشوره الذى أذاعه عليه فى ٢٣ سبتمبر (رأس السنة الثامنة) : « ان أعلامكم يازملاء السلاح تنوء تحت عبء انتصاراتكم ٠ ولا بد لهذا المخاض الشديد من نهاية ، وهذه الأمجاد الكثيرة جديرة بالمكافأة ٠ فثابروا زمانا يسيرا لأنكم أوشكتم على بلوغ هذه النهاية وقاربتم نيل المكافأة ، وذلك باعطائكم العالم سلاما دائما ، بعد أن حاربتموه هذا الوقت الطويل » (٥٩) ٠

أما تفاؤل كليبر فيستند الى محادثاته مع الأسير مصطفى باشا كوسا . قائد الجيش التركى الذى هزم فى « آبوقير » ٠ وقد أصبح مصطفى باشا ، الذى أقنعه الفرنسيون بوجهة نظرهم ، وسيطا بين كليبر والصدر الأعظم شهورا بعد ذلك ٠ حقيقة انه ظل فى قبضة الفرنسيين ــ رهينة أكثر منه أسيرا ــ ولكنه كتب للصدر الأعظم فى عدة مناسبات حرجة ، وبروح التوفيق دائما ٠ ولكن الصدر الأعظم كان أقل هوادة ٠ وتبين أن افتراض بونابرت المتفائل بأن الباب العالى تواق الى الانفصال عن حلفائه البريطانيين والروس ، وابرام الصلح مع فرنسا (وهو افتراض شاركه فيه كليبر أول الأمر) ، ليس الا ضربا من التمنى٠ وكان الترك فى مطالبهم أشد صلابة وعنادا من أى من الحليفتين ٠ والعجيب أن السر سدنى سمث هو الذى اضطلع بدور الوسيط ، وأقنع الصدر الأعظم بعد لأى أن جيشا يطلب الهدنة ليس بالضرورة جيشا مهزوما ، وأن على الفريقين أن يتنازلا عن بعض مطالبهما ٠

بدأ تدخل سدنى سمث فى المفاوضات فى أواخر أكتوبر بخطاب لكليبر يبين له فيه أن معاهدة الحلف الانجليزية التركية تحظر عقد صلح منفرد ، وأن انجلترا يجب أن تكون طرفا فى أى اتفاق يعقد بين الفرنسيين والأتراك ، وأنه يجب الجلاء عن مصر قبل التوقيع على أى معاهدة صلح عام ٠ وبدأ كليبر رده (المؤرخ ٣٠ أكتوبر) بلهجة لا تخلو من الكبرياء ٠ فأكد أن القوات الفرنسية فى مصر تستطيع أن تقاوم أى جيش مقاومة طويلة ، فاذا تلقت أقل الأمداد استطاعت أن تقاوم الى الأبد ٠ (ولغته مع السر سدنى سمث تناقض تماما لغته

مع الادارة لأسباب واضحة) وقال ان الفرنسيين لن يجلوا عن مصر رغبة في العودة الى وطنهم لا أكثر ، ولكنهم سيبرحونها « بسرور وسرعة اذا كان جلاؤهم عنها هو الثمن الذى لا بد من دفعه في سبيل صلح عام » (٦٠) . وهذا يبدو كأنه شرط ، ولكنه في الواقع تنازل هام . والواقع أن كليبر ، بعد ذلك بسطور ، سلم في صراحة ووضوح بأن جلاء الفرنسيين عن مصر يجب أن يتم تمهيدا لصلح عام ، وهو بهذا التنازل لم يتجاهل تعليمات بونابرت فحسب ، وحق له أن يتجاهلها ، بل تجاهل كذلك تأكيداته للادارة بأنه سيصر على احتلال عدد من المدن والحصون حتى تبرم معاهدة للصلح . أما جميع التنازلات التالية — وهي كثيرة — فكلها أقل أهمية من هذا التنازل .

ولا بد أن كليبر كان على بينة من أن الصدر الأعظم فقط هو الوحيد بين الأطراف الثلاثة المعنية — وهم كليبر ، وسمث ، والصدر الأعظم — الذى يملك سلطة المفاوضة في أى أمر يتصل بمعاهدة صلح عام . فالسر سدنى ليس الا قبطانا في البحرية الانجليزية ، له رتبة الكومودور المؤقتة وكل السلطة في مفاوضة الباب العالى لا الفرنسيين . أما كليبر فليس له أى وضع دبلوماسى وان كان في استطاعته الاستشهاد بسابقة ، هي تفاوض الجنرال بونابرت في عقد صلح تمهيدى مع النمسا في ١٧٩٧ دون أن يخول هذه السلطة ، ولكن ذلك الصلح كان صلح نصر لا هزيمة . ومعنى هذا أن الجنرال كليبر حين كتب الى الكابتن سمث يقول ان الوقت حان « لتكف الأمتان اللتان هما أكثر أمم أوربا حضارة عن مقاتلة احدهما الأخرى » (٦١) كان يغامر بارتياد أرض محفوفة بالخطر . وقواد الجيوش المعادية في وقت الحرب لا يتبادلون عادة خطابات عن صواب عقد الصلح دون أن يعرضوا أنفسهم لتهمة الخيانة .

ولكن اقتراف الخيانة أبعد الأشياء عن نية كليبر . فقد قاس السر سدنى بدقة تامة ، وعبره رجلا عاطفيا شديد الحساسية والتأثر ، يتحرق شوقا للعب دور يجاوز كثيرا حدود منصبه الراهن . وكل ما يريده كليبر هو أن يجلو عن مصر بشروط مشرفة — أعنى بالسلاح والمتاع ، لا غالبا ولا مغلوبا . فلما لجأ الى سدنى سمث ليحقق بمعاونته هذه النتيجة ويرسى بتحقيقها الأساس لصلح دولى ، حوله من عدوه الى المتحدث المتحمس بلسانه . وبفضل وساطة سمث وافق الصدر الأعظم أخيرا في ديسمبر ١٧٩٩ على اعطاء المفاوضين الفرنسيين تصريحات مرور .

في هذه الأثناء صد الجنرال فردييه في أول توفمبر ، وهو على رأس الف رجل أو نحوهم ، قوة غزو تركية أخرى قادمة من البحر تزيد على قوته اضعافا قرب دمياط . وكان الصدر الأعظم يتقدم في سوريا على رأس جيش قوامه ٨٠٫٠٠٠ (نصفهم على الأقل من الخدم والطباخين وغيرهم من غير المحاربين) على أن رفض الجزار باشا التعاون معه على أية صورة (فالباشا عدو لكل

الدخلاء ، أتراكا كانوا أو فرنسيين) جعل الجيش فى حالة يرثى لها ، فكان الجنود يتضورون جوعا ويموتون ظمأ • ولا بد أن كليبر أدرك أنه قادر على أن يهزم الأتراك هزيمة ساحقة ، رغم زهده فى القتال دون ضرورة • ولكنه مع هذا آثر المفاوضة • ورسائله تدل على دوافعه دلالة واضحة : فكل نصر يكسبه مهما كان رائعا سيكون غالى الثمن • ولن تكون نتيجته الا فقد مزيد من الرجال سواء فى المعركة أو بالمرض ، ولن يكون له مفر من السقوط ان عاجلا أو آجلا تحت ضربات متتالية من عدو لا تنضب موارده • وخير له أن يفاوض ومركزه قوى من أن ينتظر حتى يموت بالطاعون ١٫٥٠٠ رجل ، ومثلهم فى ساحة القتال •

فى ٢٢ ديسمبر صعد مفاوضا كليبر الى السفينة البريطانية « تيجر » حيث شرعا فورا فى اجراء محادثات تمهيدية مع السر سدنى سمث • والمفاوضان هما المواطن بوسييلج الذى اكتسب بعض الخبرة الدبلوماسية ، والجنرال ديزيه• فأما بوسييلج فهو « جلائى » صريح ، وأما ديزيه فقد قبل مهمته على مضض شديد ، وبعد كثير من التأمل والتفكير • وبان له أنه ان رفض العمل الذى عهد به اليه كليبر فسيعين له قائد من أنصار الجلاء فيرتضى شروطا ربما كانت أقل ملاءمة مماكان ديزيه مستعدا لقبوله • وكان بوسييلج خلال المفاوضات كلها صاحب المبادأة ، فى حين قام ديزيه بدور « الفرملة » بين الحين والحين •

وكل الدلائل تشير الى أن بوسييلج طوى مضيفه على بنصره ، كما يقولون، فى الأسابيع الثلاثة التى قضاها ضيفا على سمث على السفينة تيجر • كان بين الرجلين مشاركة تامة فى الآراء ، وربما فى الميول أيضا • ورأى السر سدنى فى بوسييلج « جنتلمانا » يستطيع المرء التعامل معه ، رجلا أوتى بصر السياسى، وكتب له أن يلعب دورا هاما فى فرنسا • وكان كلاهما يبغض الجنرال بونابرت بغضا شديدا • كذلك أقنع بوسييلج سمث بأن كليبر « رجـل سمح كريم الخلق » وهو نوع الرجال الذين تمس اليهم الحاجة فى فرنسا ليخلفوا الحكومة الراهنة • وكان هناك ـ كما كتب سمث للأميرال كيت المحاربة أساس قوى جدا للقول بأن كليبر ألد الخصوم الذين يخشاهم بونابرت ••• ولا يمكن أن يصلح من حال فرنسا غير الفرنسيين ، والى أن يصلح حالها فى أجهزة الحكم الداخلية لن يكون لنا سلام (٦٢) • وكانت فكرة الكابتن سمث ـ التى شجعه عليها بوسييلج ـ أنه يستطيع بالمفاوضة لعقد اتفاق محدود النطاق فى الشرق الأوسط • أن يحدث تغييرا فى الحكومة الفرنسية ، وينهى حربا استمرت سبع سنوات • ويستفاد من تقارير ديزيه أن شوق سمث لدفع عجلة المفاوضات قدما وللخروج منها منقذا لأوربا أصابه بما يشبه الهستريا : فكانت تنتابه نوبات من الرعشة اذا أبطأ سيرها كثيرا ، ويضرب الأرض بقدمه كأنه « بريمادونا » مغلوبة على أمرها •

وبينما كان الفريق الفرنسي والسر سدنى يتبادلان الرأى على السفينة « تيجر » وصل جيش الصدر الأعظم الى غزة . وأصر ديزيه على وقف التقدم التركى فورا اذا أريد للمفاوضات أن تمضى فى طريقها . ووافق سمث وأخطر الصدر الأعظم بما يفيد هذا ، ولكن الصدر الأعظم أغفل رسالة سمث ، وزحف على العريش وهى فى يد حامية فرنسية قوامها نحو ٢٥٠ رجلا . وأمرهم قائدهم الميجر كازال بالمقاومة . ولكن الرجال تمردوا بدلا من أن يقاوموا ، ونهبوا مخزن الخمور ، ومزقوا العلم المثلث الألوان ، ورموا الحبال للأتراك ليسهلوا دخولهم . وشد ما ريع الكولونيل دوجلاس ، وهو ضابط بريطانى ملحق بمقر القيادة التركية ، حين رأى الأتراك يشرعون فى ذبح الحامية التى سلمت أمام عينيه ، وقد أفلح فى انقاذ نحو مائة من رجالها .

ولو أن حادثا كهذا وقع فى ظروف مختلفة لحمل الفرنسيين على قطع المفاوضات . ولكن نتيجته الفعلية ، ان كانت له نتيجة ، كانت نقيض ذلك تماما ، لا لأن كليبر اعتبر فقد الحصن لطمة قوية ، بل لأن مسلك الجنود كان ممثلا للروح المعنوية فى الجيش الفرنسى . فقد سبقته حركة تمرد فى عدة مدن ساحلية ، وصمم الجنود على عدم القتال . وفى الاسكندرية قاموا بشغب ليمنعوا سفر عدة موظفين الى فرنسا وصاحوا كما يقول نقولا الترك : « اما نموت سوية ، واما نسلم سوية . أنتم عمالين تهربوا واحد بعد واحد ، وترمونا نحن الصلدات الصغار فى هذه الغربة » (٦٣) لقد خيل اليهم أن الفيران تهجر السفينة الغارقة ، وأن الجنرال بونابرت تصدر موكب الفيران .

وكما يفضى مجرد الكلام فى الحرب بالأمم فى كثير من الأحيان الى الانزلاق للحرب ، فكذلك تولد أحاديث الصلح قوة دافعة تنفرد بها . ففى ١٣ يناير وصل ديزيه وبوسبيلج يصحبهما السر سدنى سمث الى معسكر الصدر الأعظم فى العريش ليبدأوا الجزء الأهم من المفاوضات . وهناك تلقى المبعوثان الفرنسيان تعليمات من كليبر بعدم الاصرار على أن ترد العريش للفرنسيين ، بشرط أن يضمن الصدر الأعظم مراعاة وقف اطلاق النار مستقبلا . وكانت أهم شروط المعاهدة قد وضعت بالمراسلة بين كليبر والصدر الأعظم . فوافق الصدر الأعظم على أن يسمح للفرنسيين بالرحيل بسلاحهم ومتاعهم وبالاحتفال العسكرى الكامل ، وبأن يمدهم بالناقلات اللازمة . ولم يبق من النقط الهامة سوى مطالب كليبر بأن تنسحب تركيا من تحالفها مع انجلترة وروسيا ، وبألا تدخل الجيوش التركية مصر حتى تقدم البحرية التركية الناقلات التى تحمل الفرنسيين الى وطنهم ، وبأن تضمن تركيا فى الوقت نفسه دفع المال اللازم لاعاشة الجيش الفرنسى فى مصر . وتيسيرا لاتصالات كليبر بالصدر الأعظم ، ورغبة فى اشرافه على الدفاع عن الجبهة المصرية فى حالة فشل المفاوضات ، نقل كليبر مقر قيادته الى الصالحية فى منتصف يناير .

وفي العريش وجد بوسبيلج وديزيه الأتراك شديدى التشبث فيما يتصل بالنقطتين الأخيرتين . أما النقطة الأولى فقد لقيا اعتراضا عليها من سدنى سمث، اذ قال ان انسحاب تركيا من الحلف الثلاثى لا يمكن أن يتم الا اذا وقعت معاهدة صلح عام . وسلم كليبر بجميع النقط الا نقطة المال ، وكتب لمبعوثيه في ١٩ يناير يقول ان الأهمية التى يعلقها على هذا الشرط بالغة جدا ، « بحيث أجدنى ميالا للاذن لكما بقطع المفاوضات اذا رفض هذا الشرط » . ومضى يقول ان مركزه الحربى قلق مزعزع ، ولكن الموقف المالى يبلغ من السوء حدا يجعله لا يعيش « من يوم الى يوم ، بل من ثانية الى ثانية » . وقد أخضع المشكلة كلها « لتقدير حسابىدقيق » . ونتيجة هذا التقدير « أننا يجب ألا نقاتل ، ولكن يجب أن نصل لحل وسط مع أولئك الهمج ونحن لا نزال من القوة بحيث نفرض تنفيذ الشروط المتفق عليها بأمانة » . ثم قال انه قد يعترض على هذا بأن الأمداد قد تكون في طريقها من فرنسا ، ولكنه لا يشعر أن هناك أى أمل فى وصولها . (وكان فى هذا على صواب تام) . « فقد مضى منذ عودة بونابرت الى فرنسا من الوقت ما يكفى لا لارسال سفينة بريد واحدة ، بل عشر سفن . ولكن واحدة منها لم ترسل ، لأن الحكومة لم يكن لديها ما تعدنى به ... فاذا ظفرت بانتصار فكلماأكسبه هو مهلة ثلاثة أشهر ... واذا هزمت فأنا مسئول أمام الجمهورية عن ٢٠٠٠٠ر٢٠ مواطن لن يستطيعوا الافلات من الذبح بأيدى الجنود الحانقين المستبيحين ... (خصوصا) وأننا فى هذا ضربنا لهم مثلا غاية فى السوء يحتذونه » (٦٤) .

ولم يوضح كليبر حجته بأجلى مما وضحها هنا . كذلك تبين هذه الفقرة كرهه للتهويل من مذبحة حامية العريش : لأنه كان يذكر مذبحة يافا . وحجته لا مغمز فيها عند من يحكمون المنطق . أما الذين يقولون ما قاله الشاعر الانجليزى « ليس المجال مجال منطق ، انما المجال مجال العمل والموت » . (وهى مدرسة فكرية تسود تفكير وزارات الحرب فى العالم اليوم أكثر منها فى أى وقت مضى) فيرون كليبر مذنبا ، وذنبه التفكير المنطقى — وهو ذنب لا يغتفر فى الجندى . أما كليبر فقد دعا مجلس حرب من ثمانية قواد ليعزز موقفه ، فأيده الجميع فيما عدا واحدا (هو دافو) ولو كان مينو حاضرا لعارضه .

ووضعت المعاهدة فى الأيام القليلة التالية ، وصدق عليها كليبر فى ٢٨ يناير . وتقضى شروطها بأن يتعهد الفرنسيون باخلاء قطيا والصالحية وبلبيس بعد عشرة أيام من التصديق ، واخلاء القاهرة بعد شهر . واتفق على أن تنسحب جميع القوات الفرنسية الى الاسكندرية وأبى قير ورشيد وتنتظر فيها وصول الناقلات التركية . وتعهد الأتراك بنقل الجيش الفرنسى بسلاحه ومتاعه الى فرنسا ، وبتقديم نحو مليونى فرنك فى الوقت نفسه لاعاشته فى مصر . ولم يبق سوى نقطة صغيرة واحدة لم تسو قبل رحيل المفاوضين : فقد أصر ديزيه

على أن يرد والى القدس عاملة فرنسية فى أحد مطاعم الجيش وهى أرملة جاويش قتل فى المعركة ، وكان الباشا قد أخذها ليضمها الى حريمه • ووافق الصدر الأعظم ــ ولكن زوجة الجاويش لم توافق • وأعلنت أنها فى غاية السعادة حيث هى ، وقد ظلت فعلا تعيش فى القدس سعيدة حتى عمرت •

٥

أحس كليبر بشىء كثير من القلق ، لا على ما فعله . بل على الاستقبال الذى سيستقبل به عمله • وقلقه واضح تماما فى عشرة خطابات أو نحوها كتبها للادارة (التى لم يكن أحيط بعد بموتها) ولديزيه ولديجا • ولكنه كلما أمعن فى مساءلة ضميره أفضى به الى النتيجة بعينها : فالعقل ، والانسانية ، والفهم الصادق لمصالح بلده ــ كل أولئك أملى عليه سلوكه ، وقد اقتضاه الثبات على تصميمه على الصلح جهدا وشجاعة أكثر من أى معركة خاض غمارها • وربما كان صوابه أو عدم صوابه فى موقفه هذا مسألة رأى شخصى • ولكن رأى المؤلف القاطع هو أن كليبر على صواب •

وفى الشهر التالى للاتفاقية نفذ كليبر شروطها بدقة ، وذلك بموافقة أغلبية الجيش الساحقة • ومن الأقلية التى لم توافق الجاويش فرانسوا الذى نقل الى سلاح الهجانة ، وأصبح ، منذ نقله ، اذا تحدث عن فرقته لا يذكرها الا بعبارة « نحن الهجانة » ــ وهى عادة أكسبته كنية هى « هجين مصر » طوال حياته بعد ذلك • يقول فرانسوا : « كنا نحن الهجانة تعلم أن الجنرال ديزيه خجل من الدور الذى اضطر الى القيام به فى تلك المفاوضة » (٦٥) • وفى الأيام الأولى من مارس تحولت الأحداث تحولا بدا مبررا لموقف حزب «الهجن» ازاء «الآدميين» • ذلك أنه فى ٢ مارس وصل اللواء لاتور ــ موبور الى القاهرة قادما لتوه من باريس وحمل لكليبر نبأ انقلاب ١٨ برومير ، ونسخة من الدستور الجديد الذى نصب بونابرت قنصـــلا أول • كذلك جلب معه بضع صحف ونشرات وكتب وترقيات ، ولكنه لم يأت بخطاب تعليمات واحد ، ولا بأقل وعد بارسال المدد • ويضطرم الخطاب الذى كتبه كليبر لبرتييه ردا على هذا بروح الغضب • وقد كتب الى ديجا يقول : « انهم يستغفلوننا » (٦٦) : وكتب لبوسييلج يقول : « ان سلطة بونابرت المطلقة قد تحجب الحقيقة لحظة ، ولكنها ستنكشف ان عاجلا أو آجلا ••• ولو خيرت فى أن أبدأ كل شىء من جديد لفعلت بالضبط ما فعلت » (٦٧) • أما الذين رأوا فى تقلد بونابرت زمام الأمور حجة ضد كليبر فبادروا بالتنكر له ، وعلى رأس هؤلاء مينو الذى كتب من فوره الى بونابرت ، والى برتييه ، والى كل صديق قوى فى باريس ، خطابات لا يكتبها الا كل متملق ذليل • وقال لهم جميعا ان اتفاق كليبر مع سمث والصدر الأعظم « قد أحزن جميع محبى الشرف والوطن أعمق الحزن » (٦٨) • وبينما كان مينو يطعن شرف كليبر على هذا النحو ، رجا كليبر بوسييلج أن يرسل اليه محضر مجلس الحرب

الذى وافق على الاتفاقية ، أو يتلفه ، خشية أن يعرض القواد الذين وقعوه للمؤاخذة .

وتلقى كليبر ، فى نفس الوقت الذى تلقى فيه هذه الرسائل من باريس تقريبا ، نبأ ربما كان أشد ازعاجا حتى من هذه الأنباء ، وقد تلقاه من بوسيبلج الذى مكث مع السر سدنى سمث مبعوثا خاصا للهدنة . ذلك أن الاميرال كيت أنبأ السر سدنى بأنه تلقى تعليمات مؤكدة من الحكومة الانجليزية باغفال أى اتفاق توصل اليه الصدر الأعظم مع الفرنسيين ، وسيعترض الأسطول البريطانى كل شحنات من الجنود الفرنسيين ويعامل أفرادها معاملة أسرى الحرب . وقد سببت هذه اللطمة للسر سدنى فزعا فاق حتى فزع كليبر : فقد كان مشروعه كله على وشك الانهيار ، وتعرض شرفه وسمعته للخطر . وكتب الى كيت يقول : « سيدى ، اننى أعترف بأننى بوصفى وسيطا فى هذه المهمة لم يدر بخلدى أننا قد نضع أى عقبة فى طريق اتفاق عظيم الفائدة لنا فى جملته ، ولا يمكن بالطبع أن يتم بأى شروط مهينة لجيش محنك لم يهزم ولم يحاصر » (٦٩) . والواقع أن رفض الحكومة البريطانية لاتفاق العريش كان خطأ شنيعا كلفها فى النهاية ثمنا باهظا . وقد أفضى اليه ضرب من هذه التخبطات الخطيرة ، التى يبدو أن الحكومة البريطانية تحتاج اليها بين الحين والحين لكى تؤدى وظيفتها على الوجه الصحيح بعد ذلك . (والهجوم البريطانى على مصر فى ١٩٥٦ هو أحدث أمثلة هذا التخبط) .

كان قد وقع فى أيدى البريطانيين نسخة من الخطاب الذى كتبه كليبر للادارة فى ٨ أكتوبر ، والذى انتقد فيه بونابرت ورسم صورة متشائمة لمركز الفرنسيين فى مصر . وانتهت الوزارة البريطانية ، استنادا الى هذا الخطاب المتسم بشىء من المبالغة ، الى نتيجة ، هى أن كليبر على شفا الهزيمة الكاملة ، ومن ثم أصدرت تعليماتها الى كيت باغفال أى اتفاق توصل اليه الأتراك والفرنسيون ، وبذا يكره الأتراك على استئناف القتال واتمام ابادة جيش الحملة الفرنسية ، وقد أبلغ اللورد كيت هذه الحماقة الفذة الى سمث دون أن يعبأ حتى بسؤال حكومته عنها . وغيرت الحكومة البريطانية أثناء ذلك قرارها ونصحت اللورد الجن ، السفير البريطانى فى الآستانة ، بقبول اتفاق العريش مع تعديلات يسيرة فقط ، وبتأمين مرور ناقلات الجنود الفرنسيين . ولكن لسوء الحظ لا اللورد جرنفيل وزير الخارجية ولا اللورد الجن أحاطا اللورد كيت بهذا التطور الجديد (*) .

(*) اهتم البعض اهتماما كبيرا بمسألة فنية هى : هل كان لسدنى سمث سلطات صحيحة تخول له توقيع اتفاق العريش ، وباغفال المفوضين الفرنسيين التحقق من سلطات سميث . ولكن هذه المسألة الفنية قليلة الأهمية ، لأن الاتفاق كان اتفاقا عن مسألة خاصة ، تم على جزء =

ولو شاء سدني سمث لأخفي مضمون تعليمات كيت عن الفرنسيين حتى يجلوا عن القاهرة ويصبحوا عاجزين عن استئناف القتال • كتب للورد سبنسر يقول : « كان موقف الجيش رهنا بابلاغى اياهما بعدم التصديق على الاتفاق •• ولكن حتى لو كان حقا وصدقا أن الجيش الفرنسى ، الذى ما زلنا فى صراع معه ، سيصبح هياكل عظمية مبيضة على الرمال اذا قادت رجاله خطوة خطوة الى حتفهم ، وهو ما كان بالطبع والتأكيد فى مقدورى أن أفعله ، فاننى أرثى للرجل الذى يتمنى هذا على حساب شرفنا القومى » (٧٠) والواقع أن السر سدنى أنبأ بوسبيلج فى اخلاص بالعقبة التى قامت • وكتب بوسبيلج لكليبر يقول : « لقد بدأ الابتئاس الصادق على سمث • وأخبرنى أنه يعرض حياته للخطر بمخالفته الأوامر التي تلقاها ، ولكنه يؤثر فقدانها ألف مرة ، عن ألا يبذل كل محاولة لتيسير اتمام تنفيذ الاتفاق » (٧١) • وقد فعل سمث هذا (ولو أنه لم يعرض حياته لخطر كبير) بمحاولته اقناع الصدر الأعظم أن يوقف زحفه حتى تذلل الصعوبة التى أثارها خطاب كيت ، كذلك كتب للورد الجن يطلب اليه تأمين الجنود الفرنسيين المزمع اجلاؤهم • وقال للسفير : « ان الهدف القومى العظيم سيتحقق اذا استطعنا اخـراج الفرنسيين من البلاد ، حتى لو حملوا الأهرام معهم » (٧٢) •

وبدا لكليبر كما بدا لسدنى سمث ، وكانا فى ذلك على حق ، أن سبب العقبة كلها سوء تفاهم يمكن ازالته فى زمن قصير ، بشرط أن يوافق الأتراك على وقف زحفهم • ومن ثم طلب الى الصدر الأعظم أن يسحب جيشه من بلبيس التى جلا عنها الفرنسيون فعلا ، وعرض تجميد موقف الجيشين حتى تذلل العقبة بالمفاوضة • ولكن الصدر الأعظم أبى أن يستمع لشىء من هذا رغم جهود سمث ، وأصر على تنفيذ المعاهدة فى موعدها بالضبط مع ما طرأ على الظروف من تغير ، وواصل زحفه على القاهرة •

وفى ١٨ مارس تلقى كليبر من اللورد كيت خطابا (*) شخصيا ، صيغ بلهجة وحشية مهينة ، وأخطر فيه الجنرال بأن جلالة الملك لا يستطيع الموافقة على أى تسليم بأى شروط ، غير التسليم غير المشروط • وكان الصدر الأعظم فى هذا الحين قد قرب من أبواب القاهرة على رأس ٤٠٫٠٠٠ رجل •

هنا انتفض كليبر ــ كما قال بونابرت ــ « انتفاضة الأسد » • ويقول

= ناء من العالم ، والأوامر التى تلقاها اللورد كيت صدرت قبل أن تعلم الحكومة البريطانية أن سمث طرف فى المفاوضات ، والتعليمات التى أرسلت الى اللورد الجن أيدت فى أساسها تصرف سمث • وحتى لو كانت مسوغات سمث صحيحة لا مطعن فيها ، لكانت النتيجة واحدة •

(*) أرخ الخطاب ٨ يناير ، على بارجة الأميرال كيت « تشارلوت » الراسية تجاه مينورقة ، وهو تاريخ يسبق تاريخ توقيع اتفاق العريش •

نقولا الترك ، بتشبيه مختلف انه « « بدا يعج كالجمل الهايج » (٧٣) ولا جدال في أن رد الفعل عند كليبر تجلى رائعا ٠ فلم تمض ثمان وأربعون ساعة حتى كان قد ألغى جميع أوامر الجلاء ،، وأخطر الصدر الأعظم بأن الهدنة انتهت ، وأصدر للجنود منشورا لم يزد على نص خطاب كيت الكامل سوى سطرين : « أيها الجنود ، لا جواب لدينا عن هذه الوقاحة الا النصر ، فأعدوا أنفسكم للمعركة » ، وفي الساعة الثانية من صباح ٢٠ مارس ، خرج من القاهرة للقاء الصدر الأعظم ٠ وقبل أن يرخي الليل سدوله كان قد أوقع الهزيمة الساحقة بجيش يبلغ أربعة أضعاف جيشه قرب أطلال عين شمس : وأخذ هجومه الأتراك على غرة ٠ ولم يمض أسبوع حتى كان قد طرد الجيش التركي من مصر ٠

وهنأ الجنرال مينو ، وهو أشد المتملقين زلفى ، كليبر على انتصاره بعبارات يشوبها شيء من عدم الكياسة ، فكتب « اذا كان اتفاق التسليم الموقع في العريش في رأيي خطأ سياسيا ، فان النصر الباهر الذى حققته ، واعادة فتح مصر الذى أنجزته ، يكللانك بالمجد ٠ ليس لى أيها الجنرال من أمنية سوى مشاركتك مجدك وجهادك ٠٠٠ فاذكر من أنت ، تصبح مؤسس مستعمرة عظيمة » (٧٤) ٠ وكان جواب كليبر ساخطا : « تلقيت خطابك الآن أيها المواطن الجنرال ٠ وان بى من الغباوة الشديدة ما لا يجعلنى أعتقد حتى اليوم ، أن اتفاق العريش كان خطأ سياسيا ، أو أن هناك أى مبرر للتيه بالنصر الذى كسبته بجيشى ٠ فأنا الى اليوم شديد الاقتناع بأننى بهذه المعاهدة وفقت في وضع حد معقول لمشروع جنونى ٠ وما زلت الى اليوم مؤمنا بأننا لن نتلقى معونة من فرنسا وأننا لن ٠٠٠ ننشىء أى مستعمرات فى مصر ما لم تنبت أشجار القطن والنخيل جندا ورصاصا ٠٠٠ ان وجهك أيها الجنرال يتجه صوب الشرق ، أما وجهى فصوب الغرب ٠ ولن يفهم أحدنا الآخر أبدا » (٧٥) ٠

وقليل من القواد من ظفر بنصر باهر كذلك الذى ظفر به كليبر عند عين شمس ، وقليل منهم من أعاد فتح بلد فى مساحة مصر السفلى فى أسبوع واحد ، وأغلب الظن أن أحدا منهم لم ينظر قط الى نصره هذه النظرة التى تتسم بالحياد والأسى ٠ ان معركة عين شمس لم تكن فى نظر كليبر انتصارا حربيا مجيدا ، بل نتيجة دامية لغلطة غبية : وما كان يصح قط أن تقع ، ولا مسوغ لها ، شأنها فى ذلك شأن الحرب كلها ٠

***

على أن انتصار كليبر فى عين شمس كان ناقصا رغم كونه انتصارا باهرا ٠ فبينما كان كليبر يطارد الصدر الأعظم اللائذ بالقرار ، أفلح ناصف باشا ابنه ، مع شطر من القوات التركية ، فى الافلات من الفرنسيين ويمم شطر القاهرة ، وأعلن أن الجيش الفرنسي دحر ٠ وفى لحظة تمرد الأهالى على الفرنسيين ،

وما لبث الجنود القلائل الذين تركوا بالقاهرة أن عزلوا فى القلعة ، وفى حصنين، وفى مقر القيادة بميدان الأزبكية ، وفى قليل من البيوت المنعزلة . وضربت الفوضى أطنابها فى القاهرة من تلك اللحظة الى أن استولى كليبر على المدينة من جديد بعد خمسة أسابيع . وأغار الغوغاء بتحريض ناصف وعثمان . كتخدا الصدر الأعظم . على الأحياء المسيحية وراحوا يقتلون ويغتصبون وينهبون . ولم يقاوم سوى درب النصارى (القبط) تحت قيادة المعلم يعقوب الباسلة . أما الجنود الترك فبدلا من أن يوقفوا الفوضى شاركوا فى أعمال الاغتصاب والنهب . وسرعان ما ندم ناصف وعثمان على تحريضهما وتسليحهما الغوغاء ، لأنهما فقدا كل سيطرة على الموقف .

فلما عاد كليبر الى القاهرة فى ٢٧ مارس لم يكد يستطيع شق طريقه الى قصر قيادته من مدخل الحديقة . وبينما كان ينتظر وصول المدفعية اللازمة لقذف الأحياء الثائرة أمر جنوده بتطويق المدينة وعزلها عن موارد الزاد ، ودعا الأتراك فى الوقت نفسه للتسليم : وكان القواد الترك الآن راغبين فى ذلك لولا أن منعهم الغوغاء . وعرض كليبر العفو على الأهالى : ولكنهم قتلوا رسوله . فلم يكن مناص من قذف المدينة بالمدافع وتجويعها حتى تسلم .

وكان جميع البكوات والمماليك الباقين قد دخلوا المدينة من جديد مع الترك الا واحدا . أما هذا الواحد فمراد ، الذى ظل فى الأطراف متفرجا محايدا . فلما دعاه زملاؤه البكوات للانضمام اليهم راوغ فى الجواب ونصحهم بمفاوضة الفرنسيين . وأرسل اليه البكوات واحدا منهم هو عثمان بك ليرده الى رشده . وبعد حديث عثمان مع مراد ، عاد عثمان الى القاهرة مقتنعا تمام الاقتناع برأى مراد .

وتفسير سلوك مراد المحير غاية فى البساطة . ذلك أن كليبر كان قد أرسل فى ١٤ مارس ، قبل استئناف القتال ، الرياضى فورييه ليجس نبض نفيسة زوجة مراد فى ضم مراد الى صف الفرنسيين مقابل تقليده حكم الصعيد . ورحبت السيدة نفيسة بالعرض ، وأبلغته الى زوجها بطريقة خفية . ولم يكن مراد تواقا للقاء الأتراك ، ولا مستاء من هزيمة الصدر الأعظم ، لأنه لم يدفع « الميرى » للباب العالى سنين طويلة . لذلك وافق على العرض الفرنسى ، وأرسل فى ٥ ابريل عثمان بك الى كليبر ليبرم معه تحالفا . وهكذا كملت الدائرة : فقبل عامين هاجم الفرنسيون مرادا باسم حليفهم السلطان ، وقاوم مراد الفرنسيين باسم سيده السلطان بعينه ، وأفلت من مطارديه الفرنسيين قرابة عام وهو يدوخهم خلفه من القاهرة الى أسوان وبالعكس ، وها هو ذا الآن ينضم بقواته الى الفرنسيين تهربا من دفع الضرائب للسلطان الذى حاربهم من قبل باسمه .

ولم يحل منتصف ابريل حتى كانت القاهرة تتضور جوعا ، ويرجع بعض

الفضل في هذا لمراد بك الذى اعترض قافلة زاد فيها ٤٠٠٠ر٤ من الغنم . وجر الجوع في أذياله مزيدا من النهب والتعذيب والابتزاز ، مع قتال من بيت لبيت وقذف بالمدافع لا ينى ليل نهار . وأصبح حي الأزبكية كله بقصوره وحدائقه أطلالا ، واشتعلت النيران في المدينة كلها . يقول نقولا الترك : « وكانت النساء والأولاد يتخبون ويجتمعون تحت العقودة الحجر خوفا من القنابر ... وكنت تسمع في الليل صريخ النسا والأولاد » (٧٦) .

ورغم هذا كله استمرت المقاومة ، وكانت حفنة من المهيجين الشعبيين الذين طلعوا من حيث لا يدرى أحد يهددون بقتل كل من يتحدث عن التسليم .

وفي ١٤ ابريل أمر كليبر بهجوم كبير على المدينة . وفي رواية الجبرتي أن الفرنسيين استعملوا نوعا بدائيا من قاذفات اللهب « وعملوا فتائل مغمسة بالزيت والقطران ، وكعكات غليظة ملوية على أعناقهم معمولة بالنفط والمياه المصنوعة المقطرة التى تشتعل ويقوى لهبها بالماء » . وهذا لا ريب اختراع من بنات أفكار عضو في اللجنة العلمية ـ وذلك بالاضافة الى مدافع الميدان (*) . وزاد من الضجيج والرعب مطر غزير ورعد وبرق لا يصيب القاهرة الا في القليل النادر . يقول الجبرتي ان الفرنسيين : « كانوا يلهبون السقائف وضرف الحوانيت وشبابيك الدور ، ويزحفون على هذه الصورة شيئا فشيئا . والمسلمون أيضا بذلوا جهدهم وقاتلوا بشدة همتهم وعزمهم ... وزلزلوا في ذلك اليوم والليلة زلزالا شديدا وهاجت العامة وصرخت النساء والصبيان ونطوا من الحيطان ، والنيران تأخذ المتوسطين بين الفئتين من كل جهة . هذا والأمطار تسح حصة من النهار وكذلك بالليل من ليلة الجمعة ، كذلك الرعد والبرق » (٧٧) . وفي وسط هذا الجحيم مضت المفاوضات بين ناصف باشا وكليبر بوساطة مراد . وضعف القتال في اليوم التالى وما زال أكثر القاهرة في أيدى الثوار . وركز كليبر جهوده ضد حي بولاق الذى أبى التسليم بعد أن وعد بالعفو . وقاتل الفرنسيون كالمجانين في بولاق واستولوا عليه عنوة . يقول الجبرتي : « وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة واحترقت الأبنية والدور والقصور » (٧٨) . واستولى الجنود على ما استطاعوا العثور عليه ، بما في ذلك عدد كبير من النساء ظلوا يعاشرونهم معاشرة الأزواج طوال سنة الاحتلال الباقية .

وأخيرا خضع الثوار لحكم العقل في ٢٢ ابريل . وكف القوم بعد ما نالهم من اعياء ورعب عن مقاومة قبول ناصف باشا لشروط كليبر السخية . وسمح للجنود الأتراك أن يرحلوا بسلاحهم ومتاعهم يحرسهم الفرنسيون الى الصالحية ومنها يمضون الى سوريا . أما المماليك فيرحلون الى الصعيد ، ولكن أكثر

(*) الجبرتي هو مرجعنا الوحيد في هذه الآلة ، على أن وصفه لها ولآثارها فيه من التفصيل ما يكفي لجعل روايته مقبولة .

البكوات ، ومنهم ابراهيم ، فضلوا أن يتبعوا الصدر الأعظم الى سوريا • وفى أثناء سير الأتراك المغلوبين تحت الحراسة الى الصالحية أدهشهم أن يروا الجنرال رينييه قائد الحرس الفرنسى يقدم المطايا ليركبها الجرحى والمتخلفون من رجالهم•

ولم يسمح لمصطفى باشا كوسا ، الذى ظل فى أيدى الفرنسيين طوال حصار القاهرة ، بالرحيل مع بقية الأتراك بل أبقى أملا فى تبادل الأسرى • وأرسله كليبر مع آخرين من الضباط الأتراك الماسورين فى أبى قير الى دمياط وهو يتوقع الوصول الى اتفاق سريع عن هذه المسالة • ولكن الأتراك وضعوا كل العقبات فى طريق التبادل ، ومات مصطفى باشا فى دمياط قبل الوصول الى اتفاق « من قهره » كما يقول نقولا الترك وشيعه الفرنسيون باحتفال عسكرى كما يشيع القواد الفرنسيون •

***

وعد كليبر بالعفو العام عن أهالى القاهرة فى الوقت الذى قبل فيه تسليم الأتراك • وكتب للحكومة العثمانية ، حتى قبل استيلائه على المدينة من جديد ، يعرض عليها استئناف المفاوضات تمهيدا للجلاء عن مصر • ولا أساس اطلاقا لما زعم نابليون من أن « كليبر بعد هذا الانتصار ••• بذل قصارى جهده فى دعـم المستعمرة وتقويتها ، وأصبح سلوكه فى كل ناحيـة نقيض ما كان من قبل » (٧٩) ذلك أن كليبر لم يعدل عن رأيه فى أى شىء •

ومع أن كليبر ثبت على رأيه فى أن الجـلاء عن مصر هو هدفه النهائى ــ على عكس ما زعم نابليون ــ فانه كان يكره ولا ريب أن يمضى فى المفاوضة دون اذن من حكومته ، بعد علمه بتقلد بونابرت زمام السلطة • ونتيجة ذلك أنه شعر بأنه مضطر أن يوطن النفس على المكث بمصر فترة أطول مما نوى • وأمر بتشييد تحصينات محكمة ، وبسط ادارة المالية والتموين (منعا للتبديد قبل كل شىء) • ونظم ديوان القاهرة من جديد • وأعاد عدة شيوخ الى مناصبهم (وأهمهم الشيخ البكرى الذى كاد يفتك به الثوار) ولكنه أمر بفرض غرامات باهظة على آخرين منهم • واذ كان كليبر قد امتنع عن توقيع العقوبات البدنية على الأهالى انتقاما منهم لأنه وعد بالعفو عنهم ، فانه انتهز الثورة فرصة لتزويد خزانة الجيش الخاوية بالمال بوسائل غاية فى الوحشية • فلما قرر الشيخ السادات مثلا أنه عاجز عن دفع الغرامة المفروضة عليه ، أمر كليبر بحبسه فى القلعة الى أن تشفع مراد بك للعفو عن هذا الشيخ الجليل • ويمكن أن يوصف حكم كليبر ، الذى لم يقدر له البقاء طويلا ، بأنه ارهاب مالى • ولم يحل آخر شهر مايو حتى كان الجيش ــ فى بداية الجاويش فرانسوا ــ قد تسلم رواتب عشرة أشهر متأخرة • فكليبر كان مصمما على أن « يعصر مصر كما يعصر الشربتلى الليمونة » على حد قوله لا راغبا فى انشاء مستعمرة دائمة فى مصر ، وذلك وفاء بالتزاماته قبل الجيش حتى يأتى يوم الجلاء السعيد •

٥

فى ٣ مارس ١٨٠٠ غادر الجنرال ديزيه الاسكندرية ، مزودا بجواز سفر وقعه الصدر الأعظم والكومودور سدنى سمث ، على ظهر سفينة تجارية راجوزية أطلق عليها صاحبها هذه التسمية الموجزة المفيدة « بيت نعمة القديس أنطونيوس البادوى » • وتبعه الجنرال جونو على السفينة « ايتوال » • وفي أواخر مارس لاح الشاطىء الفرنسي للسفينتين ، واذا فرقاطة انجليزية توقفهما ورجالها يصعدون اليهما • وقرر قائد الفرقاطة أن جوازى ديزيه وجونو غير قانونيين لأنهما لا يحملان توقيع اللورد كيت ، ثم اقتاد السفينتين الى لجهورن • وهناك أمر اللورد كيت بحبس القائدين الفرنسيين فى أحد المستشفيات ، وكانت معاملته لهما غير كريمة ، ولو علم بها السر سدنى سمث الشهم لصعق • وأخيرا اضطر اللورد كيت فى ٢٩ ابريل لاخلاء سبيلهما ، بعد أن تلقى أوامر بذلك من لندن • فاستأنفا رحلتهما على سفينتهما ، ومرة أخرى لاح شاطىء فرنسا لديزيه ، ومرة أخرى أوقفت سفينته ــ ولكن الذى اعترضها هذه المرة وصعد اليها هم القراصنة التونسيون • على أن القراصنة أبدوا من الاحترام لتوقيع الصدر الأعظم ما لم يبده اللورد كيت • فسمحوا لديزيه بمواصلة رحلته بعد أن قدموا له آيات التقدير الكثيرة ، فوصل الى طولون فى ٥ مايو •

وما ان نزل الى البر حتى كتب فى نفس اليوم الى الجنرال بونابرت ، القنصل الأول للجمهورية • قال هذا المحارب الذى لا يعرف الكلل : « أجل أيها الجنرال ، ان بى شوقا شديدا الى القتال ــ والى قتال الانجليز قبل غيرهم • فقد نذرت لهم كرهى الأبدى • ولن تبرح ذهنى وقاحتهم والمعاملة السيئة التى لقيتها على يدهم • وأيا كانت الرتبة التى تعيننى فيها فأنا راض بها •• وسأقاتل بنفس السرور ، سواء كنت جنديا متطوعا أو قائدا ••• وكل يوم لا يستغل فى هذا هو يوم ضائع » (٨٠) •

ويرى أحدث كتاب سيرة ديزيه فى هذه السطور « انكارا للذات ، وتنزها عن الغرض ، وتفانيا فى الواجب ، وتعلقا بالقتال » (٨١) • وربما كان الأمر كذلك ، على أننا نشير بتواضع الى أننا قد نرى فيها أيضا شهوة الانتقام ، وشوقا غير كريم للتذرع بالحماسة الوطنية فى ازالة أى شعور بالحقد قد يحمله القنصل الأول لواحد من موقعي اتفاق العريش •

وتسلم القنصل الأول هذا الخطاب فى ١٤ مايو بلوزان على بحيرة جنيف • وكان على وشك قيادة جيشه عبر ممر سان برنار الكبير ليلتقى بالقوات النمساوية فى سهول ايطاليا • وبعد أن وبخ بونابرت فى جوابه ديزيه على الدور الذى قام به فى التسليم ، زعم هذا الزعم المدهش ، وهو أنه كان مزمعا ارسال ست وثلاثين سفينة تحمل المؤن والمدد الى مصر ، ولكن نبأ اتفاق العريش حمله على

الغاء سفر القافلة • أما الواقع فان كل ما فعله هو التفكير العابر فى ارسال أسطول صغير الى البحر المتوسط ، أولا لنجدة مالطة — وهو مشروع لم يخرج قط الى حيز الوجود نظرا لاستحالة تنفيذه • وقال بونابرت لديزيه انه مهما يكن من الأمر فان ما فات مات ، ثم أضاف يقول : « تعال والحق بى بأسرع ما تستطيع أينما وجدتنى » (٨٢) •

ولم يضيع ديزيه وقتا • فبارح طولون فى ٥ يونيو بعد أن مكث بالحجر الصحى شهرا ، يصحبه مملوكه اسماعيل وغلامه الأسود باقل ، وبعد خمسة أيام لحق ببونابرت فى مقر قيادته بمونتبيلو • وبعد حديث خاص طويل ، لم يذكر خلاله كليبر بخير كثير دون شك ، عين بونابرت ديزيه قائدا على سلاح من فرقتين • وكان من المتوقع نشوب معركة فاصلة فى الأيام القليلة التالية • وقد نشبت فى ١٤ يونيو ، وكانت فاصلة حقيقة ، لبونابرت وديزيه جميعا •

***

فى يناير ١٨٠٠ ذهب للحج الى القدس عربى مسلم من سكان حلب اسمه سليمان يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاما ، وصناعته « كاتب عربى » • ولا بد أنه كان شابا تقيا ورعا — ان صدقت شهادته فى محاكمته بعد نصف عام — لأنه زعم أنه قضى بمكة ثلاث سنين • وفى ابريل ذهب الى أحمد أغا ، وهو ضابط تركى كان يومها بالقدس ، يشكو اليه من ضرائب باهظة فرضت على أبيه ، وهو تاجر مسلى • وبعد حديث مع سليمان ، وعده الأغا بأن يذكر أباه بكلمة خير عند ابراهيم باشا والى حلب لقاء خدمة صغيرة ، وكان الطلب خطيرا ، وهو أن يقتل سليمان القائد الأعلى للجيش الفرنسى فى مصر • ولم يوافق سليمان الا بعد مقابلتين أخريين • وأوصى أحمد أغا به ضابطا آخر اسمه ياسين أغا فى غزة ليعطيه بعض المال • ومن تلك اللحظة — كما قال سليمان فيما بعد — خيل اليه أنه فقد رشده •

وصل سليمان الى القاهرة حوالى منتصف مايو ، وأقام طوال الشهر التالى فى الجامع الأزهر — كما كان يقيم كثير من المجاورين والطلاب — يحاول الاشتغال كاتبا عموميا ويقرأ القرآن على أحد الفقهاء • ومنذ وصوله تقريبا ائتمن على سره ثلاثة من الأزهريين الشبان ، وكلهم من مواطنيه • وأخبرهم فيما روى أحدهم فى شهادته بعد ذلك أنه « كان مراده يغازى فى سبيل الله ، وأن هذه المغازاة هى قتل واحد نصرانى » (٨٣) وزعم ثلاثتهم أنهم حاولوا أن يثنوه عن عزمه ، اذ خامرهم الشك فى أنه الرجل الصالح للقيام بهذا العمل المشكور • على أنهم لم ينبهوا رجال السلطة ، وظلوا كل يوم فى نقاش وجدال حول هذا الفعل المبيت •

على أن تشكك الشيوخ ـ ان صح ـ كان فى غير موضعه • حقيقـة لقد اقتضى سليمان شهر كامل أن يجد الشجاعة والفرصة المناسبـة للقيام بعمله فى سبيل الله ، ولكنه كان رجلا يتحكم فيه قدره • كذلك شاء القدر أن يلقى كليبر وديزيه حتفهما فى نفس الوقت تقريبا ، وان بعدت الشقة بينهما مسافة ١٫٥٠٠ ميل • واندفع ديزيه الى موعده مع الموت كما يندفع عاشق قلق ذاهب الصبر • أما كليبر ففعل قصارى ما يستطيع ليتجنبه : ولولا تنكر الادارة الانجليزية لاتفاق العريش لكان فى طريقه الى فرنسا بدلا من أن يتعقبه قاتله كظله •

أما بونابرت فقد بدا أن القدر ـ أو المـوت ـ يلحظه بعين رعايته • فاله الحرب واله الحظ ـ كما زعم ـ يسيران الى جانبه • وكان ديزيه موشكا أن يدفع ثمن انتصاراته القادمة ، وكليبر انتصاراته الماضية •

الفصـــل الحادى عشر

أباطيل الموت

١

فى شهر يونيو ١٨٠٠ سلطت كل العيون على الأحداث الحربية الوشيكة الوقوع على سهول بيدمونت : فلو أن بونابرت خسر المعركة لأصبح سقوطه أمرا لا مناص منه · وكـان زعماء المعـارضة فى باريس ، من الملكيين الى اليعاقبة ، يترقبون أول هزيمة له ليتخلصوا منه · وفى كوبيه كانت مدام دوستال تستقبل كل ساعة رسلا قادمين من جنيف لشدة شوقها لأول نبأ سيىء ·

وفى الساعة الثالثة من بعد ظهر ١٤يونيو ،بعث الفيلد مارشال ميلاس قائد الجيش النمساوى رسالة تعلن انتصاره ، فقد هزم بونابرت قرب قرية مارنجو · وانتصر ميلاس بخطة بسيطة ، هى قضاؤه خمسة أيام لا يصنع شيئا على الاطلاق : وكان بونابرت ، الذى حيره تحديد مكان ميلاس ، قد قسم جيشه ، وأرسل فرقة فى مختلف الجهات بحثا عنه · وفى صباح ١٤ يونيو فاجأ ميلاس بونابرت ، بدلا من أن يفاجئه بونابرت ·

وفى الوقت الذى أرسل فيه ميلاس رسالة النصر هذه ، انضم الجنرال ديزيه بفرقته الى بونابرت بعد أن سار طوال اليوم بحثا عن النمســاويين الذين يروغون منه · وبدا أن الفرصة ضاعت ، وأن ديزيه وصل بعد فواتها ، وقال القنصل الأول « حسنا أيها الجنرال ديزيه ، لقد خضنا معركة حامية »· وأخرج ديزيه ساعته من جيبه وقال « انها الساعة الثالثة ، وقــد خسرنا المعركة ، ولكن الوقت يتسع لكسب معركة أخرى » (١) ·

وكان النمساويون والمجريون ، الذين ما زالوا على مرمى البصر، يسيرون وهم يغنون على عزف الموسيقى • ولم يمض نصف ساعة حتى حملت عليهم مشاة ديزيه عدوا وهم يصرخون فى وحشية ، بينما هاجمت خيالة الجنرال كاليرمان (الابن) جناح النمساويين • وقبل أن تغرب الشمس انقلب انتصار النمساويين هزيمة ساحقة • ولكن حين سأل بونابرت عن ديزيه ليعانق هذا المنقذ لم يعثر عليه • وتبين أن ياورا وجاويشا فقط هما اللذان لاحظاه ينزلق من فوق جواده فى بداية الهجوم •

وعثر على جثة ديزيه على ضوء المصابيح بين كومة من الجثث ، وأمكن التعرف عليها من شعره الأسود الطويل الذى كان لا يزال معقودا بشريط • ووجد قلبه ممزقا اربا برصاصة كبيرة • ويروى أن بونابرت قال حين شهد الجثة « لم حرمت حق البكاء ؟ » (٢) • أما باقل غلام ديزيه الأسود ، واسماعيل مملوكه الصغير ، فلم يشعرا بهذا الحرمان وهما ينوحان على سيدهما الميت •

ولم ينس نابليون قط دينه لديزيه ، واعترف به فى شهامة ، لأن ديزيه مات • فالقائد الذى كان موته فى الثانية والثلاثين من عمره الدعامة التى ارتكز عليها مجد نابليون جدير بأن تشيد له مقبرة ممتازة • وأعلن نابليون « اننى أريد أن أقدم لكل هذه الفضيلة والبطولة من الاكرام ما لم يلقه رجل آخر • وستكون جبال الألب قاعدة لمقبرة ديزيه • ورهبان سان برنار سدنتها » (٣) • وفى ١٤ يونيو دفن ديزيه باحتفال مهيب فى كنيسة دير سان برنار • وقام بخدمة الجناز الحربى رئيس الدير ، ورافقت طلقات البنادق تراتيل الرهبان • وأبن دينون وبرتييه ديزيه ، فقال برتييه « هاكم الرجل الذى وصفه « الشرق » ب « العادل » ، ولقبه وطنه ب « الباسل » ، وسماه قرنه ب « الحكيم » ، وكرمه نابليون بهذا الأثر » (٤) • ويصعب على المرء أن يتصور قمة تتوج هذه النعوت أسخف من هذه •

***

بدأ الجنرال كليبر يومه فى ١٤ يونيو باستعراض بعض الجنود فى جزيرة الروضة • وكان يقف فى الجمع الشاب سليمان الحلبى وقد خبأ مدية تحت جلبابه • وتبع سليمان الجنرال فى عودته للقاهرة الى بيت الجنرال داما، حيث دعا كليبر نفسه للغذاء • وكان جو الطعام مرحا ، وزاده كليبر مرحا برسمه صورة هزيلة لبونابرت يطرد رجال الادارة • أما سليمان فكان يتسكع أثناء ذلك حول بيت داما ، حتى أمر بالانصراف • وفى العصر غادر كليبر الحفلة وكانت مستمرة ، فقد كان على موعد مع المعمارى بروتان ، الذى كان يضع تصميما لبناء ملحق بقصر الألفى بك • وكان اليوم حارا ، وقرر الرجلان التمشى فى الحديقة • وكان كليبر يرتدى قميصه وسراويله فقط ، ولم يكن هناك حرس على مرأى منه •

وأذا عربى فى زى العمال يظهر على المشى ويسير صوب القائد • وظنه كليبر متسولا فأشار له بالانصراف ، بينما مضى بروتان صوب البيت ليدعو ديدبانا • وتقدم سليمان الحلبى ومد يسراه نحو كليبر كمن يريد أن يمسك بيد الجنرال ليرفعها الى فمه – وهى عادة تعودها أصحاب الحاجات • وناوله كليبر يده ، وفى لحظة انطلقت يمين سليمان المخفاة • وطعن بهـا كليبر فى صدره • وهنا كان بروتان يتلفت وراء كتفه ، فرأى القاتل يسحب مديته ، وبينما كـان كليبر يترنح أغمدها فى بطنه ، ثم فى ذراعه اليسرى وخـده الأيمن • وكان أول عمل قام به بروتان أن ألقى بنفسه أرضا • وسمع كليبر يجأر ثم يسقط • وهنا نهض بروتان وجرى نحو القاتل وضربه بعصاه فوق رأسه • وطعن القاتل بروتان بوحشية ست مرات ، وتركه فاقد الوعى تقريبا ، ثم لاذ بالفرار • وانقضت ست دقائق – حسب شهادة بروتان – قبل أن تصل أى نجدة • وما لبث كليبر أن قضى نحبه بعد قليل •

وانطلق من ميدان الأزبكية دوى طبل ينذر بالخطر • ولم تمض دقائق حتى كانت جميع الطبول فى القاهرة تدعو الجنود الى مراكزهم • وانتشر خبر مصرع كليبر بسرعـة البرق • ولجـأ الأهـالى الى بيوتهم محتمين بها خشيـة العاقبة ، بينما اندفع الجنود كالمجانين فى الشوارع يضربون كل من يقف فى طريقهم وقد اشتد بهم الغضب (وربما ظنوا قتل كليبر بداية ثورة جديدة)• ويقول الجاويش فرانسوا فى يومياته ، فى غير حياء كما هو واضح ، « اننا قتلنا بسيوفنا وخناجرنا جميع من صادفنا من الرجال والأطفال ، » (٥) • وانتهت الفوضى لحسن الحظ بمجرد القبض على القاتل • ذلك أنه فى هروبه لم يبعد كثيرا عن مشهد الجريمة • وأشارت عليه للجنود امرأة رأته من سطح بيت مجاور ، فوجدوه جاثما الى سور حديقة متهدم ، وقد أصـيب رأسـه برضـوض من ضربات بروتان ، ولوث الـدم اللزج ثيابه ، وكان يصـلى • ووجدت المدية بقربه وهى لا تزال ملوثة بالدم مغطاة بتراب قليل •

وقامت بالتحقيق الابتدائى لجنة يرأسها مينو ، الذى خلف بحكم أقدميته كليبر فى القيـادة العليـا للجيش • وأنكر سـليمان أول الأمر أى عـلاقة له بالجريمة رغم قوة القرائن • ومن ثم ، كما ورد فى نص الاجراءات ، « فلما أن كان المتهوم لم يصدق فى جواباته أمر سارى عسكر أنهم يضربونه حكم عوائد البلاد • فحالا انضرب لحد أنه طلب العفو ووعد أنه يقر بالصحيح فارتفع عنه الضرب » (٦) •

والاعتـرافات التى تنتزع بالتعـذيب تحتمل الشـك ، ولكنها ليست بالضرورة كاذبة • وسجل محاكمة سليمان لا يترك مجالا للشك فى ذنبه ، واعترافه – بما فيه الجزء الخاص بالضابطين التركيين اللذين كلفاه بهذه المهمة –

هو في أغلب الظن صحيح • أما المنطق الذى ألصقت به المحكمة الخاصة (المشكلة كلها من الفرنسيين) التبعة النهائية فى مقتل كليبر بالصدر الأعظم فمنطق زائف مفتعل لا أساس له فى اعتراف سليمان •

وينقل الشيخ الجبرتي فى تاريخه النص الكامل لمحاكمة سليمان • يقول : « وقد كنت أعرضت عن ذكرها لطولها وركاكة تركيبها لقصورهم فى اللغة ، ثم رأيت كثيرا من الناس تتشوق نفسه الى الاطلاع عليها لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة ، ولما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين » •

والذى أدهش الجبرتي هو أن تتاح لرجل ذنبه واضح محاكمة قانونية بدلا من أن يعدم فورا • ولكن الواقع أن الاجراء الذى اتخذ فى هذه الحالة كان يختلف اختلافا كبيرا عن الاجراءات الفرنسية العادية (لسبب واحد هو أن المتهمين لم يمثلهم محام) ، ولم يكن الغرض من المحاكمة انصاف المتهمين ، بل الكشف عن شركائهم فى الجريمة •

وحوكم غير سليمان أربعة آخرون ـ الأزهريون الثلاثة الذين أفضى اليهم بفكرته ، وشيخ من المقرئين اسمه مصطفى أفندى البرصلي الخطاط كان سليمان يقرأ عليه القرآن • وأثبت الفحص الدقيق والمواجهة أن الأزهريين الثلاثة كانوا شركاء فى الجريمة قبل ارتكابها ، لأنهم لم ينبهوا السلطات الى أن سليمان ينوى اقتراف جريمة • أما مصطفى أفندى فاتضحت براءته وأطلق سراحه • وحكم بقطع رءوس الشيوخ الثلاثة ، وأما سليمان فقد رأت المحكمة أن تطبق عليه عقوبة تسمح بها تقاليد الحكم فى البلاد ، ولكنها لا تتفق مع مبادىء الجمهورية الفرنسية المستنيرة •

وظلت طلقة مدفع تسمع من القلعة مرة كل ثلاث دقائق طوال أيام ثلاثة عقب موت كليبر • وفى ١٧ يونيو حمل نعش كليبر ، وعليه قبعته وسيفه وسكين قاتله ، الى مدفنه باحتفال عسكرى ضخم • وكان الجنرال مينو يتصدر موكب المشهد • ودقت الطبول دقا خافتا وجللت بالكريب الأسود ، وحمل الجنود بنادقهم منكسة ووضعوا أشرطة من الكريب الأسود على أكمامهم • ومشى خلف النعش الرصاصى وفد من فرسان المماليك يمثلون مراد بك ، وأعيان القاهرة مسلمين ومسيحيين • وتوقف المشهد وأنزل النعش على التل الذى كان سليمان وشركاؤه ينتظرون اعدامهم فوقه • وانطلقت المدافع تعلن بداية هذا الشطر من الاحتفال •

ولابد أن هذا اليوم كان أروع يوم فى حياة الرومى برطلمين • فقد بدأ بقطع رءوس الشيوخ الثلاثة ، وكان الفحم أثناء ذلك يحمى فى مجمرة • ولم يشك سليمان ويده تشوى على الجمر ، ولكن حين انزلقت جمرة الى مرفقه ،

نبه برطلمين الى أن الحكم عليه لم يذكر المرفق ، بل اليد فقط . ورأى برطلمين في هذا مماحكة من سليمان . وقال سليمان ان برطلمين نصراني كلب ، وأصر على خقوقه حتى أزيحت عن مرفقه الجمرة . وقد سجل الجاويش فرانسوا التفاصيل الجراحية لخوزقة سليمان بعد احراق يده ، وهو يزعم أنه راقبها على خمس خطوات : ويستطيع هواة هذه الأشياء الرهيبة أن يرجعوا اليها في يومياته . ومن الطريف أن نذكر أن جميع الحاضرين ، بما فيهم « المريض » ، كانوا فيما يبدو ينظرون الى هذا الاجراء الوحشي على أنه اجراء عادي لا غبار عليه . ولما أتم برطلمين القسم التمهيدي من العملية ، رفع الخازوق قائما وعليه سليمان ثم غرس في الأرض . ورجا سليمان جنديا فرنسيا واقفا بقربه أن يعطيه شربة ماء . وكان على وشك أن يناوله زمزميته لولا أن منعه برطلمين : فان أقل شربة من الماء كفيلة بقتله فورا ، فيتعطل بذلك مجرى العدالة .

واستأنف المشهد سيره تاركا سليمان على خازوقه يصلي . وألقى فورييه على قبر كليبر خطابا طويلا لم يكن في عباراته الطنانة الجوفاء ما يشرف الرياضي الكبير كثيرا . وبعد ساعات قضى سليمان نحبه . فماذا تراه قد حقق بقتله كليبر ؟ لقد قتل الرجل الذي لم يكن له رغبة سوى انهاء الاحتلال الفرنسي لمصر ، وأحل محله متهوسا استعماريا كان مصمما على احالة مصر الى قطعة من فرنسا . وبالطبع لم يكن سليمان يعرف هذا : فكل ما عرفه أنه « غازي في سبيل الله » وأن جزاءه الجنة . وفي هذا أبدى من الثقة أكثر كثيرا مما أبداه كليبر ، الذي كتب قبل ذلك بشهور يقول : « ان أقل ما أخشاه هو المعركة ، وأشده هو اليوم التالي لها » (٨) .

٢

اذا كان كليبر جنديا لحما ودما ، فان خليفته جاك عبد الله مينو كان ذا مظهر يوحي بأنه صاحب حانة ريفية ، أو رئيس « الجرسونات » فيها ، لحما ودما . ولا ينقص الصورة التي رسمها له دوتيرتر في مصر سوى الفوطة و « المريلة » . ومن العسير أن نتصوره يقود جيشا ــ بشعره الناحل الذي وخطه الشيب ، وقسماته العادية ، وبطنه المستكرش ، ووقفته غير العسكرية ــ ولكننا نستطيع بسهولة أن نتصوره ينحني لزبائنه ويستبد بمرءوسيه . وهذا التصور يصدق تماما ، صدق معظم الأحكام التي نصدرها على خلق انسان استنادا الى الفراسة ، لولا تفصيل صغير واحد ، هو أن مينو ، الذي ولد في بيت عريق في النبالة ، كان ابن مركيز .

وقد تحمس للثورة حين نشبت في سنة ١٧٨٩ كما تحمس لها كثير من زملائه النبلاء . ومع أنه كان موضع شبهة واتهام بميوله الملكية أثناء حكم

الارهاب ، فقد نجا من العاصفة ، وقاتل الملكيين الثائرين فى الفندية ، وجرح ، وعين فى ١٧٩٤ قائدا على « الجيش الداخلى » . وقمع بصفته هذه حركات الشعب التى قام بها العمال فى مايو ١٧٩٤ ، ولكنه أحجم عن اتخاذ اجراءات مماثلة لقمع ثورة يمينية فى سبتمبر . ونتيجة لذلك فصل من وظيفته هذه وعين بونابرت بدله ، فأنقذ الموقف بحركته المشهورة . التى صوب فيها مدفعيته على الثوار . وظل مينو مطرودا حتى ابريل ١٧٩٨ ، حين عينه بونابرت قائد فرقة فى الحملة الفرنسية على مصر .

وكان مينو يومها فى الحادية والخمسين - لا يكبر كليبر بأكثر من ثلاث سنوات - ولكن لأمر ما يصفه جميع زملائه فى السلاح حين يرد ذكره فى يومياتهم بأنه شيخ ، وكذلك يفعل المؤرخون العرب ، كذلك يؤكد نابليون بوضوح فى تاريخه للحملة أن مينو كان فى الستين . أما سجل مينو الحربى فلا يتفرد بشىء بارز - اذا استثنيت جرحه فى الفندية وأثناء الاستيلاء على الاسكندرية ، وليست الاصابة بجرح بالضرورة دليلا على الكفاية الحربية . ومن المشكوك فيه أن بونابرت قصد فى أى وقت من الأوقات أن يقود مينو فعلا فرقة من الجيش ، على أى حال أتاح له جرح مينو فرصة نقل قيادة الفرقة الى فيال (ثم الى لان من بعده) وتنصيب مينو حاكما على رشيد . ومن يوليو ١٧٩٨ الى مارس ١٨٠١ لم يشترك مينو فى أى عمليات حربية سوى الغارات التأديبية .

وبدأت تبدو على سلوك مينو فى فبراير ١٧٩٩ علامات الشذوذ والغرابة . فقبل أن يبرح بونابرت مصر قاصدا سوريا عين مينو حاكما على القاهرة ، وطلب مينو ارجاء نقله بحجة أن الأسطول البريطانى يقذف الاسكندرية بالمدافع وبهذا يكون وجوده على الساحل ضروريا . وتولى ديجا حكم القاهرة مؤقتا ، ثم انتهى الأمر عند هذا . وبعد شهر أمر بونابرت مينو أن يلحق به فى سوريا ويتولى حكم فلسطين ، ولو أن قوقعا كان يزحف لوصل الى سوريا بأسرع من مينو ، الذى لم يصل فى الواقع حتى الى الحدود . ففى ٣ يونيو كان قد بلغ قطيا ، وهناك لقيه بونابرت فى عودته من سوريا . ولم يوبخه بونابرت . فقد جعل تطور الأحداث وجود مينو بفلسطين أمرا لا لزوم له على أية حال ، أضف الى ذلك أن الدوافع التى حملت القائد على المكث برشيد رغم خروجها على العرف كانت تتفق تمام الاتفاق مع خطط بونابرت الخاصة بمصر .

كان مينو على الدوام أشد القواد الفرنسيين فى مصر تحمسا لقضية الاستعمار والاندماج . وقد شاركه غيره هذه الحماسة ، ولكن أحدا لم يتصرف بمثل ما تصرف به مينو من تفاؤل حرفى ضيق . فبونابرت أعلن من قبل أنه مسلم بقلبه ولمح بأنه سيعتنق الاسلام ، أما مينو فقد اعتنقه فعلا . ومن العسير الحكم على دوافعه : أهى مجرد الزواج من بنت صاحب حمام فى رشيد ، أم هى

دوافع سياسية خالصة ، وعلى كلا الحالين لم يكن للاقتناع الدينى دخل يذكر في اعتناقه الاسلام ٠

وتتضارب الشهادات عن زبيدة عروس مينو ٠ فمن قائل انها شابة مغرية، وأن مفاتنها أيقظت شهوات مينو المكتهل حتى عبثت بعقله ٠ ومن قائل انه لم يرها قط قبل العرس ، ثم تبين أنها لم تكن على ما زين له من شباب وجمال وثراء ٠ أما مينو نفسه فقد أذاع على الملأ أنها سليلة أسرة من الأشراف ، لأن أباها وأمها منحدران من سلالة الرسول ٠ كتب لديجا يقول : « يجب أن أحيطك علما يا عزيزى الجنرال بأننى قد اتخذت لى زوجة ، وانى أعتقد أن هذا الاجراء يخدم الصالح العام » (٩) ٠ أما مارمون ، الذى أنبأه مينو بهذا « الاجراء » بنفس اللهجة ، فقد رد عليه مهنئا ، وأضاف ـ متخابثا فى أغلب الظن : « أنت محق في قولك ان زواجـك سيدهش الكثيرين ، أما أنا يا عزيزى الجنرال ، فاعتبره علامة على اخلاصك العظيم لمصالح الجيش الفرنسى » ٠ وبعد أسبوع كتب اليه مارمون يسأله فى صراحة : « انى تواق لأن أعرف هل مدام مينـو جميلة ، وهل فى نيتك فى القريب العاجل أن تتحفها برفيقات لها جريا على عادة أهل البلاد » ٠ وأجاب مينو « ياعزيزى الجنرال ، ان زوجتى ٠٠٠ طويلة القامة ، مبسوطة الجسم ، حسنة الصورة من جميع الوجوه ٠ فلها عينان رائعتان، ولون بشرتها هو اللون المصرى المألوف ، وشعرها طويل فاحم ٠ وهى لطيفة الطبع ، وقد وجدتها تتقبل كثيرا من العادات الفرنسية بنفور أقل مما توقعت٠٠٠ وأنا لم الح عليها بعد فى الخروج سافرة على الرجال ، فهذا يأتى شيئا فشيئا ٠٠ ولن أنتفع بما أباحه النبى من الزواج بأربع نساء خلاف السرارى : فان فى النساء المسلمات شهوة حارة عنيفة ، وفى زوجة واحدة أكثر من الكفاية لى » (١٠) ٠

وحصل مينو على اعفاء من الختان ، ولكنه فى سائر النواحى كان يمارس شعائر دينه الجديد فى تدقيق كثير ٠ فهو يدرس القرآن ، ويؤدى الصلاة فى المسجد كل جمعة ، ويصلى الصلوات الخمس فى تعبد ظاهر ٠ ومع ذلك فالجبرتى فى أغلب الظن محق حين يقول ان اسلام مينو ليس الا تظاهرا لأسباب سياسية ٠ وواضح من خطابات مينو أن عقائده الدينية ، ان كان له عقـائد ، لا تتجاوز « ربوبية » القرن الثامن عشر ، الغامضة المتسامحة ، التى نشأ عليها ٠

أما بونابرت فهنأ عبد الله مينو على تضحيته فى سبيل القضية الوطنية ، وهو يدرك أن عمله أضفى شيئا من المعقولية على وعد بونابرت بقرب تحول الجيش الفرنسى كله الى الاسلام ٠ ولا حاجة الى القول بأن هذه المباركة الرسمية للزواج لم توقف سيل التعليقات الشديد البذاءة فى الجيش ٠

فلما خلف كليبر بونابرت فى القيادة العليا لم يكن مناص من الصدام بينه وبين مينو ٠ اذ بينما كان كليبر يتخذ العدة للجلاء عن مصر ، كان مينو يحرر

المذكرات عن المستقبل الباهر الذي ينتظر مستعمرة فرنسية دائمة فى مصر ٠ وغاظ كليبر من مينو نصائحه المتعالية ، وجولاته الدعية الحمقاء فى السياسة الدولية والاقتصاد السياسى ، ولابد أن ردود كليبر المشوبة بالتهكم جرحت شعور مينو ٠ وبدأت تبدو على مينو فى هذا الوقت بوادر خفيفة من البرانويا (جنون العظمة) ٠ فقد خيل اليه ان اخلاصه لوطنه وللعقيدة الجمهورية موضع شك عند بعض الناس بسبب انتمائه الى أسرة من النبلاء لسوء حظه ٠ فراح يكتب الرسائل الكثيرة مدافعا عن عقيدته الجمهورية ، وكتب لبونابرت وبرنتييه يندد بسلوك كليبر الذى يتنافى مع الوطنية والشرف ٠ وكتب الى كليبر يرجوه أن يستخدمه جنديا بسيطا فى فرقة الرماة ٠ وأجاب كليبر فى شيء من الجفاء ، بأنه كان يعتقد أن مينو فى شغل عن الأعمال العسكرية بكتابة المذكرات عن تجارة المستعمرات ٠ أما هو ، أى كليبر ، فيهمه أن يجد السبل لدفع رواتب الجيش واطعام الجنود ، أكثر مما يهمه العلم بكميات القطن وقصب السكر والنيلة التى يمكن زرعها فى مصر ٠ ومع ذلك فسيعين مينو حاكما عسكريا على القاهرة ، بشرط ألا يشغل نفسه بالجدل والنقاش فى الاقتصاد السياسى ٠ ورفض مينو هذا العرض ، ولكنه فى أواخر مايو ١٨٠٠ وافق على قبول تعيينه حاكما على اقليمى بنى سويف والفيوم بمصر الوسطى ٠ وكان على وشك تقلد منصبه هذا حين ذعاه موت كليبر لتسلم زمام القيادة العليا ٠

ولو أن مينو كان قائدا موهوبا لعانى كثيرا من المعوقات بعد خلافته لكليبر الذى كان يتمتع بشعبية عظيمة : فقد كان الكل ينظرون اليه نظرتهم الى شخصية مضحكة ، ولم يكن يحظى بسمعة حربية ، ثم انه المدافع عن قضية بغيضة ، هى احتلال مصر احتلالا دائما ٠ أضف الى ذلك أن موهبته البارزة هى صنع الأعداء ٠ وسرعان ما تبين أنه يأبى أن يسخر منه الناس مهما استحق السخرية ٠ فما ان تقلد منصبه الجديد حتى تخيل نفسه يقوم بدور المطهر ، وكأنه هرقول يطهر مرابط الخيل الأوجية ٠ ورأى فى ادارة كليبر مزيجا مؤذيا من البلادة والتخاذل والفساد ، أما هو فسيعيد النظام الى نصابه ، ويعاقب اللصوص (وهم فى رأيه يشملون الأقباط جميعا عدا المعلم يعقوب ، وكل ادارة الجيش تقريبا عدا كبير الصيارفة استيف) ، ويبطش بجيوش الأعداء كلها مهما كثر عددها ، ويحول مصر الى اقليم رخى من أقاليم فرنسا ٠ ولكى ينفذ مينو هذا المشروع الطموح رأى من حسن السياسة أن يبدأ بتشويه سمعة سلفه ، وبغمز جميع من تمتعوا بثقة كليبر غمزا مهينا ٠ أما الذين تجاسروا على الدفاع عن أنفسهم او الجهر برأيهم الطيب فى زميل لهم ، فكان مينو يوجه اليهم الرسائل المستفيضة التى ينكر فيها أى عداء شخصى : فهم لا يعرفون أى نوع من الرجال هو ، ولو عرفوه خيرا مما عرفوا ، لأدركوا أنه لا يهتدى الا بمبادىء الشرف والنزاهة والوطنية والواجب ، تلك المبادىء التى نشأ عليها منذ طفولته ٠ وهذه الشهوة لتبرير نفسه تجعله يبدو شخصية ينقصها الاتزان العقلى والعاطفى ٠

ومع أن عبد الله مينو كان يستجدى استحسان مرءوسيه استجداء لا يليق بقائد أعلى ، فانه لم يكن يتسامح مع معارضيه · وكان اختصامه أمرا محفوفا بالخطر · فقد طـرد الجنرال داما (رئيس أركان حـرب كليبر) وبوسييلج ، وتاليان ، ورئيس مندوبى الجيش دور ، كما طرد غيرهم من وظائفهم وأعادهم الى فرنسا ، وبذلك قضى على مستقبلهم ، بل ان تاليان (الذى أحسن غير مرة الى مينو خلال حكم الارهاب) قبض عليه بأمر بونابرت بعد نزوله الى البر · وبمضى الزمن لم يلتف حول مينو سوى الامعات ، وتبين أنه واهم كل الوهم فى اعتقاده بأنه أعاد الوحدة والروح المعنوية فى قيادته ، بمجرد أن اصطدمت ادارته بأزمتها الأولى والأخيرة ·

لم يمض على اضطلاع مينو بالأمر فى مصر طويل وقت حتى تبين تحسنا باهرا طرأ على الأحوال منذ أيام كليبر · فلم يفوت فرصة لا ينوه فيها بنجاح سياساته فى خطاباته وأوامره اليومية · أما التحسن فحقيقى لا ريب فيه ، وما من شك فى أن بعض الفضل فيه راجع لاجراءاته الادارية ، ومنها ما هو سليم جدا · على أن أكثر الفضل فى نجاح مينو راجع لسلفه · فقد تمتعت مصر بفضل انتصار كليبر فى عين شمس بسلام دام تسعة شهور ، وبفضل تحالف كليبر مع مراد كان الفرنسيون يتسلمون من الصعيد ضريبة ثابتة ، دون أن يضطروا الى ادارته ، وبفضل هذا التحالف وما يتمتع به مراد من سمعة وهيبة توقفت الثورات فى القاهرة والوجه البحرى · ومع ذلك أبى مينو فى عماه أن يتبين الأسباب الحقيقية لهذا السلام والرخاء الفجائيين · فكان فى كل فرصة يعرب عن أسـفه على معاهدة كليبر مع مراد ، تلك المعـاهدة التى لم يتظاهر باحترامها الا لأنه لم يستطع الرجوع فى كلمة كليبر ، وبلغ به الأمر أنه منع اقامة نصب تذكارى لكليبر · وكان هذا منه أسوأ من الجحود : لأنه اذ نسب لنفسه كل الفضل انبت ما بينه وبين الواقع السياسى ، وسار نحو الكارثة سيرا محققا وان كان بطيئا · والذين يحسبون حظهم الحسن كفاية وجدارة فيهم لابد أن ينتهوا الى البوار ·

قبل أن يقتل كليبر بأقل من أسبوع كتب السر سدنى سمث ــ الذى تلقى تعليمات جديدة من حكومته ــ للقائد الأعلى الفرنسى يقترح المفاوضة لعقد معاهدة جديدة على أساس اتفاق العريش نفسه · ورفض مينو هذا العرض فورا ، بل انه لمح تلميحا غريبا ، مؤداه أن سمث ربما كانت له يد فى مقتل كليبر · وكان يكفى أن يرد بأن الشروط التى كانت مقبولة قبل معركة عين شمس ، لم تعد صالحة بعد هذا الانتصار ، ولكن ابقاء الباب مفتوحا للمفاوضة كان أبعد الأشياء عن قصد مينو · واذ مضت الشهور دون أن يقع شىء من الهجوم الانجليزى أو التركى المتوقع ، بلغت ثقة مينو فى نفسه حدودا جنونية · فكتب الى تاليران فى يناير ١٨٠١ يقول : « أما عن تملكنا مصر ففى وسع الجمهورية والقنصل

الأول أن يثقا بأنه ما من قوة على الأرض تستطيع أن تنتزع هذا الفتح من جيش الشرق • وسنقاتل كل جحافل آسيا اذا اقتضى الأمر ونهزمهم ••• بل انني أؤكد لك أننا لن نفاوض الا برصاص البنادق وقنابل المدافع » (١١) •

واذ كانت أماني مينو عقائد ثابتة ، فقد اعتبر مصر قطعة من فرنسا ، وأعلنها كذلك رسميا ، وراح يغير ملامح البلاد ليصوغها على صورة فرنسا • فأمر بهدم أحياء كاملة في القاهرة لتتسع لانشاء شوارع فسيحة ، وانتزع جباية الضرائب من يد الأقباط وفرض ضريبة واحدة على الأرض ، وألغى الرسوم الاقطاعية ، وغير قوانين المواريث الاسلامية ، وألغى القانون الجنائي الاسلامي وأنشأ محاكم جنائية تحت ادارة الفرنسيين ، وأمر بقيد المواليد والوفيات اجباريا ، وأنشأ أول جريدة تطبع بالعربية • وكل هذه اصلاحات محمودة ، ولكنه كان يفتقر الى الوسيلتين الوحيدتين اللتين لا يمكن بدونهما أن تصبح هذه الاصلاحات فعالة — ونعني بهما القوة والاقناع • ورأى الأهالي ، الذين وجهت هذه الاجراءات لنفعهم ، انها ليست سوى محاولات يقترفها مسلم كاذب لاقتلاع جميع نظمهم وتقاليدهم ، ولم يكن من نتيجة للمقدمات الفلسفية اللاهوتية المهوشة التي أتعب مينو بها نفسه ليمهد للمراسيم التي أصدرها سوى زيادة حيرة الجميع وبلبلة أفكارهم • ولو ظن مينو أن اسلامه سيجعل اصلاحاته المتهورة المرتجلة أكثر قبولا عند الشعب لكان مخدوعا • فقد اعتبره المسلمون دجالا ، وأدركوا بغريزة صادقة أن كل ما يريده هو جعل مصر اقليما فرنسا — وهي رغبة لم يشاطروه فيها • ويقول الجبرتي ، الذي أصبح عضوا في الديوان في عهد مينو ، ان المسلمين ساءت أحوالهم عنها في عهد سلفيه غير المسلمين « واحتجب ساري عسكر عن الناس وامتنع عن مقابلة المسلمين وكذلك عظماء الجنرالات ، وانحرفت طباعهم عن المسلمين زيادة عن أول ، واستوحشوا منهم ، ونزل بالرعية الذل والهوان وتطاولت عليهم الفرنساوية وأعوانهم وأنصارهم من نصارى البلد الأقباط والشوام والأروام بالاهانة » (١٢) •

وما دامت هيبة مراد بك تقف عائقا دون الثورة ، وما دام نظام جيشه وروحه المعنوية وكفاية مينو الحربية — ما دامت كلها في مأمن من امتحان غاز ، وما دام الزمن لم يفضح بعد خرق اصلاحاته التام ، فقد كان في وسع مينو — النبيل السابق ، والمسيحي السابق ، والخادم الأمين الحالي لاله المسلمين ولجمهورية بونابرت — أن يهجر الواقع الى عالم من الأحلام الجميلة • فرخاء مصر الفرنسية في المستقبل ، وقناة السويس ، ومزارع القطن والنيلة المزدهرة ، والتجارة الرابحة مع أواسط أفريقيا في العبيد السود والعاج والتبر والتوابل ، والاخوة بين الفلاحين الكادحين في سعادة والمستعمرين الفرنسيين المستغلين في سماحة — هذه كلها بدت في عينه حقائق واقعة ، والتشكك فيها خيانة ان جاء من فرنسي ، وكفرا ان جاء من مسلم • كتب الى الديوان ناصحا منبها : « اعلموا

أن أرض مصر استقر ملكها للفرنساوية ، فلازم من اعتقادكم ذلك ، وأركزوه في أذهانكم كما تعتقدون وحدانية الله تعالى » (١٣) · وبعد كتابة هذا بأسابيع قليلة ضاعت مصر من يده ·

٣

لم تبد من بونابرت بادرة تدلنا على تذكره الجيش الذي خلفه وراءه في مصر الا بعد معركة مارنجو بأسبوع – أي بعد رحيله عن مصر بعشرة شهور · صحيح انه لم يضيع وقته سدى في هذه الشهور العشرة : فقد جعل من نفسه سيدا على فرنسا ، وأعطاها دستورا جديدا ، ونشر السلام في ربوع فندية الثائرة ، وثبت الفرنك ، وأرسى أساس قانون مدني جديد ، وظفر بنصر مؤزر · فلما أتم هذا كله ، استطاع أن يفرغ لمشكلات أقل الحاحا ، ومنها مشكلة مصر · ولكن حتى هنا ، وطوال النصف الثاني من عام ١٨٠٠ ، لم تكن المعونة التي أرسلها لجيش الشرق تتناسب مع العهود التي قطعها على نفسه · انما هي بضع سفن بريد تحمل الرسائل ، والصحف ، والكتب ، والدواء ، والخمور ، والحبوب ، والذخيرة ، وحفنة من الاخصائيين ، لا سيما الجراحين ومهرة الصناع – هذا كل ما أرسله · ومع ذلك فهو أكثر كثيرا مما صنعته له حكومة الادارة · ثم طرأ على سياسته المصرية في ينـاير ١٨٠١ تغير ملحوظ · فأرسل عدة فرقاطات الى الاسكندرية تحمل قرابة ألف جندي ، وفي ٢٣ يناير أقلع الأميرال جانتوم من برست بأسطول يضم سبع بوارج ، مهمته نقل نحو ٥٫٠٠٠ رجل الى مصر ·

وأوضح سبب من الأسباب الكثيرة التي دعت لهذا التغير في السياسة هو التحسن الباهر الذي طرأ على مركز فرنسا الحربي والسياسي في الشهور القليلة الماضية · فقد أكرهت مملكة الصقليتين على الخروج من الحرب ، وفتحت موانيها للسفن الفرنسية وأغلقت في وجه السفن الانجليزية · وأوقع الجنرال مورو هزيمة ساحقة جديدة بالنمسا عند هوهنلندن ، واضطرت النمسا لعقد الصلح · وأمكن استمالة أسبانيا لتوثق عرى حلفها مع فرنسا وتتنازل لها عن لويزيانا ونصف سانتودومنجو الذي تملكه · وأهم من هذا كله أن قيصر الروسيا بول ، وهو رجل غريب الأطوار ان لم يكن مجنونا ، غير موقفه في الحرب ، وتحول الى الاعجاب الشديد المتعصب ببونابرت · وكان في هذه المكاسب أكثر من عوض عن الخسارة الهامة الوحيـدة التي منيت بها فرنسـا ، ألا وهي تسليم مالطة للانجليز في ٥ سبتمبر ١٨٠٠ ·

ولم يبق في الميدان من الدول الكبرى سوى دولتين – انجلترا وتركيا · وكان بونابرت قد وجه في ٢٥ يناير ١٨٠٠ خطابا شخصيا الى الملك جورج

الثالث يعرض عليه الصلح · كذلك فتح باب المفاوضة من جديد مع تركيا وعرض عليها الجلاء عن مصر فى النهاية ــ وهذا فى الوقت الذى أعلن الجنرال مينو فيه مصر مستعمرة فرنسية دائمة ، وراح يضع الخطط بثقة فى المستقبل لا نظير لها منذ بنيت الأهرام · فلما ساد السلام ربوع أوروبا ، أتيح لبونابرت أن يرسل بضعة آلاف من جنوده لمسرح الحرب فى الشرق ، بعد أن أصبح من جديد مركزا للعمليات الحربية ·

وأدركت الحكومة الانجليزية ، فى وضوح لا يقل عن وضوح ادراك بونابرت ، أن شروط الصلح بين انجلترا وفرنسا رهن الى حد كبير بما يتمخض عنه امتحان قوتها فى شرقى البحر المتوسط من نتائج · ففى أكتوبر ١٨٠٠ أصدرت الوزارة الانجليزية تعليماتها للأميرال كيث للاستعداد لنقل حملة قوامها ١٧٫٠٠٠ رجل يقودهم الجنرال السر رالف أبر كرومبى الى مصر · ورتبت أن تنزل قوة أخرى ــ قوامها ٣٫٠٠٠ جندى من الهنود و ٢٫٠٠٠ جندى ينقلون من الكاب ــ بالقصير على الساحل المصرى للبحر الأحمر ، ويعزز نزول القوات البريطانية جيش تركي يقوده القبطان باشا وزير البحرية العثمانى · وقد وضعت هذه الخطط ــ على قوتها ــ بناء على تقدير ناقص جدا لقوة الفرنسيين فى مصر · ذلك أن الحكومة البريطانية ، التى ضللها من ناحية خطاب كليبر الى الادارة ، وضللتها دعايتها هى نفسها تضليلا أشد ، قدرت قوات مينو بما لا يزيد على ثلثى عددها الفعلى ، وغالت كثيرا فى تقدير كفاية الجيش التركى · هذا مع التسليم بأن حماقة الجنرال مينو ــ لحسن حظ انجلترا ــ أصلحت الخطأ الذى وقعت فيه التقديرات البريطانية ·

واحيط بونابرت علما بالخطط البريطانية ، ومن هنا العجلة فى الأوامر التى أصدرها لجانتوم · على أنه كان يضمر مشروعا آخر أضخم ، أعطى لمصر أهمية عظمى · ففى ١٦ ديسمبر ١٨٠٠ أبرم القيصر بول مع بروسيا والسويد والدنمرك حلف حياد مسلح ، هدفه بكل بساطة تحدى اعتراض بريطانيا للسفن المحايدة فى عرض البحار · وأسفر هذا عن حالة حرب فعلية بين بريطانيا والحلف ،انتهت بتدمير البحرية الدنمركية وضرب كوبنهاجن بالقنابل فى١٨٠١· وكان تأليف الحلف انتصارا دبلوماسيا لبونابرت · على أن القنصل الأول لم يقنع بهذا الانتصار ، فاقنع القيصر الطيع بأن يكيل للسيادة البريطانية لطمة أشد ، وذلك بالموافقة على القيام بهجوم مشترك على الممتلكات الانجليزية فى آسيا ·واستعدت الجيوش الروسية للزحف على الهند ، ولكن المشروع كله انهار بمقتل بول فى ٢٤ مارس ·

على أن حلم بونابرت الأسيوى الذى انتعش من جديد كان مآله حتما الى التبدد والزوال حتى ولو لم يقتل بول ، وذلك بسبب حقيقة واقعة لا تمت للأحلام بسبب ، هى احجام جانتوم ، وخرق مينو ، وسيادة بريطانيا البحرية ·

أما اعتقاد بونابرت بأن مصر ذات قيمة فى مفاوضات الصلح مع انجلترا (وكانت تجرى آنئذ فى الجناحين) فهو أيضا مستند الى وهم باطل : فما دام الفرنسيون يملكون مصر ، فلن تعقد انجلترا صلحا • فالذى اعتبره بونابرت شيئا قيما ، والذى أقسم مينو على الدفاع عنه الى آخر رجل من رجاله ، كان فى الحقيقة أهم عقبة فى طريق الصلح • وهذه القضية البسيطة التى أدرك كليبر كنهها قبل سنة أثبتتها أحداث صيف عام ١٨٠١ وخريفه بما لا يدع مجالا للشك • وقد أخفق بونابرت فى تبينها الى آخر حياته ، فحتى فى أيامه الأخيرة ، وهو يكتب تاريخ الحملة فى سانت هيلانة ، لم يفتأ يتكهن بما كان يحدث لو أن جانتوم وصل الى مصر ، ولو أن مينو أحسن الافادة من قواته ، وهكذا • وفى رأيه أن فرنسا كانت بذلك تحصل على شروط صلح أفضل • أما الحقيقة فهى أن فرنسا حين عقد الصلح فى ١٨٠٢ حصلت على أفضل ما تستطيع أن تحصل عليه من شروط ، وأنه لو أن مصر ظلت فى قبضة فرنسا لما كان هناك صلح على الاطلاق • لقد كان بونابرت يحكم على معظم الأشياء ومعظم الناس أحكاما ذكية ، الا الانجليز • ويشاركه فى هذا بالطبع كثيرون •

***

تجمعت قوات الحملة البريطانية على مصر بمالطة فى أواخر نوفمبر ١٨٠٠ ثم غادرتها بعد شهر — لا الى مصر ، بل الى خليج مارموريس الصغير على ساحل آسيا الصغرى المواجه لرودس • وكان السر رالف أبركرومبى ، على عكس بونابرت فى ١٧٩٨ ، رجلا ذا طريقة محددة ، يتميز بالحيطة والحذر • ففى منطقة الاستراحة بمارموريس استجم رجاله بعد رحلتهم الطويلة المضنية ، وأعطوا تدريبا دقيقا فى حركات النزول الى البر • وفى الوقت نفسه أرسل الميجر — جنرال السر جون مور الى يافا لينسق بين الحملة البريطانية وحركات الصدر الأعظم ، الذى لم شعث جيشه بعد هزيمة عين شمس الساحقة • وكان السر جون واجما حين عاد الى مارموريس فى ٢٠ يناير ، وقال فى تقريره ان طريقة تموين الصدر الأعظم غاية فى الفوضى وأن جيشه حشود لا نظام لها ، وأن الصدر الأعظم نفسه شيخ طاعن فى السن لا يعرف أبسط مبادىء الحرب • أضف الى ذلك أن ألف جندى تركى كانوا يموتون كل شهر بالطاعون • فلما سمع السر رالف هذا قرر أن يسقط من حسابه الصدر الأعظم ، وأن يعتمد أساسا على قواته هو وعلى جيش قبطان باشا الأفضل تنظيما ، وأن يركز هجومه على الاسكندرية • وفى ٢١ فبراير أقلع الأسطول الانجليزى من مارموريس •

وفى ٢٠ فبراير أصدر بونابرت منشورا لجيش الشرق ينذر رجاله بغزو قريب من الانجليز والأتراك • قال « ان كل رجل ينزل من سفينته يجب أن يقتل أو يؤسر • ويجب أن تصبح صحراء قطيا مقبرة للصدر الأعظم » (١٤) • وفى اليوم ذاته عاد الأميرال جانتوم الى طولون بعد أن رأى أن العبور الى

الاسكندرية محفوف بمخاطر لا يستطيع أن يتحمل تبعتها • واشتد حنق القنصل الأول ، فكتب الى جانتوم فى ٢٥ فبراير منبها « يجب أن توصل المعونة لجيش الشرق مهما كان الثمن » (١٥) • وشعر جانتوم أن هذا كلام يقال بأيسر مما ينفذ • ومع ذلك أقلع ثانية فى ١٩ مارس ، وصادف فى طريقه أسطول الأميرال وارن الذى دخل البحر المتوسط قبيل ذلك ، فهرب منه ، ثم عاد الى طولون ثانية • وبينما كان جانتوم يجس البحر المتوسط بابهام قدمه ، كما يقولون ، فيجده شديد البلل ، كتب بونابرت للقيصر بول فى تفاؤل يقول « يحاول الانجليز النزول الى بر مصر • ومن مصلحة جميع دول البحر المتوسط والبحر الأسود أن تظل مصر فرنسية • ان قناة السويس : • قد كشف عن مجراها القديم فعلا : وهذا مشروع سهل لن يحتاج تنفيذه الا لوقت قصير ، وسيجلب للتجارة الروسية منافع لا حصر لها » (١٦) • ومن العسير أن تحشد مجموعة كبيرة من التأكيدات ، المشكوك فيها — اذا توخيت الاعتدال فى وصفها — أوقع من هذه المجموعة ، ولكن لنذكر أن القنصل الأول كان يخاطب مجنونا • والذى حدث أنه حين وصل هذا الخطاب الى سانت بطرسبورج ، كان المجنون قد قتل رميا برصاص أصدقاء ابنه ، الذى لم يكن وقتها قد شارك بعد أباه فى تحمسه لبونابرت • كذلك كان جيش السير رالف ابركرومبى قد نزل فى أبى قير فى ٨ مارس •

وقد تم انزال الجنود بطريقة بارعة جريئة • كتب السر جون مور مسجلا هذا الحديث فى يوميته « أطلقت علينا النيران من خمس عشرة قطعة مدفعية بمجرد أن أصبحنا على مرماها ، أولا بالقنابل ، ثم بالرش ، وأخيرا من المشاة • ومضت الزوارق تجذف فى طريقها ، وكان البحارة والجنود يهللون ويهتفون بين الحين والحين • وقتل وجرح منهم عدد ، وأغرقت بعض الزوارق • وكانت نيران الرش والبنادق فى الحقيقة حامية جدا » (١٧) • وقد أثمر التدريب الذى تلقاه الجند فى ماموريس : فعلى الرغم من خسائر الانجليز الثقيلة — وهى تبلغ ٦٠٠ حسب تقدير مور — أقاموا جسرا ساحليا واقتحموا التلال الرملية الوعرة• وانسحب الفرنسيون الذين كان عددهم أقل من أن يسمح لهم بالمقاومة • وتقدم أبركرومبى الى الاسكندرية بعد أن وطد مركزه وأنزل مدفعيته ، تاركا خلفه قوة لتحاصر قلعة أبى قير ، وقد سلمت حاميتها البالغ عددها نحو ٢٠٠ رجل فى ٢٠ مارس •

ولقى الجزء الأكبر من الجيش الانجليزى مقاومة شديدة على أميال قليلة غربى أبى قير ، ولكنه أفلح فى زحزحة الفرنسيين من مكانهم بعد قتال عنيف نشب فى ١٣ مارس • وهنا ، وعلى مقربة من أطلال كانوب القديمة ، هاجمهم مينو بعد ذلك بأسبوع •

أنذر الجنرال مينو شهورا عديدة بأن البريطانيين يزمعون النزول ببر مصر قريبا. ومن العسير أن نعلل له تعزيز وحداته المرابطة على طول الساحل وبقربه. وأصعب من ذلك أن نفهم لم ظل أكثر من أسبوعين لا يفعل شيئا بعد أن تلقى نبأ وصول البريطانيين . فالواقع أن الأسطول الانجليزى لاح فى أفق أبى قير فى أول مارس ، ثم عطل سوء الجو نزول الجنود أسبوعا ، ولكن لا بد أن مينو أحيط بوصوله في ٣ مارس ، ولكنه لم يبرح القاهرة الا فى ١٢ مارس . ولم تكن السرعة من فضائل مينو البارزة ، ومع ذلك فحتى هذا البطء لم يكن مفضيا الى الكارثة ، لولا أن ضاعف من مغبته فرط ثقة مينو بنفسه .

أما أمثل سبيل كان مينو يستطيع أن ينتهجه فهو الزحف على أبى قير دون ابطاء بكل ما في متناوله من قوات (وهى أكثر كثيرا من قوات السر رالف ابركرومبى) ، وبعد أن يصد الانجليز يزحف شرقا فيقطع الطريق على الصدر الأعظم . ثم يستطيع بعد ذلك أن يعود الى القاهرة التى يحتفظ له بها مراد بك فى هذه الأثناء ، فيمزق الجيش الانجليزى الهندى الذى يقوده الجنرال بيرد . وحتى لو خانه مراد لكان فى استطاعته أن يسترد القاهرة كما استردها كليبر قبل عام ، وأهم شىء هو ضرب كل من القوات الغازية على التعاقب وبأعداد متفوقة ، مبتدئا بجيش أبركرومبى فى أبى قير . وهذا ما كان بونابرت أو كليبر صانعه ، ولكن مينو بدلا من ذلك ارتكب كل ما يمكن من أخطاء . فأتاح لأبركرومبى وقتا لتوطيد مركزه ، وترك ما يقرب من نصف قواته فى القاهرة بقيادة الجنرال بليار ، وازدرى بتعاون مراد بك . وفى ٢١ مارس – أى بعد ظهور الانجليز على الساحل بثلاثة أسابيع – اشتبك مينو معهم فى معركة قرب موقع مدينة كانوب القديمة بين أبى قير والاسكندرية . وكانت قوات السررالف تبلغ نحو ١٥٫٠٠٠ جندى صالح للقتال ، وقوات مينو نحو ١٢٫٠٠٠ . ومن المشكوك فيه أن خطة مينو للانتصار كانت أن يصل الى الميدان أبطأ ما يكون بأقل القوات . والأرجح أنه حسب الانجليز أتراكا وحسب نفسه بونابرتا ، والا فمن الصعب أن نتصور سببا لاختياره مهاجمة أبركرومبى فى الزمان والمكان اللذين هاجمه فيهما .

كانت معركة كانوب فادحة الخسائر للفريقين . فقد بلغت خسائر الفرنسيين حسب تقدير البكباشي ولسن ٤٠٠٠ قتيل وجريح وأسير ، ودفن الانجليز فى اليومين التاليين للمعركة ١٫٠٤٠ فرنسيا . وبلغت خسائر الانجليز على الأقل ٢٤٠ قتيلا و ١٢٥٠ جريحا ، ولكن يبدو أن ولسن قدرهـا دون حقيقتها . وقد دون السر جون مور هذه العبارة الموجزة المفيدة فى يوميته ، « لم أر ساحة قتال انتشر عليها الموتى بهذه الكثرة » . وجرح السر جون نفسه فى ساقه ، وكذلك القائد الانجليزى الأعلى السر رالف أبركرومبى ، الذى مالبث أن أصيب بهذيان الحمى ، وقضى نحبه بعد أسبوع .

أما فى الجانب الفرنسى فقد جرح جنرالان جراحا مميتة ـ وهما رواز ولانوس • وحين دنا مينو من فراش لانوس ـ فى رواية نقولا الترك ـ لم يبد الرجل المحتضر امتنانه لرعاية رئيسه واهتمامه • وكانت آخر كلماته التى وجهها لمينو تفيد أن مينو لا يصلح «مرمطونا» يقشر البصل فى مطبخ الجمهورية• ولا بد أن هذا الرجل الباسل قدأحس بعض الراحة وهو يموت وشفتاه تنطقان بهذه الحقيقة •

فلما خسر الجنرال مينو المعركة وثلث قواته ، صنع ما كان يجب أن يصنعه أول شيء : فتقهقر الى الاسكندرية • وكانت غلطته الكبرى ، كما وصفها اليكباشى ولسن الذى اشترك فى القتال وصفا مقنعا « حرصه على أن يكون هو المعتدى ••• لقد كانت رغبة فرنسا الاحتفاظ بمصر ، لا القتال للحصول على انتصارات تشترى بثمن فادح كثمن الهزيمة » (١٩) • ولو أن مينو انتظر الانجليز فى الاسكندرية بدلا من الهجوم عليهم لاضطر الجيش الانجليزى ـ فى رأى ولسن ـ الى التخلى عن مغامرته •

ولكن ما كان صوابا فى ٢٠ مارس أصبح خطأ فى ٢٢ مارس فما كان الواجب على مينو ، بعد أن خسر معركته ضد البريطانيين فى كانوب ، أن يحبس نفسه هو وقواته المتناقصة فى الاسكندرية ويتيح للعدو الوقت لمتابعة تفوقه • وبينما كان مينو يجهز أسباب دفاعه ويشتبك فى تبادل الاتهامات المرة مع مرءوسيه الذين أنحى عليهم باللائمة فى هزيمته ، أنزل قبطان باشا ٦ر٠٠٠ من الأنكشارية فى أبى قير (٢٥ مارس) واستولى الجنرال هتشنسن ، خلف السر رالف ، على رشيد بقوة انجليزية تركية (٢ أبريل) • وفى ١٣ أبريل قطع المهندسون الانجليز البرزخ الصغير الواقع بين بحيرة المعدية (التى جفت الآن ، ولكنها كانت يومها تصل الى البحر المتوسط) ، وقاع بحيرة مريوط جنوبى الاسكندرية ، وكان جفافه جزئيا • وقد عارض الجنرال هتشنسن هذه الفكرة طويلا لما تنطوى عليه من تدمير شديد للثروة ، ولكنه خضع فى النهاية للاعتبارات الحربية • وقطع البرزخ فى أربعة مواضع • يقول ولسن « وفى الساعة السابعة مساء أزيلت آخر حزمة فعمت البهجة الجنود • واندفعت المياه الى اليابس بانحدار ستة أقدام ، وفى ساعات قليلة أتت يد الانسان المدمرة على مفخرة مصر ، وموضع رعايتها ، ومدخرها فى أجيال طويلة •• وتدفقت كمية هائلة من الماء ظلت شهرا تدخل الأرض بقوة شديدة) (٢٠) • وعزلت المياه الاسكندرية عزلا تاما ، وسهلت مهمة القوة الانجليزية المحاصرة ، ومكنت عددا من السفن الانجليزية الصغيرة من دخول بحيرة مريوط •

فلما أمكن اعفاء جزء من القوات البريطانية بهذه الطريقة من مهمة الحصار ، زحفت قوة انجليزية تركية مشتركة ، يقودها الجنرال هتشنسن والقبطان باشا،

على ضفة النيل اليسرى ، وفي ٩ مارس أكرها قوة فرنسية يقودها الجنرال لاجرانج على التقهقر الى القاهرة بعد أن اشتبكا معها عند الرحمانية · وهكذا عزل جيش بليار في القاهرة (ويبلغ ١٢٫٠٠٠ رجل بعد انضمام لاجرانج اليه) عن جيش مينو بالاسكندرية · وفي هذا الوقت دخل الصدر الأعظم مصر من سوريا بجيش يبلغ ١٥٫٠٠٠ رجل ، واستولى على دمياط والصالحية وزحف على ضفة النيل اليمنى ·

واذ رأى بليار نفسه منقطع الصلة بالساحل ، ووجد جيشين يزحفان على القاهرة ، والطاعون يتفشى في مصر السفلى والوسطى ، نظر في امكان التخلي عن القاهرة والتقهقر الى الصعيد حيث ينضم الى مماليك مراد بك · ولكن هذه الخطة منع تنفيذها موت مراد بالطاعون وهو في طريقه الى القاهرة · أما خلف مراد ، وهو عثمان بك الطنبرجي ، فقد انضم للبريطانيين في ٢٨ مايو هو و ١٥٠٠ فارس من المماليك (بينهم عدد من الفرنسيين الهاربين من الجيش) (*) · وفي ١٩ يونيو كانت الجيوش المتحدة ، التي يقودها هتشنسن وقبطان باشا والصدر الأعظم ، والتي تعززها قوات المماليك والبدو ، تعسكر على مرمى المدافع قريبا من القاهرة على ضفتي النيل ، لأن البريطانيين أقاموا على النهر جسرا من القوارب ·

وظل الجنرال بليار يتخذ موقفا سلبيا بحتا طوال زحف الانجليز والأتراك والمناورات الممهدة لتطويق القاهرة والجيزة · ويبدو أن شغله الشاغل كان منع نشوب ثورة شعبية · ولهذا بعث فورييه لينذر المشايخ بأنه يتوقع من أهالي القاهرة مراعاة أدق الحياد في حالة نشوب القتال ، وطلب أن يمكث الكل في بيوتهم ويلزموا الهدوء ، فان فعلوا لم يصبهم أذى ، والا لم يكن مفر من « أن يعم البلاء المفسد وغيره » · واعترض المشايخ على منطق العالم الرياضي قائلين «كل نفس بما كسبت رهينة» ، «ولا تزر وازرة وزر أخرى» ، ولكن فورييه اختتم المناقشة بقوله « ان المدافع والبنبات لا عقل لها حتى تميز بين المفسد والمصلح فانها لا تقرأ القرآن » (٢١) · على أن الأمر لم ينته بنشوب قتال ولا بقيام ثورة · ففي ٢٢ يونيو وصل مبعوث من بليار الى المعسكر البريطاني · وبعد

(*) يبدو من اوراق السر سدني سمث ، ومن خطاب كتبه عثمان بك ونقل عنه السر روبرت ولسن ، أنه كان في نية مراد بك قبيل موته أن ينضم للانجليز اذا ضمنوا له أن الصدر الأعظم لن ينتقم منه · كتب عثمان الى سمث يقول « نحن على يقين من أن مراد بك كان شديد الخوف من الباب العالي ، وأنه وضع نفسه تحت حمايتكم · ولسنا أقل منه خوفا ، وأنت تعلم أنه ما من قوة في الأرض نضع فيها ثقة أتم مما نضعه في بلاط بريطانيا العظمى · وكلنا اخوان ، نثق اولا في الله العلي القدير ، ثم فيكم ، ونضع أنفسنا تحت حمايتكم ، ونريدكم أن تمكثوا مع أبنائنا وأسرنا في القاهرة بأمر الباب العالي وبضمان الانجليز » (ولسن ، تاريخ الحملة البريطانية على مصر ٢ ــ ٢٠١) · أما المصادر الفرنسية فتجمع على أن مرادا ظل وفيا للفرنسيين الى النهاية · فاذا كانت هذه نيته ، فان الجنرال مينو قد صعب عليه انفاذها ·

مفاوضات دامت خمسة أيام وقع بليار شروط تسليم القـاهرة دون أن تطلق رصاصة واحدة . والشروط في جوهرها هي شروط اتفاق العريش ، غير أن الوثيقة الجديدة شملت ضمانات بسلامة الأهالي المصريين الذين تعـاونوا مع الفرنسيين . ولم يتم الجلاء فعلا الا في ١٠ يوليو . وفي أثناء ذلك كان أهم مايشغل الجنود الفرنسيين تصفية ممتلكاتهم وبيعها نقدا ، بما في ذلك خليلاتهم .

وفي ٤ أو ٥ يوليو ــ أي بعد توقيع شروط التسليم بأسبوع ــ وصل الى الجنرال بليار أمر من الجنرال مينو يقول ان على الجنود الفرنسيين أن يهزموا العدو أو يموتوا . وعلق مالو على هذا الأمر في يوميته بهذه العبارة « ان هذا الأمر ما كان ليصدره غير رجل مجنون » (٢٢) . ولعـل الأمر كذلك ، ولكن قرار بليار أن يسلم دون مقاومة كان مع ذلك مثار الدهشة وان أقرته عليه أغلبية مجلس حرب عقد لهذا الغرض . وكان القرار مفاجأة تامة للقيـــادة الانجليزية . ذلك أن مركز القوات الانجليزية التركية لم يكن ممتازا كما بدا في الظاهر . فقد عطل الرمد والدزنتاريا عددا كبيرا من الانجليز ، الذين كانت تنقصهم أيضا مدفعية الحصار ، أما الأتراك فكان أكثرهم حشودا تفتقر الى النظام والتدريب . وكان من رأى معظم ضباط أركان الحرب البريطانيين أن الجنرال هتشنسن تهور بتغلغله في اليابس الى هذا الحد . وقد اعتبروا تسليم بليار نفحة غير متوقعة من نفحات الحظ .

صحيح ان بليار ، رغم جميع الحجج التي تذرع بها لتبرير عمله ، كان يستطيع بسهولة أن يقاوم طويلا ، ان لم يكن في القاهرة نفسها فعلى الأقل في القلعة وفي عدة حصون محيطة بالمدينة . ولكنه اذا كان قد سلم دون قتال فان هذا لم يكن جبنا منه ، فقد أثبت من قبل بسالته وهو يحارب في الصعيد تحت قيادة ديزيه . انما سلم لنفس الأسباب التي دعت كليبر للتسليم في العريش . فالتضحية بآلاف الأرواح في سبيل قضية خاسرة لم تبد له أمرا مشرفا ، بل جريمة . فقد كان ثلاثون أو أربعون فرنسيا يموتون بالطاعون في القلعة كل يوم فيما روى الجبرتي . وشح الماء ــ فاقتصر نصيب الجندي على كوب واحد في اليوم اذا صدقت « جازيت ذو ليد » في روايتها . فهل كان على بليار أن يطيل أمد الحصار في هذه الظروف ، لا لشيء الا ليتملق أحلام الجنرال مينـو الاستعمارية ، معللا نفسه عبثا بقرب وصول الأمداد من فرنسا ؟ لو أنه فعل ، لما كانت النتيجة غير موت عدة آلاف من الرجال يدخلون في عداد الأبطال ، وضياع مصر من فرنسا كما ضاعت فعلا . والحكم هنا ــ كما كان في حـالة كليبر ــ رهن كله بهذا السؤال : هل يعد المنطق في القائد خيانة ؟

وجلا الفرنسيون عن القاهرة بكل مظاهر الاحتفال الحربي ، حاملين كل سلاحهم وعتادهم وما استطاعوا نقله من ممتلكاتهم . وكان عددهم ــ باستثناء نسائهم وأطفالهم ــ ١٣٫٠٠٠ رجل منهم ١١٫١٦٨ جنود بريون صالحون للعمل ،

و ١٫٣٠٠ مرضى ، و ٣٤٤ بحارا ، و ٨٢ مدنيا ، يضاف الى هؤلاء ٧٦٠ من الأقباط والروم والمماليك الذين فضلوا أن يصحبوهم الى فرنسا • وتم الجلاء بغاية النظام دون أن يكدره حادث ، بفضل جهود جميع القواد المعنيين ـ فرنسيين وبريطانيين وأتراك • كتب مالو في يوميته يقول : « ان الانجليز يسلكون بغاية اللياقة • أما الترك فسئموا الأمر كله ويريدون انهاءه بأى ثمن » (٢٣) •

وكان من اللائق أن تقدم الدول المحاربة الثلاثة تحية الاحترام الخاصة لجثة الجنرال كليبر التى حملها الفرنسيون معهم • بينما كان الجنود الفرنسيون يقفون فى صفين يحيون التحية العسكرية عند مرور الجثة ، حيث المدفعية الانجليزية والتركية الموكب • « ان ما أشاع جو الوقار الحزين لم يكن دق الطبول الخافت ، ولا مراسم الاحتفال ، ولا ما خيم على العرض من سكون رهيب ، بل هذه الرجولة الصامتة ، الحزن الذى لا تكلف فيه ولا افتعال • لقد كان كل جندى يشعر والنعش يمر ، أن فى هذا النعش ترقد عظام رجل أحسن اليهم ، وكان أبا لهم » (٢٤) • وكاتب هذه الكلمات لم يكن فرنسيا ، بل ضابط انجليزى شهد المنظر ، وهو السر روبرت ولسن • ولكن لسوء الحظ ، كان الحافز الأكبر له على هذا الثناء على كليبر كرهه لبونابرت • ومع ذلك فما كان فى وسع انسان ذكى ، فرنسيا كان أو انجليزيا أو تركيا ، الا أن يفكر ، وجثمان كليبر يمر فى موكبه ، فى عدد رفاقه الذين كان يمكن أن تحقن دماؤهم لو أن رأى كليبر تغلب • والذنب فى فشله واقع بكل صراحة على عاتق الوزارة البريطانية •

وقبيل رحيل الفرنسيين عن القاهرة وجه رئيس الخزانة خطاب وداع للديوان • فوعد أعضاءه ، وهو يضيف كذبة جديدة الى الأكاذيب الكثيرة السابقة ، بأن الفرنسيين عائدون سريعا • ولم يكن رد الشيوخ كما نقله أحدهم ـ وهو الجبرتى ـ خلوا من العزة والكرامة • فقد قالوا له « ان الأمر لله ، والملك له ، وهو الذى يمكن منه من شاء » (٢٥) •

***

وجلا الفرنسيون عن الجيزة فى ١٥ يوليو • وكان الجنرال بيرد قد أنزل نحو ٥٫٠٠٠ جندى هندى وبريطانى فى القصير ، فوصلت طلائعه الى القاهرة ولم يكن لرحلتهم ضرورة ، ولكن بهاء ملابس الهنود العسكرية كان ذا وقع كبير فى نفوس الأهالى •

ولم يكن سير الجنود الفرنسيين من القاهرة الى رشيد ، حيث اتفق على أن يستقلوا الناقلات البريطانية الى فرنسا ، بالعملية اليسيرة • وكان يشرف عليها الجنرال السر جون مور ، لأن الجنرال هتشنسن أقعده المرض عن الاضطلاع بها • ووفق السر جون بكثير من اللباقة والحكمة فى الاحتفاظ بمسافة بين الفرنسيين وحرسهم البريطانيين والأتراك تكفى لمنعهم من الاصطدام • والواقع أنه لم يكن من المؤكد اطلاقا ، اذا وقع صدام ، أى الفريقين يخرج منه ظافرا ،

لان لدى الفرنسيين ١٠٫٠٠٠ من الجنود كاملى السلاح · وربما كان هذا الموقف فريدا فى تاريخ الحروب · على أن الفرنسيين لم يبدوا أقل ميل لقتال حراسهم ، واتفقت الروايات على أن حلم العودة الى الوطن بعد ثلاث سنوات شباقة أثلج صدور الفرنسيين ، فتآخوا مع البريطانيين فى جو من الغبطة والسعادة ·

وتم بين ٣١ يوليو و ٧ أغسطس ركوب جميع رجال بليار ــ بما فيهم أتباعهم ، بل وبعض الخيل أيضا ــ الناقلات فى رشيد ، فوصلوا فرنسا فى أكتوبر · ولم يحرم الدخول الى أرض القارة سوى رجل واحد ــ هو الجنرال كليبر ــ فقد نص أمر أصدره بونابرت فى ٩ أكتوبر على أن يحجز جثمانه مؤقتا فى قلعة السجن بجزيرة ايف ، المواجهة لرسيليا . وقد ترك هناك حتى سقوط نابليون ·

كان الصدر الأعظم يحاول فى القاهرة أثناء ذلك منع جنوده من أعمال السلب والنهب ، وهى المكافأة التى ظلوا يحلمون بها زمنا · واحترمت بصفة عامة مادة العفو فى معاهدة التسليم ، على الأقل فيما يتصل بالرجال ، أما فيما يتصل بالنساء فان حادث ابنة الشيخ البكرى ، التى قطع رأسها بموافقة أبيها لأنها جاوزت الحد فى حب الفرنسيين ، لم يكن الوحيد من نوعه · كذلك لم يعدم الجنود الترك الحيلة فى تفادى أمر الصدر الأعظم بتحريم أعمال السلب · ويقول البكباشى ولسن « هناك شبهة فى أن الجنود الأتراك ، الذين استغلوا فرادى ذعر الأهالى ، أقنعوا التجار بأنهم سيحمونهم ··· بشرط أن يعتبروهم شركاء فى تجارتهم ··· ولا شك فى أن وجود أنكشارى جالس على مدخل كل متجر يرحب بالزبائن ترحيبا حارا شاهد محتمل قوى ، ان لم يكن ايجابيا ، على أن ما أشيع حق » (٢٦) · ولا عجب ، فأيا كانت التغيرات التى طرأت على مصر فى الألفى السنة الماضية ، فلا ريب فى أن المصريين كانوا الغارمين دائما ·

***

/ أما مينو فقد قاوم فى الاسكندرية الى نهاية أغسطس · ومع أنه كان تحت تصرفه أكثر من ٧٫٠٠٠ جندى ، مقابل قوة حصار تبلغ ٤٫٠٠٠ يقودها الجنرال كوت ، فانه لم يبذل محاولة لمهاجمة العدو ، وقصر عملياته الحربية على العبارات البطولية ، والأعمال البوليسية الخاطفة ضد قواده · واشتد غضبه على الجنرال رينييه الذى يليه فى القيادة ، والذى اجترأ على نقد تصرفاته ففى مشهد من أعجب مشاهد الحملة نرى مينو فى حرس من الرماة يقبض بشخصه على رينييه بتهمة الخيانة / ويرحله بالقوة هو والجنرال داما ورئيس المندوبين دور ورئيس ادارة الجيش بوابييه وغيرهم الى فرنسا ليحاكموا · وكتب لبونابرت يقول « ان هؤلاء الرجال ليسوا أصدقاء لا للجمهورية ولا لحكومتها ولا للمستعمرة » (٢٧) · وقبل أن يرحل رينييه ، نفس عن غيظه

فى خطاب كتبه لمينو وأرسل صورته لأصدقائه فى القاهرة . قال « اننى شخصيا يسرنى أن أبعد عن منظر عملياتك الذى يثير الاشمئزاز ، وعن ضرورة الاتصال برجل أحتقره من كل قلبى . لقد أقمت نظاما شبيها بنظام (حكم الارهاب فى) ١٧٩٣ ... وهبطت بالجيش الى حالة يرثى لها بعنادك واضرارك الذى لا يصدق على ارتكاب كل حماقة يمكن أن تخطر بالبال » (٢٨) . ولا شك فى أن فى لغه رينييه من الشطط بقدر ما فى عمل مينو . على أن المعقول ، بغض النظر عن الخطأ والصواب فى الجانبين ، أن جيشا يمكن أن يقوم فيه هذا النقاش هو جيش مقضى عليه بالهزيمة (*) .

ولم يقنع مينو بما شنه من حرب على مرؤسيه ، فخلق نزاعا مع اللجنة العلمية التى طلب بعض أعضائها ترحيلهم الى فرنسا مع مجموعاتهم . وبدأ مينو بأن حظر عليهم أخذ مجموعاتهم معهم ، لأنها « وديعة مقدسة » . وبعد لأى سمح لهم بأن يستقلوا السفينة الصغيرة « وازو » التى أقلعت من الاسكندرية فى ١٥ يوليو . فلما رفض البريطانيون السماح لهم بالمرور حاولت دخول الميناء ثانية . ولكن مينو ، الذى أطار صوابه تسليم القاهرة ، أمر فرقاطتين من سفنه باطلاق النار على السفينة ان عادت . ففى رأيه أن هذه الوازو الصغيرة ، بما حملت من علماء ، كان يجب أن تدافع عن العلم الفرنسى باطلاق النار على البوارج البريطانية التى اعترضت طريقها وتقع فى أيدى البريطانيين ، خيرا من أن تعود دون قتال . ولكن موقفه كان أسخف من أن يثبت عليه طويلا ، فسمح للعلماء بالعودة .

وفكرة مينو عن الشرف تعكس حالة مرضية فى عقله . وقد كتب عن حادث الوازو خطاب اعتذار طويلا للأميرال كيث . وبعد أيام وجه خطابا استغرق خمس صفحات مطبوعة الى السر سدنى سمث ، وكله عن مسائل تتصل بالشرف فى رأى مينو ، أو قل مسائل تتصل بالغرور التافه اذا أخذنا بمقاييس معقولة أكثر من مقاييس مينو . وقبل ذلك بأيام كتب الى بونابرت وهو يرتجف سخطا لنبأ تسليم بليار فى القاهرة . وختم خطابه بقوله : « سأدافع عن نفسى الى آخر رمق داخل أسوار الاسكندرية . اننى لا أعرف كيف أستسلم ، بل كيف أموت » (٢٩) . وبعد سبعة أسابيع استسلم ، وظل حيا تسع سنوات أخر .

بعد هذا الوعد الذى قطعه مينو على نفسه بالموت دفاعا عن مصر بأسبوعين ، أى فى ٢٣ يوليو ، كتب بونابرت بايجاز فى مذكرة وجهها للورد هوكسبرى ممثل الحكومة الانجليزية فى المفاوضات يقول : «سترد مصر الى الباب العالى» (٣٠) .

(*) برأ بونابرت رينيه رغم اتهامات مينو .

كان هناك أمل واحد يبرر مقاومة مينو المستمرة فى الاسكندرية (غير فكرته عن الشرف) — وهو توقع وصول الأميرال جانتوم بالأمداد • والواقع أن بونابرت أمر الأميرال ، بعد عودته غير المشرفة للمرة الثانية الى طولون ، بأن يأخذ بوارجه السبعة و ٥٠٠٠ جندى الى درنة فى ليبيا ، ومنها يتخذون طريقهم لمصر برا عبر الصحراء • أما كيف تصور بونابرت أن هؤلاء الجنود يستطيعون ، بعد عذاب ثلاثة أشهر فى البحر ينفقونها مكدسين فى سفنهم ، أن يحققوا هـذه المعجزة من معجزات الجلد والاحتمال • فذلك من الأشياء المحيرة الكثيرة فى نابليون ، وأقلع جانتوم من طولون متأخرا بعض الشىء فى شهر مايو ، وبعد قليل اضطر الى رد ثلاث من سفنه ، لأن وباء تفشى فيها • ووصل باقى أسطوله الى درنة فى ٨ يونيو ، ولكن الموقف العدائى الذى اتخذته السلطات المحلية لم يجعل من الصواب النزول الى البر • وواصل جانتوم رحلته الى كريت ، واستولى على البارجة الانجليزية سويفتشور ، ثم عاد الى طولون فى ٢٢ يوليو قانعا بهذه الغنيمة • فاذا كان قربه القصير الأجل من مصر مبررا لآمال مينو فى قرب تلقيه المدد ، فان كلمة « كاد » لا تكفى ، ومن باب أولى ألا يعتمد الجنرال بليار على جانتوم •

وفى نفس اللحظة التى كان فيها أسطول جانتوم أمام الساحل الليبى على رحلة يوم من الاسكندرية ، ذلك الأسطول الذى ينتظره مينو على أحر من الجمر وتخشاه قوات الجنرال كوت الهزيلة ، اعترض الأميرال كيت مددا آخر قادما من فرنسا • وعرض الأميرال بكل سماحة أن يسمح بمرور الشحنة الى الاسكندرية ، لأنها لم تحتو على جنـد ولا ذخيرة ، بل على فريق من الممثلين والممثلات أرسلهم القنصل الأول ليرفع من معنوية جيش الشرق • ووصول هذا الفريق فى هـذه اللحظة الحرجة بدا كأنه المبرر الذى لا يدحض لمسلك الجنرال كليبر ، وان لم يجىء الا بعد موته • وشكر مينو اللورد كيت فى أدب على عرضه السماح للممثلين بالمرور ، ولكنه ذكر أن الوقت غير مناسب ، ورجاه (« لأنك ولا ريب صديق للفنون ») (٣١) أن يردهم لفرنسا •

وما انتصف أغسطس حتى انضمت القوات الانجليزية الرئيسية التى يقودها هتشنسن ومور الى حصار الاسكندرية ، بعد أن قادت جيش بليار الى رشيد • وسرعان ما دب النشاط فى عمليات الحصار التى كانت الى تلك اللحظة تسير فى شىء من التراخى • وجل تفاصيل الحصار ذات أهمية فنيـة فقط ، وأهم عملياته انزال جزء من الجنود البريطانيين فى حصن العجمى غربى الاسكندرية ، فتم بذلك تطويق المدينة ، على أن البريطانيين أنفسهم كانت تعوزهم المؤن لا سيما علف الخيل ، مما اضطرهم الى نقل مدفعية الميدان وجميع دواب الحمل — من جمال وخيل وحمير — الى رشيد • وقد رفع نقل الحمير من معنوية البريطانيين أكثر مما كان وصـول فرقة الممثلين سيرفع من معنـوية الفرنسـيين • يقول

البكباشي ولسن : « نقلت هذه الحمير وسط ابتهاج الجميع عدا أصحابها ٠ ولم تكن الموسيقى المنبعثة من ألف صوت على الأقل من أصواتها ، والمتصلة طوال الليل ، من الأشياء المستحبة » (٣٢) ٠ وقد يبدو هذا الحدث الصغير تافها ، ولكن ملكة القصد في العبـارة ، التى أوتيها السر روبرت ، جديرة بالثناء ٠

ولم تنقل الحمير الناهقة الا ليخلفها اشتداد قصف المدفعية المتبادل ، وهى موسيقى أكثر اتفاقا مع الروح الحربية ، ولكنها ليست أكثر جلبا للنوم ٠ وبعد عدة أسابيع من الضجيج والعجيج ، استقر رأى الجنرال مينو فى النهاية على أن الوقت قد حان للمفاوضة ٠ والواقع أن المراكز الفرنسية الخارجية ظلت فترة قبل ذلك تطمئن الانجليز ــ الذين كانوا متصلين بها اتصالا غير رسمى ــ الى أن القسم الذى أقسمه القائد الأعلى للفرنسيين بأنه يؤثر أن يدفن تحت خرائب الاسكندرية على أن يسلم ليس الا حديثا عابرا / وفى ٢٦ أغسطس وصل مبعوث فرنسى الى المعسكر الانجليزى ، وعرض الاتفاق على هدنة ثلاثة أيام للمفاوضة على شروط التسليم ٠ ومدت الهدنة ، وفى ٣٠ أغسطس دخل الجنرال هوب الاسكندرية ليوقع الشروط التى اتفق عليها ٠ ودعاه الجنرال مينو الى طعام قوامه لحم الخيل فقط ٠ وفى ٢ سبتمبر نزل الأميرال كيث الى البر ليصدق على المعاهدة ٠

كانت الشروط التى حصـل عليها الجنرال مينو هى بعينها التى حصـل عليها كليبر فى العريش قبل تسعة عشر شهرا ، وحصل عليها بليار فى القاهرة قبل شهرين ، وهى بعينها الشروط التى لم ين مينو عن نعتها بأنها شروط مخزية فظيعة ٠ والفرق أن مينو قبلها بعد أن قتل وشوه من رجال الفريقين عدد لا بأس به ــ وهو فرق يصور فكرته عن الشرف /

وكان ابرام أى اتفاق دون احتداد وجدل شيئا لا يستطيعه الجنرال مينو ٠ فما ان وقعت شروط التسليم حتى تبعها تراشق بالعبارات الجارحة بينه وبين الجنرال هتشنسن عن التصرف فى المجموعات التى يقتنيها العلماء ، وفى عدة آثار من بينها حجر رشيد الذى زعم مينو أنه ملك خاص له ٠ فأما هتشنسن فقد طالب بهذه الأشياء كلها بمقتضى المادة السادسة عشرة من معاهدة التسليم ٠ وأما مينو فكان على استعداد للتنازل عن مجموعات العلماء ٠ ولكن العلماء ، وعلى رأسهم جوفروا سانتيلير ، أعلنوا أنهم يؤثرون أن يتبعوا مجموعاتهم الى انجلترا عن أن يسلموا فيها ٠ ومنحهم مينو سؤلهم على كره ، كما يبـدو من خطابه المؤرخ ١٣ سبتمبر للجنرال هتشنسن ، وفيه يقول : « لقد أحطت علما بأن نفرا من أصحاب المجموعات يريدون أن يتبعوا ما جمعوا من حبوب ، ومعادن ، وطيور ، وفراشات ، وزواحف ، الى حيث تريدون شحن أقفاصها ٠ ولست أدرى هل يرغبون فى أن يحنطوا هم أنفسهم لهذا الغرض ، ولكنى أؤكد لك

أنني لن أمنعهم ان راقتهم الفكرة • وقد أذنت لهم بأن يخاطبوك في الأمر » (٣٣)• وسمح هتشنسن للعلماء بالاحتفاظ بمجموعاتهم ، ولكنه أصر على أخذ حجر رشيد ، فتخلى عنه مينو على كره ، وكتب له يقول : « انك تريده يا سيدى الجنرال ، ففي وسعك أن تأخذه ما دمت أقوانا••ولك أن تنقله متى شئت » (٣٤) واذا كان الشرف أهم خليقة عند مينو ، فان الكرامة لم تكن كذلك (*) •

ويقول السر روبرت ولسن انه في ١٤ سبتمبر ، سارت أول فرقة من الجنود الفرنسيين الى أبى قير وركبوا الناقلات وعليهم مظاهر الفرح (٣٥) • وتبعتها الوحدات الأخرى ومعها الجنرال مينو • أما زوجة مينو وابنه الصغير فقد استطاعا بعد رحلة محفوفة ببعض الخطر من رشيد الى القاهرة ، ومن القاهرة الى الاسكندرية ، أن يلحقا به أخيرا ويركبا البحر معه •

وبعد أسبوعين ، أى في أول أكتوبر ، وقع المفاوضون الفرنسيون والانجليز معاهدة صلح تمهيدية • وفي أول ديسمبر كتب بونابرت لمينو اثر عودته الى فرنسا : « أعلم أنه لو كان الأمر مرهونا بمشيئتك وبحبك لبلاد مصر الجميلة لاحتفظت الجمهورية بهذا الفتح • وقد كانت مقاومتك الطويلة في الاسكندرية ذات فائدة في المفاوضات » (٣٦) • وهذه العبارة وان قيلت بدافع العطف والعزاء ، الا أنها لا تضيف الا كذبة للأكاذيب الأخرى الكثيرة • فاذا كان هناك شيء جعل صلح لندن التمهيدى ممكنا ، فليس هو طول مقاومة مينو بالاسكندرية، بل انتهاؤها •

أفلح نابليون وهو يملى تاريخ الحملة المصرية ، بالتحايل على الاحصاءات ، أن يوهم الناس بأن خمسة أسداس الجيش الذى أخذه الى مصر عاد الى فرنسا حيا • وتفسير هذه النتيجة المدهشة التى انتهى اليها بسيط ، وهو أنه أسقط من حسابه الجنود البحريين والملاحين • أما الأرقام الصحيحة فتروى قصة غير قصته ان فسرت على الوجه الصحيح • كان لدى بونابرت في يوليو ١٧٩٨ أكثر قليلا من ٣٤ر٠٠٠ جندى برى ونحو ١٦ر٠٠٠ جندى بحرى وملاح في مصر • وفي سبتمبر ١٨٠١ كان نحو ٢١ر٥٠٠ جندى برى (منهم ٣ر٠٠٠ مريض أو جريح) في طريقهم الى أرض الوطن ، ولكن الجنود البحريين والملاحين البالغ عددهم ١٦ر٠٠٠ كانوا قد انكمشوا الى ١ر٨٦٦ • ومعنى هذا أنه لم يعد من جملة رجال الحملة الذين يزيدون على ٥٠ر٠٠٠ سوى ٢٣ر٠٠٠ أو أكثر قليلا ، بما فيهم ٣ر٠٠٠ مريض • ويمكن تفسير هذه المفارقة بأن عددا كبيرا من القوات

(*) في رواية الجنرال رينييه ومفهوم انها متحيزة ، ان مينو لم يصر على الاحتفاظ بالمجموعات الا بعد ان هدد العلماء باتلافها خيرا من تركها للبريطانيين • وليس هناك ما يؤيد هذه القصة غير المعقولة ، التى ينفيها السر روبرت ولسن على التحديد في تاريخه للحملة ، وكان رينييه بالطبع قد رحل عن الاسكندرية حين وقعت هذه الأحداث •

البحرية أدمج في وحدات الجيش بعد معركة أبى قير ، بل ان الخسائر فى الرجال يجب أن تقدر بزيادة عدة مئات على ما يستفاد من هذه الأرقام ، لأن مددا من قرابة ألف رجل وصل الى مصر فى فبراير ١٨٠١ ، ولأن عددا من المرضى والجرحى ماتوا فى طريقهم الى فرنسا (ومنهم المعلم يعقوب) • ثم ان عدة مئات من الجرحى نقلوا الى فرنسا قبل التسليم • فمع أنه من المستحيل وضع قائمة دقيقة بخسائر الفرنسيين ، الا أن في وسعنا أن نقول مطمئنين ان نصف رجال الحملة (بما فيها البحريون) هلكوا أثناء الحملة سواء فى ساحة القتال أن من المرض ، وأن عدة آلاف أخر فقدوا بصرهم أو أصيبوا بعجز بدنى •

وأيا كانت المكاسب التى اشتريت بهذا الثمن ، فانه لا صلة لها بالأهداف التى جردت الحملة لتحقيقها ، والتى فشلت فيها كلها •

كان الجنود والعجزة لا يزالون فى طريقهم الى فرنسا بفضل البحرية الانجليزية ، حين أسقط القنصل الأول للجمهورية الفرنسية مصر من حسابه باعتبارها خسارة ، ووجه نظره لمغانم أخرى على مائدة القمار • وفى ١٣ سبتمبر ١٨٠١ طلب الى وزير بحريته اعداد مذكرة عن مدغشقر • وفى ٢٣ أكتوبر عين صهره الجنرال لكلير قائدا أعلى للحملة على سانتو دومنجو • وفى ٨ نوفمبر وجه منشورا لسكان سانتو دومنجو بأسلوب أتقنه فى مصر ، فقال لهم : « تجمعوا تحت لواء الجنرال (لكلير) ••• وكل من يجرؤ على الخروج على دعوة القائد فهو خائن لوطنه وسيلتهمه غضب الجمهورية ، كما تلتهم النار حقول قصبكم فى فصل الجفاف » (٣٧) •

وهكذا طويت صفحة عميقة من تاريخ الاستعمار ، لتفتح صفحة أخرى • وكانت فظائع الحملة الدومنيكية وأهوالها ذيلا محترما لفظائع الحملة المصرية وأهوالها ، وفى وسعك أن تطبق الكلمات التى فاه بها نابليون فى سانت هيلانة على سبيل الرثاء على كلا المغامرتين لتصدق عليهما جميعا : « ان حملة سانتو دومنجو كانت حماقة كبرى ارتكبتها • ولو نجحت لما كان لها من نفع سوى اثراء أسر مثل نواى ولاروشفوكو فوق ثرائها » (٣٨) • وهذه الكلمات تجمل فى ايجاز ما أسفر عنه استعمار القرن التاسع عشر من نتائج •

٤

ما الذى حققته الحملة المصرية غير خسارة الأرواح ، والخراب ، والقسوة ؟ أما بونابرت فقد فتحت له الطريق الى السلطة • وأما فرنسا فلم تحقق لها النتائج المرجوة ، بل أفقدتها سيادتها فى الشرقين الأدنى والأوسط فأفادت بذلك انجلترا • وأما مصر فكانت الحملة ذات دلالة أبقى بالنسبة لها • فقد

تحطمت قوة المماليك رغم جهود البريطانيين فى ردهم الى سابق مكانتهم ، وبعد عشر سنوات أفلح محمد على فى التخلص منهم تماما بطريقة بسيطة ، هى ذبح من بقى منهم على قيد الحياة . وقد نفذ فى عهد محمد على وخلفائه كثير من المشروعات التى بدأ الفرنسيون بالتفكير فيها ليجعلوا من مصر بلدا عصريا ، وظل أثر الفرنسيين الثقافى والتكنولوجى ظاهرا الى اليوم . لقد حرك نابليون فى مصر ، كما فعل فى ايطاليا وألمانيا وأسبانيا ، قوى تعمل على التغيير رغم شدة جمود تقاليد الماضى .

ومن العبث اطالة الكلام فى جميع هذه النتائج التى أسفرت عنها الحملة ، وبعضها ايجابى ، رغم أنها نتائج لا تنكر . فمصر كـان مآلها الى التغير ، حتى ولو لم يظهر بونابرت قط فى سمائها ، وآيات الفن وروائعه فى الأقصر والكرنك كان مصيرها الى الكشف ، حتى ولو لم يزحف ديزيه قط الى الصعيد ، والرموز الهيروغليفية كانت ستفك ، حتى ولو لم يكشف حجر رشيد الا بعـد الحملة بسنوات ، وقناة السويس كانت ستحفر ، حتى ولو لم يأمر بونابرت بمسح برزخ السويس ، وفى المؤرخين ميل لتبين الخير فى كل شىء ، حتى فى الحروب العقيمة . صحيح ان كل شر يحمل فى ثناياه بعض الخير عرضا ، ولكن هذا لا يعنى دائما أن الشر ضرورى لجلب الخير .

وأدخل فى موضوعنا أن نعتبر الحملة المصرية أول محاولة أوربية كبرى لاستعمار البلاد التى أطلق عليها حديثا اسم « المناطق المتخلفة » . ولعلها كانت فريدة بين الحملات الاستعمارية كافة ، لا بسبب من شارك فيها من شخصيات فذة فحسب ، ولا بسبب مجال تخطيطها أو ما تثيره مغامرتها فى النفوس من انفعالات ، بل أهم من ذلك بسبب الجدية التى حاول بها بونابرت وخلفاه أن يحققا الاندماج بين الغرب العلمانى والشرق الاسلامى على قدم المساواة . فان محاولة كهذه لم تبذل منذ ذلك التاريخ .

فاذا نظرنا الى حملة بونابرت المصرية فى هذا السياق ، كنا أميـل الى التفكير فيما كانت تفضى اليه من نتائج لو نجحت ، عنا الى رميها بالعقم لأنها فشلت . والمجال يتسع لكثير من الجدل فى هذا الموضوع ، ولكن نطاق الفروض يضيق كلما بعدت نظرتنا . فلو أن فرنسا وطدت قدمها فى مصر كما وطدتها فى الجزائر بعد ذلك بثلاثين عاما لبدا هذا الحدث بالغ الأهمية والخطر لعقول أهل القرن التاسع عشر . ولكنه فى سنة ١٩٦٢ (*) يبدو أقل أهمية وخطرا . ذلك أن دول الاستعمار بعد أن ظلت تقتتل قرنا ونصف قرن على امتلاك العالم تصفى الآن امبراطورياتها طوعا أو كرها ، وهى تحاول التقارب من بعضها البعض فى أوربا تحت ضغط الظـروف أكثر من سلامة التفكير ، بعد أن عجزت عن

(*) تاريخ نشر الكتاب . (المترجم)

اقتسام الأرض فيما بينها • والخير الذى ينطوى عليه شر التاريخ الاستعمارى ، هو الرضى بالعمل المتعاون فى الداخل خيرا من الاقتتال فى الخارج • وأغلب الظن أن أثر عصر الاستعمار سيكون الاحساس به أبقى فى المستعمرات السابقة منه فى البلاد الاستعمارية : فان أهم نتيجة للتحكم والاستغلال كانت التحرر ، وهى نتيجة ملتوية لم يتوقعها الاستعمار • ولعل انهيار أحلام الاستعمار فى كل بلد فى العالم يبرر انهزامية كليبر التى ربما بدت لمعاصريه سياسة قصيرة النظر •

***

واذا كانت الآثار البعيدة المدى للحملة المصرية يشوبها قليل من الغموض وعدم اليقين ، فان نتائجها المباشرة على من بقى من أفرادها على قيد الحياة كانت واضحة أكيدة • فبعضهم أصيب بالعجز مدى الحياة ، وبعضهم ظفر بترقيات أو مكاسب مالية أو بكليهما ، وكثيرون منهم عاشوا مغامراتهم من جديد بكتابة مذكرات (مراعين فيها الصدق فى كثير أو قليل) ، أما العلماء فأنفقوا ربع القرن التالى يصفون كشوفهم ، وأما فيفان دينون فأصبح المدير الأول لمتحف اللوفر وأنشأ مجموعة المتحف المصرية ، وذبح الأتراك عددا من بكوات المماليك عقب تأمينهم اياهم مباشرة تقريبا ، وراح الباقون يقتتلون حتى ذبحهم الأتراك هم أيضا ، وقطعت رءوس بضع مئات من النساء المصريات عبرة لغيرهن لكى لا يسلكن مسلك الكفار ، أما المماليك والأقباط والسوريون الذين تبعوا الفرنسيين الى فرنسا وكانوا صالحين للخدمة العسكرية فتألف منهم « سلاح المماليك » وعاش الباقون منهم عيشة الضنك على رواتب ضئيلة •

ولكن أعجب واطرف من حياة هؤلاء حياة المئات من الفرنسيين الذين آثروا البقاء بمصر . ومعظمهم هاربون من الجيش • فكبير الصيادلة روايبه — وهو الذى أعطى الأفيون لمرضى الطاعون بيافا — فضل أن يمكث بمصر ، وانتهى به الأمر الى أن يصبح طبيبا لمحمد على • وجمع باشا القاهرة نحو ١٣٠ من الهاربين والمتخلفين ، وأسند اليهم مهمة تدريب المجندين الزنوج والنوبيين ليصبحوا حرسا للباشا (وهى فكرة أخذها عن الفرنسيين) • وأبلى هؤلاء الحرس الذين دربهم الفرنسيون بلاء حسنا فى سنة ١٨٠٣ حين قاتلوا عددا من أمراء المماليك المتمردين ، الذين كان لديهم هم أيضا نفر من الفرنسيين الهاربين ، لا سيما رجل يدعى سليم كومب ، وهو من أهالى أفنيون • أما سليم هذا ، الذى كان يدير مدفعية المماليك ، فقد عاون بعد ذلك الحملة الأمريكية الموجهة ضد قراصنة البربر فى درنة . وارتدى هو ورجاله الزى العسكرى الأمريكى • ولما دعا محمد على فى سنة ١٨١١ جميع ضباط المماليك الى مأدبة فى القلعة ليوقعهم فى الكمين الذى أعده لهم ، استثنى الفرنسيين من المذبحة ليلحقهم بحرسه • على أن أكثر من وفق فى حياته من الفرنسيين المتروكين فى مصر هو بلا ريب صبى طبال

من طولون قبض عليه البدو في سنة ١٧٩٩ وهو فى الثانية عشرة من عمره ٠ وباعه البدو الى والى طرابلس ، فارتقى فى خدمته باسم عبدالله ، واشترك فى فتح الأتراك لفزان ، وعين حاكما لاقليم صحراوى ، فأتاح له ذلك أن يدفع ضريبة سنوية فرضت على محصول التمر تبلغ ١٠٫٠٠٠ قرش أسبانى ٠

وأكبر الظن أن بولين فوريه ضربت الرقم القياسى فى طول العمر بين من ظلوا على قيد الحياة من أفراد الحملة المصرية ٠ وكانت قد أفلحت فى العودة الى فرنسا فى عام ١٨٠٠ ٠ ورفض بونابرت مقابلتها ، ولكنه أهداها قصرا قرب باريس ومنحا مالية متكررة ٠ وفى السنة التى عادت فيها الى فرنسا لقيت رجلا يدعى « هنرى دورانشو » فتزوجته ، وكان صاغا فى الجيش التركى ، فحصلت له على عدة وظائف قنصلية متواضعة ، أولا فى سانتاندر ، ثم قرطاجنة ، وأخيرا فى جوتنبرج ٠ ويبدو أن عواطف مدام دورانشو نحو زوجها الثانى لم تكن حارة ٠ فبينما كان مسيو دورانشو خاملا فى أسبانيا ، والسويد ، كانت تنفق أكثر وقتها فى باريس وتحيا على هواها ٠ فاحترفت الكتابة ، ونشرت رواية فى مجلدين سمتها « اللورد ونتوورث » ، وكذلك بدأت ترسم ٠ وهى تبدو فى صورتها التى رسمتها بريشتها تقطف أقحوانة ، وما زال فيها من الحسن ما يغرى بالحب ٠

ويروى نابليون فى ذكرياته بسانت هيلانه أنه قابل بولين مرة فى حفلة رقص تنكرية فى سنة ١٨١١ ٠ فذكرها بأنها كانت تسمى كليوبطرة فى مصر ، وتكلمت هى فى حرارة عن قيصر دون أن تتبين حقيقته — اذا صدقت شهادته ٠ ولكنها قصة بعيدة الاحتمال ٠ ومن المؤكد أن نابليون فى هذا العام نفسه أمر بأن يدفع لها ٦٠٫٠٠٠ فرنك من حصيلة ملاهى الدولة ، وأن مدام دورانشو ظلت من ١٨١٢ حتى اعتزال نابليون بعد ذلك بعامين تعيش منفية فى مدينة كرابون الصغيرة فى اللوار الأعلى ، وليس بعيدا أن نفترض أن الامبراطور رأى أنه دفع لها ما فيه الكفاية ٠ وكانت بولين تفجأ أهل كرابون بالجلوس علانية الى نافذتها تدخن قصبة ، وبالمشى مسافات طويلة وحدها مع كلبها ذى الشعر الحريرى الذى كانت تصحبه الى القداس فى كل أحد ٠

ويبدو أن سقوط نابليون لم يثر أى انفعالات شديدة فى نفس مدام دورانشو ، وكذلك عودته من البا واعتزاله الحكم لثانى مرة بعد المائة يوم ٠ ولم تكن تحب أن يذكرها أحد بمغامرتها فى مصر ، وكانت فى آرائها السياسية تؤيد بقوة لويس الثامن عشر بعد اعادته لعرشه ٠ ويبدو أنها بدأت حياة جديدة فى ١٨١٦ ، حين كانت فى منتصف عقدها الثالث ٠ فحصلت على حكم بالانفصال عن زوجها ، وباعت جميع أثاثها ورحلت الى البرازيل مع رجل يدعى جان — أوجست بيلار ، وهو ضابط سابق فى الحرس الامبراطورى ، وأشيع أنها كانت

ترجو الاتصال بعشيقها القديم على صخرته المهجورة فى المحيط الأطلنطى الجنوبى، وربما مساعدته على الهروب . ولكن لم يكن شيء أبعد من هذا عن أفكارها . ذلك ان هدفها من الذهاب الى البرازيل حسبما تشير كل الشواهد كان تجاريا بحتا : فقد أخذت معها بضائع فرنسية باعتها فى البرازيل ، واشترت بحصيلتها أخشابا ثمينة عادت بها الى فرنسا . وأخذت تروح وتغدو بين فرنسا والبرازيل وهى تشتغل بهذه التجارة الرابحة حتى ١٨٣٧ ، حين استقرت فى باريس مع مجموعة من القردة والببغاوات تركتها تسرح وتمرح فى مسكنها بكامل حريتها .

وكان نابليون قد ودع الحياة منذ ستة عشر عاما ، أمام مدام دورانشو فكانت لا تزال تفيض حيوية . وكتبت قصة تاريخية أخرى « نبيلة ريفية من القرن الثانى عشر » لم تثر كقصتها السابقة اهتماما يذكر ، وكانت ترسم ، وتعزف على القيثار عزفا لذيذا . كذلك كونت لها لفيفا من الأصدقاء ، منهم الرسامة روزا بونير التى كانت تحب ارتداء ثياب الرجال . وظلت تحتفظ بقواها العقلية سليمة طوال الأعوام الاثنين والعشرين التالية . وجلب الملك لويس فيليب جثمان عشيقها السابق من سانت هيلانه الى فرنسا ، وقلبت حكومة الملك لويس فيليب ، وأصبح ابن أخى عشيقها القديم امبراطورا باسم نابليون الثالث ، وراح يحلم بامبراطورية فى الشرق كما حلم عمه قبل نصف قرن . ولكنه لم يقد حملة حربية على مصر ، بل حصل لفرنسا على حقوق تحكمت بها فى قناة السويس التى كان يجرى شقها . وأخيرا افتتح الخديو اسماعيل ، سليل محمد على ، القناة فى ١٨٦٩ . وحقق الماليون والمهندسون ما حاول الجنرال بونابرت تحقيقه من قبل فى كثير من التعجل بقوة السلاح . فى تلك السنة ماتت بولين دورانشو بعد أن شارفت نهاية عقدها التاسع ، ولو مد فى أجلها عام آخر لشهدت انهيار الامبراطورية النابليونية الثانية ، ولأطلت على قرن كامل من التاريخ .

هوامش الكتاب

الفصل الأول

(١) مذكرات نقولا الترك ص ٧ · Nicolas Turc, p. 9.
(٢) Institut d'Egypte, I, 86.
(٣) Bourrienne, I, 230
(٤) Ibid., I, 221.
(٥) Gourgaud, II, 56.
(٦) Las Cases, II, 381.
(٧) Rémusat, 1, 274.
(٨) Belliard, Histoire, III, 43-44.
(٩) Tott, II, 44-45.
(١٠) Charles-Roux, Origines, p. 88
(١١) Ibid., p. 49.
(١٢) Ibid., p. 113.
(١٣) Correspondance, III, 235.
(١٤) Ibid.
(١٥) Wordsworth, «On the Extinction of The Venetian Republic» in Poetical Works, III (Oxford, 1954), 111.
(١٦) Rémusat, I, 267.
(١٧) Correspondance, XXIX, 429.
(١٨) Ibid., XXIX, 430.
(١٩) Ibid., XXX 231.
(٢٠) Guerrini, p. 52.
(٢١) Bourrienne, I, 233.
(٢٢) Belliard, Histoire, IV, 70.
(٢٣) Vigo — Roussillon, p. 587.
(٢٤) Wheeler and Broadley, I, 121.
(٢٥) Ibid., I, 129.
(٢٦) Ibid., I, 122.
(٢٧) Ibid., I, 132.

(٢٨) Bath Chronicle, May 3, 1798.
(٢٩) Warner, p. 45.
(٣٠) Ibid., p. 75.

الفصـــل الثانى

(١) Warner, p. 58.
(٢) Correspondance, XXIX, 370.
(٣) Ibid, XXIX, 369.
(٤) Cavaliero, p. 223.
(٥) Correspondance, IV, 133.
(٦) François, I, 184.
(٧) Bourrienne, Vol. I, Ch. v.
(٨) Desveronis, p. 97.
(٩) Correspondance, IV, 147
(١٠) Ibid., IV, 174.
(١١) Ibid., IV, 176.
(١٢) Nelson, III, 31.
(١٣) Warner, pp. 57-58.
(١٤) Nelson, III, 43.
(١٥) Ibid., III, 47.
(١٦) Lichtenberger, p. 270.
(١٧) Bourrienne, I, 250.
(١٨) Aubry,: Monge, p. 240.
(١٩) Correspondance de l'armée française, pp. 112-13.
(٢٠) Vertray, p. 35.
(٢١) Denon, I, 7.
(٢٢) Ibid., I, 5.
(٢٣) Correspondance inédite, officielle et confidentielle : Egypte, I, 155.
(٢٤) Correspondance, IV, 182-83.
(٢٥) Correspondance de larmée française, p. 53.
(٢٦) مذكرات نقولا الترك ص ٦ . Nicholas Turc, p. 8.
(٢٧) Denon, I, 20.
(٢٨) Ibid., I, 21.
(٢٩) Bourrienne, 1, 258.
(٣٠) Correspondance, IV, 190.
(٣١) Ibid.

(٣٢) Thurman, p. 27.
(٣٣) Vertray, p. 30.
(٣٤) مذكرات نقولا الترك ص ٧ . Nicholas Turc, p. 9.
(٣٥) مذكرات نقولا الترك ص ١٥ . Ibid., p. 24.
(٣٦) تاريخ الجبرتى (الجزء الثالث من الطبعة الشرقية) ص ٣ . El-Djabarti, VI, 7.

الفصــل الثالث

(١) مذكرات نقولا الترك ص ١١ . Nicolas Turc, p. 13.
(٢) مذكرات نقولا الترك ص ١٢ . Ibid., p. 19.
(٣) مذكرات نقولا الترك ص ١٢ . Ibid.
(٤) Vertray, p. 64.
(٥) تاريخ الجبرتى ص ٦ . El-Djabarti, VI, 13.
(٦) تاريخ الجبرتى ص ٦ . Ibid., VI , 13-14.
(٧) نقولا الترك ص ٦ . Ibid., VI, 15.
(٨) Desvernois, p. 100.
(٩) Correspondance, IV, 216.
(١٠) Correspondance de l'armée française, p. 158.
(١١) Millet, p. 44.
(١٢) Correspondance de l'armée française, p. 28.
(١٣) Ibid., p. 29.
(١٤) تاريخ الجبرتى ص ٤ ، ٥ . Correspondance, IV 921-92 ; Nicolas Turc, pp. 10-12.
(١٥) Correspondance de l'armée française, p. 40.
(١٦) Las Cases, I, 504.
(١٧) Gourgaud, II, 261-62.
(١٨) Correspondance inédite, officielle et confidentielle : Egypte, I, 212.
(١٩) Correspondance de l'armée française, p. 25.
(٢٠) Correspondance, IV, 217.
(٢١) Correspondance de L'armée française, pp. 9, 10.
(٢٢) Millet, p. 45.
(٢٣) Correspondance de l'armée française, p. 8.
(٢٤) Thurman, p. 89.
(٢٥) Denan, I, 27.
(٢٦) Ibid., I, 28.
(٢٧) Ibid., I, 29.

(٢٨) Ibid., I, 33.
(٢٩) Bourienne, I, 261.
(٣٠) Correspondance inédite, officielle et confidentielle : Egypte, I, 102-3.
(٣١) Ibid., p. 211.
(٣٢) Ibid., p. 213.
(٣٣) Ibid., pp. 216-17.
(٣٤) Vertray, p. 32.
(٣٥) Ibid., p. 37.
(٣٦) François, I, 195.
(٣٧) Desvernois, pp. 107-8.
(٣٨) Correspondance, XXIX, 438.
(٣٩) Desvernois, p. 105.
(٤٠) Correspondance inédite, officielle et confidentielle : Egypte, I, 219.
(٤١) Vertray, pp.38-40.
(٤٢) Correspondance XXIX, 460.
(٤٣) Ibid., IV, 201.
(٤٤) La Jonquière, II, 125.
(٤٥) Ibid., II, 131.
(٤٦) Millet, p. 50.
(٤٧) Vertray, p. 42.
(٤٨) Ibid., p. 44.
(٤٩) Correspondance XXIX, 439.
(٥٠) La Jonquière, II, 135.
(٥١) Desvernois, p. 110.
(٥٢) Correspondance, XXIX, 446.
(٥٣) Las Cases, I, 131-32.
(٥٤) Bourrienne, I, 268-69.
(٥٥) La Jonquière, II, 144.
(٥٦) Desvernois, p. 108
(٥٧) Vertray, p. 48.
(٥٨) Ibid., pp. 48-49.
(٥٩) Ibid., 50-51.
(٦٠) Desvernois p. 118.
(٦١) Ibid., p. 116.
(٦٢) Bourrienne, I, 271.

(٦٣) مذكرات نقولا الترك ص ١٣ · Nicolas Turc, p. 22.
(٦٤) Correspondance de l'armée française, pp. 62-63
(٦٥) Bourrienne, I, 272.
(٦٦) مذكرات نقولا الترك ص ١٣ · Nicolas Turc, p. 22
(٦٧) Vertray, p. 55.
(٦٨) François, I, 202.
(٦٩) La Jonquière, II, 162.
(٧٠) François, I, 203.
(٧١) La Jonquière II, 162.
(٧٢) Ibid., II, 170.
(٧٣) Correspondance, XXIX, 450.
(٧٤) Vertray pp. 57-59.
(٧٥) Desevernois, p. 124.
(٧٦) Millet, p. 52.
(٧٧) مذكرات نقولا الترك ص ١٤ · Nicolas Turc, p. 2
(٧٨) تاريخ الجبرتي ص ٨ وما يليها · El Djabarti, VI, 16 f.
(٧٩) مذكرات نقولا الترك ص ١٤ ، ١٥ · Nicolas Turc, pp. 23-24.
(٨٠) تاريخ الجبرتي ص ١٠ · El Djabarti, VI, 20.
(٨١) Correspondance, XXIX, 451.
(٨٢) مذكرات نقولا الترك ص ١٤ · Nicolas Turc, p. 24
(٨٣) Malus, p. 65.
(٨٤) Correspondance, IV, 252.
(٨٥) Du Casse, Mémoires du roi Joseph, I, 188.
(٨٦) Ibid.
(٦٧) Correspondance de l'armée française, p. 3.

الفصل الرابع

(١) La Jonquière, II, 124.
(٢) Ibid., II, 246.
(٣) Correspondance, IV, 262.
(٤) La Jonquière, II, 86.
Correspondance de l'armée française, pp. 46-47.
(٦) La jonquière, II, 94, 95.
(٧) Warner, pp. 166-67
(٨) Bourrienne, I, 296
(٩) Correspondance, IV, 361
(١٠) Warner, p. 166.

Ibid., p. 101. (١١)
Nicol, p. 187. (١٢)
Ibid., p. 189. (١٣)
La Jonquière, II, 399. (١٤)
Warner, p. 82. (١٥)
La Jonquiére, II, 400-401 (١٦)
Lee, p. 90. (١٧)
Ibid., p. 91. (١٨)
Warner, p. 110. (١٩)
Ibid., p. 94. (٢٠)
La Jonquière, II, 425. (٢١)
Correspondance de l'armée française, p. 2[illegible] (٢٢)
Correspondance, XXIX, 469 (٢٣)
Ibid., XIXX, 469-70. (٢٤)
La Jonquièe, III, 425. (٢٥)
Correspondance, IV, 362. (٢٦)
Ibid., XXIX, 471. (٢٧)
Warner, p. 140. (٢٨)
Ibid., p. 92. (٢٩)
Nelson, III, 56. (٣٠)
Nicol, pp. 186-87. (٣١)
Ibid., p. 188. (٣٢)
Warner, p. 145. (٣٣)
Nelson, III, 125. (٣٤)
Warner, p. 141. (٣٥)
Correspondance, XXIX, 458. (٣٧)
Nelson, III, 95. (٣٦)
La Jonquière, II, 600. (٣٨)
Ibid., II, 602. (٣٩)
Ibid., II, 600. (٤٠)
Ibid., II, 603. (٤١)
Ibid., II. 607-8. (٤٢)
Ibid., III, 232. (٤٣)
Ibid., III, 233. (٤٤)

(١) Correspondance, IV, 252.
(٢) Charles Roux, Bonaparte, p. 254.
(٣) Ibid., p. 256.
(٤) Denon, I, 82
(٥) Correspondance, IV, 273.
(٦) La Jonquière, II, 468-69.
(٧) Ibid., III, 114.
(٨) Ibid, III, 61-62.
(٩) Correspondance, IV, 475.
(١٠) Ibid , IV, 286.
(١١) تاريخ الجبرتي ص ١٢ . El-Djabarti, VI, 26-27.
(١٢) Correspondance, V, 574.
(١٣) تاريخ الجبرتي ص ١٨ . El-Djabarti, VI, 36.
(١٤) Belliard, Histoire, cited in Ivray, p. 33.
(١٥) Correspondance, V, 574.
(١٦) Pelet, p. 223.
(١٧) Correspondance, III, 24.
(١٨) Ibid., IV, 420.
(١٩) Ibid., IV, 243-44.
(٢٠) مذكرات نقولا الترك ص ١٨ .
Nicolas Turc, cited in La Jonquière, II, 474-75.
(٢١) La Jonquière, III, 398-99
(٢٢) Correspondance, V, 203.
(٢٣) مذكرات نقولا الترك ص ٣ . Nicolas Turc, p. 5.
(٢٤) Ivray, p. 19.
(٢٥) Courrier de l'Egypte, 12 Fructidor, Year VI.
(٢٦) La Jonquière, II, 481.
(٢٧) Ibid., II, 481-82.
(٢٨) Cited in Malus, p. 90.
(٢٩) Correspondance, IV, 283.
(٣٠) تاريخ الجبرتي ص ١٧ . El-Djabarti, VI, 36
(٣١) Bourrienne, II, 167.
(٣٢) Courrier de L'Egypte, 6 Vendémiaire, Year VII.
(٣٣) Ibid.
(٣٤) تاريخ الجبرتي ص ١٩ . El-Djabarti, VI, 40.

(٣٥) Correspondance, V. 1.

(٣٦) تاريخ الجبرتي ص ١٩ . El-Djabarti, VI, 40.

(٣٧) Ibid., VI, 69.

(٣٨) Ibid., VI, 86.

(٣٩) Malus, p. 92.

(٤٠) François, I, 213.

(٤١) Ibid.

(٤٢) Correspondance de l'Armée Française, pp. 98-102.

(٤٣) Vertray, p. 63.

(٤٤) تاريخ الجبرتي ص ١١ . El-Djabarti, VI, 23.

(٤٥) La Jonquière, III, 91.

(٤٦) تاريخ الجبرتي ص ١٢ . El-Djabarti, VI, 26.

(٤٧) تاريخ الجبرتي ص ٤٢ . Ibid., VI, 86.

(٤٨) Correspondance de l'armée française, pp. 157-58.

(٤٩) تاريخ الجبرتي ص ١٧١ . El-Djabarti, VI, 306.

(٥٠) Ibid., VI, 304-5.

(٥١) Charles-Roux, Bonaparte, p. 258.

(٥٢) Millet, p. 53.

(٥٣) La Jonquière, III, 163-65.

(٥٤) Ibid., V. 251.

(٥٥) Belliard, Histoire, IV, 113-15

(٥٦) La Jonquière, III, 49.

(٥٧) تاريخ الجبرتي ص ٤٥ . El-Djabarti, VI, 92.

(٥٨) تاريخ الجبرتي ص ٤٦ . Ibid., VI, 93.

(٥٩) Correspondance, V, 224.

(٦٠) Courrier de l'Egypte, 18 Frimaire, Year VII.

(٦١) Vertray, p. 68.

الفصل السادس

(١) Jollois, p. 50.

(٢) La Jonquière, III, 80.

(٣) Charles-Roux, Bonaparte, p. 144

(٤) Ibid., p. 137.

(٥) La Jonquière, II, 454.

(٦) Aubry, Monge, p. 256.

(٧) Charles - Roux, Bonaparte, p. 219.

(٨) Ibid., p. 159.
(٩) Ibid., p. 225.
(١٠) تاريخ الجبرتى ص ٣٥ ـ ٣٦ · El-Djabarti, VI, 70-71
(١١) Correspondance, XXIV, 493.
(١٢) تاريخ الجبرتى ص ٣٤ ـ ٣٥ · El-Djabarti, VI, 70-71.
(١٣) Charles-Roux, Bonaparte, p. 163.
(١٤) Ibid., p. 364.
(١٥) Ibid., p. 163.
(١٦) La Jonquière, III, 692.
(١٧) Ibid., p. 164.
(١٨) Correspondance, XXIX, 427.
(١٩) Ibid., V. 32.
(٢٠) تاريخ الجبرتى ص ٢٤ · El-Djabarti, VI, 50.
(٢١) تاريخ الجبرتى ص ٢٤ · Ibid., VI. 51.
(٢٢) تاريخ الجبرتى ص ٢٥ · Ibid., VI, 54.
(٢٣) تاريخ الجبرتى ص ٢٦ · Ibid., VI, 55.
(٢٤) Correspondance, III, 367.
(٢٥) Stael, p. 373. See also Marquiset, p. 71, and Pelet, p. 223.
(٢٦) Correspondance, V., 574.
(٢٧) Ibid., XXIX, 478.
(٢٨) Ibid., XXIX, 479.
(٢٩) Ibid., XXIX, 481.
(٣٠) Ibid., XXIX, 481-82
(٣١) Ibid., XXIX, 482-83.
(٣٢) Gourgaud, II, 151.
(٣٣) Correspondance, [illegible] 64.
(٣٤) Gourgaud, II, 435-36.
(٣٥) Caulaincourt, I, 315.
(٣٦) Charles-Roux, Bonaparte, p. 73
(٣٧) Ibid., p. 74.
(٣٨) Ibid., p. 73.
(٣٩) La Jonquière, III, 81.
(٤٠) Ibid., III, 92.
(٤١) Ibid., III, 91.
(٤٢) Correspondance, IV, 448-49.
(٤٣) Correspondance inédite, officielle et confidentiele, Egypte, II, 75-76.

(٤٤) La Jonquière, III, 92-93.

(٤٥) Correspondance, V, 30-31.

(٤٦) مذكرات نقولا الترك ص ٣٠ Nicolas Turc, p. 43.

(٤٧) مذكرات نقولا الترك ص ٣١ . Ibid., p. 45.

(٤٨) مذكرات نقولا الترك ص ٢٧ . Ibid., p. 40.

(٤٩) Martin, I, 243.

(٥٠) Charles-Roux, Bonaparte, p. 198.

(٥١) تاريخ الجبرتي ص ١٨ . El-Djabarti, VI, 39.

(٥٢) مذكرات نقولا الترك ص ٢٨ ، ٢٩ . Nicolas Turc, p. 41.

(٥٣) تاريخ الجبرتي ص ٣٢ . El-Djabarti, VI, 66.

(٥٤) Denon, I, 105-6.

(٥٥) Aubry, Monge, p. 257.

(٥٦) La Jonquière, III, 281.

(٥٧) Correspondance, V, 88.

(٥٨) تاريخ الجبرتي ص ٢٧ . El-Djabarti, VI, 56-57.

(٥٩) تاريخ الجبرتي ص ٢٧ . Ibid. VI, 57.

(٦٠) Vertray, p. 86.

(٦١) Correspondance, XXIX, 502-3.

(٦٢) Rémusat, I, 279.

(٦٣) Correspondance, V, 89-90.

(٦٤) Ibid., XXIX, 502.

(٦٥) تاريخ الجبرتي El-Djabarti, VI, 58-59.

(٦٦) تاريخ الجبرتي ص Ibid., VI, 122-23.

(٦٧) Denon, I, 107.

(٦٨) Ibid., I, 108.

(٦٩) Correspondance, V, 96.

(٧٠) Ibid., V, 221-22.

(٧١) تاريخ الجبرتي ص ٢٩ . El-Djabarti, VI, 79-80.

(٧٢) تاريخ الجبرتي ص ٣٨ . Ibid., VI, 78.

(٧٣) Ivray, pp. 79-80.

الفصل السابع

(١) Masson and Biagi II, 277.

(٢) Rémusat, I, 267.

(٣) Napoléon I, Lettres / Joséphine, pp. 24-25.

(٤) Ibid., pp. 31-33.

(٥) Masson, Napoléon, p. 44.
(٦) Napoléon I, Lettres / Joséphine, PP. 44-45.
(٧) Ibid., pp. 46-47.
(٨) Maurois, p. 22.
(٩) Damas Hinard, p. 21.
(١٠) Gourgaud, II, 170.
(١١) تاريخ الجبرتي ص ٢٠٢ . El-Djabarti, VII, 44.
(١٢) Masson Napoléon, p. 60.
(١٣) Bourrienne, Vol. II, CH. xi.
(١٤) مذكرات نقولا الترك ص ٢٧ . Nicolas Turc, p. 39.
(١٥) مذكرات نقولا الترك ص ٢٧ . Ibid., p. 40.
(١٦) Correspondance inédite, officielle et confidentielle : Egypte, II, 105.
(١٧) Las Cases, I, 409.
(١٨) O'Meara, II, 82.
(١٩) Correspondance, V, 239.
(٢٠) Desegenettes, Souvenirs, III. 202, cited in La Jonquière, IV, 28.
(٢١) Correspondance, V, 282.
(٢٢) O'Meara, II, 82.
(٢٣) Millet, pp. 61-62.
(٢٤) Thurman, p. 74.
(٢٥) La Jonquière, IV, 38.
(٢٦) Ibid., IV, 39.
(٢٧) Ibid., IV, 40.
(٢٨) Ibid., IV, 41.
(٢٩) Desgenettes, Histoire Médicale, I, 33.
(٣٠) La Jonquière, IV, 33.
(٣١) Ibid., IV, 34.
(٣٢) Correspondance, V, 192.
(٣٣) Ibid., V, 470.
(٣٤) Ibid., V, 490.
(٣٥) Correspondance inédite, officielle et confidentielle : Egypte, II, 88.
(٣٦) Correspondance, V, 491.

(٣٧) La Jonquière III, 387.

(٣٨) Gourgaud, I. 305-6.

(٣٩) Bourrienne, Vol. II, Ch. xiv.

(٤٠) Correspondance, V, 41.

(٤١) Ibid., V, 42 .

(٤٢) La Jonquière, III, 266-68

(٤٣) Correspondance, V. 148.

(٤٤) Ibid., V, 213.

(٤٥) La Jonquière, III, 444.

(٤٦) تاريخ الجبرتى ص ٨١ . El-Djabarti, VI, 81.

(٤٧) La Jonquière, IV, 63.

(٤٨) Correspondance, V, 240.

(٤٩) La Jonquière, IV, 63.

(٥٠) Ibid., IV, 18.

الفصل الثامن

(١) Sauzet, p. 18.

(٢) Ibid., p. 131.

(٣) Ibid., p. 132.

(٤) Ibid., p. 144.

(٥) O'Meara, I, 153-54.

(٦) Sauzet, p. 188.

(٧) Ibid., pp. 245-246.

(٨) تاريخ الجبرتى ص ١٧٦ . El-Djabarti, 314.

(٩) تاريخ الجبرتى ص ١٧٩ . Ibid., VI, 318.

(١٠) Denon, I, 118.

(١١) La Jonquière, III, 206.

(١٢) Ibid., III, 213.

(١٣) Denon, I, 127.

(١٤) La Jonquière. III, 212.

(١٥) Ibid.

(١٦) Ibid., III, 224-25.

(١٧) Desvernois, p. 153.

(١٨) Ibid., p. 154.

(١٩) Ibid., p. 138.

(٢٠) Denon, I, 92.

(٢١) Ibid., I, 98.

Ibid., I, 71-72. (٢٢)
Ibid., I, 117. (٢٣)
La Jonquière, III, 506-7. (٢٤)
Ibid., III, 509. (٢٥)
Denon, I, 252-53. (٢٦)
La Jonquière, III, 51, 2. (٢٧)
Denon, I, 159, 158. (٢٨)
Correspondance, V, 71. (٢٩)
La Jonquière, III, 515. (٣٠)
Ibid., III, 513. (٣١)
Denon, I, 163 f. (٣٢)
Ibid., I, 165. (٣٣)
La Jonquière, III, 517. (٣٤)
Desvernois, p. 162. (٣٥)
La Jonquière, III, 531. (٣٦)
Ibid., III, 607. (٣٧)
Denon, I, 138. (٣٨)
Ibid., I, 147. (٣٩)
Ibid., I, 153. (٤٠)
Ibid., I, 172-73. (٤١)
Ibid., I, 182. (٤٢)
Ibid., I, 178 ff. (٤٣)
Ibid., I, 183. (٤٤)
Ibid., I, 184. (٤٥)
Desvernois, p. 169. (٤٦)
Denon, I, 186. (٤٧)
La Jonquière, III, 539. (٤٨)
Ibid., III, 566. (٤٩)
Ibid., III, 578. (٥٠)
Ibid., III, 592-93. (٥١)
Denon, I, 205. (٥٢)
Ibid., I, 206. (٥٣)
La Jonquière, III, 547. (٥٤)
Denon, I, 219. (٥٥)
La Jonquière, III, 545-46. (٥٦)
Denon, I, 238 (٥٧)

(٥٨) La Jonquière, III, 598.
(٥٩) Denon, I, 240.
(٦٠) La Jonquière, III, 598.
(٦١) Ibid., III, 608.
Ibid.
(٦٣) Ibid., III, 610.
(٦٤) Desvrnois, p. 186.
(٦٥) La Jonquière, 111, 644.
(٦٦) Charles-Roux : Bonaparte, p. 341.
(٦٧) Ibid., p. 340.
(٦٨) La Jonquière, III, 664.
(٦٩) Ibid., III, 665.
(٧٠) Ibid., III, 673.
(٧١) Denon, I, 301.
(٧٢) Ibid, I, 310.
(٧٣) مذكرات نقولا الترك ص ٣١ . Nicolas Turc., p. 48.

الفصل التاسع

(١) Correspondance, XXX, 6.
(٢) تاريخ الجبرتى ص ٤٦ ، ٤٧ . El-Djabarti, VI, 94.
(٣) Correspondance, V. 278.
(٤) Ibid., XXX, 14.
(٥) Ségur, I, 251.
(٦) Bourrienne, Vol. II, Ch. XII
(٧) Correspondance, XXX, 14.
(٨) Ibid., V, 311.
(٩) La Jonquière, IV, 180.
(١٠) Ibid., IV, 118.
(١١) Staël, p. 436.
(١٢) La Jonquière, IV, 166.
(١٣) Correspondance, XXX, 17.
(١٤) Malus, p. 119.
(١٥) La Jonquière, IV, 195.
(١٦) Ibid., IV, 203.
(١٧) Mallus, p. 122.
(١٨) Ibid, p. 124.

(١٩) تاريخ الجبرتي ص ٥٠ . El-Djabarti, VI, 100.

(٢٠) Correspondance, V. 334.

(٢١) La Jonquière, IV, 237.

(٢٢) Degenettes, Histoire Médicale, I, 45.

(٢٣) La Jonquière, IV, 248.

(٢٤) Ibid., IV, 263-64.

(٢٥) Malus, p. 135.

(٢٦) Correspondance, XXX, 27 ,

(٢٧) Bourrienne, Vol. II, Ch. XV.

(٢٨) La Jonquière IV, 270.

(٢٩) Ibid., IV, 271-72.

(٣٠) Correspondance, II, 195.

(٣١) Ibid., V, 352.

(٣٢) Ibid., V. 355.

(٣٣) La Jonquière, IV, 284.

(٣٤) Desgenettes, Souvenirs, III, 221, cited in La Jonquière, IV, 284.

(٣٥) La Jonquière, IV, 285.

(٣٦) Correspondance, VI, 4.

(٣٧) Malus, p. 142.

(٣٨) Ibid., pp. 140-43 passim.

(٣٩) Tott, II, 97.

(٤٠) La Jonquière, IV, 315.

(٤١) Ibid., IV, 649.

(٤٢) Correspondance, V, 373.

(٤٣) La Jonquière, IV, 320.

(٤٤) Desgenettes, Histoire Médicale, I, 81.

(٤٥) Ibid., I, 86.

(٤٦) Ibid., I, 88.

(٤٧) La Jonquière, IV, 315.

(٤٨) Ibid, IV, 336.

(٤٩) Miot, p. 164.

(٥٠) Cited in La Jonquière, IV, 343.

(٥١) Miot p. 176.

(٥٢) Ibid., pp. 177-78.

(٥٣) Misset, p. 104.

(٥٤) Lavalette, I, 311.
(٥٥) مذكرات نقولا الترك ص ٤١ . Nicolas Turc, p. 57
(٥٦) Millet, p. 105.
(٥٧) Lavallette, I, 312.
(٥٨) Desgenettes, Souvenirs, III, 237, cited in La Jonquière, IV, 423.
(٥٩) Lavallette, I, 312.
(٦٠) Desgenettes, Souvenirs, III, 237, cited in La Jonquière, IV, 425.
(٦١) Ibid., Ibid.
(٦٢) Correspondance, XXX, 36-37.
(٦٣) Ibid., V, 405
(٦٤) La Jonquière, IV, 453.
(٦٥) Villiers du Terrage, p. 184.
(٦٦) Belliard, Histoire, III, 345.
(٦٧) Bourrienne, Vol. II, Ch. xv.
(٦٨) Barrow, I, 291.
(٦٩) La Jonquière, IV, 496.
(٧٠) Ibid., IV, 497.
(٧١) Ibid., IV, 632-33.
(٧٢) Ibid., IV, 528.
(٧٣) Correspondance, V, 202.
(٧٤) La Jonquière, IV, 519.
(٧٥) Desgenettes, Souvenirs, III, 256, cited in La Jonquière, IV, 555.
(٧٦) تاريخ الجبرتي ص ٧١ . Correspondance, V, 428.
(٧٧) Ibid., V, 429-30.
(٧٨) La Jonquière, IV, 539.
(٧٩) Ibid., IV, 543-44.
(٨٠) Barrow, I, 307.
(٨١) La Jonquière, IV, 548.
(٨٢) Bourrienne, Vol. II, Ch. XVI.
(٨٣) Ibid.
(٨٤) Correspondance, V, 436.
(٨٥) Barrow, I, 311-12.
(٨٦) Correspondance, V, 440.

(٨٧) Bourrienne, Vol. II, Ch. XVI.
(٨٨) La Jonquière, IV, 577.
(٨٩) Barrow, I, 313.
(٩٠) Ibid, I, 312.
(٩١) Vigo-Roussillon, p. 608.
(٩٢) La Jonquière, IV, 596.
(٩٣) Richardot, Nouveaux Mémoires, p. 178.
(٩٤) La Jonquière, IV, 609.
(٩٥) Ibid., IV, 625.
(٩٦) Ibid., IV, 625-26.

الفصل العاشر

(١) La Jonquière, IV, 634.
(٢) Bourrienne, Vol. II, Ch. XIII.
(٣) مذكرات نقولا الترك ص ٤٩ . Nicolas Turc, p. 65.
(٤) La Jonquière, V. 51.
(٥) Ibid., V, 87.
(٦) Masson and Biagi, II, 19.
(٧) La Jonquière, V, 231.
(٨) Ibid.
(٩) Ibid., V, 233.
(١٠) Victoires, conquêtes, X, 313.
(١١) Staël, p. 334.
(١٢) La Jonquière, V, 406 n ; Correspondance, Vol. V, Nos. 4323 and 4334 ; Barrow, I, 364, 373 ; Rousseau, 82.
(١٣) La Jonquière, V, 405.
(١٤) Correspondance, V, 537, 541.
(١٥) François, I, 359.
(١٦) Barrow, I, 364.
(١٧) Ibid
(١٨) مذكرات نقولا الترك ص ٦٠ . Niolas Turc, p. 78.
(١٩) Roederer, pp. 212-240.
(٢٠) La Jonquière, V. 166.
(٢١) Ibid., V, 576.
(٢٢) Correspondance, V, 565.
(٢٣) Jomard, p. 54.
(٢٤) Roustam, p. 35.

(٢٥) Ibid, p. 43.
(٢٦) Correspondance, V, 569.
(٢٧) Ollivier, p. 131.
(٢٨) Ibid., p. 124.
(٢٩) Ibid., p. 130.
(٣٠) Ibid., p. 137.
(٣١) Gohier, I, 199.
(٣٢) Ollivier, j. 152.
(٣٣) Nicolas Turc, p. 120.
(٣٤) Barras, IV, 29.
(٣٥) Ollivier, p. 156.
(٣٦) Jung, I, 295.
(٣٧) Correspondance, VI, i.
(٣٨) Bourrienne, Vol. III, Ch. VII.
(٣٩) Correspondance, VI, 4.
(٤٠) Bourrienne, Vol. Ch VII.
(٤١) Ollivier, p. 215.
(٤٢) Ibid., p. 218.
(٤٣) Ibid., p. 220.
(٤٤) Ibid,. p. 224.
(٤٥) Ibid., p. 214.
(٤٦) Correspondance, V, 575.
(٤٧) La Revellière-Lépaux, II, 348.
(٤٨) Correspondance, XXX 84-93
(٤٩) Ibid., V, 577.
(٥٠) Rousseau, p. 80.
(٥١) Correspondance, V. 577.
(٥٢) Rousseau, p. 8.
(٥٣) تاريخ الجبرتي ص ٨٣ . El-Djabarti, VI, 154
(٥٤) Denon, I, 351.
(٥٥) Rousseau, p. 70.
(٥٦) Ibid., p. 78.
(٥٧) Ibid.
(٥٨) Ibid., p. 80.
(٥٩) Ibid., p. 59.
(٦٠) Ibid., p. 102.

(٦١) Ibid., p. 104.

(٦٢) Barrow, I, 380, 385, 387.

(٦٣) مذكرات نقولا الترك ص ٦٦ . Nicolas Turc, p. 86.

(٦٤) Rousseau, pp. 197, 198

(٦٥) François, I, 284.

(٦٦) Rousseau, p. 231.

(٦٧) Ibid., p. 233.

(٦٨) Ibid., p. 226.

(٦٩) Barrow, I, 348-85.

(٧٠) Ibid., II, 55, 51.

(٧١) Rousseau, pp. 238-39.

(٧٢) Barrow, II, 22.

(٧٣) مذكرات نقولا الترك ص ٧٨ Nicolas Turc, p. 97.

(٧٤) Rouseau, p. 299.

(٧٥) Ibid., pp. 301-2.

(٧٦) مذكرات نقولا الترك ص ٨٧ Nicolas Turc, p. 107.

(٧٧) تاريخ الجبرتي ص ١٠٦ El-Djabarti, VI, 193-94.

(٧٨) Ibid., VI, 194.

(٧٩) Correspondance, XXX, 125.

(٨٠) Sauzet, pp. 267-168.

(٨١) Ibid., p. 268.

(٨٢) Correspondance, VI, 273.

(٨٣) تاريخ الجبرتي ص ١٢٧ . El-Djabarti, VI, 231.

الفصل الحادى عشر

(١) Sauzet, pp. 289, 290

(٢) Ibid., p. 296.

(٢) Ibid., p. 308.

(٤) Ibid., p. 309.

(٥) François, I, 430.

(٦) تاريخ الجبرتي ص ١٢٤ . El-Djabarti, VI, 227.

(٧) تاريخ الجبرتي ص ١٢٢ . Ibid., VI., 223-24.

(٨) Rousseau, p. 195.

(٩) La Jonquière, V, 15.

(١٠) Ibid., V, 662-63.

(١١) Rousseau, p. 394.

(١٢) تاريخ الجبرتي ص ١٤٢ . El-Djabarti, VI, 255.

(١٣) تاريخ الجبرتي ص ١٨٩ . Ibid., VII, 13.

(١٤) Correspondance, VII, 40

(١٥) Ibid., VII, 48.

(١٦) Ibid., VII, 50.

(١٧) Moore, II, 2.

(١٨) Ibid., II, 16.

(١٩) Wilson, I, 62-63.

(٢٠) Ibid., I, 87.

(٢١) تاريخ الجبرتي ص ١٥٦ . El-Djabarti, VI, 281.

(٢٢) Malus, p. 218.

(٢٣) Ibid., pp. 218-219.

(٢٤) Wilson, I, 230.

(٢٥) تاريخ الجبرتي ص ١٥٩ . El-Djabarti, VII, 29.

(٢٦) Wilson, I, 236.

(٢٧) Rousseau, p. 408.

(٢٨) Wilson, II, 203, 205.

(٢٩) Rousseau, pp. 412-13.

(٣٠) Correspondance, VII, 203.

(٣١) Rousseau, p. 410.

(٣٢) Wilson, II, 15.

(٣٣) Rousseau, p. 427.

(٣٤) Ibid., p. 424.

(٣٥) Wilson., II, 174.

(٣٦) Correspondance, VII, 346.

(٣٧) Ibid., VII, 315.

(٣٨) Gourgaud, I, 402.

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المؤلف	٩
الفصل الأول: طولون	١١
الفصل الثانى: إلى الأسكندرية	٥٠
الفصل الثالث: إلى الأهرام	٧٥
الفصل الرابع: خليج أبو قير	١١٤
الفصل الخامس: سياسة التعايش السلمى	١٤٨
الفصل السادس: المجمع العلمى والأزهر	١٧٨
الفصل السابع: الغازى بين الترويح والتكدير	٢١٥
الفصل الثامن: إلى الشلالات	٢٣٩
الفصل التاسع: الجزارون فى الأرض المقدسة	٢٧٨
الفصل العاشر: اله الحرب واله الحظ	٣٢٦
الفصل الحادى عشر: أباطيل الموت	٣٧٨
هوامش الكتاب	٤٠٧



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية. وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لألىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى، تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

جنيهان

القراءة للجميع
مهرجان صيف ٩٨
جمعية الرعاية المتكاملة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب